

# تاريخ مصر

في عهد الخديو اسماعيل باشا  
من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩

المجلد الأول

لواضعه

إلياس الأيوبي





# تاريخ مصر

في عهد الخديو إسماعيل باشا  
من سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٧٩

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مندوبولي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مندوبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج ٢ ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١



صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑧

# تَارِيخُ مِصْرَ

فِي عَهْدِ الْخَدْيَوِاسِ مَاعِيْلِ بَاشَا  
مِنْ سَنَةِ ١٨٦٣ إِلَى سَنَةِ ١٨٧٩

لِوَاضِعِهِ

إِلْيَاسُ الْإِيُوبِي

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

مَكْتَبَةُ مَدْبُورِي  
الْقَاهِرَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# فهرست

## المجلد الأول

(الأرقام الموضوعة بجانبها علامة نجمة هكذا : \* موجودة بأعلى الصفحات)

صفحة	
* ١٩	تقدمة الكتاب
* ٢٥	رأى اللجنة العلمية في الكتاب
* ٢٧	نص الخطاب المرسل من الجمع العلمي المصري الى المؤلف
* ٢٩	مقدمة الكتاب
* ٣٣	شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته
* ٣٥	بيان أهم مصادر الكتاب
* ٤١	تمهيد
١	الجزء الأول — السحر
٢	الفصل الأول — وفاة محمد سعيد باشا
	مشمولات :
٢	عود سعيد باشا
٤	يسى بك والمستخلم والبشرى
٦	اعلان موت محمد سعيد باشا وارتقاء اسماعيل العرش
٨	الفصل الثاني — الأمير اسماعيل
	مشمولات :
٨	نشأة اسماعيل وتربيته — نعا به الى ثيبتا فالى باريس

## فهرست المجلد الأول

صفحة

- عودته الى مصر — موت أبيه... ٩ ... ..
- موت جده محمد علي — النزاع بين عباس وباقي الأمراء — اتهام  
اسماعيل بقتل خادمه ... ١١ ... ..
- تسوية الخلاف — قتل عباس وعودة اسماعيل... ١٢ ... ..
- إيفاده الى أوروبا من لندن سعيد بمهمة سرية ... ١٣ ... ..
- كارثة كفر الزيات ... ١٤ ... ..
- قائمة اسماعيل الأولى ... ١٥ ... ..
- والثانية — سردياته للجيش المصري — انحداد فتنة القبائل النائرة  
على حدود السودان ... ١٦ ... ..
- الفصل الثالث — سمو الوالى اسماعيل باشا ... ١٧ ... ..
- مشمولات :
- وصف اسماعيل لدى ارتقائه العرش ... ١٧ ... ..
- مراميه ... ١٩ ... ..
- فتنة الاسكندرية — انحدادها ... ٢٠ ... ..
- الجزء الثانى — بزوغ الشمس... ٢١ ... ..
- الفصل الأول — إيقاف الآمال... ٢٢ ... ..
- مشمولات :
- السفر الى الأستانة لتقليد الإمارة ... ٢٢ ... ..
- خطبة الجلوس ... ٢٣ ... ..
- تهدة المخاوف على مشروع القتال ... ٢٤ ... ..

## فهرست المجلد الاول

ملحة

الفصل الثانى — زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية ... .. ٢٦

مشمولات :

سفر السلطان ... .. ٢٧

الوصول الى الاسكندرية... .. ٢٨

مسامرة بين السلطان واسماعيل ... .. ٣٠

جولة فى الاسكندرية ... .. ٣١

وفود المهتمين بوصول السلطان سالمًا — زيارة للسراى نمرة ٣ —

السفر الى مصر ... .. ٣٢

حكاية نساء الريف وسعيد باشا ... .. ٣٤

حكاية الأتقى محافظ القاهرة ومقتل عباس ... .. ٣٥

الوصول الى مصر ... .. ٣٧

نزول السلطان فى سراى القلعة... .. ٣٨

صلاة الجمعة فى مسجد محمد على بالقلعة — استقبال وفود المهتمين بالقلعة ٤٠

مقابلة وفد العلماء للسلطان... .. ٤١

لطيفة للشيخ العدوى ... .. ٤٢

حفلة العمل ... .. ٤٣

حكاية المملوك الذى نجا من مجزة أول مارس سنة ١٨١١ ... .. ٤٤

زيارة السلطان لشبرا ... .. ٤٦

— زيارة للتحف المصرى يوم "شم النسيم" ... .. ٤٨

زيارة للأهرام ... .. ٤٩

العود الى الاسكندرية ... .. ٥١

القيام الى الأستانة ... .. ٥٢

## فهرست المجلد الاول

صفحة	
٥٣	هواجس وعبر ... ..
٥٧	الجزء الثالث — رابعة النهار ... ..
	العمل على تحقيق الخطة المرسومة :
٥٨	الباب الأول — (تحقيق الشطر الأول منها) ، اجمال ... ..
٦٠	الفصل الأول — اصلاح الادارة ... ..
	مشمولات :
٦٠	تقسيمات مصر الادارية سابقا ... ..
٦٤	الاصلاحات التي أدخلها اسماعيل على الادارة ... ..
	انشاء وزارة زراعة — ادخال نظام هيئات نيابية على المديریات —
٦٦	تعيين مديرين من أبناء البلاد ... ..
٦٧	حكاية جابر بك مديربنى سويف وقواصه التركي ... ..
٦٨	انشاء مجلس نيابى ... ..
٧٤	الفصل الثانى — توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات ... ..
	مشمولات :
٧٤	صيرورة الأرض المصرية برمتها الى محمد على ... ..
٧٥	اصلاحات ابراهيم باشا الزراعية ... ..
٧٧	الاعتناء بوسائل الرى فى عهد محمد على ... ..
٧٩	توسيع نطاق المواصلات فى عهد محمد على ... ..
٨٢	أول سكة حديدية بمصر ... ..
٨٣	اصلاحات سعيد الاجرائية ... ..
٨٤	اسقاط المتأخرات ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
تطهير المصودية	٨٥
انشاء الخط الحديدي ما بين القاهرة والسويس — انشاء اسماعيل	
مساحة الأطنان المترعة قطنا	٨٦
تمليك الفلاحين الأطنان البائرة التي كانوا يزرعونها	٨٧
استخدام آلات رافعة — تطهير الترع — حفظ الجسور — انشاء	
مجالس زراعة	٨٨
انشاء وزارة زراعة	٨٩
التوسع في تعميم وسائل الري — ترعة الابراهيمية	٩٠
ترعة الاسماعيليه	٩١
إنجاز القناطر الخيرية — إنشاء ترع عديدة	٩٣
ازدياد الآلات الرافعة ازديادا عظيما — انشاء الجارى — زيادة	
الأطنان الصالحة للزراعة — تحسين طرق المواصلات	٩٤
تعميم السكك الحديدية في القطر	٩٥
اصلاح ادارة السكك الحديدية — حكاية ناظر محطة طنطا	
والمسافرين الانجليز	٩٦
حكاية التاجر اليوناني الوديع	٩٨
الإقدام على انشاء سكك حديدية في السودان	٩٩
إقامة الأسلاك البرقية وإنشاء مكاتب لها	١٠٠
المواصلات البريدية	١٠٤
شراء مصلحة البريد — كليار باشا	١٠٥

## فهرست المجلد الاول

صفحة

تعديل طريقة ربط الضرائب وتوزيعها	١٠٧
سوء طريقة تحصيل الضرائب	١٠٩
مساعدة الفلاحة المصرية بالمسال	١١٠
تضحية اسماعيل بمصالحه في سبيل اتقاذ مصالح الفلاحين من الخراب	١١١
الفصل الثالث — فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل	١١٣
مشمولات :	
إطلاق التجارة من عقالاتها	١١٣
المرأة التاجرة الزفة الملابس — انشاء الشركة الميمنية لللاحة	١١٥
انشاء شركة الجز	١١٦
انشاء عدة شركات مساهمة	١١٨
تصليح ميناءى السويس والاسكندرية وتوسيعهما	١١٩
انشاء الموانئ البحرية	١٢٢
إحياء الصناعة والفن	١٢٤
عمل محمد علي في ذلك	١٢٥
نظام الحرف	١٢٦
عمل اسماعيل	١٢٧
معامل السكر — معامل النسيج	١٢٨
مصانع المعادن — مصانع الطوب — الدباغة	١٢٩
صناعة الفخار — معامل الزجاج — معامل الورق	١٣٠
تحسين المطبعة الأميرية — انشاء الحرف	١٣١
معامل التفرغ — معامل القطن	١٣٢



## فهرست المجلد الأول

صفحة	العمل فى مناجم الزمرد ومناجم أخرى — استخراج التطرون ،
١٣٣	والنترات ، والملح ... ..
١٣٤	رواج صيد الإسماك والملاحة ... ..
١٣٥	— الاشغال الهندسية — العمار والعمارات ... ..
١٣٦	عمار الاسكندرية — عمل محمد على ... ..
١٣٧	عمل ابراهيم ... ..
	عمل اسماعيل — توسيع الشوارع وتبليطها — توسيع الحارات —
١٣٩	إنشاء حدائق وأحياء جديدة — إنشاء متنزهات ... ..
١٤٠	الانارة بالغاز — إنشاء البلدية — تجاوز العمار الأسوار والأبواب القديمة
١٤١	زيادة عدد السكان — إقامة تمثال محمد على — عمار مصر ... ..
١٤٢	عمل محمد على — تحويل الأوبىكية الى متفرع عام ... ..
١٤٣	عمل ابراهيم ... ..
١٤٤	تقليبات الأوبىكية ... ..
	تعذر الاستقاء فى القاهرة بالرغم من قربها الى النيل — سعى محمد على
١٤٦	لجلب مياه النيل الى القاهرة ... ..
	عدم نجاحه — عمل عباس الأول فى السبيل عينه — عمل سعيد
١٤٧	فى السبيل عينه ... ..
	وصف شوارع القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن
١٤٨	التاسع عشر ... ..
	— عمل اسماعيل فى تحسين القاهرة — إزالة أكوام الأبنار — تسميم
١٤٩	الكفس والرش ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة

- اختطاط شوارع جديدة - تحويل الأوبكية الى ما هي عليه الآن ... ١٥٠
- انشاء أحياء جديدة ... ١٥١
- اختطاط شوارع جديدة أخرى - انشاء سراى عابدين ... ١٥٢
- انشاء كوبرى قصر النيل - انشاء كوبرى الانجليز - انشاء القصور  
المدينة، والمساجد - اقتناء الكبراء بالحديد - توزيع الماء على  
أحياء مصر القاهرة ... ١٥٣
- تحسين النظافة والصيانة - إنارة أحياء مصر وشوارعها بالغاز ... ١٥٤
- الواردات - الصادرات ... ١٥٥
- الجمارك والضرائب على بعض المهن كانت تعطى التزاما - إلغاء سعيد  
عموم الجمارك الداخلية والدخليات - خلل مصلحة الجمارك ... ١٥٧
- حكاية غريبة ... ١٥٨
- اصلاح ادارة الجمارك في عهد اسماعيل ... ١٥٩
- الفصل الرابع - إحياء مالية القطر ... ١٦٠
- مشمولات :
- حالة المالية النعمة لنبي وفاة سعيد ... ١٦٠
- نكتتان لسعيد ... ١٦٢
- الحالات على المالية ... ١٦٣
- اصلاح اسماعيل الحالة السيئة ... ١٦٤
- زيادة رواتب الموظفين ... ١٦٥
- مصادر الإيرادات ... ١٦٦

## فهرست المجلد الأول

صفحة

الفصل الخامس — انتعاش التعليم والحركة الفكرية ... .. ١٦٩

مشمولات :

حال التعليم قبل محمد علي ... .. ١٦٩

المدرسة الأولى سنة ١٨١٦ ... .. ١٧٠

انشاء مدرسة الطب سنة ١٨٢٥ — أول بعثة الى فرنسا ... .. ١٧١

أول مجلس المعارف ... .. ١٧٢

الأمل في تشييد دولة عربية جديدة — التوسع في تعليم أبناء القطر المصري ١٧٣

المدارس الابتدائية ... .. ١٧٤

المدارس الثانوية والعالية والخصوصية ... .. ١٧٥

إقفال المدارس ... .. ١٧٦

التساعّد بالأزهريين ... .. ١٧٧

الاضطرار الى التربية والتعليم على نفقة الحكومة ... .. ١٧٨

رغائب ابراهيم باشا — حديث السيوجومار ... .. ١٧٩

تعديل طريقة ارسال البعثات العلمية — انشاء مدرسة مصرية بباريس ١٨٠

أخذ السلطان فواد الأول برأى جده ابراهيم ... .. ١٨١

انحراف عباس الأول عن رأى ابراهيم ... .. ١٨٢

قلة ميل سعيد الى تعليم أبناء البلاد ... .. ١٨٣

اهتمامه بالمدارس الأجنبية، وبالتعليم العسكرى ... .. ١٨٤

ميدان العمل أمام اسماعيل — تقسيم حركة التعليم في أيامه ... .. ١٨٦

مدارس الحكومة ... .. ١٨٧

لألمحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ ... .. ١٩٠

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
مضار مبدأ المجانية المطلقة...	١٩٥
مدارس الأوقاف — المدارس الفردية...	٢٠٣
أول مدرسة مصرية للبنات ...	٢٠٤
مدارس الأقباط الأورثوذكس ...	٢١٠
مدارس الأقباط الكاثوليك — مدارس الروم الأورثوذكس...	٢١٣
مدارس الروم الكاثوليك — مدارس الأرمن ...	٢١٤
مدارس اليهود ...	٢١٥
المدارس الغربية ...	٢١٦
الارمانيات المدرسية ...	٢٢٨
حكاية ما وقع لبعض العائدين من طلبة الارمانيات العلمية الى أوروبا	
مع عباس الأول ...	٢٣٠
نهضة في المعارف والأفكار — مظاهر هذه النهضة...	٢٣٢
المظهر الرسمي — مدرسة الاجيتولوجيا ...	٢٣٣
للمتحف المصري ...	٢٣٤
لطيفة لموميا فرعونية ...	٢٣٧
خزير ماريت ...	٢٣٨
ماريت وليك ...	٢٣٩
المكتبة الخديوية...	٢٤١
دار الآثار العربية...	٢٤٢
تنشيط الصحافة والجمعيات العلمية والخيرية والأدب والعلم ...	٢٤٣

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
٢٤٦	مظهر النهضة الفردى
٢٥٤	مظهر النهضة الاجتماعية
٢٥٨	الفصل السادس — التنويرات التى أدخلت على الحياة الاجتماعية المصرية
	مشتملات :
	جهود اسماعيل لتغيير القوى الفكرية ومجارى التقدير المتبادل بين
٢٥٩	الفرسين والمصريين
٢٦٩	تغيير العقلية بواسطة الاصلاح اداريا وقضائيا
	استبداد الادارة فى الماضى — حكاية مدير الدقهلية وقريب أحد
٢٧١	محاسب عباس الأول
٢٧٢	الافتقار وانظر القسم والفلاح
٢٧٣	ضابط القاهرة والتركى زوج المرأة الحسنة
٢٧٩	تغيير العقلية متريلا
٢٨٤	تغيير العقلية سياسيا
٢٨٥	تغيير العقلية اجتماعيا
٢٨٧	احترام الحقبة قديما
٢٨٨	شيخ البلد والقروى
٢٨٩	مهزار محمد على
٢٩١	الملاحى الحديثة — الكوميديا
٢٩٢	الأوبرا
٢٩٣	حكاية فيلي النقاد المسرحى
٢٩٥	المراقص — الليالى الراقصة

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
السيارات ... ..	٢٩٦
تقلم حلوان ... ..	٢٩٨
إبطال النخاسة والرق ... ..	٢٩٩
الرق في الاسلام ... ..	٣٠٠
نشوء النخاسة - الرق في المسيحية ... ..	٣٠١
الرق في البلاد المسيحية غيره في الاسلام - نشوء الرغبة في إبطال الرق ... ..	٣٠٢
إبطال النخاسة ... ..	٣٠٣
تحرير الأرقاء في عموم الممتلكات البريطانية - اقتناء الدول الغربية	
بريطانيا العظمى ... ..	٣٠٤
تحول الجهود لإبطال الرق في العالم الاسلامى ... ..	٣٠٥
انضمام اسماعيل الى الحركة التحريرية ... ..	٣١٠
مهمة بيكر باشا ... ..	٣١٩
مهمة الكولونيل جوردون ... ..	٣٢٠
معاهدة ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ القاضية بإبطال الرق ... ..	٣٢١
الفواهر خلاف الحقيقة ... ..	٣٢٣
الباب الثانى - تحقيق الشطر الثانى (أى السعى الى الفوز بالاستقلال التام	
للبلاد) . اجمال ... ..	٣٢٤
الفصل الأول - ازالة القيد الأول (قيد ما كان جائزا على حقوق العرش	
المصرى فى الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس العالمية من محمد سعيد باشا) ... ..	٣٢٥
مشمولات :	
نبذة فى تاريخ ترعة السويس قديما ... ..	٣٢٥

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
نبذة في تاريخ ثورة السويس حديثا	٣٢٧ ... ..
ماتينه دى لسيوس ومحمد على — فرديند دى لسيوس ومحمد سعيد ...	٣٢٩ ... ..
بلخنة سنة ١٨٤٦ ... ..	٣٣٢ ... ..
مفاتحة دى لسيوس الأمير سعيد في شأن فتح ثورة السويس ...	٣٣٣ ... ..
الامتيار — أول اكتاب ... ..	٣٣٥ ... ..
السى الى نيل تصديق السلطان العثماني على الامتيار — مقاومة المجتار	
للشروع ... ..	٣٣٩ ... ..
تعضيد محمد سعيد لى لسيوس ... ..	٣٤١ ... ..
الاكتاب العام ... ..	٣٤٧ ... ..
البلد في العمل ... ..	٣٤٨ ... ..
اطلاع اسماعيل على حقيقة تعهدات سلفه وامتناعه ... ..	٣٥٢ ... ..
بلد النزاع بين اسماعيل ودى لسيوس ... ..	٣٥٤ ... ..
النضال بين دى لسيوس ونوبار ... ..	٣٦٠ ... ..
سوق نوبار الى عمكة جنح السين ... ..	٣٦١ ... ..
وليمة ١١ فبراير سنة ١٨٦٤ ... ..	٣٦٢ ... ..
تحكيم نابليون الثالث — حكم نابليون الثالث ... ..	٣٦٤ ... ..
التسوية النهائية ... ..	٣٦٧ ... ..
الفصل الثاني — ازالة القيد الثاني (قيد السيادة العثمانية ، بما يتبعها من	
تضييقات مذلة ، وإلزامات مصغرة ، وتوريث بالأرشدية الخ) ...	٣٦٩ ... ..
مشمولات :	
فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ . ... ..	٣٦٩ ... ..

## فهرست المجلد الأول

صفحة	
٣٧٠ ... ..	القيود الاثنا عشر...
٣٧٤ ... ..	فرمانا أول يونيه و ٢٠ يوليه سنة ١٨٤١ — تصديق الدول عليهما
٣٧٥ ... ..	عمل اسماعيل على ازالة تلك القيود — تحويل مجارى الوراثة ...
٣٨٤ ... ..	العمل على تغيير لقب "والى" بـ لقب "شمر بيلال" مركز صاحب مصر
٣٨٦ ... ..	الاتفاق على لقب "خديو" ... ..
٣٨٧ ... ..	الامتيازات التى أوجبها هذا اللقب ... ..
٣٩١ ... ..	السعى الى الاستقلال والوسائل التى اتخذت لذلك ... ..
٣٩٣ ... ..	اشترك مصر فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ... ..
٣٩٤ ... ..	قسم المعرض المصرى ... ..
٣٩٨ ... ..	لطيفة لاسماعيل أثناء زيارته لباريس ... ..
٣٩٩ ... ..	مقارنة بين اسماعيل و فليوم الثانى امبراطور المانيا ... ..
٤٠٣ ... ..	الاستقلال دون السلطان العثمانى بالقيام بحفلات ترمه السويس ...
٤٠٤ ... ..	مكيه ... ..
٤٠٦ ... ..	إنحداد روج تمرد فى الجند المصرى ... ..
٤٠٧ ... ..	مولد الملك (فؤاد) ... ..
٤٠٨ ... ..	سفر الخديو الى أوروبا لاستدعاء عواهلها الى حفلات ترمه السويس
٤١٠ ... ..	النزاع مع تركيا ... ..
٤١٨ ... ..	مجيء الامبراطورة أوجينى الى القطار المصرى — تمهيد الطريق الى الأهرام
٤١٩ ... ..	رحلة الامبراطورة الى الصعيد ... ..
٤٢٠ ... ..	بدء الحفلات بافتتاح ترمه السويس ... ..
٤٢٦ ... ..	سادة لطورس باشا وهو طفل ... ..



## فهرست المجلد الأول

إشادات سوء	٤٣٠
مرقص الاسماعيلية	٤٣٧
نيابة سفير بريطانيا العظمى عن سلطان تركيا	٤٤٤
عود الى النزاع بين مصر وتركيا	٤٤٥
سفر اسماعيل الى الأستانة	٤٥٠
فرمان سنة ١٨٧٢	٤٥٥
فرمان سنة ١٨٧٣	٤٥٧
الفصل الثالث — إزالة القيد الثالث (قيد الامتيازات الأجنبية القضائية)	٤٦١
مشمولات :	
نبذة في تاريخ الامتيازات الأجنبية	٤٦١
التجاوزات	٤٦٣
لطيفة لسيو تركو	٤٦٧
مذكرة فوبار في سنة ١٨٦٧	٤٧٠
المشروع لا يتال حظوة لدى الحكومة الفرنسية	٤٧٢
» » » » » العثمانية	٤٧٣
مساعي فوبار	٤٧٥
اجتماع لجنة الدولية بمصر	٤٧٦
تقريرها الموافق	٤٨٩
لجنة بياريس لتحص المشروع — موافقة المجلدا — تشكيل لجنة	
ايطالية بفلوراسا	٤٩١

## فهرست المجلد الأول

رفض تركيا — موافقة روسيا وبروسيا والولايات المتحدة على الاصلاح	صفحة
القضائي ... ..	٤٩٢
مدول الباب العالى عن الرفض ... ..	٤٩٣
نتيجة أبحاث اللجنة الفرنسية ... ..	٤٩٤
طبع القوانين المختلطة وتوزيعها ... ..	٤٩٦
الحرب السبعينية — توقف المغارات — حود الى المغارات ... ..	٤٩٧
مراوغة الباب العالى ... ..	٤٩٩
سفر اسماعيل الى الأستانة — زول تركيا عن إصرارها ... ..	٥٠٢
اجتماع سفراء الدول ... ..	٥٠٣
لجنة الأستانة ... ..	٥٠٥
تصديق بريطانيا العظمى وإيطاليا على الاصلاح نهائيا ... ..	٥٠٩
تصديق الدولة العلية — استمرار فرنسا على المعارضة ... ..	٥١٠
تصديق النمسا والولايات المتحدة النهائى ... ..	٥١١
مقاومة فرنسا المقاومة الأخيرة ... ..	٥١٣
تقرير لجنة محكمة إكس ... ..	٥١٦
حفلة استقبال القضاة الأول ... ..	٥١٧
استمرار فرنسا على ممانعتها ... ..	٥١٨
تهديد الحكومة المصرية بإلغاء محكى التجارة بمصر والاسكندرية ... ..	٥١٩
موافقة فرنسا بعد التى والتيا — افتتاح الحاكم المختلطة ... ..	٥٢١
بلوغ الأوج ... ..	٥٢٢
تقرير العمل بالتاريخ الفرضوى ... ..	٥٢٣

## تقدّمه للكاتب

الى حضرة صاحب الجلالة قواد الأول ملك مصر

” نور ساطع ظهر حديثا في سماء الشرق “

«إدون دى ليون»

مولاي، هذه جملة حقة وصف بها المؤرخ إدون دى ليون والدك الجليل وكان يعرفه عن كثب، إذ كان على عهد قنصلا جنرالا لجمهورية الولايات المتحدة بالقطر المصرى .

ولا يسع المرء، اذا أجال الطرف فيما كانت عليه مصر يوم ارتقى (اسماعيل) عرشهم وما وصلت اليه من حضارة وتقدم يوم اعتزاله الأريكة الخديوية، إلا أن يعترف بأن إدون دى ليون السياسى المؤرخ لم يقل إلا الحقيقة الواقعة . فقد احتل (اسماعيل) أريكة مصر والبلاد لم تخلص بعد من ظلمات القرون الوسطى التى حاول جدكم الأكبر (محمد على) أن يتخلّص منها، خلال الأجل بينه وبين انعام عمله، فوفقت مشروعاته الجليلة، وتمطت أنظمة العدل، وكادت تفوق آثار العلم، وتنبو جنوة التطور الذى بدت بشأته في سبيل المدنية . أضف الى ذلك صعبا : منها ما نشأ عن امتياز قناة السويس الذى منحه (سعيد باشا) للشركة المعروفة، فقد كان يلزم مصر بتعهدات من شأنها أن تمس سيادتها في جزء كبير من أراضيها، ومنها ما اشتملت عليه الفرمانات الصادرة في سنة ١٨٤١ من نصوص تجعل تابعة مصر للدولة العثمانية

## خدمة الكلاب

في حالة أقل ما توصف بها أنها غير مرضية ، وأنها تعرض البلاد لطوارئ ليست في الحسبان ، كما أن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لرمايا الدول الأجنبية في مصر كانت حملا ثقيلا على عاتق المصريين ، اضطرت لها العدالة ، وتعددت بسببها السلطات المختلفة في البلد الواحد ، حتى كانت النظم الداخلية مختلفة معتلة .

أما في الخارج فكانت مصر مفقودة المكانة لا يعرفها على حقيقتها إلا النزر القليل ، ويظن أكثر العالم المتمدنين أنها لا تمتاز عن بقية بلاد أفريقيا التي لا تزال تعيش عيشة همجية .

تلك كانت حال البلاد . ولكن بعد أن تولى (اسماعيل) العرش ست عشرة سنة ونصف السنة أصبحت لمصر حكومة منسقة تسبق الأنظمة المتبعة في أرق البلدان الأوروبية ، من حيث نظامها النيابي والإداري والسياسي .

وزادت مساحة أرضها المزروعة نيفا وألف ألف فدان ؛ وتهتم الري فيها تقدما عظيما ؛ فشقت الترع التي لا يحصر صدها ولا تجحد فوائدها ، نذكر منها ترصق إبراهيمية والإسماعيلية ؛ وشيدت القناطر العديدة ؛ وأقيم من الكبارى نحو أربع مائة على النهر الأعظم وفروعه : منها كوبرى قصر النيل الفخيم ، وكوبرى الانجليز ؛ وأُنشئت الطرق الزراعية المترامية الأطراف في أنحاء البلاد ؛ وامتد السكك الحديدية ، والأسلاك البرقية على أبدع وضع حتى بلغت ديار السودان ؛ وأُنشئت المواصلات البريدية ؛ وأصلح توزيع الضرائب على أرباب الأطنان ، وأُنشئت شركات الملاحة وضمها من شركات المساهمة ؛ وأصبحت موانئ الاسكندرية وبورسعيد والسويس ،

## تقدمة الكتاب

وهي أهم ثغور القطر، تضارع أحسن موانئ السواحل الأوروبية والبحر الأبيض المتوسط عملا وحركة، كما نصبت المنارات الجميلة على طول الشاطئ المصرى حتى سواحل المحيط الهندى .

أما الفنون والمهن والحرف على تباينها ، والصناعات على اختلاف أنواعها ، فقد انتعشت انتعاشا عظيما ؛ ونشطت المشروطات العامة نشاطا جديدا ؛ وظهرت مدن القطر بمظهر غير مظهرها الأول ، وعلى الأخص مدينتا الاسكندرية والقاهرة بعد أن رصفت طرقهما وأضيئت بمصابيح الغاز ووزعت بهما المياه بطريقة محكمة ، وأوجد فيها نظام خاص للكنس والرش ، وقد غرست فيها الحدائق الفناء ، وأنشئت الميادين والمتنزهات الفسيحة الجميلة على طراز حدائق باريس ومتنزهاتها وساحات السباق ، وازدادت بهاؤها بالمباني الفخمة ، مثل بناء الأوبرا ، ودور التمثيل الأخرى ، وما أحدثت فيها من الأحياء الجديدة على النسق الأوروبي ، وما شيد من القصور والمساجد التى تضاهى أبعد ما أتتج فرق البناء من عهد المماليك .

وقد زاد عمار البلاد فى هذه الفترة وبنيت عدة مدن جديدة ، أهمها الاسماعيلية وحلوان ؛ واتخذت فى هذا العهد جميع الوسائل اللازمة لحفظ الصحة العامة فى القطر : فأعيد تنظيم الإدارة الخاصة بها ، وأصبحت البلاد ، على قدر المستطاع ، فى مأمن من خوائل الأوبئة والوفادات ؛ وقد نهضت فى التجارة روح جد زادت بها الواردات وضوعفت الصادرات حتى بلغت أربعة أضعاف ما كانت عليه من قبل ؛ وألنى الالتزام الخاص بالجمارك ، ونظمت إدارتها أحسن تنظيم .

أما التعليم فحدث عنه ولا حرج ، لأنه دفع الى الامام دفعة كان من شأنها أن  
أنشئت المدارس على اختلاف أنواعها في جميع الانحاء : منها مدارس الفتيات  
ومدارس العميان ومدارس الخدمات التي انفردت مصر دون الشرق كله بإيجادها ؛  
وزودت المدارس الخاصة والأجنبية بالتشجيع ، وربت لها الاعانات ، وقضت  
من الهبات الجيلة الشيء الكثير ؛ وظلت البعثات المدرسية للبلدان الخارجية تتوالى  
ويتسع نطاقها ؛ وصارت العربية لغة رسمية في مصالح الحكومة والمدارس الأميرية  
بدل اللغة التركية .

كل هذا أدى الى اتساع دائرة العلوم والمعارف والآداب الاجتماعية : فنبغ في مصر  
فطاحل الكلب ، ونطس الأطباء ، ورجال الصحافة الأكفاء ، والمفكرون الحكماء  
ذو الرأي الصائب والفكر السديد ؛ وأنشئت مدرسة العلوم المصرية القديمة ،  
ودار الآثار العربية ، ودار الكتب الخديوية الفخمة ، فأصبحت كأنها حلقة وصلت  
مصر الفراعنة بمصر القرون الوسطى ومصر الحديثة .

كما أنه امتاز عهد والدكم بالليل بالتطور الاجتماعي السريع الذي نهض بعقليات القطر  
المصري وكاد يرفها الى مصاف بلاد الغرب . فارتمت العوائد وأنماط الحياة المثرية  
والعمومية ؛ ونظمت ادارة الحفظ والامن على أسس جديدة ؛ واتصلت السلطات  
بعضها عن بعض : فأصبحت السلطة التنفيذية مستقلة عن السلطة القضائية ،  
وحق ( لاسمايل ) أن يفخر بما فعل قاتلا : « انفصلت بلادى عن افريقيا لأننا  
أصبحنا جزءا من أوروبا » .

وفي ذلك العهد المجيد تخلصت مصر مما ترتب على امتياز قناة السويس من المساس بحقوق سيادتها ، وتعاقبت فرمانات التي نالتها بما بذلته من نفائس ثروتها مؤذنة برفع القيود التي كانت مصر راضخة لها بحكم التبعية للدولة العثمانية ، فتفككت هذه القيود واحدا بعد واحد ولم يبق منها إلا أمر الخراج ، واتخذ العزيز لقب "الخليد" بدلا من لقب "والى" الذى كان يشاركه فيه حكام الولايات العثمانية ، ثم قرر التوارث فى العرش على مبدأ الابن البكر من "أولاد صاحب العرش" ، وأصبح استقلال مصر استقلا لا حقيقيا — بالرغم من صلة التبعية الاسمية — بدليل اشتراكها كدولة مستقلة فى المعرض العام الذى أقيم سنة ١٨٦٧ فى باريس ، وترؤس مليكها حفلات افتتاح قناة السويس التي تعد من أبعد وأجلى صفحات عهده ، وذلك بالرغم مما أبدته تركيا من الاحتجاجات على ترؤسه لها .

ولما كانت الامتيازات الأجنبية قد أدت الافراط فى تطبيقها الى مساوىء عدة ، فقد درى ضررها على قدر الطاقة بانشاء المحاكم المختلطة التي تعد صفة أخرى مجيدة فى تاريخ حكم (اسماعيل) وكان من شأنها أن تميد الى مصر كرامتها وحقوقها فى السيادة الداخلية . وبينما كان العمل سائرا بجد ونشاط فى انجاز هذه العجائب المدهشات ، كان الفتح سائرا من جهة أخرى للقضاء على الرق والنخاسة ، فنجم عن ذلك أن قضى على الرق والنخاسة قضاء لا رجوع فيه ، وخضع السودان بأكمله لسيطرة مصر التي امتدت الى الشاطئ الغربى للبحر الأحمر والمحيط الهندى حتى بلغت رأس غاردافوى ، فأصبحت مصر امبراطورية عظيمة . ولما دخلت فى عداد الأمم المتمدينة حازت بينها المكان اللائق بيمناها الانيل وأعمالها الجليلة .

## تقدمة الكتاب

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شكلت البعثات العلمية التي تجاوز عددها الثلاثين بعثة لاستقصاء الجهات المجهولة في أواسط أفريقيا وشرقها، سعيًا وراء خدمة العلم والمعارف، ورفع شأن القطر المصري. فأنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية، وسارع أقطاب العلماء إلى الانخراط في سلكها لنوال شرف الانساب لها.

فلم يك واليك الجليل نورا ساطعا لحسب، بل كان شمسًا متألقًا في سماء مصر. ولا غرو إذا اتجهت رغبتك يا مولاي— وأنت أبر أبناء هذا المصلح العظيم، الذي تمت على يديه جميع هذه المدهشات— إلى أن يفصل التاريخ وقائعها، لذلك تركزت ووضعت تحت إشراف المجمع العلمي المصري المباركة التي أدت إلى ظهور هذا الكتاب، وتفضلت— مذقررت اللجنة العلمية التي انتدبت لفحص مختلف مؤلفات المتبارين أفضليته حل سواء— فشمكته وشمكت مؤلفه بتعطفاك الملكية العالية.

فلتفضل جلالكم وتأذني برفعه إلى سديكم الملكية مقتما بين يدي من صادق إخلاصى وعظيم طامعى وصبديكى لكم خير شفيع ما

العبد الخاضع  
الياس الأيوبى



## رأى اللجنة العلمية

المشكلة لفحص مؤلفات المتبارين فى هذا الكتاب

---

كتاب الباس الأيوبى ، يتألف من مجلدين مجموع صفحاتهما ١٠٨٤ صفحة ،  
فى كل صفحة عشرون سطرا كتابة .  
وينقسم الى سبعة أجزاء تشتمل على اثنين وثلاثين فصلا .  
أقسام المؤلف معقولة وعملية . قص الحوادث مضبوط ولا تحيز فيه .  
الإنشاء عصرية وأنيق ، ليس فيه كلمات بطل استعمالها ؛ والكلمات المستحدثة  
قليلة فيه .

---



## الكتاب

المرسل من المجمع العلمى المصرى الى المؤلف

---

مصر فى ٨ مارس سنة ١٩٢٢

حضرة المحترم

بأمر جلالة الملك يشرف المجمع العلمى باعلامكم ، فيما يخصكم ، بنتيجة المباراة  
التي وضعها صاحب الجلالة تحت إشراف جمعيتنا لتأليف كتاب فى تاريخ مصر مئة  
حكم ممنوع الخديو اسماعيل :

إن جائزة الثلاثمائة جنيه قد منحت لكم ؛ وقد صرح لكم أن تتلقبوا بلقب  
"الفائز فى المباراة" ؛ وستنفع لكم نظارة خاصة بجلالته المبلغ المذكور عند تقديمكم هذا  
الكتاب . هذا وأن صاحب الجلالة يضع تحت تصرفكم مبلغا آخر تكبيلنا اذا أردتم  
أن ترجعوا مؤلفكم الى اللغة الفرنسية .

وانى بتبليغى هذه القرارات لكم أرجوكم أن تهبلوا منى خالص تهاى وشعور  
احترامى الفائق ،

من رئيس المجمع العلمى المصرى

(الوكيل) : ا . بيوبك



## مقدمة الكتاب

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بينما نحن مشغولون في كتابة الجزء السادس من تاريخ مفصل خصصنا أنفسنا لوضعه في شؤون مصر الإسلامية بين الفتح العربى والفتح العثمانى ، إذا بأحد الأدباء من أصدقائنا أشار علينا بالتنبك ، مؤقتا ، عن موضوعنا هذا الى الاشتغال بتحرير تاريخ مصر في أيام حكم (اسماعيل) قائلا : « إن أحوال مصر الحاضرة ربما كانت الى إيقاف الناس على ما أدى الى تشبك المصالح المختلفة في هذا البلد الأمين تشبكا غريبا ، أدعى منها الى إيقافهم على ما تم في عصور خلت ، قد لا يهتم لها واحد في الألف ، لا سيما وأن الأمير فؤادا<sup>(١)</sup> قد أقام مباراة تحت إشراف المجمع العلمى المصرى ، ووضع جائزة لمن يحوز أحسن تاريخ لمصر في عهد أبيه ا » .

فراينا أن نعمل بإشارة الصديق الأديب على ما فى العمل بها من حرج ومشقة . فالتنا ، من جهة ، نكاد نكون معاصرين لعهد (اسماعيل) — والحقايق التاريخية انما يظهرها البعد ، فقط ، فى حلتها أو صبغتها الحقيقية — ومن جهة أخرى ، فانا ، على ما أوجدته فينا معرفتنا بتاريخ (اسماعيل) السطحية السابغة من ميل نظرى الى الرجل

(١) هذا الكلام منقول من سنة ١٩١٧

## مقلعة الكتاب

وإعجاب به ، كما ، لتأثرنا بالأحاديث والروايات المتناقضة عنه ، نعتقد — ولو اعتقادنا غير راسخ ومصبوغا بصيغة مجزء الأخذ برأى الغير أخذنا لا يبرره لتحكيم عقل — أنه ربما استفادت سمعة (إسماعيل) من عدم تعرض أحد لإزالة السدول عنها ، ومن إبقائها ما بين النور والنسق ، حيث أجمع على ذلك كتاب العربية ، بدلا من إبرازها الى نور النهار الساطع .

ولكننا ، فيما يختص بقرب معاصرنا للأيام التي دحيتا للتكلم عنها ، قلنا في نفسها : «إننا ، اذا توخينا الحقيقة باخلاص ، وبحسنا عنها باحتناء ، وقررناها بشجاعة وبدون هوى ، قد لا نجد بأسا في إقدامنا على كتابة تاريخ (إسماعيل) . ولكن لم نستطع إيفاء حقها — لأن المصادر التي سوف يستقى منها مؤرخو المستقبل غير موجودة الآن تحت تصرفنا — فان ما لا يدرك كله لا يترك كله ؛ وربما قلتمت كتابتنا بعض المادة المفيدة لمن سوف يتلونها في هذا المضمار !

وفيا يختص بما لبينا من فكرة غير مبيلة على تحكيم عقل في شخصية (إسماعيل) ، فاننا قلنا في نفسها : « فوق أنه يمارطينا ، بصفتنا من المفكرين ، أن نقيم بناء اعتقادنا في الأشخاص التاريخيين على محض التعرّف السطحي بهم ، أو على مجرّد آراء الغير فيهم ، فلن إقدامنا على كتابة تاريخ الرجل يلزمتنا ، حتما ، درس شخصيته وأعماله دوسا تاما ، فينمّر ، في معارفنا ، فراغا شائئا ، وقد يؤدى بنا الى تعديل فكرنا وفكر قرائنا الكرام في الخديو الأوّل تعديلا يوجبّه تعرّفنا بأخلاقه وخصاله تعرّفا صحيحا ، ووقوفنا على جميع أعماله وقوفنا حقا ا . »

## مقدمة الكتاب

فأقدمنا ، إذا ، على العمل ؛ وأخذنا في مطالعة كل ما كتب عن (اسماعيل) وعصره ، بل معظم ما كتب عن أسرته في العربية والفرنسية والانجليزية والاطالية وما ترجم الى هذه اللغات من اللغات الأجنبية الأخرى التي لا نعرفها ، ودرس ذلك جميعه درسا تاما .



وإذا بنا كتبنا زدتنا نمتزنا بمل (اسماعيل) المتنوع ، وإدراكا لنتائج الاجتماعية في القطر ، زاد إنجلبنا به وعلا قدره في نفسنا . وما فرضنا من البحث والتنقيب ، والمطالعة والدرس ، إلا وقد رجع فينا الاعتقاد الثابت بأن (اسماعيل) كان رجلا عظيما ومصريا صميا ؛ وأنه عمل لمصلحة مصر ورقيا وتعلمها ما لم يسلمه عاهل تولى عرشها منذ قرون ؛ وأنه — وإن لم يخل من قائلين : فكثرت عليه ، لذلك ، عدد الطاعنين — قد كان أميرا شريفا ، جديرا بأن يوضع في مصاف عظماء الشرق ؛ وجديرا بأن يقرن اسمه ، بمدناته ، بصفات التمجيد والتبجيل التي كان يقرن بها وهو مستو على عرشه الساطع سن .



فأقبلنا بارتياح ، بل بابتهاج ، على تكوين تاريخ مصر في أيامه . ولم نعد نحشى إلا شيئا واحدا ، وهو : أن يحول عجزنا دون إيفائنا الموضوع حقه ، وأن لا نخرج ميترافا<sup>(١)</sup> من رأسنا إلا مجرّنة من سلاحها .

---

(١) "ميترافا" كلمة الحكمة عند قدماء اليونان والرومان خرجت ممدجة بالسلاح من رأس زيفس أيثا - وهو إله الآلهة والبشر .

## مقدمة الكتاب

---

عل أنه إذا كانت الاحمال اتما توزن بالنيات ، فانا تقدم عملنا هذا الى الجمهور ونحن  
والقون من أنه سيخترلنا كثيرا ، لأن نيتنا في الحقيقة صالحة ، ولم نبتغ سوى تقرير  
الأمور كما خيل اليها أنها هي في الواقع . فان أخطانا النظر اليها ، فلتعصر طبيعى  
في العين ، لا لأننا وضعنا عليها نظارة الغرض والتحيز .

الاسكندرية في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٣

الياس الأيوبي

---



## شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته

قد تفضلت اللجنة العلمية في دار الكتب المصرية التي يرأسها حضرة العالم الكبير والفيلسوف المفكر صاحب العزة أحمد لطفى السيد بك بقبول طبع هذا الكتاب في مطبعة القسم الأدبي في تلك الدار، ونحت إشرافها النافع . وهي لا تطبع فيها من الكتب إلا ما تحكم بأنه جدير بأن ينظم في عقد المؤلفات القانرة التي تعمل، بنشرها، على إحياء آداب اللغة العربية . فقلبتنا بذلك منة لم تقلد بها أحدا من المعاصرين لنا قبلنا، وجعلت لكتابنا قيمة ثمينة فوق القيمة التي أكتسبه لإياها حكم المجمع العلمي المصرى والمنندوبية العلمية الخاصة فيه بأنه أفضل المؤلفات المقترحة الى تهديرها في المباراة العلمية التي وضعها صاحب الجلالة مولانا الملك ( فؤاد الأول ) إذ كان — حفظه الله — لا يزال الأمير المعظم فؤادا .

ومهما شكرنا، فانا لن نوفي ما توجبه هذه المنة الفريدة من شكر علينا !  
وبما زاد في مقدارها لدينا هو أن حضرة العالم الفاضل والحبيب النسب السيد محمد حل البيلوى ، تقيب أشراف الديار المصرية وأحد أعضاء تلك اللجنة الجليلة ومراتب إحياء الآداب العربية ، قد وقف بشخصه الكريم على طبع كتابنا هذا، مهذبا، مجهدا نفسه في جملة خلوا من كل شائبة .

ولا يسعنا ، هنا ، إلا شكر دار الكتب المصرية في المروسة والمكتبة البلدية بالاسكندرية على التسهيلات التي جادت بها علينا باطوتنا كل ما احتجنا اليه من كتب ، وشكر أمتائهما، حضرات الأفاضل : حل فكرى افندى وخليفة قنديل افندى

## شكر المؤلف

وسيد عمر افندى، أمناء دار الكتب المصرية ، وحضرة الأستاذ العالم الشيخ أحمد أبى على ، أمين المكتبة البلدية بالاسكندرية ، على حفاوتهم بناء ، ولطفهم الفائق نحونا ، وآدابهم الجملة فى معاملتنا .

ونحن فى حاجة الى أن نشكر، على الأخص ، صاحب العزة والمروءة وسليل بيت المجد والحسب سليمان يسرى بك ، القاضى بمحكمة الاسكندرية الأهلية ، الذى تفضل ووضع تحت تصرفنا مكتبته النفيسة ، بلطف نفس ، وكرم أخلاق ، وسماحة شيم ، زادت فى جمال معروفه .

وبما أننا فى مقام شكر من نرى شكرهم واجبا ، فأننا نقدم هنا أجمل عبارات اعترافنا بالفضل والجدارة الى حضرة صديقنا الفاضل وزميلنا الكريم بولص غانم افندى ، المترجم بمحكمة مصر المحتلة ، الذى أمدنا بسعة اطلاعه على أصول البلاغة العربية ، وقضى معنا ساعات طويلة فى مراجعة هذا المؤلف .

وكذلك نشكر حضرة محمد عصمت افندى رئيس القسم الأدبى بدار الكتب ، وحضرات المصححين فيه فقد ساعدوا مساعدا ممدوحا . وأخص بجميل الشكر حضرة الشاب الفاضل الأديب عباس السيد افندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فإنه لم يدع مجهودا إلا وبذله فى سبيل تصحيح النطاعات المطبعية ، وإتقان العمل بسرعة وتيقظ تام ، حتى تمكن من إبرازه فى حلة قشبية قبل الميعاد المتفق عليه .



فإن ظهرت — مع ذلك — فى الكتاب شوائب ، فإن الكمال لله وحده !

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أود مسكالكي	مصر القديمة والحديثة ... ..
باركر	سورية ومصر في عهد سلاطين تركيا الخمسة الآخرين
فرزور	مصر اليوم من الخديو الأول الى الخديو الثالث ...
برهيه	مصر من سنة ١٧٩٨ الى ١٩٠٠ ... ..
ليدى أمهرست أوف هاكني	التاريخ المصرى من القدم الى اليوم ... ..
البارون دكوزيل	مذكرات الانجليزى عن مصر من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٨٧
مانجين	تاريخ مصر تحت حكم محمد على من سنة ١٨٣٣ الى ١٨٣٨
لين	أحوال وعوائد المصريين الحديثين ... ..
باوريج	تقرير عن مصر وكندا سنة ١٨٤٠ ... ..
كلوت بك	موجز تاريخ مصر سنة ١٨٤٠ ... ..
هامون	مصر تحت حكم محمد على ... ..
هامون	مصر بعد صلح سنة ١٨٤١ ... ..
باكر موسكاو	في بلد محمد على (ترجمة الانجليزية) ... ..
شلمشر	مصر في سنة ١٨٤٥ ... ..
مارسيل	مصر تحت حكم محمد على ... ..
بيل سانت جون	مصر تحت حكم عباس ... ..
مريو	مصر الحديثة من محمد على الى سعيد باشا ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
مدام أولمپ ادوار	كشف الستار عن أسرار مصر ... ..
ساكريه وأوتريون	مصر واسماعيل باشا ... ..
تيريس	مصر القديمة والحديثة في معرض باريس العام سنة ١٨٧٧
چليون دالمجلار	رسائل في مصر الحديثة ... ..
إدون دى ليون	مصر الخديو أودار الرق القديمة في عهد أرباب حديثين
ماك كون	مصر كما هي الآن سنة ١٨٧٧ ... ..
قان بين	مصر وأوروبا بقلم قاض مخطوط قديم ... ..
ماك كون	مصر في عهد اسماعيل ... ..
راقس	اسماعيل باشا من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٩٥ ... ..
سير ادورد مالت	مناظر متغيرة أو تذكارا عن أناس صليدين في بلاد صليدية
بيوفيس	الفرنساويون والانجليز بمصر ... ..
فون مالورنى	مصر — الحكام الوطنيون والتدخل الأجنبي ... ..
فوجانى	وصف مصر — القاهرة وضواحيها ... ..
ليبك	مصر الأخيرة ... ..
مورلى بل	خديويون وباشاوات ... ..
بتار	حياة البلاط بمصر ... ..
ساندى إى كاسترو	مصر ... ..
فريسييه	المسألة المصرية ... ..
جافين	مصر الحديثة ... ..
قارمان	مصر وتسليمها ... ..

## أهم مصادر الكتاب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ثولتي	رحلة الى سوريا ومصر في سنة ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥
برثلي سانت إيلر	رسائل مكتوبة من مصر ... ..
مارمون	سياحة الماريشال دوق دى راجوزا في سوريا وفلسطين ومصر
ديدييه	ليالى مصر ... ..
ديدييه	خمسمائة ميل على النيل ... ..
جاردنيه	رحلة السلطان عبد العزيز من استامبول الى القاهرة
ليدى دف جوردون	رسائل من مصر من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٥ ... ..
ليدى دف جوردون	رسائل من مصر سنة ١٨٦٩ ... ..
آبو	الفلاح سنة ١٨٦٩ ... ..
مارى واتلى	حياة البؤساء بمصر سنة ١٨٦٩ ... ..
مارى واتلى	بين أكوخ مصر سنة ١٨٧١ ... ..
ليدى دف جوردون	الرسائل الأخيرة من مصر سنة ١٨٧٧ ... ..
رونيه	مصر مجتازة مراحل مراحل ... ..
كولتشي	الكولرا بمصر سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٥٥ ... ..
كولتشي	الادارة الصحية العمومية بمصر من سنة ١٨٦٠ الى ١٨٦٥
لوكوفيتش	حوادث من التاريخ المعاصر ... ..
يعقوب أربعين باشا	الملك المعقارى بمصر ... ..
ليان ده بقون	مذكرات عن أهم الأشغال العمومية المفيدة التي عملت بالقطر المصري من أقصى القدم حتى يومنا هذا ...
فؤاد سلطان بك	النقود المصرية ... ..

## أهم مصادر الكتب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أنونيم	حالة مصر المالية سنة ١٨٧٤ ... ..
فردنان دى لسبس	نصح برزخ السويس : ايضاح ومستندات رسمية من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٦٠ ... ..
فردنان دى لسبس	رسائل ويومية ومستندات ليؤخذ منها تاريخ تركة السويس من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٠ ... ..
شارل رو	برزخ السويس وترعه ... ..
أنونيم	تاريخ مصر المال من أيام سعيد باشا سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٦
سانتيردى يوف	صاحب السعادة شريف باشا . مصر سنة ١٨٨٧ ...
سانتى	مصر تحت حكم اسماعيل باشا . ميلانو سنة ١٨٨٠ ...
يعقوب أرتين باشا	بعض اعتبارات عن التعليم العام بمصر سنة ١٨٩٤ ...
يعقوب أرتين باشا	المعارف العمومية بمصر سنة ١٨٩٠ ... ..
لورد كرومر	مصر الحديثة ... ..
پ . ل . ه . دى . س	تراجم مصرية : اسماعيل حسنى باشا وموت المفتش مصر سنة ١٨٧٩ ... ..
نوم شقيب بك	تاريخ السودان ... ..
فيليب جلاذ	الفرمانات السلطانية والأوراق الرسمية الخاصة بمصر من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٧٩ ... ..
لو كوفيتش	كيف يوزع القضاء بمصر سنة ١٨٦٦ ... ..
—	الاصلاح القضائى بمصر . المداولات والاجتماعات التى سبقته وأدت اليه ( مكتبة الاستئناف المختلط ) ...
هير يروس	محاكم مصر المختلطة ... ..

## أهم مصادر الكتب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
بيكر باشا	اسمايلية ... ..
مساداليا	الدارفور تحت ادارة جوردون باشا ... ..
كلوت بك	تاريخ محمد علي ... ..
جوين	تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ... ..
بورديانو	مصر عملا بمجاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ ... ..
سوتارا	حملة المصريين على الحبشة ... ..
شارل . لساج	شراء أسهم ترعة السويس في نوفمبر سنة ١٨٧٥ ... ..
أرمين باشا	رسائل الدكتور برون محجرة من مصر والاسكندرية الى الميسو مول بياريس من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٥٤
لامب لاو	مصر وضواحيها ... ..
جائتاني	في الطاعون الذي فثك بالقطر المصري سنة ١٨٣٥ ... ..
سرقفنت هورد	ترعة السويس الخ . ... ..
داي	مصر المسامة والحبشة المسيحية ... ..
روزستين	نعراب مصر ... ..
كلوت بك	بيان عن حال التعليم الطبي الخ في القطر المصري سنة ١٨٤٩
جيسى باشا	سبع سنوات في السودان المصري ... ..
دور بك	التعليم في مصر ... ..
الدكتور دري بك	ترجمة حياة علي مبارك باشا ... ..
محمد طلعت حرب بك	قناة السويس ... ..
مورييه	تاريخ محمد علي ... ..





## تمهيد

كانت مصر حتى سنة ١٧٩٨ م تحت حكم الأمراء المماليك الفعلي وحكم الدولة العثمانية الاسمي . فأتت في سنة ١٧٩٨ حملة فرنساوية تحت قيادة الجنرال بوناپرت فقبضت على حكم المماليك ، واحتلت القطر . فعز ذلك على إنجلترا . فإ زالت بالدولة العثمانية حتى حملتها على إثمها الحرب على فرنسا وإرسال جيش زانراالى مصر لإخراج الجيش الفرنساوى منها . ولكن الجنرال بوناپرت قضى على ذلك الجيش قضاء مبرما في واقعة أبي قير في ٢٥ يولييه سنة ١٧٩٩

غير أن أحوال فرنسا الداخلية والخارجية ما لبثت أن اضطرت الجنرال بوناپرت الى مغادرة القطر . فخاير خلفه الجنرال كلير الانجليز والأتراك في أمر انسحابه بيجيشه من مصر والعود الى فرنسا على مراكب انجليزية . وأبرم معهم لهذا الغرض معاهدة العريش في أوائل سنة ١٨٠٠ وسلم الصدر الأعظم يوسف باشا معظم البلاد .

ولكن الحكومة الانجليزية لاعتقادها الوهن التام في الجيش الفرنساوى المعقود لواءه لكثير أبت التصديق على معاهدة العريش وأبت إلا أن يسلم الجيش الفرنساوى سلاحه فتقله المراكب الانجليزية أسيرا الى إنجلترا .

فهاج هذا الأمر ثورة الغضب والحمية في صدر الجنرال كلير . فأرسل الى الصدر الأعظم يوسف باشا يأمره باعادة البلاد الى الفرنساويين والارتداد الى سوريا — وكان يوسف باشا قد بلغ يجهشه العثماني المطرية وحسك فيها — فأبى يوسف باشا إلا استمرار الزحف الى القاهرة .

فخرج الجنرال ككلير اليه بعشرة آلاف فرنساوى وهزمه هزيمة مخجلة  
في عين شمس . وطاد واسترد القطر كله .

ولكن سليمان الحلبي ما لبث أن قتله في ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، فالت القيادة  
الى الجنرال منيو — وكان قد اعتنق الاسلام وتسمى عبدا لله . ولم يكن من الدراية  
بأمور الحرب على شئ .

فاختنمتها ابتغرا فرصة وأرسلت حملة انجليزية تحت قيادة الجنرال أبركرمى لإخراج  
الفرنساويين من مصر . فتعارب الجيشان الفرييان في ضواحي الاسكندرية —  
ما بين سيدى جابر والعمورة — وانجبت المعركة عن فوز الانجليز وقتل قائدهم . فارتد  
الفرنساويون الى الاسكندرية وتحصنوا فيها . وخلف الجنرال هتشسن القائد  
المقتول . فحصر الأرض حول الاسكندرية بالمياه بكسره سد أبى قير، وزحف بمعظم  
جيشه الى العاصمة . وبعد مناوشات وقائع صغيرة وحصارات لاداعى الى ذكرها  
في هذه التنبؤ، انتهى الأمر بانجلاء الجيش الفرنساوى عن مصر على قاعدة معاهدة  
العريش .

فأراد الأمراء المماليك — على ما أوجدته في طائفتهم من ضعف عظيم حروبهم مع  
الفرنساويين — للعود الى الاستقلال بأحكام البلاد . وأرادت الدولة العثمانية استئصال  
شائتهم ليستقيم لها عود الحكم في مصر أسوة بباقي الممالك الشاهانية .

فقام إذا نزاع عنيف وقتال مخيف بين الولاة المبعين على مصر من لدن الدولة  
العثمانية والأمراء المماليك، ودارت الحرب بينهم بهلا .

## تمهيد

وكان قد حضر الى مصر مع الجيش العثماني المكلف بمهمة إخراج الفرنسيين منها رجل مكشوف من أهل قولة يقال له (محمد علي)؛ فاغتنم فرصة ذلك النزاع وأخذ يتقدم على أكتاف الولاة تارة وطورا على أكتاف الممالك، حتى أصبح من كبار زعماء الجنود . فشرع حينذاك يعمل في الخفاء على إسقاط الولاة ويقاتل الممالك جهارا حتى آل به الأمر الى تهشيم مراكز الفريقين وفل كلبتهم . فاجمع العلماء وشعب القاهرة على اختياره أميراً على مصر في ١٤ مايو سنة ١٨٠٥؛ وعضدهم في ذلك الجنرال سيستيانى السفير الفرنسي في الأستانة عملاً بتوصية القنصل الفرنسي بمصر المدعو ماتييه دى لسبس، والد فردينان دى لسبس صاحب قناة السويس .

فاقرت الأستانة محمدا عليا واليا على القطر في ٩ يولييه سنة ١٨٠٥، فما تواتى لحظة في تثبيت مركزه ضد دسائس تركيا، ومساعى الانجليز وصلاتهم، وتمزقات الجنود وبأس الممالك، والاحتياج الى المال حتى انتهى به الكفاح، بعد عناء شديد، الى الفوز التام . فوطد قدميه نهائيا على السدة المصرية؛ وقهر الانجليز وأجلى عن البلاد حملة أرسلوها اليها في سنة ١٨٠٧؛ وأقنى الجنود غير النظامية في حروب أرسلها اليها في البلاد العربية لمقاتلة الوهابيين، وفي السودان للبحث عن مناجم ذهب وجلب السود؛ وفرغ من أمر الممالك بالمكيدة الماثلة التي دبرها لهم وجزدهم فيها بالقلعة يوم أول مارس سنة ١٨١١؛ وطالج مسألة المال معالجة قطعية بأن استولى شيئا فشيئا على جميع موارد الرزق في البلاد وصل أطيان القطر برمتها .

حينذاك أقبل ينشئ من مصر دولة حديثة وأمة شابة جديدة . ولكنه أدرك بأن ذلك لن يتسنى له إلا اذا جمع على ولائه مواطني العالم الاسلامي، وإلا اذا نقل

البلاد — ولو بعنف — من البيئة التي بنت القرون المنصرمة جدرانها حولها، الى بيئة جديدة تكون مصطبغة القاعدة والجدران بصبغة المدنية الغربية، اصطفاها متفقا مع روح الاسلام .

فلجميع عواطف الاسلام على ولائه هب يقضى على الوهابيين قضاء مبرها — والعالم الاسلامي كان يعتبرهم خوارج ومنشقين — وهب ينجذ الدولة العثمانية المسالمة على انحداد ثورة اليونان المسيحيين . فاطمح في الاسرى .

ونقل مصر الى البيئة الجديدة المرغوب فيها عمل ما يأتى :

( أولا ) نظم البلاد اداريا على النمط الغربى .

( ثانيا ) أنشأ من أبناء البلاد جيشا زاهرا وبحرية طاهرة متدربين على الطريقة الغربية، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لقل الحديد وذلك الجبل .

( ثالثا ) جتد بجدة المعارف، بتغييره برنامج التعليم وطريقته وفتح ميدانا جديدا للعلم أدخل الأمة فيه قسرا . فأنشأ المدارس المختلفة ترى : ابتدائية وثانوية وعالية متنوعة، وأدخل فيها التلامذة والطلبة رغم أنوفهم وأنوف أهلهم، وعلهم فيها العلوم الوضعية الغربية على يد أساتذة أكفاء أتى بهم من بلاد الغرب . وأرسل البعثات تلو البعثات الى المعاهد العلمية في أوروبا لا لكي تقتبس علوم الأمم الغربية وفنونها لحسب ، بل ليتخرج منها أساتذة يعلمون تلك العلوم لمواطنيهم بعد عودتهم الى بلادهم .

ثم أضاف الى تجديد بجدة المعارف إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ليتمكن القطر من ترويج المصنوعات على الطراز الغربى في داخلته — لاعتقاد

## تمهيد

(محمد علي) أن تغيير معالم البيئة المأقية يساعد كثيرا على تغيير معالمها المعنوية — ومن الاستغناء عن الواردات الأجنبية .

(رابعاً) غطى وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة وصغر فيها الأيدي تسخيها؛ ولولا ذلك ما اشتغلت ولا تمت تلك الأعمال . فأقام السدود وقوى الجسور وبني ما رأى بناءه منها واجبا؛ وعزز القناطر واحتضر الترع المدينة وأقام عليها القناطر الحابجة المسهلة للرى؛ وأبقى الترسانة والأحواض لتصلح السفن؛ وشيد القناطر الخيرية الكبرى — وهى معجزة أعماله — وأقام الحصون والقلاع؛ وأنشأ القصور والسرايات، واختط الشوارع؛ وهلم جرا، من الأعمال العظيمة التى غيرت وجه القطر تغييرا محسوسا .

(خامسا) هدم الحواجز التى كانت العصور السالفة قد أقامت بين تعامل الغرب والشرق؛ ومكن العالمين من الاختلاط معا، لا بالأبحار الواسع فقط، بل بالاحتكاك اليومي، وفى العادات والأخلاق والعقيدة؛ ومنع كل تجاوز قد يجر ذلك الاحتكاك إليه . (سادسا) سنّ قانونا للبلد كل مواده متشربة بالرغبة فى فتح عصر جديد للأمة، عصر تكون المساواة فيه بين الأفراد تامة؛ ويكون الفرد فيه آمنا على جريته الشخصية من كل عبت، ما دام لا يرتكب جرما، ولا يأتى أمرا تؤاخذ عليه الشرائع .

(سابعا) فتح أذهان المصريين الى أمسين لم يكونوا ليفكروا فيهما البتة : (الأول) أن مصر والسودان قطران توأمان أبوهما النيل . فلما أن يدوما ملتصقين كما وادا، وإما أن يكونا متحالفين أبدا، وإلا فلقوى منهما أن يعبر الثانى على إحدى هاتين الخلتين، كما أجبرت ولايات الشمال الأمريكية ولايات الجنوب على البقاء متحدة

معها، بحرب الانفصال بين سنة ١٨٦١ و سنة ١٨٦٥؛ و(الثاني) أن مصر قومية شخصية منفصلة تمام الانفصال عن قوميات الشعوب الأخرى القاطنة في الأقاليم التي كانت تتكوّن منها القومية الثمانية في ذلك العصر. وإنما فتح أذهان المصريين الى هذين الأمرين بالحريين اللتين قام بهما في مجاهل السودان وفي سوريا والأناضول؛ وأفضت الى استتباب السلطة المصرية على السودان نهائيا وعلى سوريا وإقليم اذربايجان، بضع سنين .

ولكن المجتراء أبت أن تقوم على ضفاف النيل دولة مصرية قوية تجسّل طريقها الى الهند غير آمنة . قالت على (محمد علي) روسيا وبروسيا والنمسا؛ وأرسلت ضده قواه في سوريا حملة؛ وبذلت في سبيل إثارة الأهليين عليه في تلك البلاد قودا جمّة . فاضطرته الى الانسحاب من الأناضول والشام والاكتفاء بمصر . ثم استصدرت له من السلطان عبد الحميد، بالاتفاق مع الدول الأوروبية، فرمان في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ للذين بقيا دستور الحكومة المصرية، حتى أبطلت مساعي (اسماعيل الأول) معظم نصوصهما، وأوصلت القطر الى استقلال تام لا يقبله سوى قيد الجزية السنوية . فاقام (محمد علي)، بعد هذه الحوادث، أكثر من سبع سنوات على دعمت الأحكام يعمل بثبات على تنفيذ مراميه؛ ويحيط الدولة الحديثة التي أنشأها ببنائيه اليقظة، حتى دامه الخلف وهو في التاسعة والسبعين من عمره .

تخلّفه ابنه الأكبر (ابراهيم باشا)، قائد الجيوش المصرية المنصورة في الملاحم والمعامع، وقاهر الوهابيين واليونان والأتراك . ولكن ولايته لم تدم إلا ثلاثة أشهر؛ لأن المنون اختارته وهو في أجدد سعيه الى إسعاد البلاد، بينما أبوه لا يزال حيا .

فأخيه (عباس الأول) ابن أخيه طوسن المتوفى سنة ١٨١٦ — وكان أرشد ذكور الأسرة — فملك حتى سنة ١٨٥٤ ملكا حاول جهده ، في الستين الست التي انتشر كابوسه فيها على المصدور ، أن يتنكب بمصر عن الجادة الحديثة التي أدخلها فيها جده العظيم (محمد علي) ، ليعود بها الى دياجير العصور الوسطى المظلمة .

ولكنه قتل ، وهو في ريمان رجولته . وخلفه على العرش عمه (محمد سعيد باشا) ابن (محمد علي) العظيم . فملك تسع سنوات كانت كلها خيرا على البلاد وسعادة . ولولا أنه أثقل كاهل الحكومة المصرية ببعض نصوص تجاوزية في الامتياز الذي منحه لفردينان دى لسبس لإنشاء قناة السويس ، وبالضائقة المالية التي جرهما إسرافه على موظفيه ومستخدميه ، بالبينين — السائر والمسجل — المركبين على عاتق البلاد والبالين مما ما يقرب من أحد عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات ، واللذين لم يكن لهما مقابل من أعمال عمومية نافعة ، لعقدت سنوات ملكه التسع العصر الذهبي في تاريخ مصر الحديث .

وكانت بنيته القوية لما ارتقى سنة الامارة تبشر بعمر طويل ؛ ولكن إسرافه في اللذات قتله ، هو أيضا ، وهو في الأربعين من سنه . خلفه (اسماعيل الأول) ابن أخيه (ابراهيم) العظيم ، وهو الذي يسرد كتابنا هذا تاريخ مصر في عهده !





# الجزء الأول

---

السَّحَر

---

## الفصل الأول

### وفاة محمد سعيد باشا<sup>(١)</sup>

توافق الناس والزمان \* لحيث كان الزمان كانوا

محمد سعيد باشا عاد محمد سعيد باشا ، الى مصر ، من أوروبا ، في أواخر سنة ١٨٦٢ الى الاسكندرية ، والمرض الذي ذهب الى بلاد الغرب ، ليتطبب منه ، على يد نطس أطبائها ، قد تمكن من حياته ، تمكنا ، سم كل ينابيعها . فبات ميؤسا من نجاته : وأخذ الموت ينسج أكفانه . ويسدل حوله ظله .

وكا أن الناس ، حين تيل الشمس الى الغروب ، يأخذون في الشخوص اليها ويرقبون مقيما ، وتجهش العواطف في صدر كل منهم طبقا لميوله وآماله ، فهكذا كان المصريون ومستوطنو مصر ، والذين تربطهم بها مصالح ، ينظرون الى مغيب حياة محمد سعيد باشا ، وتواربها وراء أفق هذا العالم المنظور ، بأعين تختلج فيها عواطف القلوب المختلفة .

فالأفقون الذين احاطوا بالأمير المحتضر ، أيام كانت زهرة حياته وصولته يانعة ، فاثروا من إسرانه واعتروا من هواه ، كانوا ينظرون الى دخوله في حشيرة الموت ، وقلوبهم شاعرة بأن انقلاب ظهر الجن لم بات قريبا ، وأن الأوان آن ليقتلوا خيامهم من الأرض المصرية ويقصدا أقطارا غيرها .

(١) أمم مصادر هذا الفصل : "تاريخ مصر في عهد اسماعيل" لؤف الايطال ف . سافى ، و"مصر الهندية" لأدون دى ليون ، و"إمالة القام من أصرار مصر" للكاتبة أولب أديار ، و"الكاني" ليجاتيل بك شادويم .

والبطانة التي لم تحط به إلا لأنه الأمير والحاكم وولي النعم، ما رأته يحتضرونها كدت من أنه، لا محالة، ميت إلا وولت وجهها شطر الشمس المتظر شروقها لأنها شمس من سيصبح الأمير والحاكم وولي النعم .

والذين أحاطوا بمحمد سعيد باشا، ليرتكبوا عليه في أعمال نافعة أقدموا عليها، ومشروعات جبيلة أخرجوا بعضها إلى حيز الوجود، وتعلقت آمالهم في إنعراج الباقي منها، إلى الحيز حينه، بحياة الرجل المات، إنما كانوا ينظرون إلى زواله، وقلوبهم واجفة، وآمالهم مضطربة، لا يدرون ما المصير .

والشعب المصري، الذي رأى من والي المولى حبا خاصا له، واعتناء كبيرا بمصالحه، ورغبة حقيقية في تحسين أحواله، وتخفيف أتعاله، ورأى منه إقبالا على إحياء اللغة العربية وإحلالها في دوائر الحكومة محلا رسميا، والجيش المصري الذي كان يحط انتباهه ومعزته، ووجد نعيم الحياة تحت لباس جنديته، كانوا ينظرون من بعيد إلى تصاعد أواخر أقباس الأمير المحتضر، والقلب حزين مكتئب، والنفس ضارعة إلى الله أن يحذو الخلف حذو السلف، وأن تكون الأيام التالية ظُهر الخريف، إذا مع اعتبار الأيام المتصرمة بغيره .

وأما الرجال المحافظون المتمسكون بالتقاليد العباسية، الراغبون عن كل عين لتفجر في مصر للدنية الغربية، ومن كل طريق يمهدها، الناقون على محمد سعيد باشا تركه سياسة سلفه، للسير في خطوات (محمد علي) أبيه العظيم، فإنهم كانوا ينظرون إلى احتضار ذلك الأمير، نظرة القليل الصبر، ويرقبون عن كשב، ساعة لفظه نفسه الأخير، مملئين الأنفس بمود العهد القديم إلى البروغ من وراء سرير موته، لا اعتقادهم أن مذهب الخلف مذهبهم، وأن (اسماعيل) يكره ما يكرهون ويحب ما يحبون .

وأما (اسماعيل) نفسه، فإنه منذ تأكد أن رقدة عمه لرقدة لا يقبها قيام، وأن الموت بات محتما، بالرغم من أن شجرة العمر لم تنقلها السنون، ساورته الأفكار الطبيعية التي تساور كل إنسان في مرضه، وأخذ ينتظر وهو في القاهرة، أن ترد عليه الأنباء المباشرة بارتفاعه سنة جده . الباشا العظيم !

وكانت قد جرت العادة أن ينعم بقب (بك) على أول من يحمل إلى الوالى الجديد خبر صيرورة العرش المصرى إليه، وأن ينعم عليه بالباشوية إذا كان بيكا .

فلم يفاد (بى بك) مدير المخابرات التلفزيونية، عدته، ثمان وأربعين ساعة؛ لكي يكون أول المبشرين، فيصبح باشا، ولكن الناس غلبه في نهاية الأمر، فاستدعى أحد صغار موظفى مصلحته، وأمره بالقيام بجانب العدة، ريثما يلعب، هو، إلى مخدعه ويتام قليلا؛ وبالإسراع إلى إيقاظه حال ورود إشارة برقية من الاسكندرية تنهى بانتقال محمد سعيد باشا إلى دار البقاء . ووعده بجائزة، قدرها خمسمائة فرنك مقابل ذلك . ثم ذهب إلى مخدعه، وتام على سريره وهو بلباس العمل .

بى بك والمستخدم  
والبشرى

ولم يكن الموظف الصغير الذى أتاه عنه، يجهل عادة الإتمام التي ذكرناها — فلما انتصف الليل بين اليوم السابع عشر واليوم الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣، وردت من الاسكندرية الإشارة البرقية المنتظرة بفارغ الصبر. فتلقاها ذلك الموظف الصغير وأسرع بها الى سراى الأمير (اسماعيل) وطلب المثول بين يديه .

وكان (اسماعيل) لا يزال جالسا في قاعة استقباله، مهرا، يحيط به رجاله وتسامره هواجسه .

فلما رفع إليه طلب ذلك الموظف، أمر بإدخاله حالا، فأدخل، وأحدت به أنظار الجميع .

بلغنا الرجل أمامه وسلمه الإشارة البرقية الواردة . فقرأها (اسماعيل) ، وما أتى على ما دقن فيها ، إلا ونهض والفرح منتشر على محياه — فوقعت الإشارة من يده — وشكر الله بصوت عال على ما أنعم به عليه من رفعه الى سدة مصر السنية . ثم ترحم على عمه ترجحا طويلا .

فشاركه رجاله المحيطون به في فرحه ، وتصاعدت دموعهم له بطول البقاء ودوام العز ، وأخذوا يهتفونه ويهنيئ بعضهم بعضا .

ثم نظر (اسماعيل) الى الموظف الجاني أمامه ، (والذي كان قد التقط الإشارة البرقية حالما وقعت من يد مولاه ، ووضعها في جيبه) . وتبسم وقال : "انهض يا بك!" وبعد أن حباه نقمة من المال أذن له بالانصراف .

فعاد الموظف مسرعا الى مصلحة التلغرافات ، لرغبته في الحصول على جائزة التلميمائة فرنك التي وعد بها ، زيادة على الذهب الذي أصابه ، ودخل بتلك الإشارة على رئيسه ، بسى بك ، وأيقظه وسامها اليه .

فتناولها بسى بك وقرأها . ثم فتح كيسه بسرعة وأعطى الرجل المبلغ الذي وعده به . ثم أسرع بالرسالة الى سراى الأمير (اسماعيل) ، وهو يرى أنه قد أصبح باشا ، وتتلذذ نفسه بذلك .

فلما دخل على الأمير ، وعرض عليه الإشارة ، قابله (اسماعيل) بختور وقال : "لقد أصبح هذا لدينا خبرا قديما!" .

فأدرك الرجل أن موظفه خانه ، وسبقه الى استجلاء أنوار الشمس المشرقة ونعمها ، ثم ضحك عليه واستخلص منه خمسمائة فرنك . فاستشاط غضبا ونقمة ، وعاد الى مصلحة ، واستدعى ذلك المكبر الملائن ، وأتلت عليه .

فأوقفه الموظف عند حده، قائلاً : "صه ! فإني أصبحت بيكا مثلك ا " .

هكذا أضاع بى بك ثمرة شهره ثمانيا وأربعين ساعة ، بعدم تجلده على الاستقرار  
سأهرا . بضع سويحات أخرى<sup>(١)</sup>

وما نشرت المدافع ، المطلقة من قلعة الجبل ، الخبير في أنحاء العاصمة ، وأعلنت  
سكانها بفروب شمس حياة محمد سعيد باشا ، وشروق شمس حكم ( اسماعيل باشا ) ،  
إلا وأسرع بكار القوم ووجوه البلد وقناصل الدول بمصر الى سراى هذا الأمير  
وهتؤوه . وتمنوا له ملكا طويلا سعيدا .

إعلان موت محمد  
سعيد باشا وارثه  
اسماعيل للرش

وما بزغ نهار الثامن عشر من شهر يناير ، إلا وورد الى العاصمة آخر من كان  
قد بقى حول سرير الوالى المحتضر فى الاسكندرية ، وفارقه حلق فارقه الروح ،  
وأُسرع هو أيضا الى سراى الوالى الجديد ، ليقيم له فروض جوديته ، ويتلمس من  
محظوظيته ، نعمته .

ولم يبق بجانب جثة من كانت كلته بالأمس حياة وموتا إلا فرناوى يقال له  
للسيور براقيه ، كان صديق المتوفى الحميم .<sup>(٢)</sup>

وبينا تعدّ فى مصر معدّات الاحتفال بازهاء الوالى الجديد كرسي أبيه وجده ،  
صدرت الأوامر الى أولى الشأن فى الاسكندرية ، بالامراع الى مواراة محمد سعيد باشا  
التراب ، ليجلا يلفتر الناسور ، الذى قتله ، الفساد فى جنته بسرعة فتذهب الرائحة

(١) انظر : " مصر الخديوية " لأدون دى ليون ص ١٥٩ و ١٦٠ ، و " إمارة الختام من أسرار  
مصر " لأوليف أدار ، ص ١٦٣ و ١٦٤ ، فانظر : " تاريخ مصر فى عهد اسماعيل "   
للاكرون ، ص ١٩ فى الحاشية .

(٢) انظر : " إمارة الختام من أسرار مصر " ص ١٦١

الكريمة التي قد تنبعث عنه ، بالمهابة الواجبة لمقامه السامي . وقضت تلك الأوامر بأن يكون مدفن الوالي المتوفى بجانب مدفن إسكندر المقدوني العظيم ومدافن البطالمة الكرام ، إجلالا له ، ولئلي يكتسب ، من ذلك الجوار الساطع ، حقا أمام أعين الأجيال المقبلة ، في أن تظله صحابة الفخار المنتشرة حول قبور الصالحين من أولئك العواهل الأماجد<sup>(١)</sup> .

فامتثل نورو الشأن بالاسكندرية تلك الأوامر ، وووريت جنة محمد سعيد باشا في مرقده الأبدى ، في الروضة المسورة الكثة في سفح قلعة الديماس بجوار المسجد المعروف بمسجد نبي الله دانيال — ونودي بالقلعة بمصر بولاية (اسماعيل) ابن أخيه .

فتريفت المدن والبتادر ثلاث ليال ؛ وأقيمت الولائم والأفراح ، وفرقت سمق الأديرة أم (اسماعيل) الهدايا النفيسة على أرباب الدولة والعلماء والمشايخ ، وأقامت الأديرة في المساجد أياها : ورسمت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها الخاص<sup>(٢)</sup> .

(١) "إمارة الشام من أسرار مصر" ص ١٦١ ، وكان (سعيد باشا) في أعمر حياته الأخيرة ، حينما أحس بذوق أجه قد أنشأ لنفسه ضريبا تلجا بالقرب من القناطر الخيرية . ولكن (اسماعيل) لا سباب المذكورة في المتن لا الأسباب التي تذكرها مدام أديوار أمر بدنه بالاسكندرية . أنظر : مالك كون ص ١٦ من "مصر في عهد اسماعيل" .

(٢) أنظر : "الكافي" المجلد الأخير ، ص ١٣٨ طبعة بولاق سنة ١٩٠٠

## الفصل الثاني

### الأمير (اسماعيل)

ولذا رأيت من الهلال نموه • أيقنت أن سيكون بديراً كاملاً  
هو ثاني ثلاثة أنجال البطل المغوار، والقائد المقدام، إبراهيم باشا، ابن محيى الديار  
المصرية، الباشا العظيم والغازى المهيب، الأمير (محمد علي) المكوفى مولداً، والمصرى  
قلبا ومطامع وجهاداً .

نشأة اسماعيل  
وتربيته

ولد في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، على أصح تقدير، في قصر المسافر خانة، بمصر،  
ومن المؤرخين من يجعل مولده في ١٥ أو ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧ — من والده خير  
والدتي أخويه الاثنين : البرنس أحمد رافت والبرنس مصطفى فاضل : وتربى في حجر  
والده وبمحاكاة جده، في المدرسة الخصوصية التي أنشأها في القصر العيني (محمد علي باشا)  
لتربية الأمراء أولاده الصغار وأولاد أولاده .

تعلم (اسماعيل) فيها، على يد نخبة من مهرة الأساتذة، مبادئ العلوم واللغات  
العربية والتركية والفارسية، ونزرا يسيرا من الرياضيات والطبيعات .

ولكنه أصيب برمد صديدي، لم تفتأ آثاره، بعد زواله، تؤلم جفونه . وعجز  
الأطباء بمصر عن مداواته . فأرسل إلى فيينا، وهو في الرابعة عشرة من عمره، ليعالج  
فيها . ويرى، في الوقت حينه، تربية أوروبية .

ذهابه إلى فيينا  
قال باريس

(١) أم مصادر هذا الفصل : "تاريخ مصر القديم والحديث" للكونت اوردسكل ، و "مصر في عهد  
اسماعيل" لسانتي ، و "مصر في عهد سعيد" لمريو ، و "مصر في عهد اسماعيل" للملك كون ،  
و "مصر الحديث" لأدون دي ليون ، و "رسائل عن مصر" لسنت هيلبر ، و "تاريخ مصر الحديث"  
لجورجي بك زيلان .







فكضى هناك عامين تحسنت صحته فيها تحسنا بينا، وفارق الألم جفونه . فامر  
جده بانتقاله الى المدرسة المصرية في باريس . وهي دار تربية أسمها في تلك العاصمة  
(محمد علي) عينه — عملا بنصائح فرنساوى يقال له المسيو جومار — للنشأة المصرية  
الليبية، وأرسل اليها ولديه الأميرين حليم وحسين والأمير أحمد ولد ابراهيم ابنه مع نخبة  
من شبان مصر الأذكياء . منهم شريف باشا، ومراد باشا، وضيرهما، تحت رعاية  
وجيه أرمي اسمه اسطفان بك، وإدارة وكيل له اسمه خليل افندى تسيرا كان .

فانتقل الأمير (اسماعيل) اليها، وهو في السادسة عشرة من عمره . وتبارى على  
مقاعدها، وفي مضمار تعليمها، مع أذكى أولئك الشبان وأكثرهم نشاطا . وبرع  
على الأخص في علم الهندسة وفي فنّي التخطيط والرسم؛ وأقنن، إختاا تاما، اللغة  
الفرنساوية؛ والطبيعات والرياضيات .

فلما أتم طومره المدرسية، عاد الى القطر المصرى؛ وكان والده الفارص المهيب  
قد استلم زمام الحكم فيه، وأخذ يظهر للأ أن كفاءته الادارية لا تقل عن كفاءته  
الحربية .

فشرع الأمير (اسماعيل) يتعلم، في مدرسة أبيه الحازم، ضروب الحكم وفنون  
الادارة، ويمثل نفسه بالنبوغ فيها، نبوغه في سائر العلوم التي تلقاها، كما أنه أخذ  
يتشرب لبان الأحكام القائمة على قاعدة التطور طبقا لمقتضيات الأيام .

ولكن المرض، الذي كان قد أنشأ أنشأه إناشا أليما، في أحشاء ابراهيم باشا  
لم يمهله كثيرا، ولم يرسم القطر المصرى الذي باتت آماله كلها في تحسين أحواله،  
وترقية شؤونيه، وسعادة أيامه، متعلقة بأذيال تلك الحياة الثمينة . فحصل الموت صر  
موت أبيه

قاهر (تريب) ، بعد عود ابنه الأمير (اسماعيل) الى مصر بقليل ؛ وغادر أولاد ذلك الرجل العظيم الثلاثة ، حزاني ، كسيري الفؤاد ، بالرغم من الثروة الواسعة المخلفة لهم . وانما كان حزنهم وانكسار فؤادهم مسببين لهم ، أولا : من فقدانهم أبا ، قلما جادت بمثله لغيرهم الأيام ؛ ثانيا : من تحكم البلاء ، المضال ، في جمع (محمد علي) العظيم وعقله ، بحيث أحرمهم مؤاساته في ذلك المصائب وأحوزهم تعذيبه ؛ وثالثا : لأن ارتقاء ابن عمهم (عباس الأول) السنة المصرية ، مع ما اشتهر عنه من الجفاء لوآلدهم جفاء حل ابراهيم باشا في حياته على إبعاده الى مكة المكرمة <sup>(١)</sup> ، لم يكن من شأنه أن يلهمهم الصبر ، ويحل من قلوبهم ، محل بطعم العزاء الذي كانت قلوبهم محتاجة اليه .

غير أنهم تقهقروا وتجلدوا ، وبذلوا مجهودهم ليكونوا مع الوالى الجديد على أتم ما يرام من الصفاء .

ولما كان الأمير (اسماعيل) لا يزال يافعا ، وقليل الخنكة في الأشغال المالية ، عهد النظر في شؤون دائرته الى إدارة خاصة ، باشرتها برهة مباشرة لم ترضه الرضا كله . فشمر عن ساعد الحزم والجهد وأخذ زمام تلك الإدارة بيده ؛ فتججعت أموره نجاحا باهرا ، وازدادت ثروته زيادة عظيمة .

وكانت له في الصعيد الأطيان الشاسعة ، من التي يزرع فيها قصب السكر وتأتى بمحصول جيد منه . فأقبل على تحسين زراعتها تحسينا ضاعف محصولها . وأوجد في تلك الأصقاع ، معملا بخاريا لتكرير السكر ، على مثال المعامل الانجليزية الأولى .

(١) انظر : "إمامة الخادم من أسرار مصر" ص ١٣٦

وبينما هو موجه كل اهتمامه الى أشغاله هذه الخصوصية، ومكب عليها بكل نشاط موت جده محمد بن  
نفسه الشبيطة ، إذا بملك الموت نزل مرة أخرى ، وفبض بالاسكندرية ، بقصر  
رأس التين، روح (محمد علي) المتزوي عن العالم !

لما واروه التراب في مسجده الرخامى المرمرى الذى أنشأه على جبين قلعة الجبل،  
إلا وقام نزاع بين (عباس) و(مسعود) مبنى على اختلاف في تقسيم تركته .

ولما كان الحق في جانب (مسعود) ، وكانت مصالحته مصلحة عموم الأسرة ،  
وكانت دماوى عباس من شأنها أن تذهب ، فيما لو حققت ، بمعظم ثروة البيت  
العلوى ، انحاز سائر الأمراء ، وفي جملةهم (اسماعيل) ، الى (مسعود) وأخذوا يقاومون  
مطامع (عباس) المقاومة كلها .

فكبر النفور بين الطرفين ، وبات موقف المقاومين حرجيا ؛ لأن (العباس) لم يكن  
يحجم عن ارتكاب جريمة طائفية . والكل كان يعلم أنه حاول قتل عمته ، الأميرة  
زهرة باشا ، الشهيرة بنازلى هاتم ، أرملة محمد بك الدقردار . لولا أن أهل قصرها  
تمكنوا من تهريبها <sup>(١)</sup> .

ولكن الأمراء ، و(اسماعيل) في مقدمتهم ، لم يكونوا ليرهبوا سطوة ذلك العاتى .  
وأخذوا يكتبون في شأن دعوام الباب العالى ، ملعين عليه الإلحاح الوحيد المفهوم  
لديه ، بإنصافهم .

فوقع في خلد (عباس) الإقدام على عمل يلقى الرعب في قلوبهم ويرصد فرائصهم  
ويجعلهم يعتبرون بما يعبرى لواحد منهم . فاتهم الأمير (اسماعيل) بقتل أحد خدمه ؛

(١) انظر "إمالة الظلم من أسرار مصر" ص ١٣٦

اتهام اسماعيل  
بقتل خادمه

وأراد أخذه بجريرة تلك التهمة، كأنما قتل خادم كان أمرا ذا شأن في نظر عباس في تلك الأيام .

ولكن الأمير (إسماعيل) لم يجد صعوبة في دحض تلك التهمة والخروج منها سليما . على أنه اتخذ لنفسه حبرة ، واعتبر بها الأمراء كذلك . فقرر رأيهم جميعا ، على مفارقة القطر المصري ، والنهاب إلى الأستانة ليعرضوا أمرهم على السلطان ويستنصفوه من قريتهم للمغتصب العاقي ، وذهبوا إليها .

فصدرت إرادة السلطان عبد المجيد بأنفاذ فؤاد افندى — وهو الذي أصبح فيما بعد فؤاد باشا الطائر الصيت — وجودت افندى — الذي أصبح فيما بعد ، جودت باشا ، وأشتهر بتأليفه التاريخية وغيرها — إلى مصر ليمسوا الخلاف ، ويصلحا بين أفراد الأسرة العلوية الكرمة .

فأتيا ، ونجحا في مهمتهما . فعاد الأمراء إلى مصر إلا (إسماعيل) ، فانه فضل البقاء في الأستانة على الرجوع إلى قطر يحكمه (عباس) قطر ، قد يجد فيه عقارب وحيات تحت قدميه .

تسوية الخلاف

خففه عبد المجيد بمنابته ، وأنعم عليه برتبة الباشوية الرفيعة ، وجبته عضوا في مجلس أحكام الدولة العلية .

فاشتهر الأمير (إسماعيل) في وظيفته هذه ، ببعد النظر وصائب النصيحة . ولبث فيها ، والحرب قائمة بين تركيا وروسيا ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن قتل (عباسا)

قتل عباس ومردة اسماعيل

في سرايه بنها العسل، المملوكان اللذان أرسلتهما بهذه المهمة إلى مصر الأمير نازلي هانم  
عمته النافذة عليه<sup>(١)</sup> — يوليو سنة ١٨٥٤ —

فولاه عمه محمد سعيد باشا رئاسة مجلس الأحكام المصري الأعلى . فأنهم بشأنه  
أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس أحكام الدولة العلية .

إيفاده إلى أوروبا  
من لندن سعيد بمهمة  
مصرية

وفي سنة ١٨٥٥، أوفده سعيد إلى أوروبا بمهمة سرية لا يعلم التاريخ ماهي . ولكنه  
يظنها مختصة بالسعى إلى توسيع نطاق الاستقلال المصري الداخلي ، عقب فوز  
الجند المتحالفة، التي منها الحملة المصرية، على جنود الروس، فوق ربي بحيث جزيرة  
القرم . وزوده بكتابين خاصين مرسلين منه إلى الامبراطور نابليون الثالث وإلى البابا  
بيس التاسع، ليسابهما لإيهما يبدأ بيد<sup>(٢)</sup> .

فقام الأمير (اسماعيل) بتلك المهمة ، قياما رفع شأنه في أعين العاهل الفرنسي  
والجبر الروماني ، وأوجب ممنونية محمد سعيد له .

أما العاهل الفرنسي فإنه — بعد أن وقف منه على دقائق الإدارة المصرية وحركة  
تطور المدنية في القطر المصري . بالنسبة لتزايد تزوج الجاليات الأجنبية إليه — وعده  
بالنظر فيما اقترحه عليه من توسيع نطاق الاستقلال الداخلي بمصر في مؤتمر الصلح  
المقبل، إذا ما وجد إلى ذلك سبيلا .

(١) أنظر : "إمارة الشام من أسرار مصر" ص ١٤٣ وما يليها . على أن الرواة اختلفوا في حقيقة  
مقتله . فمنهم من اتهم السلطان عبد الحميد به ، ومنهم من جعله يتدبر من بعض نساء الخ . أنظر :  
"مصر في عهد اسماعيل" مالك كون ص ١٠ ، و "مصر الخديوي" لأدون دي ليون ص ٨٧ ،  
و "رسائل من مصر الحديثة" للميرون دنجلار، ص ٦٢

(٢) أنظر : مالك كون "مصر في عهد اسماعيل" ص ٢٠ ، وداليس : "اسماعيل باشا" ص ٣

وأما الخبر الروماني— وكان لشخصه، في تلك الأيام، منزلة سامية : أولا بسبب مركزه، ثم للشهور عن ميوله وفضائله، وأخيرا بسبب صداقة نابليون الثالث له— فإنه قبل هدايا ضيفه، بممنونية عظمى، وأحتفى به حفاوة فائقة، ووعده بمساعدته جهد الطاقة والاستطاعة خيرا، ووجه أن يرفع إلى سدة عهد السنية وصيته بالا كليرس الكاثوليكي والكاثوليكين المصريين إحسانا .

فلما عاد الأمير (اسماعيل) إلى مصر، وجد من مظاهر شكر عمه له، ما أطلع صدره، وأفساد مشاق سفره .

وفي مايو سنة ١٨٥٨، أقام محمد سعيد باشا حفلة حافلة في الاسكندرية— وكانت حفلات ذلك الوالي عديمة نفمة— ودعا إليها جميع أمراء بيته العالي، سواء في ذلك الذين كانوا في الاسكندرية، والذين كانوا بمصر أو غيرها من الجهات .

ففي الأمراء الدعوة، وفي مقدمتهم أحمد باشا رافت أكبر أولاد إبراهيم باشا، وحليم باشا أصغر أنجال (محمد علي) واحترام الأمير (اسماعيل)، لأنه كان متوكل المزاج .

وقد كان توكك مزاجه في ذلك الظرف، أمرا ساقه إليه حسن الحظ : فإنه لما انتفضت الحفلة عاد الأميران السابق ذكرهما إلى مصر بقطار خاص مع حاشيتهما ورجلها . فوقعت العربة التي كانت تقلهما في النيل، عند كفر الزيات . فغرق الأمير أحمد باشا ونجا الأمير حليم باشا .

فأصبح الأمير (اسماعيل) ولي عهد السدة المصرية، لأنه بات أرشد رجال البيت العلوي بعد موت أحمد باشا أخيه الأكبر .

وقد اختلفت في سبب تلك الكارثة الروايات . فمن قائل إن الكوبري نسي مفتوحا سهوا فسقط القطار في النيل عند ما بلغه، لأن السائق لم يتمكن من إيقافه، ومن قائل

كارثة كفر الزيات



— وهو الأقرب الى الصديق : لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد أنشئ بعد — إن القطارات كانت ، في ذلك العهد ، تمتاز النيل عند كفر الزيات ، في معدية تنقل عرباتها ، ثلاثاً ثلاثاً ، مع ترك الخيار للركاب في النزول انهاء لخطرها ، أو العبور فيها ، وأن الأميرين — وكانا معا في حربة واحدة — خُيرا فأيا إلا البقاء في الحربة وعبور النهر وحى هملهما ، وأن المنوط بهم أمر قتل العربات إلى المعلقة دفعوا برينهما بقوة إليها إظهارا للشا طهم وضيقتهم ، فتدحرجت عنها إلى النهر وضرفت فيه . أما أحمد — وكان بدينا — فلم يستطع الوثوب من نافذة الحربة إلى الماء ، فأخرج ميتا غرقا ، وأما حلم — وكان خفيف الجسم ، متون العضلات — فإنه وثب من النافذة إلى الماء وأجتازه سباحة <sup>(١)</sup> .

ولكن النيمة — وكان ذلك بدء قيامها ، ولكم حاولت ، فيما بعد ، نسوء ميمة (اسماعيل) وطمس معالم نغره ومجده — أبت إلا أن تقتنمها فرصة لتنفث عليه وصل عمه سعيد ميموها وتحاول تكبير مياه الصفاء ، والتوائد بينهما <sup>(٢)</sup> .

غير أن الأميرين لم يباليا ، في تقاوة ضميرهما ، بما أذاعته الألسنة الشريرة حولهما . وظهر ذلك جليا في أعمالهما .

فإن محمد سعيد باشا ، حينما سافر إلى سوريا زائرا في سنة ١٨٥٩ (ومكث في بيروت ثلاثة أيام ، نزل فيها ضيفا كريما على وجهاء المدينة ، وكان في أثناء مروره في الطرقات ، ينثر الذهب على الناس ) ، عهد في قائممقامية الولاية : مدة غيابه إلى ابن أخيه الأمير (اسماعيل) . فدل ذلك على مقدار ثقته به وباخلاصه <sup>(٣)</sup> .

عائمة اسماعيل  
الأول

(١) أنظر : ماك سون "مصر في عهد اسماعيل" ص ١٨ ، و "مصر الحديث" لأدون دي ليون

ص ١٥٤ و ١٥٥

(٢) أنظر على الأخص : "الكافي" لشاريم بك ج ٤ ص ١٣٦ و ١٣٧ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٩٠٠

(٣) أنظر : "تاريخ مصر الحديث" لجورجي بك زيطان ج ٢ ص ٢٠٢

كذلك حينما قصد البلاد الحجازية لتأدية فريضة الحج في أوائل سنة ١٨٦١ ،  
 أقامه نائباً عنه وقائماً مقامه . وسرّجنا من الكيفية التي أذى بها الأمير (إسماعيل)  
 واجبه . وأظهر له امتنانه حين عودته ، بتقليده قيادة أربعة عشر ألف عسكري ،  
 وتعيينه سرداراً عاماً للجيش المصري ، وعهد إليه في إخماد ثورة بعض القبائل المتمردة  
 على حدود السودان .

والثانية

سردارية الجيش  
المصري

فقام الأمير (إسماعيل) بهذه المهمة خير قيام : لأنه تمكن بحسن دهائه وفطنته  
 من تسكين نيران تلك الفتنة بدون سفك قطرة دم واحدة <sup>(١)</sup> .

إخماد فتنة القبائل  
الناشئة على حدود  
السودان

ولما أحسن محمد سعيد باشا بأقل ونخزات الداء الأليم ، الذي قضى فيما بعد على حياته ،  
 وشعر بأفامله تهلم بسرعة هيكل جسمه القوي ، وعزم على السفر إلى أوروبا للتطبيب  
 منه ، في أواخر صيف سنة ١٨٦١ ، عهد أيضاً بالتبابة عنه في كرسي ولايته ، إلى  
 ابن أخيه الأمير (إسماعيل) : كأنه كان شاعراً أن الموت بات قاب قوسين أو أدنى ،  
 وأنه يحسب أنه أن يقدم ، لولى عهداً ، الفرص التي تمكنه من تلم شؤون الحكم ، قبل  
 التلّس ، لنفسه ، بواجبات أعبائه .

غير أن أطباء أوروبا لم يتمكنوا ، أكثر من أطباء مصر ، من التغلب على داء سعيد  
 العضال . فعاد الرجل إلى مصر ، وهو يائس من الحياة . وما لبث أن فارقه غير  
 بالك طمها ، تاركاً ثروته القليلة ، نسيباً ، لابنه الأمير طوسون وأرملته الأميرة أنجاء هانم  
 البديعة الجمال ، وعقلاً ملكه لابن أخيه (إسماعيل باشا) .

(١) أنظر : "مصر في عهد إسماعيل" لـ مالك كون ص ٢٠

## الفصل الثالث

### سمو الوالى (اسماعيل باشا)

وإذا سألت عن الكرام وجدتهنى \* كالشمس لا تخفى بكل مكان

وصف اسماعيل  
لدى ارتقائه العرش

وكان عمره، عند ارتقائه السنة المصرية، اثنين وثلاثين عاما وسبعة عشر يوما :  
أوما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة قمرية .

فكان، والحالة هذه، في ريمان حياته وظهور أيامه : ناضج الفكر والتصور ؛ يافع  
الجمم ؛ ممتلئ ؛ زاهر البنية ؛ قويا ؛ ربة القامة ؛ مريض الجبهة ؛ كثيث اللحية  
والشارب والحاجبين ؛ متلائهما ، كأنهما من ذهب الجنيها ؛ وكانت عيناه لتقدان  
حثة وذكاء مع قليل ميل نحو الحول ، من أثر الرمد الصديدي الذي مني به في حداثته ،  
وانجلى عن إبقاء إحدى عييه أصغر قليلا من الأخرى .

وكان ، إذا حدث إنسانا ، كمر على عينه البنى ، وشخص الى عمدته باليسرى ،  
شخصا مزعجا ، لشدة تألقها : كأنه يريد أن يحتل أعماق أفكاره ، بالنور الساطع  
المنبعث عنها .

وبلغه ، مرة ، أن أحد القناصل العامة ، قال ، بعد مثوله بين يديه ومحادثته  
وانصرافه : « إنه إنما ينظر بعين ويسمع بالأخرى » . فقال : « واني لأفكر  
(٢)  
بالتنين معا » .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانق ، و"خديويون وباشوات"  
لوريل بل و"مصر واسماعيل باشا" لساكريه وأوزريون ، و"مصر الحديثة والحديثة" لأودسكاكي ،  
و"مصر في عهد اسماعيل" لمالك كون .

(٢) أنظر : "خديويون وباشوات" لوريل بل ج ٦

وكان عظيم الهية ؛ جليل المقام . ولا غرابة : فإنه ابن (إبراهيم) وحفيد (محمد علي) . والهية كانت ميزة كل حركاتها وسكناتها . والجلال كان يحف بهما كأنه ظلها الظليل .

وكان حسن الفراسة ؛ يدرك ، حالا ، ما انطوت عليه سريرة عبادته . ولكنه كان أيضا حسن الفطن بالناس ، لاسيما بالأجانب وأفراد الجاليات الغربية : فأدى ذلك الى جملة أضرار أصابته وأصابت بلاده . لأن مدد المخلصين اليه الولاء في خدمتهم ، من أولئك الأجانب ، لم يتجاوز — على كثرتهم — عدد الأصابع .

وكان كبير النفس ، على الهمة ؛ يشعر شعورا عميقا بأن كونه ابن (إبراهيم باشا) الأمير الذي قاتل في قارات العالم القديم الثلاث ، ليوطد دطائم ملك مصر ، ويوسع نطاقه ، ثم تمنى ، حينما آلت اليه أزمنة الأحكام ، لو يمين الله عليه بعمر طويل ، ليتمكن من السير بمصر ، بخطوات واسعة ، في مضمار المدنية الغربية والرقى العصرية ؛ وكونه حفيد (محمد علي) ، الباشا العظيم ، الذي أخرج مصر من ظن العدم الى عالم الحياة ؛ ومن حضيبض النذل الى عرش السيادة ؛ وسدد خطاها في سبيل العمل وميدان الفخار ، نيفا وأربعين عاما ، يبعثه محط آمال تاريخية عظيمة يقسم عليه تحقيقها ؛ ويوجبان عليه أحمالا صاعدة ، لا مندوحة له من الإقدام عليها .

فوضع نصب عينيه ، حالما انفتح عصر ملكه أمامه ، الجرى على خطة تجعل التاريخ يضعه في صف جده وأبيه ، وينعته بنعتها . فيقول : (إسماعيل العظيم) ابن (إبراهيم العظيم) ابن (محمد علي العظيم) .

وصمم على تنفيذ تلك الخطة ، وعدم الحياء عنها ، مهما تكاثرت في سبيله العقبات

ومهما اضطارته صروف الأيام الى اللين ، موقتا ، والتظاهر بمكس ما يرى اليه من الأغراض البعيدة .

مراهبه

تلك الخلطة كانت ترى :

(أولا) الى السير بمصر بصراحة تامة في سبيل المدنية الحديثة ، والسير بها ، بعزم ثابت وقدم راسخة ، في جميع تشعبات ذلك السبيل .

(ثانيا) الى الفوز بالاستقلال السيامي لها .

(ثالثا) الى النهوض بها الى مصاف الدول العظمى .

ولكنه كان يعلم أن تحقيق هذه المرامي عن سبيل القوة يكاد يكون محالا :  
(أولا) لعدم تضوج العقيلة العامة في البلاد ، تضوجا يساعده على إدراك مقنيات نفسه ؛ و(ثانيا) لأن مركز مصر من الدولة العلية ومن الدول الغربية يجعلها أضعف بكثير من أن تحاول ، مرة ثانية ، تضليب سيفها على سيوف تلك الدول — (وما أصاب جثته في ذلك كان خير عبرة له) . فصمم على تحقيقها عن سبيل الدهاء والافتناع ، وبالأرتكان على الدولة الغربية التي يتضح له رجحان كفتها في ميزان السياسة العمومية .

غير أن حزب النفاقين على محمد سعيد باشا ميوله الى الأجانب ، واستسلامه اليهم ، المتوسمين في خلفه إقلاعا عن تلك الميول وعودة الى المبادئ العباسية ومقتضياتها ؛ والمنضمين في أهوائهم حول هذا الخلف ، توها منهم أنه رئيسهم وزعيم حزبهم المعارض لكل اصلاح ، لم يكونوا يهابون ما انطوى عليه ضميره ، وصح عليه عزيمته .

ففلنوا، لما أغمض محمد سعيد جفونه الإغماض الأبدي، أن دورهم قد حل ؛  
وأن الأوان قد آن للعمل على الجالية الغربية ، حملة ترضع أركانها ، وتغنى شأنها .

فأضرموا نار الأحقاد والضغائن الدنيئة في قلوب زمرة من السوق والزنانف ودفعوا  
بهؤلاء الى نوع من الفتنة والقيام على الغربيين . وحرصوا ثلاثة من العساكر — ولعلمهم  
كانوا ألبانيين من بقايا أجناد الأرتاؤط الثمانية آلاف الذين اتخضم (عباس الأول)  
حراسا له، وعزم على تسريح ماتبقى من الجيش المصرى ليعلمهم في قوة البلاد العسكرية  
مكانهم — على إهانة أحد الفرنسيين ، والانهيال عليه ضربا بدون سبب . ثم على  
تطريقه بحبل في رقبته ، وصعبه في الشوارع ومحاولة قتله ؛ وهم يظنون أنهم يعملون  
عملا يقع من قلب الوالى الجديد موقعا حسنا .

قصة الاسكندرية

فهب قنصل فرنسا العام بالاسكندرية مدافعا عن المهان من رعايا دولته . وطالب  
الحكومة المصرية بمعاقة الحناة وتقديم المئذنة .

فتردعت الحكومة قليلا . لأنها لم تكن قد وقفت بعد على نيات الأمير الجديد .  
ولكن (اسماعيل) أصدر الأوامر حالا بضرب المعتدين ضربة تكون عبرة لأمثالهم ،  
ورادعا لمهيجهم .

لجوزت الحكومة الجناة من رتبهم ؛ وأزلتهم من درجاتهم ؛ وفتتهم الى أقاصى  
البلاد . ثم أمرت فرقة عسكرية بتقديم التعية الى الراية الفرنسية<sup>(١)</sup> . فأدرك الرجعيون  
ساعتئذ خطاهم ، وأخذوا الى السكنة ، ريمنا تنبأ لهم فرص مناسبة . وأمسوا  
يستقدون بأن (اسماعيل) ليس رجلهم ؛ وأن آمالهم يجب أن تعقد بغيره .

إعتمادا

(١) انظر : "مصر واسماعيل باشا" لسركيه وأندريون ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣

# الجزء الثاني

---

بزوغ الشمس

---

## الفصل الأول

### إيقاظ الآمال

وما زلت تواتر إلى كل غاية \* بلغت بها أعلى البناء المقوم  
غير أنه لم يكن من مصلحة (اسماعيل) ولا من مصلحة البلاد أن ينفر رجال ذلك  
الحزب . لأنهم ، وإن لم يكن يرجى منهم نفع مطلقا ، لا تغلاق عقولهم دون أشعة كل  
نور من أنوار التطور الاجتماعي ، كانوا قادرين على تمكين مياه التفاهم بين مصر  
والأستانة . وذلك التمكين لم يكن مرغوبا فيه . بل كان المرغوب فيه عكسه لنجاح  
سياسة الدهاء التي حوّل (اسماعيل) على اتباعها في تحقيق آمنيات نفسه .

لذلك ، فإنه ، بعد أن اقتضت مراسم التهانى بارتقائه سنة جده وأبيه ، صرح  
بعزمه على السفر إلى الأستانة العلية لتناول فرمان التولية فيها ، اقتداء بأبيه (إبراهيم)  
وعملا بنصوص فرمان سنة ١٨٤١

السفر إلى الأستانة  
لتقلد الإمارة

فأقام حليم باشا عمه مقامه في فيخته ، وسافر إليها . ومثل بين يدي السلطان  
عبد العزيز — وكان قد خلف ، منذ أقل من سنتين ، أخاه عبد المجيد على عرش  
آل عثمان — فلقى منه كل حفاوة وإكرام وقلبه السلطان بيده أغفر نياشين الدولة  
فوق تقليده إياه إمارة مصر .

(١) أم مصادر هذا الفصل : "مصر في عهد اسماعيل" لـ "مالك كون" ، و"مصر القديمة والحديثة"  
لـ "هينريكي" .



فاختم (اسماعيل) فرصة فيض هذه التعطفات ، واتمس من عبد العزيز التنازل إلى زيارة القطر المصري ؛ فومده السلطان بذلك عاجلا ؛ فشكر وعاد راضيا محظوظا . ولما وصل إلى الاسكندرية وقابله جميع قناصل الدول وكبار رجال الجاليات الغربية ليهلكوه بسلامة الإياب وفرمان التولية ، ألقى على مسامعهم خطابا نفيسا ، كان بمثابة إعلان للخطوة التي رسمها لنفسه ، فيما يختص بإدارة مصر الداخلية . وهالك نصه :<sup>(١)</sup>

« يا حضرات القناصل

خطبة المجلس

إني أشعر شعورا عميقا بالواجب الذي وضعه الله سبحانه وتعالى على طائفي باستمدائه المرحوم عمي إلى جواره وانتخابه إياي لتولي زمام الأحكام المصرية . وإني آمل في ظل صاحب الجلال الهايوني السلطان الأعظم أن أقوم قياما حسنا بأداء ذلك الواجب .

وإني موطن العزم توطينا حقا ، يا حضرات القناصل ، على تخصيص كل ما أوتيت من ثبات وهمة لترقية شؤون القطر الملقاة تقاليد حكمه إلى ، وإنماء رخائه .

وبما أن أساس كل إدارة جيدة إنما هو النظام والاقتصاد في المالية فإني سأجعلهما نبراسي في كل أعمالي . وأعمل على توطيد أركانها بكل ما في وسعي .

ولكي أقدم مثالا صالحا للجميع ودليلا محسوسا على إرادتي هذه الأكيدة فإني قد عزمت منذ الآن على ترك الطريقة المتبعة من أسلافي ، وعلى تقرير مرتب سنوي لي ، لن أتجاوزه أبدا . فأتتمكن بذلك من تخصيص عموم إيرادات القطر لإنماء شؤونه الزراعية وتحسينها .

(١) ومن قائل إن هذا الخطاب قى في القلعة ، ثاني يوم التولية .

وإني قررت أيضا إلغاء طريقة السخرة المشؤومة ، التي اتبعتها الحكومة دائما في أشغالها والتي هي السبب الأهم ، بل الأوحده ، الحائل دون بلوغ القطر كل النجاح الذي هو جدير به .

وإني لمتيقن أن التجارة الحرة ستجد فائتها ومصلحتها في هذه الإجراءات ، فتلتشر الرخاء وتعممه بين جميع الطبقات من الأهالي والسكان .

أما التعليم ، وهو أس النجاح والرقى ؛ وإقامة معالم العدالة بقسطاس حق ، وهي محور كل أمن ؛ فإني سأخصهما بفاق عتائق . فينتج عن النظام في المالية والادارة ؛ وعن توزيع العدالة توزيعا لا تشوبه شائبة ، زيادة في سهولة المعاملات ، وضمانة لسلامتها بين الأوروبيين والقطر .

وإني آمل ، يا حضرات القناصل ، أن أجد منكم اقتناعا بهذه المواطف التي تملأ قواذى ، وإقبالا على وضع أيديكم في يدي بإخلاص ، لتعمل معا في سبيل نير ، على ما فيه خير البلاد وساكنيها <sup>(١)</sup> . »

فكان لهذا الخطاب وقع حسن ، ليس فقط عند سامعيه ، بل في عموم الأرض المصرية ، وفي ذات البلاد الخارجية ؛ وتيقن الجميع أن الملك الجديد البازغ بفرو ، يعمل في طيات مستقبله سعادة ، فلما حلت الأفطار الشرقية بمثلها .

وكان فرديناند دى ليسبس ، صاحب مشروع ترعة السويس ، خائفا على مشروعه انقلابا في الولي الجديد ، وانحرافا كان قد هؤل به كثيرون حوله . فرأى (اسماعيل)

تهده المخاوف على مشروع القنال

(١) أنظر : " مصر القديمة والحديثة " لأودسكلس ص ١٢ ج ١ ، ر " مصر في عهد اسماعيل "

أن يسرى عنه مخاوفه، ويسكن مخاوف الشركة العالمية القائمة بذلك المشروع مع إبقاء يديه حريين في المستقبل .

فاغتنم فرصة وجود فريدناث في زمرة القناصل العامة المحيطين بشخصه في تلك الحفلة الرسمية التاريخية، وقال له على مسمع من الجميع : «إني، يامسيودي لسيبس لأرى نفسى خير جدير بالملك إذا لم أكن قتاليا أكثر منك . وإنك ، لو كنت والى مصر، وأنت رئيس شركة القتال، لما فعلت في مصلحتها ، بالأستانة ، أكثر مما فعلت أنا<sup>(١)</sup> .

فبتد، بذلك، بحبابة الوهم التي كانت قد غشيت أفكارا كثيرة، وتمكن، بيا كورة أعماله هذه التي سردنا تفاصيلها ، من بلوغ غايتين معا : (الأولى) المحافظة على وداد الحرمين ومحبيهم؛ و(الثانية) اكتساب ثقة الأوروبيين وإعجابهم به .  
أما شعبه فكان فرحا به، فرحا بتوليته، ولا فرح العبي يوم العيد .

(١) "أما إلى زمرة السويس" فريدناث دي لسيبس ص ٢١٤ و ٢١٥

## الفصل الثاني

### زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية<sup>(١)</sup>

كانت زيارتكم هذى لنا أملاً \* واليوم قد بلغ الآمال راجيها  
وبينا الملاً في القطر لا يزالون يتحدثون بسفر ممّو الوالى الى القسطنطينية ،  
والخفاوة التى قوبل بها هناك ، والإكرام الذى ناله ، وبما اشتملت عليه الخطبة الرسمية  
من بدور سعد تسطع في سماء البلاد ؛ و بينا الكل يشاهدون به تحقيق الخطة  
التي رسمها لنفسه في ذلك الخطاب ، فيما أصدره من الأوامر إلى وزارة المالية بتخصيص  
مبلغ ستين ألف كيس (أى ماينوف قليلا على سبعة عشر مليوناً ونصف من الفرنكات)  
بصفة مرتب سنوى له ، لن يتعداه ، وصرف كل ما يزيد على ذلك في مصالح البلاد —  
إذا تجردوى في وادى النيل جعله يهرطربا من أحلاه إلى أقصاه ، وجعل عيون  
عموم العالم الإسلامى تنجبه إليه ، وتنتظر نظرة إجلال وإعظام إلى العاهل الحاكم فيه .  
فلك النبأ انما كان تحرك الركاب السلطانية العثمانية الى زيارة الديار المصرية ، والبر  
بالوحد الذى وعد (عبد العزيز) تاجه به .

وانما كان لذلك النبأ ، ذلك الوقع العظيم ، لأنه منذ أن فتح السلطان سليم خان  
الأول القطر المصرى وأضافه الى ممالكه الشاسعة الأرجاء ، وبارحه بعد أن أقام فيه  
حكومته المملوكية المزدوجة ، التى كانت من أكبر أسباب فقره وتعاثته ، لم تطأ قدم  
سلطان عثمانى مطلقاً ؛ ولا وقع في خلد أحد أن خليفة الاسلام يأتى إليه ليزوره ،

(١) أهم مصادر هذا القمصل : "سفر السلطان عبد العزيز إلى مصر" لجاردييه ، قصص من طائفة برية .

بعد أن فارقت الخلافة العباسية ربومه ، ولأنه ، منذ أن أغمض الموت جفون  
السلطان مراد خان الرابع في سنة ١٦٣٠ . لم يرو عن سلطان عثماني مطلقا أنه فارق  
عاصمة ملكه ، لا لجهاد تقي ولا لتفقد أحوال رعيته ، ولا لزيارة غيره من حواهل  
الدنيا وملوكها .

فلم يكن العالم يصدق ذلك النبا ، لولا أنه رأى من تحقيقه ما قطع قول كل متكهن  
وبئد الشك من جميع الصدور .

ففي يوم الجمعة ، ثالث أبريل سنة ١٨٦٣ — وكانت الجمعة المقدسة عند الطوائف  
الغربية — ركب السلطان عبد العزيز ومعه ابنه الأمير يوسف عز الدين ، ووزيره  
فؤاد باشا وزير الحربية ومحمد باشا وزير البحرية ، وضيئها من كبار موظفي الدولة  
والمباين والخاصة السلطانية ، اليخت الفخم (فيض جهاد) ، بعد أن تبرك بدعاء  
والدته السلطانة المعظمة ؛ وركب كل من الأمراء الفخام مراد افندي وحيد افندي  
ورشاد افندي أولاد أخيه المرحوم عبد المجيد ، الفرقاطة (مجيدي) ؛ وركب وراهم  
جمهور عديد من الباوران والضباط والموظفين والجنود سفنا عثمانية أخرى ؛ وأقطع  
الجميع من الأسمانة الى مصر .

فمروا بغليبولي في اليوم الرابع من أبريل — وكان يوم السبت النور — فأطلقت  
طوابي الشاطئ الأوربي وطوابي الشاطئ الآسيوي مائة مدفع ومدفعا ، إجلالا وتعظيما  
لاجتياز الباديشاه العثماني وأمراء بيته السلطاني مياه الدردنيل .

وما بلغ اليوم السابع من أبريل صفاه ، إلا ووصل الأسطول المجيد الى مرسى  
بحر الاسكندرية . فتجلت لم هذه المدينة ، وهم في الهدى ، كأنها العروس المنتظرة  
ساعة الزفاف .

فقدوا منها في جهة مرفأ رأس التين ، وأعين قاطنى السراى شاخصة اليهم ،  
وقلوبهم محتجة سرورا ، وروح (اسماعيل) تستمرئ لذة المطمع المحقق .

فلما انصهوا من البوغاز ، بحيث يشرفون على جميع دائرته الشاسعة بأنظارهم ، رأوا السفن  
مكتظة فيه ، والأعلام العثمانية تخفق فوقها ، وتزفر في جميع فضاء الساحل المنظور .

لما زالوا يتقنسون ، حتى اذا بلغوا أقرب نقطة في البحر تستطيع السفن البخارية  
الرمو فيها ، أطلقوا مدافع أسطولهم تسليا على الأرض المصرية .

فدوت المدافع من الطوابى المحيطة بالمدينة ، إيجابا وإجلالا ، وملا الفضاء صدى  
الموسيقىات العديدة من عسكرية وغيرها المصطفة على الشاطئ . وارتفعت أصوات  
البحر الغفير المحتشد المزدهجة أقلامه على الساحل ، ضاجعة . عاجلة — وقد مزجت  
التحية السلطانية بالتحية الأميرية — ، وصائح : " بادشاهمز چوق يشا " و  
" أفندمز چوق يشا " معا .

الوصول  
الى الاسكندرية

ونزل (اسماعيل) ومعه عمه حليم باشا وغيره من أكابر رجاله ، في زورقه الفخم تحيط  
به انبعاثت ذلك الفرج العمومى ، وسار قاصدا اليخت السلطانى لتهنئة متبوعه  
الأعظم بسلامة الوصول ، وتقديم فروض الاحترام والابلال له ، والسلام على ضيوفه  
الكرام واستقبالهم .

فقبل يد السلطان ، وصالح باحترام وانحناء أمراء البيت العثمانى ، ثم حمد وشكر  
ودعا دعاء صالحا .

فوجد من لندن عبد العزيز حفاوة فائقة ، وإكراما جديدا : فان مدافع الأسطول  
العثمانى أرسلت طلقاتها ، مرة أخرى ، إجلالا له ، وأقبل السلطان عليه ، وقلده

بيده سيفاً مرصعاً ، كأنه يريد تثبيت توليته الرسمية ، عسكرياً . ثم أبقاه في ضيافته ساعة وأكثر ، أظهر له في خلالها ما ضاعف سروره وزاد إخلاصه .

ثم سار الجميع الى الزوارق المعتدة لهم . فدخل السلطان عن زورقه الخاص الى الأمراء حميد ورشاد وعز الدين . وركب هو زورق الوالي بمعية مراد و(اسماعيل) . ونزل الباقيون في الزوارق الأخرى ، والمدافع تدوى من البحر والبر ، والموسيقى تصدح ، والأصوات تضحج ، والدعوات تتعالى . وساروا قاصدين سراي رأس التين العامرة في وسط مظاهر ذلك الاحتفاء العام المستمر .

وكان في انتظارهم ، أمام باب السراي ، فرقة كاملة من الجنود المصرية مصطفة على الرصيف ، ومرتدية أنغر ملابسها العسكرية . فرفعت سلاحها طاماً مصمت أقدامهم الأرض المصرية ، وقامت لم تحيتها العسكرية ؛ وتنادى جنودها بأعلى أصواتهم ، وسلاحهم يتصلصل : " بادشا همز جوق يشا " — وهي التحية التي كانت تدوى الآفاق بها في ذلك اليوم .

وكانت سراي رأس التين قد أعدت إصداًداً فخماً لتزول الركاب السلطانية فيها . فوجد عبد العزيز من زخرفها ورياشها والبذخ المنتشر في جميع أركانها ، ومن أسباب الراحة والهناء كلية كانت أم جزئية ، المتوفرة في كل جهاتها ، ما أوجب إعجاب به (باسماعيل) وضاعف تقديره للثروة المصرية .

وبعد أن استراح ، وتناول طعام الغداء — وكان شيطاً فائراً يوقى وصف كل وأصف ، وقتم باستمرار على مائتين : إحداهما في السلامك ، للسلطان وأمراء بيته ؛ والأخرى في دار الحريم ، للماشية والمعبية والمساكين ؛ ثم استراح ثانية — أخذ يحقق

بنظره، من نوافذ السلامك المفتوحة، بالأعمال المدهشة التي خلقتها إرادة (محمد علي) الباشا العظيم، من العدم؛ ويجب بها إعجاباً عظيماً. ثم طلب إلى (إسماعيل باشا) أن يقص عليه كيف تمكن ذلك الجند الكبير من إتمام ما تم على يديه.

مسامرة بين  
السلطان وإسماعيل

فقص عليه (إسماعيل) كيف أن (محمد علي) - في بلد كانت تموزه كل الوسائل ما عدا يد الإنسان، وكانت كل الآراء فيه مجمعة على معارضة آرائه؛ وسدول الجهل وشبح الحمجية تخيم على ربوعه - قد أنشأ كل تلك المعجزات في أقل من ثمان سنوات. كيف أنه - بعد أن أضاع أكثر من سنة، وأفق ملهونا ونيفا من النقود لايجاد الترمانة - اتضح له من الأدلة التي أقامها أمامه سريزي بك المهندس الفرنسي (بالرغم من أنه قدم إلى خدمته مصحوباً بتوصية ضئيلة) أن جميع جهودات شاكر افندي رئيس أعماله التركي، لن تجدي نفعا، لمخالفتها للأصول؛ فأوقف حالا سير عملها؛ وضرب صفحا عن المبالغ الطائفة التي صرفت سدى وشرع، بدون أدنى إبطاء، في تنفيذ تصميمات ذلك الفرنسي الحكيم. وكيف أنه - بالرغم من كل الصعوبات القائمة في سبيله - حفر الخوض اللازم لترسانته؛ وأقام المخازن والمعامل فيها وحولها؛ وبني أسطوله العظيم المؤلف مما يزيد على خمس وثلاثين قطعة مشتتة على أكثر من ألف وخمسمائة مدفع بالرغم من عدم وجود الخشب والحديد لديه. وكيف أنه أوصل ماء النيل إلى الاسكندرية، بجفرة ترعة الحمودية التي يرى مصيها أمامه؛ وبخفزه لإياها بدون آلات ومعاول بل بمسرد أيدي الفلاحين وأصابعهم، لعدم وجود تلك الآلات والمعاول في البلاد. وكيف أنشأ سراي رأس التين والطوايى الحصينة التي تدرأ عنها وعن الساحل تعديات كل



مدق والى وضع رسمها وقام بتنفيذها المسبودة سررى عيه . وكيف أقام المنارة الشاهقة ، هدى للسفن والبحاريات ، لتلا ترتطم بالصخور القائمة عند مدخل البوغاز .

وقص عليه أيضا كيف تم في عهد عباس ، وبالرغم من ارادته ، مد خط السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر على يد شركة انجليزية فكرت في مده حالا بعد التجاز من مد السكة الحديدية بين لندن وليفر بول ، اذ لم يكن قد مد من ذلك شىء في معظم البلاد الأوروبية الأكثر حضارة .

فارتاحت نفس عبد العزيز الى أحاديثه وتاقت الى استعادتها والتوسع فيها ، لاسيما فيما كان منها خاصا بالحمودية والسكة الحديدية ؛ ليقينه من أن الترع والسكك الحديدية ، بصفتها أهم طرق المواصلات بين البشر ، أهم ما يستطيع حاكم بار برطاه وملكه الإقبال على الإنكار منها في دائرة بلاده .

جولة  
في الاسكندرية

ولما غربت الشمس وهبطت حرارة النهار ، وانسلت ظلال الفسق نخرج البادشاه من سراى رأس التين ، في أنغر عربات القصر المكشوفة ، تجرها أربعة جياذ مطهمة ناصعة البياض ، ويتقدمها ثمانية صناعون بملابسهم المزركشة بالذهب ، وفريسيير من الخواص المرتدين ملابسهم الحمراء الساطعة ؛ واجتاز — واسماعيل — على يساره ، والعربات المقلدة أمراء البيتین العثماني والعلوى تتلو عربته الفاخرة — شارع رأس التين ، فشارع الميدان ، فشارع نوبار ، فالممشية وباب رشيد . وقد اكتظت كلها بالمتفرجين وقفا على جانبي الطريق ، وتزينت بالرايات والأعلام الخفيفة ، وازدانت بالأنوار المتألقة .

أما في الشوارع الآهلة بالسكان الوطنيين، فإن الرعايا كانوا واقفين على حافات حوائطهم، المزينة باليارق، وقفه الخاشعين، يهتفون بملء أصواتهم "بادشا همز جوق يشا" وإذا ما دنا منهم الموكب يكادون يسجدون عبادة أمام جلالة الخليفة الفاتت بينما أناس منهم يثرون الورد والزهور في طريق الموكب، أو ينشرون في الهواء دخان البخور المعطر ويحرقون العود والند. وجوقات موسيقية واقفة على بعد مائة متر الواحدة من الأخرى، تصدح بأطرب الأنغام فتشغف الأسماع وتشجى القلوب.

ولم يكن من نساء ولا أولاد إلا في نوافذ البيوت وعلى أسطحة المنازل، حيث كانت تردم الرؤوس البيضاء والرؤوس السوداء وتدوى الزناريد والتهايل.

وأما في الشوارع الآهلة بالأجانب، ولا سيما المشية، فإن القبعات كانت تلوح في الهواء، وصيحات الابتهاج تملأ الفضاء، ويقتدى الأهالي بالغربيين فيصيحون معهم ويفوقونهم بأصواتهم، ويحتمدون في أن يظهروا لسلطانهم بحركاتهم وأنظارهم، مقدار الحب والإخلاص اللذين تكنهما قلوبهم له، بينما السيدات ينثرن من التوافذ باقات الزهور والرياحين أو يرفرن بمناديلهن في الفضاء. وكانت الزينات يأخذ سناها بالأبصار، وصل الأخص الزينة التي أقامها الكونت زيرينا عند مدخل المشية.

فلما فرغ السلطان من المرور عاد إلى سراي رأس التين من الطريق التي أتى منها بين مظاهر الإجلال والتعظيم.

وما استقر في قاعة جلوسه إلا وتلقى حوله البر والبحر بالألوان المختلفة الألوان البهية الأشكال، ودوت في الآفاق الألباب النارية المتنوعة الأوضاع. وأخذت

نفسا قط، أمام نوافذه، بأشكال أهلة وبدور ونجوم، يأخذ سناها بالأبصار، واستقرت الحال كذلك حتى بعد منتصف الليل .

ولمرد المهين  
بسلامة الوصول

فلما كان اليوم التالي (يوم الأربعاء ثامن أبريل) حوالى الساعة العاشرة صباحا، استقبل السلطان، ويغانبه (اسماعيل باشا) وفؤاد باشا، فتأصل الدول العامة القادمة من للتهنئة بسلامة الوصول؛ وألقى عليهم خطبة جميلة، أحرب لم فيها عن سروره بما رآه من أسباب العمران في القطر المصرى الذى هو إحدى ممالكه الشاهانية؛ وعن نياته الطيبة، البازة برعاياه التى يرجوا أنه أن يمكنه من تحقيقها .

فترجم فؤاد باشا الخطبة لم . فشكروا السلطان على ما تفضل به من مقابلتهم وخرجوا وألستهم تلهج بالثناء على مقاصده ونياته .

زيارة السراى  
نمرة ٣

ولما كانت ساطت العصر، خرج عبد العزيزو (اسماعيل) وأمرء اليتيم العثمانى والعلوى وجميع رجال حاشيتهما للتفرج على قسم المدينة الغربى . وساروا بعد ذلك بجانب ترعة المحمودية . وبعد أن استراح السلطان في بستان البرنس حلم (وهو الذى عرف، في أيامنا، بنراى نمرة ٣ التى كانت مخصصة لسكنى الغازى أحمد مختار باشا قبل سنة ١٩١٤، اذ كان مندوبا ساميا للدولة العثمانية بالقطر المصرى) وبقى من احتفاء البرنس حلم بجلائته ما استوجب محظوظيته منه ثم عاد الى سراى رأس التين، وقضى ليلته في راحة وهناء كما قضى الليلة السابقة، والمدينة كلها حوله أنوار وأفراح وتهليل وزغاريد .

السفر الى مصر

وفي يوم الخميس (تاسع أبريل) اجتاز، بمركبته المفتوحة، المدينة مرة أخرى، فقابلته بما قابلته به المرة الأولى . وتوجه الى المحطة، حيث كان في انتظاره القطار

المعد لركوبه ، ليقله الى مصر عاصمة الديار . ولم يكن قد رأى قبل ذلك قطارا . فاستوقفت أنظاره آلامه وعدته ؛ وأهاجت فيه عواطف حب الاستطلاع — وكانت قوية في قلبه .

فأخذ يستفهم ويستفسر عن كل ما يرى ؛ فتقدم اليه ناظر المحطة ومهندس القاطرة بكل بيان شاء وإيضاح طلب والإيضاحات التي سأل عنها . حتى اذا أتت الساعة الحادية عشرة ، صعد الى صالونه الخاص . وجلس (اسماعيل) وفؤاد باشا في مقعد آخر مجاور ليكونا تحت طلبه . وركب باقي الأمراء العثمانيين والعلويين في عربات القطار الأخرى ؛ وكذلك رجال الحاشيتين . فصار بهم القطار يقطع سهول الوجه البحري . والراكبون يتجادثون بما توجبه المناظر الممتدة أمامهم من مواضع الحليث . حتى اذا بلغ بهم القطار كوبرى كفر الزيات الفخم ، أخذ الكل يسحبون بيناته ، ويعظمون من شأنه ، ويبالغون في تقدير نفقاته . واستفهم السلطان عنه من (اسماعيل) فقال انه بلغ ما يزيد على السبعة ملايين من الفرنكات . وأخذ البرنس حليم يقص على من معه في المقعد حكاية نجاحه من الموت في حادثة سقوط القطار في النيل . منذ خمس سنوات تقريبا .

ولما مروا على طنطا ، ورأوا ازدحام الأقدام على محطتها ، ونظروا ما أذن الجامع الأحمدى تملو في آفاقها ؛ طلب عبد العزيز بعض إيضاحات عنها وعن أهميتها فأجابه (اسماعيل) الى طلبه ؛ وقص عليه ما يعمل فيها أيام المولدين الأحمديين الأصغر والأكبر .

وحكى له على سبيل الفكاهة كيف أن نساء الريف المجاور — حينما جعل (محمد سعيد باشا) الخدمة إجبارية على الجميع — تجهزون حول سرايه بطنطا وأخذن يصحن

حكاية نساء الريف  
رسيد باشا

ويصخبون وبلغ من بعضهن الحق مبلغه . فأقبلن بعضى في أيديهن على جدران مسجد بجوار يضربنها صائحات : "خذ ! هذا جراثوك ، أيها الظالم ، الذى تريد انتزاع أولادنا منا ! " بينا (سعيد باشا) — وكان مصابا برمد في عينيه ، وقد استفهم عن سبب الججاج والمهرج الواصلين الى أذنه ، وعلمه — بهقه ويكاد يستلقى على ظهره من كثرة الضحك ، وكيف أن إحدى تلك النساء لمحت ناظر المحطة الفرنجى واقفا على رصيفها القريب من القصر فنادت زميلاتها وأشارت اليه قائلة : "ها كنّ النصرانى الذى يسير أولادنا في عربات النار . هلم لننقم منه ! " ؛ فتحوّل تيار مخطهّن صوب ذلك المسكين وهجمن عليه كجنونات ، غضابي ، وهنّ يصحن : "لنقتله ! لنقتله ! " ؛ ففزّ الرجل من وجوههن ، دائما خائفا ، واقتضين أثره ؛ وركبن خلفه كأنه الصيد وهنّ السلوقية . وما زال يحمرّ وهنّ يطاردنه حتى وصل باب سراى الأمير ، فاقطعنه خائفا منزعرا . وبعد أن أوصده وراءه صعد وسقط على قدمي سعيد هاتفا : "أقذنى يامولاي" وأخبره الخبر . فكاد سعيد ينشئ عليه من الضحك ولم يعد يستطيع جمع أجزاء جسمه المترجّح<sup>(١)</sup> .

ولما بلغ القطار براكيه كوبرى بنها ، ورأوا ، من خلال النوافذ ، السراى الفريدة التى أقامها عباس باشا ، عند أحد تماثيل النيل ، في نقطة تجتلى عين الناظر منها مساحة من الأفق ، قلما يضارع جمال أى منظر في العالم ، جمالها الطيبي ، تمثلت أمام أعينهم الفاجعة الرهيبة التى قضت على حياة ذلك الولي ، في أحضان تلك السراى ، المهمة منذ ذلك الحين — فسرت في أجسامهم قشعريرة كأنهم يرونها تمثل من جديد ؛ وتخيّلوا الألفى بك ، محافظ مصر ، آتيا منها مرة أخرى ؛ داخلا ذلك القصر الدامى ؛ مخرجا

حكاية الألفى  
محافظ القاهرة  
رمقتل عباس

(١) أنظر : "مصر في عهد سعيد باشا" لمرزوق ، ص ٣٠ و ٣١

منه الجلطة الهامة، مرتدية ملابس الجسم الخفيف : مجلسا لها في صدر العربية - كان عباسا لا يزال العاهل الحاكم ، وكأنه لم يمض - أمرا الحوذي ، الذي كان يجهل كل شيء ، أن يسر الى مصر ، داخلا العاصمة ، وهو جالس في تلك العربية على يسار جثة الوالى القائمة - كان الموت لم يزل على عرش مصر منذ سويحات ، متخذنا كل استعداد وحيلة لحرمان محمد سعيد باشا ولى العهد الحقيقي من ميراثه وإقامة الهامى باشا الغائب في الأستانة مكان عباس أبيه .

وقص (إسماعيل) على عبد العزيز كيف أن قناصل الدول طارضوا الأتلى بك فيما أراد فعله واحتجوا عليه . فلم يتم له ما نوى . واستتب الأمر لمحمد سعيد . فبلغ من رعب ذلك الرجل ، بالرغم من تأكيدات الوالى الجديد الطيب القلب له ، بأنه قد صفع عنه وغفر له زلته ، أنه ، حالم دوت في أفق مصر ، أول طلقة من المدافع المؤذنة بتولية سعيد ، وقع مغشيا عليه وفارق الحياة<sup>(١)</sup> .

وبينا القطار واقف بالمسافرين بنها ، لمحوا على أحد أرصفتها ، القطار القائم الى الزقازيق .

فسأل السلطان (إسماعيل) عن الوجهة التى يقصدها ذلك القطار . فأجابه بإيضاح واثق . واستطرد الحديث الى التكلم عن السويس وترحتها . واغتنمها فرصة ليبرز بذور أغراضه الخفية في الأذن السلطانية . حتى اذا ما جاءت الأيام ، التى يرى إظهار تلك الأغراض فيها ، يكون السلطان مستعدا لمضيقه في إنجازها .

(١) أنظر : "مصر التديوى" لأدوندى ليون ص ٨٧ و ٨٨ ، و "مصر فى عهد إسماعيل" ص ١١

لماك كون ، و "إمارة القام عن أمراء مصر" لأولب أديار ، ص ١٤٦ وما يليها .

وبعد ما فارقوا بنها وأخذوا يقتربون من مصر؛ وبدأت قم الأهرام العظيمة تبدو في البعد كأنها تتأطع السحاب، مجللة بنوب العثير الدقيق الذي تلحفها به الرياح الهابة على الصحراء حولها، دارت الأحاديث على ماضي مصر المكنون وعلى الأعمال القديرة المعجزة، التي تمت فيها على أيدي فواعيتها الأماجد. وأحسن (اسماعيل) في تلك اللحظة، بأن هاجسا قام في قلبه يحذثه بأن ملكه معد ليعد مجد المصور الفرعونية التي دالت؛ ويسر له قائلا: "إن التاريخ سيعلمك في مصاف أكبر أولئك الفراعنة مجدا ونفارا".

ولما قارب القطار طوخ، تحول الحديث إلى القناطر الخيرية التي أنشأها الباشا العظيم على مفرق النيل: فأجمع الكل على اعتبارها مضارمة، في العظمة، لأعظم ما خلقت إرادة فراعنة القدم؛ وزائفة، في الفائدة، على كل ما أوجده أولئك القديرون. ولم يكن (مريت) و(بروجن) و(ماسيرو) قد أماطوا، بعد، حجاب السر عن تاريخ الأسرة الثانية عشرة الرفيعة الشأن، أسرة أوزتسن وأمنمحت، بانية اللابنت، ومحتفزة خزان ميري.

وهكذا صرت على المسافرين الساعات، وهم لا يشعرون بمرورها، حتى وقف القطار بهم أخيرا بالقرب من قصر النيل.

فترسل السلطان، واستراح هنيئة، في المحل الفخم المعتدله؛ وكذلك أمراء بيته <sup>الوصول إلى مصر</sup> الكرام؛ وأقام الجميع هناك إلى أن تجهزت المعدات التي صدرت الأوامر بها.

فلما سدل المساء سدوله، سار الموكب السلطاني من قصر النيل إلى سراي القلعة عن طريق شارع كوبري قصر النيل؛ فباب اللوق؛ فحسن الأكبر؛ فنيط العنة؛

لباب الخلق ؛ فتحت الريح ؛ فالدرب الأحمر — وهذه الشوارع بحاراتها ودروبها  
وسككها وعطفاؤها مزينة بأبهى زينة ؛ متألقة بأجمل الأنوار ؛ مكتظة بأناس من  
مختلف الأمم والملل والنمل ؛ ممتزجين ، امتزاجا يقر العين ، ويشرح الصدر ؛ هائمين  
بالنحية السلطانية — وكان قد تقدر أن لا يهتف بنيرها ، إجلالا لصاحبها ، حل طول  
الطريق ؛ ومظهري من مواطن الولاء والاخلاص والعبودية ما تحمار له المقول  
والألباب ؛ فائرين الزهور ؛ سارقين البخور ؛ مكبرين ؛ مهلين ؛ وقد انتشرت بينهم  
الحوقات الموسيقية على أبعاد قليلة بعضها من بعض صادحة بالسلام السلطاني ، بينما  
النساء والأولاد قد انعدت عنائهم فوق السطوح وفي النوافذ وعلى درجات الجوامع  
والمساجد والزوايا الخارجية وفي نوافذها ، والجحج يذعن للسلطان كل بلسانه ، وكيفيته  
الخاصة وعلى طريقته المعتادة .

نزول السلطان  
في سراي القلعة

وكان السلطان شيقا ، وكذلك من معه ، الى رؤية تلك القلعة الشهيرة ، وسرايها  
التاريخية ؛ لازدحام تذكارات التاريخ حولها من أيام صلاح الدين وبيبرس  
وقلاوون وبرقوق وقايقباى الى أيام سليم خان وهوتايرت ومحمد علي ؛ لا سيما ما كان  
من تلك التذكارات لا يزال حاضرا بالأنفان .

وكانت سراي القلعة قد أضحت لتزول الضيوف الكرام فيها ، إعدادا شديدا بما يروى  
عن مثله في كتاب ألف ليلة وليلة ، مما لم يكن يستطيع القيام به إلا سلاطين الجح.

فأرتاح السلطان في مخاضه ، ومررت أمام حيني مخيئته ، أشخاص العظماء الذين  
سبق وجودهم في تلك الأماكن وجوده فيها ؛ ثم تناول طعام المشاء ، وكان أغفر  
ما تتلذذ به الانواق ، وتستمره الأسبنة ؛ كثيرا وفيرا ؛ ممدودا على مدة مواعد



للأكليين ، إلا ودوت حوله الآفاق بالمندافع المؤذنة بصلاة العشاء — وكان (اسماعيل) قد أمر أن تضرب عند حلول كل وقت من مواقيت الصلاة، لكي يكون الشعور طاماً بأن أيام إقامة الخليفة بمصر لأيام أعياد مباركة — وعلت صفحة المدينة العظيمة، حافلة بالدعوات الصالحات، عاجة بالهتاف: ”باديننا همز جوق يشا“ .

وما هي إلا لحظة، وتألقت الزينات، وأشعلت ألعاب النار، وشقت السواريح كبد السماء، وانتشرت الأهلة والنجوم منها متباينة الألوان في الفضاء، وبرزت المدينة كلها تسطع في جميع جهاتها بالأشعة المنبعثة اليها من كل صوب .

فتقدم السلطان الى حيث استجلت أنظاره أرجاء القاهرة بأسرها، هذه القاهرة المثلة فرحا بتشریفه أرضها، فتع عليه بذلك المنظر الشائق — وكان الليل قد كساه نوبا خيالاً يلعب باللب ويسكره — وأحس في صميمه بلذة سماع كل تلك الأصوات، المصعدة الى أذنيه الدعوات التي ترسلها الرعية المخلصة لسلطانها نحو قدمي العرش الإلهي .

ففاض صدره بالحبور المتدفق اليه من كل حذب وصوب، وأراد اظهار امتنانه ومحظوظيته (لإسماعيل). فترجع وسام «المجيدية» المرصع المتدلى على صدره السلطاني، وطلعه بيده على صدر (اسماعيل)؛ وقال له: ”انى لا أدري كيف أشكرك على كل ما بذلته لئلا نفسى سرورا“ . فأجابه (اسماعيل): ”انما فقتم لمولاي ما هو له“ . فزاد هذا الجواب في سروره .

وبعد أن استجلى من موقفه السامى جمال المناظر المبسوطة تحت قدميه، دخل الى مخاضه ونام نوما هادئا هنيئا .

وكان الند يوم جمعة. فقرر أن يصل الخليفة صلاته الجامعة في مسجد (محمد على) بالقلة عينها ، وأن يذهب إليه من السراى التى بات فيها راجا على جواد مطهم فى موكب يكون كل من فيه فارسا .

صلاة الجمعة  
فى مسجد محمد على  
بالقلة

فلما آذنت ساعة الصلاة، امتطى عبد العزيز الحصان الذى قدم له ، واقتدى به أمره بته السلطانى وأمره البيت العلوى والوزراء العثمانيون والمصريون وكبار رجال المسامين والمعية ، وكوكبة من الفرسان . وسار جمعهم فى موكبهم الحافل المهيب ، داخل القلة، من السراى الى الساحة الفسيحة الأرجاء المنبسطة أمام مسجد (محمد على) حيث كانت جميع الأطلى المحيطة ، المطلة على تلك الساحة ، فاصبة بالمتفرجين ، ودلوية بلعظم .

وبعد أن انقضت الصلاة، توجه السلطان إلى زيارة قبر الباشا العظيم ، الرائد رقدته الأبدية، فى ذلك الجامع المرمى البناء ، المطل من علاه على القاهرة كلها، كأنه روح (محمد على) تشرف على جسم القطر الذى أعادت إليه الحياة، لتتمهده وترعاه .

فوقف إليه، برعة، خاشعا . ثم التفت إلى من حوله وقال على مسمع من الملا: " لقد كان رجلا عظيما . وإن ذكره ليخلد " .

ثم عاد إلى سراى القلة حيث استقبله وفود المهتمين من الأعظم والعلماء والبطاركة والرؤساء الروحانيين ، والوجهاء والأعيان والتجار . ولكن يظهر لهم بجملة واحدة ، مقنن أنشراحه من زيارته للقطر المصرى ، قال لهم : " إني ضيف اسماعيل وضيفكم " . فكان لقوله هذا وقع عظيم فى القلوب ، لأنه كان بمثابة إعلان رسمى لاستقلال مصر

استقبال وفود  
المهتمين بالقلة

لذلك كانت الزينات ، التي أقيمت في مساء ذلك اليوم ، أجمل بكثير من زينات الليلة السابقة . وكان أبدعها شكلا ما أقيم منها أمام قصرى (اسماعيل باشا) وحلم باشا وسراى عابدين . ويبلغ من تفنن صانعى الألعاب النارية ومن إعجاب السلطان بها أنه طلب بعضهم من (اسماعيل) ليأخذهم معه إلى القسطنطينية .

مقابلة وفد العلماء  
السلطان

وبما يحسن ذكره في مقابلة السلطان للعلماء ، اللطيفة الآتية وهى : أن (اسماعيل) كان يعتقد في علماء الأزهر الأجلاء علم خبرة ودراية بواجبات الرمميات في موقف كهذا — وكان هذا هو الواقع — فحسن لديه أن يختار أربعة منهم فقط ليتشرفوا بالثول بين يدى الحضرة السلطانية ، وهم : السيد مصطفى العروسى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ السقاء ، والشيخ طيش ، والشيخ العدوى من كبار علمائه . وأولم وثنيتهم من دواهى الرجال وأوسعهم صدرا ، وثالثهم من المتصوفين ، وأما الرابع فكان من الورع والتوكل على الله ، بحيث لا تهمه ولا ترهبه العظومات البشرية .

ثم وكل إلى قاضى القضاة التركى أمر تعليمهم آداب الثول بين يدى الخليفة . فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون في قاعة يقف السلطان في صدرها ، على منصة مرتفعة عن الأرض قليلا ، بينها وبين باقى القاعة حاجز ، مفتوح من وسطه ، وأنه يلبى لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالة أن ينحنوا انحنا عظيما ، ويسلموا بكلتا اليدين ، حتى تمسا الأرض ؛ ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز ، بخطوات موزونة حتى إذا ما صار أمامها ، كرر الانحناء والتسليم ، ووقف أو يرد السلطان عليه تحيته . فيعيد ؛ حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ باب الدخول ؛ فيكرر الانحناء والتسليم حينها ؛ ثم ينصرف مثل ما دخل ، حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فاستغرب العلماء أن تنحصر المقاتلة في تلك الصور من الانحناء والاحترام . ولكن قاضى القضاة أكد لهم أن الأمر كذلك . فقالوا : ” قد فهمنا “ .

فلما جاء دورهم في المقاتلات ، دخل الشيخ المروسي أولاً ، فالشيخ السقاء بعده ، فالشيخ طيش . وفعل كل منهم ما علمه القاضي أن يفعل .

وكان (اسماعيل) واقفا وراء السلطان بمسانة ، وحينه تراقب كل حركاتهم . فأعجب من إتقانهم الدرس الذى ألقى عليهم إتحافاً محكماً .

فلما أتى دور الشيخ العدوى ، دخل هذا الأستاذ الفاضل ، وانحنى عند الباب كرملة ، ثم أسرع ، بعد ذلك ، نحو السلطان بمشيتته الاعتيادية ، ولم يعاود الانحناء ولا التسليم فبدأ قلب (اسماعيل) يتخفق — ثم تقلم بقدم ثابتة حتى وصل إلى الحاجز ، وجاوزه ، وصعد إلى المنصة ، التى كان السلطان واقفا عليها — وقلب (اسماعيل) يحف — ونظر إليه بعين ثابتة وقال : ” السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله “ . فوثب قلب (اسماعيل) في صدره . ولولا مهابة السلطان لركل الرجل وأخرجه .

طبيعة للشيخ  
العدوى

ولكن السلطان ابتسم ابتسامة لطيفة ، ورد على الشيخ العدوى تحيته وأحسن منها ، وانحنى أمامه انحناء خفيفاً .

نقاطبه الشيخ فيما يجب على السلطان نحو رعاياه ، بصفته كبير الحكام ، لأن الحكام خلفاء الأنبياء في الناس ، وفيما يجب على أمير المؤمنين ، بصفته خليفة الرسول ، نحو المؤمنين ، وهؤل في المسؤولية الملقاة على عبد العزيز ، وأكد له أن ثوابه عند الله سيكون بمقدار ثقل المسؤولية ، وحسن نفاذه فيها ، كما أن عقابه عند الله تعالى سيكون على قدر إهماله واجباتها .

فامتنع لون (اسماعيل) ، ولعن الساعة التي اختار فيها ذلك الشيخ الأبله ، ومن أشار عليه به ، وأخذ يحسب لفضب السلطان ألف حساب .

ولكنه لم ير على وجه السلطان علامات للفضب مطلقا . بل وجد ملائح عبدالعزيز مرئحة إلى كلام ذلك الأستاذ ، لا سيما أنه لم يفهم منه شيئا لجهله اللغة العربية . أما العدوى فلما فرغ من خطبته ، ختمها بالسلام الذي بدأها به ثم انحنى أمام السلطان ، وأقبل خارجا بوجهه لا يظهره كسابقه . وصيحته يسده فوجد هؤلاء في انتظاره على الباب يلومونه على فعلته التي كانت على زعمهم «قذرى في العيون» . فقال لهم : "أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين . وأما أتم فكأنكم قابلتم صينا ، وكأنكم عبادتم وشا" .

ثم سأل السلطان عبدالعزيز (اسماعيل) : "من الشيخ ؟" فأجاب : "هذا شيخ من أفاضل العلماء ، ولكنه مجنوب . وأستحي جلالكم عفوا عن سقطته" . فقال السلطان "كلا . بل إنى لم أشرح لمقابلة أحد انشراعى إلى مقابله" وأمر للشيخ العدوى بخمسة سدية وألف جنيته .<sup>(١)</sup>

وكان يوم السبت التالى حادى عشر إبريل ، يوم تشييع الحمل المصرى إلى الأقطار الجهازية . لتقرر أن يرأس جلالة السلطان نفسه الحفلة السنوية المعتادة . وأتمحت جميع الوسائل لكي تكون ، بسبب وجوده على رأسها ، يتيمة الحفلات التي من نوعها . لأنه لم يسبق لسلطان عثماني أن ترأس مثلها منذ الفتح السليمى . ولم يكن أحد يتوقع أن تجود الأيام بزيارة سلطانية أخرى في مصر ذاته .

(١) نص على هذه الطيفة سهل ولد الشيخ العدوى صديق ، السيد محمد طاشور الصديق القاضى بالمحاكم الشرعية ومن أفاضل الأدياء .

فلما كانت الساعة العاشرة ، نزل السلطان من القلعة ، وسار نحو الكشك الذى أقامه محمد على خصيصا لذلك تحت السور الى جنوب باب العزب ، وهو قريب من المكان الذى يروى أن الأمير المملوك أمين بك وثب منه وثبته المشهورة فى حادثة ذبح المسالك .

فلقت بعض الحضور نظر السلطان الى ذلك . فرغب عبد العزيز فى أن تلقى على مسامحة الرواية ، بينما تم حوله مراسم الاحفال .

وكانت تفاصيل تلك الرواية مغطا فيها . فحكى السلطان منها هو أن أمين بك ، لما قذف بمحصاته من فوق السور ، وانكسرت أرجل الجواد حينما مست الأرض ، فسقط ميتا ، وقع هو أيضا عن صهوة وأصيب برضوض ألقته رشده ، فصر به بعض البدو ، فأسرعوا اليه واحترقوا ثلاثة أرباع عقه ، لكى يسرقوا سلاحه وتقوده ، غير أنه لم يمت . وتمكن — وحده ، على قول بعضهم ، وبمساعدة بعض ذوى الرحمة ، على قول آخرين — من النهوض والاختفاء فى مكان أمين تعالج فيه الى أن شفى واستطاع الاتجاه الى سوريا .

حكاية المملوك الذى  
نجى من مجزرة أزل  
مارس سنة ١٨١١

وبعد الفراغ من حفلة الحمل ، توجه السلطان للتنزه فى المدينة . فزار مساجد آل البيت الكرام وغيرها وكان الناس من السوق والعامية ، كلها مرت بهم المحتشدة ، صاحوا : " الفاتحة لمولانا السلطان ! " فينظر اليهم كأنه يحيرهم . وهو إنما يستغرب لذلك ، ويقارن فى مره بينه وبين خشوع الأستانة وسكوتهما ، وإطراق العيون فيها الى الأرض حينما يمر فى شوارعها ذاهبا الى صلاة الجمعة <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : "الكافى" لشاربم بك ج ٤ ص ١٢٨ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٩٠٠

ثم عاد من طوافه، فتناول طعام الغداء في سراي الجزيرة . ولما كان الأصيل، أبدى رغبته في رؤية أنجال (اسماعيل) . فأرسل (اسماعيل) من أحضرهم من قصرهم بالنميسل في جزيرة الروضة، حيث كانوا متقطعين إلى علومهم تحت رعاية المسيو جاكليه، بعيدين من كل المؤثرات الخارجية، لاسيما مؤثرات الحريم . فأعجب السلطان بهم وببباهتهم وذكايتهم، وشجعهم بأقوال حكيمة على الاستمرار في دروسهم بنشاط وهممة ورغبة صادقة، ليكونوا قوة بين أيهم الكريم، وغر مصر، وخير أحفاد الرجلين العظيمين (إبراهيم باشا) و(محمد علي) .

ثم عاد إلى القلعة . ولما أسدل النسق ظلاله، بدت مصر، مرة ثالثة، في حلل زيتتها البنية، وأخذت نجوم الألعاب النارية وأهلتها تبارى مرة أخرى لنجوم السماء . وبدورها في السطوع والألأة والجمال .

فاظهر عبد العزيز (لاسماعيل) نيته في الإقامة بمصر عدة أيام، ورجاء الاكتفاء بما عمل من الزينات والألعاب، والامتناع عنها في الليالي التالية، حتى براحة القائمين بها، وراحة السكان معا .

وكان قد أرسل من الإسكندرية بانرة تحمل البريد إلى القسطنطينية . فاوفد إليها، أيضا، في تلك الليلة، المصاحب عبد الكريم آغا، ليبلغ جلالة السلطنة والدته، أبناء محنته الجيدة، ويحمل إلى باب العالي، الأوراق الدولية الخاصة بالإدارة اليومية . ثم كلف راعى آغا، أحد خصيانه، بالذهاب ببطاقة زيارته إلى أربعة عشر «حرىما» بمصر، ليبلغ «نحياته وتسلياته السلطانية» إلى أرامل محمد علي باشا وإبراهيم باشا، وعباس باشا، ومحمد سعيد باشا وغيرهن .

وفي يوم الأحد ثاني عشر إبريل — وكان عيد الفصح عند الطوائف الشرقية — ذهب لزيارة قصر التزهة، في طريق شبرا، وكان (لإسماعيل) ، وهو الوحيد الذي تفننت الهندسة المعمارية في تجهيله وتزيينه، على صغر حجمه . فأعجب به أيما إعجاب، وأمر بعض الرسامين الذين بمعيته أن يأخذوا رسمه — ولكنه لم يمكث فيه طويلا وغادره الى قصر شبرا ذاتها — وكان لحليم باشا، الذي أراد السلطان أن يتزل في ذلك اليوم ضيفا عليه .

زيارة السلطان  
لشبرا

فاستقبله حليم باشا في تلك الروضة الغناء، التي أنشأها لوالده ، أبدع الخيالات الشعرية . وكانت مزدهية بالزهور والرياحين ، المغروسة على أبدع نظام وأجمل تنسيق ؛ حافلة بالطيور المغردة المختلفة الأجناس والأنواع والأشكال — وكانت الزهور والطيور أحب المخلوقات الى قلب عبد العزيز، وأحر ما تروح اليه نفسه بعد ربات الخلدور .

فقضى بقية نهاره ، وبعض مسائه في تلك الجنة الأرضية ، متجولا بين رياحينها وأزهارها طورا ، وطورا جالسا أمام بحيرتها ، المحيطة بها، المظلة الرخامية البديعة الصنع ، العديدة المثل في العالم بأسره . أو جالسا في القاعة العظمى الكائنة في الزاوية على يمين الداخل، والتي قلبها بذلت في تشييد مساكن الأموال التي بذلت في تشييدها؛ وقلبا أزهت غيرها ، بالصنعة الدقيقة المواد الثمينة التي أزهت ، هي ، بها : كأن (محمد علي) أراد أن يجعلها قصرا من قصور الجنتان ، بجانب تلك المظال الرخامية ، المتتابعة صفوفها على شكل دائرة بيضاوية حول تلك البحيرة المعمدة لمسباحة جواريه فيها . وقد أقيم في وسطها بناء مرمرى على شاكلة باقة أزهار ، تجلت الدقة كلها في صنعه وتكوينه . وأعد للجلوسه، هو، على أريكة حريرية فيه لكي يتسنى له



في شيخوخته — والمياه تجري من تحتها، والجواري يسبحن حوله، ويتداعبن أمامه،  
والروائح العطرية تخرج من الأزهار النابتة في كل مكان، وداخل كل مظلة من  
هاتيك المظال، والمتدلية الى حافة البحيرة بشكل من أبدع الأشكال — أن يفتيل  
أنه انتقل الى جنة الفردوس التي أوتها ربه للصالحين والمحسنين من عباده، وأن  
يتمتع، وهو حي في هذه النار، ببعض لذات لذائذ النار الأخرى التي بات منها على  
أدنى من قاب قوسين<sup>(١)</sup>.

أسفا على تلك !

آه لتلك الروضة الفيضة الغناء ! كيف عثت بها أيدي الإهمال . وكيف جردتها  
من محاسنها الفريدة تغيب أيدي الصيانة عنها !

وأسفا على ذلك !

وآه ثم آه ! لتلك الايوان البديع الأكبر المكون من مجموع هاتيك المظال الصغيرة  
الكلية الجمال، المزينة الواحدة منها بجمال ايوان كسرى المشهور ! كيف تناولتها  
أيدي الدمار : فالتفت رخامها البديع، وزهبت بيهجة صنعها المدهش، وباتت  
تهتدها بخراب عاجل !

وقضى عبد العزيز وقته فيها يتحدث مع حليم باشا وفؤاد باشا عن زراعة البساتين  
والزراعة على العموم، ثم عن القناطر الخيرية — وكان الأمير مراد أفندي، ولي  
العهد، قد ذهب في ذلك اليوم عينه لزيارتها في مركب بخارية والتفرج عليها .  
وأرسلت هناك أوردتتان مصريتان للقيام بغروض استقباله . ولكنه لم يفارق المركب،

(١) أنظر: "مصر مرحلة مرحلة" لرونيه من ١٦٥، وانظر: "مصر الخديوي" لأدون دي لون

وتفقد، وهو فيها ، القناطر : الأمر الذى لم يفتح له ضباط تينك الأورطتين والذى لم يمكنهم من التفرج على القلعة السعيدية — وهى حصن أنفق محمد سعيد باشا على إقامته عند نقطة انقسام فرعى النيل ، مبلغا طائلا من المال ، بدون جدوى ، كان الأجدر به إنفاقه على إتمام عمل القناطر الخيرية الضخم ، الجليل ، الذى أقبل عليه . أبوه ، الباشا العظيم ، بضع سنوات فقط قبل أن يوافيه الأجل المحتوم .

ولما توغل المساء فى الليل ، عاد السلطان الى القلعة فلم يفارقه الانشراح من شبرا وبستانها وإيوانها !

وفى يوم الاثنين ثالث عشر إبريل — ووافق وقوع عيد شم النسيم ، احتفلت القاهرة به احتفالا المعهود ولكن زاده بهجة وجود السلطان — قصد عبد العزيز المتحف المصرى — وكان مديره حينذاك مريت بك ، الاجيئولوجى الشهير — فتفقد جميع غرفه ومحتوياته ، واستغمر عن كل ما رآه فيه ، وارتاح الى البيانات التى استطاع مريت أن يسليها له .

زيارة المتحف  
المصرى يوم  
شم النسيم

ثم ذهب من هناك لزيارة معامل القطن والحريربى بولاق — وكانت أعمالها ناجحة تبشر بفلاح باهر فى المستقبل ، لم يحقق ، وأسفاه المستقبل شيئا منه — فسرّه ما رآه فيها من حسن الترتيب والنظام وأنشراح صدره لعلامات العناية والدكاء ، البادية على وجوه الشبان المشتغلين فيها .

ولما كانت المحادثة بالأمس عن القناطر الخيرية قد شوقته الى رؤيتها ، ركب زورقا بخاريا من زوارق (اسماعيل باشا) ، أمد خصيصا لذلك الغرض ، وتوجه فيه من بولاق إليها . فتفقدتها بعناية ، وأعجب بها إعجابا عظيما : وأكبر من إقدام

وهمة الباشا العظيم الذي باشر انشاعها بالرغم من طعنه في الشيخوخة . وحكم بأنها لمن أجل أعمال الدنيا فائدة ، وأن محمد علي قد استحق بيتائها شكر الأرض المصرية إلى الأبد .

ثم عاد إلى قصر النيل وتناول طعام الغداء فيه .

وفي يوم الثلاثاء ، رابع عشر إبريل ، ذهب إلى زيارة الأهرام ، ومعه أمراء البيت العثماني ، وأمراء البيت العلوي ، وجمهور كبار رجال البلاطين .

وبعد أن عبروا النيل إلى شاطئته الغربي ، عند الجيزة ، ركب السلطان عربة مفتوحة تجرها أربعة جياد ، وركب ورائه ( اسماعيل باشا ) و ( فؤاد باشا ) في عربة أخرى . يمتزها جوادان فقط ، وامتنع الباقون خيولا .

ولما تكن الطريق إلى الأهرام قد مهدت بعد . فكثيرا ما كانت تجتاز حقولا مزروعة أو تمر في أرض تربة ، ترفع حوافر الخيول الواقعة عليها ، بمحابات غير كفيف منها تملأ بها الفضاء .

وكانت عربة السلطان سائرة في طليعة الموكب اتقاء للغبار ، وخبولها القوية العفيفة تقطع بها المنحدرات إلى المرتضعات . ولأنها كانت أربعة صافئات ، تمكنت من الاستمرار مقلدة راكبيها الكريم ، حتى مدخل الميوان الذي أعده في ظل الهرم الأكبر ، وعند قاعدته .

وأما عربة ( اسماعيل باشا ) وفؤاد باشا ، فإن الجوادين فيها أجهدا تعباً ، أدى بهما إلى التوقف عن المسير ، بالرغم من كل حث وتحريض . فاضطر الزاكنان الكريمان أن يتزلا منها ويتعليا جوادين آخرين .

وهكذا سار الموكب، والمير وراءه يتناول عنان السماء، حتى بلغ الأهرام، حيث كانت موائد الطعام قد مدت في الصواوين المعتة لذلك كأنها في أحلك القصور اشتمالا على معنائها .

فاستراح القوم ثم أكلوا . وبعد ذلك أقبل عبد العزيز يرحم الطرف ويستفهم متخطيا من جوار هرم خوفو، الى الرابية البارز من قممها أبو الهول، والمعبد المصرى القديم الذى يحواره، ومقبرته . وامتطى جوادا الى هرم متقورا الذى كان لا يزال معظم جزئه الأعلى مكسوا بطلائه العجيب، فالى هرم نيتوكريس الأحمر الجميل !

ألا ليت شعري ! من ينبئى بما جلى فى مخيلة سلاطين آل عثمان، وهم يتجولون حول آثار الفراعنة الخالدة، الدالة على عظمتهم الزائلة، والقائمة على مدخل الصحراء الشاسعة، معالم ماض كان قصيا، وقتنا خط التاريخ أول صفحاته ! من ينبئى بما قالت لهم، لا سيما لعبد الحميد؛ عينا أبى الهول المرميتان الشاخصتان بصفاء أبدى أمامهما، كأنهما تريدان أن تحجبا مكنونات الأيام وراءه؛ وتشعرا الحاضر، مهما كان نفعا عظيما، بضائته، تجاه مجموعة المفاخر البشرية، التى حركتها القرون بالتتابع (من خوفو الى أوزودسن، وأمنصحت، ومن أحمس الى توطمس وآمن هوتب؛ ومن راع مسيس الى نيفاو وبتمتك؛ ومن كبيز الى اسكندر الأعظم والبطالسة الأماجد؛ ومن قيصرا الأكبر الى هديان ودبوكليسيان؛ ومن عمرو بن العاص الى أحمد بن طولون والمعز لدين الله؛ ومن صلاح الدين الى بيبرس وقلاوون وبرقوق وبرساي وقايتباي؛ ومن سليم الرهيب الى يونايرت العجيب) كسيناتوغراف أمام عينيك العيينين؛ ثم وارتها فى طيات الدهور !!!

ولما مالت الشمس الى الغروب طاد الموكب السلطاني الى الجيزة وتناول الجميع طعام العشاء في سرايها البديعة — ولم يكن (اسماعيل) قد أجرى فيها التحسينات التي صيرتها فيما بعد لؤلؤة قصوره ، ودرة منزهاته الخصوصية . ثم رجع السلطان الى القلعة وما استقر فيها برهة إلا وحانت صلاة العشاء . فقام يتأدى بها ، بعد اطلاق المدافع ، خمسة عشر مؤذنا اختيروا اختيارا دقيقا لجمال أصواتهم وأخذوا يتبارون في التحسين والإنشاد مباراة حملت كل من سمعهم على الظن بأنهم بلابل الفضاء برزت من خلواتها تشجى بأنغامها المطربة ، في ذلك المساء المحلوة سماءه ، ضيوف مصر ووالها .

وكان الغد يوم الأربعاء ، خامس عشر أبريل ، بفعل يوم راحة عامة وخصص لتجهيز معدات السفر الى الاسكندرية .

المود  
الى الاسكندرية

فلما بزغت شمس يوم الخميس ، سادس عشر أبريل ، ازدحمت شوارع العاصمة وساحاتها وظهور منازلها ودرجات سلام جوامعها ، بمجاهير الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم ، انتظارا لمرور السلطان وموكبه العظيم — وحالما وافت الساعة التاسعة صباحا ، أخذت المدافع ترمي طلقاتها بين كل دقيقة وأخرى أينانا بالرجيل ، لغاية الساعة العاشرة . حتى اذا دقت هذه ، نزل السلطان من القلعة بموكب نفخ ، مهيب ، فتر على تلك الجماهير محييا مسلما . وأمر بأن توزع مبالغ طائلة من المال على فقراء العاصمة وخدمة مساجدها .

فانطلقت ألسن تلك الجماهير بالدعاء بلحائه ، وذرفت عيون كثيرة دموعا عجيبة في توديعه . وما زالت أصوات الدماء ترتفع من كل فم ، الى أن بلغ الموكب القطار المعد له ، فأقله . فشخصت اليه الأبصار ، وشيعته القلوب حتى توارى .

وكان السلطان قد أبدى حزمه على زيارة المقام الأحمدي بطنطا ، فأقيم له صيوان  
نغم بجوار عهتها . ولكنه رجع عن حزمه في آخر لحظة ، واكتفى بإيقاف القطار  
قليلا قبالة ذلك الصيوان ، لكي يتمكن الجماهير النفيرة ، المزدهجة هناك ، من استجلاء  
منظر وجهه البهي ، والقيام بفروض الدعاء له .

ثم سار الى الاسكندرية ونزل في سلامك رأس التين الذي كان قد أقام فيه .  
وفي اليوم التالي ، وكان يوم الجمعة سابع عشر أبريل ، صلى السلطان الصلاة الجامعة ،  
بأية وجلال عظيمين ، خارجا اليها وراجعا منها ، محتفيا فرسا ضليعا أصيلا ، في موكب  
تحف به نخامة وعظمة ، يزيد في كمال مظهرهما ما في لباس عبد العزيز من البساطة .  
وكان عبارة عن كسوة إفريقية تزين صدرها أنسجة حمراء فقط ، وليس على طربوشه  
أية علامة تميزه عن غيره ، بينما ملابس أمراء بيته ووزرائه و كبار رجال حاشيته موشاة  
بالمذهبات الساطعة ، محلاة بالنياشين الالامعة .

وبعد الفراغ من صلاة الجمعة ، والإحصاف بجانب عظيم من النقود على فقراء  
الاسكندرية ، وخدمة مساجدها ، عاد عبد العزيز الى سراي رأس التين ، وتناول  
طعام الفلله . ثم استراح قليلا ، ريثما انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر .

حينئذ نزل هو وأمراء بيته وكبار دولته ورجال ما بينه ، يرافقهم (اسماعيل باشا)  
وأمراء بيته وكبار دولته ، في الزوارق المعتدة لهم . فذهبت بهم الى اليخت السلطاني  
”فيض جهاد“ وسفن الأسطول المرافقة له ، بينما كانت الطوابي والبواخر الراسية  
في البوغاز ( ومن ضمنها المركب الإيطالية المسماة فيكتور عمانويل ، المرسلة من قبل  
ملك إيطاليا الملقب بالملك الحلو الشمائل ، لتشارك في تعظيم الخلقان العثماني ) وقلاع

القيام الى الأساطنة

الساحل لغاية المكس والسجى من جهة ، ولغاية سيدى بشر وأبى قير من الجهة الأخرى ، تطلق مدافعها نحية وإجلالا ، وبينما الجماهير يكتظ بها الشاطئ وهى هائفة مهللة ! فصعد السلطان الى يخته يصحبه (اسماعيل) وصعد باقى الأمراء الى سفنهم ، وأخذت المراكب تستعد للرحيل .

فتقدم (اسماعيل) الى توديع عبد العزيز . فقال له السلطان : " إني أريد لك شكراتى القلبية على ضيافتك البهية لى ولال بيقى ، وأؤكد لك أنى لن أنسى زيارتى لهذه الديار ماحيت ، وأؤمل أن الشعب المصرى ، بفضل عنايتك واهتمامك وغيرتك على مصالحه ، سيزداد رخاء وسعادة . وإنى فى كل ساعة سأشمله بتعطفاتى هو وأبيه الجدير بها " .

فالتحنى (اسماعيل) وشكرواثنى . ثم أذن له السلطان بالانصراف . فقل الى زورقه . وأخذت السفن العثمانية تتعد رويدا رويدا عن الأرض المصرية ، والأرض المصرية ترجع ارتجاجا فى توديعها ، حتى توارت عن الأبصار !

هكذا انقضت الزيارة السلطانية للقطر المصرى ! وهكذا مرت أيامها العشرة البهية ! ولم يبق أثر منها فى البلاد ، بعد ذكراها ، سوى اسم (عبد العزيز) الذى أطلق على أحد شوارع العاصمة ، إحياء لتلك الذكرى ، وسوى النباشين ، والألقاب والرتب التى فاقت بها التعطفات السلطانية على بكار الموظفين المصريين !

أسفا ! هل كان يدور فى خلد الأمراء ، عانى تلك الأيام وأعيادها ، أن الأقدار ستسج ، لكل منهم ، خيوط مأساة سوداء : فلا تمضى أربع عشرة سنة إلا ويتدهور عبد العزيز عن عرشه الرفيع الى صحن ضيق ، لا تلبث أيدي الامم ،

أياماً ، إلا وتسلبه الحياة فيه ، بقص شرابين ذراعيه واستصفاه دمه — ولا يرفع مراد على الأكف سلطاناً ، إلا إزيج به في حبس انفرادي ، يوافيه الموت الخفي فيه بعد ثلاثين سنة ، وليس بين الرفق والسقوط إلا ما يوشك أن يكون طرفة عين ! — ثم لا تمضي ست عشرة سنة وبضعة أشهر إلا ويصدر أمر عبد الحميد بخلع الخديو الأول ( اسماعيل ) عن عرش مصر السفى ؛ فيخرجه الى منفى ، مرّة مذاقة ؛ وحياة معركة أيامها ، بعد الإقامة على أوج العز الأحمس ، وفي نعيم الحكم المطلق ، والرخاء غير المحدود ! — ولا تمضي خمس وأربعون سنة إلا وتتل ثورة عسكرية عرش عبد الحميد عينه وتخرجه بدوره لينوق حرقه السجن ومراة المنفى ، وألم التيسير ، قسراً ، من حبس الى حبس ؛ ومن اعتقال سرى الى اعتقال سرى ؛ ويموت ، أخيراً ، موت صعلوك ، لا يكاد أحد يفتخ إليه ، كأنه لم يكن السلطان الرهيب ، الذى لبثت ترتعد الفرائص ، ثلاثة وثلاثين عاماً ، لدى ذكر اسمه ! — ولا تمضي إحدى وخمسون سنة إلا ويرى رشاد نفسه — وقد كان يحبه أخوه عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنة ، بعيداً عن كل مظاهر العالم ، لا يدري ما فيه ، حتى اذا جاءت الثورة العسكرية ، وجدته شيخاً هرمًا ، فأخرجته من حبسه وهو لا يكاد يعطق ؛ وأجلسته على عرش أجداده ، وهو كأنه في منام ، أميراً للؤمنين — مدخلاً رغم أنه في الحرب العالمية العظمى بعد أن داهمت ، مرغماً أيضاً ، الحرب الطرابلسية وحرب البلقان : فيرى أنه لم يرتق عرش أجداده إلا وقد جرد هذا العرش من كل ديباج ونز ، وأصبح سريراً خشبياً ، كله شغلايا تمجج الجسم : وأشواك هموم وانخرة تعيط بالجلال عليه ، بدلاً من أزهار اللذات السالفة ! — ولا تمضي اثنتان وخمسون سنة إلا وتقتل يد أئمة ، صبراً وغدراً ، يوسف عز الدين ، ذلك الذى كان في تلك الأيام شاباً في مقتبل ربيع



حياته ، وكانت الدنيا تبسم له ابتساماتها كلها في ظل سلطة أبيه العليا ومقامه الأرفع ! ؟ . . .

ألا أف للدنيا ! ما أكذب مظاهرها ! وما أقصر حياة سرورها ولذاتها ! !

عل أن ( اسماعيل ) لم يدع فرصة تلك الزيارة السلطانية تمر ، دون أن يحاول الانتفاع منها لتقديم أمنياته في سبيل تحقيقها :

فاستهوأ لنفس عبد العزيز وحملها على مساعدته في المستقبل ، كل المساعدة الممكن توقعها ، لم يكتف بما بذله له بسطاء فائق ، من مسببات الارتياح والسرور ، وبأخذة على نفقات جيبه الخاص ، كل المصاريف التي عن لغيره صرفها ، وهم في ضيافته ؛ بل بالغ في تقديم الهدايا والتحف الفاخرة وتويعها ، حتى ملأها سفينة برمتها ، لعبد العزيز عينه ، ولأمراء بيته السلطاني ، وكبار رجال دولته . وزود فؤاد باشا ، الصدر الأعظم ، وقت فراقه ، بمبلغ ستين ألف جنيه لجعله عوناً له ، وطوع بناته .

فسافر السلطان من مصر ، وهو في حال نفسية تجعله مستعداً لقبول أية طلب يقدمه ( اسماعيل ) إليه ، إذا كان مشفوعاً بما يجعل الطلبات كلها مقبولة في الأستانة . ومثل ( اسماعيل ) لم يكن ليجعل الوسيلة .

فما أفلح الأسطول العثماني من ثغر الاسكندرية ، وعاد الوالى إلى عاصمة دياره ، إلا وأقبل بكل ما في وسعه على تحقيق الخطة التي رسمها لنفسه .



# الجزء الثالث

---

رابعة النهار

---

## العمل على تحقيق الخطة المرسومة

### الباب الأول<sup>(١)</sup>

#### تحقيق الشطر الأول منها

##### إجمال

فليدخل مصر بصراحة في مضمار المدنية الحديثة ، ويسير بها ، بعزم ثابت وقدم راسخة ، في طريقها ، وفي جميع تشعبات هذا الطريق ، أوجد في أعمال القطر ، على اختلاف أنواعها ، روحاً جديدة ، أصلحت إدارته ، وكيفتها تكييفاً ، من شأنه ضمانه دوام تطور البلاد الاجتماعي — ووسعت نطاق الزراعة بتوسيع نطاق الري ، وتنظيمه ، وتكثير طارق المواصلات ، وترتيبها وتوزيع الضرائب توزيعاً عادلاً — وفتحت أبواب

(١) أم مصادر هذا الباب هي : "مصر كما هي" لمالك كون ، و"مصر في عهد اسماعيل" لثولف ميه ، و"مصر في سنة ١٨٤٥" لثلثر ، و"بيان أم الأشغال التي تمت في القطر المصري منذ الأيام القديمة لغاية يومنا هذا" لبيان دي بقون ، و"مصر في حكم اسماعيل" لريو ، و"مصر تحت حكم محمد علي" للهرس بككر مسكرو ، و"مصر تحت حكم محمد علي" لهامون ، و"مصر تحت حكم محمد علي" لكلوت بك ، و"مصر تحت حكم محمد علي" لمانجين ، و"تاريخ محمد علي" لموديه ، و"اسماعيل باشا" لاليس ، و"مصر مرحلة مرحلة" لرونيه ، و"رسائل من مصر" لبيدي جوردن كرف ، و"حياة البلاط" لبطر ، و"رسائل محررة من مصر" لسفت هيليه ، و"مصر" لمالورق الخ الخ .

التجارة والصناعة والعمل واسعة، أمام مجهودات الجميع : فأحييت، بذلك كله، مالية البلاد، وضاعفت إيراداتها وصادراتها — وأنعشت التعليم بعد مواته، وعصمته، وتوعته، ورقته، حتى جعلته كفيلا بأن يكون التطور الاجتماعي المستمر، متجها على الدوام، نحو الحسن والمفيد، بالرغم من كل عقبة تعترضه وصخرة تعترض سبيله — وأدخلت، في نهاية الأمر، على الحياة الاجتماعية المصرية، تغييرات أساسية، جعلت بقاها على جمودها القديم أمرا في منتهى التعذر، وأوجبت تحركها من عقالاتها القرنية نحو بيئات جديدة وعقلية حديثة .

وبما أن هذا الاجمال قد يقع لدى جاهل تاريخ (اسماعيل) ولدى المتحاملين عليه تحاملا مبينا على مجزوء ما سمعوا عنه من أفواه قاذبيه، موقع الاستنكار، إن لم نقل موقع السخرية، فانا لا نرى بئنا من تفصيل ما أجملنا تفصيلا تاما، إظهارا للحقائق .

## الفصل الأول

### إصلاح الإدارة

”مصر بلد، إذا حسنت الإدارة فيه، أكل العاصر الصحراء.

وإذا ساءت الإدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العاصرة!“ .  
« تايلور الأزل »

كانت مصر، في مئة الممالك الأخيرة، تنقسم إلى خمسة عشر إقليما : تسعة منها في الوجه البحري وهي : البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، ومنوف ، ودمنياط ، والمنصورة ، والشرقية ، وقليوب ، والجيزة ، وثلاثة في مصر الوسطى وهي : إطفح ، والفيوم ، وبني سويف ، وثلاثة في مصر العليا وهي : أسيوط ، وجرجا ، وقوص ( طيبة ) .

تقسيمات مصر  
الإدارية سابقا

وكان على رأس كل إقليم أمير مملوك يقال له الكاشف . ومرجع الكل إلى الأمير المملوك المدعو ”شيخ البلد“ المقيم في القاهرة . والذي كان حاكم القطر الحقيقي ، بالرغم من وجود وال عثمانى بالقلعة ، يرسل من لندن القسطنطينية كلما عن رجال الحكم هناك أن يعزلوا سلفه ، أو كلما أرسل ”شيخ البلد“ إليه رسوله ، المعروف عند أهل مصر بلقب ”أبي طبق“ لينذره بعزله بأن يقول له : ”أنزل يا باشا“ .

(١) أمم مصادر هذا الفصل هي : ”مصر كما هي“ لمالك كون ، و”لغة عامة على مصر“ لكلوت بك ، و”مصر في عهد سعيد باشا“ لمرور ، و”مصر في عهد اسماعيل“ لمالك كون ، و”تاريخ مصر الحديث“ بلروج بك زيدان ، و”مصر منذ الفتح العربي لغاية الحملة الفرنسية“ لمرسيل ، و”وصف مصر“ للملأ الحملة الفرنسية .

وقد حافظ يونانرت على هذا التقسيم .

فلما استتب الأمر لمحمد على عتله . وروى كلوت بك أن القطر المصري كان في سنة ١٨٤٠ منقسما إلى سبع مديريات فقط؛ منها أربع في الوجه البحري وهي : البحيرة، والمنوفية، والدقهلية، والشرقية، علاوة على محافظتي الاسكندرية ومصر، وواحدة في مصر الوسطى وهي : بني سويف والفيوم معا، واثنان في الصعيد وهما : المنيا، وإسنا .

وقسم (محمد على) كل مديرية إلى عدة مراكز . وكل مركز إلى عدة أقسام . وكل قسم إلى عدة نواح . فبلغ عدد المراكز في تلك السنة أربعة وستين . وعدد الأقسام ثلاثمائة ونيفا . وعدد النواح ثلاثة آلاف وثمانمائة .

وأغرب ما في التقسيم، الذي قال عنه كلوت بك أن الجيزة كانت جزءا من البحيرة؛ والغربية جزءا من المنوفية؛ وأن العريش كان تابعا للدقهلية؛ والقليوبية تابعة لمصر . و(محمد على) أول من سمى رئيس المديرية "مديرا"، ورئيس المركز "مأمورا" ورئيس القسم "ناظرا" . وأما رئيس الناحية فأتى اسمه "شيخ بلد" منذ القدم . وأوجد في كل ناحية، بجانب شيخها، مستخدما سماه "انخلوى" وظيفته مراقبة الزراعة ومسح العطين؛ وآخر يقال له "صراف" لجمع الأموال وتوريدها للمأمور؛ وثالثا يقال له "الشاهد" وهو المأذون من قبل القاضي للحكم في قضايا الأحوال الشخصية، وتحرير عقود الزوجية وغيرها .

وكان مرجع شيخ البلد إلى الناظر؛ ومرجع الناظر إلى المأمور؛ ومرجع المأمور إلى المدير؛ ومرجع المدير إلى ديوان الداخلية . على أن كل مأمور كان مكلفا بكل

مدير برفع تقرير أسبوعي عن أعماله وإجراءاته إلى ذلك الديوان عيـنه ليـقف هـذا  
على مـاجريـات الأـمور .

أما المديرون فكانوا كلهم أتركا أو مماليك من مماليك الباشا العظيم . وأما المأمورون  
فقد اجتهد (محمد علي) في جعل معظمهم من أبناء مصر دون أن يبالى بكونهم مسلمين  
أو أقباطا . وكذلك نظار الأقسام .

لكن التجربة لم تفلح ، لسببين :

(الأول) هو أن المصريين ، في تلك الأيام ، بالنسبة لوجود معايب الشعوب  
المستعبدة زمنا طويلا ، وتقائصها فيهم ، لم تكن لهم ذاتية ، ولم يكونوا أكفاء للإمرة .  
فكان المقلد منهم سلطة يستبد بمن كانوا اخوانه بالأمس استبدادا فاحشا ، مع خنوعه  
أمام رؤسائه خنوعا شائنا .

و(الثاني) هو أن هيئة الأتراك ، بالرغم من أن الجيش المصرى كسر أولئك  
العنـاة الذين استـعبدوا المصريين أجيالا وقرونا ، كانت لا تزال متأصلة في نفوسهم  
تأصلا عظيما : فكان مأمور المركز ، أو ناظر القسم المصرى يقف محتشما أمام قواصده  
التركي ذاته احتشاما فاقها ، فما بالك في حضرة ملثم من الملتزمين الأتراك ، أو حضرة  
ذى حيلة من رجال ذلك العنصر القاهر ؟

وكان (محمد علي) عيـنه ، بالرغم من كل مجهوداته لرفع درجة العنصر الفلاح المصرى  
الى مستوى درجة العنصر التركى ، لا يستطيع — لأن تربيته الأصلية تركية وشعوره  
تركى محض — أن يحمل نفسه على تهدير فلاحي مصر أكثر من الأتراك . والركون  
اليهم في المهمات أكثر من ركونه الى أبناء جنسه . ولا أدل على استمرار الشعور



التركي حيا فيه حياة قوية ، بالرغم من عشقه مصر وامتلأه قلبه بحبها ، وبالرغم من اشتباكه مع تركيا في حرب كان يلعب فيها بعرشه ، بل بذات حياته وحياة أولاده ، من الجواب الذي أجاب به ذات يوم وجيها من الغربيين أقبل يهتته بالانتصارات التي أحرزها جيشه المصري على الجيوش التركية ، ويكل الثناء جزافا لأبناء مصر البواسل ، المقاتلين بفوز مستمر ، فوق ربوع الشام وبطاح الأناضول . فان ( محمد علي ) قطع عليه كلامه قائلا : " لا تنس ، يا صديق . أن الذين يفوزون في المعارك انما هم الضباط لا الجنود . وأن ضباط الجيش المصري كلهم أتراك<sup>(١)</sup> " .

وأما مشايخ البلاد فكانوا من الفلاحين ، طبعا . وكذلك الخوليون . والسيارفة — وهؤلاء كانوا كلهم أقباطا — والشهاد .

وكان الكل مأجورين ، متناسب مرتباتهم مع أهمية وظائفهم . ويرتدون ملابس عليها شارات تلك الوظائف . فشيوخ البلاد كانوا يتقلدون وساما من فضة . ونظار الأقسام وساما ذهبيا . والمأمورون وساما من ماس . وأما المديرون فكانوا بكوات أو باشاوات من أصحاب الرتب العسكرية السامية يتقلد كل منهم كسوة رتبته .

وجعل ( محمد علي ) ، على رأس الإدارة ، عثة دواوين للنظر في شؤونها المختلفة ، كديوان الداخلية وديوان الحربية ، وديوان البحرية ، وديوان الخارجية ، وديوان

(١) بخلاف شعور إبراهيم ابنه . فانه مع تمادي الأيام ، بات مصر يا أكثره تركيا . ولا أدل على ذلك مما قاله ، مرة ، للفرنسي الميرسيالي بكريسكار ، وهو يصف حصار عكا له ، وهو : " ليس في العالم جنود يفوتون أجنادي في حماسهم ومجاهدتهم في القتال ، مهما كانوا في النظام وبعرة فنون الحرب والطمأن . وإن بنا من بعضهم ، أحيانا ، تردد أرجين ، فانما بنا ذلك من جانب الضباط الأتراك . ولست أذكر أن شيئا من ذلك بنا من أولاد العرب " . أنظر بكريسكار :

" سياحات وحوادث بمصر " ص ٣٢٢ ج ١

التجارة، وديوان المعارف العمومية، وديوان الزراعة، وديوان الصحة، وهلم جرا .  
وجعل فوقها كلها المجلس الخاص ، الذى كان هو نفسه يرأسه ، تعرض عليه كل  
الأمور، صغيرها وكبيرها، ليطلع عليها ويبدى رأيه فيها . وكان يدعى "ديوان المعونة"  
للدلالة على ماهيته .

وكان ، اذا أراد الإقدام على أعمال كبرى فى الزراعة ، أو على أشغال ذات منفعة  
عمومية هامة ، يجمع المديرين فى أحد تلك الدواوين ويعرض المشروع عليهم ويأخذ  
رأيهم فيه . فانما واقتت أغليتهم عليه فغنه ؛ وإلا انتدب مخصمين يبدون بحسنه ،  
ويستصفون خلاصته .

فلما آلت الأحكام الى عباس باشا ، أغضض عليه عن ميرالادارة فى الطريق  
الذى اختطه (محمد على) لها ؛ ورأى ، مع مجرده عن الرغبة فى فحص الأمور بنفسه ،  
أن يحل هواء محل نظر الدواوين : ففتح أمام الجاسوسية مجالاً تطرق منه الخلل الى  
العمل ؛ وأدى ، بعد زمن قليل ، الى تعطيله ، واستتباب استبداد الحكم ، لا سيما  
بكارهم ، بالرعية استبداداً فاحشاً .

فحال الأمر محمد سعيد باشا ، بعد توليته بقليل ؛ وكبر عليه شقاء الأهلين ! ولكنه  
لم يراصلاحاً يقدم عليه ، خيراً من الفناء وظائف المديرين — لأنهم كانوا ، فى نظره ،  
جرثومة ذلك الاستبداد وقروته — وجعل ديوان الناطية يشرف رأساً على أعمال  
الأمورين ونظار الأقسام : فزاد الطين بذاك بلة . وأضر ، بالرغم من حسن نياته ،  
من حيث أراد أن يفيد .

فلما استلم (اسماعيل) زمام الأمور ، ونجلى أمام ذكائه الاختلال الشائن الذى  
أوجدته فى نظام الادارة روح عباس الظنانة شراً وروح سعيد المتطلبة خيراً من غير

الاصلاحات التى  
أدخلها اسماعيل  
على الادارة

تبصر، رأى أنه لا بد له من اصلاح عام يدخله على ذلك النظام سريرا، ليكون قاعدة لكل اصلاح تال .

فقسم القطر الى ثلاثة أقسام كبرى : البحرى ، والمتوسط ، والصحيد . وقسم هذه الأقسام الثلاثة الى أربع عشرة مديرية وثمان محافظات <sup>(١)</sup> .

فن المديرات سبع في الوجه البحرى وهى : البحيرة ، والبحيرة ، والقلوبية ، والشرقية ، والمنوفية ، والغربية ، والدقهلية . وثلاث في الاقليم المتوسط وهى : بنى سويف ، والفيوم ، والمنيا . ونحس في الصحيد وهى : أسيوط ، وجرجا ، وقنا ، والقصير ، وإستا .

أما المحافظات الثمان فهى : العاصمة ، والاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، والعريش ، وبورسعيد ، والسويس ، وسواكن .

وحافظ على تقسيم المديرات الى مراكز ، والمراكز الى أقسام ، والأقسام الى نواح . وقسم محافظتى العاصمة والاسكندرية الى أقسام ، جعل كل قسم منها يضاهى مركزا في المديرات . وأنشأ وظائف مفتشين ورؤساء مفتشين للأقاليم ، كان ، فيما بعد ، أعظمهم شهرة وأكبرهم شأنا اسماعيل باشا الذى عرف "بالصغير" و"المفتش" ، وسلطان باشا ، وصر باشا لطفى .

وصعد برياسة النواحى الى عمد بدلا منها الى مشايخ . وجعل هؤلاء مساعدين لأولئك فى أعمالهم . وفوض الى أهالى كل ناحية أمر انتخاب عمدتها ومشايخها . وأبقى الصبارة والمأذونين . ولكنه ألغى وظائف الخوولين : لأنه لم يعد من سبب

(١) لهذا راجع التقسيم الذى يليه ، أنظر : ماك كرون "مصر كما هى" ص ١١٤ وما يليها .

لوجودها، بعد أن منح محمد سعيد باشا حق امتلاك أترية الأتليان ، وحق زراعتها كما يشاؤون . وأبقى مرجع الإدارة كلها الى وزارة الداخلية .

وكان محمد سعيد باشا قد حوّل بعض دواوين أبيه كالداخلية والمالية والحربية الى وزارات ؛ وعهد في الأولى الى الأمير أحمد باشا رافت ؛ وفي الثانية الى مصطفى باشا فاضل ؛ وفي الثالثة الى الأمير سليم باشا . فحوّل (اسماعيل) باقى الدواوين الكبرى - كالبحرية ، والخارجية ، والأشغال ، والمعارف - الى وزارات كذلك . وأنشأ في أوائل سنة ١٨٦٥ وزارة جديدة سماها "وزارة الزراعة" ضمها الى وزارة الأشغال ، وعهد فيها ، مما ، الى نوبار باشا ، مكافأة له على فوزه في مسألة قناة السويس التى سيأتى الكلام عنها .

إنشاء وزارة زراعة

فبأن أعظم تحسين أدخله على الإدارة أنشأه هيئات نيابية في المراكز والمديريات قصد منها أن يعلم الأمة ، بأشراك وجوها ونوابها مع حكماها في أعمالهم الادارية ، كيفية الوصول الى حكم نفسها بنفسها .

إدخال نظام  
هيئات نيابية  
مل المديريات

فأقام ، لهذا الغرض ، في كل مركز ، مجلسا اداريا يستشير المأمور أعضائه في إنجاز الأعمال المركزية ؛ وأقام ، حول كل مدير ، مجلسا عليا ينتخب الأهليون أعضائه ليكونوا آعين المدير ومستشاريه ، وليضربوا على تجاوزات مشايخ البلاد وعمدها .<sup>(١)</sup>

وكان قد اضطر ، في بادئ الأمر ، الى اتخاذ المديرين كلهم من المنصر التركى ، لعدم وجود أكفاء من أولاد العرب للقيام بمهام تلك الوظائف الخطيرة . ولكنه - مع تقدم أيام ملكه ، وإخراج المدارس المصرية وسلوك الإدارة رجلا يعتمد عليهم من أبناء البلاد ، وبما أن الحوادث التى تلت أظهرت عدم كفاءة الأتراك للإدارة ،

تعيين مديرين  
من أبناء البلاد

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ١٣٦

بالرغم من كفائتهم غير المنكورة للإمرة والحكم — أخذ يستبدل المديرين الأتراك بمديرين من المصريين الصميمين ، رويدا رويدا ، حتى أصبحت معظم مديريات القطر مرؤوسة في سنة ١٨٧٧ بمديرين من أبناء البلاد، بالرغم من أن هيبة الأتراك ، من جهة ، كانت لاتزال كبيرة في نفوسهم ؛ وأنه كان يخشى أن تحملهم هذه الهيبة في معاملاتهم الادارية مع كبار رجال العنصر التركي الخاضع لحكمهم ، على خور في العزائم ، قد تنجم عنه مضار المصلحة العامة ؛ وبالرغم من أن هيبة الحاكم المصري ، من جهة أخرى ، لم يكن لما أصل في نفوس إخوانه المصريين ، لا سيما أهله وذويه وبلديه ؛ وكان يخشى أن تحمله ألفتهم به على تهاون في واجباته ، يخل إخلالا بالغا في تلك المصلحة العامة حينها .

حكاية جابر بك  
مدير بنى سويف  
وقواصه التركى

ويروى ، للدلالة على هذين الأمرين معا ، أن وجها من وجهاء الصعيد عين مديرا للديرية التى فيها بلده ؛ فوجد من ملازمة أهله ومعارفه له وجلوسهم معه ، بدون أقل تكلف ، في حجرة الرسمية الخاصة به ، وتضييعهم وقته عليه في محادثات لا طائل تحتها ، أولاتهم سواهم من الناس ، ما رأى ، معه ، مهابته مفقودة في عين مرؤوسيه والأهالى معا ، وما غصبت به روحه . ولكنه لم يجد من نفسه القوة الأدبية الكافية لايقافهم عند حثم . فأوعز الى قواصه التركى — وكان ألبانيا ، على القامة ضخمة الجثة ، ذا شارين كشاري حسنة وأبى زيد في صورتيهما المتداولتين بين أيدي الناس — أن يدخل يوما ، بغاة ، على أولئك الأهل والمعارف ، عند ما يراهم جالسين في حجرة الخاصة ؛ ويزجرهم ويطردهم من حضرة ، عساهم يرتدون .

فامتثل القواص للأمر من القد ؛ ودخل على جمع بلديي المديرين الملازمين له في غرفته ، وقد قتل شاربيه الكثيفين حتى مس طرفاهما أذنيه ؛ وحملى عليه حملة

مرؤمة ، وهم عليهم صارخا بصوت مخيف : "يلا ! سكتر ! كرتا ! فلاح أدبسيزا"  
 فذعر الجمع وارتعدت فرائصهم . وماهى الإلحظة وقد أدخلوا المكان مهرولين يتسابقون  
 ويتنافسون الى الباب ؛ ولكن المدير كان أظلم هروبا ، لشدة ما وقع في نفسه من  
 هيئة قواصمه وهول منظره وصورته<sup>(١)</sup> .

وتتبع (اسماعيل) اصلاحه الادارى باقدمه على اشراك الأمة المصرية معه في الحكم  
 وتحقيقه ، في انشاء مجلس نيابى ، الفكرة التى دارت في خلد جده ، الباشا العظيم ، ولم  
 تمكنه الأيام من انراجها الى حيز العمل<sup>(٢)</sup> .

فبسط في أواخر سنة ١٨٦٤ ، رغبته في استدعاء أكابر التجار والأعيان والمزارعين  
 الى جمعية عمومية ، تطلع على حال البلد المالية ، ويناط بها أمر المناقشة في الضرائب  
 وتحديداتها وتقريرها ثم توزيعها توزيعا عادلا .

وفي أوائل سنة ١٨٦٦ نفذ تلك الرغبة ، ومنح القطر هيئة نيابية ، وضع لها قانون  
 انتخاب في منتهى الحكمة والسياسة ؛ حتى لقد قال فيه بعض كتاب الفرنج « انه  
 يصلح لأن يكون نموذجا وقدوة لمعوم الأنظار بلا استثناء ؛ وأنه خليق بأن يحسد  
 العالم المتمدين مصر عليه » . وجعل اختصاصات تلك الهيئة واسعة ؛ ومداولاتها

انشاء مجلس نيابى

(١) سمعت هذه الرواية من كثيرين من حاصروا الحادثة . وسمعتها أيضا من صديق الشيخ مرسي محمود  
 الحامى بالإسكندرية ، قلنا عن لسان بعض بلدى ذلك المدير . والأستاذ يروينا بكيفية نكتة  
 في منتهى الفلرف .

(٢) أنظر : ماك كون "مصر في عهد اسماعيل" ص ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨  
 وأنظر : "تاريخ المالية المصرية" ، و"رسائل من مصر المعاصرة" بلطون دنجلاز ، ص ١٤٢  
 و ١٤٤ على أن هذا الكتاب ينظر الى الأمور من وراء ظلاله سوداء ، وما لورنى : "مصر"  
 ص ١١٧ وما يلها .

نافذة في الأمور المالية والإدارية، واستشارية، خليفة بالعمل بها، متى كانت صائبة، في الأمور التشريعية .

وفي ٢٥ نوفمبر من السنة حينما افتتح أول جلساتها بمجلة شاققة، تلا فيها بنفسه خطابا وجيزا فصيحاً، أظهر فيه للتراب الغرض من اجتماعهم، وطلب اليهم مساعدة حكومته على تنفيذ الأشغال العمومية المفيدة الجارية في البلاد، وتحديد مواعيد سنوية لجباية الأموال، وأحاطهم علماً بما تم، في ذلك العام، من تعديل نظام ارث العرش المصري، والموجبات التي ألزمت، والنفقات والتعهدات التي استلزمها وسيأتي بيان كل ذلك في حينه .

فكان — مع أنه شرفي — أول عاهل، بعد كارلو البرتودي ساقويا، ملك سردينيا، روى التاريخ عنه، أنه تنازل، عن طيبة خاطر ويجرد إرادته، عن جزء من سلطته المطلقة، ومن ميزات تاجه الملكي، وأول عاهل أعاد إلى أمته جانباً من السلطة التشريعية المستلمة، في الحقيقة، منها . فسبق، في هذا المضمار، موتسو هيتو، ميكادو اليابان المحيد الطائر الصوت، ومظفر الدين خان، شاه المعجم الممدوح الذكر !

وأنا، إذا وعينا تماماً أن إنجلترا نفسها، العريقة في الأحكام الدستورية، لم تتل حزية هذه الأحكام إلا بعد أن قاتلت عليها، مدة ملكها (يوحنا العديم الأرض)، أخا ريكاردوس قلب الأسد، وأنها أضربت، لاستعادتها والحفاظة عليها، نيران ثورين، وثلاث حرشين، أضربت قوائم أولها في دم تشارلز الأول السنيور في الجالس عليه، وأنه ما من أمة في أوروبا، إلا وكابدت في سبيل الحصول على تلك المنزلة أجسم المشاق، وأضربت أركى دماء نبلاء الشعوب والأقوام من أولادها، وأن

الصحافة العالمية استغلت كل كلمات الشكر والثناء، في تحييد عمل ميكائيل اليابان وشاه الجيم المذكورين حينما تم، أدركنا مقدار ما يستحق عمل (اسماعيل) من إعجاب؛ وما هو خليق به من مدح جزيل !

ولا يضيق ما أخذ عليه بعض الكلب من أن الهيئة النيابية التي جاد بها على بلاده لم تكن، لجهل معظم أعضائها المطبق، ولثقل ظلم ستين قرنا على عوائقهم، تستطيع تقدير المنمة المجهود بها حق قدرها، ولا استخدام الآلة الموضوعة بين يديها استخداما حسنا، وأنها اعتقدت من واجباتها أن ترى أنها ملتزمة للتصديق، فقط، على رغائب "ولى النعم".

فانه اذا صدقت الرواية الزاعمة أن التواب — حينما أفهمهم شريف باشا وزير الداخلية في تلك السنة، أن المجالس النيابية الأوروبية مقسمة دائما الى حزيين : حزب يعضد الحكومة، وحزب يعارضها ويقاومها؛ وأنه يجدر بهم، والحالة هذه، أن ينقسموا هم أيضا الى حزيين : حزب مع الحكومة، وحزب عليها؛ فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمين، ورجال حزب المعارضين لها على مقاعد اليسار — تسابقوا جميعهم الى مقاعد اليمين، هائمين : "إنا كلنا عبيد أفندينا . فكيف نكون مقاومين لحكومته؟" <sup>(١)</sup>

وإذا صح ما زعمه السيدى (دف جوردون) في مراسلاتها من أن أحد المتخفيين قال لها : "إنا، معشر التواب، إنما نحن ذاهبون الى مصر، وقلوبنا في جزينا؛ لأنه، اذا كان أحدا لا يستطيع أن يحاوب المدير، على أى أمر يصدره إليه، مهما

(١) انظر على الأخص : مالك كون "مصر كما هي" ص ١١٨ (الحاشية)، و"مصر تحت حكم اسماعيل" ص ٤٠ (الحاشية).



كان جائرا، سوى بعبارة "حاضرا على عيني ورأى!"؛ أفتردين أن نجسر على مقاومة ارادة أفندينا، الذي يملك أعتاقنا؛ وحق التصرف في أعمارنا؛ ويستطيع في أى وقت يشاء أن يخنس الأرض تحت أقدامنا، ويقطع خبرنا في أقاصى الفاروق<sup>(١)</sup>؟

وإذا صح أن خوف الأهلين من المديرين ومن معادياتهم جعلهم يفترقون من الانتخابات؛ وأن هذه — بالرغم من القانون الجميل الموضوع لها — لم تجر إلا بالقوة القاهرة، وطبقا لرغائب أولئك الحكام؛

وإذا صح أخيرا أن التواب كانوا، في أول جلوسهم على كراسيهم، متحيين لا يدرون ما هي واجباتهم؛

فانه يجب أن لا يغيب عن الأذهان ثلاثة امور :

الأول : أن ( اسماعيل ) كان يعلم حق العلم أن هناك أقلاما أوقفها أعداؤه على تسوئة سمعته وتسويد صحيفه أعماله ؛ وإظهار كل الاصلاحات التى يقدم عليها كأنها مجردة لا لرغبة حقيقية فيها، وابتغاء للفائدة التى تعود منها على البلاد ؛ ولكن لذو الرماد فى أصين الدول الغربية ؛ وحمل العالم المتمدين ، على الاختلال بالطلاع واعتباره بجرى تلك الاصلاحات من أعظم رجال القرون و« أكبر حاكم وجد على رأس مصر الاسلامية منذ الفتح العربى » ؛ كما كان يقول محبوبه والمغمورون بأفضاله من أصحاب الجرائد الفرنساوية والانجليزية والابطالية الكبرى فى بلادهم . وكان يعلم أيضا أن الواقفين على نوع عقيلة الأمة المصرية وماهيتها، فى تلك الأيام، قد يستخرون بمنحته،

(١) انظر : "رسائل ليدى جوردن" ، دف" ج ٢ ص ٨٦ ، و"مصر" للملوكى ص ١٢١

ويستنكرونها ، حتى فيما لو اعتبروها صادرة عن إخلاص حقيقى فى حب البلاد ،  
ورغبة صادقة فى رقيها ، وأنه ، مع ذلك ، لم يخف طعن الطامعين المعاملين ، ولم  
يخش استهزاء المستهزئين ، فى سبيل السير بأمنه فى معارج المدنية الحديثة ، والنهوض  
بها الى مستواها بأية وسيلة يراها مجدية فعلا .

الثانى : أن أى عمل انساني كان يراه الوقت الحاضر ضعيفا هزأه ، قد لا يلبث ،  
مع مرور الأيام عليه وهو قائم ، أن يكسبه الزمان حلة من الكمال ، ويحوطه بهالة من  
الجلال ، لا تجعله كغيره فى العيون ، فقط ، بل مثمرا ثمرا شهييا . وأن خير معبر عن  
هذه الحقيقة ، ما قاله ذلك النبيل الفرنسي الذى منح تابلون الثالث لقب شرف  
كان لأعرق الأسرات الفرنسية قدما ، واندر باندناوها ، وهو : « إياه ليخجلنى ،  
حقا ، أن يلتقى عارفى بالذوق دى مونجورانسى : لأنهم يعلمون أنى لست من هذه  
الأمرة . ولكنى متأكد أنه لن تمضى خمسون سنة إلا ويكون الملاء قد نسى من منح  
بلى هذا اللقب ومتى منحه ، فيعتبرونه ، فى أحقادى ، إرثا عن أسرته القديمة ،  
ويصبح مصدر فخار لهم : لأن الزمان يقدس كل شئ<sup>(١)</sup> » .

ومن يعلم أن شريف باشا ذاته — الذى رأى التواب الأولين يتسابقون الى مقاعد  
اليمين ، ليكلا يعتبروا من حزب المعارضين للحكومة — أصبح ، فيما بعد ، من أشد  
الناس تمسكا بالهيئة النيابية بمصر ، ومن أكبر أنصار الحكم الدستورى ، حتى إنه  
فضل اعتزال الأحكام فى أوائل حكم توفيق على توليها ، ولا هيئة نيابية فيها<sup>(٢)</sup> من  
يراجع ، بعد ذلك ، تاريخ الحركة الفكرية النيابية بالقطر المصرى فى نصف القرن الذى

(١) أنظر : مالورفى "مصر" ص ١٢٢

تلا افتتاح أول مجلس نيابي فيه ، ويقف على مقدار تطور العقليّة فيها ، يدرك إدراكا تاما مقدار الحكمة المستكنة في قول ذلك النبيل الفرنسي ؛ ويمكن من الوقوف على التطور الاجتماعي الذي أوجبه ، على ممر الأيام ، منحة ( اسماعيل ) : فيقدرها وتقديرها الحق ، ولا يخل على صاحبها بالثناء والشكر اللذين يستحقهما .

الثالث : أنه لم يمس على تشكيل ذلك المجلس بضمة أعوام ، إلا وأنجب نوابا عن مصالح الأمة حقيقين بهذا الاسم ؛ ولو أن عددهم لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة ؛ نوابا لم يروا أن مهمتهم تنحصر كلها في التصديق على أعمال الحكومة وتمحيذها . لم يخافوا التصدي لمعارضتها ومناقشتها الحساب ؛ بالرغم من علمهم أنها إنما تنطق بلسان الأمير وتعبّر عن إرادته . ومع ذلك ، فإن التاريخ لا يذكر أنهم أصبوا بسوء بسبب حرية ضمائرهم وألسنتهم . ولو أن بعض ذوى الأمر امتعضوا منها ، وهتدوا أصحابها بضرة إن لم يصمتوا .

## الفصل الثاني<sup>(١)</sup>

### توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات

”الزراعة حياة مصر، والرى روح الزراعة،  
والمواصلات من البلد كالشرابين من الجسد“  
« كهنوت مصرى قديم »

من المعلوم أن (محمد على)، فى أوائل سنى ملكه، أى ما بين سنة ١٨٠٨  
وسنة ١٨١٤، مقابل ترتيبه إيراد سنوى، لحاملى جميع الأقطان المصرية، يوازى  
إيرادها السنوى المعتاد، استولى على جميع هذه الأقطان، بما فيها أقطان ديوان  
الأوقاف ورزق المساجد— ما عدا ”الوسيات“— وهى أقطان تخلفت للنواحى عن  
فلاحين ماتوا بدون وريث، أو تنازل عنها أصحابها الفقراء، لعدمهم، إلى ملتزم الناحية  
مقابل مبلغ يسير من النقود، فأصبح الملتزم يزرعها لحسابه، نظير دفعه مالا سنويا  
لليرى، ليتمكن من القسام ببعض ثقلات فى المصلحة العامة كتطهير الترع وصيانة  
السواقي. وما لبث الملتزم، بعد عهد قليل، أن امتنع عن دفع ذلك المال، مع  
احتفاظه بالوسية، كما فعل البطريقيون ”بالأجر العام“ فى جمهورية روما القديمة.  
لحقق (محمد على)، بذلك التملك، الحلم الذى رآه فى صباه، وهو فى قوله، إذ نظر  
نفسه يشرب كل ماء النيل، ليروى ظلما أعتراه، ولا يرقوى.

صورة الأرض  
المصرية برمتها  
إلى محمد على

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى: مؤلفات كلوت بك بيهانوف وماغين وموديه البادى ذكرها، و”تاريخ  
مصر الحديث“ لجورجى بك زيدان، و”مصر فى عهد محمد على“ لبيكر مسكار، و”مصر المعاصرة“  
لمريشو، و”مصر“ لبارون مالوفى، و”مصر“ لستافى لين بول.

ومن المفهوم، بداهة، أنه إنما استولى على جميع أطيان القطر، لا لطمع أو جشع في أملاك الغير، ولكن لسبيين: الأول، رغبته في إدخال أصناف مزروعات جديدة على الزراعة المصرية المعاصرة له (كالقطن، والكتان، والأنيون، والنبيلة والثوت الخ)، من شأنها زيادة الثروة العمومية، وإسماء رخاء البلاد؛ وعلمه أن جهود الفلاحين المصريين في الاكتصار على أنواع المحصولات القديمة يحول دون تحقيق رغبته؛ والثاني تصميمه على احتكار تجارة القطن، فلما منه أن في ذلك مصلحة البلاد؛ لاعتقاده أنه يدرى من أساليب التجارة وضروبها ما لا يدرىه الفلاحون؛ وأرادته، والحالة هذه، أن يتمكن من زرع ما يشاء، أنى يشاء، وبأية كمية يشاء.

فأدخل، الأصناف الجديدة، التي كان راغبا فيها، على زراعة البلاد؛ وتصرف في زرعها التصرف الذي رآه مناسباً لمصلحته ومفيداً لتجارة القطن. فأكثر، مثلاً، من زراعة أصناف المستعمرات (كالقطن وأمثلة) في الوجه البحري، حتى كاد يجعل زراعة هذا الاقليم كلها قاصرة عليها. وخص الصعيد بزراعة القطن والحبوب.

ويكلا تحرم مصر الاستفادة حتى من الأطيان البائرة، أنتم بعد سنة ١٨٢٠ بأكثر من مائتي ألف فدان منها على كبار أنراكه؛ وأعطاهم من دفع ضريبة ثلثها مدة تراوح بين ست وعشر سنين؛ على شرط أن يحبوها ويزرعوها. وقد عرفت هذه الأطيان باسم "الأبديات" أو "الأباعد". وأكثر (محمد علي) فيما بعد من الإنعام بها على المخلصين في خدمته من رجاله الأمناء، بصفة مكافآت لهم على أعمالهم التي أحرزوا بها رضاه؛ ورغبة منه في إنماء المساحة الصالحة للزراعة في القطر المصري.

وقد اقتدى به في الاعتناء بالزراعة، بل فاقه خنتا في أساليبها، ابنه إبراهيم باشا؛ فإنه، على كونه جندياً أكثر منه رجلاً زراعياً، ما كاد يقتني الأطيان الشاسعة بالقطر

اصلاحات ابراهيم  
باشا الزراعة

إلا وأدرك، أكثر من كل مزارع، مقدار الخيرات التي يمكن للأرض المصرية أن تكثرها، إذا بوشرت زراعتها على حسب الأصول الفنية .

فأقبل يشتغل بمنتهى الذكاء والتفان، وأدخل تحسينات جمة على الطرق الزراعية القديمة المتبعة، واستنبط طرقا أخرى، وباشر زراعة نباتات غير النباتات المعروفة (كشجر الزيتون) مثلا : فانه غرس منه ما ينيف على ثمانين ألفا . ثم أصلح جملة أطيان باثرة، وحوّلها إلى أطيان زراعية في غاية الجودة . فاهيك بالإصلاحات التي أدخلها على فن إقامة الحدائق والبساتين، وتحويله جزيرة الروضة إلى اسم على مسمى حقا . وقد قال عنه البرنس بكمركسكاو في كتابه المعنون "مصر تحت حكم محمد علي" : « ان ابراهيم باشا معجب به في مصر كحسن عظيم . فـ هو بالتزامن والمزارع على مقياس شامع، فحسب؛ بل انه قد مّد ظل إصلاحاته فوق أرجاء الصحراء الشرقية التي ما وراء القاهرة، والمسلم أمر تحويلها إلى جنة غناء للسيو بونهور، وهو رجل لا يعرف المال ويشغل تحت إدارته عشرة آلاف عامل بأجرة تقاوح ما بين قرش ونصف إلى ثلاثة قروش يوميا تلغ، لم كل يوم جمعة بانتظام مستمر»<sup>(١)</sup> .

ولم يكن ليغيب عن ذهن (محمد علي) أن روح الزراعة بمصر إنما هي حسن توزيع مياه الري وأن توسيع نطاق الفلاحة فيها لن يدرك إلا بتوسيع نطاق الري حينه، ونطاق طرق المواصلات؛ وأن خير ضمان لاستقرار الفلاحين مقدمين بنشاط وحب على الزراعة إنما هو استفادتهم وإثرائهم منها ورؤيتهم أنفسهم غير مرهقين بالضرائب وطرق تحصيلها .

(١) أنظر : بكمركسكاو "مصر تحت حكم محمد علي" ص ٩٨

الاعتناء بوسائل  
الرى فى عهد  
محمد على

فما وضع يده على الأرض المصرية، للفرضيين الذين قلنا عنهما، إلا وأقبل بهمة  
الفائقة على الاعتناء بذلك جميعه :

فلم يترك جزءا من الأقطان التى كان يمكن رىها بالوسائل الموجودة منذ زمن  
الممالك، إلا وضمن له وصول المياه إليه بكيفية ثابتة . وربما كانت رغبة تمكنه  
من القيام بهذا العمل سببا ثالثا فى إقدامه على نزع الأقطان من أيدي أصحابها ؛ لأن  
هؤلاء كانوا لا يفترقون يتنازعون على الرى . يقاتل أهالى الجهة أحيانا جيرانهم أهالى  
الجهة الأخرى على فتح ترعة أو سدها . مثال ذلك ما كان يقع دائما من المنازعات  
بسبب ترعة الفرعونية . هذه الترعة كانت تصل بين فرعى النيل، وبين عين شمس  
ونضير، مازة بمنوف . وبما أنها كانت تحول جانبا عظيما من مياه فرع دمياط إلى  
فرع رشيد، قسبب — لا سيما فى أيام التحاريقى — شرقا جسيما لمزروعات الأرز  
فى شمال الدلتا والدقهلية، من المنصورة إلى دمياط ؛ كان المزارعون الذين فى جوار  
فرسكور وبعض جهات الدلتا الشمالية، والمزارعون الذين على فرع رشيد فى نزاع  
مستمر بعضهم مع بعض : أولئك يرغبون فى سد الترعة ومنع تحويل مياه فرع دمياط  
إلى فرع رشيد؛ وهؤلاء يرغبون بالمكس فى فتحها وتحويل المياه إلى فرعهم . وقد  
رفع كلا الطرفين شكوى فى هذا الشأن إلى الجفرال بونا برت فى سنة ١٧٩٩ فكان أحد  
الأوامر الأخيرة التى أصدرها ذلك الرجل العظيم وهو بمصر خاصا بإجراء تحقيق  
فى المسألة أمام لجنة من المهندسين المرافقين لجلته . ثم حدث، بعد ذلك بسنوات،  
أن مياه النيل، إما بفعلها الطيعى وإما بفعل بعض قوى المصلحة، ذهبت بالجسر  
الساقد للفرعونية، وأحييت المنازعات القديمة بين أولئك المزارعين، فرأى (محمد على)  
أن يفض الخلاف بينهم فضا نهائيا : فسد الفرعونية بمجاز من البناء الثابت المتين؛

وعرض على أهل مديرية البحيرة والجانب من الدلتا، الذين كانوا يطالبون بفتح تلك التربة، خسائرهم الناجمة عن ذلك السد بإنشاء عدة ترع في فرع رشيد أفادتهم أكثر مما كانوا يستفيدون من ترعة الفرعونية<sup>(١)</sup>.

ولكن وسائل الرى المخلفة عن الممالك كانت قليلة . ولم يكن في القطر من ترع هامة سوى بحر يوسف ، وبحر موسى ، وبحر شبين الكوم ، والبحميرية . فرأى (محمد على) أنه، رغم كل اعتناء يبذله في الانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من مياه هذه الترع، فإن جانباً عظيماً من الأطنان ذات التربة الخصبة يستمر بوراً لعدم وصول مياه النيل إليه .

فلى الرغم من اشتباكه في حروب عظمى — اضطر إلى الدخول فيها إما لحفظ الأمن في البلاد ، وإما امتثالاً لأوامر سلطان تركيا ، أو لرغبة في التوسع وفي إحياء شأن الأمة العربية — أقبل على إنشاء وسائل رى ، يعتبرها التاريخ أسطع ماسة في تاج مجده ، وخير وسام على ثوب نفوه . أهمها : ترعة المحمودية والخطاطبة في البحيرة ، وتمد ترعة البحميرية ، وترعة مسد الخضراء ، والبقيدى في الغربية ، والنعاجية ، والسرساوية ، والباجورية في المنوفية ، والبوهية ، والمنصورة ، وترعة دودة ، والشرقاوية في الدقهلية — وقد أنشأ هذه التربة الأخيرة ، لأن مزارعى الأطنان التى على الفرع النمياطى ، على الرغم من سد الفرعونية ، لم يفتروا يشكون من قلة المياه وعدم كفايتها لمقاومة دخول البحر الملح في النيل بالقرب من المنصورة . وأنشأها في جهة أعلى بكثير من النقطة التى يصل عندها امتزاج الماء العذب بالماء الملح : فجعل مزارع الأرض ضامنة الحصول على الماء الجيد طوال العام — ومصرف بليس ، وترعة

(١) أنظر : لبنان دى بقون "بيان أهم الأعمال بمصر" ص ٣٤٢ وما إليها .



الوادي في الشرقية ، والزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوة في القليوبية ؛ وبضع جداول أخرى في الصعيد ، لا تأتي على ذكرها ، لأن الوجه القليل مافى قليل الرى وغير منتظمه لغاية أيام (اسماعيل) .

ولم يقتصر (محمد على) على إنشاء هذه الترع ، ولكنه أقام على معظمها قناطر حاجزة ، مسهلة للرى : لأنها بحفظها المياه في مستوى موافق من الملو تمكن من تسريبها إلى الأرض بمجرد قطع يعمل في هذه ؛ أو من توصيلها إليها بواسطة آلات رافعة كالسواق والتوايت والشواذيف . وقد أنشأ (محمد على) منها في القطر عامة ما يزيد على خمسين ألفا . وبعض تلك القناطر على جانب عظيم من الأهمية .

وتوج كل ما عمله في هذا الباب المفيد بشروعه في إنشاء القناطر الخيرية الجليلة ، الشاسعة الأطراف ، البديعة الصنعة الهندسية ، على فرعى النيل ، في الموضع الذى أشار نابليون الأول في مذكراته بوجود إقامة عنده .

توسيع نطاق  
المواصلات في عهد  
محمد على

ولم يهمل في الوقت عينه ، توسيع نطاق المواصلات ؛ لعلمه أنه إذا تعذر نقل حاصلات الزراعة إلى حيث يسهل بيعها بأثمان موافقة ، فإنها لا تلبث أن تلتف أو تباع بأثمان بخسة : فلا يعود الاشتغال في إنعامها يحدى ؛ وتبور الفلاحة مع تئدى الأيام ، ولو بلغت وسائل الرى درجة الكمال ، واتسع نطاقه إلى أقصى ما يتصوره الفكر ؛ اللهم إلا إذا كانت تلك الوسائل طرق مواصلات أيضا .

فاجتهد أولا في جعل معظم ترع القطر الكبرى صالحة لللاحة كالنيل بتطهير مجراها بين حين وحين . ثم زاد عدد المراكب المانحة فيها زيادة مطردة : فبينما كان الموجود منها على النيل ، في أيام الاحتلال الفرنسي ، سبعمائة من أسوان إلى القاهرة ؛ وتسعمائة من القاهرة إلى البحر الأبيض المتوسط ، أصبح في سنة ١٨٣٩

ثلاثة آلاف وثلاثمائة؛ منها ثمانمائة للحكومة خاصة . وذلك غير مراكب الصيد التي كانت تمخر في بحيرات البرلس والمقزلة وإدكو ومربوط .

ولما انتشر اختراع فلتن الأمريكى ، وبُنيت السفن البخارية أسرع ( محمد ط ) وبني لنفسه واحدة منها كلها من حديد؛ ظنّها الأهالى ، أول ما راوها ، حيوانا بحريا ضفيا ولد في مياه النيل حديثا . ولكنه لم يستطع تعميم استعمال ذلك الاختراع في النيل لعدم وجود مناجم فحم حجرى في القطر .

ولم يكن ، قبله ، طرق في البلاد ، بالرغم من أن جسور الترع كانت تصلح لهذا الغرض ، لو خصت بشئ من العناية . ولكن حكام مصر الذين سبقوه على سنتها ، كانوا ، كلهم ، من رأى ذلك التركى القاتل بضرر إنشاء الطرق السلطانية ؛ ووجوب تعطيل الموجود منها . لأنها بتسهيلها تقل المداخيع من مكان الى مكان ، تمكن الأجانب من غزو البلاد . وأما علمها ، فيحول دون توغل أى جيش فاتح فيها <sup>(١)</sup> .

بفعل ( محمد على ) جسر ترعة المحمودية التي أنشأها ، طريقا للزور ، واختط عدة طرق سلطانية أخرى ، أهمها السكة التي بين مصر وقصره في شبرا ، وهي من أجل ما يكون ، تظلل الأشجار الباسقة جانبها . وفائدتها ، لنقل حاصلات الأفيان المحاورة لها الى العاصمة ، لا شكر .

على أن أهم طريق للواصلات أوجدت في أيام الباشا العظيم ، هي الطريق التي أنشأها الملازم الانجليزى ( واجهورن ) ما بين الغرب والشرق الأقصى ، وعرفت باسم " ذى أوثر لاندروت " ؛ وكانت ، ما بين السويس والقاهرة والاسكندرية ،

(١) أنظر : " مصر " لبارون دى مالوفى ص ١٢٤ ( الحاشية الثانية ) ، قلا من " برتيمم " في كتابه " ال قسطنطينية ومنها " ص ٢٤٩

ذات محطات ونظام وأدوات جعلتها مصلحة تامة المعنى ، أطلق عليها اسم مصلحة "الترانزيت" . وكانت في بادئ أمرها انجليزية محضة ، وكل عمالها من الانجليز . ولكن ( محمد علي ) ترصص حتى تدرج بنقله ارتكبا مديرها : فدفع تموينيات كافية لعمالها ، وصرفهم ، وأحل محلهم عمالا من لندنة . فصير المصلحة مصرية سنة ١٨٤٥ وكانت انجلترا منذ سنة ١٨٣٧ ، أي حالها فرغ من مد الخط الحديدي بين لندن وليفربول -- وهو أول خطوط العالم الحديدية -- وقبل أن تمتد غيره البلاد البريطانية حينها ، قد فاتحته في أمر إنشاء سكة حديدية بين مصر والسويس ؛ وراق المشروع في عينه . فبحث من استحضر من أوروبا الأدوات والمواد اللازمة له ، وهب الى نفاذه . ولكن فرنسا خافت أن يؤول الأمر ، اذ اتم على يد شركة انجليزية ، الى استيلاء بريطانيا العظمى على القطر المصري . فعارضت في المشروع -- ولم يكن ( محمد علي ) في تلك الأيام يعتمد في الملمات إلا عليها -- فأبى اغضابها ؛ ورأى ، من جهة أخرى ، أن نفقات تلك السكة قد تربو على خمسة وعشرين مليوناً من الفرنكات . بين أن ايراداتها قد لا تأتي بأرباح مطلقاً ، لاقتصاد منافع الخط المرغوب في انشائه على المواصلات مع الهند ، وعدم استفادة الزراعة منه بشئ . فأهمل المشروع وطرحه في زوايا السيان .

أما أمر إزاء الفلاحين من زراعتهم وعدم ارفاقهم بالضرائب وطرق جبايتها ، فإن الأيام السوداء التي آل فيها عرش مصر اليه ، والمصاعب الكبيرة الالفة ، من كل نوع ، التي أحاطت به ، لم تمكنه من تحقيقهما ، على كثرة رغبته في ذلك -- ولا أدل على هذه الرغبة من ارساله شبانا كثيرين الى أوروبا ليتلقوا علم الزراعة الفنى ؛ ومن ابتناؤه في شبوا عزية أحب أن تكون نموذجاً للعيشة الفلاحية السعيدة -- فبات

وفي نفسه من ذلك غصة : (أولا) لشعوره بحقيقة قول الشاعر الفرنسي : "إني أريد . ولكن ، يا للشقاء الأكبر ! فاني لا أصنع الخير الذي أحب ، وأعمل الشر الذي أكره ! " ، و(ثانيا) لعلامه بأن أعداء اسمه ومجده سيجدون ، في عدم تحقيقه ذينك الأمرين ، متسما للطن عليه ، وتشويه وجه شمس حياته الساطعة !

وبما أن المشهور عن عباس الأول ، هو أنه عامل القطر المصري كأنه بلد فتحه بجند السيف ، فمن البسي أن أنه لم يكن ينتظر منه الالتفات إلى ما يعود على أهله وساكنته بالرافية والخير .

أزل سكة حديدية  
بمصر

فاستمر الفلاح المصري ، إذا ، مقيما على أطياف لا يملك منها شيئا . واستمر يزرع وينمي ما لا نصيب له في اختياره ؛ ويحني محصولا لا يستطيع التصرف فيه . ولما رأى أن الحكومة أصبح يعوزها شيء كثير من الحكمة والرأفة النسبتين اللتين امتازت بهما أيام الباشا العظيم وإبراهيم المهلم ، وأن عباسا لا يهمنه من أمره إلا أن يملأ خزانته بالنفود التي يمصر جسمه لمصول عليها ؛ وأنه ، فيما عدل لذاته ، غير مشتغل في شأن من الشؤون العامة ، اللهم إلا في إحلال الجنود الألبانيين وضيرهم من الأتراك محل الجنود المصريين ، وتسليحهم بمسدسات أميريكية — كأن الشر المندلع من طبنجاتهم لا يكفي لإلقاء الرعب في القلوب — ورأى أن مشروع مد سكة حديدية بين الاسكندرية ومصر لم ينفذ إلا رغم ارادة ذلك الوالي ، أخذت عنايته بالحقول تقل ، واهتمامه برعيها ، ودفع طوائف الحدثن عنها ، وتطهير الترع الصغرى الموكول أمر صيانتها إلى القرى ، يزول . وبات الخراب يهدد الزراعة المصرية بأسرها .

(١) أنظر : "أميرة فرنساوية : إلى دي لسبس" لم. بدييه ص ٢٤٠

إصلاحات سعيد  
الاجرائية

فلما آل زمام الحكم الى (سعيد) هاله الأمر، وكبر طيه أن تصبح معظم نواحي القطر، بسبب إهمال الري والمواصلات وزرّوح الفلاحين تحت ثقل الضرائب الفادحة وظلمة طرق جبايتها الوحشية، قاعا صفصفا وقفرا بلفعا . وأدرك أن ما كان صالحا ومفيدا في أول عهد أبيه، لم يعد له في عهده من موجب ؛ بل إن ضرره الفاحش بات يرى بالعين ويلمس باليد .

فأصدر أمرا بتوزيع الأقطان ، في كل ناحية ، على القائمين بزراعتها ليتصرفوا في زرعها كما يشاءون . وأمر بتقييد ذلك التوزيع في مجلات خاصة ، تكون بمثابة حجج ملكية لأولئك المزارعين . ولئن لم يمنحهم حق امتلاك الأرض بالمعنى الذي يفهم من هذا التعبير (لأن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الاعتقاد السائد من أن ملكية الأرض حق من حقوق السلطان دون غيره) ، فإنه أباح لهم حق التصرف فيها فيما ورثها، على أن تكون "أثريتها" — كما كانوا واستمروا يسمونها لغاية عهد غير بعيد — لا هي بينها، موضوع ذلك التصرف . فأنعش بذلك الزراعة المصرية وجعلها تفرح وتبتدئ .

وتوصلا الى استئصال كل الأشواك من سبيلها دفعة واحدة، أقبل على الضرائب، وعدل طريقى ربطها وجبايتها : فأبطل النظام التضامنى الذى كان قائمها، وهو نظام — بما كان يوجبه من التضامن في دفع الأموال، بين أهل الناحية الواحدة، وأهل نواحي القسم الواحد، وأهل أقسام المركز الواحد، وأهل مراكز المديرية الواحدة — كان يلزم العامل العجيب النشيط بسد العجز الناجم عن كسل رفاقه ،

(١) لكل ما يروى عن سعيد في هذا الفصل، أنظر على الأخص: كتاب "مصر المعاصرة سنة ١٨٤٠

وتهاونهم، أو جهلهم، والعجز الناتج عن الفراغ الذى يحدثه الموت، أو أى طارئ  
كان فى عدد سكان الناحية أو القسم أو المركز أو المديرية : وفى ذلك من الغبن  
والظلم ما لا يسلم به عقل .

إسقاط المتاعرات

ثم أسقط، بجملة واحدة، كل المتاعرات التى كانت على النواحي — وكانت تبلغ  
ثمانين مليوناً من القروش، أى سدس الأموال جميعها فى عهد (محمد على) أبيه —  
والمتاعرات نتيجة طبيعية لسوء ربط الضرائب وسوء جبايتها .

وتنازل أخيراً عن الاحتكار التجارى الذى كان لأسلافه . فعزل، بأذنه عن أخذ  
الضرائب فعلاً: وأطلق الحرية للزارعين فى بيع محصولاتهم، أنى يشاءون ولئن يشاءون ،  
وطالبهم بدفع الأموال الأميرية نقداً .

ورغبة منه فى تسهيل الانتقال عليهم من طور الى طور وجعله أمين المواقب ،  
قسط تلك الأموال على اثني عشر فسطاً شهرياً ، ونظم طريقة تحصيلها ، طبقاً لما  
كان متبعاً فى فرنسا حينذاك . ومنح مهلاً للدفع ، ريثما يتاح لدى المزارعين مال  
كاف . وتجاوز، فى بعض الأحيان ولبعض النواحي المشتتة عضمة الفقر على ساعدها  
عن ضرائب سنة برمتها .

ثم أضاف الى جميع هذه النعم أخرى وهى : رفع الضرائب سنوياً، عن كل  
أرض لا تبلغها مياه النيل ، إما لقلة فى الفيضان ، أو لأى سبب كان — مقتضياً  
فى ذلك أثر أسلافه من عوائل مصر الصالحين : كأحمد بن طولون، والمغزلدين الله ،  
والعزيز بالله، وصالح الدين .

وتزوج كل ما فعل فى هذا الباب ، بإنشاء قرية للفلاحين على نظام قرى الغرب  
الرفية ، جعل فيها جميع أسباب النظافة والراحة متوفرة ، لتكون نموذجاً يبنى فلاحو

القطر قراهم على مثاله ؛ ولكن الفلاحين أبوا إلا البقاء على معيشتهم القذرة . ولم تمض مدة يسيرة حتى أهمل ساكنو القرية الأمموزجية منازلها الجميلة ، وابتنوا لأنفسهم عششا كالتي اعتادوا ، من صغرهم ، سكناها . فاندثرت قرية سعيد<sup>(١)</sup> .

غير أن إصلاحاته لم تكن لتجدي الزراعة النفع المرغوب فيه ، ولم تقتن باقتناء تام بوسائل الري وطرق المواصلات .

فأقبل عليهما . ولكنه ما ألقي نظره على الواجب عليه عمله في شأن الري ، حتى هالته جسامته وذلك لأن الأحوال كادت تطمر الترع التي أنشأها أبوه ، بما فيها الحمودية ؛ لقلة الاعتناء بها وقلة صيانتها ؛ ولأن أمر تطهيرها ، فقط — فاهيك بخمر ترع غيرها — كان من شأنه استنفاد همه رجل مقدم في عدة سنوات ، فأحجم .

ولكنه — حينما أفهمه موجيل بك أن الحمودية التي كلفت أموالا وأعمالا ثينة ، والتي تستحق الاسكندرية منها ماعدا ، ان لم تتدارك حالا بالتطهير ، انطمرت بعد قليل ، وباتت غير صالحة لللاحة بآنا ، حتى ولا للشرب — شمر عن ساعد الجذ والنشاط ، وأصدر إلى المديريات الأوامر بتسيير العدد اللازم من الأنفار إلى ضفاف تلك التربة ليشغلوا في تطهيرها . فأرسلت النواحي مائة وخمسة عشر ألف عامل ؛ وخصص لكل منهم عمل يؤديه ؛ ووعد وعدا صريحا بتسريحه حالما ينجزه . فاجتوا ، وتباروا ؛ وبالرغم من أنه لم يعط إلا فأسا واحدة لكل خمسة منهم ، أتموا العمل على ما يرام في ظرف اثنين وعشرين يوما فقط ؛ دون أن يموت أحد منهم ، بل دون أن يمرض أكثر من خمسة في كل ألف ، بفضل الاحتياطات والوقايات الصحية التي اتخذت .

(١) أنظر : أدون دي ليون "مصر الخديوية" ص ١٢٦

فلذا تذكرنا أن أكثر من اثني عشر ألف عامل من الذين حفروا الممبودية في سنة ١٨١٨ ماتوا في خلال عشرة شهور، ودفنوا تحت أتربة الجسرين المقامين على ضفتيها، أدركنا مقدار تقلص الأيام نحو الأحسن في غضون بضع وأربعين سنة من وجود مصر تحت أحكام الأسرة العلوية<sup>(١)</sup>.

غير أن إقدام سعيد على تقيم مذ السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر — وهي سكة اقتصحتها في أول يناير سنة ١٨٥٦ — وإنشاء خط آخر بين القاهرة والسويس؛ وإنشغال فكره في الإصلاحات التي عزم على إدخالها في حكومة السودان؛ وفي الامتياز الذي منحه المسيودي لسبس لأجل حفر ترعة السويس؛ ثم في عقد القرض الذي أورث خلقه عباة؛ ومداومة المرض له، على أثر ذلك، مداومة هلمت بناء جسمه الشديد؛ كل ذلك حال دون متابعته على عمل تطهير الترع التي أنشأها والده، ودون التفكير في إنشاء غيرها.

إنشاء الخط  
الحديدي ما بين  
القاهرة والسويس

فلما مات ترك الزراعة في أزمة، كان لابد لحلها من همه شماء، ونشاط فائق، يبدلان بسخطاء في سبيل ذلك.

تلك المهمة وذلك النشاط وجدنا، لحسن حظ مصر، في (اسماعيل) خليفته، فانه وقد رأيناه وهو أمير، وولي عهد فقط، يقبل على تحسين مزارعاته الخاصة بتحسينها ضاعف محصولها — صمم أن يعمل للقطر، بشكل كبير واسع، ما عمل في أملاكه بشكل صغير ذي دائرة ضيقة.

فأقدم، أولاً، على إنشاء مساحة الأقطان المترمة قطناً بمصر، لاسيما في الصعيد، إنشاء كبيراً. وذلك لأن الحرب الأهلية بالولايات المتحدة كانت حينذاك في أشد

إنشاء اسماعيل  
مساحة الأقطان  
المترمة قطناً

(١) أنظر: "مصر المعاصرة سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٥٧" لمريو (الفصل الثاني، ترعة الممبودية).



استعمارها . ونشأ عنها بوار مزارع أميركا القطنية بوارا عظيما . فتحوّلت أقطار المعامل  
الدسجية البريطانية وغيرها الى القطن المصري ؛ وأخذت تتجبل على اقباعه أيما إقبال ،  
بأثمان عالية طولا لم يكن يحلم أحد به .

فلكى ينال غرضه سريرا أعلن في عموم مديريات مصر العليا على السنة كبار موظفي  
الادارة والعمد والمشايخ عن استعداده لاعطاء المزارعين ، مجانا ، كل البذرة التي  
يحتاجون اليها ، مهما بلغت مقاديرها وقيمتها . فبينما كانت مساحة الأقطان المترعة  
قطنا في الصعيد تهرب من أربعة آلاف فدان فقط ، اذا بها قد أصبحت ، بفضل  
سعيه ودأبه ، مائة ألف فدان في نهاية سنة ١٨٦٤ أي بعد مرور أقل من سنتين  
على تبوئه سنة الإمارة .

تملكه الفلاحين  
الأقطان البائرة التي  
كانوا يزرعونها

وكان كثيرون من الفلاحين يزرعون أقطانا ، وجعلوها مهملة ، فوضعوا أيديهم  
عليها واستغلوها ، دون أن يكون عندهم حرج ملكية بها ، فيحدث كثيرا أن أهواء  
أصحاب الأمر أو الجلاء في نواحيهم ، تقتنم ذلك لتزعمها من بين أيديهم متزعمين بأية  
وسيلة كانت أو ترهقهم في مطالبات مالية عليها ، تحملهم على تركها والاقلاع عن  
زراعتها ؛ فتعود بورا . فتتقص بذلك المساحة المترعة في القطر ، وتضيق على المالية  
الضرائب التي كانت تلك الأقطان تدفعها . فقول ( اسماعيل ) لأولئك الفلاحين حق  
استخراج حرج ملكية لتلك الأقطان ، على أن يدفعوا جانبا يسيرا من النقود بصفة  
رسوم عليها . فتهافتوا على الانتفاع بالحق المخول لهم ، وأصبحت الأقطان التي كانوا  
يزرعونها وهم متخوفون ، ملكا حرا لهم ، لا يستطيع أحد منازعتهم فيه . وباتت  
فلاحتها مضمونة ؛ والأموال المربوطة عليها ، كذلك ؛ بعد أن كان تحصيلها موكولا  
إمكاناته الى طوارئ الحداث .

على أن إنماء (اسماعيل) كمية الأطنان المزروعة في القطر إنماء كبيرا لم يكن إلا باكورة أعماله في مضمار، كان يهيمه أن يجرى شوطا بعيدا فيه، بقدر ما تهمة الفائدة التي تعود عليه منه، بصفته أكبر مزارع في القطر .

فانه ما لبث أن استفهم من أوروبا عددا عظيما من ماكينات الري البخارية — وكان استعمالها قد شاع هناك، وحل محل معظم الآلات الزاخرة — وأقامها في أطيانه الخاصة . فافتدى به كبار الملاك وصغارهم، من الباشا والبك، الى الصدة والشيخ . واستوردوا من تلك الماكينات ما كاد يحصل، بسبب الدخان المنبعث عنها والمخيم في الأفق، ضفاف النيل شبيهة بضفاف التيمس .

استخدام آلات  
الزراعة

وتسهيلا لمهمة هذه الماكينات من جهة؛ ولكي يزول من جهة أخرى الخطر الذي كان يهدد زراعة البلاد كلها بسبب انطوار ترع القطر بالطمي المتراكم في قاعها، أقبل، بكل هممة ونشاط، على تطهير الكبرى من تلك الترع — وكان أمر تطهيرها منوطا بالحكومة رأسا — وأصدر الأوامر الى المديريات بإلزام النواحي والكفور بتطهير صغرياتها المازة بها والملقى أمر صياتها اليها . وشدد في تلك الأوامر تشديدا كفل فاعداها، وما قى كل سنة يكلف المديرين بالامراع، أيام التعاريق، في إنجاز الأشغال اللازمة لحفظ جسور النيل، حفظا فعالا، حتى تكون على أتم ما يرام، في أوائل الفيضان — لأنه كان قد علم بنفسه، وهو أمير، أن الهيئات الحاكمة، كثيرا ما تهمل تلك الأشغال، أولا توفيا حقها من العناية؛ فتصاب الزراعة والقرى بمضار جسيمة، حتى في السنوات التي يكون فيضان النيل فيها عاديا .

تطهير الترع

حفظ الجذور

وما كاد يمضي على تبوئه العرش ثلاثون شهرا حتى أنشأ، للدلالة على مقدار اهتمامه بالزراعة، خمسة مجالس زراعية: اثنين منها في الوجه البحري، وثلاثة في مصر الوسطى

إنشاء مجالس  
زراعية

والصعيد ؛ شكل كل منها من رئيس ومهندس تعيينهما الحكومة ، وأعضاء على قدر عدد المراكز في كل مديرية تنتخبهم المجالس المحلية من الأعيان .

وجعل اختصاص تلك المجالس : (أولاً) الاطلاع على مشاريع كل زعيم هتفتيه الأشغال العمومية البخارية ؛ (ثانياً) درس كل مشروع خاص بإنشاء أشغال جديدة تستلزمها المنفعة العامة . فإذا وافق الأعضاء على شيء من ذلك ، وزعت الأموال اللازمة لنفاذه على الجهات بنسبة مقدار استفادتها منه ومقدار نصيبها في اجرائه ؛ (ثالثاً) وعلى الأخص الاهتمام في تحسين الشؤون الزراعية سواء أكان ذلك بالتصامع والارشادات والتعليمات التي تلقىها على الفلاحين ، أم بتشجيع كل ما من شأنه أن يوجد رقياً في أصناف المزروعات ويزيدها جودة . فأتى ذلك الاهتمام الى اكتشاف أحد اليونانيين نوع القطن المدعو "يوانوفيتش" ورواجه في القطر : وهو صنف قطن كان له ، في أيامه ، الشأن الذي بلغه في أيامنا الصنف المعروف باسم "ساكلاريدس" ، ومكتشفه ؛ وأدى ، في سنة ١٨٧٣ ، الى اكتشاف أحد الأقباط ، بالقرب من بركة السبع ، شجيرة قطن دعاها "قطن البامية" لمشابتها لشجيرة الباميا ؛ وأتى ، إذ اعتنى بزراعتها ، بثلاثة أضعاف محصول شجيرات القطن العادية . وبيع إردب بذرتها بثمن تراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين جنيهاً ؛ بينما أن إردب البذرة الأخرى لم يكن يباع إلا بجنيه فقط .

وأنشأ فوق تلك المجالس ، وزارة الزراعة التي أشرف عليها ؛ وعهد بها الى أكفأ رجاله وهو نوبار باشا ، ليكون مرجع تلك المجالس إليها ؛ فتجدد من حكمة الوزير الذي عمل رأسها خير مستند لأرائها وأعمالها .

(١) أنظر : ماك تون "مصر كما هي" ص ١١٦

ولكن إسماء عدد الأطباء الزراعية؛ واحضار ماكينات بخارية، بمصاريف كثيرة، من البلاد الأوروبية؛ وإدارتها بمصاريف تكاد لا تقل عن جملة أثمانها الأصلية؛ وتوسيع نطاق الإدارة الزراعية؛ كل ذلك كان يوجد لدى ينطبق الكنه على المظهر ويكون الصعيد في جوف الفرا حقا، ألا يكفى بتطهير الترع القديمة وصيانتها، والاعتناء بوسائل المواصلات الموجودة وحفظها، بل أن يوجه الجهد إلى الاستفادة من مخزونات المصير، لإنشاء ترع جديدة، ووسائل مواصلات حديثة، تكون وافية بالحاجة.

ولم يكن (إسماعيل) الرجل الذى يهوته ذلك، لا سيما وأنه — مذهب جعل لنفسه مرتبة سنويا، وفصل، بذلك، بين ماله الخاص ومال الخزينة المصرية — أقبل إقبالا عظيما على إسماء ثروته العقارية؛ وأخذ نظار مزارعه ومفتشوها — لا سيما إسماعيل المعروف "بالمفتش" — فى جميع أنحاء القطر، يبدلون من المجهود، وتفتيق الذهن، والصفن فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم إلى مموه، ما صير، فى أقل من ثلاث سنوات، خمس أطيان القطر الجيدة ملكا له.

ولما كان معظم تلك الأطيان فى مصر العليا؛ وكان هذا الجزء من القطر قد أعوزته جانب عظيم من العناية التى أحاط (محمد على) الوجه البحرى بها — وإن يكن قد عهد، فى أواخر سنى حياته إلى لبنان بك رئيس مهندسى ديوان أشداله، أمر تحسين وسائل الرى فيه — فما فتى أهلوهم ومزارعوهم متألمين من قلة تلك الوسائل، فإن (إسماعيل) بدأ فى الصعيد بتنفيذ الخطة التى وضعها لنفسه بخصوص الاتجار من حفر ترع وجداول جديدة فى القطر. وأنشأ، غرب النيل، التربة العظمى التى سماها "الابراهيمية" إكراما لذكر أبيه: وهى ترعة تخرج من النيل بالقرب من أسبوط؛

التوسع فى تسييم  
وسائل الرى

رعة الابراهيمية

وعرضها، من مبدأها لغاية ثلث مجراها، ثلاثمائة قدم؛ وأما عرض الثنين الباقيين  
 نظره سون قدما . تفسير ما بين ديروط وما فوق الواسطة بقليل ، أى مسافة تسعين  
 ميلا، على موازاة بحر يوسف ، راوية مديريتي أسيوط والمنيا، وجميع الأطلان ما بين  
 البهيسة والسلسلة العربية . ثم تستمر متجهة نحو الشمال حتى تصب في فرع رشيد .  
 ولما كان الحكم ، الذى أصدره نابليون الثالث في مسألة الخلاف القائم بين  
 الحكومة المصرية وشركة ترعة السويس ، قضى بتخلى هذه الشركة للحكومة المصرية  
 عن كل حق في مد الترعة ذات الماء العذب من مصر الى السويس وبور سعيد ،  
 التى كانت الشركة مباشرة حفرها ؛ وإلزام الحكومة المصرية بمثلها ، هم ( اسماعيل )  
 في الوقت عينه ، بنفاذ ذلك الحكم ؛ لا سيما أنه كان شديد الرغبة في إحياء  
 ما يستطيع إحياءه من أرجاء الصحراء العربية الشمالية : فلم يرض إلا زمن يسير  
 وسارت مياه النيل تتهادى في مجرى الترعة ، المحفورة ما بين بولاق والسويس ،  
 والمدعوة بالاسماعيلية اكراما لمنشئها . وأصبحت الملاحة ميسورة فيها حتى السفن التى  
 حملتها أربعائة طن فانتعشت أرجاء شاسعة من الصحراء العربية ما بين مصر  
 والسويس ؛ وعلى الأخص ما عرف منها ، فيما بعد ، باسم «فتيش الوادى» — وهو  
 أرض «جسان» التى أقطعها يوسف بنى اسرائيل ، على ما جاء في التوراة . وبوصول  
 ماء النيل العذب باستمرار الى مدينة السويس ، لأول مرة منذ نشأتها ، أمكن هذا  
 الثفر أن يكبر بسرعة عجيبة ويزداد سكانا وأهمية تجارية .

ترعة الاسماعيلية

وكانت القناطر الخيرية أوشكت أن تقرب ؛ تلك القناطر التى أنفق الباشا العظيم  
 على تشييدها بمعرفة لبنان بك أولا ، وموچيل بك بعده ، أموالا طائلة وزمنا مديدا ؛  
 وحديثه نفسه ، يوما ، لتسهيل بنائها ، بهدم الاهرام الأبدية واستخدام حجارها

الضخمة فيه<sup>(١)</sup> بل أصدر أمره بذلك فعلا الى لبنان بك، وصمم على نفاذه؛ لولا أن هذا المهندس أقصه بالأرقام، بأن ثمن المتر المكعب من الحجر الذي يستخرج من هدم تلك الآثار الفرعونية، يكلف عشرة قروش ونصفا، بين أن المتر المكعب المستخرج من الحاجر، لا يكلف أكثر من ثمانية قروش ونخسة وسبعين فضة<sup>(٢)</sup>؛ تلك القناطر، التي مات ذلك الباشا العظيم، وهي بعيدة عن التمام؛ وما زال موجيل بك، بسده، يلح على عباس خليفته بنجازها، لادراك فائتها، ويكلا تضعيع ثمرة الأموال الكثيرة التي أنفقت والمتاعب الجسيمة التي كوبدت، حتى أعيأ صبره وحمله على أن يقول له ذات يوم، هو أيضا، وهو يشير الى الأهرام: «إني لا أدرى ما الفائدة من وجود تلك الجبال من الصخور المرصوبة فوق بعضها. فإذهب واهدمها واستخدم حجارها في تميم عمل القناطر!» فاضطر موجيل — لكي يتخلص من تنفيذ أمره، كان مجرد التصور أنه المنفذ له، وأن اسمه سيمر، اذا، الى العصور التالية، ونعت «هادم الأهرام» مقرون به، يوقف شعر رأسه رعبا — الى إعادة عمل لبنان، وعرض تقرير تفصيلي بالنفقات اللازمة على ذلك الوالى الطنان. ولما لم يكن عباس يدري من الأرقام شيئا، افتركا خدعة من المهندس الغربي، قصد بها الفرار من تنفيذ أمره: فالتى نظره شزرا، على ذلك التقرير، وقال لموجيل: «ما هذا؟» فافهمه موجيل مضمونه بدقة، حتى حمله على الاقتناع بأن هدم الأهرام

(١) أنظر: رونية "مصر مرحلة مرحلة" ص ٣٨٩؛ وانظر: لبنان دى بقون نفسه فى مؤلفه المنون "بيان أحمال التى تمت بمصر منذ عهد الفراعنة الى الآن".

(٢) وانظر: لبنان دى بقون "بيان أحمال التى تمت بمصر منذ القدم الى الآن"؛ وانظر: "حوادث ووقائع مصر" لسيون مارتى ص ١١٠ وما إليها.

يكلف أكثر من استخراج الحجارة من محاجرها بكثير؛ فقال له عباس حينئذ :  
« دعني ، اذا ، من شأن لقيم قناطر<sup>(١)</sup>ك ! » .

تلك القناطر؛ التي كان أقل ما فيها من فائنة اغاؤها من خمسة وعشرين ألف  
ساقية وشادوف ، وري أربعة ملايين من الأفدنة ؛ فكيف بها ، وهي ، بمنها  
استمرار انصراف مياه فرع دباط الى فرع رشيد ، لانخفاض مجرى هذا عن مجرى  
ذاك ، تمنع الشرق عن كل الأطنان الواقعة شرقي ذلك الفرع ؟

تلك القناطر؛ التي بالحال التي هي عليها ، وبالرغم من نقصها ، كانت عظم الإعجاب  
وموضع الفخار الأبدى .

هذه بالنسبة لمروور كل حكم عباس وسعيد عليها دون أن تجزأ أو ترم ، كانت قد  
أخذت تؤول الى السقوط ، وكما قلنا ، فاستدعى (اسماعيل) المستر فور ، أكبر  
مهندسيه ، وكلفه باتمام عملها ، حتى يبلغ درجة الكمال ؛ وألا يالو في ذلك جهدا حتى  
يفرغ منه ، مهما كلفه من نفقات ، أو استدعى من عمال .

إنجاز القناطر  
الخيرية

فاشتغل المستر فور في ذلك العمل ثلاث سنوات ، حتى تمكن من إنهاؤه . وأبرز  
في سنة ١٨٧٨ القناطر الخيرية في حلتها القشبية التي كان (محمد علي) يؤد أن يراها فيها  
لتقريبها حينها .

فقلد (اسماعيل) بذلك ، الوجه البحري طامة ، منة ليس بعدها منة ؛ وأولى البلاد  
خيرا لو لم يولها غيره ، لكنني !

ولكنه لم يقف في عمله عند ذلك الحد . بل ما فتى يوسع مجارى ترع ويلشئ  
جداول ، حتى إنه لم تنقض أيام ملكه إلا وقد خُدت منها في الأرض المصرية أكثر

(١) أنظر : " مصر الخديوية " لأدون دي لون ص ٢٦٢

من مائتين استمدت حفرا زاد ٦٥٪ على ما أوجبه ترعة السويس ، على قول المستر فولر ؛ وبلغت نفقاتها ما يقرب من ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات ؛ وطولها ما يزيد على ثمانية آلاف وأربعمائة ميل ؛ كما أثبت المستر ملهل في "الكتمبرورى ريفو" (أكتوبر سنة ١٨٨٢) ؛ وبلغت مساحتها المائبة مائة ألف ميل مربع .

ناهيك بزيادة الآلات الرافعة عما كانت عليه في أيام (محمد على) زيادة هائلة ؛ حتى بلغ عدد السواقي في سنة ١٨٧٧ ثلاثين ألفا وأربعا وثمانين ؛ والشواذيف سبعين ألفا ومائة وثمانية وخمسين ؛ والتوايت ستة آلاف وتسعمائة وستة وعشرين ؛ والمالكينات البخارية أربعمائة وستا وسبعين ؛ واشتغل فيها أكثر من ستين ألف حيوان ، ومائة وثمانية وخمسين ألف رجل كل مائة وثمانين يوما .

ازدياد الآلات  
الرافعة ازديادا  
مظها

وناهيك بالكبارى التى أقامها على تلك القترع وعددها أربعمائة وستة وعشرون كبريا : منها مائة ونعمسون في مصر العليا ، ومائتان وستة وسبعون في الوجه البحرى ؛ علاوة على ثمانية كبارى ضخمة أهمها كوبرى قصر النيل الفخم ، الذى قلما كان له مثل فى تلك الأيام ، فى المالمين الغربى والشرقى معا ؛ وعد من أنفر أعمال العالم الهندسية . وقد بلغ ما أنفق على تشييدها كلها مليونين ومائة وخمسين ألف جنيه !

إنشاء الكبارى

فأدى هذا جميعه الى زيادة ما يقرب من مليون ونصف مليون من الأفدنة ، على مساحة الأرض المزروعة فى القطر ، يربو إيرادها السنوى على أحد عشر مليونا من الجنيهات ، ثمن محصولات ؛ وتزيد إيراداتها ، فى ذلك الوقت ، على مليونين .

زيادة الأملان  
الصالحة للزراعة

ولعلمه أن تحسين طرق المواصلات يجب أن يقرن دائما بتحسين وسائل الرى ، مهد أكثر من ستة آلاف ميل من السكك الزراعية ، فى القطر عامة ، ولا سيما

تحسين طرق  
المواصلات



في الوجه البحري . ولتناسبة زيارة الامبراطورة أوجيني للبلاد المصرية في سنة ١٨٦٩ أنشأ ، في أقل من ثلاثة أسابيع ، السكة الجميلة الموصلة من برج الخيزران المقابل لمصر الى الاهرام ، والمنفروسة ، على جانبيها ، بالاشجار الباسقة التي جعلتها أهم منزهات سكان القاهرة وأبنائها .

ولما كانت السكك الحديدية والتطريفات أكبر وسائل المواصلات أوجدتها العلم الحديث ، كان من البديهي أن يخصصها (اسماعيل) بأكبر جانب من عنايته في سبيل احياء الزراعة من مواتها .

فلما ارتقى العرش المصري ، لم يكن في القطر كله سوى لخط الحديدى الواصل ما بين الاسكندرية ومصر وطوله مائة وثلاثون ميلا ؛ والخط الواصل ما بين بنها والقنازى وطوله أربعة وعشرون ميلا ؛ والخط الواصل ما بين مصر والسويس عن طريق بلبيس وطوله تسعون ميلا ؛ أى ما كان مجموعه مائتين وأربعة وأربعين ميلا .

تميم السكك  
الحديدية في القطر

فزاد ، هو ، على ذلك أكثر من ألف ومائة ميل . فانه هو الذى أنشأ الخطوط : من بولاق الى اتياى البارود ؛ ومن الامتكنندرية الى رشيد ؛ ومن طنطا الى بسوق ، وإلى زفتى ، وإلى دمياط ، وإلى شين الكوم ؛ ومن القنازى الى المنصورة ؛ ومن بنها الى ميت بره ؛ ومن قليوب الى القناطر ؛ ومن القنازى الى الاسماعيليه والسويس على محاذة التربة البحرية ؛ ومن أبوكير الى الصالحية ؛ ومن مصر الى حلوان ، وإلى المرج ؛ ومن بولاق الدكرور الى أسيوط ؛ ومن الواسطى الى الفيوم ؛ ومن أسوان الى الشلال الأول ؛ علاوة على ستين ميلا تحويلات . وإذا عرفنا أن التفتات اللازمة لمثل ميل واحد من هذه السكك كانت تبلغ ، عادة ، نيفا وأحد عشر ألف جنيه ، فانا لن

نستغرب أن يكون ما صرف على إنشاء جميع هذه الخطوط قد تجاوز الثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات .

على أن ما هو أهم من أمر إنشاء السكك الحديدية ، أمر إصلاح إدارتها ؛ فقد كانت في أيام عباس ، بل في أيام سعيد عينا ، فوضى لا ضوابط لها : يركب المسافر في قطاراتها ، وهو غير متأكد من صدق مواعيد قيامها ، ولا من بلوغه المكان الذي يقصده ، لكثرة ما يتور التقيام والطريق من عراقيل وموانع . فقد يكون القطار على أهبة السفر من محطة الاسكندرية مثلا ، فيأتي ناظر المحطة رسول من قبل قنصل من القناصل العامة ، أو خصي من لندن أحد الباشاوات ، أو الليكوات الأتراك ، ويأمره بتأجيل ميعاد قيام القطار ريثما يأتي القنصل أو الباشا أو اليك ، أو حرم أحدهما . فيؤجل الناظر الميعاد ، ويقم المسافرون على أحر من الجمر في انتظار مجيء حضرة القنصل أو سعادة السرى التركى وحرمة ؛ وربما طال انتظارهم ساعات . وقد يكون القطار مسافرا ، فتعطل عدته ؛ أو يخرج عن الخط لجهل السواق ؛ أو يعبأه مانع آخر ، كارسال أحد باشاوات الريف رسولا الى إحدى المحطات ينهئها بحجز القطار لحين تشريفه ، فيقف في الطريق ساعات وساعات ؛ وأحيانا ، أياما ، ريثما يزول أو يزال ذلك المانع .

إصلاح إدارة  
السكك الحديدية

ويحكى ، في هذا الموضوع ، أن القطار تعطل مرة في محطة طنطا وفيه نجار من الإنجليز قادمون من الهند وذاهبون ببضائعهم الى الاسكندرية ؛ فبعد أن حيل صبرهم من طول الانتظار ، ذهبوا ليبتشوا شكواهم من التأخير الى ناظر المحطة ، وكان الإنجليزي ؛ ولكنه تريا بزى البسلاد وتحمص في حوائكها ؛ وتظاهر بعدم معرفة غير التركية والعربية فرارا من شكوى الأجانب — لاسيما من بنى جنسه — الكثيرة ؛

حكاية ناظر محطة  
طنطا والمسافرين  
الإنجليز

وابتغاء للتمتع بقلة الاهتمام بالأمور وعدم المبالاة بتضييع الوقت، الخصبين بنا، معشر الشرقيين، في تلك الأيام؛ واتخذ لنفسه مترجما بينه وبين الغربيين - فوجدوه في حجرته، جالسا على أريكة، يدخن شيشة عجمية، ولا يعنيه من الدنيا إلا التلذذ بها والنظر إلى الدخان المتصاعد منها في الفضاء، على حياة أنصاف دوائر. فافروا بجعبة تشكياتهم أمامه بالانجليزية؛ ومترجمه المصري يترجمها له بالمريية. وهو لا يبالي بها ولا يزداد إلا تدخينا، كأنه لا يفهم الانجليزية ولا المريية؛ أو كأن الحديث غير موجه إليه. فاحتدم غيظ أولئك التجار، وقالوا للترجم: «قل لشيخك هذا الأبله أن يبطل جعل نفسه مدخنة، ويلتفت إلى ما نحن فيه؛ والا، شكواه إلى قنصلنا العام بالاسكندرية، ورجواته أن يطلب من سمو الوالي، أن يركله من وظيفته ركلا!» فضحك الناظر، بين أسنانه، لما سمع ذلك؛ ولكنه استمر متظاهرا بعدم فهمه الانجليزية، واستمر على عدم مبالاته بقولهم، بعد أن ترجمه مترجمه له. ولم يتنازل إلى إجابتهم عن لسانه إلا بعد مدة، ليقول لهم: «على رسلكم! تمهلوا فالأمور مرهونة بأوقاتها!» وأضاف، لكي يثبت لهم أنه شرقي تماما، التعبير الشرقي المتداول، عادة، على الألسن، لحمل قليل صبر على الصبر؛ وهو: «إن الله خلق العالم في ستة أيام!» فخرجوا من حضرته وهم يلعنونه ويمحقون الأزم.

وكان (سميد)، بعد إعراضه عن نوبار مدة ثم إقباله عليه، قد عهد إلى ذلك الرجل الحازم - ولم يكن، حينذاك، إلا بيكا - أمر ادخال الإصلاح في تلك الإدارة المختلفة. فبذل نوبار جهده. ولكن التحلل كان متصلا أيما تأصل. فلم يستطع تلافيه تماما، لا سيما أن السكك الحديدية كانت ملكا للوالي. وكان قلب

(١) أنظر: «نوبار باشا».

أهوله (سعيد) السريع، من جهة؛ وميله، من جهة أخرى، الى إرضاء ذوى الدالة من التجار الغربيين، والذوات، ومهزاريه، والقناصل العائمة خاصة . ولا سيما ساباتيه، القنصل الفرنسي الذى كان سعيد يقول عنه، هو نفسه، أنه لم يكن يستطيع مقابله إلا ويشعر بوجف غريب فى قلبه وتيب يحمله على الرضوخ لطلباته، أية كانت<sup>(١)</sup> - يحولان دون استتباب قدى إصلاح قطعى عام .

واستمرت الحال كذلك فى أيام (اسماعيل) الأولى : لأن مفتشى مزارعه وبكار مستخدمى دائرته الخاصة، لعلمهم أن السكك الحديدية، بالرغم من كونها مصلحة عامة، ملك خاص به، كثيرا ما كانوا يتجاوزون حدود الاحتدال فى تصرفاتهم مع إدارتها، لا سيما فى مواسم القطن . فيحتكرون القطارات، ويعطلون سفر بضائع التجار عامة، حتى يفرضوا من شحن بضائع مولاهم الخاصة وتسفيرها، فيصيب التجار، من جرء ذلك، خسائر جسيمة . لتأخرهم الاضطرارى عن تسليم بضائعهم فى الأوقات المحددة لتسليمها . ويحمل القبط بعضهم أحيانا، على ارتكاب أعمال حق، بعضهم قناصلهم فيما بعد، على الخروج منها بدون أذى . مثال ذلك ما فعله أحد تجار اليونان، فانه، لما أبين أنه، بسكوته على تصرفات أولئك المفتشين والمستخدمين، وتأخره من تسليم الأقطان الى اشتراها الى المحلات التجارية التى باعها لها، قد تصيبه خسائر فادحة ربما ذهبت بكل ثروته، استأجر عدة أشخاص من بنى جنسه، وأقامهم على المحطة المكسدة أيكاسه فيها، ولما وصل قطار البضاعة المحمل أقطان سمو الوالى، أوقفه، بواسطتهم عنوة، وأفرغ مشحونه، وشحن أقطانه فيه ببله، وأجبر سواق القطار، إرهابا، على السير بها الى الاسكندرية .

حكاية للتاجر  
اليونانى الريح

(١) أنظر : "مصر" لمارون .

على أنه ما تقدمت الأيام بملك (اسماعيل) ، إلا وقد تناول ظل الإصلاح جميع فروع إدارة السكك الحديدية ؛ لا سيما بعد أن اتخذ (اسماعيل) سؤالا لقطاراته الخاصة السواق الذي كان لنايليون الثالث ؛ وسمع ثناء جميلا على محافظة ذلك العاهل على مواعيد أسفاره بدقة<sup>(١)</sup> ؛ ووقف بنفسه ، عقب رحلاته الأوروبية ، على نظام السكك الحديدية في أوروبا . فترتبت مواعيد سفر القطارات ووصولها ، ترتيبا ، لم تدخل عليه الأعوام التالية إلا تعديلات طفيفة ؛ وانتظمت انتظاما لم يعد للخل إليه من سبيل إلا نادرا .

حينذاك أخذ (اسماعيل) يفكر في إنشاء سكك حديدية في السودان ، ترويحيا للزراعة فيه ، ولاتجارة بينه وبين القطر المصري .

الاقدام على انشاء  
سكك حديدية  
في السودان

فكلف المستر فولر بدرس الموضوع درسا دقيقا وتقديم تقرير وافي عنه — وكانت طبيعة الأرض بين أسوان والخرطوم قد درست قبل ذلك في سنة ١٨٦٥ درسا حسنا — فذهب ذلك المهندس الإنجليزي إلى وادي حلفا ، وقضى عدة أسابيع ، متجولا في ربوع الثوبة والسودان الشرق وبطاحهما ، يهيمس ، ويبحث ، ويحسب ويفحص مباحث أسلافه . ثم عاد وقدم تقريره إلى الأمير ، مشيرا بعمل سكة حديدية من وادي حلفا إلى المتمة — وطولها خمسمائة وخمسون ميلا — وأخرى من شندى إلى كسلا ، فمصبوع — وطولها خمسمائة ميل — وقدر نفقات الأولى بأربعة ملايين من الجنيهات ، منها مليونان ونصف ، أجرة المهندسين والعمال من الفريج وثمان الأدوات اللازمة ؛ والباقي أجرة العمال المحليين وثمان المباني الواجب إقامتها . وقدر

(١) انظر ، ليك "مصر الأخيرة" ص ٧ و ٨

نفقات السكة الثانية بأربعة ملايين مثلها، ولو أنها أقصر طولاً من الأولى، لزيادة  
الابتعاد عن مصادر الأدوات، ووجودة المسالك<sup>(١)</sup>.

فاحمد (اسماعيل) تحريره وبدئ في العمل سنة ١٨٧٢ وبعد أن سيرانيه أكثر  
من ثلاث سنوات، وأنفق عليه ما يزيد على أربعمائة ألف جنيه، وأخذت بشائر  
الخير العميم تبدو من خلال الخطوط الموضوعية؛ اضطر الدائنون الأجانب الحكومة  
المصرية الى توقيفه وإبطاله ضئلاً منهم بالتقود، فلم يقضوا، بذلك، على مصلحة  
تجارية وزراعية عظيمة، فحسب، بل على حياة السودان حينها، مدة تليف على ريع  
قرن؛ ومكنوا الثورة المهدية من الانتشار، فيما بعد، فوق ربوعه وتغريها، ونشر  
ظل الموت طيها؛ لأنه لا يختلف اثنان في أنه، لو كانت السكة الحديدية مجتازة  
بجهات السودان، بعد قيام المهدي محمد أحمد، لتمكنت الحكومة المصرية من القضاء  
على دعوته، ولما نسجت الأيام أكفان حملة هكس باشا، ولا نعبت روح  
جوردون ضحية تباطؤ الحكومة الإنجليزية في إرسال العجلات إليه، وتباطؤ (ولسلي)  
الاضطراري في السير بتلك العجلات الى الخرطوم لانقاذه<sup>(٢)</sup>.

وتلا انتشار السكك الحديدية، انتشارها العظيم، تشعب مد الأسلاك البرقية  
في البلاد.

إقامة الأسلاك  
البرقية وإنشاء  
مكاتبها

(فمحمد على) كان قد أنشأ ما يقوم مقامها، على ما هي عليه الآن، أبلية مرتفعة  
ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة. وبين البناء والبناء من المسافة ما لا يحجب  
نظر قمة كل منهما من قمة الآخر. وأقام على كل بناء آلة على طريقة (شاپ) تلفراف

(١) أنظر: مالك كون "مصر كما هي" ص ٢٣٩ والوقوف معه في "مصر تحت حكم اسماعيل" ص ١٣٥

(٢) أنظر: مالونك "مصر" ص ١٤٧

حكومة الكنتاشيون الفرنسية الرهيبة ، ترسل الأنباء الى آلة البناء التالي ؛ وهذه توصلها الى التي بعدها ؛ وعلم جراً <sup>(١)</sup> .

فلما انتشر في أميركا وأوروبا اختراع المستر سامويل مورس الأمريكى - وهو التلغراف الحالى - أدخله (سعيد) الى القطر ولكنه لم يمد من أسلاكه إلا شيئا يسيرا . فلما استلم (اسماعيل) زمام الحكم بيده القديرة ، أقبل على هذا الفرع أيضا من طرق المواصلات العمومية ، ونفخ فيه من روحه : فتشعبت الأسلاك التلغرافية في البلاد تشعبا مدهشا في مدة وجيزة حتى بلغ طولها خمسة آلاف وخمسمائة ميل ؛ فيها من السلوك ما طوله عشرة آلاف وخمسمائة ميل ، موزعة كالاتى :

من مصر الى الاسكندرية...	...	...	١٤٢	ميلا على سبعة أسلاك .
» » ضواحيها...	...	...	٣٢	» » سلكين .
» » حلوان ...	...	...	١٨	» » سلك واحد .
» » قليوب والقناطر...	...	...	١٧	» » سلكين .
» » اتيان البارود ...	...	...	٧١	» » سلك واحد .
» » السويس عن طريق بلبيس	...	...	١٥٤	» » » »
» » المنصورة عن طريق قليوب	...	...	٩٦	» » سلكين .
» » أبى كبير للصالحية ...	...	...	٢٥	» » » »
» » بنها الى ميت بره...	...	...	٩	» » أميال »
» » الزقازيق والسويس ...	...	...	١٢٣	» » ميلا »

(١) أنظر : مانجى " تاريخ مصر في عهد محمد علي " ص ٢٤١

- من طنطا الى طلعا وديياط ... ٧٣ ... ميل على ملكين .
- » » » زقى ... ٣٣ ... » » »
- » » » دسوق ... ٤٧ ... » » »
- » » » شبين الكوم ... ١٩ ... » » »
- » نشرت » ذفر الشيخ ... ١٠ ... أميال » »
- » الاسكندرية الى ضواحيها ... ١٢ ... ميلا » »
- » » » رشيد ... ٤٦ ... » » »
- » دمنهور الى العطف ورشيد ... ٥٠ ... » » »
- » بورسعيد » السويس ... ٩٦ ... » » » سلك واحد .
- » » » القنطرة ... ٢٦ ... » » »
- » مصر الى غزة عن طريق بنها ... ٢٨٨ ... » » » سلكين .
- » » » أسيوط ... ٢٣٩ ... » » » ثلاثة أسلاك .
- » » » الواسطى الى الفيوم ... ٢٥ ... » » » سلكين .
- » » » بيا الى الروضة ... ٩١ ... » » »
- » » » أسيوط الى أبى تيج ... ٥ ... أميال » »
- » » » أسوان ... ٣٠٠ ... ميل » »
- » قنا » القصير ... ١٦٤ ... » » »
- » » » أسوان » الخرطوم ... ١٠١٢ ... » » »
- » » » بربر الى كسلا ... ٤٠٧ ... أميال » » » سلك واحد .
- » » » كسلا الى معبوع ... ٤٤٧ ... ميلا » »



من كسلا الى سواكن... .. ٣٠٠ ميل على سلك واحد .  
 » الخرطوم الى الأبيض... .. ٤٠٧ أميال » »  
 » » المسامية وسنار ... .. ١٦٢ ميلا » »  
 وأنشأ مكاتب لهذه الأسلاك البرقية في كل مدينة وبندر وناحية كبيرة على طول  
 مسافات امتدادها ، وقسمها الى ثمانية أقسام ، وهى :

(١) محطات الوجه البحرى ؛ (٢) ماين مصر وأسيوط ؛ (٣) ماين أسيوط  
 واسنا ؛ (٤) ماين اسنا وولدى حلفا ودقلا ؛ (٥) ماين دقلا وبربر ؛  
 (٦) ماين بربر والخرطوم ؛ (٧) ماين الخرطوم ومصوع ؛ (٨) ماين مصر  
 وسوريا . وجعل ثمن الاشارة البرقية ذات العشرين كلمة علاوة على العنوان  
 عشرة قروش صحيحة فى كل قسم . وجعل لغة التراسل : جنوبى مصر ، عربية ؛  
 وشمالها ، عربية أو فرنساوية أو انجليزية أو ثلثانية أو تركية . وأقام على إدارتها المستر  
 جورج الانجليزى وأفاط أمر هندستها بالمستر هوز بورن الذى أنشأ أسلاك السودان .

وفى عهده ، وبتصريح منه ، أنشأت الشركة الانجليزية الشرقية خطا بين  
 الاسكندرية والسويس ودا وراء البحر الأحمر ، وآخر عن طريق صحراء شبه جزيرة  
 سيناء الى سوريا والأناضول . وأنشأت شركة ترعة السويس خطا خاصا بها على طول  
 الترعة ما بين بورسعيد والسويس . وأصبح الاتصال بأوروبا والقارات الأخرى  
 ميسورا إما عن طريق غزوة وإما بواسطة الشركة الانجليزية الشرقية كالاتى :

من الاسكندرية الى الأستانة عن طريق كريت ورودس وأزمير .

» » » أوترنتو » » » وزانق .



الأجنبية وبعض أفراد من الجاليات الغربية على إنشاء مكاتب بريدية في الاسكندرية ومصر وغيرها ، لاستمرت البلاد المصرية محرومة من التواصل البريدي كما كانت في عهد المماليك .

وأشهر أولئك الأفراد السنيور موتسي الايطالى - وكان ، لغاية سنة ١٨٦٥ ، قائما لحسابه الخاص بأعمال بريدية طمة في العاصمة ؛ يساعده بحلة مستخدمين بأجور يدفعها اليهم على استلام الخطابات والمراسلات حتى الرسمية منها وتصديرها الى جهاتها وتسليمها الى أربابها .

فراى (اسماعيل) أن استمرار وسيلة مهمة كهذه من وسائل المواصلات في يد شراء مصلحة البريد ادارة فردية ، مع احتياج الحكومة نفسها اليها ، لأمر يشين الحكومة المصرية كثيرا لأنه ينم عن تأخرها في المضمار الجارية فيه الدول المتقدمة . فاشتري مصلحة البريد من ذلك الايطالى النشيط بمبلغ ستة وأربعين ألف جنيه ؛ وأنتم عليه بقلب بك ، وأبقاه مديرا لها ، وخصص له ، في ميزانية حكومته ، مبلغا كبيرا لينفق على تحسين نظامها وترقية شؤونها .

فأبقى موتسي بك مستخدميه القدماء فيها - وكان معظمهم من الايطاليين ، وباقيهم خليطا من السوريين والفرنسيين والجرمانيين والنمساويين والروس والمصريين - واجتهد في إنماء عدد المكاتب وحركة التراسل ، بجملة إصلاحات أدخلها على مصلحته تباعا .

وفي سنة ١٨٧٦ طلب اقالته منها . فمنحه (اسماعيل) مكافأة سنوية ؛ وعين خلفا له

انجليزيا يقال له المستر كليار (وهو الذى أصبح فيما بعد ، كليار باشا ؛ وعين مديرا عاما للجمارك المصرية ؛ وترك لنفسه أثرا جميلا في قلوب المصريين) ولما رأى المدير

كليار باشا

الجديد أن عدد المستخدمين أكثر مما يستدعيه العمل ؛ وأن معظمهم لا موجب لوجودهم في المصلحة إلا دلتهم على بعض كبار موظفيها، صرف ربههم وأبدل بكثيرين من الباقين غيرهم من الأكفاء؛ وبالحليط، أولاد عرب بالتدريج .

وبعد أن نظم أقلام الادارة العامة، أقبل ينشئ مكاتب جديدة في القطر حتى أبلغ عددها الى مائتى مكتب وعشرة، فيها ثمانمائة وثلاثون مستخدما، هذا عن ثلاثمائة واثنين وأربعين جمالا وبربريا . وجعل توزيع المراسلات يوميا بين مصر والاسكندرية وجميع الجهات المهمة، بعد أن كان أسبوعيا أولا ؛ فمرتين، ثم ثلاثا في الأسبوع . وما قئى يحسن فيه حتى صيره الى ثلاثة وأربعة وخمسة توزيعات في النهار على محطات السكك الحديدية الكبرى . ولما كان علم انتظام الشوارع وعدم تمييز المنازل في المدن والبنادر يحولان دون توزيع المراسلات على أبواب البيوت، ويوجبان حصرها في شبائيك المكاتب، أنشأ في العاصمة صناديق خاصة لمراسلات من شاء الاشتراك فيها من التجار والأعيان .

فبلغ عدد المراسلات في سنة ١٨٧٨ مليونين ونصفا، معظمها تجارى . وبلغت قيمة النقود التي تصدرت، صرا، من عموم المكاتب، عشرة ملايين من الجنيهات . وما من شئ أبلغ من هذه الأرقام في بيان مقدار الخدمات الجليلة التي قامت بها مصلحة البريد بعد أن جعلها (اسماعيل) مصرية .

على أثناء، اذا علمنا أنها قامت بها، ومصالح بريد أوروبية يجانبها في الاسكندرية ومصر والسويس، تراحها في أعمالها، وتستدعى الى نفسها، طبعا، لاسيما في أوائل قيام المصلحة المصرية ، فحة التراسلين الغربى والشرقى على السواء ، واذا علمنا أن

البريد لم يكن يستطيع السفريين أسويط وأسوان، وبين أسوان والسودان، إلا كل خمسة عشر يوما على سفن تجارية، ازداد في أعيننا قدر تلك الخدمات وازدادت ثناء على مسديها .

بقي علينا أن نرى ما الذي عمله (اسماعيل) في آخر سبيل من سبل توسيع نطاق الزراعة، وأخفى به كيفية ربط الضرائب على الأفيان وتوزيعها توزيعا حسنا .

تسديل طريقة  
ربط الضرائب  
وتوزيعها

فلا مشاحة في أن القاعدة التي يجب لكل حكومة أن تقيم عليها أمر فرض الأموال على العقارات، إنما هي ثمن هذه الحقيق، ومقدار ما ينبغي منها من ثمار، ولا خلاف في أن أثمان الأفيان المصرية ارتفعت في أوائل عهد (اسماعيل) ارتفاعا عظيما، وببعت حاصلاتها، لاسيما القطنية، بأثمان تكاد تكون متماية : وذلك بسبب الحرب الأمريكية الأهلية، وبوار زراعة الولايات المتحدة ومزارعها .

وليس من ينكر أن اتساع نطاق الري وطرق المواصلات، الاتساع الذي يبتاه، كان من شأنه أن يجعل ارتفاع أثمان الأفيان، وزيادة حاصلاتها، مطردين .

فلا غرابة، والحالفة هذه، في أن تكون الضرائب في عهد (اسماعيل) قد زادت على ما كانت عليه في عهد سلفه، وأن يكون قد أدخل على فئاتها شيء من التعديل، في مصلحة "المصري" .

ولكن (اسماعيل)، قبل زيادة أي شيء فيها أو تعديله، رأى أن يعيد فك زمام القطر كله، ويروكه روكا جديدا، لكيلا يقع على أحد حيف بسبب ربط الضرائب الجديدة . لأنه كان يحدث كثيرا، في تلك الأيام، أن ذوى الجشع من القباضين على القوة الادارية، وسواهم من ذوى الجلاء كانوا ينتصبون أملاك صغار المزارعين،

ويضعون أيديهم عليها، ولكن بدون نقل تكليفها الى أسمائهم : فيستمتعون بفلاتها، ويستمر الفلاحون، أصحابها الأصليون، يطالبون بأموالها ويجبرون على دفعها .

فصدرت الأوامر، اذا، الى مشايخ البلاد وعمدها، بالاجتماع في المراكز، وتعيين مندوبين من قبلهم يكلفون بتقديم بيان واف الى المديرين عن زمام الأقطان التابعة لدائرة نواحيهم، وكشف بأسماء ملاكها الحقيقيين، لكي تتمكن الحكومة من ربط الضرائب عليها، على نسبة ما هي عليه من الجودة، وتخصيلها ممن هو ملزم بدفعها في الواقع . وكانت الأقطان المزروعة كلها تنقسم الى قسمين : "خراجية" و"عشورية" .

أما "الخراجية"، فهي التي آلت ملكيتها الى أصحابها بموجب الأمر الذي قلنا أن (سعيد باشا) أصدره بأن تكلف الأقطان على أسماء المشتغلين فيها .

وأما "العشورية"، فهي الأقطان المعروفة بالأبعاد والوسيات، وهي التي انتم بها على أصحابها ليفلحوها في مقابل إعفائهم من دفع أموال طيها، مئة معينة، ومقابل ربط أموال يسيرة طيها، بعد انقضاء تلك المئة — وكان المنعمون بها يشترطون، في بادئ الأمر، نظير هذا الاعفاء، حودتها الى الحكومة عند موت من وهبت اليهم . ولكن هذا الشرط أهمل فيما بعد، وأصبحت الأقطان العشورية تورث كالأقطان الخراجية، وقد بلغ مقدارها في أواخر أيام (إسماعيل) مليوناً ومائتين وخمسين ألف فدان .

فلما تم روك البلاد، جعل متوسط ما ربط على الفدان من الطين الخراجي مائة قرش وعشرة، ومتوسط ما ربط على الفدان من الطين العشوري خمسة وثلاثين قرشاً، علاوة على ريال أضيف الى مال كلا الصنفين من الأقطان للقيام بأعمال الري وحفظ الترع والجسور .

فلا نزاع في أن هذه الفئات لم تكن لتتعب الفلاحة أو ترهقها، وأن أقصى ما كان يؤخذ عليها هو عدم مساواة الأتليان العشورية بالأتليان الخراجية فيها، مع أن معظم الأتليان العشورية كان لا يقل جودة عن مثله من الأتليان الخراجية .

ولكنه يجب ألا يغيب عن الأذهان : (أولاً) أن الفرق في المعاملة كان نتيجة تمهيدات سابقة بين طرفين، لم يكن إلى قضاها من سبيل إلا بائفاق هذين الطرفين معاً، أى الحكومة وأصحاب الأتليان العشورية عينها ؛ (ثانياً) أن معظم أصحابها، إن لم تقل كلهم، كانوا من الأغنياء الجهلاء الذين يرون في طبع مساواتهم بالفلاحين البسطاء، رفعة لشأنهم وإجلالا لقدركم ؛ ويحتمل أن يحافظوا عليها أكثر مما تهتمهم مبادئ العدالة والإنصاف ؛ وأنه لم يكن في الاستطاعة ، والحالة هذه، مساواتهم بالفلاحين، قسراً، إلا بأحداث ثورة قد تحول من اقتصادية إلى فتنة سيئة المواقف، كانت البلاد في غنى عنها .

سواء طريقة  
تحويل الضرائب

ولكن الذى أتمب الفلاحة وأرهقها، هو أن طريقة جباية الأموال ما فتئت، منذ أنشئت حكومات في الشرق، حتى الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر، آفة من الآفات الكبرى التى بليت بها البلاد ؛ وأن المنوط بهم أمر تحويل الأموال كانوا يسيئون طريقة تحويلها، ويتجاوزون حد المعقول في المواعيد التى يطالبون الفلاحين بدفعها فيها : إما لأن مدين صاحب الأمر الأعلى لا تراهم، لانشغاله في تحقيق آمانيات نفسه السامية ؛ وإما لأنهم، بالنسبة لدنوم من قلبه، كانوا متأكدين من أنه لا يشك في إخلاصهم وأمانتهم .<sup>(١)</sup>

(١) أنظر : " مصر الخديوية " لأدون دى ليون ص ٢٣٠ سطر ١٢ و ١٣ و ١٤ و ص ١٨٦

سطر ٥ و ٦ و ٧ و ٨ : وأنظر : " مصر تحت حكم اسماعيل " لماككون ص ١٥١

فن المشهور، مثلاً، عن اسماعيل صديق باشا، المعروف "بالمفتش" و"الصغير"، وزير المالية، أنه كان يتبجح علانية، ويفتخر بأنه يحصل عادة من الفلاحة المصرية مليونين من الجنيهات سنوياً أكثر من الظاهر في حساباته.

ومن المعلوم أيضاً أن المديرين والحكام الآخرين المتولين شأن التحصيل — لا سيما في المديرية البعيدة عن العاصمة — كانوا يغتنمونها فرصة ليبتزوا من الفلاح التميمس، بوسيلة الكراخ، ما يزيدون به رعايهم وثروتهم؛ وانهم لكي يتمكنوا من حمل الصيارفة على الثبات في تحصيل ما يستطيعون تحصيله من الفلاح، تحت أسماء متنوعة، كانوا يأتون من تعريفه المواعيد المقررة لنفع الأموال؛ بالرغم من أن الإرادة العليا، وقرارات مجلس شورى النواب جعلتها في الأوقات المناسبة؛ أى بعيد جناء كل محصول هام.

وأما أن (اسماعيل) نفسه كان يرغب في ألا يصاب المزارع المصرى بضيم؛ وأنه كان يفضل مصلحة الفلاحين من رعاياه على مصلحته الخصوصية ذاتها، فذلك واضح:

مساعدة الفلاحة  
المصرية بالمال

(أولاً) من أنه — لما وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها في أوائل سنة ١٨٦٥؛ وتسبب عن انتهائها غير المتظر نزول أسعار القطن في بورصة ليغربول نزولاً فاحشاً واصابة سوق الاسكندرية بحسائر جسيمة؛ وارتجاج الأرياف المصرية ارتجاجاً شديداً فالتوا لأن المزارعين، ارتكأوا على أن أثمان القطن ستستمر، حتماً، عالية وأسعاره متمسكة، كانوا قد توسعوا في زراعته توسعاً كبيراً، واستنفوا، لذلك، أموالاً طائلة يرهون عقارية، فادى سقوط أسعاره بقاءاً الى اختلال التوازن بين قيمة الاقراض وقيمت ضمانات مصادها العقارية، اختلالاً نجمت عنه توفقات عديدة



عن الدفع، أوجبت شكاوى ودعاوى، هددت بيوتا كثيرة بالخراب والحرق — تداخل (اسماعيل) في الأمر وتلافاه . فأصدر، وهو في قبض يتطلب بمياهها المعدنية، أمره إلى مالىته، بفحص طلبات دائي المزارعين المصريين، وتحقيقها، وتسديد ما يثبت صحته منها، مقابل إصدار أذونات بالمبالغ المدفوعة تدعى "أذونات القرى"، يستد أصحاب الأملاك المدينون قيمتها إلى المالية على ثمانية أقساط، ابتداء من سنة ١٨٦٩، أي بعد الأزمة بأربع سنوات . فصلحت المالية بالأمر، وسلحت من ديون المزارعين المصريين ما أصدرت به أذونات قيمتها خمسة وثلاثون مليوناً من الفرنكات<sup>(١)</sup>.

ولعل الذي حمل (اسماعيل) على اتخاذ مزارعى بلاده من هذه الورطة التي وقعوا فيها، علاوة على رغبته في رفع الضيق عنهم، ورغبته في عدم تحويل همة رؤوس الأموال الغربية عن الأرض المصرية، لاعتباره هذه الثقة من عوامل تهتم البلاد في سبيل الحضارة، ومن أكبر أسباب إحياء روح العمل والنشاط فيها — وإلا، فإن المقرضين الغربيين الذين باتت أموالهم، بسبب هبوط أسعار القطن الفجائي، عرضة للضياع، أو إنها ضاعت بالفعل، لم يكونوا يلبثوا في ذلك إلا سوء تبصرهم، وشدة مطامعهم، ولم يكونوا جديرين بمواساة ما، فضلا عن العناية بهم؛ لأن معظمهم كانوا يقرضون المزارعين بفوائد ممتددة ثلاثة أو أربعة، وأحيانا، خمسة في المائة شهريا.

(ثانيا) من أنه لما زاد النيل في سنة ١٨٧٠ زيادة عظيمة هددت بالفرق، ثلاثا من قرى مصر، وبالخراب التام أهلها، ونما الخبر إلى (اسماعيل)، أمر بكسر الجسور فوق تلك القرى، في وسط أطيافه الخصوصية، لتحويل إليها وتغمرها المياه

مضحية اسماعيل  
بصالحه في سبيل  
اتخاذ مصالح  
الفلاحين من  
الخراب

(١) انظر: ماك كون "مصر كما هي" ص ١٢٧ وانظر: "تاريخ مصر المالي" لمجهول .

المتدفقة المهتدة : فتتجو قري الفلاحين البائسين ومزارعهم . فكسرت الجسور ، وضربت أطيان الأمير بالفعل . فأصابته ، من جراء ذلك ، خسائر قدرت بأربعة ملايين من الفرنكات . ولكن قري المزارعين ومحصولاتهم لحقت وأبعد ، عنهم وضحا ، البؤس والشقاء . فأعلن ( اسماعيل ) أن هذا يسره سرورا يحمل خسارته لا قيمة لها عنده بالمرّة .

فأمير هذه عنايته بمزارعي بلاده وفلاحها ، حتى وهو في بلاد الغربة يتطلب وهذا شعوره ، لم يكن ليرضى أن تتقل كاهلهم جباية الأموال المفترزة على أطيانهم ، منهم ولئن أؤخذ على شيء من المظالم والمغارم التي أحقت بهم ، في هذا الباب ، فإنه إنما يأخذ بحق ، على عدم تقزله العقاب الصارم بموظفيه المجرمين المتجاوزين الحدود في ذلك ، مثلاً أنزله باسماعيل صديق باشا كبيرهم ، وعلى سماحه لنفسه بأن تغيب تلك المظالم والمغارم عن نظره وهو يتطلع الى آفاق كان من شأن شرور الحاضر أن تتضائل فيها ، وتتوارى أمام عظمة المستقبل وزهوه وخيراتة الجمة ، التي كان يسعى الى تحقيقها ! على أن صفوه في ذلك ، هو أنه لا بد ، لحاقى الورد ، من ونحر الشوك ، ولا مفتر ، لقاطف العسل ، من ابر النحل !

(١) أنظر : "كارل دي برير باريس في القاهرة" ص ١٨٢

## الفصل الثالث<sup>(١)</sup>

### فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل

”هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا  
في ممالكها وكلوا من رزقه وإليه النشور“  
«قرآن شريف»

ان التجارة أصبحت حرة، منذ تكب محمد سعيد باشا جادة الاحتكار؛ وشاد  
حرية الأخذ والمطاء على القوائم الأربع الآتية :

(الأولى) ان كل فلاح مصري حر في انماء المحصول الذي يراه أكبر فائدة له  
من سواه .

(الثانية) أنه حر في بيع محصوله قلنا لأي مشتري شاء وبالثمن الذي يريده .

(الثالثة) ان التجار أحرار في نقل المحصولات التي يشترونها، بجميع الوسائل، برا  
وبجرا كما يشاءون .

(الرابعة) ان عموم الدخوليات والجمارك الداخلية تاني، معنا لتحمل البضائع  
مصاريف تضاعف أثمانها<sup>(٢)</sup> .

وكانت الحكومة المصرية قد قررت في عهد عباس—ولا تدرى لماذا—الاتحرج  
السفن من ميناء السويس إلا بالترتيب . فبدأت السفينة التي عليها رقم ١، مثلا

(١) أم مصادر هذا الفصل: ”مصر المعاصرة لمريش“، و”رسائل من مصر“ لسنت هاجر، و”مصر  
في عهد اسماعيل“ لسائق، و”تاريخ المالية المصرية“ لمجهول، و”مصر كما هي“ لبيك كون،  
و”مصر في أيام محمد علي“، و”سياحة بمصر في أيام محمد علي“ لبيكار مسكار، وعل الأنص  
”مذكرات عثمان بمصر من الأعمال الهامة من أيام القرامطة إلى الآن“ لبيك دى شفون .

(٢) أنظر: مريش ”مصر المعاصرة“ ص ٧٣

إطلاق التجارة  
من ممالكها

لم تلقه من مشعوذها ، أولا تزال غير مستعدة للسفر ، فان السفينة التي عليها رقم ٢ اضطر الى الانتظار وعدم الخروج ، ولو أنها قد انتهت من شحن مشعوذها وباتت على غاية الاستعداد للرحيل ؛ وهم <sup>(١)</sup> جزا .

فشاحنو البضائع الى موانئ البحر الأحمر كانوا يضطرون ، مهما استدعت ارسالياتهم من اسراع ، الى الانتظار ، ربما يروق الاقلاع لصاحب السفينة السابق رقم سفنهم . فان لم يرق له ، ورضوا ، هم في السفر ، تحتم عليهم الخضوع لكل الشروط التي يوحى بها الطمع ، فيصجم عن ذلك أحد أمرين : إما أن تزيد مصاريف الشحن زيادة فاحشة ، وإما أن تتأخر البضائع في السويس تأخرا ضارا .

فالني محمد سعيد باشا هذا النظام ؛ واستبعد من قوانين الموانئ كل ما من شأنه إضهاد عمال في سبيل الانحجار .

فزل سعر الشحن نزولا محسوسا جدا وراجت الأسواق التجارية راجا عظيما ؛ كانت نتيجة ، من جهة ، أن التجارة الخارجية سارت في طريق الصعود سيرا حثيثا ؛ وارتفعت حركة التفر الاسكندري — وكان المصدر العام لها تقريبا — من ٨١١٧٣٠٥٠ فرنكا في سنة ١٨٤١ الى ١٨٣٩٠٢٠٠٠ فرنك في سنة ١٨٥٦ وإلى نحو مائتي مليون فرنك أي ما يقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات في سنة ١٨٦٢ وتلا ارتفاعها أن اتخذ النشاط التجاري في الاسكندرية شكلا لم تمهده القرون الأولى فيها ، منذ الفتح العربي ؛ وأنشأ بورصة مالية انتشرت المضاربات فيها ، على أثر صعود أسعار القطن في سنة ١٨٦٢ ، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية ، انتشارا .

(١) أنظر : مريخو "مصر المعاصرة" ص ٧٦

مرقوا ، ضارع في شدته وعنفه المشاهد منه في العواصم الأوروبية ؛ وأدى الى ثروات عظيمة زالت بسرعة بغائية عظيمة أيضا ، لقيامها على بيع وشراء يعقد بالكلام لا بالتسليم وتحويل الى النير بمكاسب طائلة أو بخسائر فاحشة .

وكانت نتيجة الزواج ، من جهة أخرى ، أن التجارة الداخلية انتقلت الى أيدي الأهليين ؛ وانحصرت فيهم شيئا فشيئا ، لتفوقهم على عمال التجار الأجانب في معرفة عادات البلد وتقاليده ولقته وأساليبه ؛ ولا سيما لقائهم في المآكل والمكسب . وأصبحت المراكب والسفن الشراعية التي تمتاز المحمودية ، على الأخص ، وجماري النيل ، على العموم ، مشحونة ، أن لم يكن كلها ، بغلها ، بفضائع لتجار من الأهليين ، اشتروها من المزارعين مباشرة ، في داخلية البلاد ، لبيعوها في الاسكندرية الى التجار الأجانب قداما وعلما .

المرأة الناجرة  
الزينة الملابس

وقد قال يومئذ أحد كبار التجار الغربيين لكاتب فرنساوى بليغ كان قد زار البلاد في أواخر سنة ١٨٥٦ ، وهو يشير الى امرأة مصرية ، حافية القدمين ، ومرتبدة لباسا يكاد يكون رثا : « أتراني انا قلت لك اني دفعت الآن الى هذه المصرية ، ذات المظهر الحفير المبتعدة أمامك ، أربعمائة جنيه انجليزى ثمن بضائع أتت بها ، أتصانفنى ؟ » .<sup>(١)</sup>  
وحمل الساع التجاريين الخارجية والداخلية مبعيد باشا على انشاء شركتين لللاحة : إحداهما بحرية ، والثانية نيلية .

إنشاء الشركة  
المهيدية لللاحة

فالأولى ، ودعيت « المهيدية » ، إكراما للسلطان العثماني عبد الحميد ، فأمدست بفرمان هيايوى استصدره محمد سعيد باشا في أواخر ربيع الأول سنة ١٢٧٣ من

(١) أنظر : مريشو « مصر المعاصرة » ص ٧٥ ، ومنعت هيلر « رسائل من مصر » .

السلطان المذكور، ورأس مال قدره عشرون مليوناً من الفرنكات، مقسم الى أربعين ألف سهم، قيمة السهم الواحد خمسمائة فرنك. وخرضا استغلال شواطئ القلزم لغاية الخليج الفارسي استغلالاً تجارياً، وقيل الجحاج الذاهبين، سنوياً، الى الأقطار المجازية، لتأدية التريضة المقدسة، قلا سريعاً منظماً، وربط نظام الملاحة في البحر الأحمر، بنظام سفن بخارية تمخر في البحر الأبيض المتوسط، وتقوم بخدمة سواحل السلطنة العثمانية.

وقد وضعت هذه الشركة تحت رئاسة الأمير مصطفى فاضل، أصغر أنجال ابراهيم باشا الكبير، وعين لها بطريقه استثنائية، مجلس ادارة مؤلف من نوبار بك وكيلا للرئيس ومراقبا لعموم أعمال الشركة في حال تغيب سموه، وكان من كبار الموظفين المصريين والتجار الأجانب.

والثانية، ودعيت "الشركة المصرية لقيادة السفن بالبخار على النيل والترع المصرية" إنشاء شركة الجز  
تأسست برأس مال قدره خمسة ملايين من الفرنكات، وبامتياز من محمد سعيد باشا في ٩ محرم سنة ١٢٧١ (٢ أكتوبر سنة ١٨٥٤) الى مؤسسيها، وهم زمرة من كبار التجار الغربيين، أشهرهم ذكرا السليور وپولانى، وبعض كبار موظفى الحكومة المصرية كذى الفقار باشا، المشرف العام على المالية المصرية، وكوينج بك سكرير سمو الأمير الخالص، وموچيل بك كبير مهندسيه. وخرضا الافراد بقوة البخار لجز بضائع الوارد والصادر في عموم دائرة القطر المصري، على النيل والترع المصرية بطلب من أصحاب المراكب المشحونة فيها تلك البضائع، وبالأسماء التي ترضها الحكومة المصرية لكل صنف منها. وفلك الافراد مقابل انشائها طلبات تارية في العطف تكون قوتها كافية لحفظ المصودية دائماً في حال صالحة للملاحة ولرى حشرين ألف فدان

رياصيفيا، وتزويد الاسكندرية بالماء اللازم لها، حتى فيا لو غيرت الحكومة طريقة  
المجارير المائية فيها .

غير أن هاتين الشركتين المساهمتين — وكانتا أول ما تأسس من نوعهما في القطر  
المصري ، ولذلك توسعنا قليلا في ذكرهما — بالرغم من أن مدة أولاهما جعلت  
تلايين سنة ، ومدة ثانيتهما خمس عشرة سنة لم تقوموا بأعمالهما ، أعواما قليلة ، حتى  
تطرق الخلل الناجم عن الإهمال وعدم الاعتناء ، لا سيما بعد أن أخذ المرض من  
(سميد) مأخذه . فحسرتا جانبا كبيرا من رأسى مالهما؛ وبات الخراب التام يهددهما  
حينما آل الأمر إلى خلفه .

فحسرت (اسماعيل) عن ساعد الجثة في هذا الياب من المصلحة العامة، ومد يده إلى  
الشركة المجددية، فجمع ما بقي من حطامها، ثم صقلها، وأنشأ، محلها، شركة جديدة،  
دعاها "العزيزية" لإجلال السلطان عبد العزيز، كان جل رأس مالها من جيبه الخاص  
وساعده على ذلك ثروته الشخصية حينما ارتقى عرش مصر فقد كان إرادته لا يقل  
عن مائة وستين ألف جنيه سنويا ولم يكن عليه دين قمار، وجعل مهنتها القيام بالشأن  
الذى أسست المجددية من أجله .

ولما رأى أعمال الملاحة سائرة على أتم ما يرام في البحر الأحمر وعلى سواحل  
البحر المتوسط العثمانية، وريح البسر والرخاء نافخة في قلوب "العزيزية" ، تآقت  
نفسه إلى توسيع نطاقها وجعل سفنها تنحدر في المياه الأوروبية، حاملة في مرافئها  
الجنوبية، الزاية المصرية وهي خالقة فوق بضائع مصرية .

فأرسل اثنين من أخصائه ومن كبار رجال الإيطاليين والفرنسيين ، يدعى  
أحمد السليور فرنسكويلني بك، والثاني المسيو جورنوبك إلى البندقية ومرسيليا،

ليمنها له سبل العمل والنجاح فيهما . فعقدنا اتفاقا في إيطاليا وفرنسا ، ولكنهما صادقا ، من منافسة ومن حصد الملاحاة الأجنبية هناك في إيطاليا وفرنسا ، لا سيما من شركتي البنسبول والأورينتل الانجليزية ، والمساچيرى امپريال ماريتيم الفرنساوية ، ما اضطر الأميرالى المدول من فكرته ، والاقتصاد على ملائحتى القلزم وسواحل البحر الأبيض الجنوبية ، وتحويل جهوده في إنشاء تجارة بلاده الى وجهات أخرى .

إنشاء عدة شركات  
مساهمة

فطلق ، من جهة ، بعضه ، بأمواله المخصوصية ، رؤوس الأموال الفردية ، لتكوين شركات مساهمة عديدة ، بدون نظر الى جنسية المساهمين فيها ، أو دينهم : فتأسست ، بحضه ، ونحت تأخير موجيات رفاثه ، ورؤوس أموال كان ما يخصه فيها أهم رؤوس الأموال الفردية المكتتب بها ، شركة اعتمادات مالية زراعية مساهمة ، غرضها تسليف المزارعين ، ولا سيما أصاغرهم ، تقودا بفوائد خفيفة لا تقاذهم من أيدي المزارعين اليونانيين واليهود وغيرهم ؛ وشركة مساهمة لاستيراد الماكينات البخارية من أوروبا ، وبيعها الى المزارعين المصريين بانقساط تناسب درجة ثرواتهم ، وتركيبها في الأماكن التي تبين لها ؛ وشركة مساهمة تالفة للقيام بنفاذ مشاريع الري والطرق الزراعية التي تقترها المجالس المحلية وتعتمدها الحكومة ؛ وشركة رابعة لاستغلال السودان والانهجار بمواصلاته المتنوعة . وعمد فيها بعد الى تأسيس شركات اعتمادات مالية لتمييز مركز مصر المالى وتحريره من الاحتياج الى رؤوس الأموال الغربية ، كمصرف أهل أو مصرف عقارى ، يكون هو أكبر مساهميا وأهم عملائها . وأنشأ ، أثناء وجوده في باريس سنة ١٨٦٩ بالاشتراك مع الخواجات ا . دى . جياردين وأخوانه المالىين الشهيرين الذين عرفه بهم نوبارباشا "الشركة العمومية المصرية" للانهار

(١) أنظر : "مصر فروعها اسماعيل" لسانى .



والاستغلال ، لحفر ترمة كبرى لرى جزء الوجه البحرى الشمالى الغربى — فدفع ، هو ، معظم رأس مالها وكل مصاريف تأسيسها — وأسس كذلك المصرف (البنك) الفرنساوى المصرى ، بالاشتراك مع المسيو ليغى كريميى اليهودى الذى ربط بين سموه وبينه وثاق صداقة متينة رجل مالى كان مخصصا لخدمته في تلك العاصمة<sup>(١)</sup> .

تصليح  
ميناء السويس  
والاسكندرية  
وتوسيعهما

وطفق ، من جهة أخرى ، وهو يعمل على توسيع نطاق السكك الحديدية — أساس رقى كل تجارة في العالم ، بل كل رقى على الإطلاق — بفكر في جعل ميناءى الاسكندرية والسويس — وهما أكبر الثغور المصرية على البحرين الأبيض والأحمر — على درجة من الاتساع والأمن يقتضى لما أن ياريا أكبر الموانئ العالمية في أهمية حركتهما التجارية .

أما السويس ، فانت شركة البنسيولراند أورينتل الانجليزية كانت قد طلبت في سنة ١٨٤٢ من (محمد على) أن يأذن لها بإجراء أعمال هامة فيها ، لجعلها فرضة فسيحة أمينة ، وإنشاء حوض عام لتصليح السفن ؛ فأبى .

فلما آلت الأحكام الى محمد سعيد باشا رفضت اليه شركة المساجيرى امبريال ماريتيم طلبا في المعنى عينه ؛ وتوسعت منه قبولها لما اشتهر عنه من الميل الى فرنسا وحبها للفرنساويين . فعضد طلبها المسيو برافيه — وكان أخص أخصاء محمد سعيد باشا . فأجابها اليه في سنة ١٨٦١ ؛ وافق معها على أن يدفع لها سبعة ملايين من الفرنكات على أن تقوم هى بعمل الحوض العام ، فقط ؛ علاوة على تقديمه يد المساعدة المصرية اليها لتستعين بها على نجاحه .

(١) انظر : " تاريخ المالية المصرية " لمجهد .

فكلفت الشركة بالعمل على دوسواخوان Dossan — وهو الذى بنى فيما بعد ميناء بور سعيد — وشرع ذلك العمل فى سنة ١٨٦٢ ولكن الحكومة المصرية رأت، بعد ذلك، لأسباب لا داعى الى بيانها هنا ، أن تمنع يد السخرة ، وتموض الشركة منها باعطائها مليون ونصفا من الفرنكات ، علاوة على السبعة المتفق عليها . ولم يقف سخاؤها عند هذا الحد بل تجاوزته حتى وصل المبلغ الى تسعة ملايين . على أن العمل لم يتم إلا فى عهد (إسماعيل) ؛ ولم يفتح الحوض المذكور إلا فى سنة ١٨٦٦

فأراد (إسماعيل) أن تعمل ميناء واسعة هناك ؛ لاسيما بعد الفراغ من عمل ترعة السويس وفتحها . فأمر ، فشرع فى العمل فى سنة ١٨٧٠ وأنشئ حوض خارجى دعاه (إسماعيل) ”بور ابراهيم“ ، إكراما لاسم أبيه الميام ، وربطه بالسويس بسكة حديدية ، أنشأ الى جانبها سكة حريات ؛ وما زال يعمل ويحسن لتأمين السفن وراحتها حتى بلغ مجموع ما أنفقته فى هذا السبيل ، مليون ونصفا ألف وعشرة آلاف جنيه .

أما ميناء الاسكندرية — وطولها ستة أميال وعرضها ميلان بين رأس النين ورأس العجم من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وهى مقفلة من كل جانب إلا من هذا الجانب الأخير — فان (إسماعيل) كان قد أحس بوجوب تصليحها منذ ارتفاعه سنة ١٨٦٦ ، لسه ، بيده ، المضار الناجمة من قيام الصخور متشعبة فى مدخلها وجراها . ولكن ذلك الاحساس زاد فيه ، بعد فتح ترعة السويس ، زيادة لم يعد يستطيع معها صبرا على بقاء الحال كما هى ؛ لاسيما بعد أن رأى تحول جانب عظيم من تجارة الاسكندرية بسبب صعوبة مدخل مينائها الى مجرى تلك التركة البحرية .

فعقد، قبل نهاية سنة ١٨٧٠، عقدا مع محل جرينفيلد وشركائه الهندسي بلندن، تكلفه بمقتضاه بالقامة حاجز ضخم خارجي، وإنشاء ميناء داخلية، وبناء أرصفة فيها للسفن، تكفل لها والسافرين الراحة التامة، نظير تقاضيه مبلغ مليونين من الجنيهات الإنجليزية.

بعد بضعة أشهر صرفت في تجهيزات لم يكن منها بق (ووجد المهندسون الانجليز) في خلالها، ميلا الى جعل المليونين المتفق عليهما - بالرغم من احتوائهما على زيادة في التقدير تبلغ ثمانين في المائة، أسوة بجميع الأشغال العمومية والخصوصية التي قام بها مهندسون غربيون في عهد (اسماعيل) - مليونين ونصفا، وذلك باضافتهم بعض تعديلات الى التصميمات والرسوم الأصلية) شرع في العمل في بدء ربيع سنة ١٨٧١، بعد حفلة شائعة وضع الخديو فيها بيده أول حجر في ذلك الميناء الضخم.

فسير بالحاجز، أولا، جنوب متارة رأس التين الغربي، وعلى بعد خمسين مترا منها، مسافة قدرها ألف متر. ثم ميل به نحو الجنوب الجنوبي الغربي مسافة قدرها ثلاثمائة وخمسون مترا: واجتيز به التفركه. فلذا به ميلان يشتملان على ألف وأربعمائة فدان مياها هادئة نستطيع أكبر صراكب العالم وعمارات الدول كلها الرسو بأطمئنان والاجتماع براحة فيها. واذا بالمدخل الأهم دائر خلف الحاجز الجنوبي الغربي على بعد ١٥٠٠ متر من الشاطئ، والمتر الضيق لدخول المراكب الصغيرة ونروجها، الى جهة رأس التين. واذا بالبناء قد برز على طو سبعة أقدام فوق كل طوق قد تبلغ اليه أمواج البحر في أشد ارتفاعها. وشمل، من جهة الشاطئ الحاجز (Mole) الواسع، على مسافة تسعمائة متر من لم الحمودية، لجهة رأس التين: واشتمل على أرصفة طولها ١٤٤٠ مترا في منتهي المتانة والجودة.

ثم أوصل ذلك جميعه بسكة حديد القبارى ، بخط حديدى أنشئ لهذا الغرض خصيصا . فأصبحت القطارات تستطيع تفريغ مشحونها على الأرصفة الراسية البواخر بجانبها مباشرة ؛ وتستطيع البواخر تفريغ مشحونها مباشرة أيضا ، فى القطارات العاجلة التى تملأ سفار قاطراتها تلك الأرصفة ! وبلغت قيمة ما تقاضته الحكومة من الرسوم سنويا من السفن الداخلة الى ذلك المرفأ لغاية سنة ١٨٧٧ مائة وثلاثين ألف جنيه<sup>(١)</sup> .

على أن همة (اسماعيل) لم تقتصر على توسيع مينائى السويس والاسكندرية ؛ ولكنها تناولت موانئ البحر الأحمر القصية عنها ، من القصير الى زيلع وبربرة ، وأدخلت عليها من التحسينات ما كان متناسبا مع انتعاش حركة السودان التجارية ، فى عهده ، ونمونها .

إنشاء المنارات  
البحرية

ولعلم (اسماعيل) أنه لا بد للوانى ، لى تقوم بعملها قياما تاما فى النهار والليل ، من منارات فيها ، ترشد السفن الى أحواضها الداخلية الأمانة ، وتدرأ عنها أخطار الشعاب الصخرية ، أكثر من إنشاء هذه السرج الجزيلة النفع على جميع شواطئ مملكته المقامية الأطراف .

فانه ، حين أدركت (سعيدا) منيته ، لم يكن من تلك المنار سوى منارة الاسكندرية ونور عائم فى خليج السويس ، فما آتتحت الأيام بملك (اسماعيل) إلا وقد قامت سبع منارات عظيمة على ساحل البحر الأبيض ، غير الصغرى منها ، وسبع أخرى على سواحل البحر الأحمر ، وواحدة على ساحل الأوقيانوس الهندى . وإليك بيانها :

(أولا) على ساحل البحر الأبيض : أربع بالاسكندرية وهى : منارة رأس التين تبث أنوارها المتألقة الى بعد عشرين ميلا ؛ ومنارة طرف الحاجر ، تبث أنوارها

(١) أنظر : ماك تون "مصر كما هي" ص ٢٥١ و ٢٥٢

الى بعد ستة أميال ؛ ومنارة العجوى ؛ ومنارة الخليج الغربى ؛ ثم منارة رشيد ، ونورها الأبيض والأحمر جميل للغاية ؛ ومنارة رأس البرلس ، ونورها أبيض ثابت ؛ ومنارة دمياط ، ونورها أبيض كذلك ؛ ومنارة بورسعيد الكبرى ، وهى مثيلة منارة الاسكندرية ، وتبعث أنوارها الجميلة الى بعد عشرين ميلا .

(ثانياً) على ساحل البحر الأحمر : منارة السويس الكبرى ، تبعث أنوارها على بعد ثمانية عشر ميلا ؛ أنشئت فى الميناء ، علاوة على النور العائم فى الخليج والنور الأبيض المقام على مدخل الغرب ؛ ومنارة أخرى دون الكبرى بقليل ، تبعث أنوارها الى مدى أربعة عشر ميلا ، من قمة رأس الزعفران ، الواقع على بعد خمسين ميلا جنوبى السويس ؛ ومنارة ثالثة مثلها يرى نورها من بعد أربعة عشر ميلا كذلك ، على قمة رأس غربى ، ويبعد عن رأس الزعفران جنوبا خمسين ميلا أخرى ؛ ورابعة ، أقوى منها ، فى جزيرة الجبل ، على مدخل الخليج ، تبعث أنوارها الى بعد ثمانية عشر ميلا ؛ وخامسة قائمة على صخور ديلوس فى وسط البحر الأحمر فى خط ٢٤ و ٥٥ شمالا ، تبعث أنوارها الى بعد أربعة عشر ميلا ؛ وسادسة مثلها فى سواكن ؛ وسابعة فى الوجه بمحلة الأربعينيات (الكورتينات) .

وأما التى على ساحل الأوقيانوس الهندى ، فواحدة فى بربرة ، قائمة هناك ، دليلا ساطعا على نور المدينة والحضارة المنبعث عن (اسماعيل) الى أقصى أطراف مملكته ، والمنهى بشروق شمس أيامه فى شرق القارة السوداء ، لتبتد غياهب ظلماتها المموجة وتخترق حجب دياجيرها المظلمة .

وقد بلغ ما أنفق فى إقامة هذه المنارات الشاهقة المدينة التى كان معظم حراسها من الانجليز الخبيرين بعملها ، نيفا ومائة وقسمين ألف جنيه ؛ وقد احتفى بها وبتنظيمها

اعتناء جعلها في مقامة مثيلاتها في البلاد الغربية عينا، وجعل ما يتقاضى من الرسوم على السفن المنتفعة بها يزيد على ما تستدعيه صيانتها من نفقات — والفضل في ذلك إلى مديرها العام مالك يكلوب باشا<sup>(١)</sup> .

وكانت السفن التي يجتاز قنال السويس إلى الشرق الأقصى تدفع رسوما في ذهابها ولأيابها، وأما التي تتوقف في السويس ثم تعود إلى بورسعيد فلم تكن تدفع سوى رسوم الذهاب؛ والسفن الحربية لا تدفع شيئا، وأما السفن البريدية فكان يعمل خصم قدره ٥ ٪ .

ولعلم (اسماعيل)، أيضا، أن تنبع روح الحياة في أصناف الصناعات والفنون وأبواب العمل، من شأنه أن يضاعف الحركة التجارية بأكثر مستورداتها وصادراتها أكبر على الأمرين معا بكل نشاط تهسه النشطة .

إحياء الصناعة  
والفن

أما الصناعات والفنون — وقد كانت مصر في أيام الفاطميين والأيوبيين، بل في ذات أيام السلاطين المماليك من بحريين وبرجيين، مهبطها وكعبتها — فإن الحكم التركي المملوكي — الذي أنشأه في الديار السلطان العثماني سليم خان الأول عقب انتصاره على جنود طومان باي البواسل، في واقعة الريدانية، وذبحه نيفا ونحسين ألفا من سكان القاهرة، وسلبه كنوزها وقنائسها وتسيير صناعاتها ومشاهير رجال فنونها إلى الأسنانة، مع الزمرة من أعيانها التي احتقلها فيها محبة المتوكل على الله آخر خليفة عباسي بمصر — كانت قد قضى عليها قضاء مبرما، كما قضى على كل حركة حيوية فيها : فبت ترناد البلاد من الاسكندرية إلى أسوان فلا تجد مصنعا واحدا من

(١) انظر : "مصر كما هي" للملك كونس ٢٥٦ وما يليها .

المصانع العديدة التي كانت تعمل فيها التفأس والطرف من أنواع ما تحفظه دار آثارنا العربية بمصر، اليوم .

فلما استلم (محمد علي) زمام الحكم بيده القوية، وصفاه الحق بزوال أيام معارضية من محالك وغيرهم، ووقع في خلده أن ينشئ في مصر، ومن مصر، دولة شابة يقيسها على جبهة الشرق، ساطعة السناء، رأى أنه لا بد له من احياء الصناعات والفنون فيها، ليتمكن من نيل أغراضه وقضاء أوطاره .

فأقبل ينشئ المعامل والمصانع في كل جهة؛ منها ما هو لصنع الأشياء الشرقية التي كانت البلاد تصنعها في أيام عزها السابق—وزرى بعضها الآن مما صنع في عهده في قصور أفراد أسرته الكريمة و"سرايهم"؛ ومنها ما هو لصنع الأشياء الغربية المستوردة من الخارج .

تلك المعامل والمصانع أقيمت، في الوجه البحري : بمصر، وقليوب وميت غمر وزقني والمحلة الكبرى وسمنود والمنصورة ودمياط وقوة وشبراخيت الخ . وفي الوجه القبلي : في بني سويف والمنيا ومخلوط وأسيوط وطهطا وجرجا وسوهاج وإلخميم وإسنا الخ؛ واشتغل فيها نيف وعشرون ألف عامل .

ولكنها، بالرغم من وجود الرؤساء المستقدمين من أوروبا حتى من أميركا بكثرة فيها، لتعليم الصناعات المصرية المشتغلين تحت إدارتهم، ما لبثت كلها أن تعطلت وأقفلت في عهد (محمد علي) عينه، ما عدا معمل الطرايش بقوة، فإنه بقي قائما بفضل استيراد جميع أفراد الجيش والمهينة الاندازية طرايشهم منه<sup>(١)</sup> .

(١) راجع كتابي هامون ومايجين في هذا المجلد، ومن المعلوم كل ما كتبه الكتاب الفرنسيون في هذا القسم من تاريخ (محمد علي) من موجودات دار الكتب المصرية . فلا سبيل الى حصرها وبيانها في هذه الحاشية .

والمرجع في هذا البوار والتعطيل الى سببين رئيسيين : (الأول) عدم وجود المواد الأولية كالحديد والفحم ، في البلاد ، وضرورة استحضارها من الخارج بأثمان باهظة كان من شأنها جعل مجارة المصنوعات المصرية للمصنوعات الأجنبية ، في أثمانها ، ومساواتها فيها ، أمرا متعذرا ؛ و(الثاني) أخذ الحكومة المصرية بمبدأ الاحتكار التجاري ، وهو مبدأ من شأنه قتل كل همة فردية والقضاء على روح كل إقدام .

ولم تجد الصناعة تمضيئا من خلفاء (محمد علي) الثلاثة الأول . فإبراهيم لم يعش ؛ وجاسم لم يتم ؛ وانصرفت الأمة في مدة سعيد بكليتها وجرثباتها الى الفلاحة ، عقب التسييلات التي قدمت لها ، ولم تكن قد اعتادت . على أن تهافت الأجانب على القطر في مدة سعيد ، أوجب توسع التجارة بالاسكندرية ، مع ما توجه شيئا فشيئا من تغيير معالم ، ونشوء مصانع ميكانيكية ؛ ولكنه لم يدخل تغييرا محسوسا ، حتى ولا تعديل على نظام الصناعات والفنون البلدية .

فبقى هذا النظام معمولا به كما كان منذ قديم الزمان : أثرا للاضي الفرعوني ؛ واتخذ من العصر التركي اسما جديدا لم تعهده مصر العربية وهو "الطوائف" .

نظام الحرف

فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها "طائفة" وكان لكل طائفة شيخ ينتخبه كبار رجاله ، وتصدق الحكومة على تعيينه مقابل رسم يدفعه إليها ، ويختلف مقداره مع اختلاف الأيام .

ففي تعيين الشيخ رسميا ، أصبح حاكم "الطائفة" المطلق والمسؤول الوحيد عن كل شؤونه . فهو الذي يحدد أثمان العمل ؛ ويرتب درجات الأجور ؛ ويقبل دخول أعضاء جديدين في الطائفة ؛ ويرشد الى كيفية إنجاز الاتفاقات ؛ وينتدب الصناع



الذين يجزونها ؛ ويجمع العوائد المفروضة على رجال الطائفة ؛ ويمنع الأعضاء ، ساعة قبولهم ، الشهادات التي تثبت كفايتهم وتبين مقدار الأجرة اليومية الواجبة لهم ؛ لأنه إذا جاز لرجل الطائفة أن يقول على الشغل بالقطعة ، لم يكن يجوز له أن يقول عليه باليومية لأن يوميته كانت معلومة ومبينة في شهادته ، ولا سبيل له إلى زيادتها ولا إلى تنقيصها . فكانت المزاحمة ، والحالة هذه ، معلومة بالثقة ؛ وكان العمل على العموم تحت رحمة شيوخ "الطوائف" ؛ فإذا بلغهم أن أحد رجال الطائفة اشتغل بأجرة زائفة على المهينة في شهادته أو ناقصة عنها جاز لهم أن يطلبوا عقابه من الحكومة وحسبه وينالونها .

على أنه كان يباح للصانع أن يشتغل في فروع فنه بشرط دفع ضريبة مضاعفة ؛ كذلك إذا احترف بحرفتين — وهو ما كان نادرا — إلا إذا اتفق سرامع الشيخ ، وحمله برشوة على غض نظره<sup>(١)</sup> .

أما الصناعة الغربية المستوطنة ، فلم تكن خاضعة لهذا النظام . ولكنها لفتها ، لم يكن في استطاعتها أن تراحم الصناعة المحلية ، مزاحمة محسوسة . ومن المعلوم أن قلة المزاحمة تعود الخمول ، وتحول ، عادة ، دون تحسين العمل ورقبه وبلوغه درجة الكمال . فلا عجب ، والحالة هذه ، من بقاء الصناعات والفنون المحلية في مستوى واحد ،

طوال المئة مابين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٦٣

فلما تقع (اسماعيل) فيها ، من روحه ، أخرجت الأرض المصرية أولا ، برأس مال قدره ستة ملايين من الجنيهات ، معامل سكر في مصر الوسطى ، تمتد على طول

(١) أنظر : مالك كون "مصر كما هي" ص ٢٩٦ وما يليها لقاية ص ٣١٤ للاستيثاق من صحة القول في نظام الحرف في المعامل والمصانع بمصر في الدولة العلية .

معامل السكر

تسعين ميلا على شاطئ النيل الأيسر ، من بنى سويف الى برج أسيوط ، وتستغل محصول ٢٥٧٠٠٠ فدان بمحاصرها القائمة بالفشن ، ومغاغة ، وآبا ، وبني مزار ، ومطاي ، وممالوط ، والمنيا ، وفرشوط ، ومعامل سكر أخرى في الصعيد ، تمتد ما بين أرمنت ، والضبعة والمطاعة وتستغل أربعين ألف فدان ، ومعامل سكر ثالثة في واحة الفيوم ، تستغل حاصلات ديميرس ، وسليكس ، والفيوم ، وأبو كساح ، ومعصرة دودا ، وكل معمل منها يشغل نيفا وألفى عامل ، كلهم مصريون ماعدا المهندسين — فانهم كانوا انجليز — ويخرج ، علاوة على السكر ، عصلا أسود (دبسا) أجود من صل جزر الهند الغربية ، وروما من أطيب المشروب ، بثمن اجمالى قدره سنويا مائة وسبعون ألف جنيه .

معامل النسيج

وأخرجت ، ثانيا ، معامل نسيج عديدة ، اشتغل فيها من الصانعين ما ربا عددهم على عدد صنائع كل حرفة أخرى : فالف وستمائة منهم كانوا يشتغلون في معامل دوائر الولاية باشا ، بقوة ، وبولاك ، وشبرا . والمعمل الأول كان يخرج خمسين ألف طربوش ، في السنة ، يباع معظمها الى رجال الهندية والبحرية ، وباقيها للعموم ، والأخرى تخرج ٣١٥ ألف ثوب من الصوف ، معظمها للجنود أيضا .

وأقام بمصر ستين معملا للنسيج القطن والتيل ، وعشرين للنسيج الصوف ، وأحد عشر لمعمل الأبسطة ، ومائة وسبعة لمحاكة ونسج البفتة .

وأقيم بالاسكندرية ثمانية وثلاثون محلا للنسيج القطن ، وواحد وثلاثون محلا لمعمل الأبسطة .

ونشأ في دياط مائة وستة وستون دكانا للنسيج الحرير واثان وستون لصناعته . وقام المجتهدون ، في بنى سويف ، يكثر من عمل البساط الصعيدى المعروف

بالكليم والأسجة الثيلية الخشنة للبس الفلاحين ؛ وكان في كل دكان من دكاكينهم من منوال الى اثني عشر منوالا .

وأخرجت ، ثالثا ، معامل لصنع المعادن ؛ منها ثلاثة للحكومة ، وهي : مسبك مدافع ، ومصانع المعادن ومعمل بنادق — وفيه ما كينات لتصليح البنادق من أحدث طراز رمنجتون — وعنابرهما ببولاق ؛ ومعمل خرطوش بالاسكندرية ؛ علاوة على معمل سلاح ، وعنابر للبواخر والسفن الحربية — وهو ما أنشئ فيما بعد نظيره في السويس .

أما معامل شغل المعادن الخاصة بالأهلين فكانت بمصر : خمسة وثمانين مسبك حديد ، و ٧٣ معملا للنحاس ، و ٨٠ محلا للتبييض ، و ٢٤٠ محل صانع ، و وحدة معامل سلحدارية وحلادين ، تخرج من الأسلحة أنفعها وأجملها ، ومن الأدوات الحديدية الصغرى ، ما تدعو اليه الحاجة ؛ وبالاسكندرية : ٦ مسابك حديد ، و ٤٣ محل حدادة ، و ٢٠ معمل نحاس ، و ٩٣ محل صياغة .

ثم أنشأت الحكومة ، بقلوب ، معملا لضرب اللبن كان يخرج ٧٠٠٠٠٠ لبننة حمراء كل عام ؛ ثم الألف منها تسعون قرشا صاغا — وكان معظم البناء حينذاك بالآجر والقليل منه جذا بالجر . وكانوا يستخرجون الحجر ، بمصر ، من المقطم ؛ وبالاسكندرية ، من المكس كما هو شأنهم اليوم ، بعد أن كانوا ، قبل سنوات قليلة من ذلك العهد ، ينهبون المعابد القديمة كلما أرادوا إنشاء بناء بالحجر .

وبدت الدباغة وصناعة الجلود فأنشأت الحكومة ، لهذا الغرض ، مصنعا بالاسكندرية ، كانت تدبج فيه من ثلاثين الى أربعين ألف جلد سنويا ، ما بين جلود بقر وجاموس وخراف وماعز .

وأنشأ الأفراد نيفا وثلاثين مصنعا بمصر والاسكندرية ، تجهز وتدبغ أكثر من مائتي ألف جلد سنويا . فكثرت تصدير الجلود المصرية الى الخارج ، وراجت صناعة السروجية في داخل القطر وراجا حظيا .

صناعة القطار

ولسنا نقول شيئا عن صناعة الخزف ، لأنه من المعلوم أن صنع الفل والزلج والأباريق والأزيار ، وما على شاكلة ذلك جميعه ، والتفنن في صنعه ، قديمان بمصر قلما تكاد الذاكرة لا تذكره ؛ ومن المعلوم أيضا أن هذه الصنعة بلغت في مصر القديمة شأوا لم تبلغه في مصر الحديثة . ولكنا نقول ان أفضل أدوات حرفته إنما كانت تخرجها مصانع قنا وبلاص وأسيوط ومنفلوط وملوى ؛ وتقل الى المراكب في النيل منها ، سنويا ، خمسمائة ألف قطعة ، كما كانت تفعل في أيام طوطمس العظيم ، وأيام أن أكره بنو اسرائيل على مغادرة مصر .

معامل الزجاج

وأخرجت هذه الأرض المصرية أيضا من ثمانية الى عشرة معامل زجاج — واسم أحدها لا يزال مطلقا على إحدى المحطات بين الاسكندرية ودمهور — كانت تصنع للأسواق نيفا وعشرة آلاف قطعة متنوعة ، سنويا ؛ علما عشرين ألف زجاجة مصباح . نذكر هنا : والألم ملء القواد ، في هذه الأيام التي لا يعمل زجاج لنا فيها حتى أصبحت زجاجة المصباح البسيطة ذات العشرين الفضة دارجة ، سابقا ، تباع بنصف ريال ، منذ أن حالت الحرب العالمية الكبرى دون أن ترسل مصانع الغرب شيئا منها إلينا .

معامل الورق

وماذا نقول عن معامل الورق التي أقامتها النائرة السنية — أى دائرة (اسماعيل) — ببولاق سنة ١٨٧٠ ، وكان يشتغل فيها ٣٢٠ عاملا وطنيا تحت رقابة مهندسين

ورؤساء أعمال من الانجليز؛ فيخرجون ١٨ طنا من الورق المستعمل للف السكر،  
وسبعين ألف فريدة ورق طباعة وكتابة، من أنواع مختلفة، يصنع أو طولها قيمة من  
الخلعاء وقشر القصب، وكانت تكفى كل الحاجة اليها بمصر، ويصدر الزائد على  
الحاجة منها بالات بالات الى الجمار، بل الى الهند؟

نحن لا نتوسع في ذكرها، خشية لإلام النفوس، لأن عددها الآن بمصر، مع  
انعدام الوارد من الخارج أصبح يهدد المدارس، بالإقبال، لا الصحافة والتأليف  
فقط بالتعطيل، ومصالح الحكومة بالارتباك .

تحسين المطبعة  
الأميرية

أما المطبعة الأميرية التي أنشأها (محمد علي) فإن (اسماعيل) وسعها توسيعا أصبحت  
معه تستطيع أن تطبع كل ما تحتاج اليه مصالح الحكومة، وجميع كتب التدريس  
التي تقرها وزارة المعارف العمومية باللغتين العربية والتركية، وفي كل لغة من اللغات  
الأوروبية الكبرى، كالفرنساوية والانجليزية والاطليانية، طبعا نظيفا متقنا، خليقا  
بأى مطبعة بباريس ولندن، مهما كانت كبيرة، ومعنى بها، أن تختبر به؛ مع أن  
عمالها — وكانوا أكثر من مائة — كانوا جميعا من المصريين .

على أن الإقدام الشخصى شرع، مع ذلك في مزاحمتها مزاحمة كبيرة منذ ذلك  
الحين . فالدائرة السلية أنشأت محل ليتوغرافيا لها بيولاقي، وأنشأ بعض الفريج  
والأهلين خمس مطابع ونمسة محال ليتوغرافيا بمصر، وأربعة بالاسكندرية؛ ولكن  
العمال فيها كانوا إفريج كلهم .

إنشاء الحرف

وازداد عدد المشتغلين في باقي الحرف، فالطعانون والقزانون أصبحوا طائفة  
كبيرة؛ وبلغ عدد الخبازين في المدن والبندر وحدها — خلاف الفلاحين والبدو —

٢٣٠٠ خباز منهم ١٠٠٠ بمصر و ٤٩٠٠ بالاسكندرية . وبلغ عدد صانعي الفطير والخلوى ألفا ومائتين ، منهم ٨٠٠ بمصر ، و ٢٠٠ بالاسكندرية ، والباقي في البنادر . وبلغ عدد الطواحين البخارية ٢٧ بمصر و ٢١ بالاسكندرية ، وما يدار منها بالخيول ٥٧٥ بمصر و ١٢٧ بالاسكندرية ، علاوة على ٣٧ طاحونة هوائية بهذا الثغر ، وجملة طواحين بطنطا والزقازيق والمنصورة . وكان للحكومة طاحونة بخارية عظيمة ، تقوم بطحن الغلال اللازمة للجيش والبحرية ، وخبزان عظيمان بمصر والاسكندرية ، لتوزيع الخبز على الجنود والنوتية ، وعلى جهات البر والمدارس والججاج العابرين . وزاد عدد البنائين وصانعي الأحذية والسككرين ، وازدادوا اهتماما لصنائعهم ، حيال المزاحمة الأجنبية ؛ كذلك كان شأن التطريز والصياغة ، ولو أنهما استمرا يشتغلان على النماذج القديمة المصرية .

غير أن صناعة عمل المشريات والتفنن فيها أخذوا يزولان شيئا فشيئا ، وتحل علهما الصناعة على الطراز الغربي ؛ حتى أصبح ثمن «العينة» فقط من الصناعة القديمة أعلى مما كان ثمن الشباك كله في عهد علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب . وكذلك بات شأن الترويق والتنميق في داخل المنازل والقصور : فان الذوق والصناعة القديمين زالا منهما ، وحل مكانهما اللوح والصناعة الألمانية .

أما التفريخ فبقى كما كان قديما ، ووصفه هيرودوتس المؤرخ اليوناني . غير أن معاملته — وكانت مدحعا ٦٠٠ في القطر — ازدادت كساحا وطفقت تخرج نيفا وأثنى عشر مليون دجاجة سنويا .

معامل التفريخ

وأدت الحرب الأميركية الأهلية الى انشاء معامل قطن في البلاد ، منها ستة بخارية ، بتسعة مكابس بالاسكندرية ، ومعملان في داخلية القطر ، أحدهما

معامل القطن

بالمنصورة، خاصة و «تورت اخوان» ، كان أكبر المعامل فاطبة ، لاشتماله على ثمانين محلجا وسبعين مكبسا وآلات لتنظيف الذرة وطواحين زيت وطواحين دقيق عظمى وآلات لفول الكتان .

المعمل في مناجم  
الزمرد ومناجم  
أخرى

وأجبت روح (اسماعيل) المعمل في مناجم الزمرد، بجبل زبارا ووادي منقبط، بين إدفو والبحر الأحمر؛ وفي مناجم الرصاص، بجبل الرصاص، في الجهة عنها؛ وفي مناجم الذهب في بلاد البشاريين؛ وفي مناجم الفيروز بمناور شبه جزيرة سيناء؛ وفي محاجر المقطم وأسوان الفرانجية، ومحاجر وادي عمرحوب المرمرية، وجبلي الدخان الأبيض والأحمر الرخامية؛ وحثت : فأوجد البحث قليلا من الحديد والرصاص والنحاس في بعض الصخور بشلال أسوان وجبل زبارا .

استخراج النطرون

ونشط استخراج النطرون من مديرية البحيرة، واستخراج القترات والأملح من البحيرات ومن الصخور، حوالى شواطئ البحر الأحمر .  
أما النطرون فأصبح له ثمانية أحواض كبيرة، وبركان صغيران تجفان في الصيف، استغلت الحكومة جانبها منها، واستغل الأهالى الباقي؛ واشتغل فيها ثلاثمائة عامل، منهم مائة راهب قبطى مقيمون في أربعة أديرة .

والقترات

وأما القترات، فانه أخفى يستخرج منه ٦٥٠ كلون من أقاليم المدن القديمة، وينظف في المعامل المصرية، فيؤدى ٥٦٠ كلون قترات البوتاسا .

والملح

وأما الملح، فانه أصبح يشتغل في استخراجة ألف شخص وألف وثلاثمائة حيوان من اثنتى عشرة حفرة؛ فيستخرجون منه ٧٢٠٠٠ أردب سنويا .

ووجد زيت حجر (بترول) على بعد مائة ميل جنوب السويس؛ فأحضرت الماكينات لاستغلال ينابيعه، وبوشر العمل؛ وما لبث أن أخذ يلشرب بمحاج قريب .

وراج صيد الأسماك

وراج صيد الأسماك في المصايد والنيل والبحر فاشتغل نيف و ٣٧٠٠ صياد ،  
 في نيف وثمانمائة قارب ، على النيل وفي البحر ؛ وما يزيد على ستة آلاف صياد ،  
 في أربعة آلاف قارب ، على بحيرة المنزلة ؛ حتى بلغت العوائد المربوطة على هذه  
 البحيرة فقط ستين ألف جنيه ؛ وراجت كذلك الملاحة النيلية : فبلغ عدد المشتغلين  
 فيها ستة وثلاثين ألفا ؛ وكانوا أكثر الناس بسطة في السرور ، وأشتهم ميلا إلى  
 الابتهاج والذناء ، وكثيرا ما كانت الحكومة ، ساعة احتياجها إلى نوتية في سفنها  
 الحربية أو التجارية ، تستدعيهم إليها وتنظمهم في سلكها بأجور جيدة . أما المراكب  
 النيلية التي كانوا يعملون فيها ، فكانت على مستين نوعا من النخبة الفخمة إلى  
 البندل البسيط .

والملاحة

وقد وضع بعضهم تعدادا لأرباب الحرف والصنائع في القطر ، سنة ١٨٧٧ ،  
 فلذا بهم كالآتي : ٣٧١ صانع أسلحة ؛ ٢٦٠٥ حثاد ؛ ٤٣٤ صانع لبن ؛ ٦٤٧٣  
 نشار ونجار ؛ ٣٢٠ خما ؛ ٧٧٠ صانع ملابس ؛ ١٢٩٦ نحاس ؛ ٥١٠٩ صائغ ؛  
 ١٨٧١ مطرزا ؛ ٣٢٠ خفارا ؛ ٨٦ قرياتيا ؛ ٢٦٣٠ جوهرجيا ؛ ٢٤٨٢ حرقا جيرا ؛  
 ٢٨٥ مرنمائي ؛ ٤١١٣ بناء ؛ ١٤٦٣ حصريا ؛ ٦٨٦ نقاشا ؛ ٢٥٧ طامل شباك ؛  
 ٥٤٠ طوانيا ؛ ٨٣٤ نقرانيا ؛ ١٩٠ خيالا ؛ ٧٧٠ سروجيا ؛ ٢٢٣٥ صانع أحذية ؛  
 ٥٨٩ مغربلا ؛ ١٤٠٤ حجارا ؛ ٢٥٢٠ خياطا ؛ ٩٧١ دباظا ؛ ٥١٠ قصديري ؛  
 ٤٣٦٠ سمكريا ؛ ٥٨٢ منجدا ؛ ٣٠٠ مطبعا ؛ ٢٠٠ صانعي ورق ؛ ٢٥٠ صانعي زجاج ؛  
 ١٠٠٠٠ نساج ؛ ٩٦٠٠ صائد سمك ؛ ٣٦٠٠٠ مراكي ( نوتى ) ؛ ٩١٠ قفطاطي ؛  
 ٢٥٠ مركب منازيب .



فكان، والحالة هذه، مجموع المشتغلين في الحرف والصنائع مائة ألف وأكثر،  
أى بنسبة ١ الى ١٢ من مجموع الذكور البالغين في القطر جميعه . وهذه نسبة تثلل  
على مقدار الحركة والعمل في مضمارى الصناعة والفن .

وكانت الأشغال الهندسية ، في كل ما تستدعى الحرف المذكورة منها، معهودا  
بها في بادئ الأمر الى رجال من الانجائز بمرتبات تتراوح بين ٨ و ٢٥ جنيها  
شهريا . ولكن الحركة التعليمية ما لبثت أن أحلت المصريين، لاسيما المتخرجين  
من مدرسة الفنون والصنائع ببولاق ، محلهم بمرتبات من ٨ الى ١٠ جنيها  
شهريا .

غير أن هذه الصنائع والحرف كلها ، ولو أنها كانت بحركتها الحثيثة ، والنشاط  
الذى أوجبهته ، تجعل مصر شبيهة بخلية نحل ، الكل فيها يشتغل ، لم تكن سوى  
وجه من وجهى الحياة العملية التى دبت في جسم القطر اذ نفخ ( اسماعيل ) فيه من  
روحه .

وأما الوجه الثانى فالأعمال والمنشآت الخصوصية والعمومية ، التى أشغل فيها  
ذلك الأمير المقدم المهم والمجهودات .

فانه ما ارتقى العرش ، إلا ووضع نصب عيده ، لاسيما فيما يختص بهارة الاسكندرية  
ومصر ، الاقتداء بأضطس قيصر الرومانى ، القائل : « وجدت روما مبنية باللبن ،  
فتركها مبنية بالرخام » ، أو بالامبراطور نابليون الثالث ، الذى وطن عزمه على تغيير  
شكل باريس ، من حسن الى أحسن ، وما قى ينغذه حتى صير العاصمة الفرنسية  
عروس مدائن العالم ملوا .

العمارة والعمارات

عمار الاسكندرية أما الاسكندرية، فانها بعد عزها الأقدس في أيام البطالسة والرومان والبيزنطيين أقدمهم، اذ كانت ثانية عواصم المسكونة، وكان عدد سكانها يروى على ستمائة ألف آلت الى الخراب والفساد، شيئا فشيئا على توالى القرون، لتعطل السياسة عنها .

(أولا) مذ اتخذ عمرو مدينة الفسطاط عاصمة له (عملا برغبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب في ألا يكون بينه وبين المسلمين بمصر ماء) ، فالعسكر، فالقطائع ، فالقاهرة، وابتعاد التجارة عن شواطئها .

(ثانيا) منذ أن أنشأ الطولونيون مدينة رشيد ، وبعد أن أبقي الظاهر بيبرس دمياط الحديثة على أقاض دمياط القديمة؛ وما زالت مبانيها تهدم، وأكوام المهدم تكتنف للعمور، وتزاحم على قواعد، وتحصره فيما عرف، لغاية عهد (محمد على) الكبير، بالجزيرة الخضراء؛ وما قى عدد سكانها يتضائل، حتى باتت ضبعة حقيرة، لا يؤبه بها، وبات سكانها لا يزيدون ، إلا قليلا ، على ستة آلاف ، حينما احتلها الفرنسيون في سنة ١٧٩٨

عمل (محمد علي) فلما استخلص (محمد علي) الحكم لنفسه من أيدي الباشاوات المرسلين من لندن الأستانة وأيدي الممالك، ومن مطامع الدول المستعمرة؛ وعن له أن يتخذ الاسكندرية عاصمة لدولته الحديثة، ومقرًا ومرجعا لتجارها؛ وأقبل يعمرها، ويحسنها، ويجهلها، لا سيما بعد أن أوصل مياه الحمودية اليها : فأنشأ حولها الحدائق والبساتين، وأقام، على ضفاف تلك الترحمة، القصور والمنازل الخلوية البديعة؛ ومد ما بين باب رشيد وسرايه النخمة برأس التين، شارطا جميلا مرصوفا بحجر مستخرج من الجبل الأحمر فوق مصر، ومكسوا بمسحوق الجير والبسولانة الصناعية، لتمتج أجزاء ذلك الحجر

معا، وبرز متجانسة لا تنوء فيها؛ وبني الترسانة على يد سيريزى بك مشيد عمارته البحرية، التي خلقت أسطوله المدمر في واقعة نفاقرينو؛ وأنشأ الخوض الحديدى العالم لتصليح سفنه التجارية والحربية، على يد موجيل بك؛ فصنع بفرنسا، وأتى به، جاهزا، الى الاسكندرية، فوضع في المحل المعد له، وكلف ١٢٧ ألف جنيه؛ وأصلح الميناء الجديدة؛ وصرح القريج بالخروج من وكالتهم المدعوة "فندق" التي كانت متاجرم فيها، ويأوون اليها ليلا وتفضل عليهم أبوابها، لئلا يمتريحوا بالأهلين أو يمتريح الأهلون بهم، وأذن لهم بالانتشار في المدينة: فأقبلوا ينشئون لأنفسهم الحى الذى عرف فيما بعد باسمهم؛ وقد اقتدى به ابنه ابراهيم، وأنشأ الميدان المعروف بالمنشية، وشيد حوله المنازل الفخمة التي شرع يجرها بأجور طالية الى قناصل الدول العامة، حتى دعى ذلك الميدان باللغة الأجنبية "ميدان القناصل"؛ وأقم زعماء التجارة، المتعاملون مع (محمد علي) مباشرة، كزيرنيا، وأنسطاسى، ونجياره، وغيرهم، على بناء قصور لهم ومنازل لا يأتى الملوك أنفسهم السكنى فيها؛ حينذاك أخذت الاسكندرية تنمو شيئا فشيئا وتوسع، فتتلاتى أكوام الخراب أمام تقدم خطوات العمار؛ وتتكون الأحياء الجديدة فوق رفات الأحياء الميتة؛ وتختط الشوارع الحديثة فوق خطوط شوارع الاسكندرية، الراقدة تحت تراب القرون؛ اسكندرية البطالسة والرومان؛ حتى أصبحت مدينة مساحتها خمسة أضعاف ما كانت عليه، يوم أن فتحها بونابرت، وجرح كليبر في رأسه وهو يهاجمها من جهة باب رشيد؛ وأصبح عدد سكانها ينيفا وستين ألفا. وما زالت تنمو، بعد ذلك، وتزداد بتدفق حياة القطر وتجارتها كلها اليها، وتزوج الرف العالم للسكنى فيها، وحسب سعيد لها، وتفضيله إياها على العاصمة، مقتديا في ذلك بأبيه الجديد، حتى أصبحت في عهده

عمل (ابراهيم)

مدينة ذات مائة ألف نفس تقريبا تزدهى بالقصور والبساتين والمتنديات العامة، ما تزدهى به المدن القريبة التي هي من درجتها .

ولكن نموها لم يكن منظما ولا مطابقا لروح العصر الحديدي . فانها بقيت قليلة الشوارع الواسعة المسلوكة ؛ كثيرة الأزقة والدروب الضيقة ، المعوجة ، القذرة ؛ كثيرة الحفر والتقر ، في ذات الشوارع المهمة ؛ فبا لك بالحارات والمسالك الصغيرة ؟ لا تنظيم فيها ، ولا اعتناء بنظافة ورش وصيانة ؛ تتكوى الأثرية والأقذار في طرقاتها وسككها التربة ، التي لا بلاط يغطيها ؛ فاذا هبت ريح عليها ، انتشرت ، عثيرا شريرا ضارزا ، في الفضاء ، وأصاب المآزة بأسرها في أعينهم ؛ أو ضربتهم بأوبئة في أحشائهم ؛ واذا سقط مطر ، تحولت الى وحول ، بعيدة النور ، تغرق فيها الأرجل حتى الركب ، والعربات حتى ما فوق نصف العجل ؛ فيبيت المرور منها متعذرا ، وتقطع حركة الأخذ والعطاء ، إلا اذا استخدمت الجمال والمجن لتقل البضائع من الجمر الى الأسواق ، ومن الأسواق الى الجمر ، بأجرباهظة ؛ واذا ماجت الليل ، وانسدلت سدول ظلماته البهيمية ، انباعت الأخطار والأهوال في تلك الشوارع والأزقة والدروب ، لعدم وجود تنوير عام فيها ؛ وانقطع مرور الأقدام منها ، إلا أقدام من لم يخف التعرض لشر اللصوص وقطاع الطرق ، أو اضطرته أشغاله للتغريب بنفسه ؛ وباتت الضواحي ، حتى عند أبواب المدينة عينها ، محط للاثم والاجرام . وبما أن استقاء أغلبية الأهالي ، بالرغم من توصيل مياه النيل اليهم في ترعة المحمودية ، استمر من الصهاريج ، كما كان قديما ؛ أو اذا تحول الى مياه المحمودية ، فلما اعتنى بتطهيرها أو ترويقها ؛ وبما أن الوقايات الصحية لم تكن مألوفة ، وكان ذبح المواشى اللازمة للغذاء ، مثلا ، يتم على قوارع الطرق أو في داخل حوانيت الجزارة ؛ وكان دفن الموتي

يباح في جوار المنازل وداخل المدينة، حتى في المساجد والبيوت، ما فتئت الأوبئة، ولا سيما الطاعون، تهاجم الاسكندرية الجديدة وتفتك بأهلها، بين حين وحين، فتكا ذريعا.

فأقبل (اسماعيل) يغير ذلك جميعه؛ ولو أنه لم يكن يحب مدينة الاسكندرية ولا الإقامة بها، لتطير منها، بعد أن قال له منجم انه سيلقى منته فيها. وإذا بالسائح الذي زار تلك المدينة في أوائل سنة ١٨٦٣، يكاد لا يعرفها لدى عودته اليها في سنة ١٨٦٩؛ ويكاد لا يعرفها، من جديد، لدى عودته اليها مرة أخرى في سنة ١٨٧٨<sup>(١)</sup>

فشوارعها وسعت بالتدرج تومسيحا مستمرا؛ واترعت منها أكوام الأقدار والأثربة؛ وطمرت الحفر والقرب ومهلت تمهيدا حسنا؛ وبلطت بلاطا جميلا أتى به من تريسى، بمصاريف كبيرة؛ وغرس بعضها، على جانبيه، بالأشجار الباسقة؛ فأصبحت حركة التجارة فيها آمنة مطمئنة؛ وحركة النقل والتنقل سهلة تم بمصاريف قليلة من الجمر والكهرباء، وبين أنحاء المدينة قاطبة.

وحاراتها وأزقتها وسعت بالمثل؛ ونظفت؛ وأبعد عنها كل مسببات الأمراض والأوبئة؛ وفصلت أحيائها بعضها عن بعض بقواعد تنظيمية، ماقق<sup>١</sup> مفعولها يزيد، بين أقسام المدينة، فراغا جميلا، أخفى يلا<sup>٢</sup> حدائق وبساتين؛ وأنشئت أحياء جديدة، أهمها حي الهمال، بنى على الأراضي الواقعة بجوار عمود الصواري — وكانت ملكا لسيو براقيه السابق ذكره، فاشتراها (اسماعيل) منه ووهبها للحكومة — وأمر بأن تنفق أجور المساكن التي يدفعها الهمال في سبيل إنشاء مستشفى لهم يتطبلون فيه بجانا. واختطت شوارع جديدة، منها ما هو للزهة المحضة كشارع الحمودية ومسكة

(١) أنظر: "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانق.

توسيع الحارات

إنشاء حدائق  
وأحياء جديدة

إنشاء مشروعات

الزمل — وهما من أجل متزهات القطر، ومجليا، حين تما، حروسي السكك المصرية قاطبة — ومنها ما قضت به الحاجة في الأحياء الجديدة .

الآثار بالغاز

وأثيرت جميع هذه الشوارع والأحياء والضواحي بالأنوار الغازية ، إنارة بديعة ، على مثال المدن الأوروبية الكبرى . فزالت الأخطار والأهوال منها ؛ وولت أقدام الانم مدبرة ؛ وسادت الطمأنينة وانتشر الأمن في كل جهة بعد مغيب غزالة النهار .

إنشاء البلدية

وأنشئت بلدية للاعتناء بأمور التنظيم، والصيانة، والنظافة : فأبطل الذبح داخل البيوت والحوانيت، وجعل له محل خاص، وأبطل دفن الأموات في المدافن الخاصة بجوار المنازل وداخل المساجد؛ وغيّرت طرق الاستقاء، ووزعت المياه على البيوت مرفقة جهد الاستطاعة؛ وأقيمت الوقايات الصحية، على يد الإدارة الصحية المعروفة إذ ذاك باسم "الاتقندانس سانيتير"؛ تخفت وطأة الأمراض والأوبئة، وأخذت تتلاشى جراثيمها شيئا فشيئا .

تجاوزت السور  
وإلى بواب القديمة

وخرج بالعمر خارج الحدود والأبواب القديمة ؛ وسير به شرقا وجنوبا وشمالا، سيرا حثيثا، وقامت القصور في وسط الرياض الفيحاء والنياض الزاهرة، تمتد، حلقة متصلة، على شاطئ البحر، من طابية الرومان الى ميدى جابر، وما فوقها؛ وأجملها كلها وأكبرها حيا القصور التي شادها (اسماعيل) لنفسه ولأبنائه وبناته، ابتغاء تشغيل العمال ومساعدتهم على القيام بشؤون حياتهم . وانفق أن أحد تلك القصور — وهو الذي شاده لنفسه خاصة، وكان أوسع الكل أرجاء — احترق بعد الفراغ من بنائه؛ فأمر بإعادته أحسن مما كان .

ناهيك بالأعمال والأشغال العظمى التي عملت في الميناء واستوقفت إعجاب الكل، مما سبق لنا بيانه .

فزاد ذلك جميعه في مساحة البلد المبينة، حتى أصبحت أربعة أضعاف ما كانت عليه في عهد سعيد؛ وزاد في عدد سكانها حتى أضحى، في أقل من خمسة عشر عاما، نيفا و ٢٤٠ ألفا، منهم ٤٨ ألفا غربيون، بعد أن كانوا ٧ آلاف فقط، عند ممات الباشا العظيم ! ولكي يبرهن أن عصره عصر رقي فكري صحيح، وعهد تقدم حق في مسالك الحضارة، أقام في شهر أغسطس من سنة ١٨٧٤ في ميدان المنشية الذي أنشأه (إبراهيم) أبوه، تمثالا نحاسيا لجدته العظيم، تجل فيه (محمد علي)، فارسا مهيبا، يشرف على الساحة الفسيحة، ويده الثابتة على خاصرته القوية، يدل على أن النصر بات طوع بئانه وأنه نشر مجده في الفضاء الخلف به !

وأما مصر القاهرة<sup>(١)</sup> فانها، بعكس الاسكتندرية، ما فتئت تزداد عمارا واتساعا، منذ أن أنشأها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي، حتى اقتراض دولة الأمراء المماليك، وقيام الأسرة الحمديدية العلوية . ولكنها بالرغم من كل بناء قام فيها، ما فتئت محصورة بين بابي الفتوح والنصر شمالا، والخليج المصري غربا، والجبل وقرافة المماليك وسلاطينهم شرقا، وخرائب القسطنط جنوبا . وكان كل حد من هذه الحدود يمتاز بتلال سوداء من الخرابات والأقذار تعلو عنده حتى يبلغ ارتفاع بعضها من خمسين الى مائة قدم، كالتلال التي لا تزال زراها جنوب مسجد أحمد بن طولون الى يومنا هذا وهي أطلال مدينة القطائع، عاصمة الطولونيين، الواقعة بين قسطنط عمرو وقاهرة المعز . وكان سكان كل حد، ما عدا الحد الغربي، لا يختاون يزيدون تلك الآكام القنطرة ارتفاعا، بما يرمونه عليها، يوما، من أقذار منازلهم .

(١) جميع المحسنيات التي أجريت في القاهرة على أيدي (إبراهيم) و(اسماعيل) أنظر: كتاب لبنان دي بختون المنون، "مذكرات مما تم من الأعمال الهامة بمصر منذ أيام القراعة الى الآن" ص ٩٥ وما يليها .

زيادة عدد السكان

إقامة تمثال (محمد علي)

عمار مصر

وأما الحد الغربي، وهو الخليج، فكأنه كان — أيام الفيضان — مستقى المنازل المقامة على شاطئه، والمتداية منها الأدلاء فيه، كان — أيام التطريق — مصب بحار ير كل تلك المنازل . إلا أنه كان، في وسطه، عند بركة أوجدتها هناك الفيضان، يتكيف تكيفا يقر العين، بما أنشئ فيه من بساتين منذ عهد الأمير أربك، قائد جنود (قايتباي) التي قهرت عثمانى (بايزيد الثاني)، في ربيع سوريا القصبة، حتى عهد الاحتلال الفرنسي، وأطلق على مجموعها اسم الأربكية، إكراما لذلك الأمير .

فكان القادم إلى مصر، من أية جهة يصل إليها، حتى من جهة الغرب — لأن تلال الإقنار كانت تفصل الأربكية عن بولاق — يرتد نظره عند وقوعه على تلك الدمن، ويود لو أن في الاستطاعة أزالتها وملاشاتها، ولكنه لا يلبث أن يسلم بأن ذلك محال، بعد ما يتأمل جسامه الأكوام، ويقدّر المهمة الواجبة للاقدام على ذلك العمل الشاق فوق كل تصور، والذي يعد بجانبه ما قام به هرقل، البطل اليوناني من تنظيف اسطبلات أوجيسس الملك، لعب أطفال، حتى جادت الأيام لمصر (إبراهيم) المهام .

عمل (محمد علي) فيينا (محمد علي) أبوه يكلف برهان بك رئيس إدارة الأشغال العمومية، وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى إلى باريس، بوضع مشروع لتحويل الأربكية ببركتها إلى بستان عام، يشتمل من الحضرة السندسية والظل والماء على ما تشرح له الصدور، وفيينا برهان بك يصعد بالأمر، ويضع مشروعه، ويقدمه إلى الأمير، فيعتمده ويأخذ من وقف الأسرة البكرية الأربعين فدانا المتكونة جهة الأربكية منها، ويعطيهم — بدلا عنها — أطيافا ببلدة بهتم قدرها عشرة أضعاف المأخوذ منهم، فيينا يقدم برهان بك على نفاذ المشروع، ويحول الأربكية إلى المتنزه المرغوب فيه،

عمل (محمد علي)

تحويل الأربكية  
إلى متنزه عام



سنة ١٨٣٧ ، أمر (ابراهيم باشا) المسيو بونفور مهندسه بإزالة الأكوام كلها الواقعة ما بين النيل وبولاق ، ومصر القاهرة ، والنسقاط (مصر العتيقة) ؛ وإنشاء متنزهات خاصة مكانها ، تمتد مدى البصر . ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال . فأقدم المسيو بونفور بهمة على تنفيذ ما أمر به ؛ ولم تمض ثمان سنوات إلا وتمثلنا المهمة ، وتجلت الرياض والفياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة — لاسيما الجيز والليخ — حيث كانت تعلو الأكوام الجارحة للنظر .

ولما عاد (ابراهيم) من حروبه بسوريا ، شغل الأعمال الجارية وأتم بونفور ما كلف به . فزال الأكوام كلها من باب الحديد الى مصر القديمة ، غرب القاهرة بأسرها .

حينذاك أقبل (ابراهيم) على إزالة ما كان منها بحرياً أيضاً ، أى ما بين بابي الفتوح والنصر ، من جهة ؛ والعباسية والظاهر والفتالة الحالية ، حتى باب الحديد ، من الجهة الأخرى . ولم يكن في استطاعة غير المنصور في (تزيين) تجميل تلك العمل التيتاني . فأقبلت الأيدي بتأثير ارادته القوية وهمته الشفاء ، تعمل ، بكثرة واستمرار ، معاول القطع والجرف ، في تلك الدمن المتكسمة ، فتنتزعها وتطرحها في البرك المجاورة — وأخصها بركة الرطل ، وبركة طبالة المستنصر الفاطمي — فتطمها ، حتى نظفت منها الجهة ما بين بابي القاهرة الشماليين والفتالة ؛ وجففت ، في ذات الوقت ، تلك البرك التي كثيراً ما كان الفيضان وعدم الاعتناء يحولانها الى مستنقعات ، تتولد فيها جراثيم الأمراض .

(١) أنظر : بكر مسكو "مصر تحت حكم محمد علي" ص ١٦٣ وما يليها وهو الكتاب المكون أيضاً

"أسفار وحوادث بمصر" .

واذا بالموت دام أباً (اسماعيل) الهام، وقطع شجرة حياته، وهى فى ابان إثمارها فوقف العمل، وفرحت الأوبئة .

تقليات الأربكية

وكان حى الأربكية فى أثناء ذلك قد تنيرت معالمه مرتين : فبرهان بك حاطه، أولاً ، بسد كان من شأنه أن الأرض داخله تقوّل كلها الى بحيرة عظيمة تمخر فيها المراكب، أيام الفيضان ؛ وتمبير، فى باقى السنة، الى حقل، بساطه السندسى من البرسيم العطر، والأشجار المغروسة فيه مظال خضراء كظال الجنان، تنزّد على أويكاتها الطيور ويهدل الحمام. وحفر، خارج ذلك السد، ترعة عرضها عشرون قدماً تجري فى طوله وتصل — بفتحات — بالبحيرة، فتوصل إليها الماء اللازم لرى أرضها أيام جفاف فرشها ؛ وتفصل السد عن الشارع الدائر حول ذلك الحى — وهو شارع كان عرضه مائة قدم تحف به من خارجه البيوت، ومن داخله صفوف من شجر اللبخ الزكى الشذا — فكنت، وأنت مستظل بها، تتمتع نظرك بماء البحيرة وزمرد أوراق الشجر، أو بالساط السندسى السابق ذكره، وتلذذ سمعك بخرير مياه التربة. أما الوجه الحسن فلا تعلمكه الصدف فى ساعات النهار . وقد كان يحيط بحى الأربكية، من جهاته الثلاث، قصور نفخة مشيدة على النسق الشرقى، وقف التاريخ فى بعضها، مفكراً أنى يجرى مجاريه . فنها القصر الذى شاده محمد بك الألفى بعد هدم ثلاثة غيره لم تبق طبقا للوقه . فلما أتم بناءه وجاء وفق مرامه، داهمت الحملة الفرنسية الحكم المملوكى وبقدت شمله شذر منذر . فذهب الألفى بك، بعد كسرة امبابة، يهيم على وجهه خلف مراد بك زعيمه، وحلت قدما بونايرت، رجل الاعتماد، فى ذلك القصر : فكان كأنه بنى له . ومنها القصر الذى اتخذ كليب مقراً لأركان حربه ؛ فوافاه فى البستان المحيط به سليمان الحلبي وقتله — وكان والى

دمشق قد وعد ذلك البائع المتحمس ديليا ، باطلاق سبيل أبيه من السجن الذي كان قد زجه فيه ، اذا هو أقدم على الفتك بقاهر الصدر الأعظم يوسف باشا ، في ساحة وغى هليوبوليس . فبتر سليمان بوعده غير أن أباه لم يفر بالنجاة وخو زق<sup>(١)</sup> ، وجعل (محمد علي) في ذلك القصر حينه ديوان معارفه العمومية ، ولكنه ألحق بستانه — حيث نهبت المأساة المفجعة ، بطالع فرنسا في مصر — بالسراى الفاحرة التي كانت لابنته زهره هانم ، زوجة الافتردار الشهير بقسوته الطبيعية المتناهية ؛ ومنها القصر الذي كان لخمسرو باشا ، علقو (محمد علي) اللدود ، والذي أراد اغتياله ، مرة ، تحت ستار الليل البهيم ، ولم يفلح ؛ والقصر الذي كان (لمحمد علي) حينه ، يوم كان لا يزال يرتقى درجات سلم طالعه الحبيب ، وحمل فيه زعماء جنده على أن يقسموا على حسامه بطاعته طاعة عمياء في كل ما يأمرهم به ، وألا يتخلوا عنه مادام حيا ، كيفما دارت حوادث الزمان ؛ وأما الجهة الرابعة ، فكان يشغلها صف بيوت خشبية عالية مظلمة وغريبة الشكل يملكها ويسكن فيها جماعة من الأقباط .

ثم تبادت الأيام وأساء بعض سكان تلك القصور ، لاسيما القناصل الأجانب ، استعمال التربة ذات العشرة الأمتار عرضا ، وحولوا مجراها — في أيام التعاريف — الى اسطبلات لدوابهم وزرائب لطيورهم ودجاجهم ؛ ثم لم يلبثوا ، لكجلا تضيق منهم هذه المزية ، ان طلبوا ردمها زاعمين أن حيات خبيثة تنبعث منها .

فردمت ، وفقدت الأزيكية بذلك خير جزء من أسباب بهجتها ، فأهملت ؛ وما مضى إلا زمن يسير حتى تحولت الى دمنه ؛ ثم باتت مكانا ترتكب فيه أعمال عريضة ومسكر ، في القهوات والحانات المنتشرة في جنباتها ، وأعمال سرفة وتهتك تحت

(١) أنظر : فكر مسكوك "سياحات وحوادث بمصر" ص ٢١٦ ج ١

ظل أشجارها، حملت أقدام الكرام على هجرها والابتعاد عنها، بعد أن كانت تؤمها  
كوكبات الفرسان الفانرى الملابس للتزهر فيها ، وميامهم فى ركابهم يحملون لهم  
شباكهم .

ومع أن القاهرة واقعة على مقربة من النيل ، فإن الاستقاء كان متعذرا فيها  
لبعد النهر فى الحقيقة عنها ، وعدم صلاحية مياه الخليج للشرب معظم أيام السنة .  
ولم يخف هذا العيب الأساسى فى موقع المدينة العظيمة ، على الخليفة الفاطمى المعز  
لدين الله ، سيد جواهر الصقل بأنها ؛ فيروى أنه قال له ، اذ قدم إليها من المهديّة  
فى المغرب : « لقد بنيتها ، يا جواهر ، فى بقعة لا هى على قمة الجبل ، فتحصن بها ،  
ولا هى على شاطئ النهر فتتفع به ! » ولذلك فكر هو وخلفاؤه من بعده فى تحصينها  
من جهة الصحراء الشرقية ، وفى جلب مياه النيل إليها من الجهة الغربية . فاحضر  
المعز الخندق الذى قاتل القرامطة عنده شرقيا ، ووفق حفيده ، الحاكم بأمر الله ،  
الى احتضار الخليج المصرى ، الذى عرف مدة باسم الخليج الحاكمى ، والذى بات  
يروى عطش القاهرة دهرًا . ولكنه لم يكن واقيا بالغرض ، لاسيما بعد أن تراخت  
المحافظة على نظامه ، فى عهد الحكم العثماني ، وبات مستودع أقنار ومصرفها .  
وطاد الأهالى الى الاستقاء رأسا من النيل على أيدي سقاين .

تعذر الاستقاء  
فى القاهرة بالرغم  
من قربها الى النيل

فوجه (محمد على) اهتمامه بنوع خاص الى هذه المسألة الحيوية ، مسألة تموين  
القاهرة بماء للشرب . وفكر ، فى بادئ الأمر ، فى تعميق فرش الخليج المصرى ذاته ،  
بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطنان الواقعة شمالى العاصمة ، فوق  
انتفاع أهل القاهرة بها لشربهم .

سعى (محمد على)  
لجلب مياه النيل  
الى القاهرة

ولكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك، أهمها أن أساسات جدران معظم المباني القائمة على ضفة ذلك الخليج أقل غورا في الأرض من العمق المنوي إبلاغ قاعه إليه . فلو عمق الخليج لتداعت .

ففكر ، أذا ، في طرق أخرى كإيجاد آلات رافعة عند فم الخليج ، أو إنشاء مصرف جامع في وسطه ، أو احتفار ترعة يكون فيها على بعد كاف ، فوق القاهرة ، بحيث أن مياهها ، إذا انصبحت في الخليج ، كفته ماء طول السنة ، وفكر في تسيير تلك التربة بين أكوام الفساطط ، أو من وراء القلعة ، والنحاب بمصبها في الخليج إلى شمال مصر .

ولكن المصاعب التي قامت دون تحقيق كل ذلك أدت إلى الإحجام عن المشروع بشأنا .

عمل  
( عباس الأول )  
في السبيل حبه

فلما شاد (عباس الأول) قصره المشهور في الصحراء الشمالية فوق الظاهر — قسمت تلك الصحراء العباسية ، باسمه — فكر ، هو أيضا ، في توزيع المياه على القاهرة ، وتسيير فرع كبير منها إلى ذلك القصر ، وكلف بالعمل لبتان بك ، ثم ضم إليه لاميير بك والمسيو بوديسو . فوضعوا المشروع وأفاضوا في تفصيلاته ، وقدروا نفقات تنفيذه بمبلغ ٣٦٦٩٣٣٤ فرنكا ، وبدعوا يسؤون الأرض ، ويخطون تصميات الشوارع التي عزموا على تسيير مواسير المياه تحتها . ولكن العمل لم يخط إلى الأمام خطوة ، ووقف حينئذ ابتداء .

عمل ( سعيد )  
في السبيل حبه

فأراد (سعيد) أن يبدى هو أيضا اهتماما فيه . فأجاز ، على فم ساباثيه ، الانفصل الفرنسي العام ، لفرنساوى يقال له المسيو كروبيه ، بوضع مشروع جديد للغاية عينا

غير الذى سبق لباس باشا المصادقة عليه . فأسس كردهيه هذا شركة لذلك الغرض  
وباشر الأعمال التمهيلية تمام المشروع . ولكن الاهتمام لم يتعد هذا الحد ، لأن  
صعوبة التنفيذ كانت جسيمة .

ولا يخفى أن تملز وجود الماء يوجب تراكم القنطرة ، حتما ، وطعم التكن من  
رش الأحياء إلا نادرا ، وأمام منازل الموسرين ، فقط على أيدي الرجال المعروفين  
بالسقاين .

فشوارع القاهرة — القاهرة عهد المالك وعهدى الفرنساويين و ( محمد على ) وقد  
كانت ضيقة ضيقا جعل سير العربات فيها أمرا مجهولا إلى اليوم الذى قدمت فيه  
لابراهيم بك الكبير عربية من فرنسا على سبيل الهدية ( ومع ذلك فإن القوم هناك  
لم يروا ، بل ربما قليل ، الجنرال بونابرت يتجول فى أحياء مصر وبولاق بعربة تجرها  
سنة جياد استغروا الأمر جلا ودعشوا له ) — وكانت معوجة ، قليلة التمهيد ، تزدحم  
الأخطار فيها بسبب ازدحام الأقدام فى مضائقها — كانت ، اذا ، تربة كثيرة الغبار ،  
وتتجم عن انعقاد ذلك الغبار ، الكثير المكروبات ، فى الهواء ، نفس المضار الناجمة  
عن انعقاد نظيره فى الاسكندرية . وبما أن ما كان يجرى فى الثغر من أمور مخالفة  
للقواعد الصحية ومسببة للأوبئة وداعية لانتشارها ، كان يجرى بكيفية أوسع ، وعلى  
قياس أكبر فى مصر القاهرة ، لزيادة اتساع هذه عن ذلك ، وبعدها عن البحر الملح  
أى عن أعظم مصادر الهواء النقي ، كان انتشار الأمراض والحميات الخبيثة والأوبئة  
سهلا فيها ، وفكها بالأهالى ذريعا . وقد ترقب بعضهم حركتها ، فأتضع له أن الطاعون  
على الأخص ، كان يماود العاصمين كل عشر سنوات ، ويحتاج عددا عظيما من  
سكانها .

وصف شوارع  
القاهرة فى أواخر  
القرن الثامن عشر  
وأوائل القرن  
التاسع عشر

عمل اسماعيل  
في تحسين القاهرة

فلما وطن (اسماعيل) عزمه على الاقتداء بأعظم قيصرونا بطون الثالث، وأقبل على تنفيذ ذلك العزم بهمة المعتادة التي لم تعرف الملل ولا الكلل، يزيد بها نشاطا، ما كان يعتقد من صحة في قول أحد أولياء الله في عهد جدّه، وهو «إن هذه الأسرة الحمديدية العلوية، ما دامت مقبلة على التشييد والبناء كان الملك والعزم مضمونين لها، فإذا أفلتت عنهما أو توافت فيهما، تلاشت أو اضمحلت» رعى إلى إصابة غرضين: (الأول) إدخال ما يمكن إدخاله من الإصلاحين الاجتماعى والصيحى على قاهرة المعز لدين الله، مع إبقائها على ما هى عليه من ذاتية تجعل العصور الوسطى، بفروسياتها، ونقوشها الخشنة الخالصة واتجاه الصناعة والفن فيها نحو ما يلعب بالتصوير، مع استمرار الذوق لذته الحقيقية : وتجعل موصوفات روايات ألف ليلة وليلة، أيضا حاضرة أمام الخيلة، كأن الأجيال لم تمر وتوال، وكأن تلك العصور لا تزال حية حاضرة؛ و(الثانى) إنشاء قاهرة أخرى غريبها يدعوها العصران، الحاضر والمستقبل "قاهرة اسماعيل" وتمتص دون الأولى، بإعجاب القلوب، وتلذذ الأعين، بشوارعها الفسيحة، الظليلة، ذات الأرصفة الآمنة؛ وميادينها الواسعة، الجميلة ذات الفسقيات الزاهرة؛ وقصورها الفخمة، النبيلة، المقامة على أحدث طراز عصرى؛ وبساتينها الزاهية، المتنوعة فيها النباتات الغريبة، وملاعبها الفاخرة، المتلألئة بالألوان ليلا؛ وأحيائها الطليقة الصبيلة، القائمة الصحة على حراستها، ببل الأبواب القديمة .

إزالة أكوام  
القاذورات

فأقبل، أولا، يزيل ما بقى شمالى قاهرة المعز من أكوام قذرة؛ ويطهر ما لم يزل غير مطهر من مستنقعات وبرك تبعث كريه الروائح؛ وينظف ما بين بابى الفتوح والنصر، وقلمة الكهش، والسيدة زينب، من شوارع وأزقة ودروب وأسواق، بتعميم الكنس والرش فيها، ومنع ثورة النبار وكل مخالف للقواعد الصحية ثم اختط

تعميم الكنس  
والرش

المصطلح  
شوارع جديدة

ما بين الظاهر و باب الحديد، الشارع المدعو الآن بشارع الفجالة ؛ واختط ، ما بين باب الحديد، والأزبكية، الشارع الذي أطلق عليه اسم كلوت بك ؛ لا لتكريم الطبيب الفرنسي على الحمة، بل لثقتى مدرستى أبى زعل والقصر العيني الطبيهتين، والذي يعد بحق أبا الطب الحديث بمصر فحسب، ولكن للدلالة، بنوع أخص، على أن الإصلاح الصحى سيسير من شمال المدينة الى جنوبها ؛ ويتناول، بذراعيه، شرقها وغربها . ثم اختط جنوب الأزبكية بشرق، الى القلعة، الشارع الفخم الذى أطلق عليه اسم جده العظيم، اشعارا بأن القلعة، وإن بناها صلاح الدين، قائما أصبحت تعرف بمحمد على . لأن دولته قامت فيها، وشمس حياته توارت فى المقام المشيد على جبينها . فأصبح السبيل الى ذلك الحصن سهلا آمينا، بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق، التى يتبعها المحمل سنويا، منه الى الحسنية، وعرا كثير التعرجات، والمنعطفات، والمضائق .

ولما عاد سنة ١٨٦٧ من زيارته لمعرض باريس، وقد أخذت بلبه التحسينات الجارية فى العاصمة الفرنسية على طريقة هوسمن الشهير، أقدم على الأزبكية ؛ فقلبا رأسا على عقب ؛ وطلب من بستاني فرنساوى ، أن يعملها له على شاكلة حلقات تلك العاصمة فكيفها ذلك البستاني تكييفها بديما . وتصرف فى التربة التى كانت دائرة حولها والبحيرة التى كانت داخل السد الذى بناه (محمد على) تصرفا جميلا ؛ وإذا بما كان جبرى لمياه راكدة ، وصفوف أشجار لا نظام لها ، وبحيرة أقرب الى المستنقع منها الى بساط يقر العين النظر اليه، قد تحول الى بستان على مثال البرك ملسو بباريس ونخرج الى الوجود، نزهة من أنزه المتنزهات ، ومكانا بديما يخلب الأبواب ، تنيره الأنوار الغازية، وترينه الفسقيات النائرة الماء فى الأعلى، تؤلوا ساطعا، والمفائر

تحويل الأزبكية  
الى ماهى عليه الآن



الصناعية، المنحدر منها الماء بخير تلة به الأسماك، الى بحيرة صافية، تجري الأسماك فيها ملونة .

وأقبل على الحى المحيط به، فجعل يتترع ملكية منازل الخشبية التي كانت للأقباط مقابل تعويضات يدفعها اليهم، ويزيل تلك المساكن الضيقة، ويهب الأرض التي كانت قائمة عليها هبة الى من شاء التمهيد باقامة مباني فخمة عليها، تنفق مع عظمة القاهرة الجديدة المراد انشاؤها .

فكان أكبر أولئك المتحمدين شافا، وأكثرهم مالا وإقلاما، البوق أوف سيوف ولاند فإنه ما فتئ يقيم، في حى الأزبكية هذا، القصور والفنادق، ويمتل، ويكيف الموجود منها فيه حتى بلغ به الى ما نراه الآن عليه، من العظمة والرويق والجمال .

فاتخذ (اسماعيل) محورا لعظمته، وبعد أن أوصله بالموسكى شرقا، تحوّل الى غربيه، فأزال ما كان يعرف بباب الجنة — وهو باب كان قائما على مدخل ذلك الحى، في منتهى الطريق الواصلة ما بينه وبين بولاق — واختط الى جنوبه بميل نحو الغرب الأحياء البديعة المعروفة الآن بأحياء التوفيقية وما بين والاسماعيلية؛ بعد أن أقام، في طرف الأزبكية الجنوبي، المسرحين الفخمين المضارمين في الجمال، والجلال والأبهة، مسارج أوروبا وهما المسرح الجديد والأوبرا . وأنشأ، أمام هذه، الميدان الفسيح الأرجاء المنظم الزوايا، المزرى بميدان قندم ذاته الشهير في باريس : وفي هذا الميدان الآن تمثال لأبيه البطل الهام، تجلى (ابراهيم) فيه، فارسا صنديدا، يتطاير البرق من عيبيه، وقائما بصيرا، تكسوه المهابة ويظلاله الجلال، كما تجلى، حقا، لسكره المصرى المعجب به، وللمسكر العثماني المأخوذ رجا منه، يومى فنية وزيب . وقد كان هذا التمثال في عهد (اسماعيل) بميدان العتبة الخضراء أنزله العرابيون

أيام الحوادث المرابية ثم بعد أن سكنت تلك الفتنة نصب في ميدان الأوبرا حيث هو الآن .

ثم اختط ، في تلك الأحياء ، الشوارع العريضة ، الظليلة ، الواصلة بين جهاتها المختلفة ، الشوارع ، التي ، بالرغم من كل ما حدث بعدها ، لا تزال من أغر مسالك القاهرة ، وأكبر شرايين مواصلاتها . وأهمها : شارع عبد العزيز ، والشارع الذي أقام نوبار باشا فيه قصره الفخم فسمى باسمه ، شمالا ؛ وشارع كوبري قصر النيل ، وشارع سراي الاسماعيلية ، غربا ؛ وغيرها وغيرها مما امتازت به القاهرة الاسماعيلية . أما جنوبا ، فإن كل ما اختط من سكك فقد انتهى الى رجة فسيحة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، تركت بين الشوارع والأحياء الجديدة ، وبين الدروب والأزقة ، الموصلة من عابدين الى السيدة زينب ، لتمتد أمام السراي المنشأة بعابدين ، مقرا للوك ، بدل سراي القلعة ؛ كما تمتد ساحة الكونكرت ، في باريس أمام قصر التوبري الامبراطوري !

اختطاط شوارع  
جديدة أخرى

الآنكم أبداع الفن والتسويق في سراي عابدين هذه ، وفي تزيينها بالرياش والأثاث الفاخر ! وكم أضيق من مال في سبيل ذلك ، وفي سبيل جعل الحديقة الداخلية ، في تلك السراي ، قطعة من جنان الفردوس !

إنشاء سراي عابدين

وأما غربا ، فإنه لما بلغ العمار النيل — وكان العمل من جهة أخرى ، قائما على قدم وساق لإنشاء سراي الجزيرة الفنية — لم يجد يحسن إبقاء العبور ، من شاطئ الى شاطئ ، على كوبري من المراكب المصفوفة بعضها بجانب بعض ، والمحدودة عليها ألواح الخشب ، أو في معذيات بسيطة ؛ وبات من المهم إقامة كوبري يتناسب

إنشاء كوبرى  
قصر النيل

في نظامه وجماله مع أبهة الأحياء المجاورة له . فهد ( اسماعيل ) الى شركة فرنساوية  
أمر بإنشائه . فأنجزته في سنة ١٨٧٢ وبلغت تكلفاته مائة ألف وثمانية آلاف  
من الجنيهات .

إنشاء كوبرى  
الأنجليز

وبينا هو يقام ، شعر ( اسماعيل ) بالحاجة الى ربط الجزيرة ببر الجزيرة أيضا ،  
فكلف محلا انجليزيا بإنشاء كوبرى ، يصل بينهما . فأنجز في السنة عينها ، وبلغت  
تكاليفه نيفا وأربعين ألف جنيه . .

إنشاء القصور  
المدنية

وفى أثناء السير في هذه المنشآت العظيمة ، وبينما القصور الباذخة تمام في كل  
جهة يصلح أن يقام فيها قصر ، ويبلغ عددها عشرات العشرات ، أهمها : قصر الجزيرة  
بستانه الساحر ، وقصر الترحة على سكة شبرا ، وقصر حلوان ، وقصر القبة ، وقصر  
الاسماعيلية ، وقصر الزعفران ؛ بينما قصور أخرى قديمة تجدد تجديدًا لا يعيد اليها  
بجدتها فقط ، بل يزيد بها رونقا وبهجة : كالقصر العالى ، وقصر المسافر خانة ، وقصر

والمساجد

النيل ، وصرى القلعة ؛ بينما المساجد ، لاسيما مسجد الرفاعى ، والمدارس توضع  
قواعدها الجرائنية ، وتنشأ في كل جهة من جهات المدينة العظيمة — منها ما يشيده

العتاد الكبراء  
بالهندويى

( اسماعيل ) ، ومنها ما يشيده البر ، وبينما وزراء مصر ووجهائها وأعاظم سرائرها ،  
كشريف ونوبار ، واسماعيل صديق ، وعلى شريف ، وغيرهم ، كطلعت ورياض ،  
يقتصدون بالأمير ويقبضون في الأحياء المنشأة حديثا أو في الأحياء العتيقة ؛ المزدانة  
بقصور الخاليك القدماء ، كفى الدرب الأحمر ، وحنى الحلبية القديمة ، وغيرهما ، المنازل  
الفانرة ، والبيوت العاصرة ، ذات الرياض والبساتين الناحلية — كان العمل قائما  
على قدم وساق ، وبكيفية لا تدرى ما هو الملل أو الكلال ، لإنجاز ما لم يتمكن العزائم  
السابقة من إنجازها ؛ وأغنى به توزيع المياه على أحياء القاهرة توزيعا منتظا مستمرا .

توزيع الماء على  
أحياء مصر القاهرة

لغنت هم الشركات، وحملت الجهود على المباراة؛ ولم يمض زمن إلا وأقيمت المباني اللازمة لرفع المياه وتخزينها؛ ومثلت المواسير تحت الشوارع وفي الحارات والدروب، وسير ماء النيل مقطرا من خزائنه إليها، فسرّب منها إلى الحشيات في البيوت . وحلت مشكلة قديمة العهد، بفضل إرادة (اسماعيل) الحديدية .

ولمّا بات الماء ميسورا غزيرا ، توسع القوم في وسائل النظافة والصيانة ، وطلق طل الرش على الشوارع في الصباح والعصر بانتظام ؛ وأخذت المنازل، حتى الحقيرة منها، تغسل مرارا في الأسبوع وبغزارة : قفلت الأمراض، وتحسنت الصحة العمومية .

محسن النظافة  
والصيانة

وكان العمل قائما، كذلك، على قدم وساق، بالكيف عينها، وفي عموم الأحياء، قديمها وجديدها، لتعميم الإنارة بالغاز . فكانت مواسير السائل المير توضع بجانب مواسير الماء المحيي ؛ حتى إذا تمت الأحياء البديعة ، وشيدت القصور الرفيعة ، وغرست البساتين الجميلة ، وتجلت الشوارع الفسيحة ، ناصعة النظافة ، ظليلة الجانين، تدفقت إليها في وقت معا المياه، وسطعت فيها الأنوار : فتجلت المدينة، كلها، المعتادة الظلام ليلا، منذ نشأتها—وقد تكيف قديمها، وبرز جديدها يرفل في حله البهية—عروس الشرق قاطبة وقيمة حواصمه .

إنارة أحياء مصر  
وشوارعها بالغاز

وبلغت نفقات هذه المباني والمفشات، والتحصينات، وتوزيع المياه والنور على العاصميين، وفي السويس بعدهما، ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه .

فاذا تمثلنا مقدار ما اقتضته كل هذه الأعمال المختلفة من حركة تجارية متنوعة، وأضفنا إلى ذلك جميعه ما نجم ، في سنى ملك (اسماعيل) الأخيرة ، من مضاعفته

للك الحركة حينها ، عن انضمام بوانرا الأسطول المصرى الى سفن الشركة العزيرية في أعمالها ، وتكوينها معها ما عرف فيما بعد باسم "الوابورات الخديوية" ، لم تستغرب اطراد الزيادة في الواردات والصادرات على العموم ، ولا سيما في عامى ١٨٧٢ و ١٨٧٣ وهما الستتان اللتان بلغ العمل فيهما أقصاه ، وبالجهود ذاتها ، كما يتضح ذلك من الجدول الآتى <sup>(١)</sup> :

سنة	جنيه	سنة	جنيه
حركة الواردات			
١٨٦٦	٤٦٦٢٣١٠	١٨٧١	٤٥١٢١٤٣
١٨٦٧	٤٣٩٩٠٩٧	١٨٧٢	٥٥٠٥٩٩٥
١٨٦٨	٣٥٨٢٩٦٩	١٨٧٣	٦١٢٧٥٦٤
١٨٦٩	٤٠٢١٦٠١	١٨٧٤	٥٣٢٢٤٠٠
١٨٧٠	٤٥١٢٩٦٩	١٨٧٥	٥٦٩٤٨٢٠
حركة الصادرات			
١٨٦٦	٩٧٢٣٥٦٤	١٨٧١	١٠١٩٢٠٢١
١٨٦٧	٨٦٢٣٩٧٤	١٨٧٢	١٣٣١٧٨٢٥
١٨٦٨	٨٠٩٤٩٧٤	١٨٧٣	١٤٢٠٨٨٨٢
١٨٦٩	٩٠٨٩٨٦٦	١٨٧٤	١٤٨٠١٤٤٨
١٨٧٠	٨٦٨٠٠٧٢	١٨٧٥	١٢٧٣٠١٩٥

(١) أنظر ملك كوند : "مصر كما هي" من ١٧١ و ١٧٢

وأدركنا صدق قول السير بارتل فرير في محاضرة ألقاها في «الادنبرج فيلوز فيكل انستيتوش» وهو : « إن التجارة والسكك الحديدية عملت بمصر عملها في كل قطر أوروبى تقريباً »؛ وأدركنا كذلك صدق قول القنصل المؤلف الأمريكى أدون دى ليون القائل في سنة ١٨٧٥ : « الحقيقة هي أن التصليحات والتحسينات والأشغال العمومية التى شرع فيها وأنجزت في الاثنى عشرة سنة الأخيرة ، في القطر المصرى ، كانت مذهشة عجيبة لا مثيل لها في أى قطر مساحته أربعة أضعاف مساحة القطر المصرى ؛ ومكانه أربعة أضعاف مكانه<sup>(١)</sup> .

وإذا عرفنا أن ثمن مجموع الواردات ، ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على من مجموعها ، ما بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، خمسة عشر مليوناً وستمائة ألف جنيه ؛ وأن ثمن مجموع الصادرات ، ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على ثمن مثيله ، ما بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، واحداً وستين مليوناً وستمائة وواحداً وثلاثين ألفاً وخمسمائة وستة من الجنيهات ؛ أدركنا بسهولة مقدار اثره الضخمة التى دخلت القطر وزيادة على الثروة الهائلة التى أصابها أهله في الاثنى عشرة سنة الأولى من ملك (إسماعيل<sup>(٢)</sup>) وكبرت حركة القطر الزراعية التجارية العملية في حيوتنا ؛ وبتنا أقرب الى النظر ، بلا تحيز ، الى ما يهول به من جسامه الضرائب وفداحة الديون .

هذا إذا صح الاعتماد على صدق الأرقام المبينة أعلاه . ولكن المعلوم أنها دون الحقيقة بكثير . وذلك لأن مصلحة الجمارك لم يدخلها الإصلاح ، بمعانيه كلها ، إلا في سنة ١٨٧٧

(١) أنظر : « مصر الحديثى » لادون دى ليون ص ٣٦٣

(٢) وقد قدر البارون أن ثمن مجموع المحصول الزراعى في تلك الأيام كان ٤٠ مليوناً و٢٨٢ ألفاً و٣٣٢ جنياً سنوياً ، فضلاً عن مبلغ ٦ ملايين و ٥٤ ألفاً و ٧٨٣ جنياً ثمن خيل ومواشى وطيور وبيض وزبدة وجبن وصل وطلع وسمك ، وجوز وخبث الخ . فيكون المجموع سنوياً : ١١٥٠٢٣١٥٠ جنياً .

الجمارك والضرائب  
على بعض المهن  
كانت تعطى التزاما

فإنها كانت، في أيام (محمد علي) التزاما يمتنع، مقابل جعل سنوى معلوم، إلى أفراد يستغلونه لحسابهم الخاص، أسوة بآبواب إيراد أخرى كانت حكومة (محمد علي) تعطيها التزاما لمن يرسو عليه آخر عطاء.

وكانت الجمارك نوعين: جمارك الثغور والحدود والجمارك الداخلية. فكانت الرسوم في جمارك الثغور تؤخذ على الواردات والصادرات؛ وتؤخذ في جمارك الحدود على الواردات فقط سواء أكانت من السودان أم من الغرب والشرق. وأما الجمارك الداخلية فكانت رسوما تدفع على البضائع لدى ادخالها في أي بلد من بلاد القطر الهامة. وكان يقال لها في مصر وطنطا وغيرها "دخوليات" وفي أسوان وإسنا وباقي الصعيد حتى أسيوط "جمارك". والاختلاف في التسمية نتيجة الاختلاف في الواردات. فمن أسوان لغاية أسيوط كانت تتقاضى، على الأخص، من الجلاليين، على الرقيق المجلوب؛ وأما فيما عداها من المدن فكانت تؤخذ على البضائع، ولا سيما مواد الطعام، كالخضر والفواكه والأسمان والحرير.

الفاء (سعيد) عموم  
الجمارك الداخلية  
والدخوليات

وقد رأينا أن محمد سعيد باشا ألغى جميع الجمارك الداخلية والدخوليات، كما أنه أبطل أن تكون جمارك الحدود والثغور التزامات وأنه جعلها مصلحة أميرية مستقلة.

خلل مصلحة  
الجمارك

غير أنها لم تنتظم: (أولا) لأن وظائفها كانت تباع بيما كما كانت تباع مناصب القضاء في فرنسا قبل الثورة العظمى فيها سنة ١٧٨٩؛ (ثانيا) لأن المرتبات كانت قليلة، وغير وافية بالحاجة، فتلزم متقاضياها بالركون إلى "البقشيش" والرشوة ليعيشوا فكانوا يأخذون جنيا، مثلا، على صندوق البضائع الحرة، الملتزم بدفع رسوم قدرها ثلاثة وعشرون جنيا وثمانية عشر شلن للحكومة، ويسمحون له بالخروج من الجمر،

أو يعتبرون البضائع الحربية بضائع قطنية ، ويتقاضون عليها الرسوم المفروضة على البضائع القطنية ، أو كانوا ، أيضا ، لا يراعون حقوق الأولوية : فيمكنون من يزيد بقشيشه من التجار على بقشيش سواه من تخلص بضائعه والخروج بها قبل غيره ، ولو كان آخر القادمين ، غير تجنيس أثمانها الحقيقية ساعة التثمين ؛ و(ثالثا) وأخيرا لأن التهريب كان كثيرا ومنظما ، ومعظم المهزيين يونانيون في منتهى الجسارة ، ونظام الامتيازات يجههم ، فيمكنهم من الاستهزاء بالحكومة المصرية وعمالها . ولا أدل على ذلك مما رواه موريس بك ، أحد كبار رجال الداخلية ، للستر بتلر ، مرقي ولدى الخديو محمد توفيق في سنة ١٨٨٠ ومفاد الرواية أن رجال خفر السواحل ضبطوا ذات يوم كمية كبيرة من تنج وتباك كان بعض المهزيين اليونانيين يحاولون تهريبها . فلما نبي خبر الضبط الى القنصل اليوناني — وكان يشاطر المهزيين أرباحهم — جمع في الحال خمسمائة «جريكى» من حرافيش القوم وزطافهم وأوباشهم ، علاوة على جماعة المهزيين أنفسهم ، وهاجم ، بجمهورهم النفير ، خفراء السواحل ، في عقر مقرهم ، ليستخلص منهم المضبوط . فدارت بين الطرفين معركة فظيعة ، عض القنصل فيها بأسنانه ذراع أحد المساكر عض كلب ، رأى موريس بك أثره بعدئذ ، في ذراع الرجل ، وصرف أن القنصل هو العاض ، لأن سنا من أسنان هذا الموظف الأمثل الأمامية كانت نافصة في فكه ، وظهر أثر نقصها في دائرة المضمة . فلما رفع الأمر الى الحكومة ، أتدري أيها القارئ اللبيب ، ماذا كانت نتيجة الشكوى ؟ أن السياسة تتداخلت في الأمر : فعوقب خفراء السواحل ولم يصب المهزيين أذى <sup>(١)</sup> .

حكاية غريبة

(١) أنظر بتلر : «حياة البلاط بمصر» ص ١٣٨ و ١٣٩



اصلاح ادارة  
الجمارك في عهد  
(اسماعيل)

فعهد (اسماعيل) الى موظف انجليزى فى جمرك لندن، يقال له المستر مكريشور، بتنظيم مصلحة الجمارك المصرية وترتيبها . وكان الرجل خيرا فى العمل ، لاشغاله زمنا طويلا فيه، ونقله عدة مناصب ادارية جمركية فى البرتغال والبرازيل .

فادخل إصلاحات جملة على المصلحة المعهودة أمورها اليه، لا سيما على حساباتها، التى وصفها لى كبير من موظفى الحكومة المحالين على الماشى ممن كانوا فى الجمرك فى ذلك العهد البعيد . فلم يجد تميرا عن حالتها أظهر لخلل السائد فيها من قوله لى : « إنها كانت بطن حمار » .

ولكن خلا كبيرا استمر ، بالرغم من مساعى المستر مكريشور ومجهوداته، منتشرا فى عدة أفرع من مصلحة الجمارك ؛ ولم يعمها الاصلاح تماما إلا فى عصرنا هذا وعلى أيدي حكومتنا الحالية بفضل مجهودات مديرها كليار باشا وشقيق بك والمستركنج لويس خليفتها .

فلو كان نظامها الحالى نظامها سنة ١٨٧٥ ، لأمكن لنا أن نقف، تماما، على حقيقة الثروة التى دخلت القطر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، ولتجل لنا أن مقدارها ضعفا ما أثبتته الاحصائية الجمركية فى تلك الأيام، مذ أوجب انشاء وزارة تجارة مستقلة سنة ١٨٧٦

## الفصل الرابع<sup>(١)</sup>

### إحياء مالية القطر

«المال! المال! فكل شئ بدون المال — على ما يقال — جدوب»  
«بولو»

ان عنوان هذا الفصل وحده ، متى وقع عليه نظر بعض القراء ، قد يجعلهم يتسمون ابتسامة الازدراء ، ويقفونها بسؤال يترج فيه الاستغراب والاستنكار معا امتزاجا تاما ، كالسؤال الآتى : «أو كيف؟» (اسماعيل) ، الذى أثقل مالية القطر بالدين الباهظ ، الذى لا يزال القطريين تحت فداحة ثقله ، (اسماعيل) أحيا مالية مصر؟ انك يا هذا تمزح! «ولك لا تمزح مطلقا ، بل نقول ، ونحن نزن الكلام فى ميزان التعقل الثام : نعم ان (اسماعيل) أحيا مالية القطر . واليك الدليل بل الأدلة . مات (سعيد) ، وعلى الخزينة المصرية — غير القرض الذى عقده وقدره مليونان وسبعائة وخمسة وخمسون ألفا وخمسمائة جنيه انجليزى — دين سائر يربو على عشرة ملايين جنيه ، لا يبرره أعمال عمومية نافعة مطلقا ، وانما أوجبه :

(أولا) أن سعيدا كان لا يعرف للتقود قيمة . يدل على ذلك أن المسيو براهيم ، صديقه الحميم ، الذى سبق لنا الكلام عنه ، شكاه ، يوما ، أن تقدير ثمن أحد الأشغال ، التى كلف بصلها ، بليرات ايطالية ، بحرف بمقوقة إجحافا كبيرا . فقال له

(١) أم مصادر هذا الفصل هى : «مصر» لمخوف ، و«مصر المعاصرة» لبول مريشو ، و«تاريخ مصر المال» لمجهول ، و«مصر تحت حكم اسماعيل» لمالك كون ، و«مصر تحت حكم محمد علي» لماسون .

حالة المالية  
الصعبة لدى  
وفاة (سعيد)

(سعيد) : « دعهم يقدروه ، أذا ، بليات انجليزية ! » غير مبال بأن الليرة الانجليزية تساوى الليرة العثمانية نحسا وعشرين مرة <sup>(١)</sup> .

(ثانيا) أنه كان متلافا ، لا يعرف تبذيره حثا يقف عنده ، حتى لقد أنفق مرة على زخرفة حجرة في أحد قصوره نيفا وسبعة ملايين من الفرنكات <sup>(١)</sup> ، وكان معطاء للهوى ، لا يعرف مخطؤه أن يميز بين من يصح أن يكون موضع إنعام ، ومن لا يصح ، حتى لقد أهداه ، مرة ، مالى أجنبي من المقيمين بالاسكندرية سل فاكهة ، ثم طلب منه نفقة بخمسة عشر ألف جنيه ، ففعل .

(ثالثا) أن المتهدين بتوريد ما تحتاج اليه حكومته أو ما يحتاج اليه هو ، لا سيما الأجانب منهم ، لهمهم بقلة تقديره للثمود ، كانوا لا ينفكون بفشونه ويسرقونه ، وهو لا يبالي بأعمالهم ، إما تعاليا ، وإما لعدم اهتمام منه بهم .

(رابعا) أن مطالبات الغربيين على السنة فواصلهم بتعويضات عن أضرار وهمية ، يزعمون أنهم أصيبوا بها ، في اتفاقات أبرموها مع الحكومة المصرية ، كثرت حثا في عهده وبلغت ، في خروجها عن طور المعقول ، حثا جاوز كل احتمال ، وضافت ، دونه ، رجة تسامح (سعيد) على سعتها : لأنه بات لا يعمل ، أولا يهمل عملا ، تعاقد عليه مع إنجليزي ، إلا وتكون نتيجة مطالبته ذلك الإنجليزي إياه بتعويض . وأى تعويض ! يكاد يتضائل بجانبه مبلغ السنة والخمسين ألف جنيه استرليني ، الذى تقاضاه من عباس الأول ، المهندس الإنجليزي مخطط سكة الحديدية من اسكندرية الى مصر ، أجرة على تخطيطه ، ومبلغ الستة عشر ألف جنيه الذى طالب به لتعديل ذلك السير ، بعد أن اتضح تعذر تنفيذ كذا خطه — على أنه لم ينل منه

(١) مالورق : "مصر" ص ٦٩ حاشية رقم ٣٠٧

سوى ستة آلاف، عملاً بما حكم به المستربروس القنصل البريطاني العام، المحكم  
في الموضوع<sup>(١)</sup> !

نكتان لسعيد

وقد أشار (سعيد) ذات اليوم، بنكتة لطيفة، الى ما كانت تفص به نفسه من تلك  
المطالبات الجائرة الحقاء . فانه كان يستقبل أحد قناصل الدول الكبرى، في سلامك  
رأس النين، في قاعة تطل شبايكها الواسعة على البحر، وكان الزمن صيفاً، وتلك  
الشبايك مفتوحة، ونسيم البحر العليل يدخل منها، كأنه نسمة من الجنان . بفلس  
القنصل مكشوف الرأس، بجانب (سعيد) أمام تلك الشبايك، وما لبث أن  
عطس؛ فأمرع (سعيد) وقال له باهتمام، وهو يتيمم : «هضبل يا جناب القنصل،  
هضبل والبس قبعتك ! فقد يصيبك زكام، وأنت عندي قهـب دولتك الى مطابق  
بتعويض<sup>(٢)</sup>» .

وكان سعيد يقول في هذا الصدد : «لاني لأخشى أن ينظر جوادى شذرا  
في طرفات الاسكتندرية الى افرنجي، فيهبّ ويطلبني بتعويض<sup>(٣)</sup> !» .

وتذكرنا هاتان النكتتان بما كان عليه (سعيد) من خفة الروح وظريف الملح،  
بسبب تربيته الفرنسية، ومنهته الفرنسية البحت . فقد ذهب الى زيارة لندن مرة،  
أيام إقامة أول معرض فيها . فلما بطلقها لم ينفك مغيماً، ما طرا، طوال مدة إقامته  
هناك . فبينما هو، ذات يوم، يتفقد إحدى حمر ذلك المعرض، رأى شعاع شمس  
نافذا من السقف الزجاجي الى الداخل، ومنتشراً فوق مكان من المعروضات، كأنه

(١) أنظر : "مصر المعاصرة" لـ بول مريو، ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) أنظر : "نوبار باشا" لـ بتران، ص ١٠ .

(٣) أنظر : "نوبار باشا" لـ بتران، ص ١١ .

وضع فيه خصيصا . فالتفت (سعيد) الى ذى القنار باشا ، مراقب عموم ماليته ، ونديم سفره ، وقال له باسم : « ألا ترى ما أندر الشمس هنا ! فقد بلغ من قدرتها لديهم أنهم أصبحوا يعرضونها ضمن نفقاتهم<sup>(١)</sup> » .

ولكن (سعيد) المسكين كان كفرنساوي أيام الكردينال مازارين : اذا تمللوا من ضريبة ، وضموها فيها أغنية سخفية ، ورددوها مئة ، دون أن يمنهم ذلك من دفع الضريبة ، حتى كانت عادة الكردينال أن يقول عنهم بفرنساويته المشوبة بإيطالية : « إل كانتارون ، إل باجارون » أى سيغنون ، ولكنهم سيدفعون .

و (سعيد) كان ، اذا تملل من جور طلبات التوقيضات ، انتقم لنفسه بنكتة كالتى ذكرناها ، ثم أفضى به الأمر الى دفع المطلوب .

الحالات  
على المالية

فأدى ضغط ذلك الدين السائر الباهظ على عائق الخزينة المصرية الى ضائقة مالية شديدة باتت معها مرتبات الموظفين والمستخدمين ، فى سنى حكمة الأخيرة ، لا تصرف لهم إلا نادرا ، وان صرفت ، فبمطل وبطء . ونجم عن عدم صرفها أن أوراقا مالية من نوع جديد ، لم يرو عن مثلها أبدا ، برزت الى علم الوجود فى الأسواق المصرية . وكانت عبارة عن تحويل على المالية المصرية أخذ يحزرها أولئك المستخدمون والموظفون ويسامونها الى مؤنيهم ، سدادا لمطلوباتهم .

فبات يحيط بأبواب المالية جيش من البدالين والقضاين وخلافهم ، لا تستطيع الحكومة التخلص منه ومن طلباته : (أولا) لندرة النقود فى خزائنها ، و(ثانيا) لعدم تمكنها — بسبب أن معظم أولئك المطالبين أجانب ، يحجم نظام الامتيازات — من فض جموعهم بكرايج رجال الشرطة ، كما كانت تفض تجمهر الدائنين الوطنيين

(١) انظر : مالىق "مصر" ص ٦٩ حاشية رقم ٣٠٨

من أرباب الحرف والصناعات ورجال المقاولات، الذين اشتغلوا لحسابها وداينوها؛ فان مطالب هؤلاء الأهالي كانت تدفع اليهم لكما وركلا وسياطا، في نهاية الأمر؛ ولو استعملت الحكومة طريقة الضرب هذه مع أولئك الأجانب، لفتحت على نفسها أبواب ويلات لا فراغ منها إلا بدفع تعويضات مالية جسيمة، وتقديم ترضيات أدبية تحط من شأنها حطاً كبيراً.

فكانت تلجأ، آنذا، الى المحاطلة والمراوغة؛ ولكنها تضطر الى الدفع بعد استفاد كل وسائل التعطيل والتأجيل والتسويق.

وباتت تلك الحال السيئة نظامية الى حد أنه أصبح لتلك التحاوليل سوق خاصة بها ومعتل خصم جار؛ وكان معذلاً يتجاوز حدود الاعتدال، بقدر تجاوز فرض الدفع دائرة الاحتمال؛ أو على قدر ما تتجاوز صعوبات التحصيل حد المألوف.

غير أن ضغط الاحتياج أدى الى تناول تلك التحاوليل تداولاً أثرى منه عدة صياغة بمصر والاسكندرية وغيرهما من البنادر التي كانت مقراً لموظفي الحكومة ومستخلميها.

فلما آل الحكم الى (اسماعيل)، أمر: (أولاً) بصرف جميع المتاعرات، سواء أكانت للمستخدمين والموظفين، أم لرجال الجيش؛ و(ثانياً) بصرف المرتبات لمستحقيها في أوقاتها بانتظام. فاختفت تلك التحاوليل من السوق؛ وزالت عن عتق المالية المصرية المطالبة القويحة بسدادها، التي كانت فاشية أظفارها فيه.

اصلاح اسماعيل  
الحالة السيئة

ولما كان إقبال العامل الفزلية والنسجية الأوروبية على ابتاع القطن المصري بكثرة، بسبب الحرب الأمريكية الأهلية، قد أوجب تحسیناً فجائياً في أسعاره، ورفعها

رفعا مطردا الى حد غير متصور أو معلوم به؛ ونجم عن غزارة النقود في البلد، أن التوازن بين قيمتها وقيمتها مواد الغذاء والترفيه، أصبح مختلا اختلا لا جسيما — كما هي الحال في أيامنا هذه بسبب الحرب العالمية واحتياج الساطة العسكرية الى محاصيل البلاد وأيدى العملة — أمر (اسماعيل) بزيادة رواتب موظفي حكومته، ولا سيما بكارهم، زيادة مناسبة، تساعدهم على حفظ كرامتهم، وتحول دون تنهيمهم الى المال الحرام .  
فاكتسب بهذين العاملين تهمهم بحكومته وولاهم لشخصه .

زيادة رواتب  
الموظفين

ولعلمه أنه لا يستطيع الاستمرار على دفع المرتبات في حينها، فضلا عن دفع العلاوات التي جاد بها، إلا اذا كانت خزانة المالية بمنزلة دائما؛ ولعلمه أن لا شيء يملؤها أكثر من توسيع موارد إيراداتها؛ وأنه لا سبيل الى ذلك التوسيع إلا بانماء مساحة أرض القطر الصالحة للزراعة وتوزيع مزارعها، وإنماء تجارة البلاد وتكبير دائرة العمل فيها، أقدم على ذلك جميعه بما سبق لنا بيانه من الهمة والنتاج . ونجم عن إقدامه هذا أنه بنى كانت إيرادات الحكومة في سنة ١٨٣٥ مليونين وستمائة ألف جنيه، وفي سنة ١٨٦٢ أربعة ملايين وستمائة وتسعة وعشرين ألف جنيه، يقابلها مصروف قدره مليونان وثلاثمائة جنيه، في سنة ١٨٣٥ — أى باقتصاد ثمانمائة ألف جنيه، وأربعة ملايين وثلاثمائة وثلاثون ألف جنيه، في سنة ١٨٦٢ — أى باقتصاد نحو ستمائة ألف جنيه — أصبحت إيراداتها، في سنة ١٨٧٦، عشرة ملايين ومبعمائة واثنين وسبعين ألفا وستمائة وأحد عشر جنيها، تقابلها مصروفات قدرها ثمانية ملايين وتسعمائة وواحد وثمانون ألفا وثمانمائة واثنان وخمسون جنيها — أى باقتصاد ما يقرب من مليوني جنيه . وذلك بعد دفع الفوائد المطلوبة على الديون

(١) انظر: "تاريخ مصر المال" لمجهول ص ١٧

المسجلة وستمائة ونحسة وثمانين ألفا وثلاثمائة وثمانية عشر جنيها، مقدار الجزية السنوية للأستانة .

وإنما نذكر سنة ١٨٧٦ لأنها السنة الأخيرة من حكم (إسماعيل) وهو مستقل عن كل رقابة أوروبية، ولأن عظمتها بلغت أوجها فيها .

ومصادر تلك الإيرادات : الأموال، والرسوم، والسكك الحديدية، ومخلفات . مصادر الإيرادات

أما الأموال، فأربعة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه ونحسة آلاف جنيه من الأقطان الزراعية، ومساحتها أربعة ملايين وثلاثمائة ونحسة آلاف وثمانمائة وسبعة أفدنة بين نرجاجية وعشورية ؛ و ١٨٩٠٠٠ جنيه من التعجيل وعدده ٤٤٦٧٠٠٠ نخلة و ٤٢٢٠٠٠٠ جنيه من الرخص الحرفية .

وأما الرسوم، فسبعائة وتسعة وثلاثون ألف جنيه من الجمارك، و ٢٦٤٠٠٠ جنيه من الدخان .

وأما إيراد السكك الحديدية، فبعد أن كان ٢٦١٣٠٠ جنيه، في سنة ١٨٦٣ ، أصبح ٩٩٠٢٠٠ جنيه في سنة ١٨٧٦

وأما المخلفات، فبلغت ٢١٠٠٠٠٠ جنيه، وليس بين أبوابها في عهد (إسماعيل) باب واحد لم يكن في عهد (محمد علي) بين أن كثيرا من الضرائب المفروضة في عهد (محمد علي) لم تكن مفروضة في عهد (إسماعيل) . ومن شاء المقارنة بين ضرائب المهدين فما عليه إلا مراجعة كتاب هامون "مصر تحت حكم محمد علي" وكتاب مالك كون "مصر تحت حكم إسماعيل" ؛ فيرى أن الخراج في أيام (إسماعيل) كان ستة شلنات ونصف على كل ذكر من سن عشرة فما فوق، ماعدا المستعدين والجنود؛ وأنه كان مربوطا على كل بيت من بيوت الريف — وعددها ثمانمائة وثلاثون ألفا —



أربعة قروش صحبة سنويا، وأن المربوط على الرخص التي كانت تعطى للتجار والصناع والمخازين، كان يتراوح بين تسعة شلنات ونصف، وسبعة جنيهات وخمسة عشر شلنا على الفرد؛ وأنه كان هناك ضرائب على المواد الأولية المستعملة في الصناعة؛ وضرائب على المصنوعات بمصر واسكندرية ورشيد ودمياط؛ ودخوليات قدرها ٢٥ ٪ على الماكولات والأتبان، ومواد الوقود والبناء؛ وضريبة قدرها ١٠ ٪ على كل ما يعرض للبيع في الأسواق، سواء أوزن أم لم يوزن فوق ١٠ ٪ أخرى كانت تتقاضى على البضائع عينا لمصلحة الجيش؛ وأنه كانت هناك ضرائب على العربات وحيوانات النقل كلها، والبقر والثيران، تختلف من ثلاثة إلى أربعة جنيهات عن كل مربية، وإلى سبعة شلنات ونصف على حمار الفلاح أو الحمار. غير رسم آتري تقاضونه منها جميعا، ويتراوح بين ثلاثة قروش، وعشرين فضة صاغ، كلما دخلت تلك العربات والحيوانات مدينة من المدن؛ وأنه كان هناك ضرائب على الملح، وعلى الدخان، وعلى الخرفان المذبوحة، وعلى المعديات؛ وضريبة على الملاحة عموما وقدرها واحد وعشرون شلنا سنويا عن كل مركب؛ وقرشان ونصف عن كل أردب من الحنطة، علاوة على رسوم المرور، تحت الجبازي، ٥٠ ٪ على المصايد؛ وأنه كان هناك ضريبة على الزواج، وأخرى قدرها خمسة شلنات ونصف على كل ميت يدفن، سواء كان رجلا أم امرأة أم طفلا. وأن البندل المسكري كان ١١٢ جنيا. ويرى أن هذا جميعه كان موجودا في عهد (محمد علي)، ما عدا البندل المسكري، وما لم يكن يمكن وجوده، لعدم وجود موجه، كرسوم المرور تحت الجبازي، لأن الجبازي في أيام البابا شتا العظيم لم تكن معروفة<sup>(١)</sup>.

فالزيادة الكبيرة في الإيرادات في سنة ١٨٧٦ ، كانت ، والحالة هذه ، نتيجة اتساع نطاق الزراعة اتساعا عظيما ، ونتيجة اتساع نطاق التجارة والصناعة والعمل اتساعا لم تعهده أيام (محمد علي) ، ونتيجة تعديل طريقة ربط الضرائب وطريقة تحصيلها ، لانتيجة إرهاب الأهالي بالضرائب إرهابا فاحشا غير مسموع ، كما قيل كثيرا . ولولا أن البلد ، لما استلمه (إسماعيل) ، كان خاليا من كل أسباب الحضارة وأقرب إلى الخراب والهمجية منه إلى العمران والمدنية ؛ لولا أنه كان يجب أن ينشأ كل شيء فيه ، مع قيام رذائل أهله في عكس تيار كل إصلاح على العموم ؛ ولولا أن كل شيء خلق فيه بسرعة لم تترك للنمو الطبيعي مجالا — وذلك لشدة الشوق إلى قطف ثمر الغراس المغروس ؛ فاقترضت الحال صم النظر إلى كمية المنفق ، وقلة الاكتراث بالديون ، مهما بلغت ، وأنى وصلت ، في سبيل نيل بنية النفس السامية ، وتحقيق الخطوة النبيلة الموضوعة ، لولا ذلك جميعه ، لآتت ازدياد الإيرادات في الخزينة المصرية ازديادا مطردا إلى إبراز عجائب في عالم الوجود ، منزوية بجانب أيام الباشا العظيم ومعجزاتها ، على سطوعها .

على أن التاريخ لن ينمط (إسماعيل) فضله في أنه عمل على إعادة بلاده من ذلك الازدياد كل الفائدة ، التي كان مركزها السيامي والاجتماعي يمكنها من نيلها على يديه ؛ وأنه لم يترك ميدانا من ميادين الإصلاح والعمران والرق إلا وأدخلها فيه بهمة ، وهذا بها في حليته بغيرة ملتبة لا تعمل حسابا للصعوبات ، ولا تبالي بثمن إزالة العقبات من السبيل .

أما وقد تكلمنا عن نجاحه في مضمار المسابقات ، فإنه لم يبق لنا إلا التكلم عن نجاحه في مضمار التعليم والحركة الفكرية ، وفي مضمار ترقية شؤون حياة أمة الاجتماعية .

## الفصل الخامس<sup>(١)</sup>

### انتعاش التعليم والحركة الفكرية

تعلم : فليس المرء يولد عالماً • وليس أخو علم كمن هو جاهل  
فإن كبير القوم لا علم عنده • صغير إذا التفقت عليه الحافل  
«عمر بن عبد العزيز»

حال التعليم قبل  
(محمد علي)

لما دخل الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨ ، لم يكن في القطر كله إلا مدرسة الأزهر ومكتبتها الخالصة لكتب علوم الدين وكتب لغة وآداب . ومع أن الأساتذة المدرسين في تلك الكلية كانوا عديدين فإن عدد الطلبة كان قليلاً بالنسبة لما هو الآن . ومع أنه كان يوجد سبعة أروقة للعلوم ، فإنه لم يكن التعليم يتجاوز تجويد القرآن ، ومعرفة الحديث ؛ وتعدد الأروقة إنما كان لسبب تعدد أنواع الطلبة وجنسياتهم ، كما هي الحال الآن ؛ غير أنه كان في القاهرة عينها عدد يستد به من الكتائب المخصص لها أوقاف خيرية لتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة ، والقرآن الكريم .

فلما بدأ حكم (محمد علي) يستقر في القطر ، نجم — عن القليل من النظام والأمن اللذين أدخلهما على الحياة القومية ، وعن إخلاء طلاب العلم من الخدمة العسكرية — رقي محسوس لعدد المتعلمين في الأزهر والبيئات العلمية الأخرى . ولكنه لم يفهم

(١) أم مصادر هذا الفصل : "التعليم العام بمصر" ليعقوب أرمن باشا ، و "التعليم العام بمصر"

لسيرف . إدمار دوريك .

عنها رقى في طرق التعليم إلا بعد ما عن محمد علي باشا فتح ميدان جديد للعلم وأدخل الأمة فيه قسرا .

وتفصيل ذلك أن هذا الأمير، بعد أن قتل المماليك في جزيرة القلعة الشهيرة، أمتلك للصبيان والشبان من مماليكهم . فأدخل هؤلاء في حرمه ، وجميع الآخرين في مدرسة بالقلعة ليتعلموا فيها القرآن، والكتابة، واللغة التركية، وضروب العسكرية العملية، وفن الفروسية بفروعه : مقتديا في ذلك بالسلطين المماليك البرجيين وبعض كبار الأمراء المماليك أنفسهم الذين استأصل شأقهم من الأرض المصرية .

ولما فكر في سنة ١٨١٦ في تشكيل جيش على النظام الغربي، ولم يفلح في بادئ الأمر بسبب الثورة التي قام بها الجنود غير النظاميين حوله، أرسل أكبر الشبان من مماليكه القائمين بالقلعة الى مصر العليا ، ليكون منهم مدرسة عسكرية تحت إدارة معلمين غربيين . ثم لكي يملأ الفراغ الذي قد يحدثه في هذه المدرسة ، إنشاء الأورط، أسس بمصر، في القصر العيني، مدرسة أخرى تحضيرية للدخول في المدرسة الأولى؛ وذلك حوالي سنة ١٨٢٥ ووضع فيها ٥٠٠ ولد من الشراكسة، والكرج، والأتراك، والأكراد، والأرناؤوط، والأرمن، واليونان — ليس فيهم مصري واحد — ليتعلموا القرآن، والكتابة، والقواعد اللغوية، والآداب التركية، والفارسية، ومبادئ اللغة العربية، والحساب والهندسة، والجبر، والرسم، واللغة التليانية — لأنها كانت لغة معظم معلمى العسكرية الناشئة — وجعل اللغة التركية أساس التعليم كله .

ولكنه، لادراكه أن تعليم أولئك الشبان لم يتم بالسرعة والمثانة اللتين يريد هما ، ولرغبته في سرعة تكوين هيئة أركان حرب مصرية، أرسل، منذ سنة ١٨٢٦، الى لبقرنو، وميلانو، وفلورنسا، وروما، بعض المماليك الشبان ، ليتعلموا صناعة بناء

المدرسة الأولى  
سنة ١٨١٦

السفن، والفنون الحربية، والطباعة، والهندسة العسكرية والمدنية، وعلم جراحة. ثم أرسل، بعد سنتين، طلبة آخرين الى إنجلترا، ليتعلموا الهندسة المدنية، وهندسة الآلات المائية، والميكانيكا، وفق الملاحه.

ولما كان الباعث له على كل هذا الاهتمام الفرعى اهتمامه الأصلي بتكوين جيش، فكر في إنشاء مدرسة للطب، وفي الواقع أنشأها منذ سنة ١٨٢٥، ولكن الذي يستوقف الانباه هنا هو أنه عدل، في اختيار الطلبة لها، عن طريقته في اختيار الطلبة لمدرسته الحريتين التحضيرية والعسكرية؛ وجعل كل تلامذتها من المصريين، لا سيما من شبان الطلبة الأزهرين.

وفي سنة ١٨٢٦ أرسل الى فرنسا أول بعثة تلميدية أرسلت اليها، وكانت مؤلفة من ٤٠ شابا، معظمهم من تلامذة القصر العيني، وبعضهم من طلبة مدرسة الطب وأمرهم بتعلم الفنون العسكرية، والقوانين الادارية، والهندسة المدنية والحربية، وعلى الاجمال جميع العلوم التي كان الباشا مضطرا، من أجلها، الى استخدام الغربيين، لعدم وجود مصريين خبيرين فيها.

فنجحت تلك البعثة نجاحا حمل الباشا العظيم في سنة ١٨٣٤، قريبا، على إيجاد نيف ومائة طالب في باريس، وعلى إحطال البعثات الى ايطاليا، وإنجلترا، والبلاد الأخرى.

ولم يقتصر غرض (محمد علي)، من هذه البعثات المتوالية ومن المدارس الأولى التي أنشأها، على محض تعليم بعض الأفراد من المصريين وما كفى مصر فقط؛ بل إنه رعى الى تكوين أساتذة منهم، يتمكن بواسطتهم، بعد نبوغهم، من نشر ظل

إنشاء مدرسة الطب  
سنة ١٨٢٥

أول بعثة الى فرنسا

العلوم الوارف على القطاركة ، والنهوض به من هاوية الجهل السحيق التي طرحتها  
فيها من حائق حكومة الأتراك العثمانيين والأمراء الماليك .

ولا أدل على ذلك من أنه في سنة ١٨٣٤ ، لما عاد طلبة البعثة الأولى الأرمعون  
الى مصر ، قابلهم الأمير بنفسه ، وسلم الى كل منهم كتابا فرنساويا في العلم الذي  
تعلمه ، وكلفه بترجمته الى التركية .

وأمر بهم ، بعد خروجهم من حضرته ، فأغلقت عليهم أبواب القلعة ثلاثة أشهر  
بأكملها ليرجموا تلك الكتب ؛ ولم يخرج عنهم إلا عند فراغهم من ترجمتها ؛ وبعد  
أن طبعت تلك الترجمات بالمطبعة الأهلية التي أسسها الباشا بيولاك ، وزعت على  
أساتذة وطلبة المدارس التي كانت الأصول الفرنسية قد أحضرت لأجلها .

أول مجلس المعارف ثم أنشأ حوالي سنة ١٨٣٦ مجلسا أعلى للمعارف ، مؤلفا من نخبة من أولئك الطلبة  
وبعض علماء الفرنسيين ؛ ووضع على رأس ادارته وزيرا اسمه مصطفى بك مختار ،  
كان أول وزير معارف عين في مصر على ممتزنى تاريخها . وجعل أهم أغراض  
ذلك المجلس تهديم العدد الكافي من الضباط الأكفاء لجهشه النامى على مزالمتين ،  
والذى لم يعد يمكن ملء الفراغات التي يحدثها الموت في صفوفه بشيئة جديدة من  
الماليك الشراكسة ، لصعوبة جلبهم من بلادهم ؛ ولا بأولاد خدام (محمد علي) الأمراء  
من الآسيويين والأتراك ، لظهور نسل هؤلاء الموظفين في مظاهر أجسام ضعيفة  
يسوزها الذكاء والصحة ، فضلا من قلة عدده .

وبما أن كل أعضاء ذلك المجلس الأعلى كانوا قد تربوا بفرنسا تربيتهم كلها ، سواء  
في ذلك الفرنسيون منهم وغير الفرنسيين ، فإن نزعتهم كانت فرنساوية محضة .

ولا غرابة في كونهم أدخلوا على القطر طرق التعليم الفرنسية، وأنهم حاولوا تطبيقها على احتياجاته بقدر ما استطاعوا .

الأمل في تشييد  
دولة عربية جديدة

على أن تربيتهم الفرنسية كانت قد غنتهم بلبان آمال مستقبل البلاد ، لم يكن لهم بد من السعي إلى تحقيقها . ومنها أمل إنشاء دولة عربية جديدة تجاه الدولة التركية المتدهية ، المشتبكة مصر في حرب معها ، لتحل من العالم الاسلامي محلها .

ولا شك في أن هذا الأمل كان يدور ، في ذلك الحين المضطرب ، في مخيلة الكثيرين من أبناء البلاد ، بل الكثيرين من الأتراك المتمصرين أنفسهم . ولم يكن (محمد علي) يرى مصلحة في اجتثاث جنوده ، بالرغم من أن ميوله كانت كلها تركية ؛ لأنه كان ، هو نفسه ، يحلم بدولة عربية تكون أسره مالكة لها ، كما كانت الأسرة العباسية العربية مالكة لدولة أركانها فارسية .

التوسع في تعليم  
أبناء القطر المصري

فاستصدر المجلس الأعلى ، لذلك اذا منه بإدخال العنصر المصري في المدارس بكثرة ، بعد أن كان إدخاله فيها قاصرا ، حتى ذلك الحين ، على عدد معلوم قليل جدا . وفتح ، لنيل الغرض المقصود ، عدة مدارس ابتدائية وثانوية في القطر عامة ، يعلم فيها ، في مدة ثماني سنوات ، على نسق اللسيحات الفرنسية ، العلوم الآتية وهي : القرآن ، الكتابة ، اللغة العربية ، اللغة التركية ، اللغة الفرنسية ، مبادئ الرياضيات ، مبادئ التاريخ ، مبادئ الجغرافيا ، الرسم .

ونجم عن تغلب العنصر المصري على عدد طلبة هذه المدارس ، وعن الرغبة في تحقيق أمنية إنشاء دولة عربية ، أن اللغة العربية أصبحت لغة التعليم العام ، وأن اللغة التركية لم يعد يعنى بها ، إلا من حيث هي لغة اضافية فقط ، منزلتها من الأهمية تكاد تكون أقل من منزلة اللغة الفرنسية .

أما المدارس الابتدائية التي أسست، في ذلك العهد، فهي :

في الغربية، مدارس : أبيار ، والمحلة الكبرى ، وزقى ، وشربين ، وفوه ،  
وميت غمر ، والجعفرية ، ونبروه .

وفي المنوفية، مدارس : أشمون جريس ، وشبين الكوم ، ومنوف .

وفي الدقهلية، مدارس : المنصورة ، والمقلا ، وصهرجت ، وفارسكور ، ومحلة  
دمنة ، والعريضة .

وفي الشرقية، مدارس : الزقازيق ، وبليس ، وكفور نجم ، وميت العز .

وفي القليوبية، مدارس : الخاقله ، وأبي زعل ، وبها ، وقامولا ، وقليوب .

وفي البحيرة، مدرستا : البحيرة ، وحلوان .

وفي الفيوم، مدرسة الفيوم .

وفي بني سويف، مدرستا : بني سويف ، وبوش .

وفي المنيا، مدارس : الفشن ، والمنيا ، وبني مزار .

وفي أسيوط ، مدارس : أسيوط ، وأبي تيج ، والساحل ، وساقية مومي ، وسنبو ،  
ومنفوط .

وفي جرجا، مدارس : جرجا ، وسوهاج ، وطهطا .

وفي قنا ، مدرستا : فرشوط ، وقنا .

وفي إسماعيلية ، مدرسة إسماعيلية .

وأنشئت كلها في فبراير سنة ١٨٣٧ ، ماعدا مدرسة أبي زعل ، فانها أنشئت  
في أكتوبر سنة ١٨٣٦ ، ومدرسة ساقية مومي ، فانها أنشئت في نوفمبر سنة ١٨٣٨



وكان قد أسس في الصعيد، في شهر مايو سنة ١٨٣٣، مدارس في: أسيوط، وملوى، ومنفلوط، وأبي تيج، والساحل، ولانجم، وجرجا، وسوهاج، وطهطا؛ ولكنها أفلت كلها في أبريل سنة ١٨٣٥

المدارس  
الثانوية والعالية  
والخصوصية

وأما المدارس الثانوية والعالية والخصوصية التي أسست في عهد (محمد علي) فهي:  
مدرسة الخلفاء العليا في سنة ١٨٣٦؛ مدرسة أبي زحبل الاعلادية في أكتوبر سنة ١٨٣٦؛ مدرسة القصر العيني العسكرية في سنة ١٨٢٥؛ مدرسة الليادة بالخلفاء في سبتمبر سنة ١٨٣٢؛ مدرسة الليادة بلمياط في يونيو سنة ١٨٣٤؛ مدرسة الليادة بأبي زحبل في فبراير سنة ١٨٤١؛ مدرسة الليادة بأباض في يوليو سنة ١٨٣٢؛ مدرسة اللغات بالأزبكية في يونيو سنة ١٨٣٦؛ المدرسة البوليتكنيكية ببولاق في مايو سنة ١٨٣٤؛ مدرسة المصانع العسكرية بمصر في يوليو سنة ١٨٣٣؛ المدرسة المعدنية بمصر العتيقة في مايو سنة ١٨٣٤؛ مدرسة المنفعة بطره في يونيو سنة ١٨٣١؛ مدرسة الخيالة بالجيزة في أبريل سنة ١٨٣١؛ مدرسة الصيدلية بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٨٢٩؛ مدرسة الطب البيطري بأبي زحبل في يونيو سنة ١٨٣١؛ مدرسة الحسابات بالصيلة زينب في فبراير سنة ١٨٣٧؛ مدرسة الطب والتوليد بمصر في فبراير سنة ١٨٣٧؛ مدرسة العمليات (الصنائع والفنون) بمصر في مارس سنة ١٨٣٩؛ مدرسة البحرية بمصر في سبتمبر سنة ١٨٣١؛ مدرسة الموسيقى في الخلفاء بمصر في أغسطس سنة ١٨٢٧؛ مدرسة الطبول والأصوات بمصر في سنة ١٨٢٤؛ مدرسة الطبول بمصر في أغسطس سنة ١٨٢٤؛ مدرسة المزف بالتخيلة في أبريل سنة ١٨٢٩؛ مدرسة الآلاتية بمصر في نوفمبر سنة ١٨٣٤

إقبال المدارس

غير أن معظم هذه المدارس سواء أكانت ابتدائية أم ثانوية أم عالية لم تعمر طويلا، وأقل معظمها، بعد أن وضعت الحرب بين مصر وتركيا أوزارها، فاضطر (محمد علي) إلى التعمود عن التوسع، وإلى تخفيض عدد جيشه من مائة وخمسين ألف مقاتل إلى ثمانية عشر ألفا .

والباقي أقل، إما قبل ذلك العهد، وإما بعده . لمدارس : الرحمانية ، والنجيلة ، وشبراخيت ، وإيسار ، والمحلة الكبرى ، وزققي ، وطنطا ، وفوه ، والجعفرية ، ونبروه ، وأشموط جريس ، وشين الكوم ، والمنصورة ، والمنزلة ، والعزيرية ، وبليس ، وكفور نجم ، وميت العز ، وقوله ، وقلوب ، وبوش ، والمنيا ، وأسيوط ، وأبي تيج ، والساحل ، وساقية موسى ، ومنفلوط ، وجرجا ، وسوهاج ، وطهطا ، وقنا ، وإسنا ، ومدرسة اليازة بدمايط ، أقيمت في سنة ١٨٤١ ؛ ومدارس : دمنهور ، ومنوف ، وصهرجت ، وحلة دمنة ، وبني مزار ، أقيمت في سنة ١٨٣٧ حينما ؛ ومدارس : شربين ، وبنا ، والفيوم ، والقشن ، في سنة ١٨٣٨ ؛ ومدرسة ميت غمر في سنة ١٨٤٦ ؛ ومدرسة الخانقاه الابتدائية في سنة ١٨٣٩ ؛ وكذلك مدارس : سنبل ، وإنجيم ، وفرشوط . وفي هذه السنة أقيمت أيضا مدرسة الزراعة ، وكانت قد تأسست بشبرا في سنة ١٨٣٦ ؛ وأبطلت في سنة ١٨٣٧ ، مدرسة القصر العيني العسكرية المؤسسة في سنة ١٨٢٥ ؛ وفي سنة ١٨٣٤ ، مدرسة اليازة بالخانقاه المؤسسة في سنة ١٨٣٢ ؛ وفي سنة ١٨٤٩ ، مدرسة اليازة بأبي زعبل المؤسسة سنة ١٨٤١ ؛ وفي سنة ١٨٣٦ ، المدرسة المعدنية بمصر العتيقة المؤسسة في سنة ١٨٣٤ ؛ وفي سنة ١٨٣٨ ، مدرسة الحسابات بالسيدة زينب ؛ وفي سنة ١٨٤٩ ، مدرسة البحرية .

التساعد  
بالأزهريين

ولما أصبحت اللغة العربية أساس التعليم كله، دعت الحال الى الاستعانة بالعلماء الأزهريين، ليقوموا بشؤون تعليمها في جميع هذه المدارس؛ فجعل معظم الابتدائية منها تحت ادارة نخبة منهم كالشيخ خليل الخوانسكي، ناظر مدرسة الرحمانية؛ والشيخ غنيم سالم، ناظر مدرسة شبراخيت؛ والحاج أحمد عصافير، ناظر مدرسة دمنهور؛ والشيخ يوسف البرادعي؛ والشيخ محمد حسن، ناظرى مدرسة أبيار؛ والشيخ مصطفى التبراوى؛ والشيخ حسن الطويل؛ والشيخ محمد أبو النجا؛ والشيخ رضوان بالي، ناظر مدرسة المحلة الكبرى؛ والشيخ وهبة مصطفى، ناظر مدرسة بندر زقى؛ والشيخ محمد كفاي، ناظر مدرسة شرين؛ والشيخ سليمان الخطيب، ناظر مدرسة فوه؛ والشيخ عبد الرحمن الغمري، ناظر مدرسة ميت غمر؛ والشيخ أحمد الشيخ، ناظر مدرسة فارسكور؛ والشيخ علي القهتيم؛ والشيخ جوده مصطفى، ناظرى مدرسة العزيزية؛ والشيخ محمد عبد الرحمن، ناظر مدرسة الزقازيق؛ وهلم جرا.

ومن البليهي أنه لم يكن بد للتعليم الملقن على أيدي مثل هؤلاء الأساتذة من التأثير بقللة معارفهم، وعدم سعة عقولهم، ووقوف حركة التطور في عقلياتهم. لأن الأزهريين، في ذلك العصر، كان قد بلغ من الاقتصاد على العلوم اللغوية والدينية، ما لم يكن معه مندوحة عن الانحطاط في ميادين العلوم العقلية الاجتماعية، وفي ذات القوة المتعقلة. ولو اقتصر التعليم على أولئك الأساتذة، لما استفاد طلاب تلك المدارس، أكثر مما كان يستفيد الطلاب الأزهريون، في سنى مجاورتهم الأولى.

ولكنه كان قد وجد في القطر، لحسن طالعه، عنصر آخر لم تغفل وزارة المعارف العمومية الحديثه استخدامه. ذلك العنصر كان مكونا من الأشخاص الذين تخرجوا

من المدارس المؤسسة منذ سنة ١٨١٦ والتي كانت تعلم فيها العلوم الدينية، كالتاريخ والرياضيات والجغرافيا والهندسة والرسم الخ .

هؤلاء الأمتحان، إما لعدم تمكنهم من الدخول في الجيش والادارات ، وإما لإحالتهم على المعاش، أو لأية أسباب أخرى، كانوا قد كونوا هيئة تعليمية في القطر فيها الكفاية لسد احتياجات ذلك الوقت ؛ ولو أنهم كانوا يهيئين عن درجة الكفاءة التامة بمراحل .

غير أن طلبة البعثات العلمية الى الديار الأوروبية أخذوا ، مع تهادى الأيام ، يسودون الى القطر وينضمون الى تلك الهيئة العلمية ، ويساعدون ، إما بترجماتهم ، وإما بمؤلفاتهم على رفع مستواها وتحسين قيمتها .

والسلامة لغاية سنة ١٨٣٦ ، كانوا جميعا من المالك القفقاسيين ، أو من أولاد موظفى الولى وضباطه الأجانب ، فكانوا يعتبرون كأنهم ملكه الخاص ، أو بالحرى ملك حكومته ، فيربون على ثقته ؛ ولما عدل نظام انتقاء الطلبة ، وحل أولاد المصريين ، في المدارس ، حل أولئك الشبان الأجانب ، ربوا ، هم أيضا ، على نفقة الحكومة ، وبالكيفية والشروط ، التى كان أولئك يربون بها .

الاضطرار الى  
التربية والتعليم على  
نقطة الحكومة

ولم يكن خلاف ذلك ممكنا : لأن الكره الذى أبداه الفلاحون المصريون ، في أول أمرهم ، للتعلم ودخول المدارس ، بالرغم من المزايا العديدة المرتبطة بالأمرين والناجمة عنهما ، كان كالكره الذى أبدوه للخدمة العسكرية . فاضطر ( محمد على ) الى استعمال الوسائل القهرية معهم لتعليمهم وتربيتهم ، كما استعمل الوسائل القهرية لتكوين جيش منهم . فكان أعوانه يهاجمون القرى مهاجمة ، ويتربصون الأولاد من أحضان أهاليهم

قسرا، ويوزعونهم على المدارس بحسب سنهم وبنيتهم وقامتهم فعند ما تظهر الأيام ميولهم، كانوا ينقلونهم الى المدارس التي يمكن فيها تلك الميول أن تسير بهم الى ذروة النبوغ . وأما من أثبتت الخبرة تجزده من كل ذكاء، كان يعاد الى فلاحه آباءه .

تلك كانت حال التعليم في أيام ( محمد علي ) ؛ ولم يخل على نظامها تعديل ، إلا ما أشارت به الخبرة، أو جلد به هوى المنوط بهم الأمر، أو أوجبت احتياجات الحكومة .

رغائب  
(ابراهيم باشا)

فلما استلم ( ابراهيم باشا ) زمام الأحكام، حنّ له إدخال إصلاحات شتى على تلك الحال ؛ ولكن قصر مئة ملكه لم يمكنه من نفاذ شيء مما رغب . وأهم ما وقع في خلده في هذا الموضوع تعديل كيفية تشكيل البعثات العلمية الى أوروبا ، وتغيير شكل إقامتها هناك .

فالمندوبية المشكلة في سنة ١٨٣٦ رأت إن الحكومة طاجرة عن تعليم الناشئة العلوم الوضعية والفنية العليا، لسبيين : (الأول) قلة الأساتذة الأكفاء، للقيام بتدريسها ؛ و(الثاني) عجز اللغة العربية واللغات الشرقية على العموم، عجزا مطلقا عن التعبير عن مضموناتها، لعدم وجود الكلمات الدالة عليها فيها .

فرأت، والحالة هذه، وجوب الاستقرار على إرسال البعثات المدرسية، لكي يستتم التلاميذ العلوم، التي لم يكن في استطاعتهم تعلم بعضها ، بكيفية كافية ، ولا التقرب من غيرها، ما داموا بمصر، وما دام تعلمهم باللغة العربية .

حديث  
السيد جومار

وقد قال المسيو جومار — وهو أول من حجب الى ( محمد علي ) البعثات المدرسية الى الخارج، وأحد الأباطم الذين ساعدوا على النمو العقلي والعلمي في القطر المصري —

« هل يكفي إنشاء مدارس نفخة عظيم على الطراز الأوروبي ، برجال يوتي بهم من ميلانو وباريس ولندره بمصاريف جمة ، ثم لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم حاملين يلبثون الفرض الذي رضوا بالمجيء لأجله ؟ كلا ثم كلا . وبما أن عدد الذين يختارون الإقامة الى الأبد في وطن غير وطنهم قليل جدًا ، ولا يزيد على واحد في عشرين ألفًا ، فالواجب ، إذا ، تعليم الأهالي أنفسهم في أوروبا ، بأحدى اللغات الأوروبية ، علوم الأوروبيين وفنونهم ، فيدخلون بذلك في صميمها ، ويتمكنون من أسرارها ، وتتنافس عقليتهم بعقلية متعلميها من الغربيين ؛ ولو أمكن لمحمد علي أن يرسل الى أوروبا منذ سنة ١٨١٥ مائة أو مائتين من الطلبة المصريين ، لتقدم رقي البلاد وتمتئها عما هو عليه الآن » .

ولكن تلك المتدوية رأت أن تعطل الطريقة المتبعة ، حتى ذلك الحين ، بأن تؤول ، أولاً ، في المدارس المصرية ، الطلبة الذين تقرر إرسالهم الى المدارس الأوروبية ، كيلا يضيعوا من وقتهم هناك ، في تلقن العلوم المهمة لهم سبيل تلقى العلوم الخاصة ، المقصودة بالفئات من إرسالهم الى تلك المدارس .

تدليل طريقة  
إرسال البعثات  
العلمية

فلم تعد تبحث الى أوروبا إلا المتخرجين من المدارس المصرية الخاصة ، بعد لتقيمهم علومهم فيها ، وتمكنهم من لغة البلد الأجنبي المعدين للذهاب اليه .

ولنيل هذا الفرض ، أنشئت مدرسة مصرية بباريس ، جعلت ادارتها تحت رئاسة مصري ، يقال له استفان بك ، وأسندت وكالتها الى نائب ، اسمه خليل افندي تشيراكيان ؛ وكلف ضباط معينون من لندن وزارة الحربية الفرنسية بمراقبة سير الدروس فيها ، وأرسل اليها ، في بادئ الأمر ، أربعون تلميذاً منهم حليم وحسين ولدا (محمد علي) وأحمد واسماعيل ولدا (إبراهيم) — وقد سبق لنا ذكر هذا جميعه .

إنشاء مدرسة  
مصرية بباريس

فلما زار (ابراهيم باشا) هذه المدرسة أشاء إحدى سياحاته في أوروبا استوقف انتباهه عدم الضبط المدرسي، وقلة نجاح الطلبة، وفداحة المصاريف التي تستلزمها مدرسة، أصبح كل واحد من تلامذتها (سلطاناً صغيراً) حسبما قال هو نفسه .

ووجه نوبار باشا — وكان يومئذ كاتب أسرار (سكرتير) — فكره إلى المضار وقندان المزاياء، الناجمة عن الطريقة المتبعة، سواء أكان من جهة التربية، على الأخص، أم من جهة التعليم على العموم. وقال له : «إن جمع أربعين طالباً مصرياً في مدرسة واحدة ليعيشوا دائماً طبقاً لعاداتهم وطبائعهم وبدون اختلاط، أو باختلاط قليل، مع خلافهم، من غير جنسهم ودينهم؛ أو إبقائهم في بلادهم ويظنهم الأصلية، سيان . فإما الامتناع عن إرسال طلبة بهذا الشكل، وإما الاقتصاد على إرسال أحداث ما بين الثامنة والتاسعة من عمرهم، وتوزيعهم على المدارس والمآهل (بسيون) الغربية، بحيث لا يكون أكثر من اثنين في مدرسة واحدة أو مأهل واحد : فيستفيدون في تعلمهم؛ ويستفيدون، على الأخص، في تربيتهم» .

فوافق (ابراهيم باشا) على رأى سريره (سكرتيره) وعزم على اتباعه . ولكن الموت حال دون تمكنه من ذلك : فاستقرت الطريقة العقيمة التي ندد بها نوبار متبعة، حتى أقفلت ثورة سنة ١٨٤٨ الباريسية تلك المدرسة المصرية؛ وما فتئت، بعد ذلك، متغلبة على أفكار القائمين بشؤون التعليم في هذا القطر، حتى في عهد الاحتلال الإنجليزي، بالرغم من جذب محصلوها .

أخذ السلطان  
قواد الأول برأى  
جده (ابراهيم)

ولم يفعل إلى المزاياء الجملة الناجمة عن العمل برأى (ابراهيم باشا) إلا حفيده الكريم  
عظمة السلطان قواد الأول فإنه — حفظه الله — أيام أن كان رئيساً للجامعة المصرية،

أدخل، بجانب نظام بناتها العائلية، نظام بنات أحداث، ناهى الأطفال، الى بلاد أوروبية مختلفة، ليعيشوا في بنات تغاير تمام المغايرة بناتهم المصرية : فيكونون نشأة جديدة، وإنسانية مصرية عصرية، متشربتين ومتشبعين بغير المبادئ، والعادات، العقلية، المدينة مصر لمجموعها بذلك القرنى .

وقع في خلد (ابراهيم باشا)، علاوة على ما ذكر، إلزام جميع الموظفين والضباط المصريين بإرسال أولادهم الصغار الى المدارس والمآهل الأوروبية، على نفقاتهم الشخصية، بدلا من إرسالهم اليها على نفقة الحكومة؛ وذلك لاعتقاده أن الأهالى إنما يهتمون بتربية أولادهم وتعليمهم على نسبة التضحية للسادية والأدبية التى يحملون أنفسهم أعباءها فى هذا السبيل؛ وإن الاهتمام الذى تكون التضحية العائلية أسه، لا يلبث أن ينتشرين جميع طبقات الأمة، ويشترك فيه كل أفراد الهيئة الاجتماعية. ولا يختلف لثنان عاقلان فى سداد آراء (ابراهيم باشا) هذه؛ فلا يسع أحدا إلا التأسف تأسفا عميقا على قطع المتون شجرة حياته الكثيرة الثمار قبل نضوج هذه الثمرة طليها أيضا .

ويزيد لدى التفكير بان خليفته (عباس باشا الأول) لم يكتف بعدم مجاراته فى أفكاره ونياته فحسب؛ بل إنه قلب نظام التعليم والمدارس رأسا على عقب، بعد امتحان أجراه أبى زعبل للأساتذة والطلبة معاً، وكانت نتيجته سيئة للغاية، لأن الأساتذة — وكان معظمهم من الأزهريين الذين سبق لنا ذكرهم — ظهروا فيه بمظهر الجهلاء النوكى الحقى فامر باقتال عموم المدارس وطرد الطلبة والأساتذة منها؛ ما حدا مدرسة واحدة، أبقاها ودعاها بالمفروزة، للدلالة على أنها المختارة من بين الكل؛ وأعطى لتخريج ضباط للبرية والبحرية ومهندسين عسكريين ومدنيين .

إعتراف  
(عباس الأول)  
من دأى (ابراهيم)



غير أنه عاد الى فتح مدرسة الطب وتنظيمها على أسس جديدة تؤهلها لتخرج أطباء للجيش . ولما كان شديد الكراهة للعناصر الأجنبية ، ولا سيما الغربية منها ، وكان لا يرى متى تأتى الساعة التى يمكنه فيها الاستثناء عن غربي متقلد وظيفته فى القطر، وكان، من جهة أخرى، يكره من صميم قواذه أن يقتل الشرق عن عقلية وطاداته وأخلاقه، حتى السقيمة منها، فإنه ارتأى أن يرسل الى أوروبا، بدلا من الصبيان، الناعمى الأطفال، والأحداث، الذين رغب عنه (ابراهيم) فى إرسالهم اليها، شبانا فى الخامسة والعشرين من عمرهم، على الأقل، أتموا كل دروسهم بمصر، وأن يفضل على هؤلاء أيضا، الشبان الذين يكون قد سبق لهم تدريس فى المدارس العليا الملقاة ، لكى يتقنوا فى روح يسير العلوم التى يرسلهم لتلقيها ، ويعودوا فيحلون محل الغربيين فى دوائر التعليم والإدارة عامة .

نقله ميل (سعيد) الى  
تعليم أبناء البلاد

وكان (سعيد باشا) خليفته، بالرغم من ميله الكثير الى الغربيين وعقليتهم، قليل الرغبة فى تعليم الفتيان من رعيته؛ حتى انه قال ذات يوم لكوئنج بك، مربيه السويسرى الذى أصبح سريره الخاص، بعد ما تولى العرش، وكان يحضه على اعادة فتح المدارس التى أقفلها عباس، سلفه: <sup>(١)</sup> "لم نعلم الشعب ؟ لكى يصبح الحكم عليه والتصرف فيه أحسن مما هما عليه؟ دعهم فى جهلهم ! فالأمة الجاهلة أسلس قيادا فى يدي حاكمها". فالتى اذا وزارة المعارف العمومية ، كما ألتى معظم الوزارات ، وألحق إدارة التعليم بدائرته الخاصة، أو بوزارة الحربية .

ولكنه عاد فأظهر اهتماما عظيما بمدرسة الطب دون غيرها : فوضع لها نظاما جديدا، واحتفل بافتتاحها، على هذا النظام، احتفالا شامعا تحت رئاسة أدم باشا

(١) مالونى "مصر" ص ٦٩ حاشية ٣١٢

وزير الداخلية، وبحضور شيخ الاسلام وعلماء الدين والهيئات الرسمية الغربية  
في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٦

وأظهر أيضا اهتماما يعتد به بالمدارس الأجنبية المؤسسة في البلاد بمعرفة الارشادات  
المنهية . وما يؤثر عنه أن راهبات الراعي الصالح — وكُن قاثمات ، في مدرستيهما  
بمصر والاسكندرية ، بترية ستين يتيمة من بنات البلاد ، على اختلاف أديانهم ،  
زيادة من البنات الأخرى ، الدافعات قيمة زهيدة ، أجرة تعليمهن وتربيتهن —  
وجدن اللعب قبيلا عليهن ؛ فالتجان اليه ، ورفض الى مكارمه عرضا ، طلبن به  
منحهن إردب بر ، سنويا ، عن كل واحدة من تلك اليتيمات ؛ فأجاب طلبهن  
في الحال ، وجاد طين بما التمن . وأن راهبات المحبة بالاسكندرية — وكُن قد  
فعلن صيدلية لتوزيع الأدوية مجانا على المرضى ، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ،  
شأنهن اليوم — وجدن أنهن في احتياج الى مبلغ خمسة آلاف فرنك ، سنويا ،  
ليتمكن من الاستمرار على عملهن الباز ؛ فالتسنه من مكارم (سعيد) ؛ ففاضت طين  
به . ولو التمن خمسمائة ألف فرنك ، لسا تاجر عنهن .

اهتمامه بالمدارس  
الأجنبية

ووهب (سعيد) أيضا بناية بمصر للارشالية الأميركية في سنة ١٨٥٥ — وهي سنة  
قدومها الى الديار المصرية ؛ ثم ساعد على توطيد أقدامها في القطر ونشر لواء معارفها  
فيه . وجاد ، كذلك ، على أول مدرسة ايطالية حكومية تأسست في القطر ، في عهد ،  
بمبلغ ألفين وأربعمائة جنيه ، ووهبها ثمانية آلاف ذراع في هقطة من أحسن جهات  
الاسكندرية .

وبما أنه كان مغرما بالجيش والفنون الحربية ، لم يكن يسهه أن يهمل التعليم العسكري  
في جملة ما أمهله من أنواع التعليم المصري . لذلك رتب ونظم بكيفية نهائية مدرسة

والتعليم العسكري

القلعة الاحمدية في أغسطس سنة ١٨٥٦ ؛ ووضع ، على رأسها ، الشيخ العالم الفاضل رفاعة بك رافع ، الذي لا يختلف في جدارته وسعة معارفه اثنان ؛ واحمد برنابج سيرها ودروسها المشتمل على ١٧ مادة ، أهمها : (١) أن عدد الطلبة مائتان ؛ (٢) أنهم يقبلون فيها من سن ١٢ الى سن ١٨ ، مشروطا أن يحسنوا القراءة والكتابة ، لكي يتمكنوا من اتباع سير الدروس منذ السنة الأولى . ويكون لهم الخيار ، فيما بعد ، بانتخاب المضمار الذي يريدون أن يمحروا شوط حياتهم فيه — ولو أن تربيتهم عسكرية محضة — فيدرسون العلوم التي تؤهلهم لأن يكونوا مهندسين أو أطباء أو ضباطا الخ ؛ (٣) أنهم يتعلمون كلهم العربية بأفرعها بلا استثناء ؛ ويتعلم التركية والفارسية من يرغب منهم ؛ ويتعلم كلهم لغة ، على اختيار كل منهم ، من اللغات الأجنبية الآتية ، وهي : الإنجليزية ، والألمانية ، والفرنساوية ؛ كما أنهم يتعلمون الخط ، والحساب ، والهندسة ، والجبر لغاية معادلة الدرجة الثانية ، وحساب المتطابقات المستقيمة المخطوط ، والرسم الخطي ، والتصميمات العسكرية ، والجغرافيا العامة ، والتاريخ ، والتجارين ، والحركات الحربية ، وفق التخصيص — كل ذلك في ظرف خمس سنوات أو أربع ، حسبما يرى الأساتذة المدرسون ؛ (٤) أن يعطى كل طالب مائة قرش صاغ شهريا ، زيادة على غذائه وملبسه وسكناه وتعليمه والأدوات التي تلزمه .

وفيما صدنا ذلك ؛ فإن حالة التعليم ، على العموم ، ساءت في أيام (سعيد) مما كانت عليه في أيام (عباس) ، وآلت الى البوار . فبينما كان عدد الطلبة ، المتعلمين على نفقة الحكومة في أيام (محمد علي) الزاهرة ، نيفا وعشرين ألفا ، ونزل عند موت الباشا العظيم الى أحد عشر ألفا ، فإنه استمر يتناقص ويقل ، حتى لم يعد في أوائل حكم

(سعيد) ، إلا بضع مئات ؛ وقضاهت ميزانية التعليم حتى انحطت في سنة ١٨٦٢ الى ستة آلاف جنيه فقط ستويا !

حق والحالة هذه لعقوب أرتمين باشا أن يقول : "انه يمكن اعتبار المدة ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦٢ ، فيما يخص بالتعليم العام والمعارف العمومية ، كأنها معدومة<sup>(١)</sup> ؛ وحتى لماك كون أن يقول : "ان ميدان العمل في هذه الوجهة ، كان مفتوحا وخاليا على سبته ، أمام (اسماعيل باشا) عند ما تبوأ عرش أبيه وجده<sup>(٢)</sup> .

ميدان العمل  
أمام (اسماعيل)

فدأب يعمل فيه ، ويعمل ، لا لمجرد إنشاء جيش قوى يركن اليه في المهمات ، بل لمصاحبة الأهالي وترقية مستوى البلاد العقلي ، حتى حركت همته الشماء المهم ، وحق للتاريخ أن يدنو عهد "عهد إحياء العلوم والمعارف بمصر" . فبينما الليل نعيم داس ، اذا بنور سطع وبدد غياهب الجهل .

وتتقسم حركة التعليم في عهده الى خمسة أقسام : (الأول) ما كان منها في المدارس التي أنشأتها الحكومة ، وقامت بالاتفاق عليها ؛ (الثاني) ما كلف منها في مدارس المساجد والأوقاف والكتائب القديمة ؛ (الثالث) ما كان منها في مدارس أفراد من الهيئة الاجتماعية الاسلامية ؛ (الرابع) ما كان منها في مدارس الطوائف الشرقية غير المسلمة ؛ (الخامس) ما كان منها في مدارس الجاليات الأجنبية .

تقسيم حركة التعليم  
في أيامه

على أن عناية المليك ، الساهر على الرقي العام ، أشرفت عليها من عل وأظلتها كلها بظل وارف .

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" لعقوب أرتمين باشا ص ٩٢

(٢) أنظر : "مصر كما هي" لماك كون ص ٢١٠

## ١ - المدارس التي أنشأتها الحكومة

لما تبوأ (اسماعيل) سدة لم يكن في القطر من مدارس سوى مدرسة ابتدائية، ومدرسة تجهيزية، والمدرسة الحربية في القلعة، ومدرسة الطب والصيدلة والولادة التي أنشأها كلوت بك - وكلها بالعاصمة - ومدرسة بحرية بالاسكندرية، وكانت جميعها في حالة سيئة من حيث مكانها ونظامها والتعليم والتربية فيها .

فعهد (اسماعيل) بأمر إصلاحها الى أدهم باشا - وهو ثاني من تولى وزارة المعارف بالقطر المصري في عهد (محمد علي) الكبير، واستمر على دفتها ، بعد وفاة مصطفى بك غنار، أول وزيرها، عشر سنوات أي من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ - وأقبل ينشئ خلفها بجهته العالية . فتأسست في سنة ١٨٦٤ مدرسة رأس التين ، بجوار السراي الخديوية بالاسكندرية، ومدرسة الناصرية بمصر، في الشارع الموصل من عابدين الى مسجد السيدة زينب، مكان القصرين اللذين كانا للأميرين الملوكين حسن كاشف وقاسم بك ، في أيام الحملة الفرنسية ، وخصصا بالجمعية العلمية المعروفة باسم "الاستشقيوت" حيث كان يجتمع يونانيرت وكليبر وفوربي ومونج والتسعون طالبا الآخرون، الذين رافقوا تلك الحملة، وأنشأوا مجموعة الكتب العلمية المتخصصة بمصر، التي كانت من أكبر أسباب إعادة الحياة اليها .

وظهرت المدرستان المذكورتان بمظهر جديد لم يعهده معهد علمي مطلقا من المعاهد السابقة وتجلتا - الأولى تحت إدارة ناظرها أحمد بك نصفي، والثانية تحت إدارة ناظرها برعي افندي - عنوان النظافة التامة والنظام الكامل . وعلمت فيهما العربية ، والفرنساوية ، والانجليزية ، والألمانية ، والجغرافيا ، والرسم الخطي ،

والحساب العادى، والحساب العالى، والقرآن لنهاية الفرقة الرابعة، والتركية بدله من الفرقة الرابعة لما فوق .

وانتظم الطلبة فى سلكيهما، قسمين : داخلية وخارجية . على أنهم كانوا يتفدون جميعا فى غرقى طعام عظيمتين، هذا أبناء الليكوات والباشاوات فى مدرسة الناصرية فانهم كانوا ياكلون على حدة .

وفى سنة ١٨٦٥ تأسست فيها، فى سراى (عباس الأول)، مدرسة عظيمة حوت ثلاثمائة طالب يعلمهم أحد عشر أستاذا ؛ ومدرسة أخرى بنى سويف ؛ وغيرها بالمنايا ؛ وسادسة بأسىوط . وحوت كلها نيفا وستمئة وواحد وثلاثين طالبا، منهم ٥٠٢ داخلية .

وبسبب الاتساع الزائد ، الذى اتخذته الصناعات المصرية على أثر ارتفاع الأسعار القطونية الناجم عن الحرب الأهلية الأميركية ، قرر (إسماعيل) فى سنة ١٨٦٥ عينا إنشاء مدرسة للفنون والصنائع . فوضع نوبار باشا نظامها بمساعدة فنى فرنساوى ، يقال له المسيو مونييه : ولكن الكوليرا أوقف نموها وحال دون انتظامها . ثم شغلت الأفكار عنها بالمشاغل السياسية التى أفضت بها سنة ١٨٦٦ بيد أنه ما وافقت السنة التالية إلا وطاد شريف باشا — وكان ناظرا للعارف — الى موضوعها ، ووفاه حقه .

فتفتحت المدرسة أبوابها فى سنة ١٨٦٧ تحت إدارة فرنساوى خبير يقال له المسيو الوابى جون ، ودرس فيها أحد عشر أستاذا وحريفا ؛ وجعلت مائة التعليم فيها ثلاث سنوات ، أولا، ثم حمسا . وشمل البرنامج : الرياضة ، والكيمياء ، والرسم ، والتوبوغرافيا، والفرنساوى، والانجليزية، والهندسة، وكل صنعة وحرفة .

ولما كانت الألفاظ الفرنجية الاصطلاحية، الخاصة بالفنون والصنائع، غير متداولة على الألسن إلا قليلا، ولا يعرف إلا القليلون جتنا مقابلاتها العربية، ألف المدير، الواجى جون المذكور، قاموسا فرنساويا انجليزيا عربيا لها، يحدد بمكتبة كل ذى فن وصناعة الإزدیان به .

وفي سنة ١٨٧٦ أنشئت ثلاث مدارس صناعية فيها، ليحول اليها التلاميذ البلقاء في المدارس الابتدائية، بدلا من تحويلهم الى المدارس الحربية، فيتعلمون فيها، مدة خمس سنوات، صنائع يتعيشون منها في مستقبل حياتهم . وكانت تباع المصنوعات، التي يصنعونها في مدة دراستهم، ويحفظ ثمنها على ذمتهم، ثم يشتري بها أدوات صناعية، وآلات لكل منهم تصرف اليه حين مغادرته المدرسة، ليدخل ميدان الحياة وهو متسلح بها .

وأنشئت في هذه المدة عينها، في العباسية، مدرسة أولية، ومدرسة إعدادية، خلاف جملة مدارس عسكرية وحربية سياقى الكلام عليها في غير هذا المكان . وتلا ذلك انشاء مدرسة هندسية ملكية كبرى، عرفت باسم "المدرسة البوليتكنيك" وأحضرت اليها الأساتذة من فرنسا ومن ضمنهم المصيرى جليون دالجلار، صاحب الرسائل المتعة عن مصر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ وعهد بمسألتهم الى أساتذة مصريين، من الذين تعلموا بفرنسا على نفقة الحكومة .

وكانت الهجانية أساس التعليم، في هذه المدارس كافة، وتشمل الكسوة والطعام أيضا .

غير أن هذا جميعه لم يكن سوى باكورة العمل . فسرطان ما أدرك الخديوى أن إنشاء بضع مدارس، مستقلة الواحدة عن الأخرى، قليلا أو كثيرا، ومشتغلة كل

منها على حدة، بدون ارتباط بنيرها، ويرتاج خصيص بها، لا يؤدي الى ما يرى اليه من تعميم التعليم ونشره بين أفراد أمته. فكلّف لجنة تحت ادارة علي باشا مبارك ناظر المعارف والأشغال العمومية، منذ ١٥ أبريل سنة ١٨٦٨ بوضع قانون أساسي للتعليم العام، تكون المدارس، بموجب، كلا منظما اجزاء متدرج بعضها في بعض .

لائحة ١٠ رجب  
سنة ١٢٨٤

فاشتغلت تلك اللجنة بهمة وعزيمة صادقة، وأخرجت، الى حيز الوجود، اللائحة المعروفة باسم "لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤" وهي لائحة ذات أربعين بنداً مبدئية على مبدئين أساسيين، هما : تضامن جميع المدارس في نظامها وتعليمها، ومساواة المعاهد التي من درجة واحدة مساواة تامة في جميع الأمور .

فقسمت المدارس الى ثلاثة أقسام : ابتدائية — وهي الكتائب ومدارس المديرية — وثانوية، وطالبة، خلاف المدارس الخاصة .

أما الكتائب — وقد كانت نيفا وخمسة آلاف، وبقيت لسنة ١٨٧٤ مستقلة عن الحكومة، بطلابها الزائد عددهم على المائة والعشرين ألفا، وفقهاؤها الذين كان معظمهم من العميان — فان اللائحة لم تدخل، على المنتشرة منها في القرى، تعديلات محسوسة، غير إلزامها بتعليم الحساب . ولكنها شددت على ذات المركز المهم منها، برفع مستوى التلامذة العقل، لكي تؤهلهم للدخول في مدارس أعلى منها درجة، كما أنها شددت عليها بالصيرورة الى مدارس ابتدائية حقيقية، وذلك بما وضعت من تعليمات وإرشادات للفقهاء فيها، وبما قرره لها من كتب، وأدوات مدرسية، وإدخال تعليم لغة أجنبية ومبادئ الجغرافيا والتاريخ على برنامجها .

وأما مدارس المديرية — وهي مدارس ابتدائية حقة — فان اللائحة المذكورة قررت تعميم إنشائها في بنادر المديرية كافة، على نظام مثيلاتها في أوروبا، وجعلت



برامج التعليم فيها كالآتي : القرآن ، العربي ، الفرنسية أو الانجليزية ، الحساب ، التاريخ ، الهندسة ، الرسم ، وجعلت الأصل فيه المجانية المطلقة ، سواء في ذلك الطلبة الداخلية والطلبة الخارجية .

وأما المدارس الثانوية ، فقرر أن تكون سبعا : ثلاثا في مديريات الوجه البحري ، وأربعها في مديريات الوجه القبلي ، وأن تكون المجانية المطلقة الأصل في التعليم فيها أيضا .  
وأما المدارس العالية ، فجعلت تسعا : ثمان منها في مصر ، وواحدة بالاسكندرية .  
وكانت أهمها كلها مدرسة البوليتكنيك ومدرسة الطب .

أما البوليتكنيك — وكان يقال لها أيضا مدرسة المهندسخانة — فقد أنشئت أولا في العباسية ، ثم نقلت الى درب الجميزة ، في سراي الأمير مصطفى فاضل ، أنشئ الخديو ، حيث كان مقر وزارة المعارف ، وكان تلامذتها الستون كلهم داخلية ، ويتعلمون ، في ست سنوات : الرياضة العليا ، والكيمياء ، والطبيعة ، والجولوجيا ، والميكانيكية ، والعربي ، والفرنساوي أو الانجليزي ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم .  
وكان التابغون في الرسم كثيرين . ولا غرابة : فعصرى اليوم انما هو حفيد مصرى العهد الفرعونى .

ولما كانت تلك السراي واسعة جدا ، فقد نقلت اليها مدرسة الادارة ، وعدد طلبتها خمسون ، ومدرسة المحاسبة والمساحة ، ومدرسة اللغات ، والمدرسة التجهيزية وطلبتها خمسمائة وخمسون ، معظمهم خارجية .

ووجد ، مع ذلك ، متسع لمسرح فسيح ، كانت تقام فيه الامتحانات العامة السنوية العالية ، ولكتبة نفيسة ، أنشأها في سنة ١٨٧١ على باشا مبارك ، وربها

في ست حجر، وكانت فيها طائفة من كتب مكتوبة بخط اليد في لغات متعددة لا سيما العربية؛ وأهمها نسخ قرآنية وجدت على قبور مؤسسي المساجد من سلاطين مصر السالفين، وكانت ذات أهمية تاريخية عظيمة، لأن الواحدة منها كتبت ووضعت على قبر مؤسس المسجد في بحر السنة التالية لموته؛ فكانت تدل على تطور الخط العربي، على مزايا أيام؛ وتساعد على تحقيق عصر بناء تلك المساجد، والتثبت من مواقيت التاريخ العربي.

وأنشئ، في تلك المراسم، أيضا في ١٢ يوليو سنة ١٨٧١ معمل طبيعيات، تام الأدوات، يضاهي أكبر المعامل الأوروبية التي من نوعه.

وانما ذكرنا المعمل والمكتبة والمرح، عند كلامنا على مدرسة البوليتكنيك، لاقترانها بها في فكر عموم مصري ذلك العهد، بسبب وجودها معا في محل واحد. وأما مدرسة الطب—وقد قلنا كيف تأسست وألغيت ثم أعيدت الى الوجود— فلم يكن لها من مثيلة في الشرق كله؛ وكانت تنقسم الى قسمين: قسم الطب والجراحة، وقسم الصيدلة. ومدة التدريس في كل منهما خمس سنوات: منها سنتان لاعادة العلوم الأدبية، المعامة في المدارس الثانوية واتمامها؛ والثلاث السنوات الباقية، للطب والصيدلة. وكان عدد طلبتها، في سنة ١٨٧٦ مائة وخمسة وتسعين طالبا، كلهم داخلية ماعدا عشرين. وبما أن تعليم التلامذة الداخلية، وطعامهم، ولبسهم، ومقامهم، كتعليم الخارجية، كان مجافا، فان تخرج الطبيب الواحد كان يكلف الحكومة ثلاثة عشر ألف فرنك، وتخرج الصيدلي الواحد أربعة عشر ألف وخمسمائة فرنك؛ ولذا فان الداخلية كانوا يلزمون بالاستعظام في الحكومة، بعد نيلهم دبلوم الطب أو الصيدلة، وأما الخارجية فكانوا أحرارا.

وكان معظم الأساتذة ، في القسمين ، من المصريين الذين تعلموا بأوروبا ؛ فلم تكن مرتباتهم ، والحلقة هذه ، ضخمة كما لو كانوا محضرون ، خصيصا ، من أوزوب . وكان ، في المدرسة ، مستشفى مدني وعسكري على أحسن شكل ؛ ومعمل كياوي خاص بقسم الصبيلة تحت إدارة جستيل بك ، ليس له مثل ؛ وبستان نباتي ؛ ومكتبة شاملة ؛ ومجموعات تجهيزات تشريحية ؛ ومجموعات تاريخ طليبي ؛ وكلها مختارة اختيارا حكيما .

ثم استدعى (اسماعيل) من سويسرا أستاذا خصيصا في التعليم وحركته ، يقال له المسيو دور ؛ وبعد أن أنعم عليه برتبة البكوية ، عينه مفتشا عاما للمعارف ، وكلفه بتنظيمها ، وتوسيع نطاقها على النمط الفرنسي ؛ ورتب مجلسا أعلى للإشراف على شؤون المدارس ؛ وخص وزارة المعارف بميزانية سنوية ، تراوحت بين سبعين وثمانين ألف جنيه . ولما اضطره ، فيما بعد ، اتفاقه على المنافع العمومية الأخرى ، والشؤون السياسية المختلفة ، الى الاقتصاد من ذلك المبلغ قليلا ، وهب تلك الميزانية ايراد تفتيش الوادى — بعد أن استرده من شركة قناة السويس ، مقابل مبلغ عشرة ملايين من الفرنكات — وكان مجموع ذلك الايراد ستمائة ألف فرنك سنويا . على أن مصروفات ادارة التفتيش كانت تستغرق جزءا كبيرا من هذا المبلغ ، فأخذها (اسماعيل) على عاتقه الشخصي ، وقرر ستمائة ألف فرنك سنويا للمعارف بكيفية ثابتة .

فقام دور بك بمهمته ، بعزم صادق وهمة مالية ؛ وبعد أن درس موضوعها درسا عميقا ، وأجرى بعض تعديلات في المدارس الموجودة — كتحويله مدرسة الادارة الى مدرسة حقوق ، (شرح ناظرها المسيو فيدال بيلم القانون الروماني والقانون الفرنسي فيها ؛ ويقارن بينهما وبين باقي الشرائع ، توطئة وتمهيدا لتخريج رجال

حقوقيين تكون فيهم الكفاءة للجلوس على منصات القضاء المختلط الذي كانت المحاكمات دائرة في أمر انشائه مع الدول صاحبات الامتيازات) ؛ وبجمله مدرسة اللغات مع هذا لتخرج مترجمين ومنشئين ، يشتغلون في الادارات ، أو في إنجراج ما يلزم من الكتب للمعاهد العلمية ؛ وكأضافة قسم طب يبطرى الى مدرسة الطب انتظم في سلكه نمسون طالبا ؛ وانشاء قسم فلكي في سراى الأمير مصطفى فاضل السابق ذكرها - ووضع ، للدارس عامة ، المناهج الوافية ، الكافلة بلوغ الأمانى ونيل المنى ، فيما لو نفذت برمتها .

ولكن تنفيذها التام كان معسرا ؛ وجعل مجهودات الخديو ووزراء معارف أمته ومساعديه كان ضائعا في مجموعه لسبيين : (الأول) قلة المال ، بالرغم من تعاقب النفعات الخديوية ؛ و(الثاني) قلة الرجال ، بالرغم من استحضار الأساتذة من أوروبا ، وحف ارسالية الطلبة المصريين فيها بكل صنوف العناية .

أما قلة المال ، فلأن الحركة التمدينية التي قام بها (اسماعيل) ، تناولت كل مظاهر الحياة القومية ، والحياة الاجتماعية ، ومكنوناتها ؛ واستغذت معظم ايرادات البلاد وايراداته الشخصية . ومالم تستغده تلك الحركة ، ابتلعت المساعي الى الاستقلال والى احلال الدولة المصرية من مصاف الدول العظمى في المحل اللائق بماضيها الفرعونى وحاضرها العلوى ، كما سترى في البابين التاليين : فلم يعد في حيز الامكان الاتفاق على التعليم ، أكثر مما كان ينفق عليه ، بالرغم من شدة الرغبة في توسيع دائرة الإنفاق .

على أنه لا يجب أن يستنتج من ذلك فكرة تحط من قدر المجهود المبذول في هذا السبيل : فانه بينما كانت ميزانية التعليم بمصر تقاروح بين السبعين والثمانين ألف جنيه

سنويا ، ولا تقل عن الستين ألفا حتى في أسوأ سنى العسر المالى — وذلك غير المتفق على المدارس الحربية والبحرية التابعة لميزانتي وزارتي الحربية والبحرية ، وغير ما كانت تنفقه ادارة الأوقاف على عموم مدارس المساجد والكتائب — لم تكن ميزانيته في تركيا تزيد أبدا على الخمسين ألفا حتى في أجود سنى الرخاء — وذلك بالرغم من أن سكان تركيا كانوا سبعة أضعاف سكان مصر ، وبالرغم من أنه لم تقم في تركيا حركة تمدينية البنة كالحركة التي آثارها (اسماعيل) بمصر ، ولا ألزمها مركزها السياسى بنفقات في غير أبواب الادارة الداخلية ، كما ألزم مركز مصر السياسى الحكومة المصرية بها .

مضافا مبدأ  
المجانة المطلقة

على أن مبدأ المجانية المطلقة في المدارس المصرية — وقد كان مبدأ معلوما كلية في تركيا — هو الذى كان يعمل المبلغ المخصص لميزانية التعليم غير واف بالمراد ولا مساعدا على القيام بالمقصود . وذلك لأن مصاريف طعام التلامذة وكسوتهم ومسكنهم ، ناهيك بما كان يتقاضاه بعضهم من المرتبات الشهرية ، على زهانتها ، كانت تبطل ثلاثة أرباع الميزانية ، ولم تكن مرتبات المعلمين تستغد أكثر من الربع الباقى ، وكانت ، لهذا السبب ، زهيدة حتما ، وغير مشجعة على العمل ، فمرتبات معلمى المدارس الثانوية ، مثلا ، كانت تتراوح بين مائتى قرش وسبعائة ونحسين قرشا شهريا .

ولم يحسم عن جعل المجانية أساسا للتعليم ضرران عظيمان : (الأول) اضطراب الحكومة ، مع تقدم الأيام وتغير عقلية الأمة فيما يختص بإرسال أولادها الى المدارس ، الى حصر عدد التلامذة ، الممكن قبولهم في المدارس الأميرية ، ضمن دائرة محدودة ، وحرمان الكثيرين من الراغبين في التعلم من ثمرات العلم الشمية . لأنه ، لما كانت نفقات

التأهيد الواحد يكلف الحكومة ستة وعشرين جنيها سنويا، بين تعليم وأدوات تعليم ولبس وأكل ونوم، لم يعد في الاستقامة اجابة طلبات جميع الراغبين في الالتحاق بالمدارس بل ولا جلها، وبات من الحتم الاقتصاد على محلات معلومة في كل مدرسة بالرغم من أن الدفعة القوية التي صدرت عن (اسماعيل) للشؤون العالمية، أدت، في ظرف عشر سنوات، الى انشاء المدارس الأولية على النظام الأوروبي في المديرية، والى تشجيع التعليم الابتدائي في الكتائب ومدارس المساجد وغيرها، مما سيأتي بيانه . والى مثل هذه النتيجة، وهي الاقتصاد على محلات معلومة في المدارس وحرمان الكثيرين من الراغبين في التعلم من ثمرة العلم الشمية، وصلت حكومتنا اليوم، بسبب مغالاتها في الاتفاق على تشييد معاهد التعليم، وافراطها في المرتبات الضخمة الممنوحة للاساتذة الأجانب .

والضرر الثاني فقدان الطلبة حرية اختيار المدرسة الثانوية أو العليا، التي يميلون اليها ميلا طبعيا، بعد فراغهم من تلقى دروسهم الابتدائية . لأن الحكومة، المتولية الاتفاق عليهم، كانت ترى نفسها أحق منهم بذلك الاختيار : فتصرف فيهم كما تشاء، تصرفا كثيرا ما كان غير الحكمة رائده، لأن الصلف والظروف تجعله في يد وزير دجا تموزه الحكمة .

مثال ذلك ما حدث حينما خلف قاسم باشا في ديسمبر سنة ١٨٧٢ شاهين باشا على دست وزارة الحربية، فانه رأى في ١١ فبراير من السنة التالية أن يعزز هيئة الضباط، ويضاعف عدد تلامذة المدارس العسكرية؛ فطلب الى بهجت باشا وزير المعارف أن يسمح له بأن يختار من مدارس الحكومة المدنية، الشبان الذين يحتاج اليهم؛ ولم يسع بهجت باشا إلا موافقته، لتلا يرمى بأنه يريد إضعاف قوة مصر

المداخلة عنها . فاختار قاسم باشا ١٤٤ طالبا من التحضيرية ، و٦٥ من التجهيزية ، و٩٦ من المهندسة ، بحيث لم يعد في الفرقة الأولى منها سوى تلميذين من الثلاثين الذين كانوا فيها . .

ولولا تداخل بعض العقلاء ، والقائهم بنظر الخديو الى ذلك الخلل — فتلناه (اسماعيل) — لنفذ قاسم باشا مرامه وأحل الخراب بمجلة بالمعاهد العلمية<sup>(١)</sup> .

ومثال ذلك أيضا ، ما كان يتبع ، عادة ، في أمر الأذكياء والبلدء من طلبة المدارس الأولية : فانهم كانوا يرسلون الأذكياء الى المدارس المدنية العالية ، ويرسلون البلدء الى المدارس الحربية . فيتخرج الأذكياء من مدارسهم المدنية ، وأعلى مرتب شهري يمكن أحدهم الطمع فيها ، عشرة جنيهات مصرية ؛ بينما البلدء يتخرجون من المدارس العسكرية ، ضباطا ؛ أقل مرتب شهري ، يربط للواحد منهم ، أعلى من أقصى مرتب يطمع فيه الذكي الملكي ؛ فتلبط بذلك همه كل ذكي ، ويصبح مرثا الى التظاهر بالبلادة والغباوة ، حرصا على سعادته المستقبلية ، وتمتلا بقول ابن الراوندى :

رزق الثيوس يمينها بسهولة \* وذوو الفصاحة رزقهم مسجون

ان كان حرماني لأجل فصاحتي \* فامنن على من الثيوس أكون

ومثال ذلك ، أخيرا ، ما كان يعمل سنويا ، في الخاق الطلبة بهذه المدرسة العالية أو تلك ؛ فانهم كانوا يجمعون المتخرجين من المدارس التجهيزية وقسمونهم الى عدة مجاميع ، يوزعونها بطريقة الاقتراع ، على مدرسة الطب ، والمدارس المجتمعة في سراي الأمير مصطفى فاضل ؛ ثم يعودون فيدخلون مدرسة الطب ، بطريق الاقتراع أيضا ،

(١) انظر : "التعليم بمصر" لمعديك ص ٣٠٤

ثلاثة أرباع المجموع الذى يكون قد أصابها ، ويدخلون الربع الباقي فى مدرسة الصيدلة ، ثم يعملون العملية عنها فيما يختص بمدرسة الهندسة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة اللغات ، وهلم جرا ، بدون مبالاة بما ينجم عن ذلك من إجحاف بميول التلامذة ، وقهر للكفايات على الانتشار فى ميادين غير التى خلقت من أجلها .

ودام مبدأ الاقتراع هذا بمضاره معمولا به حتى سنة ١٨٧٦ ، إذ ألغاه رياض باشا وزير المعارف فى ذلك العام ، وصاحب الأيادى البيضاء على التعليم الابتدائى ، بما بذله من مجهودات فى سبيل تحسين حال الكتائب ، وترقية معلومات الفقهاء .

وهكذا كانت المجانية — التى كثيرا ما حجبها فى الأيام السالفة قصيرو النظر من الأميين وغيرهم ، وما زال يحجبها بعض الكتّاب الاجتماعيين لغاية أيامنا هذه — أعظم مانع لانتشار المعارف والتعليم بمصر فى ذلك العصر !

ونجم عنها زيادة على ما ذكر ، قلب النظام العسكرى على معظم المدارس . ولا نستطيع أن نجزم أكان تغلبه هنا خيرا أم شرا عليها ، لأسباب لا تخفى على القارئ اللبيب : فان البلاد كانت فى حاجة الى روح الشئمة فى حفظ النظام ، بقدر ما كانت فى حاجة الى انبثاث روح الحرية والاستقلال فيها . فققدانها الروح الأول كان من شأنه أن يجرمها فائدة التعليم ، وققدانها الروح الثانى كان من شأنه أن يديم استكاثها الى النسل الموروثة عن القرون السالفة . وبما اننا لسنا من مذهب القائل بتفضيل الجهل ، مع الاستقلال ، على العلم ، مع عدمه ، لأننا على ثقة تامة من أن الجهل جار ، حتما ، فى نهاية الأمر ، الى الاستعباد والنذل ، والعلم مفض ، حتما ، فى نهاية الأمر أيضا ، الى الاستقلال والكرام ، إلا اننا اقترض خور فى الأخلاق سيئله ، فانا نتردد فى إبداء حكم بات فى الشأن الذى نحن فى صدده .



وأما قلة الرجال ففلسبيين :

(الأول) أن الفترة المشؤومة ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦٣ أقصت كثيرا عدد المصريين أولى الكفاءة لمباشرة شؤون التعليم ، وأضاعت ممن تبقوا ، الثقة في أنفسهم والاعتماد عليها . فنجم عن ذلك أن وزارة المعارف كانت في اضطراب دائم الى استدعاء نظار المدارس للتعاون بهم على الأعمال الادارية والفنية فتمطلهم عن أشغالهم ؛ وإن نظار المدارس باتوا يستشيرون الوزارة في جميع أمورهم حتى النافذة منها — فتعرقل حركة إدارتهم — ونتيجة الأمرين اختلال النظام في طرق التعليم وفي نفاذها .

و (الثاني) هو أن ازدياد عدد الطلبة ، لا سيما الداخلية ، ازديادا مطردا في السنوات الأولى من حكم ( اسماعيل ) أدى حتما الى ازدياد الشعور بالحاجة الى معلمين ، وإلى وجود عدم الكفاية منهم . فان الأهالي ، بعد أن كانوا في أيام ( محمد علي ) وخلفائه الأولين ، يمانون في تعليم أولادهم مما نمتهم في تجميعهم — لارتباط الأمرين معا في ذلك العهد — فيضطرون ( محمد علي ) الى استعمال القوة والتعسف في أخذهم منهم وإرسالهم ، قسرا ، الى المدارس التي أنشأها ، ما لبثوا أن رأوا الفوائد البهجة العائنة على المتعلمين من أبنائهم ، ورأوا ولد هذا الفلاح الحقير ، وابن ذلك الصانع الوضعي يبلغان ، بفضل العلم الذي تلقياه ، أعلى مراتب التوظيف ، ويحصلان برتبة البيكوية بل برتبة الباشوية الرفيعة ؛ ثم رأوا أن التعليم ليس مجانيا قطع ، بل مكافأ عليه ، ومحوطا بجميع صنوف العناية والمناه ، أقبلا بكل انشراح ؛ يتراحمون على أبواب المدارس ، كل يطمس لابنه فيها محلا ، ويرجوه نصيبا في المستقبل ، كنصيب الذين أسعدهم الحظ من أولاد أقرانه ، بل من أولاد الأخط منه قدرا .

فأخذت الحكومة منهم ، في الأول ، ما كان في استطاعتها أخذه ، ولكنها ما لبثت أن رأت نفسها أمام المعضلتين ، اللتين ذكرناهما : معضلة المال ومعضلة الرجال ، إلا واضطرت الى الوقوف عند حدّ معلوم ، والبحث عن طرق لحلها .

أما معضلة المال ، فإن الوزير الحكيم على مبارك باشا رأى أن خير حل لها هو السير على الخطّة المتبعة ، إذ ذلك ، في المدارس الأوروبية ، أى إبطال مبدأ المجانية البحتة ، وتكليف الأهالى بالانفاق على تعليم أولادهم ، ولو انفاقا يسيرا في بادئ الأمر . فأنشأ مدرستى ماريستان قلاوون والقرية ، وفرض فيهما دفع مصاريف شهرية على الراغبين من الأهالى في الحاق أولادهم بهما . ولما كانت تلك المصاريف زهيدة جدّا ، على كفايتها للاتفاق على الأساتذة القائمين بشؤون التدريس في كلتا المدرستين ، أقبل التلامذة عليهما إقبالا عظيما ، وبلغ عددهم فيهما ، في مئة قصيرة مائتين وخمسين طالبا فبأننا مثالين لجميع المدارس الابتدائية التي أنشئت بعدها .

وأما معضلة الرجال ، فإن دوربك رأى أن حلها لا يكون إلا بإنشاء المعاهد لتخريج مدرّسين للمدارس الابتدائية والمدارس الثانوية . فأنشأ مدرسة دار العلوم ، ثم أنشئت بعدها المدرسة المدعّوة بالنورمال : ( الأولى ) لتخريج أساتذة يقومون بتدريس كل ما كانت اللغة العربية أساسا لتعليمه ؛ و ( الثانية ) لتعليم مستوى التعليم في المدارس الابتدائية ، وتخرج أساتذة يقومون ، على الأخص ، بتدريس اللغات الأجنبية ، والرياضيات والعلوم الأخرى .

ولكنه ، لما كان لابد من الاتجاه الى الأزهر ، لأخذ الطلبة المتقدّمين فيه الى مدرسة دار العلوم ، وتخرجهم فيها مئة سنتين ، ليرسلوا بعدها الى مدارس الرف ،

ليدرّسوا فيها، كان على الأساتذة، المتخرجين من هذه المدرسة، شئ من المسحة الأزهرية، جعلهم لا يرون قاعدة للتعليم خيرا من التي شبوا عليها في ذلك المعهد الديني العظيم .

ولم يدرك دورك تمام الغرض الذي رمى اليه من انشاء دار العلوم ، وهو تخريج أساتذة متشبهين بمبادئ التدريس على النمط الأوروبي ، ومباين الى العمل بقواعد الپيداجوجيا الحديثة . ولكن البلاد نالت ، من انشائها ، فائدة أعظم من التي رجاها ذلك الأستاذ السويسري ؛ لأنها ، لما رأت إقبال المتحمسين على مقنن علوم كان سواد الأمة الأعظم يعتقدونها من بدع الشيطان ، لاعتقاده إياها من غرس طلم غير إسلامي ، من غرس عالم مائقي العالم الاسلامي يظن السوء في نيته نحو الاسلام — وهو الاعتقاد الذي أدى بالأزهر الى مقاومة (محمد علي) مقاومة شديدة ، بالرغم من كونها خفية وصماء ، حينما أقبل يأخذ أولاد الفلاحين المصريين ، ويخرجهم في مدارس ، أو يرسلهم الى مدارس بلاد الكفار (الفرنج) ، مع أنه لم يقاومه مطلقا ، لما كان مقتصرا في بادئ أمره ، على تعليم ممالئكه وغيرهم من أولاد الشرقيين الأجانب عن مصر — ورأت أولئك المتحمسين يمحذون ما يتقونه من تلك العلوم ، ويمظمون من شأنها ، ويبالغون في فوائدها ، أخذت تتحول عن اعتقادها أنها علوم من بدع الشيطان ، وأخذت الرغبة في تحصيلها تنتشر في المجموع ، رويدا رويدا ، وتعم جميع الطبقات . ومن المعلوم أن رقي البلاد برمتها ، ماديا كان أو أدبيا ، مربوط ، في نهاية الأمر ، بنشبع الأمة بمبادئ العلوم الوضعية ، وعملها على اقتباسها ، واقتباسها إياها ، في الواقع .

ثم أنشئت معاهد ، خلاف مدرستي دار العلوم والنورمال ، لتثقيف أساتذة للدارس الابتدائية ، غير من ذكروا ، ممن كانوا يرغون في تحسين معارفهم ، وترقية درجة

معلوماتهم العامة . وجعل التعليم فيها ليس مجانياً ، فقط ، بل ربط جنيده لكل طالب حتى يتبين نجاحه ، أو تظهر خيبته .

على أنه لا قلة المال ولا قلة الرجال حالتا دون قيام (اسماعيل) بعمل تعليمي لم يسبقه اليه أحد في الشرق ، وكان من أنصح الأدلة على حسن نوايا ذلك الأمير ، وبرها برطابه ذلك العمل هو إنشاءه في سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٧ مدرستين للعميان على الطريقة الغربية المعروفة . وهما مدرستان كان القطر المصري ولا يزال في أشد الاحتياج اليهما وإلى مثيلتهما ، لكثرة عدد العميان فيه ، وكثرة فتك الرمد الصليدي بعيون سكانه !

وليس أوقع في النفوس من الوصف الذي يصف به دوربك في كتابه المعنون "التعليم في مصر" الحجرة المخصصة في الأزهر الشريف لتعلم أولئك البؤساء ، وقيام معلمهم بأمر تعليمهم بطول أناة وحسن صبر يستمطران الملتامع من الأعين<sup>(١)</sup> !

على أن التعليم فيها ، إنما كان بتحميل الناكرة أعباء الحفظ ، لا بتعليم اليد القراءة والكتابة لمسا ، بخلاف المدرستين اللتين أنشأهما (اسماعيل) ، فانهما كانتا تستخدمان الكتب ذات الأحرف البارزة ، الخصيصية بالعميان ، لتعليمهم القراءة ، والكتابة ، والحساب ، بالقس ، فوق تعليمهم صناعة الحصر ، والخراطة ، والكراسي ، وغيرها . وما لبثنا أن جمعنا عدداً عديداً من أولئك البؤساء ، الذين كانوا لا يفترقون لحظة عن الابتثال الى الله أن يحف من أحسن اليهم صنعا بجميع صنوف عطايا ونعمه ، وإبقاء حياته وملكه .

وتناول الإصلاح المدرسي ذات المعاهد الدينية ، لا سيما الكبرى منها ، كالأزهر بمصر والجامع الأحمدى بطنطا ، والدسوقي بدسوق ، وجامع ابراهيم باشا بالاسكندرية .

(١) انظر : "التعليم العام بمصر" لدوربك ص ١٧٢ و ١٧٤ و ١٧٥

فالزم الشيوخ المصنّجون فيها بتأدية امتحانات، لنيل اجازة التعليم، واعتراف الحكومة بهم أنهم معلمون .

وكان عدد المجاورين بالأزهر في سنة ١٨٧٦ أحد عشر ألف طالب وخمسة وتسعين، وعدد المجاورين في الجامع الأحمدي ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وعشرين؛ وعدد المجاورين في المسجد الدسوقي مثلهم تقريبا . وأما عند طالبي العلم في جامع الشيخ ابراهيم باشا، فلم يكن سوى أربعمائة وثلاثة عشر .

٢ — مدارس المساجد والأوقاف والكاتيب القديمة التابعة للأوقاف مدارس الأوقاف بما أن ادارة هذه المدارس والكاتيب، طوال مدة حكم (اسماعيل)، تقريبا، بقيت مسندة الى أيدي وزراء المعارف، فان حظ حركة التعليم في المعاهد التابعة لها، والمتولية هي الاتفاق عليها، كان كخط مدارس الحكومة وكاتيبها . وأدخلت عليها التنظيمات والتحسينات التي أدخلت على هذه فلا داعي لزيادة التكلم عنها .

٣ — المدارس التي أسسها أفراد من الهيئة الاجتماعية الاسلامية المدارس الفردية ان أهمها ماتجلى في مدرسة راتب باشا بالاسكندرية؛ وفي مدرسة السيوفية للبنات بمصر؛ وفي مدرسة القبة للأولاد .

فراتب باشا، مؤسس رواق الحفظة في الأزهر، أنشأ بالنفرا الاسكندري، مدرسته المجانية المشهورة، وحسب عليها أوقافا، وأجرى أرزاقا تكفل بقاها الى ماشاء الله . فاقمها، حين نشأتها، نيف وستون طالبا؛ ولكن صدهم مائتي يترايد حتى جاوز المائة . وقد كانوا يتعلمون فيها، في مبدأ الأمر — أسوة بالمدرسة المؤسسة من الأوقاف في النفريهه، والحاوية مائة طالب — القرآن، والعربية، والتركية، والحساب .

ثم تطورت الأيام ، فأضيف الى تعليم ذلك الفرنسية ؛ وما لبثت ثقلبات الزمان أن ذهبت بالتركية أدراج الرياح ؛ ثم ذهبت بالفرنساوية أيضا ، وأحلت الإنجليزية محلها معا .

أما مدرسة السيوفية للبنات ، فقد كانت الأولى من نوعها في العالم الاسلامي . أنشأتها الأميرة تسميا آفت خانم أفندي زوجة ( اسماعيل ) الثالثة ، بإيعاز وتشجيع فعلى من بعلمها الجليل ، على نفقتها الخاصة ، وبشجاعة أديسة نادرة ؛ لاعتبار العالم الاسلامي عملها هذا بدعة غير مملوحة .

أول مدرسة  
سرية للبنات

نعم إنه كان في البلاد مدارس للبنات ، أسستها الأخويات والارسلالات المسيحية ، والطوائف غير الاسلامية ، والجاليات الغربية ، كما سيأتى بيان ذلك ، وكانت بعض بنات المسلمين يؤمها ؛ ولكن الرأى العام الاسلامي لم يكن راضيا عنها ؛ وكان وجوه القوم وكل من يظن في نفسه أنه ذو حيثة يأقف من إرسال بناته اليها لمخالفة ذلك للمعادن المتبعة ، مخالفة تنفر الشعور والأوهام المسلم بها بدون مناقشة .

وقد كان ذلك الرأى العام شديد التأثير الى درجة أن ( محمد على ) الكبير — الذى لم يكن لينحى بسهولة أمام منجته ، ولا يهاب مخظه — أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلى ، المتشرب بالمبادئ الغربية ، والمقتنع بمفهوم تأخير المرأة المتعلمة في الهيئة الاجتماعية ، من وجوب تعليم البنات ، وإنشاء مدارس لهن ، أسوة بمدارس الصبيان ؛ واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهن على يد المنزليدر زوجة أحد مهنرى الانجليز ، التى أنشأت في سنة ١٨٣٥ أول مدرسة افرنجية للبنات في القطر المصري ؛ بتشجيع من تلميذتها النخام بنت ( محمد على ) الكبرى ، زوجة محرم بك أمير الأسطول المصري ، وعافظ مصر الاسكندرية ، المسمى باسمه الى الكبير المشهور في هذه المدينة .

ولما كان الناس — لا سيما الكبراء — على دين ملوكهم، اقتدى بالعزيز الذوات والوجوه، وبدأت تنتشر في البلاد عادة استخدام المرأة معلمات أجنيات، تهذيب بناتهم، وتثقيف عقولهن .

غير أن (محمد علي) لم يكن بالرجل الذي يهمل، بتاتا، أمرا يستفده هاتقا ومفيدا، لمجرد مخالفته للرأى العام، وإذا لم يكن يرى صلاحية فحاده وإجرائه مباشرة، كان ينفذه من وجهه غير محسوس .

فلكى بهز جمود الأمة عن تربية بناتها، هزا يوقظها من نومها، أتاها من طريق سوى؛ وأنشأ بمصاصة كلوت بك، مدرسة قابلات، كانت كل تلميذاتها، في بادئ الأمر، عشر جوارى حبشيات من سراى الخاصة . ولما لم يكن الرأى العام يرى في الأمر بأسا بل يرى بالعكس تعليم النساء فن القباله شيئا مستحبا، ورأى القوم، بعد ذلك من عمل تلك الجوارى عقب خروجهن من المدرسة، ما نهض بهن إلى مقام محمود وأغنى الأمرات التي طلبت مساعدتهن، عن عمل الجاهلات من القوابل، طفق الفقراء يرسلون بناتهم إلى مدرسة كلوت بك بالقصر العيني، حتى توطدت دعائمها، وباتت مع مضي الزمان، من المنشآت الثابتة، التي لا يخشى انهيارها . وآلت النظارة عليها في أيام (اسماعيل) إلى مدام قبلا . فنصت مقاصدها بأربع وأربعين طالبة داخلية، وعشر خارجيات، والذي كان يلفت منها الأنظار هو أن جميع تلك الصبايا كن يتلقن العلوم، وهن مكشوفات الرؤوس، لا طريح عليا، كأنهن غربيات؛ لا شرقيات، بدون أن ينفرد ذلك أحدا من الزائرين — إلى مثل هذا الحد يتغلب الشعور بالمصلحة على الشعور بالعادات الموروثة !

ولم تكن المتخربات من تلك المدرسة قوالب فقط ، بل كنّ طبيبات أيضا ،  
انتشرن بمصر ، والاسكندرية ، وبرزخ السويس ، ودمياط ، ورشيد ، والمديريات  
الأربع مشرة ، انتشار ملائكة الرحمة ، يخففن البؤس عن المريضات ، ويواسين  
العائلات ، فهد ذلك السبيل الى تعليم البنات وكسر من حدة الشعور العام النافر  
من تعليمهن .

وكان (اسماعيل) الراغب في إطلاق بلاده في مضمار الحضارة الغربية ، بهمة تكاد  
تكون عتقا ، لا اعتقاده أن لا سلامة لها إلا بجرها شوطها الطبيعي فيه ، يفظا كل  
اليقظة للصغيرة قبل الكثرة من تحركات الرأي العام فيها . فلم يفته الالتفات الى  
ترجمته القليل من مقوه ، وعزم حالا ، على اغتنامها فرصة ، لتنفيذ أمنيته في التعليم العام  
كانت من أعز أمانى قلبه . ولعله بما انطوت عليه النفوس لا سيما الجاهلة ، من  
إحاطة أجل المشاريع نفعا بسعاية من ريب وظنون ، ولرغبته في أن تقوم ، مقام تلك  
السعاية ، حالة من الشعر ساطعة السن ، أوعز الى ثلاثة زوجاته ، الأميرة تشيما  
آمت خانم بأن تكون أول مدرسة إسلامية تفتح في القطر المصري لتعليم البنات على  
الطريقة الغربية شعاعا من أشعة شمسها .

فاشتريت الأميرة سراي قديمة بالسبوفية ، وهي حى من أكثر أحياء العاصمة سكانا  
وجتدت بنامها ، فصيرتها مدرسة ، وفصعت أبوابها للطالبات في ربيع سنة ١٨٧٣  
وهي السنة التي أشرقت على البلاد بأفراح الأعياد التي أقيمت لترويج الأمراء الثلاثة  
توفيق وحسين وحسن ، أبناء (اسماعيل) الجبار .

ولكنه بالرغم من أن تلك المدرسة جعلت داخلية مجانية ، وأن البنات استندبت  
اليها من جميع طبقات الأمة ، بلا تمييز منهي أو اجتماعي ، وأن الجميع كانوا يعلمون



أنهم يرضون ولّى للبنم بإرسال بناتهم اليها، بالرغم من أن المعيشة فيها جعلت هنيئة، فاحرة، كأن المقيمات فيها بنات أرباب قصور من ذات العيش الرزيد، وأن المعلمات الخمس عشرة اللاتي اخترن لها، ومنهن الناظرة واثنتان افرنجيات، كنّ من خيرة المدرّسات، لم يقع في خلد أحد من الأهالي، في بادئ الأمر أن يبحث بابتنه اليها، لشدة تسلط الأوهام الموروثة، المقبولة بلا تمحيص كنهها على العقول .

فلم نجد الأميرة عدد التلميذات اللازم لمدرستها، واضطرت الى أخذ قتيات الجوارى البيض من بيته وبيوت أميرات الأسرة المالكة وأمرائها، وإدخالهن فيها . غير أن السحر ما لبث أن زال ، والغشاوة التي كانت على العيون ما لبثت أن انقشعت فأدرك القوم حقيقة النعمة التي أسديت اليهم، على يد أميرتهم الجليلة الفاضلة من لدن خديوهم الخازم البار بمصالحهم العقلية والعقلية، وفقهوا الى لغة الطعام الأدبي الذي مدّ (اسماعيل) به المائدة أمامهم . فأقبلوا، من كل ملة ونحلة — أولاد عرب، ونوبيون، وأقباط، ويهود، وشرقيون، من كل الطوائف والأجناس — وتزاحوا ببناتهم، وسنهنّ من سبع الى اثني عشرة سنة، حل أبواب مدرسة السيوفية، ليدخلوهنّ فيها . فامتلات بالداخليات المحلات المعبّدة لهنّ، وعددها مائتان، واضطر الاقبال الادارة الى إنشاء مائة محل أخرى — ولكن خارجية — لمن لم يمكن قبولهنّ في مصاف الداخليات .

فأصدر (اسماعيل)، حينذاك، أمره، الى ادارة الأوقاف، بإنشاء مدرسة أخرى للبنات حل نظام مدرسة السيوفية . فصعدت الادارة به، وأسست في جهة القرية، المدرسة المرغوب فيها . فتقاطرت اليها الطالبات، لا سيما بنات الوجهاء وموظفي الحكومة ومستخدميها، واكتظت بهنّ المقاعد، وزادت الطالبات، مئات مئات

عن المطلوب . فدل الإقبال على المدرستين، دلالة قاطعة، على سرعة تطور المصري الى مقتضيات العصر، حينما يأتيه الإيماز من على .

وكان التعليم ، في كلتا المدرستين — ومدة خمس سنوات — مثله في مدارس أوروبا التي من نوعها ، أى القراءة العربية ، والكتابة ، والحساب ، والرسم ، والجغرافيا ، والموسيقى ، وأشغال الابرّة ، والطبخ ، والفنّسيل ، والتدبير المنزلى ، زيادة على تعلم التركية والفرنساوية ، وتلقين القرآن للسلامات .

ولكن مصروفات التعليم كانت ضئيلة متيلاتها في أوروبا ، لأن المظاهر ، هنا ، كانت نفخة ، منية كظاهر كل ما كان يصدر عن (اسماعيل) ؛ وأما هناك ، فكانت بسيطة ، عادية .

غير أن إقبال بنات الوجاه والكبراء عليهما ، ومزاحمتن بنات الشعب على مائدتيهما ، حملا الخديو على الرغبة في تشييد مدرسة ثالثة ، تكون من العظمة والبهاء في أقصى درجتيهما ، وتعمل خصيصة بترية بنات العائلات الرفيعة ، واليوتوات السنية ، أو المصرية الشريفة ، القديمة .

فصدرت إرادته بتشيلها ، وبوشر ذلك حالا . وأك لتنى في خريطة القاهرة ، المعمولة بمعرفة جران بك سنة ١٨٧٨ ، الموقع الذى خصص لإقامة تلك المدرسة عليه .

ولما كانت عزيمة (اسماعيل) قد توطنت على إبطال الرق ، نهائيا ، كما ستيهه في محله وكان لا بدّ من خدمات تقمن بخدمة المنازل ، بدل الرقيقات المرغوب في عتقهنّ — ولم يكن من وجود لتلك الخدمات بين أهل البلاد ومنهم ، لعدم استدعاء نظمات

القطر الاجتماعية السالفة وجودهن - رأى (اسماعيل) أن ينشئ مدرسة، غير ما ذكره، تعلم فيها بنات ريفيات فقيرات شؤون الخلعة المتزلية على أنواعها . فأسسها في العاصمة على نفقة الأميرة زوجته الأولى، وتحت رعايتها السامية ، ورعاية وزارة المعارف ، وعهد بالنظارة عليها الى سيدة أوروبية ، وضع تحت إدارتها ثمانى معلمات ، منهن واحدة إنجليزية . وأدخل فيها ستا وسبعين طالبة داخلية، وإحدى وسبعين خارجية . فبرزت الى الوجود، من أحسن المدارس المصرية وأكثرها فائدة - وليت لها من مثيلة في أيامنا !

ومما يستوقف النظر من أمر هذه المدارس ، أنه كان يقام فيها بإقتضائيات على أشغال التلميذات اليدوية ، يخصص صافى المتحصل منها بتكوين مال للطالبات الفقيرات ، يصرف لمن عند زواجهن !

ولكن الضائقة المالية ما عمت أن اشتتت ، وازدادت حقاقتها تصعبا . فعصرف البناء الفحم ، الذى أنشئ ليكون مدرسة لبنات الوجهاء ، عما قصد به منه ، واضطرت الأميرة تشيما آفت خانم ، بل إدارة الأوقاف ذاتها ، الى الاقتصاد فى الإنفاق على مدرستيها . ثم ، لما سارت تلك الأميرة السلية الى المنفى ، بصحبة بعلمها الجليل ، سنة ١٨٧٩ ضمت المدرستان الواحدة الى الأخرى ، وبلغ ، فى السنوات التالية ، من تضائل الإتفاق عليهما ، ما آل بهما ، الى الخروج عن دائرة الغاية التى أنشئتا من أجلها ، وصيرورتهما ، ملجأ لبنات المعوزين ، يذهبن اليه ليصبن منه قليلا من الطعام المادى على سبيل الإحسان . وأما مدرسة تربية الخادِمات ، فالتفت ، كذلك ، بعد تنازل (اسماعيل) عن العرش ، بالرغم من شدة الاحتياج اليها ، إرضاء لخصيات أصحاب الديون .

ألا ، قاتل الله داني مصر في ذلك العهد ، قدر ما أساحوا الى البلاد ونهبوا من أموالها ، ووقفوا في سبيل خيرها ! وأغلق معاتب رضوانه على أرواح (اسماعيل) وأزواجه عداد ما نوا من عمل خيرى لبنات مصر وطلقاتها في بابي تعليمهن وتربيتهن ! أما مدرسة القبة ، وكانت ابتدائية وثانوية معا ، فقد أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ، على العهد ، على ففته الخاصة ، وجعلها قسمين : داخلية وخارجية ، فبلغ عدد الطلبة الداخلية خمسين ، والخارجية أربعين . وامتازت عن سائر المدارس التي من نوعها بالناية الخاصة التي حاطها الأمير بها ، والتي جعلت الطلبة يمان من كل صوز .

#### ٤ — المدارس التي أنشأتها الطوائف الشرقية غير المسلمة

إليك بيانها :

##### (١) مدارس الأقباط الأورثوذكس

مدارس الأقباط  
الأورثوذكس

دبت في الأقباط الأورثوذكس روح التعلم ، بما بذله من مجهودات في هذا السبيل بطريركهم الأنبا كيرلس الرابع المشهور عندهم بلقب "الأنبا كيرلس الأكبر عمي العلوم والمدارس" . فما فتوا يسلكون الطريق التي اختطها لهم ، حتى أصبحت مدارسهم في عهد (اسماعيل) : اثنتي عشرة مدرسة بالقاهرة ، وواحدة بمصر العتيقة ، وواحدة بالجيزة ، ومدرستان بالاسكندرية ؛ يتعلم الطلبة فيها : القبطية ، والعربية ، والفرنساوية أو الانجليزية أو الطليانية ، والحساب ، ومبادئ الهندسة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وبعض منطق ، والأناشيد الكنسية .

وذلك خلاف مدرسة إكليريكية بالعاصمة ، يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبي الكهنوت ، اللاهوت ، واللغة القبطية ، والعربية ، والفناء الكنسي .

وكانت أهم هذه المدارس، ولا تزال، المدرسة الكبرى البطريركية. فقد بلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٦ ثلثمائة وتسعة ومبشرين : منهم ٣٠٢ أقباطا أرثوذكسيون - ٤٠ منهم داخلية، والباقيون خارجيون - ١٦٩ مسالما، ويهودى واحد، وثمانية أرمن، وخمسة يونانيون، وسورى واحد. وكان عدد أساقفتها ثلاثة عشر، لهم ستة مساعدون، وعليهم ناظر، رجل فاضل يقال له المسيو ادوار زار .

وكانت هذه المدرسة تمتاز عن مثيلاتها بالامتحانات العامة، التي كانت تعملها، سنويا، في حفلة نخمة، يرأسها حادة وزير المعارف - وكان في الغالب على مبارك باشا - ويحضرها شيخ الإسلام ومفتى الديار المصرية وجم غفير من الأكابر والأعيان والسراة ووجوه البلد؛ ولم يكن يشوبها سوى الجزء منها، الذي كان يقوم فيه خمسة من التلامذة، وهم مرتدون ملابس كهنوتية، ببعض شعائر طقسهم الكلداني، فيوجوبون قنورا في قفوس الحاضرين من غير بني مذهبهم، ويلهبون عن الحفلة، بشكلها المدرسي البحت، المراتحة أفئلة الجميع إليه، ليصبغوها بصبغة دينية لا يرتاح اليها إلا قلوب البعض، وكانت الحفلة في غنى عنها .

وكانت مدرسة حارة السقاين، بتلامذتها البالغ عددهم ١٧٤ - أى ١٧١ قبطيا، ومسالما، وأرمني كاثوليكي - تل المدرسة البطريركية في الأهمية بمصر .

على أن الذي امتاز به الأقباط دون المسالمين، هو أنهم، قبل إقدام الأميرة تشيما آفت خانم على تأسيس مدرسة السيوفية، أنشأوا مدرستين للبنات : أحدهما في حارة السقاين؛ وكان فيها ٤٠ بنتا قبطية يتعلمن على يد معلمات سوريات، اللغة العربية والأشغال اليدوية؛ وقد وقعن من قلب دوربك، حين زيارته لمن موقع الاستحصان،

بميوننّ النيهات، وهياتنّ الظاهر عليها الاهتمام الكلى بالدروس؛ والأخرى بجانب الأزيكية؛ وكان فيها ٨٠ بنتا في سنة ١٨٧٦ يتعلمن ما يتعلمه بنات مدرسة حارة السفارين .

أما باقى المدارس القبطية ، فلم يكن يتعلم فيها غير أقباط ، وكانت جملتهم ٢٥٠ طالبا .

غير أنه ، بالرغم من مجهودات ذوى الفضل من رجال الطائفة ، وبالرغم من أن أغنياءها لم يكونوا بالغر القليل ، لم يكن الأقباط يستطيعوا القيام بنفقات المدارس التى أنشأوها، لولا برّ (اسماعيل) الجليل بهم ، وموالاته لإياهم . فانه — فوق تشجيعه الأدبى لكلى جهودهم ، ووضع سفته البخارية النيلية بكل المؤن اللازمة ، والخدمة الواجبة ، تحت تصرف بطريركهم فى رحلاته الرعوية الى الصعيد — قد وهب مدارسهم ألفا ونعمائة فدان من أطيان القطر الجيدة ، ليشقوا من ريعها على تعليمهم . وبما أن مقدار ذلك الريع كان نيقا وأثنى جنيه سنويا — وكانت ميزانية المدارس القبطية بأسرها لا تتجاوز ٢٠١٥١٨ قرشا صاغا — فانه كان يكفيها تقريبا ، أو يكاد ، بخلاف النفقات التى كانت يده الكريمة تكثر بها عليهم ، بين حين وحين .

فإذا حق لم أن يدعوا الأنبا كيرلس الرابع بطريركهم ”عبي العلوم والمدارس“ فى أمتهم ، حق لم أيضا ، بل وجب عليهم أن يدعوا (اسماعيل) ”حافظ تلك العلوم والمدارس“ ، ويقيموا له تمثالا فى معن مدرستهم الكبرى ، بدار البطريكية المرقسية ، اعترافا منهم بفضل المصمم !

مدارس الأقباط  
الكاثوليك

### (ب) الأقباط الكاثوليك

هؤلاء — بسبب اتصالهم بروما ، وبالتالي ، بجمعية انتشار الايمان الكاثوليكي المسماة "پروپاجندا فيدى" صاحبة المدارس الجملة الشهيرة في البلاد الشرقية — كانوا أسبق اخوانهم المصريين على الاطلاق ، في مضمار التعليم والتعلم ، وأعرفهم فيه . وكانت مدارسهم الابتدائية والثانوية منتشرة ، على الأخص ، في الصعيد ، أى بأسبوط ، وطهطا ، وانعيم ، وجرجا ، وقنا ، وقنا . وكانت حافلة في سنة ١٨٧٦ بنيف وثلاثمائة طالب .

والذى يستوقف الأنظار ، في المدارس الثلاث الأولى منها ، أنها كانت مختلطة ، أى للبنين والبنات معا . وهو أمر غريب في ذاته ، لشذوذه عن مبدأ فصل الذكور عن الإناث ، المعمول به في عموم مدارس الكنيسة على الاطلاق .

مدارس الروم  
الأورثوذكس

### (ت) الروم الأورثوذكس

والكلام هنا على الرعايا المحليين — فقد أصبح لهم ، في عهد (اسماعيل) ، مدرستان للبنات والبنين بمصر ؛ يتعلم في إحدهما ١٤٠ ولدا : اليونانية ، والفرنساوية ، والعربية ، والحساب ، والرياضة ، والجغرافيا ، والتاريخ ؛ وتعلم في الأخرى ١٢٠ بنتا : اليونانية ، والفرنساوية ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والحساب ، وأشغال الابر ، والموسيقى ؛ وأصبح لهم بالاسكندرية — وكان متدعم فيها يريو عليه في مصر — مدرستان أيضا : واحدة للذكور ، وواحدة للإناث ؛ يوم الأولى ٤٣٠ ولدا ، ويوم الثانية ٢٢٢ بنتا ؛ وبين المتعلمين فيهما طلبة كثيرون من مثل أنرى ، وكان برنامج التعليم في كليهما ما كان في مدرستى مصر .

مدارس الروم  
الكاثوليك

## (ث) الروم الكاثوليك

تأخروا عن اخوانهم، الروم الأورثوذكس، في هذا المضمار؛ وربما كان السبب في ذلك قلة عددهم في تلك الأيام، أو قلة ذوى اليسار بينهم، أو أنهم اكتفوا، دهرًا، بمدارس الأخويات الكاثوليكية.

ومهما تكن الحال، فانه لم يكن لهم سوى مدرسة واحدة، فيها ثلاثون طالبًا فقط، بالاسكندرية بملشيه ابراهيم باشا المعروفة اليوم بـ"الملشيه الصغرى"؛ وكان نصيبهم من الحركة التعليمية في عهد (اسماعيل) ضئيلًا جدًا.

## (ج) الموارنة

كان شأنهم أكبر قليلًا من شأن الروم الكاثوليك، ولا تدرى هل السبب في ذلك هو أنهم كانوا أكثر عددًا منهم، أو أن أرباب اليسار فيهم كانوا أكثر منهم في الروم الكاثوليك، أو لما اشتهر عنهم من جد ونشاط وإقبال على العلوم والمعارف، أو أن المنافسة المشهورة بين الطائفتين تناولت مضمار التعليم أيضًا — مهما يكن من الأمر، فانه كان الموارنة ثلاث مدارس ابتدائية بمصر: واحدة بدرب الجينة؛ وثانية بمتنطرة الدكة بالأزبكية؛ وثالثة بشبرا. والثلاث من نوع الكتاتيب البلدية، ولكنها كانت أرق منها ماديًا: لأن الطلبة كانوا يجلسون فيها على نخوت، بدل جلوسهم فوق حصير على الأرض، كما كانت الحال في الكتاتيب.

## (ح) الأرمن

مدارس الأرمن

لم يكن لهم سوى مدرسة واحدة، فيها عشرون تلميذًا. ولكنها كانت ضريبة في بابها؛ لأن ناظرها، وكان المعلم الوحيد فيها — الباباز، أى القس مجرد يتش — لم يكن يعرف غير الأرمنية، والعشرين تلميذًا، المتصفين على يديه، لم يكونوا يعرفون



غير العربية . فكان الأستاذ والتلامذة ، والحالة هذه ، يتفاهمون بالإشارات وتعابير  
العيون و( السيمياء ) ، أكثر منهم بالتكلم والمصادقة . على أن البطريكية الارمنية  
أخذت تعمل على تأسيس مدرسة للطائفة جدية بها ، في دارها في سنة ١٨٧٢

مدارس اليهود

### (خ) اليهود

هذه الأمة الصغيرة بعددها ، الكبيرة بتأثيرها على ماجرعات الأمور ، ما فتئت ،  
على شرفيتها ، أقل من تيقظت الى مقتضيات الأيام . فما رأت لواء العلم منشورا  
في القطر ، إلا وهبت للانضواء تحته ، وقام البررة من أبنائها كيليامين أدزي ، ومبارك  
ملكي ، وإبراهيم كوهين ، وشموئيل أشير ، وروسير أوزيما ، وعلى الأخص صموئيل  
روينو ، ينشعرون الكنائس والمدارس بمصر والاسكندرية للأولاد والبنات ،  
ويعلمونهم فيها الايطالية على أصولها ، والعبرية ، والفرنسية ، والحساب ، والتاريخ ،  
والجغرافيا ، والكموجرافيا ، ويعلمون المتقدمين منهم التلمود — كتاب اليهود الشارح  
للتشريع شرحا يعتبر تشريحا جديدا ، وهو أعز عليهم من التوراة حينها — مرة  
في الأسبوع .

وكانت سنّ التلامذة المتدجين في تلك الكنائس والمدارس تختلف ما بين ثلاث  
سنين وست عشرة سنة .

على أن تلك المعاهد ، ما صلا مدرسة حارة اليهود بمصر ، المؤسسة في سنة ١٨٦٠ ،  
بهمة صموئيل روينو ، برأس مال قدره ألف جنيه ، تبرع به هذا السرى وحده ،  
كانت مشهورة بالقدارة الضاربة أطلانها فيها ، أكثر منها بحسن التعليم وانتظام طرقه .  
فقامت الطائفة برمتها ، وتضافرت ، وأسمت مدرستين حرمين لأولادها وبناتها ،  
إحداهما وهي أكبرهما بمصر ، أتمها ١٧٥ طالبا ، والثانية بالاسكندرية وأتمها ١٤٥

بنّا — وكان سبعون من الذكور، وسبعون من الإناث يهودا مصريين؛ والباقيون يهودا من جنسيات مختلفة . وعلمتهم فيها العبرية، والعريية، والفرنساوية، والإيطالية، والخط، والحساب .

ثم أنشأت، بالاسكندرية، مدرسة أخرى كان حشر التلامذة فيها مجانيين، والباقيون بمصروفات أسبوعية زهيدة . غير أن معظم أولاد اليهود وبناتهم كانوا يذهبون إلى المدارس المنشأة من الغربيين، أكثر من ذهابهم إلى المدارس المؤسسة من طاقتهم . وبما أنهم كانوا يعتبرون العلوم محض أسلحة اجتماعية، لا يحتاجون إليها إلا ليضربوا بها في معترك الحياة، كانوا يتسرعون في اقتباسها، ويكتفون بقشور معظمها أو طلاؤها، غير صارفين عنايتهم أو جلها إلا للحساب والحساب التجاري على الأخص، ويخرجون من المعاهد العلمية، وهم في أول ضعفهم، ببضاعة قليلة، واعتداد بالنفس كبير، وجسارة أكبر، ليندفعوا في ميادين العمل والكسب، فكانت لهذا السبب، قلما ترى بينهم فردا راقيا رقيقا حقيقيا، على قلة عدد الأميين بينهم .

#### ٥ — المدارس التي أنشأتها الجاليات الغربية .

المدارس الغربية

ان ما دار من حركة التعليم في مدارس هذه الجاليات ينقسم إلى قسمين : قسم خاص بمعاهد الأخويات والرهبانات والارسلانيات المسيحية، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية؛ وقسم خاص بالمعاهد المدنية البحتة .

(١) أما القسم الأول، فقد سبق لنا قول وجيز فيه، ولكنا نرى أن نوفيده، هنا، حقه؛ فنقول : ان أقدم مدارس أنشأتها الرهبانيات المسيحية الكاثوليكية بالقطر هي مدارس الآباء الفرنسيسكيين المعروفين بآباء الأرض المقدسة . وكانت تعلم الإيطالية على الأخص، والتعليم المسيحي الديني .

فلما كانت سنة ١٨٤٤، استدعى (محمد علي الكبير) راهبات المحبة والآباء العازاريين الى الاسكندرية، ووجههم محلا نفعا، مكان برج عربي قديم . وأجاز لهم الانتفاع بأقاصيه لبناء المحلات اللازمة لهم، على أن ينشئوا مدرستين لأبناء المدينة . فقامت الراهبات بالشرط، وفتحن مدرسة للبنات، ما فتئت، مع تهادم الأيام، تكبر وتوسع حتى صارت الى ما نراها عليه الآن من الكمال والافتخار في أول الشارع المدعو باسمين "شارع السبع البنات" أو "شارع الراهبات"؛ وأصبح عدد المتعلمين والمتعلمات فيها على عهد (اسماعيل) نيفا وألفا وثلاثين؛ منهم ٨٨٠ بنتا و ١٥٠ ولدا؛ وكان (اسماعيل) يهبها، سنويا، إردبا من البر من كل بنت تتعلم فيها .

وأما العازاريون فبنوا بيتا، وكتيسة، إزاء تلك المدرسة، وأحلوا الاهتمام بإدارة دير الراهبات المذكورات محل الاهتمام بتربية الناشئة . ولكنهم ما لبثوا، أن رأوا أن عملهم هذا محل بالشرط الذي اشترطه الوالي، وأن مثل ذلك الاخلال قد يؤدي الى استعداده الموهوب اليهم منهم .

فاستدعوا إخوة التعليم المسيحي الشهيدين "بالفرير"، وكلفوهم ببناء مدرسة مجانية بالقرب من بيتهم . فلبى الفرير الدعوة؛ وأنشأوا المدرسة المطلوبة؛ وعاشوا مع العازاريين مدة ست سنوات، باتفاق تام، وعلى غاية ما يرام من الوفاء .

ثم تغيرت مجارى القلوب، وما لبث العازاريون إلا ورأوا، أو تخيلوا، اقتياتا من الفرير على ما كانوا يستعدونه حقوقا لهم، دون سواهم . فهبوا الى انشاء مدرسة خصيصا بهم؛ ولما تم بنائها، هتفوا الى الفرير، وأفهموهم أن الضيافة لها حدود تقف عندها، ورجوهم أن يهتفوا لأنفسهم عن محل غير الذي هم فيه نازلون، وذلك في أواخر سنة ١٨٥٢

غار الفرير في أمرهم ، وتخططوا ؛ ولكنهم اضطروا الى الرحيل . فتقدم اليهم آباء الأرض المقدسة ( الفرثسيون ) ، وعرضوا عليهم أن يضيفوهم في المنازل الكبيرة المجاورة لكنيستهم الكاثدرائية الرهوية ، بمنشية ابراهيم باشا ؛ فقبلوا ، شاكرين ؛ ونقلوا مدرستهم الى تلك المنازل ؛ وما عتبت أن اكتظت بالطلبة ، لما اشتهر منهم من الاختناء الخاص بأمر التعليم .

فشجعهم ذلك على فتح مدرسة بالمعصرة في ١٥ فبراير سنة ١٨٥٤ فراجت ، أيضا ، رواجاً عظيماً . ولما كانت سنة ١٨٥٩ ، وهبهم ( محمد سعيد باشا ) معلم الحالى بالخرنقش - في أهم الأحياء الوطنية - ونفعهم بثلاثين ألف فرنك . فأدى ذلك الى نجاحهم ، النبلح الذى ما قى في ازدياد مطرد ، عاما عن عام ، لغاية أيامنا هذه .

وكانت مدارسهم ، في عهد ( اسماعيل ) ، تضم بين جدرانها ، بالاسكندرية ، نيفا وستائة طالب ، منهم ٢٣٠ مجانيون ؛ وبمصر ، نيفا وثلاثمائة طالب ، نصفهم مجانيون ؛ وكانت تعلم ، مع الفرنسية ، الإيطالية ، والعربية ، والموسيقى ، وأهم العلوم الوضعية .

وكانت مصروفات الداخلية بمدرسة مصر مائة فرنك شهريا ؛ وبالاسكندرية ستين فرنكا ؛ ومصروفات نصف الداخلية ٥٠ فرنكا شهريا بمصر ، و٣٠ بالاسكندرية . والذى كان يميز المجانية في مدارسهم عنها في مدارس الحكومة ، أنها كانت خصيصة بالطلبة الكاثوليكين دون سواهم ، في حال أنها كانت ، في الحكومة ، عامة ، لتمييز للذاهب فيها .

أما العازاريون ، فبعد أن انفصل الفرير عنهم ، طفقوا يعلمون في مدارسهم تعليماً قاعدته الطريقة الشهيذة عند الغربيين باسم "كلاسيك" وهي التي قوامها اليونانية القديمة واللاتينية ، والآداب المقتبسة من مؤلفات أشهر الكتاب اليونان واللاتين والفرنساويين ، وأصبحوا يفاخرون ما سواهم بأن ما يتقنه طلبة مدرستهم من اليونانية القديمة لا تباريهم فيه طلبة مدارس أوروبا ذاتها . واشتركوا مع راهبات المحبة ، في إنشاء ملجأ للأيتام — كانت الأول من نوعه في القطر المصري — حوى اثنين وخمسين يتيماً .

وانتدت راهبات المحبة القديسة تريزادي رميت منشقة "أخوية الراعي الصالح" ، وأُسست بمصر في ٦ يناير سنة ١٨٤٦ — وهو يوم عيد الفطاس عند الطوائف الغربية ، وكان لغاية سنة ١٩٠٠ يوم عيد الميلاد عند الطوائف الشرقية — بيتاً لراهباتها ، ليقمن فيه بترية البنات المصريات ، وعلى الأخص التيتيات والفقيرات منهن ، مجاناً . فتن موضوع عناية (محمد علي) وأمراء بيته الرفيع العباد . فتمكن من التوسع ، وفتح مدرسة نخمة ، داخلية ، بشبرا لبنات الأسرات الغنية ، خلاف المدرسة الداخلية المعانية لرغبتين في المحافظة على شعور الفقيرات من أن يفرحن باختلاطهن مع الغنيات ، ورؤيتهن الهناء في المساديات المحيط بهذه والذي هن محرومات منه .

وحذت الراهبات الكلاسيكيات ، أي الفرنسيسكيات ، حذو سابقاتهن ، وأنشأن ، في سنة ١٨٥٩ ، مدرسة بمصر ، بجهة درب رياش ، بالقرب من الأزبكية ، طفقن يعلمن فيها ، بنات الطائفة اللاتينية على الأخص ، وذلك لأن هذه الطائفة كانت ، ولا تزال ، تحت رعاية الآباء الفرنسيسكيين الروحية ، وكان من الطبيعي أن ترسل

بناتها الى مدرستهن ، لاثنتين ، هن أيضا ، الى ماري فرنسيس دسيزي ، مؤسس  
الرهبة الفرنسيسكية .

فضاقت المدرسة بالمائة والسبع والثلاثين طالبة وبنيمة اللائي ملأنها ، وحال  
فقر تلك الراهبات دون التوسع فيها أو انشاء غيرها . وكان (اسماعيل) ، وهو لا يزال  
ولى عهد السدة المصرية ، واقفا على سر حاله ، معجبا بفيرتهن واقدامهن . فلما آل  
اليه العرش ، نفذهن ، فى يوم جلوسه عليه ، بخمسين ألف فرنك ، وقرر لمن تسعين  
إردبا قوما ، سنويا . فتمكن بذلك من وفاء ديونهن ، وتوسيع دائرة مدرستهن بدرس  
رياش ، وفتح مدرسة أخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ ثم غيرها بالمنصورة بعد أربع سنوات  
أى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٧٢

ومع أن الغرض الأول المقصود من تأسيس هذه الرهبان والأخويات مدارسها  
بالقطر المصرى ، إنما كان ولا يزال السعى الى نشر الدين الكاثوليكي الرومانى ، إلا أن  
الانصاف يقضى علينا بأن نعترف مع المصير ما ككون بأنها عملت عملا محمودا على تقدم  
العلوم فى البلاد ، وبين طبقات الأمة ، وأنها وضعت ، نصب عينها ، التعليم الجيد  
أولا ، ثم السعى الى نشر الدين . فكان فى هذا سر نجاحها ، وتوافد الطلبة عليها من كل  
ملة ونحلة وجلس ، وبلغ عددهم فى مدارسها فى سنة ١٨٧٦ نيفا وثلاثة آلاف  
ومائة وخمسين<sup>(١)</sup> !

أما المدارس والمعاهد البروتستانتية ، فقامت على أيدي الارمانيات الأميركية  
والانجليزية والسكندنافية .

(١) انظر : "مصر كما هي" لما ككون ص ٢٢٠ .

فالارسالية الأميركية وفدت على القطر في سنة ١٨٥٥ كما سبق فقلنا ، ووجهها (سعيد باشا) بناية بمصر، أسست فيها أول مدرسة لها . فكانت بمثابة موقف وثبت منه الى أنحاء القطر ، عامة ، وأسمت في السنوات العشر التالية ، مدارس غيرها : بالاسكندرية ، والقيوم ، وأسيوط ، وقوص ، والمنصورة ، وفي ثلاثة عشر بنسرا من بنادر الريف بمصر الوسطى والصحيد ، منها ما هو للأولاد ، ومنها ما هو للبنات ؛ ومنها ما هو مختلط بين البنين ؛ ومنها ما هو للشبان لتعلم اللاهوت ، والاستعداد للكهنوت ؛ ومنها ما هو لتخريج معلمات ؛ ومنها مدرسة أيضا ، للعميان ؛ ومعظمها مجانية ؛ وما فتئوا ينشئون غيرها ، حتى بلغ عددها منهم في سنة ١٨٧٦ ثمانيا وعشرين . فيها ما يزيد على ١٢٤٤ طالبا وطالبة ، بينهم بعض مسلمين ومسلمات ، ومعظمهم من الأقباط .

وكانت مدرستهم الكبرى للصبيان بمصر ، في بادئ الأمر ، في يد أقباط اعتنقوا البروتستانتية ، ولم يكونوا يحسنون الإدارة ولا التعليم : فكان كلاما مختلا ، بخلاف مدرستي البنات ، في حارة السقاين والأزبكية ، فانهما كانتا من خيرة معاهد ذلك العصر .

عل أن أرض مدرسة الصبيان احتيج اليها للنفع العمومية في سنة ١٨٧٦ فترع (اسماعيل) ملكيتها من الارسالية مقابل ثمن دفعه اليها . ولم يكتف به ، بل عوضها منها أرضا واسعة في أحسن بقعة من الأزبكية ؛ ثم نفقها بسبعة آلاف جنيه لبناء مدرسة جديدة عليها ، تسع ١٥٠ طالبا ، وتشتمل على مساكن للعالمين وطلابهم<sup>(١)</sup> . فأنشئت المدرسة الفخمة الحالية ، المزدان بها حتى الأزبكية ؛ ولكنه لم يفكر أحد

(١) أنظر : "مصر كما هي" لملك كون ص ٢٣١

في وضع أى مظهر كان فيها يذكر الداخل إليها بأنها من نعم الخديو الفخيم صاحب  
اليد الذهبية !

والارسالية الانجليزية وفدت على القطر في سنة ١٨٦٢ تحت رياسة الاكيسة الأدبية  
المس واتلى ، بنت رئيس أساقفة دبلين التي أوقفت حياتها وثروتها على تربية البنت  
المصرية ، لاسيما الفلاحة . وأسست ، في السنة عينها ، مدرسة مختلطة بمصر ، صادفت  
من العناية أشده في سبيل جلب التلميذات إليها ، لاسيما المسلمات ، وتعليمهن ، بالرغم  
من أن التعليم كان مجانيا ، وأنه كان يشمل العربية ، والانجليزية ، والفرنساوية ،  
والجغرافيا ، والتاريخ ، والخط ، وأشغال الابر للبنات .

وإن القلب ليقطع أسفا ، لدى مطالعة وصف المس واتلى ، في الكتب التي  
ألفتها عن الحياة المصرية الحقة ، للشاق التي تكبدتها بصبر جميل ، وهي دأبة بثبات  
نادر على الطريق التي اختطتها لحياتها ! ولكنه ، لما كان لابة للتأمر من نيل مناه ، فإن  
المس واتلى ما لبثت أن جنت ثمرة ثباتها ، وبعد مضي عشر سنوات عليها ، وهي  
عاملة في مدرستها المذكورة ، لا تعرف المال ، كلل النجاح مساعها : فامتلا معهدا  
بليف ومائة وستين صبيا وستين بنتا ، ضاقت بهم حجر فرقه .

فانعم (اسماعيل) عليها بأرض واسعة ، في جهة القجالة ، وساعدها بمبلغ وفير على بناء  
مدرسة جديدة عليها . فبرزت من أحسن المدارس بالقطر . ولما كانت البنت  
المصرية هي المقصودة على الأخص ، منها ، زاد عدد الطالبات فيها ، حتى بلغ المائة  
والستين ، معظمهن فلاحات ، والبعض من الطبقتين : الوسطى والعليا . ولا شك

(١) طالع : تخلي المس واتلى المنوفين : " رجد ليف إن إجهت " ، و " أند مور أجوت رجد ليف

إن إجهت " أى " حياة الزملاء بمصر " ، وأيضا " من حياة الزملاء بمصر " .



في أنه كان لاهتمام الأميرة الجليلة زوجة (اسماعيل) الثالثة في أمر تربية البنات وتعليمهنّ، دخل في ازدياد إقبال الفتيات الراغبات في التعلم .

أما الارسالية السكتلندية، فانها قصرت عملها على مدينة الاسكندرية ، حيث فتحت بجانب كنيسة مدرستين : احدهما للذكور، والثانية للإناث في المنشية ، بجوار البحر، وجعلت التعليم فيهما مجانيا للفقراء . فأمهما ٩٥ تلميذا و٩٢ تلميذة ، علموا العربية ، والانجليزية ، والفرنساوية ، والايطالية ، والكافة ، والحساب ، والتاريخ .

وقد امتازت عموم مدارس الارساليات البروتستانتية، بالمساواة التامة ، التي نشر لواؤها فيها بين الطلبة والطالبات المجانيين ، والمتعلمين بمصروفات ، بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يميز مطلقا أيهنّ المجانيات .

ويحذر بنا أن لا نختم الكلام عن معاهد هذه الارساليات دون أن نخص بالذكر رجال الدين الذين قاموا بتأسيس المدرسة الألمانية بالاسكندرية . فانهم على اصطباغهم بالصبغة الاكليروسية، فتحوا لمدرستهم هذه طريقا نحو الأهمية العظمى بين مدارس الارساليات الأخرى، بما قرروا من أن يكون التعليم فيها مدنيا بحتا ، لا مسحة دينية عليه مطلقا .

(ب) وأما القسم الثاني الخاص بالمعاهد المدنية البعثة، فان السبب الذي دعا البطاليات الأجنبية الى إنشائه هو أن بعضها لم يكن مرناحا لانهصار التعليم في المعاهد الدينية . فقام الأخوان الحليان روفائيل وحنانيا عبيد في سنة ١٨٦٠<sup>(١)</sup> وأسس

(١) وكذا — مل أنهما سوربان — متجنسين بالجنسية البروتاتية .

المدرسة اليونانية بمصر وآلبا على قسميهما دفع مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من الفرنكات سنوياً للمساعدة على القيام بشؤونها . فأتمها الطلبة من أولاد الجالية اليونانية ، يتعلمون فيها اليونانية القديمة ، واليونانية الحديثة ، والاطالية ، والفرنساوية ، والعربية ، والحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، ويتفقدون فيها على نفقتها .

ولما كان اليونان بالاسكندرية أكثر منهم بمصر ، أسسوا مدرسة تحت إدارة رجل يقال له المسيو تيماس ضمت إليها ٥١ تلميذا ، وعلم فيها فوق ما ذكر من تعليم مدرسة الأخوين عبيد ، التاريخ المقدس ، ومبادئ الاعتقادات المسيحية . ثم هب الكيريس عمانوئيل ساماريا ، وأسس مدرسة أخرى يونانية جمع فيها ٢٨ تلميذا ، يعلمهم خمسة أساتذة التعليم عينه السابق ذكره .

ولم يحمل اليونان تعليم البنات ، بل سبقوا اليه الجاليات الأخرى ، لأنهم أنشأوا في ٢٠ مايو سنة ١٨٤٣ ، أول مدرسة من هذا النوع بالمصحة ، ثم أسسوا بالاسكندرية ، مدرسة ثانية للبنات ، انتظم في سلوكها ، حالا ، ما يزيد على خمس وتسعين طالبة .

وهب إيطالي ، يقال له المسيو كولو تمازي ، فأنشأ مدرسة ايطالية بمصر ، قصدها أولاد الجالية الايطالية ، ولكنها ضاقت دون عددهم رحبا . ولم يتمكن أولاد الفقراء من الانتظام فيها لعدم مقدرتهم على دفع مصروفاتها .

فنهض المسيو فيجري ، وأنشأ في سنة ١٨٧٠ مدرسة ايطالية مجانية ، أهم ما امتازت به عن سواها ، أنهم كانوا يمتنون الطلبة فيها على الترجمة من الفرنسية الى اللبانية والعربية ، وبالعكس ، في آن واحد ، وشفويا على مسمع من الفرقة برمتها : فتتربى ،

صند التلامذة ، المقدرة على تحويل الفكر ، بسرعة ، من إحدى هذه اللغات الى الأخرى ، وعلى ابرازه مرتديا بالحلة التي تختصها طبيعة كل منها .

غير ان أهم عمل تعليمي قامت به الجاليات الأجنبية بمصر ، هو الذي تم بمساعي المسيودوفين وبجهوداته ، وأغنى به انشاء معاهد تعليمية مجانية ، لا صبغة جنسية أو دينية عليها ، ولا غرض منها سوى تثقيف العقول ، وتنوير الأذهان ، وتخفيف عبء مشقات الحياة على العاملين في ميدانها ، دعت "المدارس الحرة المجانية العمومية" .

فى أول سبتمبر سنة ١٨٦٨ ، فتحت مدرسة هذا شأنها في الاسكندرية ، ولكي يكون النجاح قرين سيرها ، وامتتالا لرغبة (اسماعيل) ، الذي كان أكبر معضد للقائمين بأمرها ، وضعت تحت رعاية سمو ولي عهد ، الأمير محمد توفيق باشا — وكان له من العمر ، حينذاك ، ست عشرة سنة ، فقط — نخمصا باثني عشر ألف فرنك سنويا ، وحفظها بكل صنوف العناية . فبرزت الى الوجود ، طلبة ، حرفية ، عروس المدارس وأفيدها ، وأما القاصدون من كل مذهب وجنس ، وليس فيها مظهر البتة يذكر أحدهم بأن هنالك فارقا بينه وبين الجالس بجانبه ، بل يشعرا بالجميع بأنهم اخوة في الانسانية المحضة ، وأن هذه الاخوة هي الرابطة الوحيدة بينهم . وشرعوا يتعلمون فيها العربية ، والانجليزية ، والفرنساوية ، والتلانية ، ومبادئ الرياضة ، والهندسة ، والتاريخ ، ويتعلم من شاء منهم الحرفة التي يختارها . فنجحت نجاحا عظيما ، ذهب مداه الى أبعد مما كان يتظن ويرجى . ومن شاء الوقوف على حقيقته ، فليطالع التقرير الذي رفعه مجلس ادارتها الى سمو الأمير محمد توفيق باشا ، الموجود نسخة مطبوعة منه في المكتبة السلطانية بمصر .<sup>(١)</sup>

(١) دار الكتب المصرية .

ذلك النجاح السارحنا بالمسيو دوفين وزمرة الرجال الكرام العواطف ، الذين وضعوا أيديهم في يده ، الى انشاء مدرسة مثلها بمصر . فتأسست في سنة ١٨٧٣ ، بمساعدة مالية كبرى من (اسماعيل) ، ونحت رعاية مميؤلى عهده ، أيضا ، وبالضحات السنوية حينها التي لشقيقتها بالاسكندرية . وفى الوقت الذى لم يقصد فيه هذه سوى ٢٥٦ طالبا - منهم ٩٠ فقط مصريون - قصد مدرسة مصر وانتظم في سلكها ٤٨٦ طالبا - منهم ٢٦٢ مصريون ، من كل ملة وطائفة ونحلة ، و ١٥٠ انجليزية ، و ٦٢ فرنساويا ، و ٧٣ ايطاليا ، و ٢٦ يونانيا ، و ٢١ نمساويا ، و ٥ بروسيا ، و ٣ أتراك ، و ٣ روس ، و ٣ اسبانيول ، و ١٣ من جنسيات غير مححدة - ويتضح من الأرقام التى ذكرناها أن نجاح مدرسة مصر كان أعظم من نجاح مدرسة الاسكندرية .

ولم يقتصر المسيو دوفين ومساعدوه على فكرة انشاء هاتين المدرستين ، بل انهم ، منذ استطعوا لثة نجاح مساعهم ، وقطفوا ثماره بالاسكندرية ، هبوا ، فى عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ الى فتح فرق ليلية ، لتعليم الشبان والرجال بالتفرغ ، وساعدهم (اسماعيل) مساعدته الممهودة . فانخرجوا مشروعاتهم الى حيز الوجود ، واتدج في سلك تلك الفرق ٤٥٠ طالبا ، منهم ٢٧٣ من رعايا الحكومة المحلية .

هكذا تناولت الحركة التعليمية بمصر ، فى عهد (اسماعيل) ، جميع المظاهر ، من التعليم الدينى المحض فى المعاهد الدينية المحضة ، كالأزهر وغيره ، الى التعليم ، المتخذ دافارا لترويج التعليم الدينى ، فى معاهد الارساليات المسيحية ، الى التعليم المزوج بشئ من الدين ، عملا بمؤثرات الوسط والبيئة ، فى مدارس الطوائف الشرقية المختلفة ، و مدارس الجالية اليونانية ، الى التعليم المدنى البحت انخاص بجنس دون جنس ، فى مدارس الجالية الثانية ، الى التعليم المدنى البحت ، المجرد عن كل صبغة دينية

وجنسية، في المعاهد المنشأة بمساعي المسيو دوفين ومن معه . وفي ذلك أوضح صورة لما كانت عليه الأفكار والأخلاق في تلك الأيام، وأكبر دليل على سعة صدر (اسماعيل) ورجحان عقله العظيم، في أمر قلما اتفق لعاقل شرقي، غيره، أن لا يبدى فيه تعصبا لهذا الفريق أو ذاك .

ولا يسعنا أن نختم هذا الفصل عن حركة التعليم بمصر، في أيامه، بدون أن نذكر ما لاقت من عنايته المدرسة التي أنشأتها الحكومة الإيطالية بالاسكندرية في عهد (سعيد باشا) وتولت أمر الاتفاق عليها، وبدون أن نذكر ما كان من شأن الارشاليات المدرسية الى البلاد الأوروبية ما بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٧٩

أما مدرسة الحكومة الإيطالية بالاسكندرية، فقد سبق لنا القول أن (سعيدا) نفحها بستين ألف فرنك، ووهبها ثمانية آلاف ذراع في قطعة من أحسن جهات المدينة . وتقول الآن ان حركة التحسينات، التي أدخلها (اسماعيل) على أحياء الاسكندرية وشوارعها، انخفضت نزع ملكية جزء من تلك الأرض . فبالنسبة للصدقة المتينة التي كانت بين (اسماعيل) وفيكتور عمانوئيل، ملك إيطاليا، ولتقدير الداهل المصري التعليم الملقن في تلك المدرسة حتى قدره، دفع للحكومة الإيطالية ثمن ذلك الجزء وحده أربعين ألف جنيه . فاستعانت بها على تجديد بناء مدرستها، وترقية شؤونها، وعهدت بإدارتها الى أستاذ فاضل، يقال له السنيور باجاني، كان رأى دور بك فيه، « انه أخير نظار المدارس بمصر بمبادئ البيداجوجيا، وأحكمهم تطبيقا لأحدث طرق التعليم على مقتضياته بالقطر في تلك الأيام » .

وكانت تلك المدرسة تعلم الإيطالية، والعربية، والانجليزية لمن يرغب فيها، والفرنساوية، والرياضيات، ومسك الدفاتر، والفلسفة الطبيعية، والتاريخ،

والجغرافيا، والرسم على نوحه . وكان معظم تلامذتها من اليهود ، وليس بينهم سوى عشرين تلميذا مسلما .

الإرساليات  
المدرسية

وأما ما كان من شأن الإرساليات المدرسية ، الى البلاد الأوروبية ما بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٧٩ فقد بلغ عدد الطلبة الذين تألفت منهم نيفا ومائة واثنين وسبعين وزحوا كالآتي: مائة وعشرون أرسلوا الى مدرسة الطب والمدرسة الحربية ، بباريس ؛ ونحسون ، الى مدارس طورينو العسكرية والملكية ، وثلاثة فقط ، الى مدارس لندن الهندسية . وبلغ المنفق عليهم في تلك السنوات الست عشرة ١٦٣٠٥٧ جنيا .

فن شاء أن يقارن بين ما عمل في هذا المضمار في عهد (إسماعيل) ، وما عمل في عهد أسلافه ، فليعلم أن عدد طلبة الإرساليات المصرية الى أوروبا بلغ في مدة حكم ( محمد علي الكبير ) و ( ابراهيم الملم ) أى ما بين سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٤٨ : ٣١٩ طالبا ، وفي مدة حكم (عباس) ، أى ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٣ : ١٩ طالبا ، وفي أيام (سعيد) ، أى ما بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٦٢ : ١٤ طالبا فقط ؛ وأن جملة ما أنفق عليهم قد بلغ في عهدي الباشا الكبير وابنه ٢٢٣٢٣٣ جنيا ؛ وفي عهد (عباس) ٤٩٦٧٥ جنيا ؛ وفي أيام (سعيد) ٦٩٠٨٣ جنيا .

فاذا وجد قلة نسبية في المنصرف الى أولئك الطلبة تحت حكم (إسماعيل) بالنسبة الى المنصرف عليهم تحت حكم (سعيد) ، فليعلم أن ذلك لسببين :

(الأول) هو أن (سعيدا) لم يكن ، من جهة ، يعرف للنقود من قيمة ، كما سبق لنا القول ؛ وكان ، من جهة أخرى ، كأسلافه ، يعتقد أنه كلما زاد انفاقه على طلبة إرساليته ، كلما حق له أن يطالبهم ، لدى خروجه ، بمعرفة كل فن وحرفة ، لا بمعرفة ما تخصصوا له وأختاره فقط .

و(الثاني) هو أنه اتضح (لإسماعيل) أن طلبه الارشادات ، بالرغم من بقائهم  
 زمنا في المعاهد الأوروبية ، واقتباسهم العلوم المعلمة فيها ، وإتقانهم لها ، في أغلب  
 الأحيان ، انهما يجهلون متفوقين ، في مضارها النظرية ، على أقرانهم الغربيين ،  
 لم يكونوا يكتسبون إقدام هؤلاء ، ولا روح الاعتماد على النفس ، المتفوية به همهم  
 في معاركة مصاحب الحياة ؛ بل كانوا لا ينفكون متمسكين بأذيال الحكومة ، متمسكين  
 عن العمل في ميدان الاستقلال الشخصي ، إلا اذا أخذت هي بيدهم . من ذلك  
 أن الأطباء المصريين الذين تخرجوا من مدرسة باريس لثاية سنة ١٨٧٠ بالرغم من  
 نبيلهم شهادتهم العليا فيها ، وتمزجهم على العمل ، تمزجا مقيدا ، في المستشفيات العسكرية  
 والملكية ، أثناء الحرب المشهورة بين فرنسا وألمانيا ، لم يقع في خلدكم ، مطلقا ، لدى  
 عودتهم الى مصر ، أن يفتحوا حيادات خصوصية ، ويلاحوا زملائهم الغربيين  
 في أعمالهم ، مزاحمة ، كان من المحتم أن يفوزوا طيبم فيها ، لكونهم أبناء البلاد ،  
 العارفين لغتها وحوادثها ، والمتخلفين بأخلاقها ، ولأنهم أقرب ، طبعا ، الى قلوب  
 مواطنيهم من أولئك الأجانب ، وأقبلوا يضايقون الحكومة بطلبات استخدام متتابعة ،  
 في مصالحها ، كأنهم لا يستطيعون ، بدونها ، معاشا ، أو كانه لا قدرة لهم ، ولا سلاح  
 في أيديهم يضربون به في مناكب الأرض ، ابتغاء للرزق !

فراى ، والحالة هذه ، أن يخل من مصروفاتهم ، حتى أن تجهيزهم قلة السعة  
 في الاتفاق على التخلي بخلق المهمة والإقدام .

وامتاز عهد من عهد أسلافه ، في أمر طلبه تلك الارشادات ، بأنه كان ، اذا  
 استخدم أحدا منهم في مصالح حكومته ، بعد عودته الى مصر ، قائما كان يعهد  
 اليه القيام بشؤون من النوع الذي تؤهله شهادته للقيام به . وأما أسلافه ، فعلموا

كانوا يراعون ذلك . وكثيرا ما نطالع في ما كتبه مؤرخو (محمد علي) الغربيون أنه كان يكلف المهندس، مثلا، بأعمال من اختصاصات طبيب بيطرى، أو يكلف الطبيب البيطرى بعمل طاه من الطهارة، وهم جرا .

وقد سمعت من صديق لى، نقلًا عن لسان عثمان باشا غالب — ولست أضمن صحة الرواية، بل أراى بما لدى من المعلومات التاريخية، ما تلا الى تكذيبها — أنه لما عاد الى مصر ثلاثة من الذين أتوا دروسهم بأوروبا، ونبغوا فيها — وهم من أصبحوا فيما بعد، على باشا ابراهيم، وعلى باشا مبارك، وحامد بك، ومثلوا بين يدى (عباس)، ليقيموا له واجب عبوديتهم، و يضعوا أنفسهم تحت تصرفه، كان فكره منصرفا الى انشاء معمل شمع؛ فسألم: «أيمكنكم أن تصنعوا لى شمعا؟» فأجابوا: «نات، يا أفندينا، لم تتعلم ذلك!»؛ فاحتدم غيظا وقال: «أتى، اذا، لقد أنفقت نفودى على تعليمكم سدى!»، وأمر بهم، فطرحوا أرضا، وضربوا بحسين سوطا . فخرجوا من لدنه فى حال انفعال لا مزيد عليه، وهم ناقون على عقله وعقائده، ولا عنون السامة التى عادوا فيها من أوروبا<sup>(١)</sup> . وانما أراى ما تلا الى تكذيب هذه الرواية: (أولا) لآنى لست أرى لها من أثر فى مرويّات على مبارك باشا عن نفسه، و(ثانيا) لآنى أعلم حق العلم أن حامد بك تعلم فى أوروبا كيف يصنع الشمع، فيما تعلمه فى دروسه الكيماوية!

حكاية ما راجع  
لبعض العائدين من  
طلبة الإرساليات  
العلمية الى أوروبا  
مع (عباس الأول)

تلك كانت الحركة التعليمية بمصر، فى عهد (إسماعيل)، وتلك المجهودات التى بذلت لترقية مستوى الأمة العقل، حتى أصبح عدد المتعلمين فيها ٤٠٪ من عامة

(١) روى لى هذه الرواية صديق الأستاذ الشيخ مرمى محمود الحامى، بكيفية النكبة الطيفة . ولكنه، مثل، يميل الى عدم تصديقها .



ذكورها، بعد أن كان أقل من واحد في المائة منهم؛ وذلك في عهد كانت أرق نسبة المتعلمين في أكثر البلاد الأوروبية تعليماً ١٥٪ فقط، وكانت في روسيا ٢٪ لا غير ! فلا غرابة إذا أن ادون دى ليون، المؤرخ الأمريكى المعاصر لها، قال عنها : «ان ما عمله (اسماعيل) في سبيل التعليم العام بمصر كان عظيماً، ويعتبر عظيماً في أى قطر من الأقطار»<sup>(١)</sup> ولا غرابة في بلوغ الأشعة المنبعثة عنها الى سر أعماق الأمة، وأكن مكنوناتها — وأبناء الخديو أنفسهم كانوا يتعلمون، مع أبنائها، ذات العلوم الملقنة اليهم، ويشاركونهم في جميع مظاهر حياتهم؛ لا يختلفون عنهم في شئ منها، ولا يمتازون إلا بنومهم في حجر مخصوصة، وقد أثار ذلك رغبة التعلم في جميع أفراد طبقاتها، الى حد أن رجلين من طامة الناس وذا الالتحاق بالأزهر، فلما رأيا من فقرهما المدفع ما يحول دون إدراك مبتغاهما، اتفقا على أن أحدهما يشغل نهاراً في تكسير الحجر الذى تبلط به الشوارع، وأن ثانيهما يجاور في الأزهر، ليقتبس ما يلقي فيه من علوم؛ وأنها يجتمعان بعد الغيب في الحجر التى استأجراها معا، فيطعم مكرس الحجر مقتبس العلم مما كسبت يده؛ ويفنى مقتبس العلم مكرس الحجر ما اكتتزه عقله . ففيسر لها، هكذا، أن يدركا، معا، ما ابتغيا ادراكه، كما يسر نيل القوت للأعمى والمقعّد، فيما يروى عنهما، اذ سارت رجلا الضرير بالمقعّد، وأرشدت حيناً المقعّد الضرير الى السبيل السوى<sup>(٢)</sup>.

ولا غرابة — وقد رأينا (اسماعيل) يظلل، بساتينه في التعليم، جميع القاطنين بشؤونه، بلا تمييز بين جنس ومذهب ودين — في أن تلك الحركة التعليمية، المتنوعة المسالك

(١) انظر: "مصر الخديوية" لادون دى ليون ص ١٦٠

(٢) انظر: "مصر" لمالورق ص ١٠٤

والمشارب، والمتحدة المرمى والمقصود والنتيجة، فيما يخص بالعلوم، أدت مع تزامن الزمن، الى ازالة جزء عظيم من الفوارق، التي كانت بين الملل، والنحل، والأجناس المختلفة، الضاربة في وادي النيل؛ وجعلت الصدور أوسع احتمالا للاختلافات المذهبية، والقلوب أقرب جثا، مما كانت، الى التسامح في الدين. وهما احتمال وتسامح، لن تستطيع أمة، تختلف معتقدات أفرادها؛ من التكوّن بدونهما !

ولا غرابة أخيرا أن يكون قد تولد، عن تلك الحركة التعليمية، نهضة معارف وأفكار كانت من أكبر مسببات تطورات المستقبل، ومن أدعى مكونات نظمات الأيام التالية.

نهضة في المعارف  
والأفكار

نعم، ان مثلها كان قد نشأ، أيضا، عن جهود (محمد علي الكبير) التعليمية، وأرسالياته المدرسية الى أوروبا — ولكنها، من جهة، كانت فردية أكثر منها اجتماعية. فلم تؤثر في مجموع الأمة إلا قليلا، ولا تناولت طبقاتها الدنيا؛ ومن جهة أخرى، فان ملكي (جاس) و(سعيد) كانا قد أوقفاهما في تطورها، وأعاداهما الى الجمود؛ ولولا إقدام (إسماعيل)، لظل الأفراد القليلون المتخلفون بعد موت من كانت أنفاس تلك النهضة قائمة به، في ظل النسيان، في أية جهة كانت من جهات القطر المعاد الى النوم.

لذلك النهضة الإسماعيلية، ثلاثة مظاهر: (١) المظهر الرسمي؛ (٢) المظهر الفردي؛ (٣) المظهر الاجتماعي<sup>(١)</sup>.

مظاهر هذه النهضة

(١) أم مصادر هذا الجزء من هذا الفصل: "تاريخ آداب اللغة العربية"، و"تاريخ مصر الحديث" لبحري بك زيدان، و"تاريخ الفن الاسلامي" له أيضا.

المظهر الرسمي

أما المظهر الرسمي، فقد تجل، حل الأخص، فيا بذلته الحكومة من مجهودات، لاعادة الاتصال بين حلقات تاريخ مصر في القدم، وتاريخها في العصر الوسطى، وتاريخها في الأيام الحالية .

أما الاتصال بين تاريخها القديم، وتاريخها في العصر الوسطى، فان المسيحية، أولا، فالاسلام كانا قد قطعاه. بتاتا، على توالى القرون، بما حمل مصر الفرعونية والبطليموسية على الاقتلاع عنه من دين، ومعتقدات، ولغة وطادات، وعقيلة سابقة .

وأما الاتصال بين تاريخها في العصر الوسطى، وتاريخها الحالي، فقد قضت عليه قضاء مبرما، قرون الحكم العثماني الثلاثة على وادى النيل . فبتأسيس مدرسة للاجتولوجيا ( علم الآثار المصرية )، أولا، ثم بانشاء المتحف المصري، أعيد الاتصال الأول، وبانشاء المكتبة الخديوية، وترتين قاعاتها بكل ما أمكن العثور عليه من مکتوبات مصر الاسلامية في العصر الوسطى — عصر الخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين؛ عصر الطولونيين والأخشيديين؛ عصر الفاطميين والأيوبيين، وأعصر السلاطين المماليك البحرين والبرجيين؛ ثم كل ما أمكن العثور عليه، أيضا، من مکتوبات القرون العثمانية؛ وبانشاء دار الآثار العربية، أعيد الاتصال الثاني .

مدرسة  
الاجتولوجيا

أما مدرسة الاجتولوجيا — والاجتولوجيا علم نشأ في العالم الغربي، عقيب العثور على الأمر القديم المعروف "بمسجد رشيد"، وتمكن شميليون من فك طلاسمه الهيروغليفية، والتوصل الى معرفة هذه اللغة المقتمة المصرية القديمة، المنقوش بعلاماتها ورسومها التاريخ الفرعوني برمته، على آثار المهدي العتيق وتشيداته — فقد

عهد بادارتها ، وتعلم الطلبة فيها ، الى العالم الألماني بروجش — وكان من فحول رجال الفن ، وله فيه المؤلفات الشيقة الممتعة — فما زال بالطلبة المتعلمين حل يده ، حتى أوجد فيهم روح الاهتمام بالمأخى المصرى السحيق ، بالرغم من الهاوية التى حفرتها العقائد بين عقليتهم ، وعقلىة أجدادهم البعيدين ، وحتى تمكن من انشاء قنطرة على تلك الهاوية ، بين عصر الفراعنة وعصر (اسماعيل) . وأشهر من نبغ من تلامذته ، العالم الاجيتولوجى الوديع أحمد بك كمال . وأهم ما ينتج عن اشتغال طلبته فى حل الكتابات المبروغليفية زوال نفور مصرى اليوم المسلمين والكتابيين ، بالتدريج ، من قومية مصرى عصور الوثنية ، وتاريخهم وأعمالهم ، والاقبال شيئا فشيئا ، على مطالعة أخبارهم ، والاعتبار بآثارهم ، والدق من الحنوا اليهم ، والتفانح بهم ، بالرغم من مؤثرات المعتقدات . « واذا لم يكن للأمة مجد سالف وأثر باق ، فلا تقوم سلطتها ولا نتاصل حضارتها ! » .

المتحف المصرى

وأما المتحف المصرى ، فقد عهد (اسماعيل) ببارازه الى حيز الوجود ، الى الفرنساوى الشهم الكبير ، ماريت باشا ، ووضع تحت تصرفه العمال والنقود على قدر ما يريد . وكان الرجل من فطاحل المشتغلين بالعلم الاجيتولوجى ، ومن المغرمين بكشف النقاب ، وإمالة اللثام عما درس أو توارى من المفاخر المصرية القديمة ، غراما يجمع الى ذاته قوى النفس ، ويحصرها فيها ، فما زال ينقب ويبحث هنا ، وهناك ، تحت الرمال ، وفى كهوف الجبال — لا سيما حيث كانت "منف" القديمة — حتى تسنى له ، فى سنة ١٨٥١ اكتشاف "السيراييم" أى معبد الاله "سيراييس" واذا فيه قبور ٦٤ عجلا من العجول المعروفة باسم "أپيس" دفنت هناك ، من القرن السابع عشر قبل المسيح ، لفاية القرن الأول بعده ، وتسنى له العثور فى ذلك المكان ، على

كقابات تنهت أن الديانة المصرية القديمة إنما آلت فى نهاية أمرها ، الى التثليث والتوحيد ، على فرض أنها كانت فى البدء اشتراكية — فأوزيريس هو الاله الأكبر ومبدع كل الكائنات ؛ وأپيس تجسد فى عجلة أصبحت أتما ، وهى لا تزال عذراء ، بفعل پناه ، روح القدس . وعليه فأوزيريس وأپيس وپناه ثلاثة أقانيم فى إله واحد ، أوزيريس يقيم فى السماء ؛ وأپيس يعيش على الأرض ، ولا بد له عند بلوغه سنا محمداً من الموت موتاً عفيفاً ، على أنه يقوم بعد ذلك من بين الأموات ويصعد الى السماء ليقيم فى حضن أبيه باسم سيراپيس ؛ وپناه وروحهما المرفرف بينهما — ثم تسنى له اكتشاف نيف وألفى أبى هول ، وما يقرب من خمسة آلاف تمثال ونقش خلاف ثمانية تماثيل فى منتهى الجسامة ، تعد ، من جهة كبرها ، معجزة فن الحفر المصرى . فكان والحالة هذه ، خير من يعهد اليه إبراز المتحف المرغوب فيه . وما لبث أن دل نجاحه الباهر ، على أن القوس إنما أعطيت بارها .

فانه أقدم بهمة لا تعرف الملل ، وشجاعة لا تبالي بالأخطار ، على جمع ما لم يكن يتيسر جمعه لسيره . لم يحز عليه ، من نفائس الآثار القديمة ، حتى كؤن فى بولاق متحفا لا مثيل له فى العالم ، اذ عرفه من النخائر والأعلاق ، والأصنام ، والتماثيل ، والمكتوبات البردية ، والنقوش ، وموميات كبار الفراعنة ؛ ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا بأسرها مشتراه ، ولو بذلت فى سبيل ذلك بالتدقيق — ومعرفة أحمد حرابى باشا هنا هو الذى حمله أيام أن آلت اليه الدكاتورية بمصر ، على الرغبة فى بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليستند الديون المصرية الرسمية كلها بما يدفع له من ثمن فيه <sup>(١)</sup> .

(١) انظر : "مصر الأخيرة" اليك من ٨١

ولا مشاحة فإن قيام الحكومة المصرية بالبحث عن آثار حياة البلاد المنقضية قبل ظهور المسيحية والاسلام . والتقيب عليها ، واكتنازها وإجلالها ، وإقدام (اسماعيل) كثيراً على دعوة ذوى المتلة الرفيعة من زائريه ، خمسة خمسة ، وستة ستة ، الى تناول الطعام معه في مركوفاج (نادى) من المركوفاجات المكتشفة مع وقوف الأهالى على ما كان يبدو من السائحين الغربيين القادمين الى بلادهم من الاهتمام بزيارة التشييدات الفرعونية والبطليموسية ، زيارة تمقيية ؛ واقتناء ولو القليل والثافه ، من آثار أولئك العواهل بأثمان باهظة ، كل ذلك أدى الى تيقظ فئة حوامل في القلوب لم يكن لها في الأجيال السابقة من أثر :

(أولها) الاهتمام باقتناء أى شئ يكون من تلك الآثار ، ليعمه بمن يرضى النفس الى الراغبين فيه من أولئك الأجانب ؛ والمزاحمة على ذلك الاقتناء مزاحمة شديدة ، يدل عليها ما يقصه الكونت ليك عن الرجل الذى اغتصب من ولدى مهزار قرناً ذهبياً من أبدع المصنوعات واختص به بعد أن أشبعهما ضرباً<sup>(١)</sup> .

(ثانيها) الاجتهاد فى تقليد تلك الآثار تقليداً متقناً ، عند عدم التمكن من العثور على الصحيح منها ، كما فعل بعضهم فى الأقصر : فانه اشترى من أحد السائحين الفرنسيين ، مبلغ مائة فرنك كتاباً فيه نراطيش الفراعنة المختلفة ، وشرع يصنع جعوانات وينقش عليها ما يشاء من تلك النراطيش ، نقشا جميلاً ، ويبيعها كأنها صحيحة وقديمة ، بأثمان عالية لذات الخبيرين بها ، ومن ضمنهم طالم ألمانى اچيتولوجى مشهور ، وهم لا يفقهون الى التقليد ، ويظنون ، لا سيما ذلك العالم ، أنهم بحيازتهم لها ، إنما حازوا يتيات يفانرون بها مزاحيم عليها<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" اليك من ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢) أنظر : "مصر الأخيرة" اليك من ٢٦٤ و ٢٦٥

(ثالثها) نظر العامة نفسها نظر الابرار ، والاجلال ، والتعظيم ، الى بقايا ذلك الماضي الخصب المهيبة ، وتحولم ، شيئا فشيئا عن شعور الاحتقار ، الذي كان متأصلا في قلوبهم لأهل تلك العصور ، المدعوة عندهم "كفرية" لرغبتهم في الدلالة على مبلغ ازدرائهم إياها .

غير أن هذا التحول كان بطيئا ، وكثيرا ما كان يقع للعملة أنفسهم المشتغلين تحت إدارة مارييت باشا أن يبدوا امتنانهم لنفس بقايا من كانوا ملوك أجدادهم في سالف الأيام .

لطيفة  
لموميا فرعونية

فيروى من هذا القبيل أن مارييت باشا لما عثر على موميا الفرعون "مري إن را" من الأسرة السادسة ، في جهة إهرام حেশور ، كلف بعض أولئك العملة بنقلها الى متحف بولاق ، ولما كان لا بد لهم من النهاب بها ، في بادئ الأمر ، الى البدرشين ، لاستغلال القطار الحديدي في محطتها ، لم يجدوا طريقة لاجتياز المسافة بين المكانين خيرا من وضع جثة ذلك الفرعون على ظهر حمار ، عرضا ، وسوق الحيوان بها ، وأطرافها متدلية من كلا جانبيه بشكل مهين — ولما بلغوا بها محطة البدرشين ، وأرادوا أن «يخلصوا» عليها ، لیسافروا بها الى بولاق ، وقع ناظر تلك المحطة في حيرة عميقة ، لأنه لم يكن قد سمع بكلمة "موميا" في عمره ، فلم يعرف ما هي حينئذ سموها له . ولم يجد لها تسمية ، بل ولا ذكرها ضمن الأشياء التي تشحن الواردة في تعريفه . أخيرا قطع لهم جميعا تذاكر في الدرجة الأولى ، واعتبر مومياهم فردا منهم ، فلما وصل بها حاملوها الى كوبري بولاق وأرادوا أن يمتازروها أوقفهم رجال الدخولية ، ليحصلوا منهم رسما عليها . ولكنهم لم يدروا ما هي ، ولا في أى صنف

من الأصناف تقع، حتى فتح الله على أحدهم، فقال : « ألا ترون أنها فسيخة ؟ »  
فقال رفاقه : « حقا ! هي فسيخة ! » ، وأخذوا عليها مكس فسيخة<sup>(١)</sup> !

فتفتخ المظلة البشرية، أية كانت بعد ذا ، أوداجها ! فما أحرأها بالدرس الذي  
ألقاه المسيو ماسبيرو خلف ماريت باشا على الأمير الألماني الصغير والمتنطرس  
خطرة إمبراطورية ، اقتضارا يحسبه البالغ من السن حوالى المائة والخمسين عاما ،  
أمام موميا ذلك الفرعون الراقدة عليها آلاف السنين ! إذ قص عليه ما أصابها من  
امتهان ، لا في بلاد غريبة ، يذرفها الناس على جهلهم إياها ، بل في البلاد ذاتها ،  
التي كان صاحبها حاكمها المطلق ، حيث كانت الجباه تمنو لجلاله ، والقلوب ، قبل  
الأبصار ، توجف خشوعا لطيبته ، والركب تخر أمامه ساجدة ! وعلى أيدي أحقر  
الملا من سلالة أولئك الخاشعين الساجدين !

وربما كان التقرير الذي كان أليف ماريت باشا في مسكنه بصحراء سفارة  
ودعشور دخل في بطنه سير التحول عن احتقار العصور الفرعونية « الجاهلية »  
في نفوس مجاوريه وطلته . فانه كان من شأن ذلك الحيوان « النجس » في عرفهم  
أن يحملهم على الاشتزاز ، وعلى مزج صاحبه ومواضيع بحثه في طائفة النفور عينها  
التي كانت توجبها نجاسته ، لا سيما ، بعد أن وقع له ، يوما ، شديد القيظ ،  
أنه نرج يتمس فينا ، فسارت به قلماه الى رحبة مسجد مجاور . فرأى فيه  
« الميضا » ، لحسن لديه الاستحمام فيها . فخاضها بلذة ، وأبطأ في التمتع ببرودتها  
اللطيفة ، حتى جاء المصلون ، ساعة العصر ، ليتوضأوا ، فوجدوه منفردا بمياها .

(١) انظر : « مصر الأخيرة » اليك من ٧٦ وما يليها .



لحملوا عليه حملة منكرة ، وأخرجوه مهيناً مضروباً . واضطر ماريت الى تقض بناء تلك « الميضا » لأنها نجست ، واعادته ثانية ، بحجارة غير التي احتك فيها خنزيره الأليف<sup>(١)</sup> .

وكان من لطائف ذلك الخنزير، أيضا، أن لوردا انجليزيا ذهب، مرة، مع اللادى قريته ، لزيارة ماريت باشا في مقامه الصحراوى ؛ فأمسكهم على الغداء . لما جلسوا على المائدة إلا وأتى الخنزير، كأنه كلب ظريف ، وأخذ يحثك بالمالسين ، طالبا منهم نصيبه في الطعام . فثاروا على الاشمزاز العميق في صدر اللادى ، وأبدت استغرابها من « أن رجلا كماريت يتخذ مثل ذلك الحيوان القذر أليفا له ، دون غيره من الحيوانات الجديرة بذلك » . ولاظهار اشمزازها ، عمليا ، غرست أسنة شوكتها في ظهر ذلك المسكين . فما كان منه إلا أنه دخل تحت المائدة ، وصدسها بظهره ، فقلبا بصحونها وطعامها على حضرة اللادى ، فالتف لما ملابسها<sup>(٢)</sup> .

ويلغ من غيرة ماريت باشا على ادخار الآثار الفرعونية واكتنازها ، والضم بها على غير المتحف الذى أفتأه ، أنه استصدر من الحكومة المصرية أمرا ساميا يحظر تحظيرا باتا ، التنقيب عليها وبيع أى شئ كان منها الى الأجانب ؛ وقل أى أثر يكون من مكانه ، إلا بمعرفة رجال الآثار ؛ وتصدير أى بقية من بقايا الماضى بمصر الى أى قطر من الأقطار الخارجية — وكان نهب الآثار القديمة ، قبل ذلك ، مباحا ؛ فلما سارقوها المتاحف الغربية الكبرى — فضمن بذلك بقاء الكنوز المصرية التاريخية لمصر والمصريين ، دون سواهم ؛ ولم يعد فى استطاعة أحد أن يزين ببعض

(١) أنظر : « مصر الأخيرة » لبيك ص ٦٧

(٢) أنظر : « الكتاب منه » ص ٦٦ و ٦٧

منها غير المتحف المصري، والميلادين المصرية، إلا تهريباً وتحايلًا. كما وقع للكونت ليبيك وهو في الصعيد. فان بعضهم عرض عليه مشترى موميا في سركونفاجها، كان قد عثر عليها، بدون اطلاع رجال الآثار، في أحد مدافن الملوك، التي كانت لا تزال تحت التثقيب. فعمرفها ليبيك من الرسومات التي عليها، ولادراكه قيمتها التاريخية، اشتراها بثمن جيد. ولكن الصعوبة كلها كانت في التمكن من تصديرها الى فرنسا، مع تيقظ حيني ماريت ولا كأنهما أصيت (أرجس) حارس بستان (المسبريد) في الميثولوجيا اليونانية. وزادت تلك الصعوبة، بعد أن فشا خبر المشتري وبلغ أذني "الأرجس" المصري، وصدرت أوامره الى ذوى الشأن بمديرية قنا، بمنع ليبيك — ولو أنه فرنساوى مثله — من مقتناه، وإعادة الثمن الذي دفعه به اليه — وكان عشرين ألف فرنك، على ما أظن — وإرسال الموميا بسركونفاجها الى المتحف. فعمد ليبيك الى من صنع له سركونفاجا كالذى فيه الموميا، برسوماته وألوانه، ولو أنها غير مثقنة، ووضع فيه جذع شجرة، وسمر عليه غطاءه، ثم سلمه — كأنه يصعد بالأمر، ومقابل إعادة العشرين ألف فرنك اليه — الى رجال السلطة في المديرية — وكانوا من الجهل في ذلك الموضوع بمكان عظيم — ورجلهم، فقط، ألا يرسلوه إلا بصحبته، حينما يؤوب الى مصر، صاه أن يتمكن من نيل تصريح من الحكومة المصرية بتصديره الى فرنسا. فوعده — وكان هو في الأثناء قد سفر، سرا، السركونفاج والموميا الحقيقيين الى القصير، برا، ومنها الى السويس، بحرا، فالى بورسعيد ومرسيليا — فلما تيقن أن ما اقتناه أصبح في فرنسا، قام من الأقصر الى مصر، ومعه السركونفاج الكاذب. فاستلمه ماريت أمامه، مبتهجا، ولكن نظره ما لبث أن وقع على خطأه، إلا وقطب حاجبيه، لأن عينه الخفية أدركت التقليد، حالا،

ففتح المركوفاج بيد مضطربة . وإذا به يرى جذع الشجرة داخله بدل جثة محنطة !!!  
فالتفت الى ليك وعوامل الاستغراب والفيظ والاستهزاء تتناوبه ، وهو لا يدرى أيها  
ييدي . فقابل ليك نظره بقهقهة ضحك طالية ، وقال : « لم يعد ، يا صديق ، من  
وسيلة ، سوى اني أردت اليك العشرين ألف فرنك التي دفعت الي ، فهاكها ، لأن  
ما اشترى بها ، حقا ، أصبح في فرنسا » فادرك ماريت أن مواعنه ضحك عليه .  
ولما كان ممن يستطعمون ملح السخرية الظريفة أكثر مما تستفهم السخرية الى  
الغضب ، انضم الى ليك في ضحكك ، وانقضى الأمر بينهما على سلام<sup>(١)</sup> !

وأما المكتبة الخديوية ، فيعزو بعضهم إنشائها الى إشارة بذلك صدرت من السلطان  
عبد العزيز الى (اسماعيل) ويقولون ان هذا الماهل ، لما زار مصر ، وشاهد مساجدها  
وآثارها ، ورأى الكتب العديدة من مخطوطات ومطبوعات ، مبعثرة في خزاناتها ،  
أشار الى (اسماعيل) بإنشاء مكتبة عامة تجمع شتاتها ، ليستفيد الناس بمطالعتها . وان  
هذه الإشارة الهايونية وقعت وقعا جميلا من نفس (اسماعيل) .

على أننا ، مع عدم ميلنا الى تكذيب حكاية هذا الإيماز ، نرى أنه كان من طبيعة  
الاهتمام الذي أبداه (اسماعيل) باحياء العلوم والمعارف في بلاده ، ومن شأن رغبته  
في تكوين نهضة علمية أدبية فيها ، أن يولدا في نفسه فكرة إنشاء تلك المكتبة .  
وكان جده ( محمد علي الكبير ) قد أوجد مستودعا في بيت المال القديم ، خلف  
المسجد الحسيني ، لبيع مطبوعات الحكومة من كتب وغيرها . فأخاف (اسماعيل)  
الى ما فيه من كتب ، نحو ألقي مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسية ،  
ابتاعها من تركة حسن باشا الموناستري أحد كبار رجال (عباس الأول) . ولما كانت

(١) انظر : "مصر الأخيرة" ليك س ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢

سنة ١٨٦٩ — وهى سنة الاحتفال بفتح القناة السويسية ، وتوافد أصحاب التيجان وأرباب الأقلام الى القطر — أومر الى على باشا مبارك — وكان مدير ديوان المدارس ، أى ناظر المعارف — أن يتخذ محلا ، من سراى درب الجميزة ، بجانب ديوانه ، ويعمله داركتب خديوية ، وينقل اليه ذلك المستودع برمته ، وأهم ما يجد من كتب فى المساجد والتكايا بمصر وغيرها من مدن القطر ، ففعل ، وأضاف اليها الكتب التى كانت فى خزانة الأوقاف الخيرية ، وكثيرا من الآلات الهندسية والرسومات ونحوها .

فلما كانت سنة ١٨٧٠ ، أصدر (اسماعيل) أمرا رسميا بإنشاء المكتبة ، وأمر على مبارك باشا بتنظيمها ووضع قانون لها ، ففعل . وفى سنة ١٨٧٦ توفى الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق (اسماعيل) — وكان كلفا بالكتب ، صرية وغيرها ، حرصا على اقتنائها ، وعنده منها خزانة قيسة فيها نيف و ٣٥٠٠ كتاب . فابتاعها (اسماعيل) بثلاثة عشر ألفا من الجنيهات ، وأهداها الى مكتبته الخديوية ، وما زال يجمع فى اقتناء الكتب العربية وغيرها ، وهو لا يبالى بالافتاق ، حتى صير تلك الدار تضارع مثيلاتها التى من درجتها فى العواصم الأوروبية ، وأعاد الى الشرق الأدنى ، مثلا من مفاخره العلمية ، التى ازدهت بها العصور العباسية والفاطمية ، وأخرج الى الأيام الحاضرة ، فى ثوب قشيب ، تحفا من تلك المفاخر ، جعلتنا نشاهد عيانا ما كنا نسمع عنه من خطوط متقنة ، تخطوط ابن مقلة ، ورسوم بنية بهجة ومكن ظمنا الى العلم والبحث والمذاكرة ، من يتابع حية يلجأ اليها ، فيرتوى .

دار الآثار العربية وأما دار الآثار العربية ، فان (اسماعيل) أصدر أمرا بإنشائها فى سنة ١٨٦٩ وكلف بذلك فرنس باشا ، رئيس هندسة الأوقاف . وكان غرضه منها جمع ما كان

مبعثرا في المساجد وغيرها، من الآثار العربية والإسلامية، على أنواعها، لتكون تلك الدار ضوئا للتحف المصري، المجموعة فيه الآثار الفرعونية والبطلموسية والرومانية والبيزنطية، فيكون الاثنان معا، هيكلنا للتاريخ المصري برمته، يتنقل فيه المطالع الباحث، أو المتفرج البسيط، من مرحلة إلى مرحلة، في حياة مصرنا هذه، على ممر العصور، وهو مأخوذ اللب دهشة، وإعجابا وإعظاما ولكن غلا كثيرة، منها اشتغال المكان المطلوب بجمع تلك الآثار فيه بما سواها، حالت دون تنفيذ فرنس باشا أمر (اسماعيل) في عهده فلم تخرج فكرة «الخديو العظيم» إلى الوجود إلا في أيام ابنه وخليفته، المرحوم محمد توفيق باشا، وقد أنبأ على بهجت بك، مدير دار الآثار العربية الآن، المؤرخ المحقق الكبير المرحوم جورجى زيدان بك «أن عدد ما كان في تلك الدار من التحف الأثرية، في سنة ١٩١٣، نحو ٤٠٠٠ قطعة، بينها آثار عربية إسلامية من بقايا التمدن الإسلامى على اختلاف عصوره، ومصنوعات حجرية وزجاجية، وخشبية، ونحاسية على الطرز العربى الجميل، تستحق العناية والدرس، وأكثرها من عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين<sup>(١)</sup>».

غير أن مظهر النهضة العلمية الرسمية بمصر لم يقتصر، مطلقا، على ما ذكر، ولو أنه تجلّى فيه، على الأخص، فدار الطباعة، مثلا، وجدت من (اسماعيل) عناية كبرى جعلتها أكبر مطبعة عربية في العالم، حتى بلغ متوسط المؤلفات المطبوعة فيها، سنويا، على عهده، نيفا وعشرين مؤلفا، فضلا عن الكتب المترجمة وخلافها.

ثم إنه نشط الصحافة والجمعيات العلمية، والخيرية، والأدب على أنواعه، في سائر الأمصار العربية، تنشيطا عظيما، بتشجيعه المعروف للعلم.

(١) أنظر، «تاريخ آداب اللغة العربية» لجورجى زيدان بك ص ١٥٠ ج ٤

أما الصحافة، فهو الذي سهل الاشتغال بها على أدباء السوريين المتقاطرين في أيامه إلى مصر، طمعا في كرمه، وأشهرهم آل تقلا، وأديب الحق، وسليم النقاش، وسليم حموي، وغيرهم. ولم يكن يقاوم حريتها في أي موضوع تخوض فيه، ما حدا بموضوع الطعن عليه؛ وعدم مراعاة جانبه. فان الخوض فيه كان يؤلمه ويؤذيه، لا سيما في أيام ضيقه، وتنازعه على البقاء مع دائليه وحماتهم. ولا غرابة، لما من جاهل، لا سيما في أيامه، ولا سيما من كان منته وتربيته كنيته وتربيته، كان يستطيع أو يريد أن يروض نفسه على احتمال انتقاد السنة الرمايا لأعماله. وما من رجل يحسن اليك ويرعاك، إلا ويستغزه أن تكون مع صدقه عليه، في وقت شدته.

أما الجمعيات، من علمية وخيرية، فقد أملت بها بنياته وماله، وشجع الناس على الاشتغال فيها. قاله مرجع الفضل في تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية في سنة ١٨٧٥ — وكان من أهم أعضائها محمود باشا الفلكي، وستون باشا الأميركي، وكلاهما من موظفي الحكومة المصرية — والجمعية العلمية الشرقية — وكان من أهم أعضائها أرئين باشا وغري باشا، ثم انضم إليها سليمان أباطه باشا، وإلياس حبالين، والدكتور مهدي خان التبريزي — وساعدت حكومته على إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى في سنة ١٨٧٨، وأملت بها بالثغور، ولما كان الباحث على إنشائها روحا سياسية اجتماعية دبت في نفوس المصريين في ذلك العهد، على أثر ما شاهدوه من امتثال الأجانب بموافقي البلاد الاقتصادية، لحملتهم على فتح المدارس لتعليم البنين والبنات، وتهذيب أخلاقهم، في ميدان حرية مطلقة، فان الحكومة اشترطت عليها لكي تسمح لما بذلك، ألا تكون خاصة بالمسلمين، وألا تصطبغ بصبغة دينية خاصة. فنيرت الجمعية اسمها، وتسمت «بالجمعية الخيرية»، فاعتبرت رسميا وصدق على قانونها.

وأما الأدب، فقد نشطه (اسماعيل) بما سهل لرحله من أسباب الرزق في خدمة حكومته، وخدمته الشخصية، وغيرها. فقد قرب إلى ذاته الشعراء المحيدين طيا أبا النصر المنفلوطي والشيخ علي الليثي، والكاتب الفريد عبد الله فكري باشا، وألحق بمعيته عبده الحولي الموسيقى المغنى الشهير، وعهد بتقريب أبنائه إلى الأستاذ الشيخ عبد الهادى نجما الإيبارى، ووهب إبراهيم المولى لى، بعد أن خسر ثروته في التجارة، مالا استرجعها به، ووظف نقولا بك توما في حكومته، حيناً. وأدنى من نفسه الدكتور أحمد حسن الرشيدى، وأوعز إليه أن يشتغل، فألف كتاب "عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج". ولما انتقل يوسف الخياط بحقوقه التمثيل من الاسكندرية إلى مصر في سنة ١٨٧٨، أمر (اسماعيل) أن تفتح له أبواب الأوبرا لتمثيل رواياته فيها، ووعد أن يحضر التمثيل بنفسه. ولكن ذلك الغنى لم يجد رواية في متعلقاته يفتح بتمثيلها الفصل إلا رواية "الظلم"، وكان (اسماعيل) حاضراً: فغضب لما تخالفا من ذكر الظلم والظالمين في تلك الأيام العصيبة، التي كانت الحرب فيها، بينه وبين الدائنين العشومين، عوانا، وتوهم بحق أن أولئك الممثلين، بالرغم من أنه غمرهم بفضله، يمرضون به وبأحكامه، اتقياداً لإيمانات أعدائه. فاستنقصهم جتاً، وحكم بأنهم غير جديرين بالنعمة التي أسبغها عليهم. وأمر بإخراجهم من مصر. فباءوا بعار ونزى عظيمين.

وأما العلم، فلا أدل على اهتمام (اسماعيل) به، وجهاده في سبيل ترقية شؤونه من البضع والعشرين مئة ملية التي سيرها إلى مجاهل أفريقيا الوسطى والشرقية، لا اكتشافات ملية متنوعة، سيأتى ذكرها، بالتفصيل، في كلامنا على تحقيقه الشطر الثالث من الخطة التي رسمها لمجهوداته.

مظهر النهضة  
الفردى

وأما المظهر الفردى لتلك النهضة، فتجلى في مجهودات التاجين من المدارس المصرية والسورية على اختلاف أنواعها ومذاهبها، ومن الرسائل المدرسية إلى البلاد الأجنبية، منذ أيام (محمد على)، ومباحثهم وأعمالهم وتأليفهم .

الحسين حسنى باشا — الذى بدأ حياته العملية بمصطفى مصحح وكاتب بالتركية فى الوقائع الرسمية سنة ١٨٥١، وآلت إليه، فى نهاية أمره، النظارة على مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٨٨٠ — كان من نوابج الرجال فى الهمة والافتداف، فضلا عن سعة اطلاعه على الرياضيات والميكانيكيات، (علوم الحيل)، وإليه يرجع الفضل فى استجلاب معمل الورق لمصر .

ومحمد على باشا الحكيم، وإبراهيم الدسوقي، كانا أول من أنشأ مجلة طبية فى اللغة العربية سنة ١٨٦٥، دعواها "العسوب" وضمناها من المباحث الجلية، ما تروى منه الألباب، وترتفع إليه العقول — ألا ليتها عاشت طويلا !

وأبو السعود افندى، الذى ترجم عنة كتب تاريخية وغيرها، كان أول من أنشأ جريدة سياسية مصرية . فدعاه "وادی النيل" واستمر يصدرها مرتين فى الأسبوع طافحة بالمقالات السياسية والأدبية والعلمية، إلى أن وافته المنية سنة ١٨٧٨

وإبراهيم المولى، ومحمد عثمان جلال، تلباه فى هذا المضمار، وأنشأ فى القاهرة فى سنة ١٨٦٩ "جريدة نزهة الأفكار" — وكانت أسبوعية، شديدة اللهجة . فاضطرت الحكومة إلى تعطيلها .

وسعيد صالح بك، فانظر المدارس، أصدر فى سنة ١٨٧٠ مجلة دعاه "روضة المدارس" أخذ يطبعها فى مطبعة "وادی النيل" ويوزعها على الطلبة مجانا — وكانت



علمية ، أدبية ، يحررها نخبة من العلماء والأدباء ، منهم عبد الله فكرى باشا السابق ذكره ، واسماعيل باشا الفلكي ، وبدر بك الحكيم ، وعلى مبارك باشا ، ورقاعة بك ، وقدرى بك — وهو الذى أصبح ، فيما بعد ، قدرى باشا المشهور بمؤلفاته . وكان كل منهم ينشر فيها مقالات متسلسلة في موضوع واحد كالكتاب المستقل .

وميفائيل عبد السيد افندى أصدر جريدة "الوطن" في سنة ١٨٧٧ — وهى أقدم الصحف القبطية — وسليم حموى باشا السورى أصدر جريدة "الكوكب الشرقى" فى الاسكندرية سنة ١٨٧٣ ؛ ولكنها لم تعيش طويلا . وسليم حملا بك ، وبشارة أخوه ، السورى ، أصدرتا بالاسكندرية فى سنة ١٨٧٦ جريدة "الاهرام" ، فنالت حظا وافرا من الرواج والنفوذ ؛ ولا تزال تنشر لغاية يومنا هذا ، وربما كان لها من اسمها الحظ فى البقاء الذى أتمت النحور جهودها فى حرمان معاصرها منه ، ولم تغلق .

وأحمد حسن الرشيدى — وهو من كبار نوابغ مدرسة الطب المصرية ، وقد سبق الكلام عنه — جاهد فى خدمة النهضة التى نحن فى شأنها جهاد الأبطال ، ترجمة وتأليفا ؛ فكان من أكبر أركانها ومن أكثر الأطباء عملا فى سبيلها . وهو ، وإن يكن من نابغى عصر (محمد على) إلا أنه قد أدرك زمن (اسماعيل) وألف ، فى أكثر فنون الطب والطبيعات والاهرباذين ، التأليف الوافية المتعة .

ومحمد على باشا البقل ، الجراح الطائر الصيت — وهو من زاوية البقل بالمنوفية ، وقد سبق ذكره أيضا — قد تألف فى الجراحة جملة كتب مفيدة ، منها : "روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى" و "غرد النجاح فى أعمال الجراح" و "غاية الفلاح فى فن الجراح" و "نشر الكلام فى جراحة الأنفام" ، علاوة على إصداره "المجسوب" المجلة الطبية العربية البادية ذكرها .

وحسن عبد الرحمن بك — وكان من أساتذة مدرسة الطب في أيام نظارة محمد علي باشا البقل عليها — ألف ، بأمر رئيسه هذا ، كتاب "القول الصحيح في علم التشريح" ، لكي يدرس في المدرسة المذكورة .

وأحمد ندا بك ، الصيدلي الشهير ، المتوفى سنة ١٨٧٧ ، كان هماما ، كثير العمل والبحث ، محبا للتأليف ونشر العلم ، وله مؤلفات جزيلة الفائدة ، أهمها : "الآيات البينات في علم النباتات" و "حسن البراعة في فن الزراعة" ( مترجم عن الفرنسية ) و "حسن الصناعة في فن الزراعة" ، وضعه للتعليم في مدرسة الزراعة التي أحيل اليه التدريس فيها بعد إنشائها ، و "الأحوال المرضية في علم الطبقات الأرضية" (جيولوجيا) ، وهلم جرا .

وحسين عوف بك الكحال ، المتوفى سنة ١٨٨٣ — وكان ، في عصره ، ركنا من أركان العلم الأربعة ، وهم : أحمد ندا بك في التاريخ الطبيعي ، ومحمد علي باشا البقل في الجراحة ، وحسن عبد الرحمن بك في التشريح ، والمتكلم عنه في الرمد — ألف في فنه هذا كتابا ذا سبعة أجزاء من خير ما ديجي يراعى الكتاب .

ومحمد حافظ بك ، المتوفى سنة ١٨٨٧ — وكان أستاذ الرمد في مدرسة الطب — ألف كتاب "مطمح الأنظار في تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار" .

وسالم سالم باشا ، المتوفى سنة ١٨٩٣ ، صاحب الشهرة الواسعة ، ألف كتاب "وسائل الابتهاج الى الطب الباطني والعلاج" و "دليل المحتاج في الطب والعلاج" ، وأكثر مصادره ألمانية ، لأنه هم اختباره الطيبة في قيينا ، بعد خروجه من مدرسة القصر العيني سنة ١٨٤٨

وعلى رياض بك ، الصيدلي ، نشر في عهد (اسماعيل) كتاب "النفحة الرياضية في الأعمال الأهر باذينية" .

وحيد الهادي اسماعيل ، معلم البيطرة في المدارس الحربية ، ألف كتاب "المعالجة البيطرية لارشاد الضباط والسوارى والطويجية" .

ومنصور أحمد ، مدرّس الكيمياء بمدرسة المهندسخانة المصرية ، ألف كتابه "عمدة المتطبين في فن الصيدلة والأقرباذين" .

ألا يخيل لك ، أيها القارئ ، أنك في أيام الرشيد والمأمون ، وهلا نتمثل أمامك شخصيات آل بختشوع وآل حنين ، وأنت تقرأ أسماء كل هؤلاء النوايع المصريين في علمي الطب والصيدلة ؟

وبهجت باشا — وهو أستاذ طي الأصل — خلف خرافات طوبوغرافية يمتد بها ، وعلى عزت ، المدرّس للعلوم الرياضية في المهندسخانة ، ألف "الخلاصة العزبة في تهذيب الأصول الحسابية" .

وأحمد فائد بك ، وهو من كبار أساتذة المهندسخانة الخديوية ، وضع المؤلفات الجمّة في الهندسة والسوائل ، أهمها : "الأحوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية" و "تحرك السوائل" و "الدرة السلية في الحسابات الهندسية" .

وعاصر سعد ، مدرّس الرياضيات بالمدارس الحربية ، ألف "المنحة الزهرية في الأعمال الجبرية" و "أحسن الوسائل لتصريف السوائل" .

وأحمد نجيب ، مدرّس الرياضة بمدرستى أركان الحرب والطويجية ، ألف "التحفة البهية في الهندسة الوصفية" .

وحسين علي الديك ، ألف كتاب "علة الحاسب وعمدة الكاتب" في الحساب ومسك الدفاتر الديوانية .

ومحمود باشا الفلكي، المذكور مرارا والمتوفى سنة ١٨٨٥، عن ثمانين عاما، ألف  
بالفرنساوية والعربية مؤلفات جمّة ممتعة .

وغنار باشا المصري، وكان كثير الاشتغال في الرياضيات والفلك، ألف "التوقيقات  
الالهامية لمقارنة السنين المجرية بالافرنجية والقبطية" و "المجموعة الشافية في علم  
الجغرافية" و "جداول تحويل المسطحات المترية"، وعلم جزا .  
واسماعيل باشا الفلكي، ألف "الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة" و"تقاويم  
فلكية سنوية" .

والسيد صالح مجدى بك، المحالة اليه ترجمة الكتب في الفنون العسكرية، ألف  
"الدّر المنتور في الظل والمنظور" و "بنية الطلاب في قطع الأحجار والأخشاب"  
و "الروضة السندسية في الحسابات المثلثية" و "تذكير المرسل بتحرير المفصل  
والمجمل" و "ميادين الحصون والقلاع ورمي القنابل باليد والمقلاع" وكتاب "الترع  
والأنهر"، وعلم جزا .

ومحمد صفوت المشهور باسم "الساعاتى المصرى"، وعلى أبو النصر المنفلوطى،  
والشيخ على الليثى، أطربوا العام والخاص والسوقة والأمراء بأشعارهم الجميلة .

[ومن نكات الشيخ على الليثى المستظرفة أنه دخل يوما هو والشيخ على أبو النصر  
المنفلوطى على (اسماعيل)، والحدبو متقبض النفس، وكان الرجلان — على خفة  
روحهما التى كانت كأنها خطرة نسيم عطر — طويل القامة جدّا، دميى الخلقه،  
وأسودين سوادا يكادان يكونان زنجيين .

فلما وقفت عين (اسماعيل) عليهما أخذ يميلهما في طولهما وعرضهما ويرفعهما بها  
ويضعهما . فلما رأى الشيخ على الليثى منه ذلك، شرع يقلب كفا على كف .

فقال (اسماعيل) له : « ما بالك تفعل هذا ؟ » . قال : « أفكر في أمر أقوله إذا صفتح عنه مولاي مقلما » . قال : « لقد صفتح ، قفل » . قال : « أراي أستغرب ما الذي أعجب به مولاي في مدخنتين مثلنا أنا وزميل هذا ! » . فضحك (اسماعيل) وسرّى عنه .

وقد كان الشيخ علي اللثي هنا — علي مابه من خفة روح وعلى ما في شعره من الإبداع والرواء — علي جانب متين مع الله . فمن أجل ما يحكي عنه أن رجلا يقال له محمود فوزي افندى (كان ناظرا لدار العلوم فأتزله على مبارك باشا الى وظيفة أستاذ الكيمياء والطبيعة في إحدى المدارس الثانوية ، ثم ما زال به حتى رفته بتاتا ، مع أنه كان ابن زميل له في التلمذة بفرنسا) قصده وسأله أن يتوسط له لدى الباشا لكي يعينه الى منصبه ، لعلم تمكنه من استخدام علمه في الكيمياء والجغرافيا الطبيعية إلا في التدريس . فقال له الشيخ علي اللثي : « أعفني ، يا ولدي ، من هذه المهمة ؛ فانها شاقة على نفسي . فلي مبارك باشا هذا رجل سيء الأخلاق وأخشى اذا أنا كلمته في هذا الشأن أن لا ينالني منه إلا إراقة ماء وجهي ! » . ولكن محمود افندى تشدد في التماسه . فتظاهر الشيخ علي بأنه يروم قضاء حاجة فاستدعى خادمه وقال له : « ضع لي إبريق الماء في بيت الراحة » ، وكانت هذه جملة مصطلحا عليها بينه وبين خادمه ، يعني « احضر لي صريتي ! » ؛ ثم قلع جبته وخرج واضطر محمود افندى الى انتظاره حتى يعود .

ولكن الشيخ علي ما بارح الحجرة إلا وارتدى جبة خلاف الجبة التي تركها فيها وسار توا الى علي مبارك باشا في ديوانه ودخل عليه وبادره بالكلام هكذا : « أنت يا رجل أوقع في خللك أن يتي تكية لك ترسل اليها من ثناء ؟ » . فدعش علي باشا

وقال: «ما ذا تعنى يا شيخ على؟». قال: «أعنى أن كل من تزجه أنت من موظفيك يأتى فيحل فى بيتى». وها محمود فوزى افندى خوج الكيمياء والطبيعة فى المدارس الثانوية، الذى رفقه منذ أيام، أتانى بأمه وزوجه وأولاده وأخواته ونزل عندى، وأرانى مضطرا الى الاتفاق عليه، أقرى أن أولادى قليلون على قدرتهى بالاتفاق على كل هذه العائلة، قال على باشا: «ولكن محمود افندى هذا رجل شرس الأخلاق، قليل الاتاة، كثير المخالفة للأوامر!». فقال الشيخ على: «وأنا ما شأتى حتى تتكبنى به وبأولاده؟ انى سأرسله اليك من غد، فأعده الى وظيفته وزد فى مرتبه!». قال على باشا: «وتريد أيضا أن أزيد فى مرتبه؟». قال: «نعم» وخرج طلقا الى منزله. فوجد محمود افندى هناك فى انتظاره، لما رآه هذا استوى على مقعده إلا وأعاد الكرة وكرر الالتماس. فقال له الشيخ على: «يا بنى إنى، بعد ما قلته لك عن أخلاق على مبارك باشا، أرى أن الأوفق أن تكتب له عرضا تسترحه فيه وتطلب إعادتك الى وظيفتك!». ثم قلم له ورقة وقلما، وقال: «خذ واكتب!»، وأملأه عرضا لطيفا وصرفه موصيا إياه بأن يذهب به الى على مبارك باشا من صباح غد.

ففعل محمود افندى كما أمر. ولما أدخل العرض الى على مبارك باشا أمر بكتابته فمثل بين يديه. فقال له الباشا: «أأنت كاتب هذا العرض؟». قال: «نعم». قال: «وأنت من الذى صرفك بالشيخ على اللبى؟ حقيقة إنكم أناس لا تحتشون!». ثم استدعى باشكاتب الديوان وأمره بأن يكتب إذا باعادة محمود افندى الى وظيفته، وبزيادة جنيه على مرتبه الأصل وصرفهما.

فخرج محمود افندى وهو لا يدرى أى لحظة هوأم فى منام. ولما كان العصر وفرغ من عمله، ذهب الى الشيخ على اللبى ليشكره، وقال له: «حفظ الله مولاي

الأستاذ . فانه لم يعلمني البتة أنه قابل على مبارك باشا البارحة وأوصاه بي خيرا .  
فأجاب الشيخ على : « إني يا بني إنما أردت أن يكون اعتمادك على الله ، لا على  
الشيخ على ، وقد خرجت أنت من عندي ولا اعتماد في قلبك إلا على الله . وما قد  
تحققت بنفسك أن من يعتمد على الله لا ينجب<sup>(١)</sup> » [

وأنشأ التيمورية ، ومعلماتها فاطمة الأزهرية وستينة الطبلابية ، فصح بأناملهن  
العناية باب أفق جديد أمام الأعيان المعاصرة لمن ، المبتهجة بعملهن الشعري والثري  
البديع .

وعبد الهادي نجما الإياري ، السابق ذكره ، صاحب كتاب "سعود المطالع"  
وكتاب "نقطة الأحكام في مثلثات الكلام" و"الوسائل الأدبية في الرسائل الأحادية"  
و"الكواكب النورية في نظم الضوابط العلية" وكتاب "باب الفتوح لمعرفة أحوال  
الروح" ، وغيرها .

والشيخ حسين المرصفي المصري ، صاحب "الكلم الثمان" و"الوسيلة الأدبية  
في العلوم العربية" جعل لعلوم اللغة العربية بمصر مقاما كالذي رفعها إليه في سوريا  
الشيخ ناصيف اليازجي ، صاحب "تجميع البحرين" و"فصل الخطاب" وأحمد فارس  
الشدباقي ، صاحب "سر الليال في القلب والإبدال" و"غنية الطالب" .

وعبد الله أبو السعود ، صاحب جريدة "وادي النيل" ، وحسن حسني باشا  
الطويراني ، وعلى مبارك باشا ، ورفاعة رافع بك ، أعادوا حضور ابن الأمير وابن خلدون

(١) نص على نكته الشيخ على التي المستطرفة وعمله هذا الطوب حاضرة صاحب الفضيلة والعالم والنيل  
الحبيب النسيب السيد محمد على اليلامي قبيب السادة الأشراف في القطر المصري ومراتب إحياء  
الآداب العربية . ولاني أختتم فرصة ذكر اسمه الكريم هنا لاسنائه أجمل عبارات شكرى على ما فضل  
به من العناية الفائقة بطبع كتابي هذا ، وبسببه خالصا من كل شائبة تقبل من قلمي في اختيار القراء .

والمقريزى بما كتبوه من المؤلفات التاريخية والجغرافية المفيدة . فأبو السعود، وضع كتاب "الدرس التام فى التاريخ العام" وكتاب "منحة أهل العصر بمقتضى تاريخ مصر" ؛ وحسن حسنى الطويرانى، وضع كتابا فى العربية والتركية فى تاريخ الدولة العثمانية ، تمتد بالعشرات ؛ وعلى مبارك باشا، ألف كتاب "المخطط التوفيقية" فى عشرين جزءا ، تحذى فيه أسلوب المقريزى فى "خططه" ؛ ورفاعة رافع بك ، من رجال عهد الأسرة العلوية لغاية (اسماعيل) ، وضع فى التاريخ سفرا جليلا ، دناه "أنوار التوفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل" حال المتن بينه وبين إتمامه ، فلم يطبع منه سوى الجزء الأول . وذلك فوق ما كتب من الأسفار الهامة فى غير عهد (اسماعيل) .

ومحمد عيش المغربى ، صاحب "فتح العلى المالك" ، فى الفتوى على منذهب الامام مالك" ؛ وقلىرى باشا ، صاحب "مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان" وغيره ؛ ومحمد العباسى المهدي ، صاحب "الفتاوى المهدية" ، أعادوا الى الشرع والقضاء ، شيئا من سنا الأنوار التى أشرقت عليهما ، على أيدي أبى حنيفة النعمان وأبى يوسف والامام مالك وغيرهم .

وجمال الدين الأفغانى — ولو أنه غير مصرى ، وأنه لم يخلف كتابا تستحق الذكر — قد أحيا بمقامه بمصر مئة فى زمن (اسماعيل) روحا فى نفوس المسلمين من أهالى البلاد، كان لتحركاتها، ومساعدتها، وجهودها التالية شأن خطير، اصطبغ به الربيع الاخير من القرن التاسع عشر، اصطبغا أزيع الكثيرين من أرباب السياسة .

وأما مظهر النهضة الاجتماعى، فتجلى فى الجمعيات على أنواعها التى قامت فى ظل (اسماعيل) أو فى عهده ، فتفتح للهم مسبل أعمال جديدة ، من خيرية ، وعلمية ، وخطابية ، وأدبية ، وسياسية .

مظهر النهضة  
الاجتماعى



فالجمعية الخيرية الإسلامية، وقد سبق الكلام عنها، وجمعية المقاصد الخيرية، وقد تأسست في سنة ١٨٧٨، تحت رئاسة سلطان باشا، وبعضوية مقبل باشا، وكثيرين من أعيان مصر، نزحنا إلى أعمال البر والتعليم. ففتحت المدارس، وأمدنا علة أسرفقية.

ومجلس المعارف المصري — وهو "الانستيتوت" أو المعهد العلمي المصري، الذي أنشأه بونابرت، حين قدم بجلته إلى مصر، بمش من رسمه في سنة ١٨٥٩، على يد جماعة من رجال العلم الغربيين — قام ينشر المدنية والعلم بمصر، وتوالى على رياسته نخبة من العلماء، في جلهم مارييت باشا، ودشامبور، وكولونشي، وغيرهم.

وجمعية المعارف — وقد تأسست في سنة ١٨٦٨ بمساعي محمد عارف باشا، أحد أعضاء مجلس الأحكام لنشر الكتب النافعة، وبرزت في شكل شركة مساهمة، ثمن السهم فيها خمسة جنيهاً، فقيت إقبالاً كثيراً حتى بلغ عدد المساهمين أو الأعضاء بضع مئات، مزقهم الوحيدة الحق في اقتناء مطبوعات الجمعية بثمان أقل مما تعطى به لسواهم — شرعت تطبع الكتب الهامة في التاريخ واللغة والأدب والفقه، منها: "أسد الغابة" لابن الأثير و"ألف باء" و"الفتح الوهي" و"تاج العروس" وغيرها. وما زالت حاملة حتى حدث التنازع السيامي الذي سيأتي بيانه في جيته، بين (اسماعيل) وحليم باشا، على مبدأ الوراثة، وكان محمد عارف باشا من مروجي آراء حليم. فلم تعد تطيب له الإقامة بمصر، ورأى أن سكناه الأستانة أوفق للصحة التي قام يدافع عنها. فذهب إلى القسطنطينية، وتوفي فيها. وانحلت الجمعية. وكان عارف باشا هذا من أهل الأدب، له مؤلفات في التركية، ويحسن اللغة العربية، ويروون من نظمته بيتين يفتخر بهما، ويدلان على عقليته، وهما:

ألم تعلم بأن سماء فكرى • تلوح بأفقها شمس المعارف ؟

تفترس والذي فى المسرايا • فيوم ولدت، لقبى بعارف !

وجمعية رواق الشوام بالأزهر ، وقد أنشأها طلبة الأزهر السوريون سنة ١٨٧٣ ، أخذت، كلما عزم طالب سوري على الرجوع الى الشام نهائيا، لتحدد ليلة للاجتماع ، تعانها الى أهل الرواق . فيعد الشعراء قصائد الوداع ، ويتلون لها ليلة السفر بمحضر من علماء الأزهر وأدبائه . وكانوا يتدنون القصيدة بالنزل، ثم يتخلصون الى المديح والوداع . ويقارون ويتنافسون فيها أيما تنافس . ولم يكن الشعراء من السوريين فقط ، بل كل من أراد أن ينظم قصيدة ، أيا كان ، تهبل منه ، ويؤذن له بتلاوتها<sup>(١)</sup> .

وجمعية الآداب، وأنشئت بمصر سنة ١٨٧١ ، وتولى رئاستها الشيخ محمد الخشاب الفلكي ، والجمعية العلمية الشرقية، وقد سبق ذكرها ، قامتا مشتهرتين بأسمى علم ، ترميان الى أغراض سياسية فى طلى الخفاء .

وأما جمعية "مصر الفتاة" فقد كانت سياسية . جوهرها ومظهرها ، وذكرنا أن من أعضائها جمال الدين الأفغانى ، وأديب الحق ، وسليم النقاش ، وعبد الله نديم ، وقولا توما ، وغيرهم من أرباب الأقلام فى ذلك العهد . وذلك لصندور جريدة سميت "مصر الفتاة" باسم الجمعية حينها ، ديج أعمدتها بالعربية والفرنساوية معا أقلام أولئك المفكرين، على أن بعض النقات أكدوا لجورجى زيدان بك، أن هذه الجمعية كانت اسما بلا معنى ، وأن أصحاب جريدة "مصر الفتاة" أرادوا إيهام أولى الأمر بوجود جمعية سرية يخشى أسماها ، فيعتدلون .

(١) كلام المرحوم خنق ناصف بك .

غير أن أهم ما تجلّى فيه مظهر النهضة الاجتماعية ، هو مجموع التغييرات الأساسية التي أدخلها عصر (اسماعيل) على الحياة الاجتماعية المصرية . فعملت بقاءها على وجودها القديم أمرا في منتهى التعذر . وسيرتها باستمرار نحو بيئات جديدة ، وعقلية حديثة ، وهو ما توخينا في الفصل التالي .

على أننا ، قبل الخوض في هذا الموضوع ، نرانا مضطرين أن نلفت نظر القارئ الى أننا لا نقصد ، من قولنا هذا ، الحكم بصلاحيّة تلك التغييرات الأساسية ، واستنكار ما كانت عليه البلاد من وجود قديم ، أو الحكم بالعكس : لأن ذلك ، في كلا الأمرين ، يستدعى بحثا ليس له هنا من موضع . وإنما نقصد اثبات واقع ، ترك في تاريخ القطر أثرا عميقا ، ندع الحكم في صلاحيته من عدمها الى ذكاء القارئ وتحقيقات الأيام .

## الفصل السادس<sup>(١)</sup>

### التغيرات التي أدخلت على الحياة الاجتماعية المصرية فأوجبت تطورها المستمر

«إنما يحمل الشعوب على تغيير نظامها الصحي، وعاداتها، وطرق معيشتها، بتغيير حال مساكنها، وتجديد صميم بيوتها وتجديداً كلياً»  
«كاتب مصري»

(فاسماعيل) وإن لم يغير حال المساكن، ولم يمتد صميم البيوت، بمعنى هذين التعبيرين الحرفي — لأن ذلك كان يقتضى هدم المساكن والبيوت — فقد أقام طوال مدة حكمه عاملاً على تغيير عقلية رعاياه : فكرياً، وإدارياً، وقضائياً، ومزالياً، وسياسياً، واجتماعياً، مع إقدامه على تغيير بيئة المساكن والبيوت، بما جئد من الشوارع القائمة تلك المساكن والبيوت عليها، وما أُنشأ من شوارع جديدة مشجرة وعمارات جديدة نغمة على الطراز الغربي بجانب الشوارع والسكك والمباني القديمة، أو على مقربة منها، كما سبق لنا بيانه، وإقدامه، في الآن عينه، على تعديل صميم المساكن والبيوت بما أدخله إلى عقرها من تعليم، وتهذيب، وأفكار، وطرق معيشة جديدة.

(١) أم مصادر هذا الفصل : «حكاية ماسة» لأتمة دامل، و«باريس في القاهرة» لكارل دي برور، و«مصر في عهد اسماعيل» لمالك كون، و«الفلاح» لأبر، و«خديويون وباشوات» لمربل بل، و«مصر الخديوي» لادون دي ليون، و«رسائل من مصر» لإبدي جوردون ديف، و«ليال القاهرة» لبيدييه.

جهود (اسماعيل)  
لتغيير القوى  
الفكرية ومجاري  
التقدير المتبادل  
بين الغربيين  
والمصريين

أما فكرا، فإن (اسماعيل)، رفع مستوى عقلية أمته، بواسطة المدارس التي أنشأها، والتعليم المتنوع الذي مده موائمه الفاحرة فيها، وبإقدامه على عموم الأعمال التي سبق لنا بيانها في الفصول الخمسة السابقة، والتي كان إذا نظر إليها يقول بحق: «إن بلادى لم تعد أفريقية، ولكنها أصبحت بقعة من أوروبا»؛ بل بإقدامه على الاعتراف الفائق بضيوفه الأجانب، اجتهد في أن يطعم المأوى التي حضرتها الأيام بين المسلمين وغيرهم، بما غير من فكر الغربيين في بلاده وقومه، وبما غير من أفكار قومه في الغربيين؛ فحمل بذلك الغربيين على احترام المصريين وتقديرهم المصرى قدره، وتجنب إيذائه لما هو عليه من حضارة وعلم، وحمل المصريين على احترام الغربيين لما يذكرونه فيهم من علم وفضل، ولما يرونه من أمير البلاد، من بذل الحفاوة والاحكام لهم.

ولعلمه أن أحكام الناس على الناس تتكون بالسمع وبالمطالعة، أكثر منها بالامتحان والاختبار الشخصى لم يأل جهدا في حمل كتاب الغرب على مدح التطور المتنوع، الملائم لروح العصر، السائر بمصر في أيامه، باستمرار وسرعة، نحو العقلية الغربية، والحضارة الأوروبية. ولم يكن يستنكف بذل المال في هذا السبيل، بسفاه ملكى، ذهب ببعض المؤلفين الى المخاللة، وتقديرا أخطاء الجرائد والكتاب، بليف ونحسة ملايين من الجنيتات.

ثم إنه، من جهة ثالثة، بما بذله من مساع في سبيل تهذيب الامتيازات الأجنبية، ووضع حد لتعدييات الأوباش والزعانف من الجاليات الغربية، لاسيما اليونانيين مما سيأتى بيانه في حينه، اجتهد في إزالة حاجز آخر من الحواجز المدينة الكبرى القائمة دون تعديل العلائق بين رعاياه والأجانب، لاختلاف شكل العقلية بينهم.

ولا شك في أن النجاح، إن لم يكن كله، فجله، كل في نهاية الأمر جهوده هذه،  
 ولئن لم يظهر ذلك جليا في أيامه، فالأسباب لعدم ظهوره نحمة رئيسية :  
 (الأول) وقوف "الشراقة"، وهم الذين يدعوهم الفريج "ليشتينيين" — ومعظمهم  
 يهود — أمام المصريين في زى الفريين، وادماؤهم أنهم غربيون. فقد كانوا يلتصون  
 إلى الجنسيات التي توافق هواهم، ولم يكونوا من الانسحاب إليها في شيء. كل  
 ما هنا لك أن أسرته — وقد أثرت من الربا — كانت قد أرسلتهم إلى أوروبا،  
 ليقتبسوا شيئا من معارفها وحضارتها. فلم يقتبسوا إلا « غندرة المتغندرين »، وهم  
 يظنونها منتهى المدنية والرق؛ وصادوا، فوجدوا ما عليه ذوهم من احتكار المالية  
 المصرية والربا؛ فساروا على خطواتهم؛ وجمعوا من دم الفلاح المصري القناطير  
 المقنطرة من الأموال؛ ونالوا، بواسطتها أو من وراء خدمتهم أهواء العواهل، ألقاب  
 النبيل والشرف. فاعتقدوا أنهم عظاميون وعصاميون؛ بينما هم في منتهى الضعة أمام  
 الأقوياء، ويتلمسون من طريق التنلل والمسكنة والتعلق الوصول إلى إفراغ جيوب  
 أصحاب النقود في جيوبهم — هم — ولو بفتح محلات للتجارة أو لمجرد الخلاعة،  
 كانوا يملوئين بحرفة وخيلاء أمام الأهالي، لاسيما بعد أن تتكون لهم في صناديقهم  
 الثروات الفاحشة؛ فلا يسرون إلى أحياء أولاد العرب أو القرى إلا والكرجاج  
 في أيديهم، يضعونه على الفلاح واليومي، لأقل سبب، ويستعملونه بقسوة من بلغ  
 الثروة من ذلك، أي من لا قلب له. والمصريون، وقد خشمهم زعيم، وخدمهم  
 برانيطهم ورماتهم، يعتقدون أنهم غربيون، ويحولون إلى الفريين تيار الكره  
 والاحتقار المنار في قلوبهم من أولئك الليشتينيين<sup>(١)</sup>.

(١) أنظر: "باريس بالقاهرة" لكارل دي مورو، ص ٨٩.

و (الثاني) هو أن التجار الغربيين أنفسهم — إلا في بعض استثناءات نادرة وشريفة — كانوا في الحقيقة ، حسب تعريف چليون ديجلار ، حثالة أممهم ومفالاتها ، وأبعد الناس ابتكارا عن إيجاد مثلة لأنفسهم كريمة في قلوب المصريين . فهم لم يقدموا الى القطر إلا لفرض الإثم السريع ، سواء أكان ذلك من سبيل ما يجبذ ام من سبيل ما يستنكر . ولو خيروا بين السبيلين لفضلوا الثاني . وأتأس هذه صفتهم لم يكن من شأنهم طبعا أن يجاولوا فكر المسلمين في الغربيين ، ويعلموهم على تحسين علاقاتهم بهم .

و (الثالث) هو أن المصريين ، منذ ارتقى (اسماعيل) سدة البلاد ، ما فتئوا يرون مرشده سحاطا يبيش حرمرهم من الجراد الزاحف اليه ، من كل أنحاء أوروبا ، لامتصاص الثروة العمومية . فكانوا يضعون في إحدى كفتي الميزان اندفاع أميرهم في سبيل تكريم الغربيين ، وإدناهم من نفسه ، ووضعه يده في أيديهم ، بكل إخلاص ليستعين بهم على بلوغ أغراضه السامية ؛ ويضعون في الكفة الأخرى عدم اهتمام ذلك الجراد بما سوى امتصاص موارد الخزانة المصرية ، وعدم مبالاته بشئ إلا يجعل كل خطوة من خطوات الأمير ، في طريقه الى العلاء ، تهي قنطارا من الذهب يتحول الى فاه الشره . ثم يزنون الكفتين ، فيرون من أنفسهم امتعاضا من الغربيين ، على الاطلاق ، وإجماما عن التعدية الى حبيهم واحترامهم .

و (الرابع) هو أن المصريين أنفسهم — وكانوا قد رأوا تهاافت "الشرافوة" والتجارب الغربيين على مدح (اسماعيل) ، والتزم بالثناء طبعه ، أثناء الليل وأطراف النهار ، وتعظيم أعماله ونياته ، وتمجيدها بكل لسان ، وفي كل مكان ، وحل صفعات الجرائد المتنوعة ، طوال ما كانوا يرجون منه رجاء ، لا سيما غير مشروع ، وطوال ما تمكنوا

من امتصاص ثروته ، وثروة البلاد بالتكاثف والتضامن — رأوم ، أول ما أناخت الصعوبات المالية بكلها على البلاد ، يلقبون لذلك الأمير ظهر المحن ، ويتطاولون على مقامه السامي ، ويشتمونه ويمرغون اسمه في الأوحال ، لا لسبب ، إلا لأنه أراد التوقف على شفا الجرف الفظيع الذي جرّه إليه ، ورغب في منع شيء من فريستهم عن أفواههم المغنورة .

و (الخامس) وهو الأم ، هو أن المصريين أيضا — وقد ذكروا ما كان من أميرهم في بسط بساط الهناء لعواهل الغرب وكبرائه ، وفي جمع أنواع السرور والملاذات حول سياحتهم في قطره ؛ وذكروا أن جانباً عظيماً من ثروته وثروة بلاده أنفق في إقامة معالم الأفراح لخدمتهم ، ونشر مواعيد الاحتفالات باقامتهم في قصوره ، وتقلاتهم بين منتهاته وجناته ؛ فاحتقدوا ، دهرًا ، أن أولئك العواهل والكبراء باتوا من أعظم المخلصين له ، ومن أميل الناس إلى تعظيمه في مشروعاته ، وشد أزره في مهماته ، وأقربهم إلى الأخذ بيده في ساعته شدة والدفاع عن مصالحه في أوقات حرجه — رأوا أولئك العواهل والكبراء أنفسهم — لأن الشرفيين لا يعرفون الدول وإنما يعرفون ملوكها — يتكالبون عليه في عصره ؛ ويتألبون عليه في ضيقه . وبينما هم لا يمحكون ساكنًا للدفاع عن رؤوس أموال دائن دول أخرى كدنيا وجواتيما لا وينكأراجوا وضيها — مع إيقان أصحاب تلك الأموال من ضياعها — يلقبون صفقة السماء على بطن الأرض في سبيل الدفاع عن ذاتيه ، هو ، مع طمعه أنهم استوفوا فوائد ما أقرضوه إياه ، وأصله ؛ وأنه ، هو وفلاحه ، باتوا أحق بأن يدافع عنهم من أولئك المرايين الشرهين ؛ وسيطلع قراؤنا على تفاصيل ذلك جميعه في سياق كلامنا التالي .



عل أن هذه الأسباب الخمسة الرئيسية ، وإن قامت دون ميل قلوب المصريين الى الغربيين ، وأوجبت نفور شعورهم منهم ، لم تحل دون تطور العقيلة المصرية في وجهة النظر الى أفاضل الغربيين ، نظرة الاكبار والاجلال ، وعدم تنقيص شئ من الاحترام الواجب لهم ، لداعي كونهم غير مسلمين ، وأخذهم منهم مالم في حاجة اليه من المعارف النافعة لهم في حياتهم برغبة صادقة وهمة عرفت قيمة الحياة الجديدة .

فنحن مدينون (لإسماعيل) بهذا التطور ، مدينون له بتمكننا من السير في مضمار الحياة المدنية حسب مقتضيات الظروف ، ولا قيود على أيدينا وأرجلنا ، ولا حاجة بنا الى استئذان علماء الدين في ذلك ، كما كان أولا .

ان (إسماعيل) لما أقدم على تحقيق الشطر الأول من الخطة التي رسمها لنفسه ، ووجد أنه ملحق حتما في تنفيذها عقبات جمّة عند كل خطوة يريد أن يخطوها ، ضرب بذلك جميعه عرض الحائط ، إلا ما كان منها متعلقا بالدين أو الشرع ووطن نفسه على السير في طريقه ، مطلق الذراعين ، حر الحركات غير متقيد بما فطرت عليه الأمم من التمسك بمبادئها ، وتقاليدها ، وآدابها المتوارثة كيفما كانت : فغير شكل حاصمته ، وألبسها لباسا غربيا ، وأدخل اليها الملامى الأوروبية ، كالأوبرا ، والتمثيل ، والمراقص ، وشيد المدارس على النظام الغربي ، وأنشأ معاهد تربية وتعليم للبنات ، وأجبر فقهاء الكتائب على ترقية مداركهم ومعلوماتهم ، وأدخل على العلوم الأزهرية عينها ، وعلى طرق تعيين الأساتذة في ذلك المعهد العظيم ، تمسحات وتعديلات هامة ، ومنح الأراضى والمنازل للدارس الأجنبية بل لذات الارساليات المسيحية ، ونفصها بيدر من المال ، وغير نظام الوراثة ، ومنح شعبه حكومة نيابية ،

وما هو أكثر من ذلك جميعه ، فقد القروض بفوائد ، لتنفيذ أعمال الحضارة وال عمران  
التي استوجبها تحقيق ذلك الشطر من خطته وأقام التماثيل ، دون أن يقع في خلعه  
مرة أن يقيد بقيد أو أن يستغنى في أى شئ مما عمله .

وربما فحبه على استمراره في الانطلاق من القيود ، التي تهيد بها جثته نفسه ،  
أنه ، في المرة التي طلب فيها رأى أرباب الدين — أى قبيل تماقله مع دولة الانجليز  
على منع تجارة الرقيق منها باتاء ، وجد منهم تعنتا وجمودا أثارا غضبه في صميم يكانه .  
فشيخ الاسلام ومفتي الديار طارضا في ذلك ، زاعمين أنه مخالف للأصول الدينية ،  
وانضمت اليهما في المعارضة هيئة العلماء بأسرها . فعزل (اسماعيل) الشيخين ؛ وأنذر  
بالغاء صوم هيئة العلماء ، اذا استمروا على معارضتهم .

ولم يبال (اسماعيل) بهم ووقع تلك المعاهدة . وقوى عزيمته على إلغاء الرق بطريقه  
المعروف في زمنه أن الدين الاسلامى شديد الرغبة في منع الاسترقاق متشوف دائما  
الى الحرية وإطلاق الأفس من قيود العبودية .

فلما رأى الناس منه ذلك — والناس على دين ملوكهم — أخذوا ، رويدا رويدا ،  
ينثرون أفكارهم الأولى ؛ ويفقهون معنى الجهاد في هذه الحياة الدنيا .

ومع أنه كان يخالف العلماء فيها يراه مصلحة ، كان يثار على دينه أن يلصق به  
ماليس منه من البدع فيجتهد في محوها . من تلك البدع : ”الدوسة“ و”الأذكار“  
و”السحر“ و”التنجيم“ .

أما الأذكار ، فأمرها معروف ، لأنها لا تزال معاصرة لنا ، ولم تجد مجهودات عهد  
(اسماعيل) في إبطالها ، أو على الأقل حصرها في دائرتها العبادية المقولة ، شيئا .

وأما "الدوسة"، فقد كانت حفلة تمام في آخر أيام المولد النبوي، حينما كانت تمام أعلام هذا المولد، أي في الأزيكية، أولا، لما كانت على حالها القديمة، ثم بعد ما أدخل الإصلاح والعلم عليها، في جهة القصر العالي.

فكانت جماهير الدراويش والآخذين على المشايخ يهودا - بعد إقحامهم على إقامة الأذكار، حتى يمتدحهم الخور - يأتون إلى متسع من الأرض متروكة أمام صواوين المولد وخيامه، ويستقون مرصوصين، كأنهم الجحارة، الواحد بجانب الآخر، ثم يأتي الشيخ الحضري، شيخ السعدية، وقد تجملت عليه الجلجلة فأسكرته، ووضع على رأسه عمامة واسعة ثقيلة، وركب جوادا مطهما، أخذ يترجح على ظهره، ذات اليمين وذات الشمال، وحركات رأسه، صوب الجهتين، تهتز بذلك الترحيح، وأقام اثنان من أصحاب اليهود على جانبيه، يستندان، لئلا يزداد خور قواه من ذلك الترحيح، فيقع على الأرض، ويسير بجواده، وهو على تلك الكيفية، فوق صفوف الدراويش المنطرحين أرضا، وقد فرغ المنوط به أمر ملاحظتهم من تصييرهم تماما إلى حال الشارع المرصوف، الذي لا يرزقه سحر من المستوى العام. فيدوسهم بلا مبالاة، تطلق أعضاء من تطلق أعضائه، وتقطع عظام من تقطع عظامه، ويتهم من يتهم: لا يصاب بأذى إلا من قل إيمانه، أو تهلت كفة آثامه<sup>(١)</sup> على ما هو في اعتقادهم الذي ورثوه عن الجاهلين.

غير أن هذه الحفلة الفظيعة لم تكن تمام إلا في العاصمة، وأما في الأرياف، فكانت ببساطة، لا يسمع الفلاحون بذات اسمها.

(١) أنظر: كلام بتر من العروة في تنجيه المنون "حياة البلاط بمصر"، الفصل السادس، والفصل السادس، والفصل الحادي عشر، والفصل الثاني عشر على الأخص، وأنظر: بيل سنت جون في كتابه المنون "الحياة القروية بمصر" ص ١٤٦ وما يليها ١

فبذل (اسماعيل) مافى وسعه لإبطال بدعة الدوسة الشنيعة؛ وكثيرا ما حدث زائريه من الغربيين عن رغبته فى إبطالها؛ ولكنها كانت متأصلة فى العادات، فأصلا عميقا، كادت تكون معه جزءا من العقائد. فلم يتمكن من تحقيق رغبته فى إبطالها لمعارضة مشايخ الطرق فى ذلك، وما تقي يظهر لرماياه اشتمتازة من الدوسة، واستنكاره إياها، إما بالامتناع غالبا عن حضور حفلاتها، وإما بالتأفف منها جهارا حين حضوره إياها. على أن مجهوداته فى هذا السبيل إن لم تثمر فى عهد الثمرة التى كان يروم قطعها، فقد كفت عقلية قومه وصلتها، تكييفا وتعديلا مكثا من انضاج تلك الثمرة فى عهد خلفه، وجعل إلغاء بدعة الدوسة، الشائنة للإسلام، أمرا مهسورا.

أما "السحر والتنجيم"، فقد كانا رائجين بمصر رواجاً حمل (عباس الأول) نفسه على إصدار أمره بأن ينفى من العاصمة إلى أقاصى الصعيد السحرة والمنجمين، وقد كانوا انتشروا فى جميع أحيائها وشوارعها وحاراتها، جلوسا أمام رملهم المبسوط.

وكثيرا ما كان اعتقاد الناس بالتنجيم والمنجمين يؤدى بهم إلى تمكين أولئك النصابين من تقوؤهم، إما احتيالا — وهو ما كان الغالب — وإما بطرق جنائية خفية، كما كان يفعل، ما بين عابدين والسيدة زينب، ذلك المنجم الشرير، الذى أغوى أكثر من مائة سيدة على أن يأمن إليه بجلدهن كلها لضرورة وجودها معهن أثناء عمليات التنجيم، وقتلن واحدة واحدة، ليستولى كل تلك الجواهر<sup>(١)</sup>.

فكان يقسم على (اسماعيل)، فى سعيه إلى تغيير عقلية قومه، أن يبحث جذور اعتقادهم بالسحرة والمنجمين، ولكن هل كان ذلك فى الإمكان، واعتقاد القوم فيهم يرجع إلى زمان بعيد جلنا.

(١) انظر: "حياة البلاط بمصر" لبطر، ص ٢١٧.

ان ذلك لم يكن ممكناً إلا بنشر أنوار العلم الصحيح، وتعميمها بين طبقات الأمة كافة؛ وهو ما بذل (اسماعيل) جهده في سبيله، كما سبق لنا بيانه. ولا شك في أنه صدم قواعد ذلك الاعتقاد، صدمة زعزعت بنيانها، وجعلتها أضعف من أن تستطيع مقاومة تيار التنوير السائر نحو العقول باستمرار، في مجرى التعليم الموجه إليها. على أن العقبات القائمة دون تحقيق الرغائب لم تكن متولدة عن موروثة الماضي فقط؛ بل إن بعضها كان ناجماً عن شبهات حاضرة؛ ومعزراً بضعف في دروع القائمين بحركة الإصلاح أنفسهم.

فمن الشبهات المسائلة بالعقول إلى الاعتقاد بصديق التنجيم والمنجمين، ما صدر عن منجم تركي وفد إلى القطر ومعه خاتم كان فحسه الأحمر يقلب إلى لون أبيض أثناء الاختبارات؛ فيرى طالبو هذه ظل ما يسألون عنه كأنهم يرونه في مرآة مياه صافية. وقد قام ذلك التركي بتجربة تحول حمار ذلك الفص إلى بياض في مرآى الاسماعيلية حينها أمام الأمير محمد توفيق باشا ولي العهد<sup>(١)</sup>.

ومنها ما صدر عن منجم آخر أنبأ ولي العهد هذا نفسه، بحضرة وزير الحربية، بما سيصيب الجيش المصري من انكسار في حملته على الحبشة، أيام كان ذلك الجيش يستعد للسير إلى عماربنتا<sup>(٢)</sup>.

نم أن ميل عقل الأمير محمد توفيق نحو التصديق بمثل هذه الأمور كان مشهوراً، وحاملاً على إضعاف الثقة بكل ما يروى عن التجارب المعمولة من أي منجم أمامه.

(١) أنظر: "حياة البلاط بمصر" لبطر، ص ٢٣٨ وما يليها.

(٢) أنظر الخطاب منه ص ٢٤٠

ولكنه يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن ميل معظم المقول، في ذلك العهد، كان كميل عقل ولي العهد؛ وأن تناقل الأكسة الأنبياء عن إجراء التجارب والاختبارات أمامه، واعتقاده بصحتها، كان من شأنه أن يوطد دعائم التصديق بالتنجيم والمتجيمين في ألباب العامة .

ومن أدهش مظاهر الضعف في درع (اسماعيل) عينه — وهو العامل على تقويم عقلية رعاياه — الشعور الغريب الذي كان، من جهة، يحمله على كره الإقامة بالاسكندرية، لأن منجيا أنباء في حديثه أنه يموت فيها — ونحن نعلم الآن أنه أنباء بكذب! — وكان، من جهة أخرى، يحمله على الاحجام عن أى عمل ذى بال في يوم الخميس .

ويحكى، للدلالة على ذلك، أنه كان مرة مائتا من الأساتنة الى مصر، على ظهر المحروسة . قيل له إن الوصول الى الاسكندرية يكون يوم الخميس . فأصدر أمره الى رجال الآلات بالوصول يوم الأربعاء . فأجابوا : « هذا محال » . فاستدعى (اسماعيل) الميكانيكى الانجليزى، وقال له : « أريد، حتما، أن تصل الى الاسكندرية يوم الأربعاء » . فأجابه : « هذا لا يمكن يا مولاي! » . فقال (اسماعيل) : « يجب ا » . قال الميكانيكى : « إني اذا حاولت ذلك قد أنسف المركب! » . فقال (اسماعيل) : « اذا وصلت بنا يوم الأربعاء جعلتك بيكا . وإن لم تصل طردتك من خدمتى! » . فأوشك الميكانيكى أن يحرق المراحل، ولكنه وصل يوم الأربعاء؛ وكان، بعد ذلك، يقول : « لم أدن، في حياتى، من الموت، بقدر ما دنوت منه في ذلك الظرف<sup>(١)</sup> ا » .

(١) انظر : "جديرون وهاشات" لمارسيل ص ١٩ و ٢٠

ولكن هذا الضعف في (اسماعيل) لم يمنعه عن مقاومة تيار السحر والتنجيم في أمته ، لعلمه بمقدار ضررها عليها ، ولعلمه بأنه اذا صح أن يقال لمربي الأخلاق من الأفراد :

لاته من خلق وتأتى مثله \* عار عليك إذا فعلت عظيم

فهذا قول لا يصح ، إذا وجه للصالحين من قادة الأمم ، أن يعتمد بهم عن الإصلاح !

تغيير العقول  
برأسه الإصلاح  
اداريا وقضائيا

وأما اداريا وقضائيا ، فقد عمل (اسماعيل) على تغيير عقلية رعاياه ، باقدامه ، من جهة ، على إنشاء شرطة غخطلة منظمة في البلاد ؛ وتزعمه ، من جهة أخرى ، السلطة القضائية من أيدي رجال الادارة ، لحصرها في هيئات قضائية خاصة ..

أما الشرطة ، فقد كانت ، حتى أوائل حكمه ، محصورة فيمن كانوا يدعونهم "القواصة" وواحدهم "قواص" . وكانوا ، في الغالب ، رجالا من جهلاء الأتراك أو مرهدة الأرناؤوط ، لا يدرون من أمور الضبط والربط سوى مصادرة الأفراد ، والاعتداء عليهم بالضرب والاهانة ، ومهاجمة البيوت وأرتكاب المنكر ، اذا ما كلفوا بضبط واقعة ؛ وسوى المطالبة بالقبض والشوشة ، إذا ما سلم الى عهدهم مجيء . فاذا ما كلفوا بالمساعدة في نكبة كحريق أو خلافه ، اختتموها فرصة للتهب والسلب ؛ كالفواص الذي استدعى لاطفاء حريق ، فدخل المنزل المشتعلة فيه النيران وضبط وهو يبذل قيمه المرقع من أحد قصبان صاحب البيت الفاتحة . فلما سئل عن السبب الذي حمله على ذلك أجلب : « ألم يكن ذاهبا طعمة للحريق ؟ أفالام إذا استخلصته لنفسى ؟ »<sup>(١)</sup>

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" اليك ص ٢٨٤

وكان قد بلغ من سوء سمعة أولئك القواصة أن الناس ، لا سيما الفلاحين ، باتوا يخوفون بهم ، أو مجرد ذكر اسمهم ، أولادهم ، فيقولون لم حيناً يريدونهم أن يكفوا عن عمل غير مستحسن : «الهندي جاء» ، كأنهم يقولون لم : «جاء البعيع ا» .

على أن هؤلاء القواصة كانوا يجبنون أمام القريج ، ولا يحسرون على مطاردة مجرمهم ، لا سيما بعد تهادى القناصل في الاسامة الى الأمن العام ، بعد ظل الامتيازات فوق أولئك المجرمين ، حمايتهم من طائلة الشرائع . لذلك اضطروا أولئك القناصل الى اتخاذ قواصة لانفسهم ، يستعملونهم في شؤونهم الادارية والقضائية مع رعايا حكوماتهم ، بالرغم من علمهم بأنهم قايما يصلحون لأن يعتمد عليهم في مهم أو ملم ، لثقة جهم للبقشيش ، وميلهم الى الرشوة .

فقد كان يحكى عن قواص من قواصة أحد قناصل فرنسا في القطر ، أنه قاد ذات يوم الى بين القنصلية فرنساويا حكم عليه بالحبس ، وبعد أن أدخله فيه ، مديده اليه ، وطلبه ببقشيش على الخدمة التي أداها له ، بمراقبته لراه الى ذلك السجن<sup>(١)</sup> .

فلشأ عن ذلك وجود نظام ضبط في البلاد ، بجانب أنظمتها الادارية المتعددة ، كان من شأنهما الذهاب بالمره ببيبة هيئة الشرطة ، وجلب ويلات على القطر لا توصف .

فعهد (اسماعيل) الى الايطال تمسكل صوليرا ، بإنشاء هيئة ضبط مختلفة ، يركن اليها في عمل الحاضر ، وكلفه بتنظيمها بحيث تفتى البلاد عن القواصة كلهم ، سواء أكانوا قواصة الحكومة أم قواصة القناصل — وهو يرى ، بإيجادها ، علاوة على رغبته في توطيد الأمن ، الى نزح حقبة من العقبات العديدة المعترضة سبيل قضائه على الامتيازات .

(١) انظر : «إدريس بالقاهرة» لكارل دي برير ، ص ١٠١ و ١٠٢ .



فقام ذلك الإبطالى بالمهمة التي كلف بها ، وأنشأ الشرطة المختلطة المطلوبة في العاصمة والثغور والبنادر ، من خيرة رجال هيئة الضبط القديمة ، ومن رجال خيرين بالعمل ، مدثرين عليه ، أتى بهم من أوروبا ، لا سيما من إيطاليا — وهذا هو السبب فيما نجهده ، في ذات أيامنا هذه ، من كثرة عدد الإيطاليين في رجال بوليسنا ، لا سيما بالعاصمتين ، وببور سعيد ، والسويس .

فبرزت هذه الهيئة الجديدة أمام أعين المصريين في مظهر الساهر ، حقيقة على الراحة والطمأنينة العامتين ، الكائل الأمن العام ، حقيقة بعين لا تنام .

استبداد الادارة  
في الماضي

وقد كانت كبار رجال الادارة — كالمديرين في الأقاليم ، والضباط في العاصمة والاسكندرية — يحملون عصا الادارة بيد ، وسيف القضاء بالآخرى . فكانوا في وقت واحد رجال الحفظ ، ورجال الحكم ، ورجال التنفيذ ، فيؤدى بهم ذلك الى الاستبداد والتجاوز ، حتى اذا كانوا غير مجبولين على شئ منهما ، فكيف بهم وهم مجبولون على الظلم ، مولعون بالشهر .

والظلم من شيم النفوس فان تجد \* ذا حفة قلعة لا يظلم

حكاية مدير  
الدقيلية وقريب  
أحد محاسب  
(عباس الأول)

فيحكى عن عبدالرحمن بك مدير الدقيلية في أيام (محمد على) الأخيرة أنه صاهر رجلا من المنصورة كان له في عاصمة الديار قريب يدعى بحسوبة الى (عباس باشا الأول) — وكان ، في تلك الأيام ، وإلى القاهرة — واضعص منه أملاكه . فذهب الرجل الى قريبه ، واشتكى له من تصرفات المدير ، فبلغ قريبه شكواه الى (عباس باشا) . فكتب حفيد الباشا العظيم خطابا الى عبد الرحمن بك ، شديد اللمجة ، هدده فيه بالعزل ، وما هو أوعر منه ، وأمره برّد ممتلكات الرجل اليه ، ثم بحث بذلك الكتاب الى المدير مع نفس المشتكى . فاكتن من عبد الرحمن بك ، حينما استلمه وقراه ، إلا أنه

استدعى الجلاد في الحال، وأمره بضرب حق الرجل ؛ ففعل ، ولم يتطع في أمره  
 حزان . ثم مضت أيام ، وانفق لعباس باشا أنه زار مدينة المنصورة . فاغتنم أهل  
 المقتول فرصة وجوده بين ظهرانيهم ، وأطموه بواسطة محسوبة بما كان من أمر اعتناء  
 المدير بخطابه ، واحترامه لمضمونه . فاحتدم (عباس) غيظا ، واستدعى عبدالرحمن بك ،  
 وإنهال عليه شتما وسبا ، وأوشك أن يأمر بقتله ، لولا أن عبد الرحمن بك تدارك الأمر ،  
 وألقى تبعة قتل الرجل على الجلاد ؛ وبسب وراء هذا وأحضره ، وباذنه زجرا وإهانة  
 ليلا يدع له سبيلا إلى الكلام ، وزعم «أنه قتل ذلك المسكين من تلقاء نفسه ، لظنه  
 أنه بذلك يرضيه ، مع أنه لم يكلف إلا بتوصيله إلى الباشا كاتب ليرد أملاكه إليه» .  
 وقبل أن يفيق الجلاد إلى نفسه ، ويفهم من المقصود بالكلام ، أمر عبد الرحمن به  
 فضربت رقبته بين يديه . فهذا غضب (عباس) ، ونهب دم الرجلين هدرا<sup>(١)</sup> .

الدقردار وناظر  
 القسم والفلاح

ويحكى عن أحد نظار الأقسام في الوجه البحري ، أنه شدد على فلاح في إحدى  
 القرى ، في دفع أموال عليه ، تبلغ قيمتها ستين قرشا . ولما لم يتمكن الفلاح من  
 دفعها ، ضبط الناظر بقرته الوحيدة ، وعرضها للبيع ، نظير المبلغ المطلوب . فلم يقدم  
 أحد من القرويين على مشترائها ، لعدم وجود مبلغ الستين قرشا عند أحد منهم .  
 فأحضر الناظر جزرا الناحية وأمره بجزر البقرة ، وتقطيعها إربا إربا ، ستين مدا ؛  
 ففعل ، فأجبر الناظر القرويين على أن يشتري كل واحد منهم قطعة بقرش ، وأعطى  
 الجزار رأس البقرة ، مقابل تعب . فرفع الفلاح نظامه من حمل الناظر إلى أحد  
 الدقردار بك ، الخفيف ، زوج زهرة هانم بنت (محمد علي) — وكان ، في تلك الأيام ،

(١) أنظر : ما كتبه من عبدالرحمن هذا سيون مارين في كتابه المعنون "حوادث ومقالات بمصر" ج ١

ص ١٧٤ وما يليها وص ١٧٨ وما يليها .

مفتش الوجه البحرى — فأحضر الدقردار الناظر، وأنبه بسف، لا على جزره البقرة فقط، بل على بيعة إياها بستين قرشا، في حال أنها كانت تساوى مائة وعشرين قرشا، كما دلت الاستعلامات التى أخذها فى ذلك الشأن. ثم أحضر القرويين، وزجرهم بشدة على كونهم اشتروا القطعة بقرش، بينما هم يعلمون أنها تساوى قرشين. وأحضر أخيرا الجزار، ووجهه على جزره بقرة ذلك الفلاح التمس، مع أنها كانت كل ما يمتلكه من الحطام الدنيوى. فقال الجزار: «إنى، يا مولاي، عبد مأمور. ولم أفضل سوى ما أمرت به». فقطب الدقردار حاجبيه وقال: «أولو أمرتك بأن تفعل، فى هذا الناظر، ما فعلت بالبقرة، أفعل؟» فأجاب الجزار: «قد قلت لمولاي انى عبد مأمور، أطيع الأوامر التى تصدر إلى!» فقال الدقردار: «هلم، انا، واجزر هذا الناظر كما جزرت البقرة!» ففعل. فقال له الدقردار، وقد جمد الدم فى عروق جميع الحاضرين: «والآن، قطعه ستين قطعة، ما عدا الرأس!» ففعل. فأمر الدقردار، حينئذ، القرويين المجتمعين بأن يشتري كل واحد منهم قطعة من تلك القطع الغظيمة، بقرشين. فتكون لديه مبلغ قدره مائة وعشرون قرشا سابه إلى الفلاح، قائلا: «خذ، هذا ثمن بقرتك، فاذهب واشتر غيرها!» ثم التفت إلى الجزار، وقال له: «كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تعبك، خذ بالمثل، رأس الناظر جزاء لك على تعبك فى جزره وقطعيه!» وضحك ضحكا عظيما، وانصرف.

ضابط القاهرة  
والتركي نبيج المرأة  
الحسناء

ويروى عن ضابط القاهرة — وكان بمثابة حكايدارها ومحافظة لها — فى أيام (عباس) الحكاية المزججة الآتية: اقترن تركى، من أعيان الدرب الأحمر، بفتاة يقال لها خديجة، كانت من أجمل النساء رواء، وأكملهن قواما، وأبدعهن عمارن. بفن

فيها الى درجة ، هجر معها ، كل نساءه الأحرىات و سراريه ، وسكن الى خديجة ، وحدها ، يبعدها ويتمتع بها . ولما كان الرجل على غنى مفرط ، ومشهورا بالطيبة ، وكرم الأخلاق ، حلاوة على أنه لم يكن دميم الخلقة ، لما وجدت في الحى امرأة إلا وحسدت خديجة على حسن بختها ، وصمود حفظها ، كما أنه لم يوجد في الحى رجل ، إلا وغبط ذلك التركي على النعم الجملة التى من الله عليه بها . وكان الكل يعتقد أن عيش الزوجين هنىء رغيد ، وأن كليهما يتمتع بقرينه تمتعا تفرقه العين ، ويرتاح اليه الفؤاد .

فاتفق ، ذات ليلة ، أن ضابط القاهرة ، فى تلك الأيام ، نخرج يتعسس تحت أجنحة الدجى ، متدججا بسلاحه ، ومصطحبا معه قواصين من رجال الشرطة ، مسلحين أيضا ، وبالجلاد وسيفه معه . بغاس بهم خلال الحارات والأزقة ، يستطلع أحوال الأمن ، ويمس نبضه . فوجد المدينة نائمة ، هادئة ، لا يلقى جسمها حارضا مطلقا .

فمن له أن يحوس ، أيضا ، خلال الخرائب والأطلال القائمة على أهواض الماضى ، بين ميدان الرملة والامامين ، وبين القلعة والسيدة نفيسة ، لعلمه أنها الملجأ الذى يؤمنه ، عادة ، قطاع الطرق ، ومرتكبو الجرائم . فوادها ، الواحدة بعد الأخرى ، ولم يجد فيها ما يستوقف الانتباه . وبينما هو يستعد للرجوع ، اذا ببعض نور فى أبعد تلك الخرائب موقعا ، يتسرب من فتحة صغيرة الى الظلام الحالك الخارجى ، فاستوقف نظره . فسار الضابط نحو منبعثه ، ودخل الخربة ، بقدم ثابتة صامدة ، ومعه الجلاد فقط . وأما القواصين ، فاقفهما خارجا . وما لبث أن أصبح على مقربة من الحجر المنبعث منها النور ، واذا بعبد أسود يتكلم بصوت مسموع مع

فلاحين، تفرس الجلاد في أحدهما، فعرف أنه أخوه . وتفرس الضابط في العبد، فعرف أنه عبد السرى التركى في الدرب الأحمر، المتحفة الألسن بسماعته وحب زوجته، وحب زوجته له .

فأصغى الى المحادثة الدائرة بينهم ؛ واذا بالعبد، وقد اتضح أنه مرسل من قبل سيده، يتفق مع الفلاحين على أنهما، مقابل مبلغ من النقود، عينه لهما، يقصدان في الليلة التالية، منزل ذلك السرى، إذ يكون، هو (العبد) في انتظارهما، عند باب الهستان المحيط بالمنزل؛ فيفتحه لهما، ويدخلهما منه؛ فيقتض الثلاثة على التركى، وهو يتناول طعام العشاء مع زوجته، في كشك في الهستان ؛ فيقتلونه بمساعدة الزوجة، الراغبة في التخلص منه، لكرهتها إياه، وغرامها بشاب من الجيرة، يدعى سليم أغا، كانت ترغب الاقتران به وانجفت معه على أن يحضر قبلهما، ويشارك معهم في ارتكاب الجريمة .

فأقول ما بدا للضابط، لدى سماعه تلك المحادثة، أن يتقضى على أولئك المجرمين، ويقبض عليهم، ويحاكمهم، ويعيدهم في الحال، بمساعدة قواصيه والجلاد . ولكن ترويه الممتد طاد اليه، وحمله على تعديل ذلك الفكر، ورسم خطة للسير ترضى القبط على جميع المجرمين، وهم على وشك ارتكابهم الجريمة، حتى يمتنع نفس الزوج باشتراك زوجته معهم فيها . فخرج بسكوت تام، وعاد الى الضابطة، وشرع يتأهب للعمل الذى نوى عليه .

وكان قد آانس من الجلاد انفعالا غريبا، وراه يتفرس في أحد الفلاحين؛ فأدرك، من حينه، أنه لا بد يعرفه، بل قد تكون بينهما قرابة . فكلف أحد رجال الضابطة بمراقبته، بدقة، طوال تلك الليلة، وطوال النهار التالى لها . فراقبه القواص،

وإذا بالجلاد قد شرع، منذ أن بزغت أنوار الفجر، يفتش على أخيه في جميع الأماكن التي يظن تردده عليها محكاً، وفي كل غاي الخرائب القائمة حول البلد. فأحاط القواص الضابط علماً بذلك، فتيقن الضابط أن حذمه قد أصاب، وأخذ يتصور الليلة مخوفة بحوادث منجعة أكثر مما يتصوره في بادئ الأمر.

فلما خربت الشمس، أخذ عشرة قواصة وابلحاد، وسار بهم، وكن في جوار منزل التركي، ثم تهلّم نحو باب البستان المقابل للباب الذي اتفق العبد مع الفلاحين على ادخالها منه. ولما كان معه من آلات فصع الأبواب ما لا يستغنى عنه رئيس شرطة مطلقاً، فصح بهدوء وأدخل رجاله، وهم كأنهم أشباح، وأقامهم في ظل الأشجار يترهبون.

وكان يعتقد أن أول القادمين سيكون سليم أفاً، وذلك لتيقنه من أنه متفق، حتماً، مع الزوجة الخائسة. وكان سليم أفاً هذا شاباً من قوى اليسار، شديد الميل إلى مناصرة السيدات وإخوانهن، كثير الحوادث الغرامية، الموجبة، أحياناً، تداخل رجال الضبط فيها. ولذلك كان ضابط العاصمة يؤد أن يكون شريك خديجة فيما دبرته لزوجها، لكن يقضى عليه، ويعيد الطمأنينة إلى أرباب طاملات كثيرة، كانت حركات ذلك للشباب تثقلهم على بناتهم وعقيلاتهم.

فبر أن سليم أفاً—ولو أنه أفسد، بلعائذه، قلب خديجة على زوجها، وأخرجها من جادة الأمانة المطلوبة منها له، بل وافق معها على أن يقترب بها، فيما لو طلقت من بعلمها—كان أبعد من أن يعترف إثمها فظلياً كالنوى اقترافه، أو يشترك مع مقترفيه في اقترافه. فكان يجهل كل التدبير، ولكنه كان مصمماً على الذهاب، في تلك الليلة، إلى بستان خديجة، لإجابة لدعوتها، وهو يظن أنه إنما يذهب إلى

الملتقى لغرامه ولذته ، ولو ذهب ، للقي حقه . خير أن امرأة أخرى ، في ذلك الدرب عينه ، كانت هي أيضا مغرمة به ، بالرغم من اطلاعها على مقابلاته الخديجة — وكانت قد نظرت ، من نوافذ بيتها ، تجمع رجال الشرطة بالقرب من منزل التركي ، فانسلاهم الى بستانه — لم أرته سائرا نحوه ، إلا وتلت من شباكها ، وأثرت بوقوعه بين خالب خطر مميت ، إن هو لم يعدل عن السير الى خديجة ، في تلك الليلة . فعند سليم أفا عن الذهاب ، ورجع الى بيته ، بتأثير طامل خفي لم يدرك ما هو . وقضى ليلته ، وهو مشغول البال ، مبليبه .

فلم يمحض على تربع رجال الحفظ زمن ، إلا ورأوا السرى التركي وزوجه خارجين من المنزل ، وسائرين نحو الكشك ، الذي كانا يتعشيان فيه — وكانت الليلة مقمرة — ثم رأوهما يجلسان الواحد بجانب الآخر ، ويديان لبعضهما من مظاهر الغرام ما أشمل نيران الشهوة في ظهور الشبان من أولئك الرجال ، وأحاج الشجون في صدر الضابط . ومضت ، وتلك المظاهر قائمة ، فترة من الزمان ، وإذا بباب البستان المفتوح عليه بين الأرواد انفتح ، ودخل الفلاحان وراء العبد ينسلان .

فدنا الضابط من الجلاد ، ووضع رأس خنجره على قلبه ، وقال له ، وهو ينظر اليه بهمين ، كأنهما الفولاذ القاطع : « إن تبد حركة ، أية كانت ، ومهما خفت ، آخذتها علامة منك لأحد الفلاحين — وأظنه أخاك — تقصد بها إيقافه على ما هو فيه من خطر ، وقتلتك في الحال ! » فارتعدت فرائص الجلاد ، وجمد كعصم .

وكان القتلة قد اقتربوا رويدا رويدا من الكشك ، وأحست خديجة بدقوهم . فانقلبت بنته الى حجة ملتوية ، وقدحت عيناها نارا ، وشرعت ، والكلام يخرج

من فيها بصغير، توجه الى بلها أشد الكلام قرصا وتوجيها، وتظهر له كراحتها وبغضها، وثماتها بحنقه الذي أصبح قيد شبر.

وبينا هي لا تزال تتكلم، والتركي مأخوذ، مصعوق، لا يدري ألى منام فطبع هو أم في يقظة، انقض الفتلة الثلاثة عليه، وسكاكينهم مشهورة. فصاحت الزوجة الخائنة: « اقتلوه! اقتلوه! » ورأى الرجل الموت بعينه.

ولكنها ما هي إلا لحظة، وإذا بالسكاكين قد أطيرت من أيدي حاملها، ووقعت على الأرض، وإذا برجال الشرطة قد أطبقوا على المجرمين وكلهم بالحديد، وشدوا وثاق الزوجة الخائنة.

ففتح التركي عينيه واستحين، وازداد غيوبة بينا الضابط، والسيف في يده مشهرا، يأمر الجلاد بالاقتراب، وضرب أعناق الفلاحين والعبد؛ والجلاد يطيع، صاغرا، ويضرب عتق أخيه، والسموع تحذر مخيفة من عينيه.

ولكن زوج خديجة، لما سمع الضابط يأمر بضرب عتقها أيضا، أفاق من دهشته، وتقدم الى زوجه، واحتضنها، ومانع في قتلها، بالرغم من تحققه جريمتها. غير أن الضابط ألقت نظره الى أنها باتت مفضوحة، علاوة على كونها مجرمة، لأن نيفا وأثنى عشر رجلا رأوها مكشوفة الجهاب. فأقطع الرجل عن ممانته، وتخل عن زوجه الى ما قدر لها.

فضرب عتقها، وخمس الضابط منديل رأسها في دمها المتدفق، وأرسله في أول ساعات الصباح الى سليم أفا — هدية دامية من محبته اليه — وكان سليم أفا قد قضى ليله كله، هاجسا. فلما ألقى اليه المنديل، علم بأن مأساة وقعت؛ وأن خديجة باتت وهينة القبور! <sup>(١)</sup>

(١) أنظر: كتاب بيل ست جون المنون "الحياة القروية بمصر" ص ١٢٠ الى ١٣٩



تلك كانت سلطة المديرين ورؤساء الضبط في العاصمتين والثغور؛ وإلى هذا الحد كانت أعمار الناس رهينة أشاراتهم وأهوائهم .

فانتزع (اسماعيل) منهم هذه السلطة . ولئن لم يفصل بين وظائف القضاء والادارة فصلا تاما إلا في أواخر حكمه ، وبعد انشاء المحاكم المختلطة ، إلا أنه من جهة ، منع رجال الادارة من توقيع عقوبات إدارية لم تصدر بها أحكام ؛ وخص رجال القضاء ، دون سواهم ، بإصدار تلك الأحكام . فكانت النتيجة أن القسوة والفظاظة اللتين اشتهرت بهما عصور الحكم المصري السالفة ، إن لم تبطل في عهده بطلانا تاما ، فقد قلنا إلى درجة كادت أن تخلص معها في حيز العدم ؛ ومن جهة أخرى ، فإن جهوده منذ تبوأ العرش في سبيل انشاء محاكم نظامية في البلاد ، تقبض على كل السلطة القضائية وفروعها فيها — وهي جهود ماقبى الراى العام واقفا عليها — أدت إلى تطور فكري في اختصاصات القضاء وجوب فصله عن الادارة ، لا يزال يتقوى وينضج حتى أيامنا هذه ؛ ولو أن تلك الجهود لم تثمر سريعا ، بسبب مقاومة الدول الغربية ، لا سيما فرنسا ، لها ؛ ولا تمكنت من تكييف ثمرها ، التكييف المرغوب فيه ، بسبب تلك المقاومة عينها . وسرى ذلك جليا في الباب الخاص به .

وأما منزليا ، فقد عمل (اسماعيل) على تغيير عقلية رعاياه : (أولا) بما أدخله إلى حياتهم البيئية من عادات معيشة غربية ، حملت الكثيرين منهم ، لا سيما سراتهم ، على أن يستبدلوا ما كانوا عليه — كأجدادهم — من طرق جلوس وأكل ونوم واستقبال ضيوف ، بطرق جلوس الغربيين وأكلهم ونومهم واستقبالهم لضيوفهم ، عملا بالقول المألوف : " أن الناس على دين ملوكهم ! " .

تغيير العقول منزليا

فان (اسماعيل) طلق، بتاتا، النظام الشرقى في ذلك جميعه؛ وأقبل يجلس ويا كل وينام ويستقبل ضيوفه، على الطريقة الغربية المحضه . أما جلوسه، فكان دائما على أرائك مرتفعة . فانما شاء الكلام، مئد رجله على مقعده، حسب عادة الشرقيين، أو نهض وشرع يخطو في الحجرة، ذهابا وإيابا، بكتفه العظيم، مكثرا من الإشارات اليدوية . أما أكله، فكان على الطريقة الفرنجية البعثة، يدعو اليه، عادة، وزراره وبعض ضيوف أوروبيين؛ ويقترون المدعوون الدعوة جذا، لأنه كان لمطبخه شهرة كبيرة في عملها . فالأصناف المقدمة كانت من ألد المأكولات وأشهاها . وكانت أنبذته من خيرة الخمر الفرنسية وأشهرها، ولا سيما من النوع المعروف باسم "شاتوايكيم" . أما آنية مائدته، فكانت من أنظر ما يكون، مذهبة الخفاة تذهيبا خفيفا، ومقوش عليها حرف "ا" بالذهب الخالص . وكان كثير المحادثة أثناء تناوله الطعام، عملا بالحديث المأثور . على أن محادثته كانت بالفرنساوية، دائما، بسبب الضيوف المدعوين الى مائدته . وكان هو مركز المحادثة، لأن وزراره لم يكونوا — معظمهم — يفهمون الفرنسية إلا قليلا . وكان كلامهم أقل من فهمهم <sup>(١)</sup> .

وأما نومه، فكان دائما على أسرة متخذة من المعادن الثمينة، في حجر يدل رياسها على أنها معلقة للنوم، فقط . وأما مقابلاته، فانها كانت سهلة وبسيطة . يدخل الناس اليها، جماهير، ويجلسون على أرائك . فيحادثهم في مختلف المواضيع، ويقدم لهم السجائر بدل الشبكات، والقهوة بدل الشربات . على أنه كان يتضايق من المقابلات الرسمية، لا سيما في آخريات أيامه .

(١) انظر: "مصر الخديوية" لادولف دي ليون ص ٣٣٧، و"خديوي مصر بإشارات" لمريدل ص ١٨

لذلك ، بعد أن كان الرقاد ، في مصر ، على طراحت أو على فرش الأرائك ، أصبح على أسرة متنوعة ، من السرير الحديد الى السرير البرونز والنحاس الأبيض والأصفر الى السرير الفضة .

قال ادون دى ليون ، بعد أن زار سرايات اسماعيل باشا المفتش ، عقب سقوطه : « لاحظت دليلا جديدا على تحول العادات الشرقية الى المجارى الغربية في هذا القطر ، حتى عند الذين لم يتفرنجوا في عقليتهم وأخلاقهم . ذلك الدليل هو تبدل الأرائك بأسرة النوم <sup>(١)</sup> » .

وبعد أن كان الأكل على « الصواني » والطليات ، تمت حينئذ يتفق ، أصبح على موائد مرتبة ، في حجر خاصة ، مجهزة تجهيزا تمل كل مظاهره على أن تلك الحجر خصيصا بالأكل دون غيره .

وبعد أن كان الجلوس على فرش فوق الأرض ، تمت على طول الحيطان ، بوسائد مستندة الى هذه ، أو على أرائك مصنوعة طبقا للطراز الاسلامي ، أصبح على أرائك مرتفعة ، تجلب رأسا من بلاد الغرب ، أو تصنع في نفس القطر ، ولكن على طراز الوارد من الخارج ، وعلى كراسي من الخيزران ، ومقاعد أخرى متنوعة الصنع لم يكن الجليل السابق يستعملها البتة .

وبعد ما كان رب البيت ، اذا ما أتاه زائر أو ضيف ، يقدم له الشراب ، فالشيك الطويل ، فالقهوة في فناجين ذات ظروف خاصة ، أصبح يقدم له ، بعد الشراب ، السجائر ، ثم القهوة في فناجين ذات آذان ، قائمة على صحن صيني ، من جلسها .

(١) أنظر : « مصر المتدهية » لادون دى ليون من ١٩٠٥ و ١٩٦٠

وعمل (اسماعيل) ثانياً، على تغيير عقلية رعاياه، منزلياً، بما حبيه اليهم من استبدال الطرق المعمارية القديمة، بالطرق المعمارية الحديثة. فبينما كانت البيوت في السابق تفصل من الداخل، تفصيلاً غربياً، بحوش ومناذر ذات خزائن مرتفعة، ومقاعد غير مستوية السطح، يخرج منها الى درك قليلة الاتساع، تنتهي الى سلم يهبط درجات يوصل الى مقاعد أخرى، منفصلة عن بعضها ومرمطة عن الأولى ارتفاعاً بسيطاً، وهكذا، حتى يبلغ الى أعلى البيت، حيث يوجد ما كانوا يدعونه بالقصر— وهو مقعد يشرف على كل ما تحته، وتتنظر السماء من نوافذه دون سواها؛ وبينما كانت أبواب المداخل تجعل إما واطئة، لا يلجها الانسان إلا اذا أحنى قامته؛ أو واسعة جداً، وفي هذه الحالة، إما أن تكون أبوابها حديدية، أو خشبية ضخمة، كأبواب الحصون؛ وإما أن تفتح في وسطها فتحة صغيرة تستعمل دون غيرها للدخول، ويضطر الداخل منها، أيضاً، الى إحناء رأسه وقامته، إحناء كبيراً؛ وبينما كان خارج البيوت يتعدى، في الغالب، على الهواء والقراغ، فتقوم الأدوار العليا على ككل بارزة عن حائط الدور الأرضي الى فضاء الشارع، وليس في ذلك الخارج ما يستلقت النظر، سوى المشربيات — وكانت تارة صغيرة، بحيث لا يستطيع أن ينظر منها أكثر من شخص واحد، أو يوضع فيها غير قلة واحدة؛ وطوراً كبيرة، واسعة وذات «خارجات» من نوعها تكاد تلامس مقابلاتها في الصف الآخر للباني، أصبحت البيوت تفصل، أدواراً أدواراً، على الطريقة الغربية، كل دور مستوف لوازمه، ومشمتم على حجر يعرف الفرض المعلقة له كل منها؛ وأصبحت المداخل تكسي أهبة وجلالاً. فليج الانسان منها الى محن النار، وهو رافع الرأس والجبين، مستوى القامة؛ وأصبحت الصنعة تتفنن في خارج البيوت، فترين الوجوهات بالشرفات

الرخامية ، وبمظاهر هندسة معمارية بديمة . وبالنسبة لاتساع الشوارع الجديدة ، وقيام الأشجار على جانبيها ، والاستغناء بالتالى عن الحيطان الداخلية ، لم تعد تلك الوجوهات تجور على الفضاء ، ولم تعد أخطار تداعيا وسقوطها بالكثرة التى كانت عليها فى السابق .

وعمل (اسماعيل) ، ثالثا ، على تغيير عقلية رعاياه ، متزليا ، بما حمل عليه الغربيين والسراة الوطنيين من تشييد القصور والوكالات الفخمة ، فوق الأراضى التى وهبها لهم ، على شرط أن يقيموا عليها مباني متناسب أجهتها مع ثمن تلك الأراضى . ولما كان ثمن بعض القطع فيها يربو على الألف جنيه ، فإن رمنجن والديوك أوف سيوفزلند ، والكلوب الانجليزى ، وغيرهم ، أنشأوا عليها قصورا بلغ ثمن الواحد منها عشرين ألف جنيه . فتجم عن ذلك أمران : (الأول) أن حب التقليد أخذ يدفع بالأهالى فى الماسمتين والبنادر ، بل فى ذات القرى ، الى تشييد بيوت وقصور على مثال تلك السرايات والمنازل الفخمة ، وفرشها بالرياش الفاخر ، على الطراز الغربى ؛ و(الثانى) أن الحياة المتزلية الأهلية المجاورة للحياة المتزلية الغربية ، المتفضية فى هذه التشييدات الجديدة ، شرعت تزداد بها احتكاكا ، وتقتبس منها خصالا من شأنها أن تستبدل ، من قديم كثير ، جديدا يروق فى العين . وأهم ما ظهر ذلك فى إقدام الشرقيين على الاقتداء بالغربيين فى إقبالهم على التصوّر شمسيا ، وعلى تزيين حجر بيوتهم باطارات صوريهم وصور أصدقائهم الفوتوغرافية .

فاذا أضفنا الى هذه الأمور الثلاثة ، ما أدخله (اسماعيل) الى صميم البيوت من تفسير فى وسائل الشرب والتنوير المائى ، ومن تعليم وتهذيب أدبيين ، وأفكار جديدة ، بواسطة المدارس التى أنشأها والشبيبة التى رباه فيها والحوارى المتربات

في سراياته التي كان يزوجهن من وجهاء البلد فيدخلن الى بيوت أزواجهن نظام تلك السرايات ونظافتها وترتيبها ؛ وبواسطة بظواهر الحياة الغربية التي نشر معالمها في ماصمته ، فانا لا نرى مندوحة عن الاعتراف بأنه ، وإن لم يهدم كل المساكن والبيو ،، ليجتدعها — مع أنه ، في الحقيقة ، هدم ووجد كثيرا منها — فقد غير حالها في الواقع ، وعزل صميمها حقا ، تمديلا يصح أن يعتبر تجديدا محضا ، فأصبح ينطبق عليه القول الذي صدرنا به هنا الفصل من كلبنا ؛ وبتنا نستطيع أن نحكم بأنه غير حقيقة ، طلاء — أمته ، وطرق معيشتها .

ولا أدل على صحة ذلك من التغييرين اللذين طرأ عليهما سياسيا واجتماعيا من وراء جميع ما ذكر .

فأما سياسيا ، فإن انتشار المعارف والعلوم في البلاد انتشارا واسعا ، وتمكن مقتبسها المصنفين من تهذيب عقلياتهم بأفكار مؤلفي الغرب السياسيين والاجتماعيين ، من جهة ؛ واحتكاك الحياة المصرية ، من جهة أخرى ، بالحياة الغربية ، على ما كانت عليه هذه الحياة من استقلال في مظهرها الحثي ، ومن فوضى في مظهرها المعيب ؛ فإثارة ذلك الاحتكاك للافضالات المختلفة في النفوس ؛ أكان الباحث الى آثارها مظهر تلك الحياة الحثي ، أم مظهرها المعيب ؛ ومجهودات (اسماعيل) الذاهبة به الى الفوز بالاستقلال لبلاده ، وإلى إقامتها في مصاف الدول الشرقية الكبرى ، من جهة ثالثة — وهي المجهودات التي ميأتى بيانها في حينه — وقد كانت بمثابة نار اشتعلت في الأنفوس والمقولات وتنازل (اسماعيل) رسميا ، من جهة رابعة ، عن جانب عظيم من سلطته المطلقة في ميدان التشريع وربط الضرائب ، بإنشاء مجلس النواب ؛ وفي ميدان القضاء بتأسيسه المحاكم المختلطة ، وخضوعه لأحكامها وقراراتها ، راضيا

تغيير العقول  
سياسيا

أو مكراها، وتضافر الجاليات الأجنبية بمصر، من جهة خامسة، على الإثراء من اسلاب أمير البلد وفلاحيه « بمساعدة الحاكم المختلطة لهم مساعدة عجيبة » كتميعير القاضي الهولندي فيها المسيو فان بلمان في كتابه الممنون « أوروبا ومصر » زيادة على تضافر الدائنين الأجانب بتعريض دولهم، لا سيما إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وتعنتهم في أن تدفع لهم فوائد الديون المطلوبة لهم، ولو بارهاق الفلاح المسكين، وتحصيل الأموال منه سلفا، أو بحرمان موظفي الحكومة ومستخدميها من صرف مرتباتهم لهم، أشهرها متواليية<sup>(٢)</sup>، وقدموهم بحملة مفكرين شرقيين الى مصر، وأخصهم بالذكور جمال الدين الأفغاني، وأديب اصحق السوري، وقيامهم بثون تعاليمهم الحارة في المجتمعات والجوامع والكتيب والصحف، من جهة سادسة وأخيرة — كل هذا أوجب تطلورا هائلا في الأفكار، وأنجب قيام علة آمال سياسية في القلوب، ظهر وجودها جليا : (أولا) بما سبق لنا ذكره من جميعا، سياسية؛ (ثانيا) بالفتنة العسكرية التي أدت الى سقوط الوزارة التوبارية؛ (ثالثا) بالحركة القومية التي أعقبت إلغاء قانون المقابلة؛ (رابعا وأخيرا) بالعريضة التي قلمتها الشيبة المصرية الى الخديو (محمد توفيق) في أوائل أيام ملكه، والتمست فيها، بلهجة علمانية للغربيين، منع القطر بحملة اصلاحات، دعها «حيوية» له .

تغير العقول  
اجتماعيا

وأما اجتماعيا، فان الملابس والأزياء تغيرت . أولا فترك النساء، في المدن والبنادر، اليك، والسلطة، والحزام الكاشميري، والطاقيع الحمراء الصوف، الموضوعة علة مناديل عليها، والقرص بما كان يحيل عليه من حلل ومجوهرات؛ بل ترك

(١) أنظر: فان بلمان «أوروبا ومصر» ص ٢١

(٢) اقرأ: مكاتبات السريثيين، القنصل العام البريطاني بمصر في سني ١٨٧٧ و ١٨٧٨

معظمهن ذات الضفائر والصفاء؛ وتركفن الخلف والبابوچ؛ وأقبلن يلبسن، في داخل منازلهن، الجلابيب والقمصانين، مفصلة، لسيدات الطبقة العليا، على المودات الغربية؛ ويضمن الطرح البسيطة على رؤوسهن؛ ويلبسن الجوربات في أرجلهن، وفوقها الشباشب. فلذا نخرجن لبسن لباسا افرنجيا من فوقه السبلة، والخبرة والشمك؛ وأخذية غربية من ذات الكموب العالية؛ وأقدمن — علامة محسوسة ظاهرة للتطور الحديث السائر — على أن يصورن، تصويرا فوتوغرافيا، وهن أيضا بلباس افرنجية؛ وعلى تكبير صورهن الفوتوغرافية، بل على التصور تصورا زائفا، يوقوفهن أمام مهرة المصورين من الغربيين، بعد أن كن أضن على غير أزواجهن برؤية وجوههن وقوامهن، من البخيل بديناره العزيز، على السائل.

قال ادون دى ليون: من أغرب الأشياء في موجودات سرايات المفتش «صورة كبيرة جدًا، موضوعة في إطار ثقيل منذهب، تمثل ابن المفتش وعروسه — وكانت ربيبة زوجة الخديو الثانية — في قتلحما وقامتئهما، فلها كانت من النوع الذى ينتظر المرء وجوده في قصور الملوك. وبما أن كلا المتصورين لم يكن في لباس شرقى، فان المشابهة كانت أتم. أما هو، فكان جالسا، مرتديا لباسا افرنجيا ومكشوف الرأس. وأما هى، فكانت واقفة في كساء غربي من المخمل الازرق الثمين، مفصل ومطرز على آخر اختراع الجليل. وعلى رأسها إكليل من ماس يشبه تاجا. يظنها رايتها من صميات الفرنجيات» (١).

وترك الرجال في المدن والبنادر، أيضا، لا سيما الموظفون، اللباس المغربي والطربوش المغربي، اللذين زارهما على (محمد على باشا) و (ابراهيم باشا) و (سعيد باشا)

(١) أنظر: "مصر الخديوية" لادون دى ليون ص ١٩٦ و ١٩٧



في صورهم الرسمية المرسومة في المكتبة المصرية وغيرها ، ولبسوا اللباس الغربي ، المرتدى به رجال تركيا في ذلك الحين ، وأغنى به الاسطمبولية ، من تحتها القميص المكوى ، والصدري والبنطلون ؛ وانتشر ، مع شيوخ هذه الملابس ، استعمال الفرش لتفريشها ، وقد كانت مكروهة ، لكونها مصطنعة من وبر الخنازير ؛ وزكوا المز والمركوب ، واحتذوا بأحذية غربية ، من تحتها الجورابات . فزال ، بذلك ، فارق كان يميز المسلمين عن غيرهم من بنى وطنهم ، ليسوا يدينون بدينهم . فان مزور المسلمين ومراكيبهم كانت صفراء ؛ وأما النصارى واليهود فقد كان الأصل في لون لبسهم — عامة — ومراكيبهم — خاصة — أن يكون أسود ، على جواز استعمالهم اللون الأحمر — اذا شاعوا — وأقلع المتمليون منهم عن عادة حلق رؤوسهم ، مع إبقاء شوشة في قبتها ، كما كانت العادة المتبعة في الأجيال السابقة ؛ وأخذوا يعفون عن شواربهم ، وقد كانوا يبالغون في قصها ، كما لا يزال يفعل بعض التعممين في أيامنا هذه ، لا كما يفعل المقتدون بالانجليز من حلق طرفي جانبيها وقص الباقي فيها على سواء الشفة ؛ وأخذوا يقصون لحاهم على شكل مستدير ، كشكل لحية (اسماعيل) في صوره ، وتجاوز البعض ذلك ؛ فقلدوا الفرنج ، وحلقوا لحاهم بالمرّة . وقد كان الإعفاء عن اللحية أمرا رائجا في النفوس ، لما كان ولا يزال للحية من احترام عند بعض الشرقيين ، لا سيما البدو .

وما زلت أذكر اشتزاز بعض مشايخ من العربان ، زرتهم منذ نيف وخمس وعشرين سنة ، إذ رأوا في يدي كتاب سيرة نابليون الأول ، وعرقهم من هو ، وما كانت أعماله ، فتشوقوا الى رؤية صورته ؛ فأريتها لهم ، فوجدوه حليقا !!! كما أنى لا يزال أذكر ما قاله لى بعض مبشرى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية — وكان قد جاب

احترام الهبة قديما

جهات السلط والكرك، في الصحراء السورية—من أن العربان، هناك، لما رأوا بين يديه صورة جبر المسيحية الأكبر وكان في تلك الأيام لاوون الثالث عشر، ووجدوا أن رئيس الدين الذي يدعوهم إليه، رجل حليق الذقن والشارب، نفروا منه نفورا عظيما وانفضوا من حوله .

ولعل هذا هو السبب في أن مبشرى الككلكة وروهبانها، من الغربيين، يفنون عن لحام وشواربهم في الشرق، بينما هم يخلقونها بتاتا في الغرب .

ويذكر، للدلالة على احترام مصري (محمد علي) أنفسهم للحية، أن أحد مشايخ البلاد في الشرقية لكي يؤكد رجلا من ناحيته كان قد اختصمه، قيده في عداد المدعويين لمجنونية، بالرغم من كونه جاوز السن، وجعل مزين الناحية يحاق له لحيته : لأن قانون (محمد علي) العسكري كان يقضى بحاق ذقون الجنود، وأرسله الى المركز ضمن المرسلين اليه لتوقيع الكشف الطبي عليهم . فوجد كلوت بك — وكان هو الطبيب المكلف بالكشف، وهو الراوى لهذه الحكاية — أن الرجل غير لائق للخدمة، لداعى تجاوزه السن . فأمر بتخليته وإعادته الى بلده . ولكن الرجل أبى إلا أن ينصفه المأمور، أولا، من خصمه، الذي تسبب له باهانة عظمى بحاق لحيته . فاستحضر ذلك الخصم، وخير الرجل في أمر مجازاته . فطلب أن يعاملوه مثلما عامله، وأن يخلقوا له لحيته مثلما خلق، هو، لحيته . فطلق الشيخ يرجو ويتوسل، ويعرض كل ما يشاء خصمه أن يطلبه من عوض مالى، ويحاول أن يقتنه بأن حاق لحيته لن يعبديه نفعا، ولن يبيد لحيته اليه . فأمر الرجل على طلبه . ولولا أن كلوت بك تتدخل بينهما، وأقنع الفلاح بقبول عوض مالى جسيم من الشيخ، لما وجد هذا مفرا من جزلحيته، ولا اضطر الى مغادرة بلده، لكيلا يكون موضع سخرية أهلها، كما فعل

شيخ البلد  
والقروى

غريمه . فانه أقام في ناحية أخرى ، ولم يعد الى قريته إلا بعد أن رجعت لحيته الى ما كانت عليه <sup>(١)</sup> .

ويرى بلتروني ، الرحالة البحاثة الإيطالي الشهير ، عن أحد مهزاري ( محمد علي ) مهزار ( محمد علي ) أنه أراد التنكر يوما ، للزاح ؛ فخلق لحيته وحضر الى مجلس مولاه . فلم يعرفه في بادئ الأمر ، ولكنه لما عرفه ، أغرق في الضحك ، حتى كاد يستلقي على ظهره ، وجاد عليه ببعض المال . على أن المهزارين رفاقه ، أبوا بعد ذلك أن يجالسوه على مائدة أو يخالطوه مطلقا ، لزعيمهم أنه بحلقه لحيته ارتكب شيئا بات لا يؤمله لأن يكون واحدا منهم . وذلك لأنهم كانوا يعتبرون غنما كل من حلق لحيته وشاربيه <sup>(٢)</sup> .

وتغيرت ثانيا ، كيفية حياة الأغنياء اليومية . فانهم كانوا ، حتى أيام ( اسماعيل ) الأولى ، ينهضون من النوم مبكرين ، فيصلون صلاة الصبح ، ثم يغطون ويشربون القهوة ، ويدخنون الشبك ؛ فيهبون ، بعد ذلك ، ويلبسون ملابسهم ، ويركبون جيادهم ، ويخرجون إما للزيارات أو للتسوق ؛ وإما لمجالسة صديق حتى تأتي ساعة الغداء ، وهي الثانية عشرة صباحا : فيعودون الى منازلهم ، ويتفقدون ؛ ثم يشربون القهوة ، ويدخنون الشبك ؛ ويدخلون بعد ذلك الى دوائر حريمهم ، فينامون ساعة أو ساعتين ؛ ثم ينهضون ، فيغسلون وجوههم أو يستحمون ، ويتوضأون ، ويصلون صلاة الظهر ؛ وبعدها ، يتكيفون — والتكيف عبارة عن غيبوبة المرء عن العالم المحسوس ، ليعيش برهة خير قصيرة في عالم الأحلام والأمانى ، معيشة من يرى هذه الأمانى والأحلام حقائق ، ويستمرئ لذتها استمراء عميقا — ثمند ما يتهبون من

(١) أنظر : منتخب كلوت بك المنون "لمحة في تاريخ مصر أيام محمد علي" .

(٢) أنظر : "بلتروني" .

التكيف ، يشربون قهوة العصر ، ويدخنون شيبكا آخر ، ثم يلعبون دور ضامة أو شطرنج مع أحد أصدقائهم أو أخصائهم . وبعدها ، يصلون العصر ، ويخرجون للتنزه ، أحيانا ، مشيا على الأقدام ، وفي الغالب ممتطين جيادهم ، وفي ركبهم حاملو شبكاتهم ، وأمامهم سؤاسهم . فتقدم بمواكبهم الأزيىكية . فاذا عن لهم ، نزلوا ودخنوا تحت أشجارها الباسقة ، وإلا استمروا في تنزههم ، يتفرج بعضهم على بعض ، وتختلط ، أحيانا ، بموكبهم ، حربة أحد كبار الباشوات المقربين ، فيتفرجون عليها ، ويتفرج الباشا عليهم منها . وكثيرا ما كانت تتركبهم الجير والجمال ، عليها السيدات ، جالسات كما كنا نراهن ، قبل عهد الترامواى ، أى مؤثرات بجهن ، وواضعات أرجلهن في ركاب قصير ، بحيث تلتصق ركبهن بطونهن ، ويهب الهواء عليهن ، فينفخ في جبهن ، فيصرن كالبلونات . ولما تقرب الشمس من مغيبها ، أى حوالى الساعة الحادية عشرة ، على الحساب العربى ، يعودون الى بيوتهم ، فيصلون صلاة المغرب فى وقتها ، ثم يتمشون ويذهبون الى القهوة التى يميلون اليها ، لسماع الراوى يقص سيرة بنى هلال وحروب أبى زيد ودياب والزناى خليفة ، أو أعمال فروسية حثرة بن شداد ، والوزير المهلهل وحرب السوس ، أو فعال سيف بن ذى يزن ، وحبل على الزبيق وأخايدعه أو يذهبون للمهر ، ساعة أو ساعتين ، عند بعض الأصدقاء ، ويعودون فينامون مبكرين إلا اذا سهروا فى فرح أو أقاموا يمتعون بطراوة الليل ، حينما يكسو القمر بأواره أجنحة الدجى ، فضة .

ولكن ، بعد انتشار ملاهى المدنية الغربية وأسبابها ، بعد تشييد الكوميديا والأوبرا الخديوية ، واستخدام أكبر الممثلين والممثلات اليهما ، وإقامة المراقص فيهما ، ملاوة على إدخال طلة اللبالي الراقصة السنوية الى الحياة القومية المصرية ، بعد

استيراد العربات بكثرة من أوروبا، حتى غصت بها شوارع القاهرة والاسكندرية، واقتناها معظم السراة فيهما، وبعد اقامة حفلات السباق الخيل والمجن في هاتين العاصمتين، وانشاء حمامات حلوان، اندفع الأغنياء مع تيار الحياة الجديدة التي أوجدتها كل هذه المظاهر الحضرية، واتخذوا خلالا غير التي كانوا عليها .

الملاهي الحديثة

أما الملاهي، فمن نوع الكازينات والقهوات الفنايية، المنشدة فيها غادات متفنيات في سلب العقول والجيوب، كالتى أقيمت على سكة شبرا، وفي بعض نقط من ذلك الشارع، الذى أصبح — لاسيما في أيام العطلة والأعياد، وإلى أن أنشئ الشارع الموصل الى الأهرام، ووصل بين برى الجيزة والجزيرة ومصر بالكوبرين الجليلين المنشأين في سنة ١٨٧٢ — ملتقى كل من كان في العاصمة من ممثل للوجاهة، وكرم المختد، ورفعة المركز، والجمال، والترف .

الكوميد

وأما الكوميديا والأوبرا، فان الأولى شيدت بالأزبكية في ٢٢ نولبر سنة ١٨٦٧، وقد كان يوجد مكانها، ومكان الأوبرا أختها، بيوت صغيرة حقيرة . فاقترح (اسماعيل) على أصحابها أن يبيعوها له، فرضى بعضهم وأبى آخرون . ولكنه حدث أن حريقا ألهم فيما بعد بيوت الراضين . فاشترى الخديو منهم الأرض بالثمن عينه الذى كان عرضه عليهم في البيوت وهي قائمة وشرع يبنى مسرحية فوقها . واحتفل بافتتاح الكوميديا في مساء ٤ يناير سنة ١٨٦٨، فكان إنشاعها، وتأسيسها، وتجهيزها، وإقامة أول تمثيل فيها — كل ذلك تم في ظرف شهر واثني عشر يوما<sup>(١)</sup> . ومع أنها كانت، في بادئ أمرها، عبارة عن بناء خشبي، فان إبرازها الى الوجود بمثل هذه السرعة لم يكن يخلو من شيء، يعجب له، إعجابا كبيرا . فزيادة على ما استوجبه

(١) أنظر: "باريس بالقاهرة" لكارل دي برور، ص ١١٨

من الدقة المدخلان اللذان عملا فيها : ( أحدهما ) حديدى ، على الشمال ، للحديدو ؛  
( الآخر ) حديدى ، كذلك ، على اليمين ، للمهرم المصبون ، وأميرات البيت المالک ،  
فان داخل ذلك المسرح كان نلما جدًا ، مزينا بأجى الرسوم ، وبأديا على كل شئ فيه  
بلذخ فائق ، لا سيما فى كل ما كان يتعلق بلوج الخديو والألواج الثلاثة المخطاة المعدة  
لأميرات أسرته .

الأرهما

وأما الثانية ، أى الأوبرا ، فقد بنيت فى السنة التالية ، فى ظرف خمسة شهور ؛  
وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف جنيه . فظهرت ، من الخارج ومن الداخل ، فى المظهر  
الفخم الذى لا تزال تحتل لنا فيه . وكلف ( اسماعيل ) فردى ، المؤلف الموسيقى  
الاطالى ، الطائر العصيت ، بوضع رواية تناسب المكان والمقام ، للاحتفال بافتتاحها ،  
بحضور الامبراطورة أوجينى ، القادمة لرأس حفلات فتح ترمة السويس . فنظم  
فردى روايته الشهيرة المعما " بامكة " ، وقامت ملهم بوطسونى ، المغنية البديعة  
الجمال الأسمر ، بتمثيل دور الأميرة الحبشية ، فيها ، باختيار فردى نفسه . وبلغ من  
إتقانهم المظاهر التمثيلية ، أنهم أنفقوا نيفا ونعمائة وخمسين ألف فرنك ؛ منها  
١٢ ألفا للشعر الصناعى ، فقط ؛ وذلك خلاف ما أعطى لموجة آلات الطرب  
( الأركستر ) والممثلين ( الأركست ) ؛ وخلاف ما جاد به كرم ( اسماعيل ) على الأستاذ  
فردى ، وقدره ١٥٠ ألف فرنك<sup>(١)</sup> .

فكانت نتيجة ذلك جميعه ، أن الجمهور القاهرى ، وعلى رأسه الخديو وأمراء  
بيتته وأميراته ، والباشوات ، والسراة ، أصبحوا يرون لذة حضور التمثيل المعروف  
بالميلودرام — أى المقترن التشخيص فيه بالثناء — من أشهى لذات الوجود ؛ وأنهم

(١) أنظر : " باريس بالقاهرة " لكارل دى برجر ، ص ١١٨ و ١٢١

أصبحوا يستقدمون، سنويا، جوقة أوروبية، خصيصا لهذا الغرض، وينفقون عليها مبالغ طائلة، تتجاوز حد المعقول. فقد قدر بعضهم ما صرف على أفراد إحدى تلك الجوقات في شتاء سنة من السنين بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه. وليس في تقديره من مبالغة؛ فإن المثلة الواحدة، من جهة، كانت تتقاضى، أحيانا، ألفا ومائة جنيه في الشهر، خلاف الجواهر والمنايا المقامة لها.

ولا غرو: فالمستقدمون من أولئك الفنانين كانوا ملوك التمثيل والثناء في أوروبا، في تلك الأيام، وملكاتهما؛ كالتينور نودين والآسة سارولتا، اللذين فصحت الأوبرا بهما؛ وكالمسيو لاروز، والمسيو تسييه والمسيو بيجورى، والمندامات بوطسوني ومديني، ومتس قرار، وبرت جيراردين، والآسات دورتيه ولورنس وجيرار، ولا سيما مدام ماري صابص، التي كانت، علاوة على تفوقها في الفن، من أبداع النساء حسنا؛ وكالآسة روسيل الممثلة المأساتية، التي مثلت في سنة ٧٢ رواية "البند ٤٧" ورواية "الفوميناك" ورواية "أدريين ليكوفير" ورواية "لادام أو كامليه" و"السيد"؛ وكديلاتوا، الذي مثل في السنة حينها رواية "الفوبوتزم" ورواية "نوزتم" ورواية "الريفليون". ومن جهة أخرى، فإن كل جوقة كانت تستعمل عادة، على ثمانين راقصة، معظمهن، ميلانيات، من أجل نجوم المسارح.

وبلغ من تفنن مديري الكوميديا والأوبرا في إرضاء الجمهور، أنهم أخذوا يستقدمون، أيضا، نقادين فنيين، يكتبوا المقالات الانتقادية الجلييلة في التمثيل والممثلين، فيعملوا على تحسين الفن وترقية كفاءة الفنانين به.

واشتهر، من بين أولئك النقاد، المدعو فيلي، ذو الشعر الطويل المسترسل؛ لأنه كان أكفاهم، ولكن لما حمله الطمع عليه من وقاحة ممحبة، فمع أنه منع

٢٠ ألف فرنك، أجرة لسفروه، فقط، وتمحلت الأوربا مصاريف أقامته كلها، باللغة ما بلغت، فقد أبى إلا استغلال المثلثات، وحملهن على شراء سكوتيه عن مجهودين بمال يدفعنه إليه . ولما وجد منهن إضرابا ، وعدم مبالاة ، تحول إلى زمرة آلات الطرب (الكوريست) ، وأخذ يطعن عليهم طعنا مرزا . فلما كان منهم ، ذات ليلة ، إلا أنهم حاجبوه ، وقطعوا شعره المسترسل — وكان شعرا كاذبا — وقذفوه بدياض البيض وصفاره ، وقشر البرتقال ، وأهانوه اهانة لم يحسد معها بئرا من الرجل إلى بلاده<sup>(١)</sup> .

وأما مديرو المسرحين — أى الكوميديا والأوبرا — المتفتنون في سبيل إرضاء الجمهور القاهري فأولهم درانيت باشا ، المعروف باسم باولينو — وقد أطلق اسمه هذا على شارع وحي من شوارع قسم محرم بك بالاسكندرية ، وأحيائه — كان صيدليا يونانيا في خدمة الدكتور تينارد الفرنساوى . فأدناه هذا من (محمد سعيد باشا) وأدخله في خدمته . فلما لبث أن أنعم عليه بلقب بك . فقلب باولينو اسم الدكتور أستاذه ، وجعله "درانيت" وتسمى به ؛ وظل في خدمة (سعيد) حتى آخر لحظة من حياته .

يقول المسيو كارل دى برير فى كتابه "باريس فى مصر" : « ان قوة درانيت الكبرى ، بجانب ذكائه الذى لا ينكر ، هى أنه طالع المرحوم (محمد سعيد باشا) عم الخديو وسبقه ، فى احتضاره ، ولم يفارقه حتى آخر لحظة من حياته ، ولم يكن أحد ضيره يقدر على الدقومة<sup>(٢)</sup> » .

(١) أنظر : "باريس بالقاهرة" ص ١٢٢ و ١٢٣

(٢) أنظر : "باريس بالقاهرة" ص ١٢٦



فحينه (اسماعيل) مديرا لمصلحة السكة الحديدية، مكافأة له على ذلك، ولما تأسس المسرحان، عينه مديرا لهما. وقبلما كنت تراه، أو كان يقابلك، إلا باسم باشا، مهما كانت مهمتك لديه. فبات لا يستطيع أحد قراءة ما في ضميره. ويمكن، بذلك، من اقتناء ثروة طائلة.

وأخلفه على وظيفته منسه بك - وسوف يأتيك نبا حنه - وينادي به بك، وفيهما دونهما شهرة.

وَأما المراقص التي أقيمت في المسرحين، وابتج بها الجمهور، فأهمها المعروفة بأسماء المراقص "براهما" و"جزيرة الغرام" و"الجيو كوليرا" و"فليك وفلوك".

وَأما الليالي الراقصة التي أدخلت عاداتها السنوية إلى نظام الحياة القومية المصرية، فقد كان الخديو يحميها عادة في سراي عابدين، في منتصف فصل الشتاء، ويدعو إليها، علاوة على رجال معيته وكبار موظفيه، نيفا ومائة ونحسين من وجوه العاصمة وسراتها، وذوى الحبيبات من رجال الجاليات الغربية. فكنت تجد جميع طبقات الهيئة الاجتماعية المصرية الرفيعة وجميع الأمم الأوروبية ممثلة في أولئك المدعوين. وكان (اسماعيل) يستقبل وفودهم، ابتداء من الساعة التاسعة مساء، في أحد أجنحة السراي، بلطفه المعتاد، وبشاشته المألوفة، ويحادثهم فيما يهمهم، أو يتباحون إليه، حتى الساعة العاشرة. فيقيم، حينذاك، ذراعه إلى عقيلة أقدم القناصل هذا، أو أكبر المدعوين مقاما، ويسير بها وبالجم إلى قاعة فسيحة، ممتدة لسماع نوبة العزف. فهسير الأمراء، أولاده الثلاثة، وراه، وكل ذراع كل منهم سيدة، ويتبعهم الملأ، كل مع السيدة التي تسمح له المألوفات القومية باختيارها. فيحضر الجميع النوبة ساعة، ثم ينتشرون في الحجر الأخرى، زرافات زرافات، وأزواجا أزواجا،

ويقتنم الخدم فرصة خلق القاعة ، لترج معالم نوبة العزف منها ، وتحويلها الى قاعة رقص نفمة . وعند ما يفرغون من ذلك ، تصدح الموسيقى ، فيعود المدحون الى القاعة ، ويبدأ الرقص ويستمر ، حتى بعد نصف الليل ، في حضرة الخديو والموظفين الخديويين المرتدين ملابسهم الرسمية الساطعة ، والمتلاثلة صدورهم بالنياشين ، التي حلتهم بها كفافاتهم ، أو الانعامات العالية . على أن ما من أحد منهم كان يرقص ، سوى الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وخسن ، أولاد الخديو ، لأنهم كانوا ، دون غيرهم ، متعلمين ضروب الفن . وكان حسين أكثرهم غراما به ، وأكبرهم اندفاعا مع تياره ، وأقلهم تأثرا بالنصب الناجم عن المجهود المبذول فيه .

فاذا انتصفت أول ساعة بعد نصف الليل ، فتح الخديو المقصف ، فيسير اليه المدحون ، زرافات زرافات ، وياكلون أشهى الطعام ، ويشربون ألد المدام ، مريثا هنيئا ، والموسيقى تعزف حولهم ، حتى ساعات الفجر الأولى ، فينصرفون حينئذ ، مودعين من الخديو ورجاله ، بما قالوهم به من بشاشة وإكرام .

ولم يكن (اسماعيل) ، لاسيما في أيام ملكه الأخيرة ، يحب هذه الحفلات أو يميل الى إحيائها ، لمجرد لذاتها . فانه كان يعتبر أوقاته أثمن من أن يصرفها في الأخذ بأسباب تلك الملاهي . ولكنه كان يحبها عملا برأى رجل السياسة الشهير القائل : "إن البطن خير طريق الى القلب !" ورغبة منه في أن تكون تلك الليالي مواسم تستفيد رعيته منها بما تلزمه احتفالاتها من حركة في ميداني التجارة والصناعة .

وأما السباقات ، فإن الخديو كان يحبها ، في صاحمى ملكه ، على ثقة بجيئه الخاصة ، ويدعو اليها من شاء من الوجهاء والأعيان والتلاء الأجانب . فيقتنم لهم المرطبات والحلوى والفواكه المنتومة . فكانت الدعوة اليها تعبرمنة وشرقا يرضان من قدر المدعو ،

السباقات

ولذا ، فإن السراة كانوا يتسابقون اليها ، فضلا عن السوق والمائة ، للتفزع عليها من بعيد . ولما كانت المقامرة أساسها — وطبع الانسان مقاصرا — فان ازدهار الاقدام في تلك السباقات كان شديدا ، غير مألوف إلا في الاحتفالات الدينية ، بالرغم من أنها كانت تقام ، من العاصمين ، على بعد يلزم قاصدها باحتمال مشقة . فسباقات مصر كانت تحيا في العباسية ، وسباقات الاسكندرية في القبارى ، أولا ، ثم ما بين الحضرة وسيدى جابر ، حيث أقيم ، فيما بعد ، ناديا الخالى ، على الأرض التى باعها له دائرة الأمير ابراهيم باشا ، زوج الأميرة زينب هانم بنت ( اسماعيل ) العزيرة المفضلة . وكلتا الجهتين ، بالنسبة لعدم وجود خطوط ترامواى أو سكة حديدية توصلهما بالعاصمين ، كانتا قصبتين ، علاوة على كونهما رمليتين ، وأن الطريق اليهما كانت تربة عثيرة .

وكثر اقتناء السراة الخيول ، لتدريبها على الجرى ، عساها تفوز في تلك السباقات ، وبلغ من اهتمامهم بها أن على شريف باشا ، صاحب السراى الكبيرة المشهورة بشارع عبد العزيز ، المؤجرة الآن الى راحيات المحبة ، ورئيس محكمة مصر التجارية في ذلك العهد — وكان من أكبر غواة تلك الخيول — لم يكد ذات صباح يفتح جلسة محكمته إلا وأتاه سائسه ، وهمس في أذنه أن جواده الفلانى — وكان من أحسن خيوله — مريض جدًا ، يئس على . فنهض على باشا مذهورا ، وأعلن رفع الجلسة ، وترك القضاة والمتقاضين ، وذهب ليعول جواده المريض<sup>(١)</sup> !

وكانت السباقات تقام ، عادة ، كل خمسة عشر يوما ، ومعظم "الجوكو" أى راكبي الخيول ، فيها من السودانين ، وإلا فالإنجليز . وأهم سباقات عهد ( اسماعيل ) السباق

(١) أنظر : " باريس بالمقامرة " ص ٢١٩

المقام في اليوم السادس عشر من أيام الأفراح، التي أحييت مهرجاناتها أربعين يوماً، احتفالاً بزواج الأمراء محمد توفيق وحسين وحسن والأُميرة فاطمة هانم، أولاد الخديو في سنة ١٨٧٣ فان "الجوكو" فيه، كانوا مرتدين ملابس حريرية، وغاز منهم راكب جواد فخديو عينه، يقال له "قباري" وراكبو جياد نظير أفا، وعلى شرف باشا، وإسماعيل بك. وامتاز ذلك السباق عن غيره، بأن هبنا بحرت شوطاً فيه، وبأن مقصده كان من أنغر ما يقع في خلد بشر أوتراه عين؛ وأن المدعويين إليه كادوا ينطون بملحهم وعينهم صحراء الباسية على اتساعها.

تقدم حلوان

وأما حلوان، فان الخديو— بعد ما ظهرت منرايا مياها المعدنية الكبيرة، ومنافعها للمستحسين بها— وطن نفسه على جعلها "إكس لي بن" نصرية شتائية، يؤتمها رمايه والماسحون (التوريست) للاستفادة منها. فما قى يشجع على إقامة المباني والفنادق فيها، بهمة لا تعرف الملل؛ ويقدم، هو نفسه، المثل الصالح في ذلك، بإنشاء قصر نفخ في تلك الضاحية الماسحية، للأميرة والدته سنة ١٨٧٧ إلى أن تم له مرغوبه؛ وبرزت حلوان في حلة من التزيين حملت الكثيرين من السراة على اتخاذها مقراً لهم، وكثيرين من الغربيين على قصدها، في فصل الشتاء، لتضيئته فيها. وبلغ من إعجاب الناس بهوائها ومياها أن المسيو بلان (Blanc) صاحب كازينو منق كارلو، الشهير بامارة مونكو، وكازينو همبرج بألمانيا، عرض على الخديو مبلغاً جسيماً من المال ليصرح له بفتح كازينو فيها للقاهرة، على شاكلة ذينك الكازينين؛ فاعتبر (إسماعيل) ملياً، حواقب إقامة مثل ذلك المحل؛ ونظر إلى المستقبل نظرة من يستطلع أسرارهِ. فرأى أموال أسرته ورعاياه تذهب إلى غمرات ذلك المكان؛ فتنباع منه ماسآت تلبس العاملات لباس السواد والحديد؛ وفرض. ورفض

كذلك، للأسباب حينها، مبلغاً أكبر، عرضه عليه الرجل ذاته، ليصرح له بفتح كرسال للقاهرة في القاهرة.

فلو كان (اسماعيل) الأمير المتعطل الى المال، الذي يصفه أعداؤه، الراغب في الحصول على القود من أى باب ولو ضاراً برطايه، لما أحجم عن قبول المبغين الكيبريين اللذين عرضا عليه، ولبرز نفسه بحجة رغبته في صرفهما فيما يعود على مصر بالخير، سابقا في تبرره بهذه الوسيلة، المستر سسل رودز المشهور، الذي يروى عنه أن الظروف جمعت، يوماً، في حفلة مع الكولونيل جوردن، عقب عودة هذا الرجل البوريتاني المذهب من الصين، حيث كان قد أخذ ثروة التايبنج. قصص جوردن على الحاضرين كيف أن امبراطور الصين، لكي يكافئه على خدماته العديدة الجليلة، لاسيما في إنحاده نيران تلك الثورة الهائلة، التي كادت تذهب بعرشه، أخذه الى حجرة ملأى ذهباً، وقال له: «خذ كل ما فيها. فانه مكافأتى لك على ما فعلت!» فرفض جوردن قائلاً: «إني لم أعمل إلا الواجب على. ولست أستحق على أدائى واجبي مكافأة ما!» فظهر سسل رودز تأففاً من ذلك، واستنكاراً له. فالتفت جوردن اليه وسأله: «ترى، لو كنت مكافى، أكنت تقبل؟» فأجاب سسل رودز: «بلا شك! وكنت استخدمت ذلك الذهب في اكتساب امبراطورية جديدة لبريطانيا العظمى!».

على أن أكبر تعديل اجتماعى أدخله (اسماعيل) على حياة أمته المصرية القومية، وأكبر هزّة، بالتالى، هزّ بها حقيقتها، في صميمها، إنما هو عمله على إبطال النخاسة والرق وتحرير العبيد.<sup>(١)</sup>

إبطال النخاسة  
والرق

(١) أهم مصادر كلامنا عن الرق وإنهاء النخاسة، فيما يخص مصر، بالتاريخ المصرى في عهد اسماعيل، من: «مصر كما هي» لمالك كون، و«مصر» لمالوف، و«اسماعيلية» لسيد صهيونيل بيكر، و«مصر ومحمد على» لمادن.

الرق في الاسلام

فان الرق ما قى رقيق الحروب الاسلامية ، حيثما دارت رحاها ، وأليف الحياة العائلية الاسلامية ، حيثما قامت معالمها . لا لأنه أصل من أصول الدين والحشمة الاسلامية ، كما كان يعتقد الأوروبيون ، ولكن لأنه ، من الوجهة الحربية ، موروث من القرون التي سبقت الاسلام ، وقد عمل الاسلام على نحو هذا الإرث من نفوس المسلمين فأوصى النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا بالرقيق خيرا وحض على عتق من وقع في الرق ووعد بالثواب الجزيل من الله تعالى على هذا العتق حتى أصبح من قواعد الاسلام تشوف الشارع للحرية الشخصية . ولكن المسلمين بعد القرون الأولى انغمسوا في أسباب الترف ، وانغمسوا في تيار اللذات ، فأدى ذلك بهم الى الخمول والكسل اللذين أصبحا ، فيما بعد ، من أكبر أسباب المحطاطا في مضمار الحياة العملية ، وصدم أخذنا بما قيل لنا من أن "نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا" ، وأدى بنا من جهة أخرى ، الى حمل قول الكاتب العزيز (وما ملكت أيمانكم) على إباحة استرقاق المرأة المسلمة من طريق البيع والشراء .

فأقبل فقراء المسلمين ، لا سيما في الكرج والقوقاز ، يبيعون أولادهم ، باختيارهم ، وهم يرمون بذلك الى التخلص من عبء تهويم أود معاشهم ، من جهة ، وإلى التطويج بهم في بحر الحداث ، من جهة أخرى ، حتى أن تذهب أواجه بهم الى شواطئ السعادة والعز . فان كانوا إناثا ، ربما تزوجن من بيك أو باشا أو وال أو من السلطان ، وان كانوا ذكورا ، ربما تزوجوا الى أهل المراتب ، فأصبحوا أمراء جيوش ، يحافظ باشا صارى سكر آخر جيش عثمانى قاتل (ابراهيم) الهام ، أو رؤساء دولة ، تكسرو باشا كبير وزراء السلطان عبد الحميد ، وألد أعداء (محمد علي) العظيم .

وأقبل أغنياء المسلمين يفتنون أولئك الفتيان والفتيات ، ويختصمون بالفتيات لقضاء لذائهم وأوطارهم ، وهم لا يستقدون أنهم ، بذلك ، يرتكبون إثماً ، أو يأتون نكراً ، جهلاً منهم بأصول دينهم . فاضطربهم اكتارهم من ابتياع الجوارى واقتنائهم لمن في بيوتهم الى الاستمرار على اقتناء الخصبان لحواستهن ، وإلى الاكثار من شراء الإماماء السود لخدمتهن .

ولكن إغلاق باب الحروب أدى الى تمدد الحصول على الطليين . ففشأت من تشوه النخاسة ذلك النخاسة وترعرعت ، وفشت فشوا عظيماً ! والنخاسة هي صبيد السود ، صبيداً ، وتقييدهم بالحديد ، وسوقهم الى أسواق بيع الرقيق ، كالأنعام ، حتى لقد يموت كثيرون منهم في الطريق !

ولم يكن العالم المسيحي الغربي أقل تمسكاً بمبدأ الاسترقاق من العالم الاسلامي في الزمان المتأخر ولكن لنواحي غير دواعيه . فالمسلمون كانوا يقتنون من الرق ، على العموم ، التسرى والترفي ، وأما العالم المسيحي فكان يتنى منه الاستغلال والنفع . فكانت نتيجة اختلاف الفرض بينهما أن العالم الاسلامي ، على العموم ، كان يتنى بالرقيق احتناء المرء بوسائل لذاته ، ومعاملته معاملة المصروف في مآلاته ، بل كثيراً ما يزوج الأرقاء من بناته والرقيقات من أولاده . ولو أن هناك استثناءات نادرة قد تؤخذ حجة على خلاف ذلك : كالقادم أحمد الجزائر باشا ، وإلى عكا ، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، مثلاً ، على قطع أنوف جواريه ، وآذانهن ، ونهودهن ، وألستنهن على سبيل التسلية والتفكهة ؛ وإقدام (ابراهيم) الهام نفسه ، في ساعة غضب شديد ، على قتل مملوكه المفضل عثمان ، لنعابه الى الحمام بدمشق بدون إذن منه ، وأمره بنفسه ، بحيث تظهر قدماه خارج الأرض فتأذي الكلاب

وتنهنش جثته<sup>(١)</sup>، أو إقدامه يوما، شرب فيه أحد أولاده، وهو طفل، لبناء، فاصتراه ألم، فاضطربت والدته واتهمت أربعا من جواريا بأنهن سممنه، على إصدار أمره بالقائنه حالا في النيل، قبل التثبت من صحة التهمة — وقد كانت كاذبة<sup>(٢)</sup>، أو كإقدام (عباس) على الأمر بخياطة شفتي جارية من جوارى قصره صادفها تدخن في إحدى طرقاته — وكان التدخين محظورا على أمثالها وغير مسموح به في القصور إلا لرباتها، أزواج أربابها الشرقيات .

على أن هذه، كما قلنا، كانت استثناءات نادرة . ولذا فإن الرقيق في الاسلام لم يكن يشعر بأنه تمس، أو ممتن ومقرب . بل كان يفخر بانقسامه الى مواليه، ولا يبنى عن الحال التي هو فيها حوجا .

وأما العالم المسيحي الغربي، فكان يعامل الرقيق، على العموم، معاملة غلظة وقسوة؛ فيتعبه ويشقيه على نمية العائلة التي كان ينتظر أن تعود عليه من زيادة أتعابه وإشقاته . وكان الرقيق فيه يشعر، شعورا لا مزيد عليه، بذله وحقارته وبؤسه، ويرضب، من صميم فؤاده، في أن يتخلص، ولو بالموت، من المصيبة التي هو فيها . اقرأ كتاب "خص العم لم" الشهير لمؤلفته الست هنرييت بيتشستو .

الرق في البلاد  
المسيحية غير  
في الاسلام

فأدى ذلك الى نشوء حركة في العواطف والأفكار، أخذت تعمل عملا حثيثا على إبطال الرق، واجتثاث جنوده .

نشوء الحركة  
في إبطال الرق

تلك الحركة بدت، على الأخص، في إنجلترا، في أواخر القرن الثامن عشر، بهمة نفر من رجال الفضل، أشهرهم جرانفل شرب، الذي ماقي، مئة نصف قون برسته،

(١) "مصر" لمسيل : أظفر في الكتاب الجزء المنون "مصر الحديثة" ص ٤٠

(٢) أظفر : الكتاب ص ٤٠



يمجاهد في سبيل إبطال الرق؛ وبمساعي الرجال الانجلييين المعروفين باسم "الكويكرز" (الراجفون) الذين قدموا الى البرلمان البريطاني طلبا بإبطاله .

ثم أقبل كلاركش ينشر مؤلفاته ، ويبدل همته للفرض عينه ؛ وانضم اليه ويلبرفوس بعد ذلك بقليل ، ولا مقصد له من الحياة سوى حمل البرلمان على إصدار قانون يطل الرق والاسترقاق . بفاهنا مما ، جهادا طويلا ، أقامهما في مصاف أكبر المحسنين الى الانسانية قاطبة .

فتأسست في يونيه سنة ١٧٨٧ لجنة مؤلفة من اثني عشر عضوا ، معظمهم من "الكويكرز" لإبطال الاتجار بالرقيق . ولكنها صادفت مقاومة عنيفة من أجل رجال العصر ، وعداء شديدا . فلم تبال ، وقفت على لسان ويلبرفوس طلبا الى البرلمان في سنة ١٧٨٨ ؛ وما زالت تنشر مجهوداتها ، ويبدل ويلبرفوس أمواله وجهوده ، حتى فاز بمرامه ؛ واستصدر من البرلمان الانجليزي في سنة ١٨٠٨ قانونا بإبطال الاتجار بالرقيق .

فالتدت الحكومة الفرنسية بالبرلمان البريطاني ، وأصدرت في سنة ١٨١٥ أمرا قضى بما قضى به ذلك القانون . على أنه كان قد سبق للجمعية الدستورية الفرنسية أن اعترفت بقرارها الصادر في ١٥ مايو سنة ١٧٩١ بمساواة عموم البشر في الحقوق الشخصية ، والمدنية ، والاجتماعية ، بضرب المصنع عن جنسهم ، وملتهم ، ولونهم .

وسار مؤتمر فيينا في سنة ١٨١٥ في الطريق ذاتها . فنع هو أيضا الاتجار بالرق .

على أن الاسترقاق لم يزل، مع ذلك، جاريا : لأن مبدأ الرق نفسه لم يحظر وإن حظر الاتجار بالرق، ونقضت كل النخاسة قرارات مؤتمرى إكس لاشايل سنة ١٨١٨ وڤيرونأ سنة ١٨٢٢ الدوليين .

تأسست فى سنة ١٨٢٣ جمعية تحت رياسة كلاركش، وويلبرفوس، وبكستن، فى انجلترا، غرضها العمل على تخفيف ويلات الأرقاء، وإبطال الرق تدريجيا فى الممتلكات الانجليزية . ولكن الكويكة اليصابات جريك أذاعت نشرة عنوانها : "وجوب إبطال الرق حالا، لا بالتدريج" حملت بها تلك الجمعية على التخل عن مبدأ الإبطال التدريجى، والانضمام اليها فى المطالبة بالإبطال السريع . وكانت الأفكار والقلوب قد تلبثت الى خطورة المسألة، ومقرتها من الرق البشرى الحقيقى . فوجدت الحركة، التى قامت بها تلك الجمعية، أرضا صالحة، نمت فيها بذور تمايلها بسرعة عجيبة، وهب رأى العام كله يؤيدها ويعضدها .

فأصدر البرلمان البريطانى قانونا فى آخر سنة ١٨٣٢ حدد بمقتضاه يوم أول أغسطس سنة ١٨٣٤ لتحرير عموم الأرقاء فى دائرة الممتلكات البريطانية؛ وخصص مبلغ عشرين مليوناً من الجنيهات لدفع تعويضات منه الى موالى الأرقاء المحررين . فما أنى عام ١٨٤١ إلا وكانت بريطانيا العظمى قد حررت نيفا واثني عشر مليون رقيق فى أملاكها الهندية الشرقية وحدها .

تحرير الأرقاء  
فى عموم الممتلكات  
البريطانية

فلم تشأ الدول الأوروبية أن تتأخر عنها فى ذلك المضمار الشريف . فأبطلت حكومة السويد الرق فى سنة ١٨٤٦ وسنة ١٨٤٧؛ وأبطلته حكومتا فرنسا والدانمرك فى سنة ١٨٤٨؛ وحكومة هولندا فى سنة ١٨٦٢ بدون تعويض لموالى الأرقاء؛

اتحاد الدول  
الغربية ببريطانيا  
العظمى

وأبطلته باقي الدول ، بالتسريح ، حتى اسبانيا نفسها ، ومع أن الولايات المتحدة الأميركية قوت لإبطال النخاسة منذ سنة ١٨٠٨ وأصدرت قانونا في سنة ١٨٢٠ اعتبرتها ، بموجبه ، ضريا من ضروب القرصنة ، فان مبدأ الرق لم يبطل فيها ، تماما ، والعمل به لم ينقطع كلية ، إلا بعد أن قامت الحرب الأهلية طيه بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، وفازت الأولى — وكانت ضد مبدأ الرق — على الثانية المتحيزة له ، فاجبرتها على الرضوخ لإرادتها .

تمحّل الجهود  
لإبطال الرق  
في العالم الاسلامي

ولما لم يعد يبقى من رق في العالم إلا في البلاد الاسلامية ، للأسباب التي سبق لنا ذكرها ، تمحّلت مجهودات مبطلية والمطالبيين بإبطله ، الى تلك البلاد ، وكان قد غاب عن أنظارهم أن الرق في الاسلام غيره في النصرانية ، وأن بسكال كان قد قال ، منذ نيف ومائتي سنة : « ما هو صواب في هذه الجهة من جبال الپيرنيات قد يكون ظلما في الجهة الأخرى منها ! » .

فشرعوا يؤلفون الجمعيات لإبطال الرق في الدول الاسلامية ، ويتدبّون الوفود لمقابلة عواهلها ، ومفاتحتهم في هذا الشأن ، ويحضون دولهم على التداخل في الأمر ، ووضع حدّ « لذلك المار الانساني الذي لا يطلق » .

فحملت الحكومة الانجليزية السلطان عبد المجيد ، بما كان لها عليه من أياذ ، بسبب تداخلها بينه وبين تابعه (محمد علي) ، وإذلالها هنا بين يديه ، على وضع قبرة في فرمان الذي أصدره اليه في سنة ١٨٤١ مؤداه : « أن أبطل صيد السود . فإنه عمل لا يتفق مع مبادئ العدالة والانسانية ! » .

على أن لا انجتمرا ولا عبد المجيد كانا يقصدان ، من مثل هذا القول ، حض (محمد علي) على إبطال النخاسة . أما انجتمرا ، فانها ، من جهة ، كانت تجهل فظاعة

النفاسة في السودان — لأن تلك القطائع لم تعرف في أوروبا إلا بعد رحلات ليفنجستون ، وبيكر ، وستافلي ، ونشر هؤلاء الرحالين الأفاضل البيانات التفصيلية عنها — ولأنها ، من جهة أخرى ، كانت تستمر بأنه لا يحسن أن يناط بابطال النفاسة أمير مسلم ، بينما أن معظم الدول الأوروبية والأميركية المسيحية لا تزال مجيزة لها . وأما عبد الحميد ، فلا أنه كان يعلم أن إبطال صيد السود يقضى ، حتماً ، بإبطال الخصيان ، ولم يكن في وسعه الاستغناء عنهم .

فخاية ما فهمه ( محمد علي ) من الفقرة التي زيدت في فرمان سنة ١٨٤١ هو أن إنجلترا والسلطان يرضيان منه حودا الى صيد السود لتجنيدهم على غير علم منهما ، في جوف البلاد ، وأنهما يباين عليه ذلك . ولا يبعد أن فهمه كان في محله . غير أنه كان قد صمم تصميا باقا على عدم إعادة الكرة على الدولة العثمانية ، وكان قد اختبر ، من جهة أخرى ، قلة صلاحية السود للجندية في غير السودان ، فلم يكن يهمه البتة ، قنص السود ، لا اتخاذ جيش منهم ؛ ولا همه ، يوما في حياته ، اقتناصهم لاسترقاقهم ، واتخاذ خصيان منهم . بل كان يهمه ، بالعكس ، عمار السودان وتقدمه ، كما دل سفره اليه في سنة ١٨٣٩ ، وزيارته لأبعد أصقاعه ، حتى الفازوغل ، بالرغم من أن سنة كانت فوق السبعين ؛ وإقامته محطات عسكرية على ضفتي النيل ؛ وإنشاءه مدينة الخرطوم عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ؛ وإعلانه حرية الملاحة على النيل الأبيض ؛ وإبطال تجارة الرقيق ؛ وكما دل ، أيضا ، تشجيعه رجال العلم كسبيك ، وجرانت ، وبتروني ، وغيرهم ، على جوب البلاد واستكشاف أمرارها . ولكن رجال الحكومة المصرية وموظفيها ، في أيامه ، وأيام خلفائه الثلاثة الأول ، بل في أيام ( اسماعيل ) ناتها كانوا يدبرون الغزوات في أعلى النوبة والسودان ،

ويشنون الغارات على قبائل السود ، فيصطادون منها ما يمكنهم صيده ، ويدعونه في أسواق الرقيق بالخرطوم والقاهرة وغيرهما ، فيصبيون ، من وراءه ، أرباحا طائلة .

هذا ذلك (بسميد باشا) الى السفر بنفسه الى السودان في نوفمبر سنة ١٨٥٧ بصحبة جيش عدده خمسة آلاف رجل ، تخلى عن معظمه حالما جاوز الحدود المصرية ، ولم يصطحب منه ، الى بربر ، سوى خمسمائة فارس — مقابل في بربر وجهاء البلاد ، وأظهر لهم نيته في تحسين أحوال السودان وتشجيع وسائل العمران فيه ، وأعلن رغبته في إبطال تجارة الرقيق . ثم قام الى الخرطوم ، فبلغها في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٨ ؛ وبعد أن أوكد أن يعزم على التخلي عن السودان برمتيه ، ليأسه من إصلاحه ، قبل رجاء من رجاء في تغيير عزمه هذا ، من الوجهاء ، وأمر بإجراء عدة تعديلات إدارية ، بجعل كل مديرية مستقلة عن الأخرى ، لا ترجع في أحكامها إلا الى مصر ، وعتة إصلاحات ، كتنظيم البريد بين الخرطوم ومصر على المعجن بطريق كرومكو ، وكتخفيض الضرائب على الأتبان والسواق ، ومنع الجند من جمعها ، وإتاحة ذلك بمشايخ البلاد على أن لا يجمعوها إلا بعد الحصاد ، وكترتيب عقد ناد من الأعيان في الخرطوم ، كل سنة ، للنظر في راحة البلاد ، وإنشاء محطة عسكرية على نهر سوبت لمراقبة تجار الرقيق ، وقطع دابر النحاسين . ولما عاد الى مصر ، فكر في إنشاء سكة حديدية تجمع بين القطرين ، وتسهل مراقبة سير الأحكام واعتدالها ، مهما بدت الشقة ، بين الولايات ولكنه لم يتمكن من إبراز فكره هذا الى حيز الوجود ، كما أن إعلانه بإبطال الرقيق لم يجد نفعا ولا أفادت المحطة العسكرية

على نهر السويت شيئا، لأن البلاد لم تكن ناضجة لإبطاله، ولا راضية به؛ ولأن الحياة الاجتماعية لم تكن تستغنى عنه<sup>(١)</sup>.

فعاد المطالبون بإبطاله من الغربيين إلى النفخ في أبواقهم، وهم لا يدرون من الملوم في إيقاظه.

فلما آل العرش إلى (إسماعيل)، وصمم هذا العاهل، كما قلنا، على إدخال بلاده، بصراحة، في مضمار المدنية الغربية، وطن نفسه على إبطال الرقيق، وتوطينه إياها على إلغاء العونة والسخرة كقول فون ستيفان في كتابه "داس هونجى إجيتن ص ١٥٣". وكانت النخاسة، إذ ذاك، في أشدها، بالرغم من مقاومة (محمد علي) و(سعيد) لها، وبالرغم من عمل الحكومة المصرية على تقليل توريد الأرقاء، نيلا، وإبطالها أسواق الرقيق الرسمية بمصر والاسكندرية وطنطا وغيرها من البلاد!

"فالبعارة" في جهات النيل الأبيض، و"النهضة" في جبال النوبة وجبال فازوغل، وفي جهات كردوفان الجنوبية، كانوا لا يفتأون حاكفين على صيد السود بقوة السلاح، كأنهم وحوش برية؛ وسبيهم والسير بهم إلى أسواق الرقيق في الأبيض وفاشوده، والقلابات، حيث كان الجلابون يشترونهم منهم؛ وبعد أن يبيعوا أقلهم قيمة في أسواق الخرطوم، والمسامية، وود مدني، وستار، والقضارف، وكسلا، وبربر، وشندي، يتولون بأقوامهم وأجلهم إلى مصر، إما عن طريق النيل، في مراكب يرفعون عليها رايات دول غربية، ليحتموا بها؛ وإما عن طريق الصحراء، إلى أسبوط، حيث كان يوجد معمل النصى، يديره قسوس من الأقباط

(١) أنظر: مريشو "مصر المعاصرة" في الكلام عن السودان، وإدوين ليون "مصر المتجددة"

حازوا، في أنهم من أمهر الناس في إجراء ذلك العمل النظيف، شهرة شائعة؛ ويسلون منها سرا إلى مصر والاسكندرية، وأهم بتادر القطر، ويعرضون بضائعهم البشرية على الراغبين فيها، إما باطلاع رجال الحكومة، ومواقفتهم الصامتة؛ وإما خفية وخلسة بمساعدة شركاء لهم معلومين.

وكان ثمن الولد الأسود أو البنت للسوداء التي من عمره، ما بين عشرة جنينيات، واثني عشر جنينياً، وثمان الصبي الحبشي، ما بين ٢٠ و ٣٠ إلى ٩٠ جنينياً ومائة جنينياً؛ وثمان البنت الحبشية التي منها ما بين الثانية عشرة والسابعة أو الثامنة عشرة، من ٧٠ جنينياً إلى ١٠٠ جنينياً؛ وكان ثمن الرقيقات التي سبق استخدامهن أرخص من غيرهن، إلا إذا كنّ من صاحبات الحرف، كأن تكن طاهيات أو ماشا كل ذلك. فانهنّ، في مثل هذه الحال، كنّ يبعن بثن أعلى. وأما الخصيان، فكانوا أعلى ثمناً من الجميع، لتدريتهم. والسبب في تدريتهم قلة نجاح عملية الخصى، وموت تسعين في المائة من الذين كانت تعمل لهم.

وكان يوافي جلابو الرقيق الأبيض جلابو الرقيق الأسود إلى تلك الأسواق. والفرق بين الرقيقين جسم جلدًا: لأن الرقيق الأبيض كان اختياريًا؛ وأما الأسود، فكان مجلوباً قسراً. وكان ثمن الجارية البيضاء يختلف بين ٢٠٠ جنينياً وخمسمائة، ويطراوح، أحياناً، تبعاً لجمال الجارية الميعة، ما بين ٨٠٠ جنينياً وألف جنينياً.

وكان الراغبون في الشراء كثيرين، إما لسد فراغ أحدهم الموت في هذه الأرقاء الموجودين في بيوتهم — والموت كان كثير الزيادة للأرقاء، وأغلب ما كانت أعمار هؤلاء البؤساء قصيرة! — وإما للعلالة في مظاهر الأبهة والترف. فقد كانت توجد بيوت غاصة بالملكات من الجوارى، ولا يعرف أربابها منهنّ إلا القليلات. فيقبلون،

أفرادا أفرادا ، على محلات الجلادين ، ويشترى ما يطيب لهم من الرقيق المعروض ، وهم أبعد من أن يفتكروا ، حتى ولا في المنام ، بالفظائع والآثام والجرائم التي ارتكبت في سبيل تموين بيوتهم ، وسد حاجة معيشتهم القومية ؛ أبعد من أن يفتكروا بأن النخاسة كانت تنتزع ، سنويا ، أكثر من خمسين ألف أسود من حقولهم وريابهم ومراعيهم ، فلا يبقى منهم ، حيا ، كل سنة ، بعد المشقات التي يقاسونها ، سوى عشرة في المائة ؛ وأن النخاسين كانوا ، حتى بعد وصول الرقيق الى مصر ، يحتفرون حياة أولئك البؤساء الى درجة أن اثنين منهم تخاصما ، مرة ، على ملكية بنت سوداء ، فطعنوا أحدهما بخنجر ، لكيلا يأخذها خصمه .

هكذا تشتري موسرات الغرب ، وعقائل كبار سرائه وذواته الدتلات والتطريزات والأشغال اليدوية اللسائية الأخرى بمن صغرا أو عظم ، وهن لا يفكرن ، لحظة ، بأن أيدي فتيات بأسات ربما أمضين غالب أيامهن بدون عشاء ، هي التي اشتغلت ، في سهرات الليالي الشتائية الطويلة ، وعلى نور الزيت الضئيل ، تلك الحاجيات التي يتطلبها الطرف ، وتوجبها الكياسة .

وكان الجلادون يحاشون بيع رقيق الى أوروبيين ؛ ولا يقدمون على ذلك ، إلا بحيلة كبرى ؛ علمهم بأن معظم الفرنج ميالون الى إظهار تقمثم على تجارتهم البشرية ، أو التظاهر بها ، رغبة منهم في وقفهم موقف المرء ذى الشعور الرقيق والإحساس الشفيق !

فما مضت على تبوء ( اسماعيل ) عرش أبيه وجده بضعة أشهر إلا وأصدر أوامره المشددة الى موسى حمدى باشا ، المعين من قبله - كما حاما على السودان ، تتعقب تمار الرقيق وقطع دابرهم . فالتى موسى باشا في تلك السنة حينها سنة ١٨٦٣ القبض

الضام اسماعيل الى  
الحركة التحريرية



على سبعين مربجا مشحونة بالأرقاء بين كاك وفاشودة، وأتى بالمسيبين الى الخرطوم . ثم أحضر ملك « الشك » من فاشودة ؛ فسلمه الرقيق الذي أخذ من بلاده ، ورجعه بالهدايا اليها . ووزع الباقي على التجار والموظفين لتزيينهم . وأما النحاسون ، فإنه زجهم في السجن ، ولم يخرجهم منه حتى تمهدوا بدم العودة الى مثل تلك التجارة — وعود عرقوبية باطلة !

على أن (اسماعيل) كان يعلم علم اليقين بأن إبطال النخاسة يستدعي ، أولا ، إبطال الرق بصفته حالة اجتماعية ، لأنه علما . ولكن أتى يتأتى إبطاله ، وتقاليده شعبه ، ومصالح جانب عظيم من رعاياه واقفة بجانبه ، للدفاع عنه ؟

ولكن عزيمته لم تكن لتثنى أمام عقبات ، مهما كان نوعها ، ومهما كانت جسامتها ؛ وما لم يكن يستطيع مصادمته ، جبهة لجبهة ، كان يصادمه جنبا لجنب . فسلح ، إذا ، بالمبدأ الديني القاضى بمواز تحرير كل عبد يسمى مولا معاملته ؛ وأصدر حالا بعد ارتقائه العرش أمرا بتحرير كل عبد أو أمة يثبت على سيدهما أنه أساء معاملتهما<sup>(١)</sup> .

فشعر العالم المصرى بأنه هوجم في عقداؤه ؛ وأحس بستان الرخ الموجه اليه ، يس صميمه . فهب لدفع المعجمة والاعتصام منها ، وراء حصن مبدأ ديني آخر ، وهو المبيع للسيد أن يعاقب عبده أو أمته ، المرتكبين سرقة . وشرع كل سيد يدفع تهمة الإساءة الى عبده ، المرتكن عليها لتجوز عققه من رقبته ، بتهمة سرقة يرمى عبده بها .

وبما أن شعور القضاة ، قاطبة ، كان في جانب السادة ، فما من عبد نجح مطلقا في إثبات دعواه ولا نجح أحد في تحرير عبده أراد تحريره بهذه الوسيلة ؛ وكاد الأمر

(١) انظر : ملك كون « مصر كامي » ص ٣٢١

الذى أصدره (إسماعيل) يؤول الى مجرد البقاء جبرا على ورق، لصحزب المطلوب منهم تنفيذ على صدم تنفيذه .

فعلل (إسماعيل) وجهة هجمته، وحول السلطة في الحكم في دعاوى الأرقاء الطالبين التحرير من القضاة الشرعيين الى قناصل الدول الأجنبية . وأمر الهيئات الأهلية الحاكمة بإصدار العتق وقيده ؛ كلما طالبهم قنصل بذلك<sup>(١)</sup> .

فكان كأنه تجنب "شلا" للارتطام "بكاردي"<sup>(٢)</sup> أو، كما يقول المثل العربى ، "كالمستجير من الرمضاء بالنار" فان القناصل لى يرضوا رأى الأوروبي المطالب بإلغاء الرق وإبطال الاتجار به ، أخذوا يحكون بتحرير كل مشتك ، بدون تحقيق شكواه، والتثبت من صحتها . وبلغ من المتولى أعمال القنصلية البريطانية بالمنصورة سنة ١٨٧٣ - ولم يكن، حتى، نائب قنصل ! - أنه فى ظرف شهر واحد حمد نيفا و ١٧٠٠ رقيق . ولولا أن خجة أبواب العائلات ارتفعت حتى تناولت حنان السماء، فأوجبت تداخل قوى الشأن، لحذر ذلك المحترم كل أرقاء المديرية .

فضرب (إسماعيل) أنماسا فى أسداس، لما رأى رغبته يماكس تحقيقها خصوصها وأصدقائها ؛ واضطر الى تعريض عموم أصحاب الأرقاء الذين حرهم ذلك المتولى بدون حق ؛ كما أنه اضطر الى تضيق سلطة القناصل وإشراك الهيئات المحلية الحاكمة معهم فى تحقيق الشكاوى التى يقدّمها الأرقاء ضد مواليم .

ولشعوره باضطراب رأى العام حوله ، بحق ، بسبب التعطّل الذى حصل من العنصر الأجنبى، كاف نو بار باشا، وزير خارجيته ، فكتب الى قنصل إنجلترا

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ٣٢١

(٢) هما : سمران حاتون فى برغاز سينا يقابل أحدهما الآخر ويمتلكهما الملاحه .

العام كتاباً أذيع للأش، أوقفه فيه على حقيقة نيات الخديو، وذكره بأن الدول الأجنبية لا سيما إنجلترا، لما حررت الأرقاء عوضت أصحابهم، وأن الخديو، بصفتة أميراً مسلماً، لم يمكنه، فيما أصدر من أوامر متعلقة بقرير الأرقاء، أن ينسى أن واجب عرشه يقضى عليه بحماية ما يقوه الدين، وتوجب العادات والتقاليد القومية احترامه. ولذلك اقتضت إرادته أن يحظر المساءة معاملتهم من الأرقاء لا كل من طلب العتق منهم<sup>(١)</sup> .

والذى زاد في امتناض (اسماعيل) في هذا الشأن، هو أن الغربيين أنفسهم الذين كانت بلادهم وحضارتها تطلبه بلحاح بالعمل على إبطال النخاسة والرق في بلاده، كانوا أكبر عقبة تصادفها مساعيهم المبذولة في السبيل الموصل الى ذلك بما كانت امتيازاتهم تضمن لهم من سلامة في متاجرهم غير الجائرة، وتحميهم من عقاب في إقدامهم على مخالفة أوامره. وقد أظهر امتناضه هذا بقوة لهجة يسجب بها، فيما أجاب به، بلندن، رجال وفد الجمعيات الانجليزية والفرنساوية لمقاومة النخاسة والرق، الذين اغتنموا فرصة وجوده في تلك العاصمة في سنة ١٨٦٧، وطلبوا مقابلته ليرفعوا اليه رغبة تلك الجمعيات في أن يحقق خديو مصر أمنية الحضارة الغربية، وأمل الانسانية الراقية فيه.

فانه أذن لنوبار باشا بادخالهم عليه، والقيام بأمر الترجمة بينه وبينهم، عملاً بمقتضيات الرسميات، ولو أن (اسماعيل) كان يتكلم الفرنسية كأحسن متكلم بها فيهم. فقابلهم بلطفه المهود الخلاب، الذى كان يسحر به كل من يحادثه، فيميل بمواظفه اليه كيفما شاء. وقال لهم بالتركية، فترجم نوبار كلامه بالفرنساوية :

(١) أنظر : ماك تون "مصر كاهي" ص ٣٢٢

«إنه ملشرح تام الانسراح لمقابلة حضرات أعضاء الوفد، بصفتهم توابا عن الجمعيات الانسانية الموقرة العاملة على إبطال النخاسة والرق، لأنه، هو نفسه، يرغب جدًا في إبطالها، واتخذ أقوى الوسائل لذلك. ولكنه يرى بالأسف، أنه اذا كان في وسعه أن يرغم شعبه على الامتنال لأوامره بالرغم مما في الامتنال لها في موضوع الاقلاخ عن النخاسة والرق، من مضاضة على قوسهم وإضرار بمصالحهم، ومخالفة لتعاليدهم، فانه لا يستطيع عملا مطلقا ضد الأوروبيين أنفسهم، المقيمين في بلاده، والذين هم أكبر المجرمين. فانهم يجبرون بالعاج وريش النعام والصمغ، اسما وحجة، ولكنهم في الحقيقة إنما يجبرون بالرق في مراكزهم النازلة في النيل. فلو أن تلك المراكب لا راية لها، أو كانت الراية المصرية هي الخافقة عليها، لأمكن تفتيشها: فاذا وجد فيها رقيق صودرت وضبطت، فأحق الأرقاء وعوقب المجرمون، كما وقع في بحر الستة الأشهر الأخيرة من السنة الماضية. فان كومنندان وأميرالا مصريين ربما بالرصاص، لإقدامها على مخالفة أوامره، ومساعدة النخاسة وتهريب الرقيق. ولكن المراكب الآتية برقيق ترفع، عادة، راية إحدى الدول الغريبة، لكون أصحابها أوروبيين. فاذا تعرض لها رجال حكومته ونشأ بينهم وبين أصحابها جدال بخصوص المشعون والجمولة البشريين، فالحواب المفعم هو أن الرجال نوتية والنساء أزواجهم أو سراريهم، والصغار أولادهم. فتفل، بذلك، أيدي السلطة المصرية. ألا فليعلموا أن للنفوذ الأوروبي، في مدة السنين الثلاثين الأخيرة، قد غير مصر تغييرا كليًا. فلو كانت الحكومة المصرية حرة في معاملة النخاسين الأوروبيين معاملتها للنخاسين الخاضعين لسلطانها، لبطلت النخاسة، وبطل بالثلى الرق بعد مدة يسيرة. ولكن حكومته غير حرة في ذلك. والواجب يقضى أن تمنحه الدول الأوروبية السلطة

الكافية لاستعمال حق التفتيش في المراكب التي تخفق عليها راية خيرية . أما إبطال الرق ، فمسألة أخرى . فالرق موجود في القطر منذ نيف و ١٢٨٣ سنة ، ويكاد يكون ممزوجا بدينه . ولا شك في أنه نظام فظيع ، ويود ، هو ، إبطاله : لأن المدنية والرق بمصريين مستحيان ذلك . ولكنه لا يتيسر عمل هذا في يوم واحد . على أنه لو بطلت النخاسة ، بطل الرق في ظرف ١٥ أو ٢٠ سنة على الأكثر ، أو لما بقي إلا أثر قليل منه . فراه ، والحالة هذه ، مخالف لرأي حضرات زائريه . لأنه يعتقد أن النخاسة أس الرق في بلاده ، وأنه يجب إبطالها ، لكي يمكن إبطاله ؛ فإلغاء الانفصالية البريطانية في الخرطوم ، مثلا ، مكنته من العمل ضد النخاسين بنجاح ؛ ولذا فان الطريقة الوحيدة الفعالة في معالجة التجارة الرقية هي أن تسلمه الدول الغربية بسلطة منع الأوروبيين من الإهتمام عليها ؛ ومباشرتها <sup>(١)</sup> .

ولكن امتناع ( اسماعيل ) من النخاسين الغربيين لم يكن ليقعد بهمته عن تقييم مشروع إبطال النخاسة والرق الذي وطن نفسه على نفاذه . لأنه كان يعلم أنه بمثابة حجر الزاوية من بناء الحضارة الغربية الذي صمم على إقامته في البلاد ؛ وأنه إن أهمله فقد ينهار ذلك البناء بكيفية لا يعود معها من سبيل إلى إعادة الكرة ومحاولة تشييده .

وهو — ولو أنه يعامل تربته المائلية الأولى ، وتأثير منته الأصيل — كان مكثرا من اقتناء الحسان من الجوارى على الأخص ، والجوارى على العموم ، حتى لقد قال بعضهم إن سراياه كانت تحتوي على ألقى جارية ؛ وإنه كان شديد الحرص عليهن ، لا يسمح لأحد برؤيتهن ، ويعاقب أشد العقاب حتى من تجاسر على استراق النظر

(١) أنظر : " مصر الخديوية " لادون دي لبون ص ١٦٧ و ١٦٨

اليهن<sup>(١)</sup> . إلا أنه كان مقتنعا بأن تهلبات الايام كانت قد بلغت بمصر في عهده الى موقف لم يعد معه بد لحياتها القومية من أن تحل في جسمها الحضارة الغربية محل الروح القديم ، وإلا تفككت والحلت كما يتفكك ويحل الجسم الهرم ، القائمة فيه روح حرمة . وكان يعتقد أن أهم سميزات الحضارة الغربية إنما هي علاقة المرأة الغربية بالرجل ، ومركزها في الحياة العائلية منه ، وهما علاقة ومركزهما ، حتا ، عما يعتقد في الرأي العام الأدبي الغربي في وظيفة المرأة في الوجود . فبينما الحضارات ، التي دالت ، كانت تعتبر المرأة متاعا ، ومتى كانت تحسن الرأي فيها تعتبرها آلة تناسل ، أى أم أولاد ، فان الحضارة الغربية الحديثة أثبت عليها إلا أن تكون رفيقة الرجل وشريكته في حياته ، تشاطره أتمائها ومهموها ، وأفراحها ولذاتها . فلدتها ، لذلك ، قرينته ، أى المرتبطة به ، ارتباط الند بالند ، بينا الحضارات الأخرى كانت تدحوها "حرمة" أى "متاعه" و "الشيء الخاص به المحرم على غيره" . فكان يود ، اذا ، إبطال الرق ، ليتوصل من إبطاله الى إبطال حياة الحریم . وجعل المرأة بالتربية الجديدة ، التي تعطى لها في المدارس الحديثة ، رفيقة الرجل وشريكته في حياته ، أى جسم جسمه ، وروح روحه .

وكثيرا ما كان يقول في محادثاته في هذا الموضوع الخطير : « إن تعدد الزوجات وحشة الحریم يبطلان يوم تمكن تربية بنات الفلاحين التربية المنزلية من إحلالهن

(١) وقد كاد يمتد ذلك اختيارا مرا ، الشبان الثلاثة الذين خاطروا بأقصرهم ، مرة ، وأفسلوا الى داخل بيتان إحدى سراياه حيث تفرجوا ، مليا ، على نسائه يلعبن ويداعب بعضهن بعضا . فظعن اليهم أحد الخصبان وحاول القبض عليهم ، فهربوا . فلاردم وكاد يظفريهم ، لولا أنه وقع في بركة ماء . فتكنوا من تساق السود والإمراع الى مركب كانت على شاطئ النيل . فأغفاهم صاحبها في قاعها ، وأنكر أنه رآهم بالمرء ، لما أراه الخصى ومنه شرذمة من البلط وسأله منهم .

في البيوت محل الرقيقات، اللاتي هنّ مصروف كبير، وضرر أكبر، ويوم تجعل،  
التربية المدروسة المرأة رفيقة الرجل وشريكة حياته. أما الآن، فما هي عادة إلا مادة  
ترف! ».

واللدلالة على أن رأيه هذا كان رأيه الحقيقي، لا رأيا يتصنع به إرضاء لخواطر  
الغربيين المحيطين به، أو رغبة منه في اكتساب ثناء الرأي العام الغربي، والظهور أمامه،  
كذبا، في مظهر الأمير المتحضر الراق، أبي إلا أن يكون أولاده الثلاثة الكبار أزواج  
قرينة واحدة، وأبي أن يكون لبناته ضرائر عند أزواجهن.

ولئن امترض على صحة إخلاص شعوره، في ذلك، بأنه لم يحجم، هو نفسه،  
عن الاكثار من الزوجات، والاستكثار من الجوارى، فالجواب على الامتراس هو أن  
مثله في شغفه بالإصلاح، وفي عزيمته على إدخال بلاده في مضمار المدنية الغربية  
الحديثة، كمثل بطرس الأكبر الروسي في ذلك جميعه. فكما أن بطرس، مع بقاءه  
على تقائمه الشخصية، قد بذل أقصى جهوده لتحرير شعبه من عيوبه القومية،  
وكما أن بقاءه، هو نفسه، على تقائمه الشخصية، وشعوره بعلم تمكنه من إرغام  
قوتها، وهو الرجل صاحب الإرادة الحديدية، ربما كان الدافع الأكبر له إلى الثبات  
في خطة الإصلاح القومي التي رسمها لنفسه، هكذا (اسماعيل) — وقد وجد،  
باختباره الشخصي، الذي أرغمه عليه تكييف ماضى جدوده، مضار إحلال المرأة  
من الرجل محل المتاع المحض — أبي إلا أن يتخذ من حاله الشخصية باعثا جديدا  
على بذل أقصى جهوده في سبيل تغيير حال قومه.

على أنه لو لم يكن له من نفسه هذا الباعث، ولو لم يشعر، من تلقاء ذاته،  
بوجوب القضاء على النخاسة والرق، لتمكن من تغيير حياة الحريم وإبطال التمرى،

وتعدّ الزوجيات ، فقد كان يحد من احتكاك أفكاره بأفكار أمراء الغرب ، ومن الحوادث الجارية حوله ، ما يولد في نفسه ذلك الباعث .

فان ألبرت إدورد ، برنس أوف ويلز ، وولى عهد الملكة البريطانية — وهو الذى صرفناه ، فى أيامنا هذه ، الملك إدورد السابع — لما كان فى ضيافته فى أوائل سنة ١٨٦٩ كثيرا ما كان يحبذ تشييده فى إبطال النخاسة والرق ، ويختلق المناسبات ليحبب اليه فكرة إرسال حملة عسكرية الى عفر دار النخاسين فى أقصى السودان ، تضرب على أيديهم ، وتقطع دابرهم ، فيحمله على استمراء لثة المجد الذى تتوج أجيال المستقبل بهالته ، ذكره ، إذ تقرر باسمه ، فى تاريخ قومه ، لقب "مبطل الرق" فى السودان . وكانت البرنسيس أوف ويلز فرينسة البرنس ألبرت إدورد — وهى الملكة ألكسندرا الباتزة أم الملك جورج الخامس البريطانى إمبراطور الهند — تنضم الى بعلمها فى التحييد والتعجيب ، وتضفر بيديها الجميلتين بعضا من الأشعة المتكوّنة منها تلك الهالة !

فأمل ، يارعاك الله ! ، فى مقدار تأثير ذلك فى نفس (اسماعيل) الكريمة !

ومن جهة أخرى ، فان كبار النخاسين فى السودان — وأشهرهم الزير رحمت باشا — كانوا بسبب إغضاء موظفى الحكومة المصرية عنهم ، بل وضلعهم معهم — وذلك «لأن كل موظف فى السودان ، سواء أكان تركيا أم مصريا ، كان لا يستطيع اجتثاث ميله الى النخاسة والنخاسين» حسب قول شفايفرت ، الرحالة الألمانى — وذلك بسبب تقوى مواعدهم من النخاسة حينها ، لتكوينهم ، من الشبان السود ، الذين كانوا يصطادونهم ، وأباق الأعبد ، كتائب شعواء يثنونها فى الأصقاع ، فتنتشر مهايتهم ، وتكتسح لهم ، كانوا قد بنوا بذلك الى درجة من الصقة والطمع ، حلت



معظمهم على الطموح الى الامارة والملك ، فالاستقلال بالجهات المنشتر ظل هيتهم فوقها .

فكان لابد ( لاسماعيل ) من تشديد عزيمته على كسر شوكتهم ، والبطش بهم ، والحيولة بين زمرهم وبين رؤساء تلك الريع ، التي كانوا يشنون غاراتهم عليها .  
فانتدب ، أولا ، لهذه المهمة ، السير صموئيل بيكر ، مستكشف بحيرة ألبرت نيازرا ،  
بناء على توصية البرنس أوغ ويز نفسه ، وأنعم عليه برتبة فريق مع لقب باشا ، وسماه  
حاكما على البلاد الاستوائية لثة أربع سنين ، فتدئى من أول أبريل سنة ١٨٦٩  
براتب قدره عشرة آلاف جنيه سنويا ، وسيره اليها على رأس جيش مؤلف من  
١٧٠٠ رجل ، معهم ثلاث بطاريات مدافع جبلية ، وبطارية ساروخ ، بعد أن زوده  
بفرمان من لدته ، يعهد اليه ، بمقتضاه ، فى فتح تلك البلاد ، وإبطال تجارة الرقيق  
فيها ، وتلشيط زراعتها .

فقام بيكر ، ومعه امرأته ، من السويس فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ؛ ونهب عن  
طريق سواكن وبربر الى الخرطوم ؛ وفى الساب من شهر فبراير سنة ١٨٧٠ قام  
منها بثلاثين مركبا ، فقتل بالقرب من ملتقى نهر صوبت بالنيل الأبيض ، وبنى محطة  
سمها « التوفيقية » ، تيمنا باسم ولى العهد ، أقام فيها سبعة أشهر . ثم سار فى بحر  
الزراف الى جندوكورو ، فبلغها فى ٢١ أبريل سنة ١٨٧١ ؛ وبعد أن أقام فيها  
شهرًا ، رفع عليها العلم المصرى ، وسمها « الاسماعيليه » ؛ وجعلها مركزا لحكومته .  
وفى ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢ سار منها ببعض الجند ، جنوبا ، فأنشأ عدة قطع عسكرية .  
وتقدم الى بلاد يونيورو ، فغلق ملكها « كبريقه » ، لأنه خاتله ؛ وولى بدله مزاحما  
له يدعى « ريونجا » . وفى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢ أعلن ضم بلاد يونيورو الى المملكة

المصرية ، وسببا ، وأثناء نقطة عسكرية في عاصمتها "مسندى" ، وهى على ٥٠ ميلا من بحيرة ألبرت نيازرا ، وقد شروطا ودية مع مناسى أومتيزا ، ملك أوجندا ، وبذلك تدرج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية من الصوبت الى بحيرة فكتوريا نيازرا . ولكن هذا النفوذ لم يدم طويلا فى يونيو ١٨٧٠ . فان كبريقا الملك المخالوع جمع جموعه وهاجم بيكر فى "مسندى" ولم يكن معه إلا مائة رجل ؛ فأخلاه ، مضطرا ، فى ١٤ يونيو سنة ١٨٧٢ ، وسار الى فاتيكو ، ومنها الى جندوكورو ؛ فبلغها فى أول أبريل سنة ١٨٧٣ أى يوم نهاية مدة حكمه على خط الاستواء . قترك عسكره فيها ، وقام فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ الى الخرطوم ، ومنها الى مصر ، فوصل اليها فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٣ ؛ واستعفى من وظيفته ، فقبل استعفاؤه . وقد كتب عن قيامه بمهمته هذه كتابا سماه "الاسماعيلية" سرد فيه وقائعها وحوادثها ؛ وبين المصاعب التى لاقاها ، والأهوال التى اعترضته فى سعيه الى إبطال الرق ، وعمله على البطش بالنفاسين فى تلك البلاد القسبية . وهو كتاب تله مطالعته وتفيد جدا <sup>(١)</sup> .

ويندب (اسماعيل) ، بعد استعفاء بيكر ، الى نفس المهمة ، الكولونيل جوردن ؛ وجعل المساكر الموجودة فى جندوكورو وما والاها ، حتى البحيرات الكبرى تحت إمرته ؛ وزوده بفرمان حضه فيه على تنظيم تلك البلاد ، والسعى الى عمارتها ، ومعاملة أهلها بالرفق واللين والتأليف .

همة الكولونيل  
جوردن

فسار جوردن من مصر فى ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ الى الخرطوم ، ومعه قمر من تجار الرقيق جعلهم فى خدمته ، يمنهم عن تعاطى تجارتهم ، من جهة ، ولإستعين بهم ، من جهة أخرى ، على تمقب تجار الرقيق ، أخذا بالقول المأثور "لا يفل الحديد إلا

(١) توجد منه نسخة خزينة بالرسوم فى دار الكتب المصرية .

الحديد" . ولما قام من الخرطوم أخذ معه بعض جنود وسار بهم قاصدا جهات خط الاستواء ، فوصل الى جندوكورو في ١٥ أبريل سنة ١٨٧٤ ، وشرع يباشر شؤون المهمة التي أتى من أجلها .

ولكن ، بما أن أعماله يدخل معظمها في دائرة الجهود التي بذلها ( اسماعيل ) لتحقيق الشطر الثالث من خطته ، فانا نرى الأولى إرجاء بيان تفاصيلها الى الباب المخصص لذكر ذلك الجهود .

على أن الرأي العام المصري — وآرائه وميوله في أمر النخاسة والرق عرفت منها ما عرفت — كان ساخطا على حملتي هذين الانجليزيين ، طاعنا على الجهود المبذولة ، باكما على الأموال المنفقة في سبيل نجاحهما . ولم يكن في القطر كله من مصري معضد للخديو في جهوده ومساويه سوى أولاده الأمراء الثلاثة ، لاسيما أكبرهم محمد توفيق ، ولي عهد ، الذي قال يوما للبارون دي مالورتي : « إني أكره فكرة الرق ذاتها ! » ، ووزيره نوبار باشا وشريف باشا ؛ لا بل قام أوروبيون كثيرون يتخذونها فرصة لكسب الأموال : إما بمكافأة على مدح مأجور ، أو اجرا على امتناعهم عن مطاعن كاذبة ؛ كذلك الألماني البارون ، الذي روى عنه رياض باشا أنه طلب منه ألف جنيه مصري ، يمسك قلبه عن الكتابة في مسألة الرق ضد الخديو وحكومته ؛ ولما رفض ذلك الوزير إعطاءه ما طلب ، اتهمه بطلع في حسن نوايا الحكام المصريين ، ويشنع عليهم <sup>(١)</sup> .

معاهدة أغسطس  
سنة ١٨٧٧ القاضية  
بإبطال الرق

ومع ذلك ، فإن ( اسماعيل ) استمر يجهاد جهاد الأبطال ، غير مبال برضى أم بسخط حتى آل الأمر الى عقد معاهدة في أغسطس سنة ١٨٧٧ مع بريطانيا العظمى لمنع

(١) انظر : " مصر " للبارون دي مالورتي ص ١١٥ حاشية رقم ٤٧٣ ، وانظر الكتاب منه ص ١١٣ ، وانظر أيضا " الاسماعيلية " للسيد صموئيل بيكر ، ص ٦ وما يليها .

الاتجار بالرق، وإبطال الرق، قضت مواتها : (أولاً) أن يبطل، بعد التوقيع عليها، إدخال الأرقاء إلى الأراضي المصرية، ومروهم بها أو يباعها، (ثانياً) بأن لا يسمع، في المستقبل السود والجهشان المائشين بمصر، بمغادرتها بدون أن يشعروا أنهم أحرار، (ثالثاً) أن جميع النخاسين والمتجرين بالرق، في أية بقعة كانوا من الأرض المصرية، يحاكمون أمام مجالس عسكرية، (رابعاً) أن الحكومة المصرية تستعمل نفوذها على قبائل أفريقيا الوسطى، لكي تمنعها على وضع حد ونهاية لاقتناص الرقيق، (خامساً) أن السفن البحرية البريطانية في البحر الأحمر، وفي المياه المصرية الأخرى يكون لها حق تفتيش كل المراكب المصرية، (سادساً) أن يبيع الرقيق من عائلته إلى عائلته يبطل بالقطر المصري بعد مضي سبع سنوات، ويبطل في السودان بعد مضي اثنتي عشرة سنة<sup>(١)</sup> .

وتلا تلك المعاهدة القراران الوزاريان الصادران في ٢٣ أغسطس ١٨٥٥ أ. ثوبر سنة ١٨٧٧ ، والذكريتو الصادر في أول يناير سنة ١٨٧٨ تهتمتا لشؤون الموضوع ، ورضية في الوصول إلى إبطال الرق .

لحق لرسل ، الكاتب الإنجليزي ، أن يقول عن (اسماعيل) في يومياته في الشرق ص ٤٥٦ : « إن عمله في إبطال تجارة الرقيق جدير بالاعجاب الشديد ، لا سيما أنه أقدم عليه ، وتقاليد شعبية ، ومصالح جانب عظيم من رعاياه ضده ! » وحق للكاتب الإنجليزي الآخريانسا سميت ، أن يكتب بملء قلعه : « إن يكن التحرير الإنجليزي عظيماً ، والتحرير الروسي أعظم ، والتحرير الأميركي أعظم من الاثنين ، فالتحرير المصري أعظم الكل ، بلا جدال » .

(١) أنظر : اتفاق أغسطس سنة ١٨٧٧

(٢) رسل ، "يومية في الشرق" ص ٤٥٦

(٣) أنظر : "ارتنا في الحرم الأكبر" ليانسا سميت ص ٥٦٧

كما أنه حق للورد هتو أن يهتف بملء فيه في مجلس العموم البريطاني في أول يونيه سنة ١٨٧٨ : « لاشك في أن حاكم مصر الحالي عمل على إبطال الرقيق في بلاده، وتحسين حال رعاياه، أكثر من كل حاكم مسلم، بل ربما أكثر من كل حاكم مسيحي في ملّة من الزمان مساوية لملّة عملي<sup>(١)</sup> » .

على أن كل هذا التمديل المتنوع، الذي أدخله (اسماعيل) على حياة أمتة المصرية، وفصلناه تفصيلا وافيا في الصفحات السابقة، إن أوجب تطورها المستمر، وإن غير مجارى العقليّة في بعض طبقاتها، لم يكن يستطيع أن يتجج ثمره إلا مع تولى الأيام .

الظواهر خلاف  
الحقيقة

لذلك استمرت معظم ظواهر الحياة القومية تحيى هي أمّام من لا يرون إلا الظواهر ولكن الذين كانوا يتمكّنون من أن يخترقوا بنظرهم حجب الظواهر، ويتبينوا، بين طيات دجى الليالى بصيص نور الفجر، كما يتبين سليم العين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، في بصيص الشفق البعيد، أولئك لم يكونوا يفتروا بتلك الظواهر، وكانوا يعلمون يقينا أن الحركة التي صدرت، بقوة، عن يد (اسماعيل)، قدضت بالحياة المصرية الى مرافق الحياة الغربية، وأدخلت المصالح الغربية الى صميم مرافق الحياة المصرية، أوجبت حتّا تطورا مستمرا، وجعلت البقاء على الجمود، أو الرجوع القهقري أصريّن خارجين عن دائرة الامكان .

فلم يكن ليسمهم إلا أن يردّدوا القول التالى المأثور عن صاحب كتاب "المسألة المصرية" وهو : «إنما القطر المصرى مدين بكل عنصر هتّم ورقى تجده اليوم فيه لسنى ملك (اسماعيل) الست عشرة<sup>(٢)</sup> ! » .

(١) أنظر : "مصر" المأثور من ١١٧ وحاشية رقم ٤٧٧

(٢) أنظر : "المسألة المصرية" طبعة ١٨٨١ ص ٣٧

## الباب الثاني

### تحقيق الشطر الثاني

(أى السعى الى الفوز بالاستقلال التام للبلاد)

### إجمال

كانت مصر، لما ارتقى (إسماعيل) عرشها السنى، مقيدة بثلاثة قيود كبيرة، تمعدها عن السير الى مكانها الطبيعي في مصاف الأمم المستقلة .

(القيد الأول)، حق الامتياز الذى منحه (محمد سعيد باشا) سلفه لشركة القناة العالمية، وأصبحت هذه الشركة، بمقتضاه، تسيطر حكومة مصر صولتها، وإدارتها، وماليتها، فى جزء عظيم من بلادها .

و(القيد الثانى)، السيادة العثمانية بما يتبعها من التضييقات المذلة، والإلزامات المصغرة، والتوريت بالأرشدية وعلم جراً .

و(القيد الثالث)، الامتيازات الأجنبية بما تستلزمه من إدخال القناصل عصيهم فى دولاى أعمال الادارة المصرية، وإيقافهم حركته، ومناهضتهم الحكومة فى كل مشروع لا يروق فى أعينهم وكل إجراء يزعمونه أو يزعمه تابعوهم، ماسا بمصالحهم؛ دول مدينة تراحم العولة صاحبة الشأن على دفة الأحكام، وعلى منصة التشريع والعدالة؛ فصمم (إسماعيل) على كسر هذه القيود الثلاثة كسراً باتاً، وإزالتها . وما فاق عمل على ذلك، عملاً حثيثاً، نيفاً وثلاثة عشر عاماً، حتى تسنى له نيل معظم مراده، وتحقيق جل أمانيه، بالرغم من صعوبات لا تحصى، وعراقيل لا تعد، ومقاومة ظرووف الدهر وصروفه له، مقاومة ملهشة؛ ولييان ذلك تقول :

## الفصل الأول

### ازالة القيد الأول

قيد ما كان جائرا على حقوق العرش المصري ، في الامتياز الممنوح  
لشركة قناة السويس العالمية من ( محمد سعيد باشا )

” سكنتاه ، دخل بجاره “

« مثل ماى »

نبذة في تاريخ تركة  
السويس قديما

إن فكرة انشاء تركة تصبل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، فكرة قديمة جدًا .  
فهيرودتس المؤرخ اليوناني يقص أن نيناث بن بتاه متيك الأول ( وملك من ٦١٠  
الى ٥٩٤ ق . م ) كان ممن أقدموا على اخراج تلك الفكرة الى حيز الوجود . فشغل  
في العمل الفلاحين المصريين ألوفًا ، ألوفًا . فمات منهم ثعبا نيف ومائة وعشرون ألفًا .  
ثم إنه أوقف الأشغال بقتة لأن أحد كهنته واقاه بنبوة مفادها أن ” القفرهون “ إنما  
يشتغل للغير ؛ وأن منفعة التركة تكون للأجانب ، لا لمصر .<sup>(١)</sup>

(١) أمم مصادره هذا الفصل هي الآتية : ” مصر وتركيا “ لقرديتان دى لسبس ، و ” قناة السويس “  
لطلعت بك حرب ، و ” أصول تركة السويس “ لقرديتان دى لسبس ، و ” تذكارات أربعين سنة “  
لقرديتان دى لسبس ، و ” رسائل ريفية ومستندات الرجوع اليها في تحرير تاريخ تركة السويس “  
لقرديتان دى لسبس ، و ” مصر المعاصرة “ لمريشو ، و ” رسائل من مصر “ لبرطفى ست هليو ،  
و ” فتح برنخ السويس “ لقرديتان دى لسبس ، و ” أسرة دى لسبس “ لبردييه ، و ” تذكارات  
أربعين عاما “ لقرديتان دى لسبس ، و ” لقرديتان دى لسبس . حياته وأعماله “ لبرقران ،  
و ” قتال السويس “ لروسينول ، و ” تاريخ اتصال البحرين “ لسودين ، و ” قتال السويس  
ومستقبله “ لوريدان .

(٢) أنظر في خطاب ” مصر “ لما لوردي ، ذكر الخطاب المرسل من الإمبراطور في بروكس باشا الى

البرنسي وودلف ولي عهد النمسا والمجر ، من ١٤٨ و ١٤٩

وإذ يدور المفضل يخص أن يضاؤ، إنما بدأ عمل تلك التربة ؛ وأن دارا الأول ، ملك الفرس ( وملك ما بين ٥٢١ و ٤٨٥ ق م ) أراد إتمامها ، ولكنه توقف لما قيل له من مهندسيه إن منسوب البحر الأحمر أعلى من سطح الأرض المصرية ؛ وإن مياه ذلك البحر تضر القطر ، لا محالة ، فيما لو حفرتم تلك التربة .

وسترايون يخص أن الذي بدأ في تحقيق هذه الفكرة ، إنما هو سيزوستريس ، قبل حرب ترواده ( ومن قائل إن سيزوستريس هذا ، هو أوزرئسن الثالث ، أكبر فراعنة الأسرة الثانية عشرة الفاتحين ؛ ومن قائل إنه رامسس ، أو رامسيس الثاني ثالث فراعنة الأسرة التاسعة عشرة ، ومن كبار فاتحيها ، وملك من ١٢٨٨ الى ١٢٢١ ق م ) ؛ وأن هناك من ينكر ذلك ، وينسب البدء في تحقيقها الى يضاؤ بن بشاء متيك ؛ ويقول إن دارا الأول الفارسي أراد إنجازها ، ولكنه توقف لما قيل له عن علو منسوب مياه البحر الأحمر عن سطح الأرض المصرية ؛ وأن ثاني البطالسة ( وملك ما بين ٢٨٥ و ٢٤٧ ق م ) قطع البرزخ السويسى ، وسد التربة عند مدخلها فى القلزم ، بحيث بات الدخول فيها والمرور الى البحر الخارجى تحت تصرف الإرادة (٤) — كنا —

وبلينس يقول إن الذى أقعد بطليمس عن إتمام التربة لم يكن الخوف من أن تغرق مياه البحر الأحمر القطر ؛ ولكن الخوف من أن تفسد تلك المياه المملحة مذوبة مياه النيل !

غير أن هذه الأكالويل كلها لا تنفد أن الفكرة حققت ، أبدا ، بشكل تام . وأن الاتصال بين البحرين كل بحيث بات فى استطاعة كل السفن ، مهما كان حجمها ، المرور من القلزم الى الأبيض : فان يلوتركس يقول فى ترجمة مرقس أنطونيوس



إن هذا الروماني الشهير أتى الى الاسكندرية قبل واقعة "أكسيم" بقليل . فوجد كليوباترا، خليلته ملكة مصر، منشغلة في البحث عن وسائل تمكنها من نقل مراكبها فوق البرزخ الفاصل بين البحرين، لتهرب في المحيط الهندي بجميع كنوزها. ثم أتى الرومان، ويقول المقرئ إن الامبراطور هدرانوس تم القرعة التي بدأها ترائانوس متنبه، وأن هذه القرعة كانت لا تزال مفتوحة في أيام حكم الاسلام الأول بمصر .

على أن المعروف هو أن عمرو بن العاص أراد حفر ترعة تنهب من القرما الى السويس؛ فتمنع عمر بن الخطاب، بحجة أن وجودها يفتح طريقا لمراكب الروم، لئلا يتمكن به من تهديد مكة والمدينة . فعزل عمرو عن فكرة القرعة المستقيمة الى فكرة الترعة الواصلة بين البحرين عن طريق النيل؛ واحتقر المجري الترائاني الذي كانت الأيام قد طمرته؛ وهو الذي عرف باسم "خليج أمير المؤمنين" وفي مفتوح ١٣٢ سنة .

ثم مرت على مصر الأعصر الوسطى، بظلامها الدامس، الذي لم ينغذ اليه نور من العلم إلا بين حين وحين؛ وتلاها سكون الموت وسكوته، اللذان خبا على الديار المصرية من سنة ١٥١٧ الى سنة ١٧٩٨، فلم يعد، هناك، كلام على اتصال يوجد بين البحرين، بل ولا فكري حول ذلك الاتصال .

وإذا بالجملة للفرنساوية البوابرتية ظهرت في الآفاق، وحلت بدوى عظيم على أرض مصر وثمت سماتها في تلك السنة حينها (سنة ١٧٩٨) فنهض القطر خائفا وجلا من سبات الموت ورقدته؛ ودبت اليه حياة جليظة، أبصر نورها بعد جهد هائل، دام نيفا وبضع سنين .

رحدثا

وكان من باكورة الأعمال التي أقدم عليها الجنرال بوناپرت، قائد تلك الحملة، أنه ذهب بنفسه الى السويس، وجاب برزخه، ليرى آثار التركة القديمة، ويفحص مسألة إعادة الاتصال بين البحرين، لخصا شخصيا. وأنه كلف، بعدئذ، لجنة، من علماء حملته، بدرس الموضوع درساً تاماً، وتقديم تقرير واف عنه له.

فاشتغل هؤلاء العلماء تحت رئاسة كبير مهندسيها، الميوليير، شغلاً حثيثاً استغرق طول مدة الاحتلال الفرنسي للأرض المصرية، ووضعت كتاباً في أبحاثها، كان من أنفس آثار مرور ذلك الاحتلال بالبلاد الفرعونية.

ثم ذهبت أطامير السياسة بزعم تلك الحملة، أولاً، ثم بالحملة عينها، الى حيث أعدت لها الأقطار شأناً، لا مثيل له في التاريخ، فقسم لير تحريرها بباريس، بدلا من أن يقتحمه في القاهرة، الى بوناپرت، فنصل أول الجمهورية الفرنسية، بدلا منه الى بوناپرت، جنرال عام الجيش الفرنسي بالقطر المصري. قتله بوناپرت بإيمان زائد، ثم هتف قائلاً، كأنه أسف على مجد حرم منه: «أن العمل لدوشان عظيم. ولكنني لست بالقادر على القيام به الآن، فبرأ الحكومة التركية قد تجد يوماً مجدداً ونفراً في نفاذ هذا المشروع الخطير!».

وكان الكونت ماتيه دي لسبس قنصلاً لفرنسا بمصر في سنة ١٨٠٣ فوردت اليه تعليقات من بوناپرت، فنصل أول الجمهورية الفرنسية، مؤذاه أن يقبل على اختيار أكثر قواد القوات التركية الموجودة في القطر، جدارة وأعلام أخلاقاً، ويخطر منه الجنرال ميهستيانى السفير الفرنسي في القسطنطينية ليحمل الباب العالي على تنصيبه والياً على مصر، حساه أن يكون للفرنساوين حونا على المهالك

(١) انظر: "مصر وتركيا" لفردينان دي لسبس ص ٤٢

والانجليز أصدقاتهم . فاختار دى لسبس (محمد علي) وارتبط معه بعري صداقة متينة ، وأوصى به سيستاني خيراً<sup>(١)</sup> .

فلما ذهب الثورة بكري خورشيد باشا ، وانتخب علماء القاهرة المكذون العظيم واليا عليهم ، عضد سيستاني انتدابهم لدى حكومة القسطنطينية ، وجعلها تعتمد . لحفظ (محمد علي) للكونت دى لسبس جملة — وكان حفظ الجميل من أجل ما امتازت به أخلاق ذلك النابتة العجيب .

ولما اختارت الحكومة الفرنسية ، بعد ذلك بيف وسبع وعشرين سنة ، فردينند بن الكونت ماتييه دى لسبس ، ليكون نائباً للقنصل الفرنسي ، بالاسكندرية ، استقبله الباشا العظيم بإكرام زائد ، وخصه بعطف أبوي ، وما فتئ يظهر له من ضروب الختان ما جعله أو كاد يحمله أحد أفراد الأسرة العلوية .

ولما شب الأمير محمد سعيد ابن الأمير العصابي ، وترعرع ، عهد (محمد علي) الى فردينند بأمر الاعتناء بصباه . فقام فردينند بذلك قياماً حسناً ، وطم الأمير اليافع ركوب الجياد ، وحجب اليه إجهاد النفس في التمارين الرياضية — وكان (محمد سعيد) في أشد الاحتياج اليها : لأنه كان عظيم الخنة بلينا الى حد أن أباه حتم عليه حضور أربعة عشر درسا في اليوم ، والاكثار من الرياضة الجسمية ، لكي تنهض عنه بدائته ؛ وأنه كان يزنه ، كل أسبوع ، فإذا وجد وزنه زائدا على ما كان في الأسبوع السابق ، طاقه عقابا صارما ؛ وإذا وجد ناقصا ، كافاه ؛ ولو أن عظم جثته وبداتها لم يكونا ، في بده أمره ، مرضا ؛ بل كانا كعظم جثة برنس في (رواية الفرمان الثلاثة لاسكندر

(١) انظر : "أماكل رمة السرمي" فردينان دى لسبس ص ٨٧

دوماس)، وكعظم جثة عبادة بن الصامت في أنباء فتح مصر لمؤرخى العرب، مظهر قوة غربية، وصحة عجيبة .

فلشأ من اعتناء فريدلند بمحمد سعيد، ذلك الاعتناء، أن هذا الأمير الشاب صادقه مصادقة أكيدة وألفه ألفة زائدة كان الباشا العظيم أبوه من أكبر مشجعيه عليهما، ومن أميل الناس الى توثيق صراهما بينهما .

وكان قنصل فرنسا العام بالاسكندرية، في ذلك العهد، رجلا من أدباء عصره يقال له المسيو ميمو . وكان لا ينفك يقرأ الكتاب الذى وضعه، في مسألة ترعة الاتصال بين البحرين، المندوبون الذين عهد اليهم بالجنرال بوناپرت بمشأ وفحصها . فأوجد غرام مطالعة ذلك الكتاب النفيس، في روح الشاب دى لسبس المتخرج على يديه . فأكب دى لسبس على مطالعته باهتمام زائد، وما لبث أن ثبت في ذهنه، بكيفية لا تترصع، إمكان إيجاد ذلك الاتصال، فوطن نفسه على تخصيص جميع قوى عقله وروحه وجسمه لتفانده .

فغير أن صروف الأيام ما عثمت أن تقلعه من القطر المصرى الى الغرب، وقلبه هناك في عدة مناصب سياسية أظهرت فضله، ونشرت ذكره . ولكنها أبعدته عن محط رجال أفكاره، ومطلع أنظار رغائبه : ألا وهو برزخ السويس، الذى لم يعد بيني مجدا غلدا إلا من وراء قيامه بحفر ترعة الاتصال بين البحرين .

وكانت الأنظار، في أوروبا، قد اتجهت نحو تحقيق هذه الفكرة، القديمة العهد، لا سيما منذ أن هب السانسيمونيون، وعلى رأسهم الأب انفتين المشهور، بمحذون تحقيقها، ويحضون عليه، وأتى بعضهم، مع أستاذهم المذكور، الى مصر، وأخذوا

(١) انظر : "أمول رعة السويس" لفردينان دى لسبس ص ٣٥

يلدرسون الموضوع درسا عميقا ، ويتكرون المشروعات المختلفة لتحقيقه : فتالابو أشار بعمل ترعة من الاسكندرية الى مصر، تجتاز النيل عند هذه العاصمة، ثم تسير منها الى السويس، وبرول أشار بعمل ترعة من السويس الى بحيرة المنزلة، ثم تسير منها غربا، متبعة الساحل المصرى الشمالى، حتى الاسكندرية<sup>(١)</sup>.

ولكن (محمد على) رفض، بتاتا، التصريح بأى عمل من هذا النوع. وأى كل الإباء أن تحتفر ترعة دولية، لوصل الغرب بالشرق الأقصى، فى داخلية بلاده. فتسير السفن تجارية أو حربية فيها رافعة أعلام دولها المختلفة، ويتعرض القطر لطوارئ ليست فى الحسبان، قد تؤدى الى استيلاء إحدى الدول العظمى الغربية، لا سيما بريطانيا العظمى، عليه.

والذى حل ذينك المهندسين على وضع مشروعيهما المذكورين، إنما هو الاعتقاد السائد على عقول ملأء العالم، قاطبة، بصحة الاختبارات والمباحث التوبوغرافية والأوروغرافية، والهيدروغرافية، التى قامت بها لجنة سنة ١٧٩٨ الفرنسية تحت ادارة المهندس ليير، والتى أدت بها الى تقرير علو سطح البحر الأحمر، تسعة أمتار، عن سطح البحر الأبيض، وبالتالى استحالة عمل ترعة مستقيمة واحدة بين البحرين، ففجتاز برزخ السويس الفاصل بينهما، مباشرة.

على أن هذا الاعتقاد لم يكن أثبت قواعد وأركان من خلافه : لأنه كان كغيره، مبليا على التسليم بما وصلت اليه مباحث المتقدمين، وماقت فيه أحكامهم، لا على خبرة ومباحث شخصية. فها هم، والحالة هذه، أن اهتر على قواعده، وأخذت أركانه تنهار فى عقول الذين كانوا ممن يابون أن يقيموا بناء تصديقهم وإيمانهم على المزاعم،

(١) انظر "مصر المعاصرة" لمريش، ص ١٤٧ وما يلها.

ولا يريدون لها قاعة سوى درسم واختبارهم الشخصيين : فان أخطوا ، فأنما يضطرون ، طبا ، وإن أصابوا ، فالنصر — وأى نصر — لم دون سواهم .

بلنة سنة ١٨٤٦ قعيلت في سنة ١٨٤٦ ، إذا ، لجنة مختلطة للنظر في تقرير ليبر ، وإعادة فحص الموضوع ، فخصا أدق من الذى عملته لجنة سنة ١٧٩٨ ، وأوسع دائرة . فوات أعمالها بهمة فائقة وتحقيق لا مزيد عليه ، وانتهت خاتمة المطاف بها الى اعتماد رأى المستر ستيفنس المهندس الانجليزى . فقوتت أن فرق الارضاع ، بين سطحى البحرين ، لا يعبأ به . وأن عمل ترعة واحدة مستقيمة ، تجتاز البرزخ ، وتصل بين الأبيض والقزم أمر ، والحالة هذه ، مستطاع .

وكان (محمد على) — لما فرغت تلك اللجنة من أعمالها ، وأبرزت نتيجة مباحثها الى الوجود — قد أشرف على انكوف ، وآلت الأحكام فى القطر بعد موت (ابراهيم) الهمام ابنه ، الى (عباس الأول) . فضرب بمباحث تلك اللجنة عرض الحائط ، وتحول عن فكرة إنشاء «ترعة اتصال دولية» الى إجراء رصف الطريق ، ما بين مصر والسويس الذى كانت تسلكه عربات القززية ، بحيث يصبح صالحا لسير كل عربة عليه بسهولة وسرعة ، ويتم الاتصال بين العاصمة والقزم من سبيل أمين . فجعل عرض ذلك الطريق ٣٠ مترا ، وممك رصفه ٤٠ سنتيمترا ، وبوشر العمل فيه ، فسوى ، أولا ، رمل الأرض ، ثم وضعت عليه طبقة من الحجر الدبش ممكها ١٥ سنتيمترا ، هرست هرما بمحور محضرة خرائطية ضخمة عليها ، تجزها أربعة أيران ، ثم وضعت فوقها طبقة أخرى عرضها ١٥ سنتيمترا ، كذلك ، هرست مثل الأولى . وتلتها طبقة ثالثة ، خطيت على سمك ١٥ سنتيمترا ، أيضا ، برمل من رمل الصحراء ممزوج بأديم حجر مشتمل على ترجيحات جبسية ، وهرس كل ذلك ، مثل ما هرست

الطبقة الأولى . ثم جعل على جانبي ذلك الطريق اتساع قدره متران ، لسير المشاة ، وصملت سكة صغيرة بجانبه ، لتصريف مياه الأمطار . واحتفرت بئرًا توازية بالقرب من حصن أبحرود ليرتوى منها الراح والنادى ، ولكنها لم تفتح ، ولم ترو من ظمأ .

فلما مات ( عباس ) ، وآل عرش مصر إلى ( سعيد ) ، وبلغ النبا ، بذلك ، علم فرديند دى لسبس — وكان مشتغلا في ترميم قصر لحياته ، سكتته أنيس سوريل ، خليعة شارل السابع الفرنسي ، في زمنها — تهلل ، واستبشر ، وأرسل يهته تهته خالصة . فرد ( سعيد ) عليه واستطاع إلى مصر ، ليشاطره سروره وهناءه . ولما وفد عليه ، أكرمه إكراما فاقما ، واستعجبه معه في سياحة ، قام بها على رأس عشرة آلاف جندي بمدافعهم وخيولهم ، من الاسكندرية إلى مصر ، عن طريق الصحراء الغربية <sup>(١)</sup> .

مفاتيح دى لسبس  
الأمير ( سعيد )  
في شأن فتح ترة  
السويس

فأخذ دى لسبس يحين الفرص ليفاتحه في مشروع قناة السويس الذي كان اختمر في اعتباره اختارا تاما ، مستعينا على ذلك بنى الفقار باشا ، صديق الوالى الأقرب إليه . واتفق له ، ذات يوم ، بعد ما استأذن ( سعيدا ) في الانصراف إلى شأن من شؤونه ، وهو معه في تلك السياحة ، أنه امتطى صهوة جواد كان ذلك الوالى وهبه لإياه ، ووثب به فوق كثيب مرتفع من الحجارة أمام عموم القواد المصريين . فاعجبوا به وأكبروا فروسيته .

ففي اليوم التالي ، اغتم فرديند فرصة مناسبة ، وجر الحديث إلى رغبته في أن يستطع ملك صديقه بعمل نغم ، يخلد ذكره في حالة من سنا ، إلى نهاية الدهور ؛

(١) لهذا ولجميع ما يتبع ، أنظر على الأخص : "بداية أو أصول ترة السويس" لفردينان دى لسبس

واقترح على (سعيد) الإقدام على إنفاذ مشروع التركة؛ وهو يحتشد في أن يلهب كلامه بحيلته، فيجعلها تدوى منذ تلك الساعة، بترنم العالم المتمدين بأسره، بأناشيد مدحيه .  
فبالرغم من أن (سعيدا) كان قد أكد مرارا، قبل ذلك، لغيردى لسبس بأنه لن يحميد في هذا الموضوع عن عزيم والده، وعن خطة الرفض التي وضعها لنفسه، فإنه سكر بانحر اللذينة المبذولة له في كلام محادثه؛ وما هو أهم من ذلك، اقتنع باقتناعه، وتأكد من أن إنفاذ المشروع يزيد مصر أهمية، ولا يعرضها لأى خطر يكون . فقال لى لسبس : «أجل ! إني مقتنع . فتق بى، واعتمد على<sup>(١)</sup>» .

ثم استدعى قواده، وقص عليهم ما دار بينه وبين صديقه دى لسبس من الكلام، وسألم رأيهم؛ فعدّوا ما رأوا من فروسية ذلك الفرنسي . ولما كانت عقليتهم تقتربهم، كقول دى لسبس حينه، إلى تقدير رجل يحسن ركوب الخيل ويحميد الوثب فوق الكشب والحفر، أكثر منها إلى تقدير رجل عالم متعلم<sup>(٢)</sup>، فأنهم فتحوا أعينهم، واسعة، للدلالة على فهمهم؛ وهزوا رؤوسهم مرارا، للدلالة على استحسانهم؛ وقالوا بإجماع بعدم جواز رفض طلب يفتحه مثل ذلك الصديق . فثبتت موافقتهم (سعيدا) في عزيمه .

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٥٤ — وكان الأمير قد بلغ العاصمة بمجده، ومدعويه، وأتزل دى لسبس صديقه في قصر المسافرين، وهو الذى

(١) أنظر : "أصول تركة السويس" لفردينان دى لسبس ص ٤٠ ، و "أمر دى لسبس"

ص ٣٢٠ لبردييه ، و "تذكارات أرمين طاما" لفردينان دى لسبس ص ٢٩

(٢) أر أن "أحكام الوثب بالحصان أعظم دليل وأقوى برهان" كما يقول محمد طلعت حرب بك في كتابه

من قاعة السويس ص ٣٠



كان مخصصا في أيام الحملة الفرنسية لاجتماع أعضاء لجنة القناة فيه تحت رئاسة ليير البادى ذكره، فتأمل غرائب الصدف، ومحامنها ! - استدعى (سعيد) فريدلند دى لسبس الى القلعة، بدون أن يقول له لماذا، وهناك في مجتمع من القناصل العامة والوجهاء المزدحمين لتبتهة الأمير بسلامة الوصول، أعلن، على رؤوس الأشهاد، الوعد الذى صدر منه لدى لسبس صديقه، وأكد عزمه على منح امتياز له بتأسيس شركة مساهمة عالمية، لإبراز المشروع الى حيز الوجود<sup>(١)</sup>.

وأعقب قوله بالعمل، ومنعه بعد خمسة أيام في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ الامتياز الموعود به؛ وكلف مهندسى حكومته، لينان بك وموچيل بك، بالذهاب معه الى البرزخ، ودرس طبيعة أرضه، وفحص مسألة إنشاء الترمة المرغوبة فيه، ورفع تقرير واف له عن كل ما يتبيناته.

فذهب المهندسان في الشهر التالى، وأقاما هناك أياما، مع دى لسبس، يدرسان الموضوع درسا تاما. وتقرأ بهما نهائيا على أن تنشأ ترمة مستقيمة، تجتاز البرزخ في جهته الأقل اتساعا، أى ما بين بيلوزيم (القرمة) على البحر الأبيض، والسويس على البحر الأحمر.

ثم جمع دى لسبس مائة من أصلغاته، وحملهم على أن يكتب كل منهم بحصة ثمنها خمسة آلاف فرنك - ولا شك في أنها تساوى الآن مليونين من الفرنكات على الأقل - واستخدم المبلغ المجموع لاستخدام لجنة هندسية دولية مشكلة من سبعة من المهندسين : هولندى، والإنجليزى، وبروسيانى، وأسبانى، ونمساوى،

(١) أنظر: "أعمال ترمة السويس" لفردينان دى لسبس ص ٥٦، و "أسرة دى لسبس" لبريديه ص ٣٢٢، و "تذكارات أربين تاما" لفردينان دى لسبس ص ٥٥.

والإيطالي ، وفرنساوى ، ومن علة بحارة فرنساوين والإنجليز ؛ ومن مهندس  
هيدروغرافى تابع للبحرية الفرنسية ، طلب اليها أن تدرس المشروع ، وتطلع على  
التقرير الذى وضعه لبنان بك وموچيل بك .

فذهب رجال تلك اللجنة ، بادئ بدء ، الى البرزخ ، ليقفوا بأنفسهم على الأماكن  
التي تقرر أن تجتازها التربة ؛ وكان برفقتهم فردينند دى لسمس والمسيو برتيليمى سلت  
إيلير ، المنتخب سكرتيرا عاما للمشروع ؛ وقد كتب عن مصر في ذلك العهد طه كتابات  
رجعنا اليها أحيانا في مؤلفنا هذا .

وبعد إجراء عمليات هندسية وأبحاث توپوغرافية ومقاسات بارومترية قوتت تلك  
اللجنة أن سطح البحرين واحد ؛ وأظهرت أسباب الغلط الذى وقع فيه ليير بذهابه  
الى أن منسوب البحر الأحمر أعلى من منسوب البحر الأبيض بكثير ؛ وأثبتت أن  
أرض البرزخ التي ستجتازها التربة ، أرض ثابتة ، يعلب فيها الخرف الى عمق ما ،  
لا أرض رمال ممتوجة تهتد كل حفرة بطمر ، كما قال بعض مسفهى أحلام الراغبين  
في حفر تلك التربة ؛ وأثبتت أيضا ، أن لا خوف على منفذ التربة في البحر الأبيض  
من تكاثر أوحال طمى النيل ، حوله : (أولا) لعدم سير تلك الأوحال جهة المنفذ  
المتوى لإيجاده ؛ و(ثانيا) لوجوب ذوبانها حتما في مياه البحر على فرض سيرها نحوه ،  
وبناء على ذلك ، طرحت اللجنة جانبا مشروعى تالابو وبرول ، وتقررت العمل  
بمشروع المهندسين لبنان بك وموچيل بك لأسباب أهمها : أن مشروع تالابو يوجب  
صعوبة — وهى اجتياز النيل عند العاصمة — لا سبيل الى التغلب عليها ؛ إلا بإجراء  
عمليات هندسية هائلة ، يتضائل أمامها ما عمل من هذا القليل فيما بعد في مجرى  
ترعة "بانما" الحالية ؛ ويتمنر جتا إجرائها . فإذا فرض ، وأمكن ، نجم عن الإجراء

خطر ان جسيان في منتهى الفظامة : (الأول) تريض القناطر الخيرية الى السقوط ،  
والبلاد الى الفرق ؛ و (الثاني) ضرورة تسرب المياه من أسفل الى أعلى في الأحياء  
المجاورة ، فنصاب بجذب مستديم .

وأن مشروع برول يوجب أن تجتاز التربة النيل ، مرتين ، وجميع ترع الوجه  
البحرى المتجهة شمالا ، ولا سبيل الى ذلك إلا باقامة جسور لحفظ مياه النيل في المدى  
الذى يقزر ، وهو لا يمكن عمله : لأن الفيضان يذهب بتلك الجسور وينزق منطقة  
التربة البحرية فينجم عن إغناذ المشروع تخريب التربة ، في كل فصل يزيد النيل فيه ،  
وإتلاف الزراعة في عموم الوجه البحرى .

فلما فرضت اللجنة من أعمالها ، عرضها دى ليهس على (محمد سعيد باشا) صديقه ،  
فاصدر هذا الأمير أمرا عاليا بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ و ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٢٧٢  
صديق به على الامتياز السابق منحه منه لذلك الفرنسيواى العظيم بتأسيس شركة جامعة  
لحفر القناة ، ووضع بموجبه الإلزامات والتعهدات والواجبات التى تكون على تلك  
الشركة ، مقابل المنح والامتيازات والمزايا المعطاة لها<sup>(١)</sup> .

أما أهم الإلزامات ، فهى وجوب تحويل بحيرة اتتمساح الى ميناء داخلية ، صالحة  
لإيواء أعظم السفن حجما ، ووجوب دفع مرتب مندوب تختاره الحكومة المصرية  
لينوب عنها ، ويحافظ على مصالحها لدى مجلس إدارة الشركة ، وإيجاد عامل عال للشركة  
فى الاسكندرية مخول له السلطة اللازمة لضمان سير العمل ، وانتظام العلاقات بين  
الشركة والحكومة المصرية ، فيما لو اختارت الشركة أن يكون مركز إدارتها فى مدينة

(١) أنظر : "مصر المعاصرة" لريشو ، ص ٢٧٢ وما يلحقها .

خارجة عن القطر المصري؛ ووجوب صرف خمسة عشر في المائة من صافي الأرباح السنوية للحكومة المصرية، على أن تزيد هذه النسبة كلما جددت مدة المنحة، وقدرها الأول ٩٩ عاما، بشرط أن لا يتجاوز تلك النسبة ٣٥ ٪ من صافي الأرباح في أى حال من الأحوال، وأن تحتس الشركة، وتمتع بالكلية، عن كل تمحيز وغرض في معاملاتها للسفن التجارية؛ فلا تخضع المتشعبة منها لأئمة على المتشعبة منها لغيرها؛ وأن لا تزيد رسوم الاجتياز التي ستقاضاها على عشرة فرنكات على كل طن من حمولة السفن، وعن كل فرد من المسافرين .

وأما المنح، فأهمها تخلى الحكومة المصرية للشركة عن ملكية جميع الأطنان البائرة غير المملوكة لأحد التي قد تروىها الشركة وتزرعها؛ وإعفاؤها من كل ضريبة، مدة عشر سنوات، ابتداء من تاريخ الشروع في تصليحها؛ وتسليم الحكومة للشركة كل الأطنان المملوكة للغير، التي قد يصبح امتلاك الشركة لها لازما لإتمام العمل واستغلال الامتياز الممنوح، على شرط أن تدفع الشركة لأصحابها التعويضات الحقة عنها؛ وإعفاء كل ما تستورده الشركة من الآلات والمواد من البلاد الأجنبية، من كل رسوم جمركية عند دخولها القطر المصري؛ وتمكين الشركة من حفر ترعة ماء عذب تذهب بمياه النيل الى أماكن الأعمال، وتكون ملكا لها، تستغلها استغلالها لباقي أجزاء امتيازها؛ والتصريح لها بإقامة المباني، التي ترى أن عملها يستوجبها؛ وتكليف عمال الحكومة وموظفيها، عموما بمساعدة الشركة وتمضيدها، كلما احتاجت الى ذلك، فيما تحتاج اليه؛ ووضع العدد الكافي من الفلاحين تحت تصرفها، لتشغلهم بمحرقها، وتحت ادارتها، في أى نوع تريده وترتيبه من الأعمال والأشغال اللازمة مقابل دفع أجور معقولة لهم، واتخاذ التدابير الصحية الواقية الواجبة .

غير أن (محمد سعيد باشا) كان قد اشترط لصحة الامتياز برئته ، أن يصدق عليه سلطان تركيا ، ولو أنه كان متفقا مع دى لسبس على اعتبار ذلك التصديق مجرد مظهر رسمي ، لا يؤبه له .

السي الى نيل  
تصديق السلطان  
العثماني على الامتياز

فذهب دى لسبس ، إذا ، الى القسطنطينية ، ليناله . فوجد الحكومة العثمانية ملشحة الى المشروع ، والسلطان نفسه ميال الى توافقه . وقال من الصدر الأعظم كتابا أكد له فيه الارتياح العام ، السائد على الدوائر السياسية العثمانية للموافقة على الامتياز الممنوح . فبات متيقنا من قرب صدور فرمان السلطان المنهي بتلك الموافقة . وإذا به يرى سفير إنجلترا ، السير ستراخورد دى ردكليف يقوم لمناقصته ، ويمنع في التصديق ، بإعاز من اللورد بليرستن وزير الخارجية الإنجليزية .

مقابلة  
للشرا

وكان للورد بليرستن هذا ، في ذلك العهد ، الكلمة العليا في الدوائر السياسية الأوروبية ، كما أنه كان للسير ستراخورد دى ردكليف النفوذ الأكبر على دوائر الأستانة الحكومية .

فدخل المشروع ، إذا ، في دور سياسي لم يكن دى لسبس يتوقعه ، وبدأ عهد مناقشات حيفة ، حاول خصوم المشروع التغلب عليه فيها ، بالاستناد على مزاعم أهمها : (أولا) أن المشروع وهمي خيالي ، لا سبيل الى تحقيقه ؛ (ثانيا) أن نفقاته ، على فرض تحقيقه ، نفقات المحافظة على التربة ، ومبانيها بعد خفوها ، تزيد جدلا على كل ما يمكن أن ينتظر من أرباح احتمالية من وراء تحقيقه ؛ (ثالثا) أن التربة المنوى عملها تفصل مصر عن تركيا فصلا باتا ، ويمكن الأولى من الاستقلال عن الثانية ؛ (رابعا) أن فتح برزخ السويس تهديد يوجه الى استتباب أقدام السلطنة البريطانية

في الهند ، فهو ، والحالة هذه ، خطر جسيم على مصالح بريطانيا العظمى السياسية والتجارية ؛ ( خامسا ) وأخيرا أن تحقيق المشروع خطره ، بنوع خاص ، على استقلال مصر حينها ؛ لأن تحقيق المشروع قد يجبر إنجلترا إجبارا على امتلاكها ، بينما هي لا تريد ذلك ، ولا يهتما من مصر إلا أن تكون الطريق التي تجتازها نحو الأملاك البريطانية الآسيوية ، آمنة ، سليمة .

وقد صبر اللورد بالميرستن عن هذا الفكر الأخير بما كتبه للورد كولي ، حيث قال : « نحن لسنا في حاجة الى مصر ، ولا نريد لها لأهنا ، أكثر مما يريد رجل عاقل ، له ملك في شمال إنجلترا ، بينما مقامه في جنوبها ، أن يمتلك جميع الفنادق القائمة على الطريق الموصلة الى الشمال ؛ غاية ما هو في حاجة اليه ، أن تكون الفنادق هذه معتمدا بها احتناء حصنا ، وأن تكون مفتوحة له في كل وقت يردعا ، ومستعدة تمام الاستعداد لأن تقدم له لهما حينما لا يملكه ، وخيلا بريدية تحمل عمل خيله المتعبة ! »

فدحض دى لسبس الزعم الأول ، دحضاً لم تعد تقوم معه لذلك الزعم قائمة ، برأى اللجنة الدولية الهندسية السالف ذكرها ؛ ودحض الزعم الثاني ، دحضاً نهائياً ، أيضا ، بتقرير شامل مفصل وضعه رجال فنيون خبيرون ، منهم اثنان بريطانيان ، بينوا فيه ، حسابيا ، مقدار أقصى ما تستوجبه التربة من النفقات ونفقات صيانتها ، ومقادير الإيرادات العائدة الى الشركة التي تقوم بحفرها ، والأرباح الناتجة لها عنها بالنسبة لمجموع حمولة السفن التي تمر منها ، ومحاصيل الأطنان الموهوبة اليها من الحكومة المصرية ، والتي ستباشر زراعتها ؛ ودحض الزعم الثالث بأقوال رسمية صادرة عن ( سعيد باشا ) ذاته ، أكد بها ولاءه للسلطان العثماني وعدم وجود مصلحة لنفسه في الانفصال عن تركيا ؛ ودحض الزعم الرابع بأن الواقع يكذبه ، وأن حفر

القرعة لا يغير شيئاً في أسباب نسبة الملاحة البريطانية الحالية الى ملاحه الدول الأخرى ، لأنه في استطاعة بريطانيا العظمى إبقاء تلك النسبة كما هي ، ودحض الزعم الأخير بقول ظاهر الصواب ، وهو أن حفر القرعة شرق مصر ، وفي برزخ رملي لا مصلحة للطرف فيه ، يخرج مصر في الحقيقة ، عن طريق بريطانيا العظمى الى أملاكها الآسيوية ، ويحول دون تضارب مطاعمها ومطامع فرنسا السياسية بمصر . وأنه إذا كان هناك ما يجبر بريطانيا العظمى على محاولة امتلاك مصر ، فائماً يكون ذلك بقاء طريقها الى أملاكها الآسيوية بحتة داخلية القطر المصري ، وشعورها ، ذات يوم ، بأن تلك الطريق باتت غير آمنة وغير سليمة .

فأدى ثبات دى لسبس وشجاعته ، من جهة ؛ وكون الحق القوي والمنطق في جانبه ، من جهة أخرى ؛ الى فوز المشروع على خصومه ومقاوميه ، وإلى إقبال الناس على الاكتتاب في أسهم الشركة العالمية المرغوب في تأسيسها ، للتمكن من إنجازه الى حيز الوجود .

تفيد (م)  
دى لسب

بيد أنه لولا وقوف (محمد سعيد باشا) بجانب صديقه ، وهو موطن عزمه وتوطينا وطيدا على تنفيذ المشروع مهما كلفه من قود ، ومهما اضطر الى التغلب عليه من صعوبات وعقبات ، والتعرض اليه من أخطار ؛ لولا إقباله إقبالاً صحيحاً على تقديم كل المتوفر عنده من مال في سنة ٥٤ هـ ، وقدره نحو مائة ألف ريال ، الى صديقه المذكور ، وإقدامه على إنشاء ترعة الماء العذب التي نيط بالشركة إنشاؤها ، على مصروفه الخاص وبأيدي مصريه ؛ لولا مشواره ، بمبلغ ينيف على ثلاثة ملايين من الجنيهات ، كل الأمهم الباقية معروضة للبيع ، التي لم تدر الشركة كيف تصرفها ، في أيام يؤمها الأولى ؛ ولولا وضعه بالقرمان الذي أصدره في ٢٠ يولييه سنة ١٨٥٦

العدد الكافي من الأيدي المصرية تحت تصرف الشركة ، لأخفق المشروع ولنفرق المساهمون أيدي ميا .

عل أن وقوف (سعيد) ذلك الموقف ، حيال استمرار المعارضة الإنجليزية ضخمة بتقل في الجوى ، تملأه صعبا ، تومض فيها البروق وتتوى الرعود ، كان من شأنه أن يجمع ، حول ذلك الأمير المتقلب الأهواء ، أسبابا متنوعة لمضايقة لانهائية لها ، تؤدى حتما الى إرهابه عسرا . وهو الأمر الذى وقع ، بفعله يتأمل ، ويقول للامميه ومؤاخذيه : « إنما أعطيت الامتياز ، بلا ترو لصديق وهو فرنساوى . نخطبوه ، أو خاطبوا حكومته . أما أنا فلست أستطيع سحب امتياز أعطيت<sup>(١)</sup> » .

ولكن ذلك لم يكن إلا ليزيد معارضة المعارضين ولحب الصاخين ، حتى زهقت نفس (سعيد) ، وأخذ التحول يأكل من بناءة جسمه . فقال دى لسبس له يوما : « ألا نذهب معا الى السودان ، فنبعد من القلاء ، ونصيب مرميين : (الأول) أننا نتمكن من التكلم في شؤون قناتنا ، وليس حولنا طائل ؛ و(الثاني) أنك تنظر بعينيك حال شعب ألقيت أحكامه اليك ، ويبلغنا أنه يش من الظلم الضابط عليه ؛ فنصلح حاله ، ونمد ظل السعادة فوقه<sup>(٢)</sup> ؟ » .

فطرب (سعيد) للفكرة ، وقام من وقته الى زيارته للسودان التي ذكرناها ، لما بلغ بربر إلا وقد أثارت شجون الويلات والمصائب التي رآها حقيقة بتلك الشعوب المسكينة .

(١) أنظر : "تذكارات أرمين تاما" لفردينان دى لسبس ، قلا من كتاب "أسرة فرنساوية : آل دى لسبس" ص ٣٤٩ و ٣٥٠

(٢) أنظر : "تذكارات أرمين تاما" لفردينان دى لسبس ، و "أسرة فرنساوية : آل دى لسبس" لبردييه ص ٣٥٠ ، و "هجرة دى لسبس" ج ١ ص ٥٤ ؛ باختلاف في الرماية .



فدخل دى لسبس عليه، يوما، وإذا به يبكي بكاء مخفيا. فسأله: «ما الذى يبكيك؟»  
قال: «أبكي على شقاء هذا المملأ، وصل ما فعلت به أسرتى. فان العرائض مفعمة  
بالشكاوى ترد الى، فى كل لحظة، من عموم طبقات الناس. وقد رأيت بعينى  
رأسى القرى التى أحرقها الدفردار صهرى ولم يسد للان بناؤها. هذا يؤس فوق  
طاقة الاحتمال. وقد عزمت على التخل عن السودان. فأتركه وشأنه، وأعود  
الى مصر!».

قال دى لسبس له: «هذا لن يكون. أنت لا تستطيع أن تعود بهذه الصفة،  
فأنا من وجه واجبك. أنت أمير متعلم ذو خبرة. فقفن لهذه الأمم، وأنشئ لها  
بلديات تهتم بشؤونها!».

قال (سعيد): «صبرت. وسترى فى ذلك همتي!».

فلما وصل الى شندى، اجتمع، حوله، أكثر من مائة ألف رجل. فقال لهم:  
«بلغنى أن الشيخ التركى الحالم على هذا البلد، منذ نيف وعشرين سنة، قد حبس  
صنده مدة أرقاء، وصل الأخص عبدا أوثق قيوده، فهو قد خالف بذا، وأمرى  
القاضية بمنع الاسترقاق. فأتونى به!».

فأطاعوه. فأمر بالتركي، فطرح على بطنه، وضرب مائة سوط، ثم غل بأغلال  
عبده. فصاح الجمهور: «الله! الله! هكذا يكون الإنصاف والعدل! وإلا، فلا  
فليحى الأمير!».

(١) انظر: "آل دى لسبس" لبريديه ص ٣٥٠، و"يومية دى لسبس" ج ٢ ص ٤ باختلاف

تلفظ فى الرماية، و"تلك كراوات أديين حاما" لفرديان دى لسبس ص ٤٨٦ ج ٢

فعاد (سعيد) الى غناطيتهم وقال : « أترون هذه الحصون التي أقامها والدي ، منذ نصف وأربعين سنة على ساحل النيل ؟ اذهبوا وخذوا المدافع التي فيها واطرحوها في النهر ! » .  
فهمس دى لسبس في أذنه ، قائلا : « إنك تتطرف ، فقد يستعملونها بعد رحيلنا ، ويستعملونها فيما قد يضرنا ! » .

فقال له (سعيد) : « لا تخف ! فهي غير صالحة <sup>(١)</sup> ! » .

ولما بلغوا الخرطوم ، وتمشوا هناك ، عشاءم الأول — وكان لدينا وفي محل معد إعدادا جيلا ، بالرغم من بعد الشقة — وقع عند نهاية الأكل ، حادث غريب .  
فان وجه (سعيد) أظلم بقاء ، وانتفخت شفتاه وعروق رقبتة . فأدلى طربوشه على عينيه ، حتى كاد يغطي نصف أفعه — وهو عمل كان يقدم عليه دائما في أوقات انفعالاته الشديدة — واهلقت صحته انقلابا خفيفا . فارتج الحاضرون ، وتساءلوا :  
« ماذا جرى ؟ » وإذا به نهض ، بخته ، وتناول سيفه وقذف به بعيدا على أريكة في آخر المجرة ، وصاح : « اتركوني ! لا تسألوني عن شيء ! » ففر الجميع ، مذهورين ! فقال (سعيد) لأحد أمنائه : « سربالمسيودي لسبس الى الأوبة التي أعلنت لي حالا ، وليتركني الكل ! » فوقع الوزراء في حيرة ، وضربوا أنماسا في أسداس ؛ لأنهم اعتقدوا أن حرارة الطقس قد أثرت في عقل الأمير فأورثته جنونا ، وهو على ذلك البعد السحيق من حاصته ! ولم يدروا ما العمل !

فلما كانت الساعة الثانية صباحا ، طلب (سعيد) أن يحضروا له حماما باردا .  
فدل ذلك على أنه أفاق من الحال التي كان فيها . وعند الساعة الثالثة ، أرسل الى

(١) أنظر : « حكمة دى لسبس » ج ٢ ص ٤ ، و « آله دى لسبس » لبريديه ص ٢٥٢ ، و « كذارات

أربعين عاما » لفردينان دى لسبس ص ٤٨٧ ج ٢

دى لسبس . فدخل فرنساوى عليه وانا به متكى على أريكة يدخن شبة بهدوء تام . فقال له : « أنت طلبت منى يا صديق ، أب أسمع لك بترعة على النيلين الأبيض والأزرق . فما قد جعلت تحت تصرفك مركبين وطبائى . اذهب وتتر كما تريد ! » .

فقال دى لسبس : « بنى أنك تطردنى . أجل . ولكنى أريد أن تعرفنى ، أولا ، ما الذى جرى لك البارحة ! » .

فلم يحبه (سعيد) الى طلبه . والذى دار فى خلد دى لسبس ، بناء على قرائن الأحوال هو أن (سعيدا) قال ، حتما ، فى نفسه : « هذا رجل أتى من باريس ، حيث ترك طائلته وأولاده ، وجاء الى الخرطوم على بعد نيف وألنى ميل عن مصر . فيفتح ذهنه هو ، الى نصيحة حسنة يبذلها لى ، وأنا لا يفتح ذهنى لها ؟ » وأن هذا الفكر هو الذى غيرده الى حد أخرجه عن دائرة صوابه ، حتى خطر له أن يثب عليه ويقتله ، فرمى بسيفه بعيدا ، لكيلا يظله الوسواس ، فيصير الى ما صار اليه الاسكندر الأكبر مع كليئس صديقه . ثم أراد إبعاده ، بعد ذلك بضعة أيام ، لكيلا تنسب اليه الإصلاحات الجميلة ، التى صمم على إدخالها على حالى السودان الادارية والاجتماعية ، بل تنسب هى وفانها اليه دون <sup>(١)</sup>سواه !

غير أنه فى سنة ١٨٥٧ عينها التى سافر (سعيد) فيها الى السودان ، شبت فى الهند الثورة العسكرية المشهورة التى كانت تقود بريطانيا العظمى تلك المستعمرة الغنية ، وتتزع من التاج البريطانى أجل وأثنى ماسة فيه .

(١) انظر : « تكذارات أربعين عاما » لفرديناند دى لسبس ، و « آل دى لسبس » له يديه ص ٢٥٣ ، و « هزيمة دى لسبس » ج ٢ ص ٦ وفيها بعض اختلاف فى الرواية .

فشعر الشعب الإنجليزي بأسره شعورا عميقا بمقدار الفائدة الناجمة له قبل غيره ،  
وأكثر من سواء ، من تقصير مدى السفر البحري بين شواطئ بلاده وشواطئ الشرق  
الأقصى ؛ وأخذ يقدّر مشروع دى لسبس حتى قدره ؛ وشرعت الدوائر التجارية  
والصناعية ، بل بعض الدوائر السياسية حينها ، تحبذ العمل ، وتستنكر معارضة الحكومة  
الإنجليزية له .

فباتت الطريق إذا ممهدة هناك ، أمام مجهودات دى لسبس ؛ وأصبحت الأرض  
صالحة لتنمو فيها بذور اقتناعاته . فلما أتم البلاد الإنجليزية ، لتوفير أذهان أهلها  
واستمالتهم الى مشروعه ، وجد من مظاهر الاحتفاء به ، والاكرام له ما قوت به عينه  
وانشرح له صدره . فخطب في نيف وخمسة عشر مجتمعا حافظا بفتايات التجارة  
ومندوبيات البلديات ، في لندن وأغبرها ، من أمهات المدن البريطانية . فقال لها  
كلها ، قرارات بصلاحية المشروع وكبير فائدته للتجارة على العموم والتجارة الإنجليزية  
على الأخص .

وحدث ذلك بزمرة من خيرة رجال البرلمان البريطاني الى القيام لتعظيمه ، وسؤال  
الحكومة رسميا في جلسة ٢ يونيه سنة ١٨٥٨ عما اذا كان في صزمها أن تساعد على  
نفاذ مشروع قناة السويس ، وتحمل الباب العالي على منح فرمان المطلوب له .  
فأثار هذا السؤال أحقاد اللورد بليرستن الكامنة ، وهيج غضبه . فلم يتركه  
وواجب المجاملة التي يقتضيها منه لفرنسا وحكومتها ؛ وانبرى للرد على السائل ،  
بمضاينة لا مزيد عليها ، قائلا : « إن الحكومة البريطانية أبعد من أن تمضد "نزعيلة"  
وطريقة نصب ، غرضها الاحتياطي على اقتناص أموال البسطاء ، بحجة نفاذ مشروع  
خيالى وهمي ، لا سهيل مطلقا الى قاده ! » .

فانضم مجلس النواب الى اللورد النبل ، ورفض السؤال والخوض فيه بأخيلية  
ساحقة .

لما كان من دى لبس إلا أنه أجاب على ذلك بإقلامه ، في ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ ،  
على نصح الاكتابات العامة في أسهم الشركة العالمية ، فرنسا وغيرها من الأقطار القريبة .  
ففاق النجاح كل ما كان ينتظر ، وغطى الاكتاب ستة مرات ! فلم تنقص  
سنة ١٨٥٨ إلا والشركة قد تأسست ، وتعين لها مجلس ادارة ، وبات وراء دى لبس  
بعضه ضد كل من يقاوم المشروع ، خمسة وعشرون ألف مساهم ، ورأس مال فرنساوى  
يزيد على مائة مليون من الفرنكات ، ويحتم على الحكومة الفرنسية أن تدافع عنه ،  
مهما رغبت في الوقوف على الحياد لعدم تعكير صفاء الحق السياسى بينها وبين إنجلترا .  
وربما كان للفتنة — التى ، على إثر رفض البرلمان البريطانى السؤال الذى وجهته  
اليه تلك الزمرة المتشورة من أعضائه ، قامت في جنة ، من أعمال شبه الجزيرة العربية ،  
وهاجم فيها خمسة آلاف متحمس قنصلى فرنسا وإنجلترا ، وقتلوا رجالها ، وقتلوا  
بنسائهما ، وارتكبوا من الآثام والمنكرات ما يحل عن وصفه القلم <sup>(١)</sup> — دخل في إقدام  
الناس ، لا سيما فرنساويين على الاكتاب في أسهم المشروع . كأنهم أرادوا بذلك  
أن يؤكدوا ، من جهة ، مشاطرتهم الأمير (محمد سعيد باشا) رأيه فيما قاله لدى لبس ،  
حينما بلغتهما أنباء تلك الفتنة ، وهو : « إن ترعتنا مستكفل يجعل عودة جنة أو غيرها  
من بلاد شبه الجزيرة العربية الى مثل هذه القظائع ، أمرا متعذرا ، لأنها ستعجز  
بلاد العرب بأسرها ، ولو بالرغم منها ، على أخذ نصيبها من الحركة الفرنسية <sup>(٢)</sup> ! » . وأن

(١) أنظر : "رسائل ديموية ومستندات" لفردينان دى لبس ج ٢ من ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠

(٢) أنظر : الكتاب السابق ذكره لدى لبس ج ٢ من ٢٩٨

يحتجوا ، من جهة أخرى ، على وقوف الحكومة الانجليزية ذلك الموقف الشاذ ، بعد أن أصدر العلم قراره النهائي ، بإمكان عمل الترمة ، وبات بالمرسنة ، رغم محاولته إخفاء عواطفه الحقيقية ، بقسوته وراء مزاعم باطلة ، لا يستطيع أن يمد الجناح على أنه إنما ظل يقاوم المشروع ، لأن مصدره فرنساي محض ، وأنه هو يكره فرنسا ، وكل ما يزيد في عظمتها ، لكونه من بقايا الحزب المتشعب بالسخط عليها ، وبوجوب منافستها ، دون غيرها .

البد ، في العمل

وفي ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ذهب المجلس المؤلف لإدارة الشركة ، برئاسة رئيسه المسويدي لسبس وزمرة من المهندسين ، إلى برزخ السويس ، من جهة البحر الأبيض المتوسط ، حيث قامت ، بعد ذلك ، مدينة بورسعيد الجميلة ، وحيث كان قد أحشد جمهور يربو على مائة وخمسين مائين فوق وطامل ، ونهض الرئيس بينهم ، خطيبا ، ويده فأس ، وقال :

« باسم شركة قناة السويس البحرية الكونية ، وبمقتضى قرارات مجلس إدارتها ، نضرب ، الآن ، أول ضربة فأس على هذه الأرض ، لفتح مداخل الشرق إلى تجارة الغرب ومدنيته ، ونحن متحدون ، هنا ، في إخلاص واحد لمصالح مساهمي الشركة ، ومصالح الأمير النبيل (محمد سعيد) منشئها الكريم والمحسن اليها صنعا<sup>(١)</sup> » .

وأقبل ينكس بفأسه التراب في الأخدود المختط ، لحفر الترمة فيه . واقتدى به جمهور الحاضرين . ثم قامت الأعمال على قدم وساق ، وأخذت لتتقدم منذ ذلك الحين ، بلا ملل ولا كلل ، وبدون انتظار ورود الأوامر السلطانية المؤذن بالتصديق على الامتياز المنوح .

(١) أنظر : "رسائل وجمعية ومستندات" لفرديناند سبس ج ٣ ص ٨٠

فهاج ذلك ضغط الحكومة الإنجليزية . فوطنت نفسها على تعطيل المشروع وإيقاف الأعمال ، مهما كلفها ذلك من المشاق . وأوعزت الى السير بلور سفيرها بالأستانة — وكان قد خلف ، هناك ، اللورد سترافورد دى رد كليف — بأن لا ينفك راجا على أنفاس الحكومة العثمانية ، حتى يقضى منها الوطر المرغوب .

فقال السير بلور في نفسه : « إننا اذا ترصنا الأمير (محمد سعيد) من إمارة مصر ، حبط المشروع برمته من تلقاء ذاته ، بسبب زوال مانح امتيازهِ ! » .  
وانفتق ذهنه في الحال ، الى تدبير وسيلة للوصول الى ذلك .

فاتفق مع الحكومة العثمانية على أن يقوم السلطان عبد الحميد لزيارة بيروت ، ويدعو الأمير (محمد سعيد) الى مقابله فيها . فلا يسهه إلا أن يجيب الطلب . فلما يلقي بنفسه بين يدي الحكومة العثمانية ، يقبض عليه ، ويشهر تمزده ، ويعلن خلعه ، ويولى غيره . ثم يطالب دى لسبس بالتوقف عن العمل ، لبطلان الأساس القائم ذلك العمل عليه ، وأعنى به حق الامتياز الممنوح من أميرعة من متبوعه متزدا ، لإقدامه على منحه إياه .

فوافقت الحكومة العثمانية على ذلك ، وأرسلت بريطانيا العظمى عمارة بحرية الى مياه الاسكندرية لمساعدتها على تنفيذ المنطق عليه (٢٣ يولييه سنة ١٨٥٩) .  
ولكن الانتصارات المتوالية التي أحرزتها الجيوش الفرنسية والحاربة في إيطاليا لتحرير هذا الاقليم من نير النمساويين ، رفعت من شأن فرنسا ، وزادت في هيبة نفوذها الى حد أن كلمتها أصبحت العليا في أوروبا ، وأن لندن والأستانة لم تعودا يهتمان على تنفيذ الخطة التي رسمتها نخيلة السير بلور للتخلص من مشروع ترعة

السويس . فأهمل السلطان أمر سفره الى بيروت — على أننا رأينا أن (محمد سعيد) قد زارها في تلك السنة حينها — وأقلمت العمارة البريطانية من مياه الاسكندرية .  
 फिर أن ذلك لم يقعد الحكومة الانجليزية عن معاكسة القناة؛ ومال زال السيد بلور بالباب العالي حتى حمله على ارسال مندوب يدعى مختار بك الى الأمير (محمد سعيد باشا) يحمل اليه الأمر السلطاني بإبطال الأعمال الجارية في البرزخ (أكتوبر سنة ١٨٥٩) .  
 فقد الأمير في حيرته جمعية من فتاحيل الدول العاتمة المقيمين بالاسكندرية ، وعرض الأمر عليهم . فلهشوا كلهم ولم يحيروا جوابا ؛ لأن دولهم بأجمعها — ما عدا انجلترا — كانت موافقة على المشروع ، مستحسنة له .

وإذا بالمسيو ساباتيه ، القنصل الفرنسي العام ، لحزازات نجحت بينه وبين رجال المشروع عن كيفية تشكيل مجلس ادارة الشركة ، قام وأعلن موافقته على مطالب الأستانة ، في وسط الاستغراب والبهت العامين .

فلم ير الأمير ، حينذاك ، بقا من الإذعان الى الأمر . وأخذ يفكر في كيفية اعلان صديقه دى لسبس به .

ولكن دى لسبس علم بما جرى في حينه . وهب لثلاثي النكة الموشكة أن تحمل به . فرفع الأمر ، مباشرة ، الى الامبراطور نابوليون الثالث ، ووسط لديه الامبراطورة أوجيني قريبة — وكان بينها وبين صاحب مشروع الترمه ، صلة رحم — وطلب التأييد على حكومة الأستانة ، تأييدا يجعلها على إلغاء الأوامر التي زودت مختار بك بها ، وعزل ساباتيه ، أو نقله الى قنصلية غير قنصلية الاسكندرية . فأجابه الامبراطور الى طلباته كلها . فتدخل لدى الباب العالي سماخلا فعالا ، كان الصدر الأعظم ، على باشا



يتفيه من صميم قواده، ليتمكن من الاستناد عليه في مخالفته لرؤايب السفير البريطاني، وإبطال الأوامر التي حملها مختار بك إلى الاسكندرية. وعزل ساباتيه عزلاً باتاً. لما زادت إنجلترا إلاً عتاداً وأصراراً على الفوز بمرامها. وأقبل قنصلها بالاسكندرية يخوف الأمير (محمد سعيد) من حواقب اكتتابه بالنيف والمائة والخمسين ألف سهم التي أخذها لحساب حكومته من أسهم الشركة الأربعة آلاف.

ولكن (سعيداً) لم يبال، وما زال واقفاً بجانب صديقه دى لسبس بعضده ويشجعه، حتى وافاه الأجل المحتوم. وكان دى لسبس قد رأى بين يديه، ذات يوم، عصاً جميلة أحضرها (سعيد) من لندن، أثناء زيارته لها. فأهداه أخرى أجمل منها صنفاً، لتقوم مقام تلك العصا الإنجليزية، وتكون تذكاراً منه لأبيه العزيز. فاتفق (سعيد) معه على أنه إذا دخل عليه ووجده قابضاً على عصاه هذه، يخاطبه في شأن القناة بلا خوف ولا وجل. وأما إذا دخل عليه، ووجد في يده العصا الإنجليزية فليفهم حالاً أن هناك حادثاً، وأن الكلام في شأن القناة لا يناسب.<sup>(١)</sup>

فلما آل زمام حكم القطر المصري إلى (اسماعيل)، أظهر لدى لسبس ارتياحه إلى القناة، ورغبته في أن يتم ذلك العمل الحيد في عهده، ليتشرف ويختبره أمام الأجيال المستقبلية. ووعده من تعظيمه له، وقيامه بتعهدات سلفه، الخير كله. ولكن ذلك كان عقب ارتقائه العرش مباشرة، في وقت لم يكن يدري فيه بالتقام ما هي تلك التعهدات—لأنه، لا سيما منذ أصبح إلى العهد، كان يحاشي التداخل

(١) أنظر: "أميرة فرسايه: آل دى لسبس" لبريديه ص ٢٦٧، و"تذكارات أربعين عاماً"

لبرديان دى لسبس، و"رسائل ديوية ومستندات" ج ٤ ص ٢٧٧

في أى شأن من شؤون الحكومة لم يكلفه عنه به ، منعا لاييجاد أسباب لوشاية دساس ، يبنى من إبدائها قريبا من (محمد سعيد) وحظوة لديه .

فلما وقف على حقيقتها ، امتعض امتعاضا لا مزيد عليه ، لما وجدته ناجما عنها من مشاركة الشركة لحكومته في صولتها ، وإدارتها ، ومالياتها ، وود لو أمكنه تعديلها بحيث يجوز الشركة من تلك المشاركة ، بدون حرمانها من أى امتياز تجارى ، أو مصلحي ، يضمنه امتيازها لها .

اطلاع (اسماعيل)  
على حقيقة  
تعهدات سلفه  
بامتياز

ثم لما تبين أن القناة إنما تعمل بأيدي فلاحى مصر ، وأن معظم النقود المنفقة عليها ، تعود مصرية ، ربما يتجمع رأس المال الأجنبي المكتسب به ، ود في صميمه لو تحمت الشركة عن المشروع له ، وتركته يقوم وحده ، يجوز الوسائل التى يبعدها من بلاده وفيها ، بذلك العمل الاجتماعى الجليل الفائدة . فلا يعود نخر انشائه وإتمامه إلا إليه ، وتعود معظم الفائدة الناجمة عنه الى قطره المصرى . فتجربى القناة شقيقه بكتولا جديدا ، بينا النيل يجرى في وسطه ، معين حياة وخيرات أبدية ، وقد صبر عن شعوره هذا بقوله : « إني إنما أريد القناة لمصر ، لا مصر للقناة ! » ولكنه ، لمعرفته أخلاق دى لسبس معرفة كافية ، كان متأكدا من أن الرجل لن يقبل من نفاذ مشروعه بنفسه ، مهما اضطره نفاذه الى المناضلة والمقاتلة عنه . فحصر فكره ، إنا ، في العمل على ازالة ما فى الامتياز ، الممنوح له ، من جائز على حقوق الحكومة المصرية السيادية . فان أدى ذلك الى تقضى الشركة عن المشروع ، مقابل تعويض

(١) الإكتول نهر فى إقليم ليديا بآسيا الصغرى كان يروى مدينة مرد ماسه ، ويدفق بها كان مصدر

الثروة الجسيمة التى جمعها قارون ملك ذلك الاقليم .

(٢) أنظر : "مصر" لمارونى ص ١٥١

موافق يمنع لها، كان خير ما يرام؛ وإلا، فإنه يكون قد فك عن ساعدى حكومته القيد الخلقى الحلقا الذى ظلهما به ذلك الامتياز؛ وأعنى بها :

(أولاً) ملزومية الحكومة المصرية بتقديم أربعة أنعماس العهل الذين تحتاج الشركة اليهم، ولو بلغ عددهم عشرين ألفا، بما يتبع ذلك من حق للشركة فى مطالبة الحكومة بتعويض فى حال قصيرها أو عجزها .

(ثانياً) ملكية الشركة لترعة الرى والملاحة النيلية، التى كلفها الامتياز الممنوح لها بعملها، وهى التركة الواجب أن تأخذها من مياه النيل عند مصر، لتذهب بها حتى بحيرة التمساح، حيث تنقسم الى قسمين، يذهبان عماديين للترعة البحرية : (أحدهما) شمالا، نحو البحر الأبيض، لغاية بورسعيد، و(الثانى) جنوبا، نحو البحر الأحمر، لغاية السويس . وحق الشركة فى رى الأطنان، الخاصة بالأفراد، المجاورة لها من مياهها، مقابل جعل لها وحدها، دون غيرها أن تربط مقدارها .

(ثالثاً) ملكية الشركة ملكية مطلقة، بدون مقابل، وبدون دفع أموال أميرية، لجميع الأطنان، غير المملوكة لأحد، التى قد تحتاج إليها فى عملها الترعين : البحرية الملحة والنيلية العذبة؛ وملكيتها المطلقة أيضا لجميع الأطنان التى قد تزويها وتفلحها، على شرط أن تدفع عنها أموالا بعد ماضى عشر سنوات من تاريخ الشروع فى تأهيلها للزراعة .

(رابعاً) سلطة الشركة التامة على التركة البحرية وضفتها، وتصرفها، دون غيرها، فى توسيعها التوسيع الذى ترغبه، وفى إقامة المباني التى تريدها؛ ومنع الحكومة المصرية من إقامة ما تريده من حصون على ضفافها؛ والافتراء بالنظر فى شؤون العاملين فى ورشها ومعاملها، والمقيمين على البرزخ الجارية أعمالها فيه .

(خامسا) وأخيرا : اضطراب الحكومة المصرية الى نزع ملكية الأتليان الخاصة بالأفراد، التي قد تحتاج الشركة اليها، لنفاذ أعمالها، أو استغلال امتيازها<sup>(١)</sup>.

فلما مع عزمه على هذا السعى، أقبل ينفذه، وهو لا يخشى في جهاده لومة لائم؛ لا لأنه لم يكن يقدر نقيجته حق قدرها؛ كلا — فانه لم يكن بالأمير الجاهل، مطموس البصيرة، العاجز عن أن يرى أن مقاومته لشركة قناة السويس، قد تصبئها الأهواء والأغراض بصيغة غير صبيغتها الحقيقية؛ فترسم أمام العالم المتمدين وأمام التاريخ في صورة الظالم النقي، البازل جهده في القضاء على أعظم مشروع، بل أعظم عمل أبرزه القرن التاسع عشر الى الوجود، وأقدم على تنفيذه؛ وفي صورة الأحمق الباحث على ائتلاف ما هو حقيق باعتباره خير جوهرة في جواهر ملكه — ولكن، لاعتقاده أن واجبه، بصفتة ولي أمر الحكومة المصرية، المسؤول عن استقلال البلاد، والاستقلال الداخلي النوعي الذي ضمته لها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، والقرائنات السلطانية الصادرة مؤذنة بالتصديق على قراراتها، يحتم عليه إزالة الحكومة التي أصبحت للشركة ضمن حكومته. فأقدم إنا على ذلك، وهو مرطاح الوجدان مطمئن القلب، واثق من أن نيائه الحقيقية، وصراميه الفعلية لن تلبث أن تظهر للآل : فيمتدحه قادحوه، ويفهمه نفس أصحاب المصالح المخائرة لمصلحته.

فأقول خطوة خطاها في هذا السبيل، الانفاق الذي أبرمه، على يد نوبار بك مع الشركة بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ — أي بعد ارتقاء العرش بشهرين — فانه أحل بموجبه الحكومة المصرية محل الشركة في القيام بوصل ترمة المساء العذب

بد النزاع  
بين (اسماعيل)  
وولي لسياس

(١) أنظر : بنود الامتياز المنوح من (محمد سعيد باشا) في مريش : "مصر المعاصرة" ص ٢٧٢ وما يليها.

الناهبة من الزقازيق الى بحيرة التمساح فالى السويس جنوبا ، وبور سعيد شرقا ،  
بالنيل عند مصر ، وذلك اجتنابا للتنازعات المتوقعة لمجورها ، حتما ، عن نزع ملكية  
الأطيان الخاصة بالأفراد ، واللازمة لحفر مجرى التربة من مصر الى الزقازيق ، واحتراما  
لمصالح الحكومة المصرية <sup>(١)</sup> .

وثاني خطوة ، الاتفاق المالى الذى عقده مع الشركة ، على يد مندوبه حينه  
فى ٢٠ مارس سنة ١٨٦٣ - أى بعد الاتفاق الأول بيومين - فانه قرر بمقتضاه ،  
المطلوب من حكومته ، حتى ذلك اليوم عن الـ ١٧٧٦٤٢ سهما التى اكتب بها  
الأمير ( محمد سعيد ) ، ورتب كيفية دفعه ، وحفظ لحكومته الحق فى الاتفاق مع  
الشركة على كيفية دفع الخمسين الباقين من ثمن كل سهم ، حينما تطالب الشركة  
مساهميا بها <sup>(٢)</sup> .

ثم دخل فى المعصة بصراحة ، وأخذ يضرب على القيد الخلقى الحلقات ، بقوة  
وحكمة متمرجحين معا ، امتزاجا لطيفا ، لا سيما وأنه كان قد اتفق على العمل مقدما مع  
الحكومة العثمانية ، ووضع كلاهما خطة السبر الواجب اتباعها .

فارتكن على اعلانه رغبته فى ابطال السخرة ، وحل أن السخرة فى حد ذاتها أمر  
كريم ، من الوجهة الانسانية ، تأبى روح الانصاف وتفر روح العدالة منه ،  
ليطلب الى الشركة تنازلا من حقها فى مطالبة الحكومة المصرية بالعمال الذين هم  
فى حاجة اليهم ، لأنها تشغلهم سخرة ، ولو أنها تدفع لهم فى الحقيقة أجرة انتظام من

(١) أنظر ، صورة هذا الاتفاق فى "رسائل ومروية ومستندات" لفردينان دى ليس من ٢٨٩

وما يلها ج ٤ .

(٢) أنظر ، صورة هذا الاتفاق فى الكتاب عينه ج ٤ من ٢٨٢ وما يلها .

قراهم الى البرزخ ومنه اليها إياها، مهما جعلت شقتها عنه ، وتدفع لهم أجورا يومية على نسبة أهل مما يدفع من نوعها لأمتهم في البلاد ، وانها تقدم لهم فوق ذلك المأكل والمأوى ، وتقوم بشؤون علاجهم في حال مرضهم ، مع احتساب أجرهم لهم مدة معينة ، بالرغم من انقطاعهم عن العمل ، وهم يعالجون في المستشفيات التي تمهدت بانشائها لهم .

وارتكن على أن احتياج الشركة ، بسبب الأعمال البخارية في البرزخ ، الى ترعة تذهب بمياه النيل العذبة الى أماكن العمل المتعددة ، والى مدينة بور سعيد التي أنشأتها حديثا ، من جهة ، ومدينة السويس ، من جهة أخرى ، وتكون صالحة للإحالة النيلية معا ، إن برز مطالبة الشركة للحكومة المصرية بتأمينها الى الأبد من الانتفاع والاستفادة من تلك التربة ، ومطالبتها بالتعهد لها بالمحافظة عليها وعلى منسوبها ، مهما تنوعت طوارئ الحدثن ، لا يترتب تلك الشركة لها تملك مطلقا . لأن الترع التي على شاكلتها ، بصفتها منفعة من المنافع العمومية ، لمن الأشياء التي لا يجوز تملكها للأفراد ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وأمسوا وحدة دعوها "شركة" ولأن تملكها حق من حقوق الحكومة في جميع الأقطار ، لا يشاركها أحد فيه .

وارتكن على أن انخرائط والتصميمات المنصوص عنها في المادة الثامنة من فرمان الامتياز المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، والمادة الحادية عشرة من فرمان الامتياز الثاني المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ — وهي المطلوبة لبيان وتحديد مساحة الأطنان اللازمة لتأمين الشركة من القيام بنفاذ مشروعها ، وعمل الترعين البحرية والنيلية — لم تصنع حتى ذلك العهد ، لمطالبة الشركة بمصر مزاياها التملكية للأطيان غير المملوكة لأحد ، ضمن حدود الاعتدال والمعقول ، والاتفاق مع الحكومة المصرية على

حقيقة المساحة اللازمة لها في الصحيح ، لتتمكن من ضمان نجاح مشروعها ، والتخل عما عداها من الأطنان الأخرى التي وضعت يدها عليها ، استنادا على المادة الرابعة من فرمان الأول ، والمادة العاشرة من فرمان الثاني .

وارتكن على أن قوانين الدولة العلية لا تتيح التنازل لأجنبي عن ملكية أرض في دائرة ولاياتها ، إلا بفرمان خاص يصدر من لندن الحضرة الشاهانية ، وعلى أن مصر إنما هي ولاية — وإن كانت ممتازة ومتمتة باستقلال داخل — من ولايات الدولة العثمانية ، وأن قوانين الدولة التملكية تنطبق إذا طمها بلا مرء ولا جملال ، ليطالب الشركة بالتخل عن جميع الأطنان غير المملوكة لأحد التي آلت إليها ملكيتها بموجب نصوص فرمانين ، لقيامها برها وفلاحتها ، وبتحرير الحكومة المصرية بالتالي ، من حلقة القيد الخامسة والأخيرة الناجمة لها عن نص المادة الثانية عشرة من فرمان الثاني .

وارتكن على منطوق آخر فقرة في المادة الرابعة من فرمان الأول ، وعلى حقوق الدولة السيادية المعترف بها في كل صقع ، لمطالبة الشركة بالخضوع لحق الحكومة المصرية ، في تحديد اتساع التربة ، واقامه ما تشاء على ضفافها من استحكامات حرية وحصون ، وفي سيطرتها ، دون سواها ، على عموم رعاياها المنتشرين في البرزخ والعالمين في معامل الشركة وورشها .

وبعد أن اغتم فرصة وجود السلطان عبد العزيز ووزيره فراد باشا بمصر ، واستوفى من بقائهما على العهد الذي اتفق عليه معهما ، أثناء اقامته بالأستانة ، عهد الى وزيره نوبار — وكان السلطان عبد العزيز قد أنعم عليه برتبة الباشوية الرفيعة — في مهمة الاتفاق مع دى لسبس على ازالة ذلك القيد الخناسي الملقات بالتى هي أحسن .

فشرع ذلك السيامى الحاذق يتخابر مع "الفرنساوى العظيم" — كادعى "بجبتا" دى لسبس — عساه أن يصل الى اقناعه بقبول طلبات (اسماعيل) .

ولكنه لم يفلح ؛ لأن الأمير انما كان يريد أن يدرك أغراضه بدون دفع أى تعويض ؛ لزمه أن الشركة ، باقتسامها على الأعمال ، قبل نيلها مصادقة السلطان العثمانى على الامتياز المتروح لها ، مع ذكر وجوب حصولها عليه فى نص ذلك الامتياز ، قد ارتكبت خطأ اختياريا ، عليها أن تتحمل ، دون غيرها ، عواقبه ؛ وأنها والحالة هذه ، غير عذقة فى مطالبة النير — والحكومة المصرية أقل من سواها — بأى تعويض عن الأضرار التى قد تتجيم من تجاوز وقعت فى شره . ودى لسبس ، من جهته ، اذا وجد من نفسه ميلا الى التسليم ببعض مزاعم الأمير ، وطلباته ، حتى بدون تعويض ، كالطلب الأخير ، مثلا ، لم يكن يستطيع أن يسلم بها كلها ، ولا سيما بما كان منها مختصا بالعمال والأطيان ، إلا مقابل تعويضات كبيرة تمكنه من نجاح مشروعه ؛ إلا اذا كان مستعدا — ولم يكنه — الى اطراح العمل بأمره جانبا ، والتخل عنه .

فلما لم تجدد المفاوضات بمصر نفعا ، أمر (اسماعيل) فوبار بالرجيل الى الأستانة ، والسعى لدى أولى الأمر ، هناك ، فى اتمام المتفق عليه بينه وبينهم والاستعانة ، على إنجاز مهمته ، بما لم يزل قائما من عهد الشروع فى نفس الدولة البريطانية وسفيريها فى تلك العاصمة . ولم يبال بأن يقال عنه إنه آله فى أيدى اللورد بليرستن والحكومة الانجليزية ؛ وأن ينسب اليه مما لائهما على هواهما بمالأة مبيلة على الاعتقاد بأن بريطانيا العظمى ، بعد حوادث سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٥٦ ؛ وبعد إجبارها فرنسا ، بالرغم من انتصاراتها الإيطالية فى سنة ١٨٥٩ ، على الجلاء عن سورية بعد سنة ١٨٦٠ ، أصبحت صاحبة القدر المحل فى ميادين السياسة



العالمية ، وصاحبة النفوذ الأكبر في القسطنطينية ؛ وأصبح استعجاب رضاها ، إذا ، للاعتماد عليها ، فيما بعد ، لتحقيق المطامع الشخصية ، أمرا مرغوبا فيه .

ولكى لا يكون هناك شك في أنه إنما يحارب ما هو متجاوز حد الاعتدال في الانتياز الممنوح للشركة ، لا مشروع الفتاة نفسه ، أمر نوبار بأن يحرص مهنته في طلب ونيل الأغراض الآتية من حكومة الأستانة وهي :

(أولا) إعادة الأتليان المعطاة للشركة من (سعيد) سلفه الى الحكومة المصرية .  
(ثانيا) منع إقامة حصون واستحكامات حربية على شاطئ القناة مطلقا ، وحفظ شكله التجاري المحض الذي أنشئ من أجله :

(ثالثا) إلغاء الشرط الموجب على الحكومة المصرية تقديم العمل من قبلها الى الشركة . فإن لم يمكن ، فتخفيض عدد من عشرين ألفا الى ستة آلاف ؛ ورفع أجورهم ، مع إعفائهم من الخضوع لسيطرة الشركة لكي يستمروا خاضعين لحكومتهم المصرية فقط .

فسافر نوبار الى الأستانة في شهر يوليو سنة ١٨٦٣ ، ونجح في مهنته النجاح المنتظر . فاستصدر من الباب العالي أمرا الى (اسماعيل) يحتم عليه عرض المطالب الثلاثة المبينة أعلاه على رئيس الشركة ، وأعضاء مجلس إدارتها ، فإن قبلوها في ظرف ستة أشهر ، فيها ، وإلا فتوقف الأشغال بالقوة الجبرية .

ثم رحل الى باريس ، لعلمه أن الأمر سيرفع حتما إليها ، وأنه يجدر به إذا أن يمهّد الطريق هناك على الأخص لنجاح مطالب ميده .

(١) انظر : "رسائل ديمية ومستندات" لفردينان دي لسيه ص ٣٥٠

فابنغ (اسماعيل) في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ أمر الباب العالي الى المسيودي لسبس  
وبجلس ادارة الشركة، فامتعضا له، أيما امتعاض، وحررا في ٢٩ من الشهر عينه الى  
الامبراطور نابوليون الثالث كتابا حاد الشعور، طلبا فيه عنايته بالأمر.

ولتقدير دي لسبس الخطر حق قدره، وتيقنه من أن المكاتبات لا تجدى ما يجدى  
الكلام والعمل، سافر بنفسه الى باريس، ليتاضل خصمه، هناك، في ذات الميدان  
الذي اختاره للتنضال.

فلارت بينه وبين نوبار أدوار مبارزة كلامية وصحفية سياسية، استلقت اليها  
أنظار العالم المتمدين كله، وأثارت شجونا، وأفعالات متعددة مختلفة.

التضال بين  
دي لسبس ونوبار

وكان نوبار قد اكتسب ثقة الدوق دي مرني، صنو نابوليون الثالث، واستوثق  
من تعضيدته الفعال. فاعتقد أن الفوز بات، حتما، حليفه، لما كان لذلك الدوق  
القدير من التأثير على روح الامبراطور، والتفوذ لديه. ولكن دي لسبس، من جهته،  
كان مستوحا من انعطاف الامبراطورة قريبتها، على المشروع، ومن تعضيدتها له،  
تعضيدا لايبالي بالعقبات والصعوبات، ولو أنه خفى. فطلب اليها أن تحمل الامبراطور  
على رفض تنازل دي مرني في الأمر، وأن يمهّد النظر فيه الى المسيودي لويس  
وزير الخارجية الفرنسية. وأفلح في طلبه.

غير أن النقود اشتغلت، من وراء الستار، وبذلت عن سعة. فقامت الجرائد  
المعادية للشروع في انجاسترا تظلم طعننا المتر المتداد عليه، وتفسه أحلام القائمين به،  
وترميمهم بالمتالب والمطامع الشخصية، والعمل على تحقيقها دون سواها. وتصادى  
بالويل والثبور على استخدام السخرة في سبيل انشاء تلك التركة، معلنة منافاة ذلك

لمبادئ الإنسانية والمدنية الأوروبية . وانضمت اليها في حملاتها بعض الجرائد الفرنسية عينها، لا بل بعض كبار الكتاب والمفكرين، ومنهم بارادول؛ فانه سئل من بعضهم ، عند عودته من القطار المصري : « هل ذهبت لمشاهدة أعمال ترعة السويس؟ » فأجاب بتميز : « لم أذهب ، ولو ذهبت لجلعتها خراباً ! » .

غير أن جرائد أخرى، في عموم الدول الأوروبية، قامت تتافع عن المشروع وتحبذه، وتدافع عن حقوق الشركة وتعضدها . وأثار دى لسبس الرأي العام الفرنسي وهيج عواطفه الوطنية بأن صوّره المشروع فرنساويا محضاً ، وأفهمه بأنه إنما يضرطه ويقاوم لفرنساويته ، وأن الشرف الفرنسي أصبح ، إذاً ، متعلقاً بتنفاذه . وبلغ من دفاعه عن حسن سمعة مشروعه ، أنه قدم نوبار باشا نوبار ، بصفته الشخصية ، لا بصفته مندوب (اسماعيل) الى محكمة جنح السين ، متهما إياه بنشر كتابات ومستندات مزورة ثلابة ، من شأنها إحباط نهضة مساهمي الشركة بمشروعها ، وهتك ناموس القانونين به <sup>(٢)</sup> .

سوق (نوبار) الى  
محكمة جنح السين

فدفع محامو نوبار التهمة بابرار كاتب مرسل من الدوق دى مرني الى موكلهم ، يبرر عمله ويعده بتعضيد الامبراطور . فأعلم دى لسبس الامبراطورة أوجيني بالواقع ، وتشد في طلب إبعاد دى مرني عن الأمر ، ولم يحجم عن استناض همم مواطنيه ، لا سيما كبارهم ، لحملهم على الوقوف بجانبه وقولاً يرغم ويقهر الخصوم ، ويخيب مساعيهم .

(١) أنظر : في " رسائل ويومية ومستندات " لفردينان دى لسبس أقوال الجرائد الانجليزية .

ج ٤ ص ٣٢١

(٢) أنظر : الكتاب ص ٣٧٩

ولاية ١١ فبراير  
سنة ١٨٦٤

فأقام سريلوه وجبة له بباريس في ١١ فبراير سنة ١٨٦٤، تحت رئاسة الرئيس  
چيروم نابوليون، وبحضور نيف وألف وستمئة مدعو، أقيمت فيها الخطب الزائدة،  
مطالبة بإزالة كل عقبة من طريق إنشاء تلك التركة، وأهمها خطبة رئيس الحملة  
نفسه، وخطبة المسيو دي لسبس، وخطبة المسيو ديبين، من كبار رجال الشرع  
والقضاء بفرنسا<sup>(١)</sup>.

أما الرئيس فانه، بعد أن أحرق بخور الثناء والمدح (لإسماعيل)، وأعترف بأنه  
إنما يقام دي لسبس وشركته، لا لرغبة منه في تعطيل مشروع القناة، ولكن  
لرغبته في أن يقوم، هو نفسه، بإنجاز ذلك العمل الخطير، أنكر عليه مقدرة على  
القيام بذلك، واستشهد على صحة قوله بزعم زعمه له موجيليك، مؤكداً أن مصر،  
بعد أن صرفت نيفا وعشرين مليوناً من الفرنكات على إنشاء القناطر الخيرية، حرمت  
نفسها الاستفادة منها، لضئها بمليون ونعمائة ألف فرنك أخرى، ثمن الأبواب التي  
كانت تلك القناطر في احتياج إليها. فتركها، إذا، تؤول إلى الخراب لتعود همتها  
عن اتفاق ذلك المبلغ اليسير الباقي، المطلوب لتمام عملها، وشبه الشرقيين على  
العموم، في مشاريعهم وأعمالهم "برجل يفقد بنطلونه، لإهماله خياطة زرينقصه!"  
وختم خطبته بنصيحة أسداها للشركة بأن تطرق باب التصالح مع الحكومة المصرية  
على مبدأ منع السخرة، ورد الأتليان مقابل عوض معقول.

وأما المسيو دي لسبس، فبعد أن شرح أغراض الشركة ومراميها، ونتيجة  
ماوصلت إليه في أعمالها، ومقدار الخير الذي أسدته إلى الصحراء الواقعة بين الزقازيق

(١) أنظر: هذه الخطب في "رسائل ديموية ومستندات" لفردينان دي لسبس ج ٤ ص ٣٨٧

والسويس، بحفرها التربة التي أوصلت مياه النيل الحلوة إليها، فأحيتها، ومقدار ما يجب أن يلتقط من نجاحها، بعد تمكنها من جلب مياه البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة التمساح — لأن هذا هو العمل الذي قعدت دون إتمامه همة السلف؛ وأما إيصال القلزم بتلك البحيرة عنها، فقد قام الأقدمون به، وفذته أيضا الأعصر الوسطى — قال إن الشركة لا ترفض الاتفاق مع الحكومة المصرية، ولكن على شروط تلائم مبادئ الحق والانصاف، وتراعى ماوصل إليه المشروع، والتعهدات التي في حياته؛ فلا تقف في سبيل نجاحه.

وأما المسيو ديبين، فانه، بعد أن أقر مشروعية أعمال الشركة، ولو أنه لم يصدر، إلى ذلك الحين، فرمان سلطاني يؤيد الامتياز الممنوح لها، أبدى أمله بأن تزول كل عقبة، سرعا، من سبيل المشروع وتحقيقه، فتحوّل ترعة السويس من "ترعة عواصف" إلى "ترعة رجاء صالح" مشيرا إلى ما أجاب به ملك البرتغال (عمانوئيل السعيد) أمير سفن الجسور، برتلماؤس دياز. فان هذا البحري المقدم، لما روى لذلك الملك السعيد الطالع حوادث رحلته حول شاطئ أفريقيا الغربي من شماله إلى جنوبه، ووصوله، في محاولته بلوغ بحار الهند، إلى أقصى رؤوس تلك القارة، جنوبا، واصطدامه هناك بزواجر وعواصف وأنواء حالت دون تخطيه، بما أفزعت من قلوب بحارته وخيلاتهم، وما أسقطت من همهم، قال للملك: «اني قد رأيت، إذا، أن أسمى ذلك الرأس "رأس العواصف"!» فقال الملك: «كلا، بل ندموه "رأس الرجاء الصالح"» تيمنا بالخير في المستقبل! والا ثبطنا الهمم، وعقنا الإقدام!». فكان لتلك الوثيمة، وانحطبت التي ألقيت فيها، وقع في قلوب الأمة الفرنسية، وفي العالم المفكر برمتها، دوى صدهاء ممتمة مديدة.

حكم نابليون  
الثالث

فرأى (اسماعيل) أن الرأي العام المتعدين قد يتجدد ، فيضلل به ، فيحول ذلك دون بلوغه مطالبه الحق . فكتب نابليون الثالث رأسا ، واختاره حكما بينه وبين الشركة ، وقبل دى لسيس والشركة التحكيم بسرور فائق .

فامر نابليون بتشكيل لجنة من رجال ذوى نزاهة مشهورة تحت رئاسة وزير خارجيته المسيو دى لويس ، للبحث فى الأمر من جميع وجوهه ، ودرسه درسا دقيقا . فوالت اللجنة المذاكرة والدرس ثلاثة أشهر متوالية ، ثم رفعت الى الامبراطور نتيجة ما وصلت اليه مباحثها .

حكم نابليون  
الثالث

فأصدر الامبراطور حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ ، وقرر ما يأتى :  
(أولا) اعادة ستة آلاف فدان من الأقطان الممنوحة للشركة ، الى الحكومة المصرية ، بتخفيض مقدار الأرض التى كانت للشركة على جانبي التربة من كيلومتر الى ستين مترا .  
(ثانيا) اعادة جميع الأقطان التى باشرت الشركة فلاحتها وزرعها وقدرها ٦٣٤ ألف هكتار ، الى الحكومة ، على أن لا تبقى لتفعلها منها سوى ثلاثة آلاف هكتار .  
(ثالثا) تحل الشركة للحكومة المصرية من كل حق فى مد التربة ذات الماء العذب من مصر الى السويس وبور سعيد ، والزام الحكومة المصرية بمدها — وهى التربة المعروفة الآن "بالاسماعيلية" — مع حفظ حق الشركة فى الانتفاع بها .  
(رابعا) ابطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة المصرية بالعمال إلا على سبيل العارية المأجورة .

(خامسا) الزام الحكومة المصرية ، مقابل ذلك جميعه ، وعلى سبيل التمويض ، بدفع مبلغ ٨٤ مليوناً من الفرنكات<sup>(١)</sup> .

(١) انظر صورة هذا القرار فى "رسائل ويومية ومستندات" لفردينان دى لسيس ج ٤ ص ١٧٦ وما يلحقها .

فهاز (اسماعيل) بالفرض الذي رعى اليه ، ولم يستكثر في سبيل فوزه ، المبالغ الجمة التي أنفقها في تمهيد الطريق ، بين الأستانة وأوروبا ، ولا المبلغ الجسيم الذي ألزمه بدفعه الحكم الصادر من نابليون الثالث .

ولكى يثبت للأمة ، في نزاعه مع شركة القناة ، انما سعى الى تحرير بلاده من قيد كانت مغلوطة به ، لا الى الإضرار بالمشروع العظيم ، أبرم مع الشركة في ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ اتفاقا حفظ بمقتضاه للحكومة المصرية الحق : (أولا) في اقامة كل التحصينات والاسمحكامات الحربية التي تراها لازمة لحماية القطر ، على الأراضي المحتلة حرم للقناة البحرية ، على شرط ألا تتجمل منها حوائط الملاحة ، و(ثانيا) في إشغال ما تراه من تلك الأراضي بتشيدات تنفذها لمصالحها كالبريد والجمرك والشككات العسكرية وخلافها ، على شرط أن لا تكون عقبة في سبيل استغلال الشركة امتيازها ، وأن تدفع الحكومة لها ثمن الأراضي التي تشغلها ، كما أنه حفظ للأفراد الراغبين في الاقامة على شواطئ التربة البحرية ، أو في المدن المقامة على طول مسيرها ، الحق في حيازة ما يرونه من الأراضي اللازمة لتشيداتهم ، على شرط أن لا تزيد على فدان فرنساوي (أكبر) ، وأن يخضعوا لقوانين البلاد وطوائها ، ويدفعوا الضرائب ، أسوة بباقي سكانها ، وأن لا يقيموا منازلهم حيث يعوقون الملاحة ، ويدفعوا للشركة ثمن الأرض التي يرضون فيها .

وتنازلات الشركة للحكومة المصرية ، بموجب هذا الاتفاق ، عن جميع المباني المقامة منها لمصالحها على ضفاف ترعة الماء المنب ، من الزقازيق الى السويس ، بمنها الأصلي ، على أن تخرجها الحكومة لما يواقع هـ . / ستويا من رأس المال المستد إليها ، وبما أنها كانت قد اشترت من شركة إلهامى باشا ، حفشيش الوادى كله ، وكان

بهم الحكومة المصرية استرداده ، ضمن الأطنان الأخرى التي قضى حكم نابوليون بإعادتها إليها ، فقد باعته الشركة لها بمبانيه ومشمولاته ، بموجب الاتفاق ذاته ، بمبلغ عشرة ملايين من الفرنكات .

وافق الفريقان على أن يكون دفع جميع المبالغ التي أصبحت الحكومة المصرية مدينة بها للشركة ، على أقساط شهرية متساوية ، تبدأ في أول يولييه سنة ١٨٦٦ ، وتنتهى في أول ديسمبر سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup>

ثم أبرم في ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاق أخرج الشركة لخص فيه فرمانا ( سعيد ) وكل ما تلاهما من اتفاقيات بين ( اسماعيل ) والشركة ، وما حكم به نابوليون ، وما ذكر في اتفاق ٣٠ يناير السابق ، ليأخذ الكل شكلا نهائيا تصادق عليه حكومة الأسنانه ، كطلبها . لحفظ ( اسماعيل ) فيه لحكومته الحق في أن يشرف البوليس المصرى على عموم التركة البحرية ، وتوابعها وملحقاتها ، ليقر الأمن ، ويقيم حدود الشرائع والقوانين فيها ، كما أنه حفظ حق مرور المواصلات ، والتجارة ، والناس جميعا ، بدون دفع أى رسم كان ، في النقط التي تختارها حكومته على ضفاف التركة ، ولا اعتبار الشركة مصرية ، ولو أنها مؤلفة من عناصر دنولية ، اتفق معها على أن يكون الفصل في المنازعات الناشئة بين أفرادها ، وانحصار بتكوينها ، فقط من اختصاص المحاكم الفرنسية ، والفصل ، فيما عدا ذلك من المنازعات ، من اختصاص المحاكم المحلية دون غيرها<sup>(٢)</sup> .

وكان الباب العالى قد ماطل جتدا ، بتأثير الدوائر الرسمية البريطانية المخفى في الأسنانه ، في منح التصديق المطلوب على فرمانى ( سعيد ) ، بالرغم من انذار أرسله اليه الامبراطور

(١) انظر : نص هذا الاتفاق في "رسائل ديومية ومستندات" لقردينان دى لىس ج ٥ ص ٢٢٧

وما يلحقها مساحة أطنان خمسين الف رادى غير مذكورة .

(٢) انظر : نص هذا الاتفاق في الكتاب ج ٥ ص ٢٣١ وما يلحقها .



نابوليون الثالث، بناء على الحاح دى لسبس . ولكنه اتفق أن فؤادا باشا، الصدر الأعظم، كان يتعاجل في جنوب فرنسا، لما حلت ركاب الامبراطور بموسيليا، في ذهابه الى الجزائر، متفقدا . فذهب فؤاد الى مقابلته ولكن الامبراطور أعرض عنه، ولم يلتفت اليه، ولا رد له سلامه . فاضطرب لذلك الصدر الأعظم، واستفهم عن السبب . فرد عليه بكلمة واحدة : «فرمان» . لما انقضى أسبوع واحد إلا وصدر، في ٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ و ١٩ مارس سنة ١٨٦٦، فرمان التصديق على اتفاقية ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ السابق ذكره . وقد قل دى لسبس في هذا الصدد : «لقد صدق المثل العربي القائل : "أوقية خوف أفيد من قنطار صداقة"»<sup>(١)</sup> .

وفي ٢٣ أبريل سنة ١٨٦٩ أبرم (اسماعيل) آخر اتفاقاته في سبيل استعادة آخر حقوق دولته السيادية الباقية في يد الشركة . فترع بمقتضاها منها، مقابل مبلغ عشرين مليون فرنك، حق إعفاء مستورداتها من الخارج من الضرائب الجمركية؛ وألزمها بأن تدفع، على مراكبها وسفنها المانعة في مياه ترعة الاسماعيليه، الرسوم التي تدفعها المراكب والسفن المصرية؛ وأن تخضع للوائح السنوتة؛ وأن تتنازل للحكومة المصرية عن القيام بخدمة البريد والتلغراف، لها ولجمهور، غير حافظة لنفسها إلا تلغرافا خاصا بخدمتها الداخلية؛ وأن تخلى للحكومة حينها عن رسوم الصيد في التربة والبحيرات؛ وتشركها، بواقع النصف، في الانتفاع بأثمان الأراضي التي تبيعها الشركة من الأطيان التابعة لها، والخاصة بها، طبقا لنصوص المعاهدات السابقة؛ وأن تتنازل لها، مقابل عشرة ملايين أخرى من الفرنكات، عن كل المستشفيات المقامة على البرزخ بمشتملاتها،

(١) انظر: «اميرة فرناوية» و«آل دى لسبس» لبريدييه ص ٣٨١، و«منشأ ترعة السويس»

لفردينان دى لسبس ص ٢١٩ و ٢٢٠، و«تذكارات» ٤٠٤٣، «لوف فيه ج ٢ ص ٧٥٨

وجميع المنازل والمباني المملوكة لها ، في رأس الميش ، والقنطرة ، وبحيرة البلع ، وفردان ، والجسر ، والورشة نمرة ٦ وجبل مريم ، وطوش ، والسراشوم ، وجنيفا ، وشالوف ، والكيلومتر نمرة ١٤ من سهل السويس ، وعن محاجر المكس ومينائه ، ومشتعلات الاستغلال فيه ، وعن مخازنها ومخلاتها في بولاق ودمياط ، خالية من كل نزاع ومحذور ! وتنازلت الحكومة للشركة عن قطاعات (كوبونات) أسهمها ، البالغ عددها ١٧٦٦٠٤ ، ابتداء من أول يناير سنة ١٨٧٠ الى أن تستوفى الشركة منها مبلغ الثلاثين مليوناً من الفرنكات التي أصبحت الحكومة مدينة به لها بموجب هذه الاتفاقية .

بهذه الكيفية ، وهذه الوسائل ، وببذله جميع هذه الأموال ، تمكن (اسماعيل) من كسر القيد الخاسر للحقات الذي ظل به فرمانا الامتياز الممنوح من سلفه الى فردينان دى لسهس وشركة قناة السويس ساعدى حكومته ، وسلبها جانباً عظيماً من سلطتها واستقلالها .

فلما تم له ما سعى اليه ، أقبل ، وهو منشرج الصدر ، على مساعدة الشركة المساعدة الكلية ، حتى مكنها من انجاز عملها ، وأبرازه الى العالم يمثال في حله البهية . وأخذ على نفسه القيام بافتتاح الترمه افتتاحاً يخلد ذكره في بطون السطور ، وصدور الأجيال ؛ ويؤكد للأُن (اسماعيل) كان أكبر الناس تهديراً لجلالة العمل الذي تمجده به ملكه . وسيأتى بيان ذلك الافتتاح في حينه .

## الفصل الثاني<sup>(١)</sup>

### ازالة القيد الثاني

قيد السيادة العثمانية ، بما يتبعها من تضييقات مثلة ،  
والزامات مصفرة ، وتوريث بالأرشدية الخ .

أعذب الألفاظ قولي لك : خذ \* وأمر اللفظ نطق : بعزل  
«ابن الوردي»

إن تداخل النمسا والروسيا وبروسيا ، بنظامه المجقرا ، وبموجب اتفاقية لندن  
المؤرخة ١٦ يولية سنة ١٨٤٠ ، بين السلطان العثماني و (محمد علي) الكبير ، لوضع  
حد للحرب القائمة بينهما ، وحفظ بقاء الدولة العلية ، الذي أصبحت الجيوش  
المصرية تهتده ، لا سيما بعد انتصار (ابراهيم) المهام على الأتراك في وقعة نزيب  
(٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩) ، أدى الى استصدار تلك الدول فرمانين وجها من السلطان

عبد المجيد الى (محمد علي) بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦) فرمان ١٣ فيز  
سنة ١٨٤١

كانا بمثابة قاعدة بنى عليها بكان مصر السياسي والاداري معا .

(١) أم مصادر هذا الفصل هي : "مجموعة التفرمات في القضاء والادارة بمصر" لفيليب جلاد ،  
و"تاريخ المالية المصرية" لمجهول ، و"داس هونجي اجين" لقون . س. ستيفان ، و"مصر"  
لستافيل فين هول ، و"مصر" لماسيل ، و"شهران بمصر" لشارل تليوني ، و"الكافي"  
لمختار بك شادوييم ، و"مصر تحت حكم اسماعيل" لمالك كون ، و"كلمات عن الوراثة لعرش  
المصري" لرونكي ، و"اعتبارات عن الوراثة مباشرة لعرش المصري" لمجورق ، و"قضية باتنا  
مصر" لوكولنث ، و"مصر القديمة والحديثة في معرض باريس سنة ١٨٦٧" لبييرس ،  
و"دي لسيس : حياته وأعماله" لميرزان .

القيود الاثنا عشر

فبالقرمان الأول منهما ، ألقى السلطان ، بناء على إيماء الدول المذكورة ، الأمر الذى كان قد خلع بموجبه (محمد على) من كرسى ولاية مصر — لاعتباره إياه عاصيا ومتمردا — وأعادته إليه ، مبيتا في نحرطة أرسلها له ، في الوقت نفسه ، حدود تلك الولاية ؛ ومنحه ، بطلب الدول حينها ، حق توريث أحقابه ذلك الكرسى ، على الشروط الآتية :

(أولا) أن يختار السلطان العثماني من أولاد (محمد على) الذكور ، أو أولاد أولادهم الذكور ، من يشاء ليخلف على السدة المصرية الوالى المتوفى . فإذا لم يوجد ، بين الأولاد والحفدة ، خلف ذكر ، فيختار الباب العالى من يشاء للولاية ، بدون أن يكون لأولاد الإناث حق فيها ، إلا إذا شاء السلطان اختيار أحدهم ؛ على أن لا يتبع حق التوريث الاختيار .

(ثانيا) أن يكون الوالى ، المختار من بين أولاد (محمد على) أو أولاد أولاده ، ملزما بالذهاب الى الأستانة ، والمثول بين يدى السلطان ، ليقبل زمام ولايته تقليدا شخصيا رسميا .

(ثالثا) أن يشبه ولاية مصر ، بالرغم من حق الوراثة الممنوح لهم ، بباقي وزراء الدولة ، في المنصب والتقدم على الأتداد فى الرسميات ، والتصدر ، على قاعدة الإقدمية ؛ وأن يوصفوا ، وينعتوا فى المكاتبات والمحادثات الرسمية ، بما يوصف وينعت به أولئك الوزراء .

(رابعا) أن يكون مفعول جميع المعاهدات المبرمة بين السلطنة العثمانية والدول ، ومنطوق كل خط شريف ، وخط همايونى يصدر من لدى السلطان ، للتقنين والتشريع ، ساريا فى الولاية المصرية ، ومتفذا فيها تنفيذه فى عموم أنحاء الممالك الشاهانية .

(خامسا) أن تكون جباية الضرائب والأموال والرسوم الجمركية وغيرها ، برمتها وعلى أنواعها ، باسم سلطان تركيا ، وطبقا للأصول المتبعة في الدولة صاحبة السيادة .

(سادسا) أن يرسل ربع الإيرادات المصرية كلها إلى خزانة الباب العالي ، سنويا ، على سبيل الجزية ؛ وتصرف الثلاثة الأرباع الباقية في شؤون الادارة الداخلية ، ولها تستلزمه احتياجات بيت الوالى ؛ وأن تكون طريقة توريد الجزية التي سيتفق عليها في سنة ١٢٥٧ ، معتمدة لمدة خمس سنوات ؛ ثم تكيف وتعطل طبقا للظروف ومقتضيات الأيام ؛ وأن يكون الوالى ملزما بتعريف الباب العالي بمقدار إيرادات القطر بالضبط ، وبيانها له ، بيانا وافيا ، اجتنابا للتلاعب في مقدار الجزية .

(سابعا) أن تكون السكة باسم السلطان العثماني ، وأن لا تختلف في شيء أساسى عن مثيلتها المضروبة في الأستانة العلية .

(ثامنا) أن لا يزيد عدد الجيش المصرى في أيام السلم على ١٨ ألف جندى ؛ وأما في زمن الحرب ، فللباب العالي أن يبلغه الى ما يرى . وأن يكون تكوينه ونظامه مطابقين لتكوين الجيش العثماني ونظامه : فجعل مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ؛ ويؤخذ من مقرعى الستين الباقيتين عشرون ألفا ، بقم ثمانية عشر ألفا منهم بالقطر المصرى ، ويرسل الألفان الباقيان الى الأستانة ؛ ثم يسرح خمس العدد كل سنة ، ويقترع ، بدله ، أربعة آلاف جندى جديدون ، يبقى منهم في القطر ٣٦٠٠ ، ويرسل أربعمائة الى الأستانة .

(تاسعا) أن يكون شكل ملابس الجنود المصرية ، برية كانت أم بحرية ، وشكل راياتها ونياشينها ، كملابس الجنود العثمانية البرية والبحرية ، وكشكل راياتها ونياشينها ،

لا تميز بين الجندين إلا فيما يختص بنوع الأمانة ، فانه يصرح للحكومة المصرية أن تختار منها ما يلائم طقس البلاد ومناخها .

(ماترا) أن لا تبنى مصر سفنا حربية مطلقا ، إلا بتصريح صريح من الباب العالي ، يعطى لما تكتبه .

(حادى عشر) أن يقتصر حق الولى ، فى تعيين ضباطه البريين والبحريين وزفيتهم ، على الدرجات الصغرى لغاية درجة الصباغ قول أغامى . فاذا أراد رفع ضابط الى درجة أعلى من هذه ، فعليه أن يجازى الباب العالي ، ويستصدر الترقية منه مباشرة .

(ثانى عشر) أن أى إخلال بأحد هذه الشروط يؤدى الى إلغاء حق انتقال الولاية بالإرث ، فورا .

وبالقرمان الثانى ، قلده السلطان (محمد على) الولاية على بلاد النوبة ودارفور وكردوفان وسار ، ولكن بدون حق فى توريثها لأعقابها ، كأن السلطان أراد بذلك أن يقيم على الحدود المصرية الجنوبية ، المستقبل ، خطرا يشهره خلفاؤه فوق رؤوس خلفاء (محمد على) كسيف دامكليس ، ابتغاء إيقائهم فى حدود الطاعة والأمانة ، فيما لو عن لم الخروج منها — مع أن (محمد على) هو الذى فتح تلك الأقاليم ، وأخضعها لحكومته المصرية ، ولم يكن لسلطان تركيا عليها من حق ، إلا ما نجم له عن فتح (محمد على) لها — وألزمه ، مقابل ذلك ، أن يقدم له بيانا مفصلا مضبوطا بإيراداتها عامة ، لفرض الجزية الموافقة عليها ، وأن يبطل النخاسة منها وعادة خصى السود . وأبلغه فى القرمان منه : (أولا) عفو عن جميع الجنود والضباط والمستخدمين الذين اشتركوا فى تسليم البحارة الثانية له ، مستثنيا منهم بعض أفراد حينهم بالاسم ، وعلى

رأسهم أحمد فوزى باشا أمير تلك العهدة — وهو الذى قصده نوبار باشا فى الرواية التى رواها للورد كرومر ، وذكرها هذا فى الصحف الأولى من كتابه المعلنون "مصر الحديثة" ومفادها : « أن أحد أمراء الأساطيل العثمانية كان قد انضم الى (محمد على) أثناء حروبه مع تركيا، وعرضه عليها، وخدمه فى مقاومته لها، خدमत جلى . فأعلى (محمد على) منزلته ، وحفه بصنوف من الرماية والعناية والنعم ، لم يترك معها محلا فى نفسه لشهوة أو أمنية . فعاش الرجل عيشة رغيدة على فراش وثير من الهناء ، الى أن وضعت الحرب أوزارها بين التاج والمتبوع ، ونخست معاهدات لندن والفرمانات التالية لها ، الأزمة الشديدة التى زعزعت قواعد الشرق الأدنى نينا وعشرة أعوام . فتذكر الباب العالى حينذاك — ولم يكن قد نسى قط — الخيانة التى ارتكبها أمير أسطوله ، وحمل الى فهم (محمد على) أنه يحل إقدامه على معاقبة ذلك الجانى عقابا سرييا ، منزلة جميل يبلغ يسديه اليه . فأرسل (محمد على) الى ذلك التركى من أفهمه أن الحياة متاع فان ، وأن لنتها ظل زائل ، وأنه يحذر بالمرء أن لا يفتأ مستعدا لمقابلة وجه ربه الكريم فى أى وقت يشاء الله أن يستدعيه اليه ؛ وأن الموت قد يأتى أحيانا فى جرعة ماء ، أو فنجان قهوة الى من يحم أجله » . فأدرك الأميرال العثمانى معنى الكلام ، فقام من ساعته وتوضأ وصل صلاة العصر ، ثم تجرع فنجان القهوة المسمومة الذى قلّم له ، بتعبه ، كأنه أحد الاستوئكيين ، تلامذة زينون الفيلسوف ، وهو يقول بالتركية : « قسمت<sup>(١)</sup> ! » ، وأبلغه (ثانيا) بتبئته بكارضباط الجيش المصرى ، وبجاز موظفى الحكومة المصرية فى الرتب السامية التى أنعم عليهم بها ، واعتماد بابه العالى لها .

(١) أنظر : "مصر الحديثة" للورد كرومر ، ص ١٧ وما يلحقها من أوتل

فأبدى (محمد علي) ارتياحه الى ارادة السلطان المعبر عنها الفرمانان ؛ ولكنه طلب تعديل كيفية التوريت ، ومقدار الجزية السنوية ، والحق المعطى له في ترقية الصف ضباط والضباط ، ومنع الرتب .

نفاذ الباب العالي بذلك الدول الوسيطة السابق ذكرها في ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ فتردت عليه في ١٠ مايو التالي ، وأشارت بجعل التوريت بالأرشدية ، وتعيين مبلغ محمد الجزية ، تراجع ليعقل بين حين وحين ؛ ولم ترأسا في تحويل (محمد علي) حقا أوسع من المخول له ، فيما يختص بترقية الجنود والضباط ، ومنع الرتب ؛ لاعتبارها الجيش المصري والبحرية المصرية جزا من القوات البرية والبحرية العثمانية .

فأصدر السلطان فرمانين آخرين نهائيين الى (محمد علي) ، أحدهما في أول يونيو سنة ١٨٤١ ( ١١ ربيع الآخر سنة ١٢٥٧ ) ؛ والثاني في ٢٠ يولييه سنة ١٨٤١ ( أول جمادى الآخرة سنة ١٢٥٧ ) . حثه له بمقتضاهما ، حدود الولاية المصرية ، طبقا للين في خريطة أرسلها الصدر الأعظم اليه ؛ وأجابه ، فيما عدا ذلك ، الى طلباته : فجعلت للوراثه بالأرشدية ، كما هي في بنى عثمان ؛ على أن يكون التعيين من الباب العالي ، وبموجب فرمان خاص يصدره السلطان ؛ وجعل مقدار الجزية ٨٠ ألف كيس على حساب الكولونات الاسبانيولية ، وتُحول والى مصر حتى منع الرتب لغاية درجة "الميرالاي" ؛ وأما درجتا "الميرلوا" و"الفريق" فأبقى حق منحهما مرتبطا باستئذان الأستانة أولا .

فرمانا أول يونيو  
و ٢٠ يولييه  
سنة ١٨٤١

وصل ذلك صادقت الدول الأوروبية الوسيطة ؛ وانضمت فرنسا اليها في نهاية الأمر ، فأصبح النظام المصري كما هو مقدر في تلك الفرمانات الأربعة ، جزا من النظام السياسي الدولي العام ؛ وأصبح مركز مصر ، القائم عليه تحت حفظ الدول الغربية

تصدق الدول  
عليها



جماء، فيما يختص بملاقاتها معها، وملاقاتها به، وفيما يختص بالمحافظة عليه من مطامع الدولة العلية عنها، ومن تعديلات احداها عليه .

على أنه لم يوجد فيه شيء يحظر على والى مصر تعديل القيود التي تربطه بالدولة العثمانية، دون غيرها، وتكييف مركزه منها، ومركز بلاده الداخل بالنسبة اليها، وفيما لا يمس بمصالح الدول الغربية السياسية والتجارية، تكييفاً يكون أكثر موافقة له، ولقطره .

عمل (اسماعيل)  
على إزالة تلك  
القيود

فلما جلس (اسماعيل) على أريكة مصر، وجعل إحدى غايات حكمه إزالة بلاده أكثر ما يمكن من الاستقلال، لم يأل جهداً في سبيل البلوغ الى ذيتك التعديل والتكييف، بلوغاً تكون نتيجته تحرير مصر من قيد السيادة العثمانية، وتمتع عرشها بجميع حقوق السيادة والملك .

تمحور على مجاري  
الوراثة

فأقول ما وجه إليه بمجوده تحويل نظام الوراثة من الأرشد فالأرشد في ذرية (محمد علي) كلها الى الولد البكر فالولد البكر من ذريته، هو — وكان (عباس الأول) قد سمي هذا السمي حينه، ولم يفلح — فلم تبط خيته همة (اسماعيل)، لاختها كانت مشتعلة بنوعين من أنواع الوقود، لا يدعان نارها تنخبو أبداً، وهما: الحقد والحب. أما الحقد، فعلى الأمير مصطفى فاضل أخيه من غير أمه، وعلى الأمير حليم باشا (١) صمة .

ومرجع السبب في حقد على أخيه، الى كرهه والدنيهما المتبادل، الذي كثيراً ما أزعج داخلية والدهما (ابراهيم) المهلم، فالى وثى الوشاة بالأمير مصطفى فاضل بعد صبرورة عرش مصر الى (اسماعيل) أخيه .

(١) أنظر: "الكافي" لشاربيل بك ص ١٤٤ ج ٤

والداتاهما كانتا مختلفتي الجنس والميول ، بالرغم من تمكنهما الواحد من قلب  
بعلهما السامى ، ووحدة تأثيرهما عليه . فلم تكفيا ببادل الكره بينهما ، بل أشربتا  
قلبي ولديهما ، واجتهدتا فى جعلهما صدوين لئلا يدين ؛ لاسيما أنهما ولدتهما فى شهر  
واحد ، وبينما كل منهما نمتى أن تكون أسبق الاثنتين الى الوضع ، ليكون ابنها أقرب  
الى العرش ، مال الحظ الى جانب أم (اسماعيل) .

فشب الصبيان والنسوة تبنى بغض كل منهما للآخر ؛ والوالدان تركان نمو هذا  
البغض ، حتى كانت كارثة كفر الزيات التى جعلت (اسماعيل) ولى عهد الستة  
المصرية . فلم يد الأمير مصطفى فاضل وأمه يهتملان النظر الى المستقبل ، وباتا  
يتمنيان أن يطول عمر (محمد سعيد باشا) أو تقصر حياة (اسماعيل) . فلم يحقق الدهر  
لها هذه الأمنية ، ولا الأخرى . فأت (سعيد) ، وهو فى ظهر حياته ، وارتقى (اسماعيل)  
عرش جده ، وهو فى مقتبل عمره .

فلم يهتم الأمير مصطفى فاضل وذووه الحياة تحت حكمه ؛ فسافروا جميعا  
فى منتصف سنة ١٨٦٣ الى أوروبا ، وأقاموا فى باريس . وربما أدى ذلك البعاد  
الى تراخي حبل الضغينة بين الأخوين ، خصوصا وأن قلبيهما كانا محبوبين ، طيبة ،  
حل العواطف الطيبة ومفتحين لها .

ولكن الوشاة الذين لم تكن مصلحتهم فى أن يسود الوفاق بينهما ، وكانوا كالذباب ،  
يتناسون الحياة من الاقبال على مص القروح وتبييجها ، كانوا ساهرين لا يفلتون .  
فاخذوا يفتنون من الأكاذيب على الأمير الغائب ، ما لم يكن معه بد (اسماعيل)  
من الاستزادة فى كره أخيه ، والإغراق فى حقه ؛ بل إنهم لم يجمعوا عن تصوير

ذلك الأخ النازح في صورة الرجل المؤامر المخامر ، الساعى الى إهلاك أخيه ، لى يأخذ منه عرشه . وبلغ بهم جهم الخداع والدسائس الى حد أن ألقوا قبيلة ، سرا ، ذات صباح ، في حديقة قصر الجيزة ، وأمرعوا الى التقاطها ، جهرا ، وتقديمها الى (اسماعيل) ، حجة دامغة ، وبرهانا قاطعا على صحة مؤامرات ومخامرات ومساعي أخيه الشريرة .<sup>(١)</sup>

وبما أن القلب المضطرب بأفعال قوى ، تنعم بصيرته بتأثير ذلك الأفعال ، فلا تعود عينا صاحبه تنظران الأمور إلا كما يقدّمها اليهما ذور الأغراض ، فان (اسماعيل) لم يظن أن تلك القبيلة كانت فارغة ، لا تحمل في جوفها سوما مطلقا ، واعتقد اعتقادا ثابتا أن أخاه أراد قتله ، ليخلفه على عرشه .

والسبب في حقه على عمه ، عبد الحليم ، هو أن هذا الأمير كان ، في الواقع ، يتطلع الى الأريكة المصرية ، ويرغب فيها ؛ ولو أن هذه الرغبة لم تقتزن بعمل عدائى لتحقيقها . ولكن مجرد وجودها في نفسه كفى لى يتخذ الوشاة منها منبتا خصبا ، ينمون فيه جرائم البغضاء بين (اسماعيل) وبينه ؛ ولم يدموا الفرص الموافقة لذلك . فتزول السلطان عبد العزيز ضيفا على حليم باشا في بستانه على ضفاف المحمودية بالاسكندرية ، وفي قصره المنيف بشبرا ، ويتأوله طعام العشاء عنده في هذا المكان الأخير ، والتعطّفات التى ما قفى يوالها طيبه ، طوال مدة إقامته بمصر — ولا شك في أنه انما كان يرى بها الى جعل (اسماعيل) يشعر بأن عمه سيف معاق فوق رأسه ، فيعرض عن كل مطمع ضار بمصالح الدولة العثمانية — كل ذلك كان في أيدي الوشاة أشعة شمس استعملوها لإحياء تلك الجرائم وتقوية نموها .

(١) انظر : "تاريخ مصر في عهد اسماعيل" لملك كون ص ٢٤ ، و "تاريخ مصر المالى" لمجهول .

وكان سليم باشا، من جهة، يبعث معيشة تمتعية، غريبة المظاهر الى حد يجعل  
لوشى الوشاة مجالا فسيحا، فقصره في شبرا كان، كما قلنا، بذيمة البدائع، وجديرا بأن  
يشير عوامل الحسد في قلوب الحاسدين، ولو كانوا ملوكا؛ وعدد الخواشي والخدم،  
والجوارى الحسان، والأتباع الذين كانوا تحت اشارة صاحبه في ذلك المقام الفخم،  
لم يكن من شأنه أن يروق من تابع في عين متبوعه؛ ونخروجه، كثيرا، الى الصيد،  
في أبهة وجلبة، تحيان ذكرى السلاطين الممالك السالفين، وتلفتان اهتمام السوق  
في العاصمة وضواحيها؛ وإقدامه على الصيد بالسوقية المدينة، والبنزة المدرجة، كان  
زمن العصور الوسطى لم يزل الى رسته<sup>(١)</sup> وانضواؤه تحت راية الماسونية واهتمامه  
بأسرارها المكنونة اهتماما تاملا؛ وإضافة ذلك الى كونه ابن (محمد علي) مباشرة، وأ،  
بله انتشار الأقوال الشائعة بأن (ابراهيم) إنما كان ابن زوجة (محمد علي) من بعل غيره،  
لا ابن صلبه، وأن (محمد علي) إنما تبناه ورباه، فقط، كآبته<sup>(٢)</sup> — وهو قول عار عن  
الصحة يتنا، وربما كان من اختلاقات أولئك الوشاة أنفسهم، نسبوه الى سليم باشا،  
ليزيدوا في تمكيد المياه التي كانوا يعملون بلا انقطاع على تمكيدها بين (اسماعيل) وعمه،  
بأنواع الوسائل كافة — كل ذلك كان مادة جيدة لأن تضفر منه أكابيل شوك،  
توضع تحت وسادة الأمير المتولى؛ فتغزه ونرا أليما، وتجعل نومه قلقا مضطربا،  
فتحمله على كراهة عمه، والتخوف منه، تخوفا زائدا .

ولما كان الإقدام على الاثم في الأمرات الشرقية لا يزال يتلو بسرعة ساعة التفكير  
في المنفعة التي تعود على مرتكبيه من ارتكابه، فان تخوفا (اسماعيل) من أخيه وعمه  
كان على قدر الفائكة التي يرجوها كل منهما من وراء موته .

(١) أنظر: "مصر القديمة" لادن دي ليون ص ٤٥٤ وما يليها .

(٢) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لملك كون ص ٧ في الحاشية الأولى .

فكان إذا من مصلحة (اسماعيل) أن يقضى على تلك الفائدة القضاة المبرم، بعمل  
يبحث من قلبي ذنبك الأميرين كل جذور الأمل في أن موته يوجب ارتقاء أحدهما  
إلى العرش مكانه .

وأما الحب، فلبلاذه أكثر منه لأولاده ونفسه .

وذلك لأن أيلولة الملك من الولد البكر في الأسرة الواحدة من شأنها أن توحد بين  
مصالح الأمير ومصالح الرعية؛ فلا تعود حمة الأمير منصرفه، كما كانت، إلى إنماء  
ثروته الشخصية وثروة أسرته على أكثاف الثروة العمومية وثروة فروع الأسرة الأخرى .

(نعباس الأول)، مثلا، إنما أراد مصادرة أملاك باقي أعضاء طائفته والاستيلاء  
على أموالهم لكي يجعل مستقبل ولده (الهامي) — ولولم تول إليه الامارة — سعيدا،  
أكثر من كل واحد منهم — ولو قدر لأحدهم أن يخلفه على العرش — وإنما صادر،  
لهذا الغرض حينه، أملاك رعاياه، واعتصب أموالهم : قترك لابنه المذكور ما يزيد  
على ثمانين مليوناً من الفرنكات من الثروة المنقولة غير الثروة العقارية .

والواقع هو أن الأمير المتولى، الذي يعلم حق العلم أن مآل عرشه لغير ابنه،  
لا يمكنه أن يستبر ثروة البلاد المسلمة مقابلتها إليه إلا فريسة لأطباعه، ومنعجا يستنفده  
في إغناء نفسه وذويه؛ فلا يهمه شقيت البلاد أم سعدت، عاشت أم هلكت،  
ما دام جيبه ممتلئا ونخزيفته طامرة .

والأمير، في الأسرات التي يؤول العرش عندها من أرشد الأفراد فيها إلى الأرشد،  
قد يجعله العواطف الانسانية الطبيعية على كره عموم أعضاء أسرته، لتخليه، في كل  
منهم، خليفة يخلفه، اضراارا بخلافة بليه . فيهمه، والحالة هذه، أن يمتص، وهو

على قيد الحياة، خيرات البلاد كلها، لكي لا يترك منها شيئا، بعده، لأولياء عهده  
الاحتماليين المكروهين منه . ومنغية تلك السهنة إنما تعود على البلاد أكثر منها على  
أفراد أسرته، غير بنيه .

والدليل على أن حب (اسماعيل) لبلاده كان رائده في سعيه، أكثر من كل عامل  
غيره، هو أن هواه كان أن يحفظه على العرش ابراهيم حلمى ابنه من الأميرة جنانينار  
هانم، أعز زوجاته عليه، والتي سعت سعيها محمودا في سبيل نجاح مقاصده . ومع ذلك  
فانه سعى لأكبر أولاده (محمد توفيق)، بالرغم من أنه لم يكن يحبه محبة لباقي اخوته .  
(فاسماعيل) إذنا، لأنه كان يكره أخاه وعمه من جهة، ولأنه كان، من جهة أخرى،  
وعلى الأخص، يحب بلاده، أقبل يسعى في الأستانة ليحمل أولى الشأن فيها على  
تغيير نظام الوراثة بمصر، وحصرها في ذريته دون باقي الأسرة المحمدية العلوية .

ولحسن طالعها، كان ميله الى ذلك ونجاحه فيه يوافق هوى نفس عبد العزيز  
المكتون .

فبعد العزيز، أيضا، كان يشتهي أن يغير نظام الوراثة في أسرة عثمان، وهو أيضا  
كان يتقن أن يحصرها في ابنه يوسف عز الدين، وفي بكر أولاده، بعده، فبكر أولاده  
الى الأبد . ولكنه لم يستطع بلوغ أمتهته، بالنسبة لقوة التقاليد . فكان يرغب،  
والحالة هذه، في نجاح (اسماعيل) في سعيه، ليكون ذلك سابقة، يبنى هو على قاعدتها  
بناء مجهوداته .

على أن ذلك لم يمنعه من التظاهر بالرفض في بادئ الأمر لبتال من ملك (اسماعيل)  
وهداياه ما كان التغيير المطلوب به جدريا، ولكن تكون الظواهر غرارة أكثر مما

(١) انظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لملك كون ص ٣٨

هي ، فتبدو الصموبات للساعي أكبر من حقيقتها ، أوعز الى بعض جرائد الأستانة بأن تكتب في الموانع القائمة دون تحقيق رغائب والى مصر وأن تبالح في وصفها .  
فالتخدع (اسماعيل) ، أو تخادع ، الى حد استعجار جرائد أخرى لتعبد التفسير وتظهره أمام الملا في مظهر العمل المفيد للبلاد ، والذي لا مندوحة لها عنه ، لتتقدم باطمئنان في معارج الفلاح والرقى والرخاء .

ولكنه ، من جهة أخرى ، فصح يده بحجة في المرو والجهل : بغرت خيرات النيل ذهباً وفضة على ضفاف البوسفور ، حتى لم تبق هناك ذات واحدة ممن يرجى في مساعيها تقديم وإنجاح السعى المصرى ، إلا وظلما من عطاياء وجوده الحاتمي<sup>١</sup> ما جعلها تدأب على العمل له .

ولو أراد التاريخ حصر قيمة ومقدار كل ما صرف في تلك الأيام في الأستانة ، وتعداد الأبواب التي صرف فيها ، لأعياء الأمر وسقط دونه كيلا . لأن المبالغ المصروفة تجاوزت مئة ملايين من الجنيهات . ومن البهيمى أن (اسماعيل) لم يكن وحده في ذلك الصرف . فكما أنه كان يهود بالأموال والهدايا ، من جهة ، ويهود أمه بأضعاف أضعافها لتساعده على تحقيق مطعمه ، كان أخوه وعمه ، من جهة أخرى ، يبدلان كل ما في وسعهما لإخفاق مسعاه ، وتخبيب أمانيه ، لما في تحقيقها

(١) انظر : "مصر" لمارتوني ص ٧٧ والملاحية رقم ٢٥٤ التي بها وفيها اراد لقول فون هـ . ستيفان الواردة في ص ١٥٢ من كتابه "داس هويجي اجين" والتي نصه : « فلما كدل قاتان (اسماعيل) لكي ينال تغيير مجارى الوراثة وهو تغيير في منبى القناصة لبلده ، اضطر الى اتفاق ثلاثة ملايين من الجنيهات بالقسطنطينية ومن المؤكد أنه سيجد مناسبات أخرى لزيادة الاتفاق في هذا السبيل » ، وانظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لملك كون ص ٣٨ وما يليها لتاية ص ٤١ ، وانظر : مارتوني ص ٧٩ في الكتاب ذاته .

من الاضرار بمصلحتيهما . ولكنه قلب في نهاية الأمر؛ ومقابل ما بذل، وما وعد  
ببذله، ونظير رصفه الجزية السنوية المفروضة على مصر من ثمانين ألف كهس  
الى ١٥٠ ألفا - أى من أربعمائة ألف جنيه مجيدى الى سبعمائة ونمسين ألفا، أصدر  
السلطان فرمانه القاضى بانتقال كرسى الولاية من متبوى كرسيا الى بكر أولاده ومن  
هذا الى بكر أبنائه أيضا، وهم جرتا، وذلك فى ١٧ مايو سنة ١٨٦٦<sup>(١)</sup> قرئ هذا  
الفرمان بمصر باحتفال شائق. وهنا رجال الدولة وأعيان الأمة (الأمير محمد توفيق) -  
وكان لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره - بمصير ولاية عهد الديار المصرية اليه، وكبرت  
متزلة (اسماعيل) فى صيون الجميع، وشعر الكل بسكينة دخلت على نفوسهم، كأن  
الحاضر والمستقبل بأمانين<sup>(٢)</sup>.

وكان من الطيبى أن يقرن (اسماعيل) بسعيه الى تحويل مجارى الوراثة عن أخيه  
وعمه، سعيه الى تجريدتهما من ثروتهما العقارية المصرية، ليكون قضاؤه على مطامعهما  
فى العرش المصرى تاما مبرما؛ ويكون استتباب الأمر له منتظما قارا .

فاوغل، منذ أواخر سنة ١٨٦٤، الى أخيه فى باريس من فاتحه فى أمر بيع الأقطان  
التي له بمصر. فرفض الأمير مصطفى فاضل بيعها لأن شعاع الأمل فى مصير العرش  
المصرى اليه، كان لا يزال منتشر بقوة فى جوانب قلبه. ولكنه، بما مل نزق الشباب،  
وحسب الظهور، ما فتى يهلك الملايين تلو الملايين، ويولم الولايم تلو الولايم، ويهود  
بالهدايا تلو الهدايا - مع أن إراداته كانت قليلة وضئيلة، بالرغم من اتساع أملاكه  
العقارية، وذلك بسبب العراقيل المقامة بمصر فى سبيل استغلالها استغلالا حسنا -

(١) أنظر "مجموعه المرمقات" .

(٢) أنظر "الكافى" لشاربى بك ص ١٤٤



وما فتئ يضطرب، بين حين وحين، الى الاقتراض بفوائد ساحقة، من خزان الصيرفة ومن عملائه، حتى باتت حالته المالية معقدة تعقيد ذنب الضب، وباتت ديونه الباهظة محرجة له إخراجا شديدا يصعب عليه الخروج منه إلا بالبيع.

فرأى (اسماعيل) أن يعيد إذ ذاك الكرة، لاسيما أنه كان قد فاز بإقصائه عن مجارى الوراثة. فأوفد اليه مفائحا آخر، يمرض عليه بيع الأملاك التي له بمصر، ولما لم يبد له مندوحة عن البيع، نجحت المحاولات هذه المرة، وقر الاتفاق على أن ثمن المبيع المتفق عليه وقدره مليونان وثمانون ألف جنيه انجليزي، منها ثمانون ألفا قيمة السمصرة - يذفقه (اسماعيل) أوراقا مالية لحاملها من أوراق الدائرة السنوية المالية المضمونة من الحكومة المصرية والمتجهة فوائد بواقع ٩ ٪، وأن تستد قيمة تلك الأوراق على خمسة عشر قسطا سنويا، ابتداء من أول يناير سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup> فامضى عقد البيع بباريس في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٦، ومجى في اليوم السادس والعشرين منه، ولكنه لم ينفذ في شكله الذي اتفق عليه، لأن البنك السلطاني العثماني ومحل إبنهايم وشركائه حلا محل الأمير مصطفى فاضل وأخذوا بدل تلك الأوراق المالية سنداً عاماً مبينة فيه تعهدات الدائرة السنوية وضمانة الحكومة المصرية، وأصدروا به، في لندن، قرضاً بمليون جنيه انجليزي بفوائد ٩ ٪ سنويا.

أما حلیم باشا، فإن اتفاقه عن سعة، بل إسرافه هو أيضا إسرافاً مفرطاً، كان قد أدى به منذ سنة ١٨٦٣ الى عقد قرض قدره ثلثمائة ألف جنيه انجليزي، تعهد بسدادده على خمس عشرة سنة، أقساطاً متساوية. ثم أدى به سعيه في الاستانة لاحتياط جهود (اسماعيل) الخاصة بتعديل مبدأ الوراثة، الى عقد قرض آخر في سنة ١٨٦٦

(١) أنظر، "تاريخ مصر المال" مجهول من ٧٥

مقداره سبعمائة ألف جنيه مصرى . فاضطر الى رهن كل أملاكه العقارية بمصر ،  
ضمانة لوفاء هذين القرضين ؛ وبات يقبض مخبطا أليما ، كلما حل موعد للدفع .

نقابره ( اسماعيل ) فى شراء أملاكه المرهونة منه ؛ فـ وجد حليم باشا فى شدة  
ضيقه واحتياجه الى النقود بلنا من بيعها ، لاسيما بعد ما تيقن من نجاح مساعى ابن  
أخيه فى الأستاذة ، وخيبة مسماه هو ؛ فباعها له نظير مبلغ قدره مليون ومائتا ألف  
جنيه انجليزى ، دفعت الدائرة السنية له منها ثلثمائة ألف جنيه انجليزى بأوراق من  
أوراقها المضمونة من الحكومة المصرية ؛ وأخذت على نفسها دفع الباقي من أقساط  
القرض الأول وقدره مائتان واثنان وسبعون ألف جنيه ؛ ثم اقتدت أوراق القرض  
الثانى المالية ، وسلمتها خالصة الى الأمير البائع .

واتفق بعد ذلك أن البوليس — لكى يتال « محظونيته » عند الخديو ، ويظهر  
لسموه تيقظه وسهره على حياته الثمينة — أقدم فى شهر اكتوبر سنة ١٨٦٨ على  
استكشاف مكيدة زعم أن عمه حليم باشا دبرها لاغتياله . فنصب شراكه ، وبث  
زباينته ؛ وفى الثانى والعشرين من الشهر المذكور أعلن للأجتاح مسماه ، وتمكنه  
من القبض على المتآمرين على حياة ملك البلاد . فاضطر ( اسماعيل ) الى إبعاد عمه  
عن القطر .<sup>(١)</sup>

وبعد أن عتلى ( اسماعيل ) ، على المنطل الذى يبناه ، نص فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١  
بالحصول الوراثية بالأرشدية والممثل منطوق الشرطين الأول والثانى من شروط فرمان  
١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، أقبل يعمل على إلغاء الشرط الثالث منه ، وهو الخاص  
بتشبيه ولاية مصر بوزراء الدولة العثمانية .

العمل على تقييد  
لقب « والى »  
لقب « مشر بهلال »  
مركز صاحب مصر

(١) انظر : « مصر تحت حكم اسماعيل » لملك كون ص ٧٩ ، و « تاريخ مصر الحديث » لجهول ص ٧٧

وكان قد عزم عزما أكيدا على إشراك مصر في معرض باريس العام المزمع إقامته في بحر سنة ١٨٦٧ ، وعلى إجابة دعوة عاهل الفرنسيين ، والذهاب إليه بنفسه ، ليظهر بلاده أمام العالم المتمددين في ثوب التقدم والرفق الذي لبسته في عهد أسرته العلوية وعهده . فيحمل الأمم المتمدنية على اعتبارها واحدة منها ، وليظهرها ببذخه وجوده ، وسطوع معروضاتها في ثوب الثروة التي لا حد لها — الذي هو في الحقيقة ثوبها الصحيح — فيوطد في العقول ، تقديرها لتلك الثروة تقديرًا رفيعًا ، ويقز في القلوب قهتها غير المتناهية في مقدرتها على القيام بجيج تمهلاتها المأيلة ، مهما بلغت قيمتها ، وأية كانت موايد تحقيقها .

ولوثوقه من ذهاب السلطان عبد العزيز ، أيضا ، الى زيارة ذلك المعرض ، كان يريد أن يفتنمها فرصة ثمينة ، ليزر بنور الاصلاح القضائي النائر في خلده ، والمقصود منه القضاء على القيد الثالث المقيدة به البلاد ، أى قيد الامتيازات الأجنبية .

فلدأبه ، من جهة ، على إزالة القيد الثاني ؛ ولرغبته ، من جهة أخرى ، في الظهور أمام الملأ الأوروبي — ليسهل عليه نجاح مقاصده — في مظهر رسمي منيف ، يستوقف الأنظار ويوجب الاحترام لشخصه ، أكثر مما لو كان مرتديا لباس وال ، لا يتميز عن باقي ولاية السلطنة الثمانية إلا بعض ميزات خصيصه به ، طفق يعمل على نيل لقب يشعر بأن صاحبه ، إن لم يكن في مصاف الامبراطرة والسلاطين والملوك ، فلا يقل عنهم كثيرا . على أن يكون نيله إياه مصحوبا بمصولة على امتيازات تجعل حقيقة المنصب على نسبة سمو تسميته المنبغاة .

فشرع يذاور الأستانة ، بوسائله المعتادة ، في أمر منحه ذلك اللقب ، وأقبل ينقو المال عن سعة ، ويكثر من الجود والهدايا النفيسة السلية الى السلطان ووزرائه

والمقربين لديه ، مجتهدا في استصدار فرمان يخوله التلقب بلقب "العزیز" وهو المطلق في القرآن الشريف على وزير فرعون على مصر ، راغبا جلتا فيه ، وشيقا الى احرازه . فدارت المخابرات بشأنه طويلة ومتعبة ، بين البلاطين ؛ واستمرت مدة بين أخذ ورد ، ولكنها لاقت في سبيلها عقبتين ، لم يمكن التغلب عليهما مطلقا :

(الأولى) أن لقب "العزیز" خص به (يوسف بن إسرائيل) دون غيره من وزراء الفراعنة ؛ وأن ما خص به نبي لا يصلح إطلاقه البتة على فرد من الأفراد ، مهما كانت درجته رفيعة .

و (الثانية) أن اسم السلطان المالك (عبد العزیز) ، فلودعى (اسماعيل) "العزیز" لكان السلطان إذا عبده ؛ أو تبادر الى أذعان السذج أنه عبده ؛ أو أمكن ، على الأقل ، فتح باب لتكت ينال الحضرة السلطانية بما يتقص من جلال قدرها <sup>(١)</sup> .

فاستبعد ، إذا ، لقب "العزیز" ، لا سيما وأنه اسم من أسماء الله الحسنى ، وشرع في البحث عن غيره .

وكانت قد جرت العادة منذ أيام (محمد علي) بتسمية الديوان المصري الأعلى ، أى الديوان المحيط بشخص الوالى مباشرة "بالديوان الخديوى" ، كما أن الولاة أنفسهم يحكم تلك العادة كانوا يدعون أحيانا "خديوين" .

فبعد مناقشات ومباحثات كتابية وشفهية كثيرة ، اتفقت الآراء ، نهائيا ، على أن تعطى صيغة رسمية لتلك العادة ، وأن يكون لقب "خديو" خصيصا ، من ذلك

الاتفاق على لقب "خديو"

(١) أنظر : "مصر في عهد اسماعيل" لملاك كون ص ٥٩ وما يليها ، و "الكافي" لتاريخه بك

الحين فصاعداً ، (باسماعيل) وخلفائه على العرش المصري ، إشعاراً بأعلاء مرتبتهم إلى درجة المواهل .

فصدر بذلك في ٨ يونيه سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup> فرمان على بمصر، بأية واحتفال عظيمين ، حضره كل ذى حيوية في البلاد ، وأتفق الكل ، لاسيما الشرقيون ، على أن (اسماعيل) فاز فوزاً مبيتاً ، وأصبح حقيقة في مصاف الملوك .

ولم يكن اعتقادهم في غير محله : (أولاً) بالنسبة لفخامة اللقب الجديد ، و(ثانياً) بالنسبة للامتيازات الجليلة السنية التي أوجبها .

”لخدو“ كلمة فارسية بمعنى ”الاله“ و”الرب“ ، فهي تشعر إذا بعظمة وجلالة لا تشعر بهما لفظة ”العزيز“ العربية ، وتلبس صاحبها رداء استقلال في المركز والعمل أكثر مما تلبسه إياه أية كلمة أخرى .

والامتيازات الجليلة ، التي أوجبها ذلك اللقب ، كانت كبيرة وغير منقورة إلى حد أن معاني الكلمات الدالة عليها في فرمان أشكل فهمها على معظم الناس : قال السلطان تناول : (أولاً) نص الشرط الرابع من الشروط الاثني عشر التي منح فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ بمقتضاها حق توريث السلطنة المصرية (محمد علي) وذريته ، وهدمه هدماً ، وقدر أن المقصود من القوانين العثمانية الواجب تنفيذها بمصر ، إنما هي المبادئ العامة المعلنة في خط جلوسه ، وأخى بها الضامنة الأعمار والأملوك والأهراض ، ولما فيما عدا ذلك ، فإنه خول للحكومة المصرية الحق في وضع القوانين

(١) أنظر : ”مصر“ لمؤلف من ٧٧ و ٧٩ فانه جعل تاريخ هذا فرمان ٩ يونيه بدلا من

واللوائح والأنظمة التي يقتضيها حسن الإدارة وتراها «هى» مناسبة لمعادن البلاد، وطباع أهلها، وموافقة لمصالحهم، وصرح (ثانياً)، للحدود، أن يتخذ مباشرة مع الأجانب ودولهم أية اتفاقية يشاء بخصوص الجمارك، وعلاقات البوليس بالجنائيات الغربية، ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد، وإدارة البريد، وهلم جراً، على أن لا يتخذ تلك الاتفاقيات شكل معاهدات دولية ماسة بسيادة الدولة العلية على القطر، وأوجب (ثالثاً) على الباب العالى أخذ رأى الحكومة المصرية فى كل معاهدة تجارية يريد إبرامها مع الدول الأجنبية، ليتمكن أولو الشأن المصريون من المحافظة على مصالح مصر التجارية .

ولما كان فرمان الصادر فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بشأن تعديل قانون الوراثة قد صادق مصادقة تامة على تعديل الساج والثامن والحادى عشر من الشروط المدققة بفرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١، وخول الحق لأمر مصر فى مك تقود تختلف عن تقود باقى السلطنة، مع إبقاء اسم السلطان عليها، وفى رفع عدد الجيش المصرى من ثمانية عشر ألف جندى الى ثلاثين ألفاً، وفى منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية من الصنف الأول بدون استثنان، وباقى الرتب حتى أعلاها أى رتبة روملى بكرك ورتبة بالا، مدنية كانت أو عسكرية، يجوز إخطار الباب العالى، لاعتمادها، وإرسال برائها من لدنه، وكان ترك اختيار القماش اللازم للملابس الجنود المصرية، وتفصيله الى مجوز إرادة الحدود قد ألقى، فى الواقع، جزاً عظيماً من ملزمات الشرط التاسع من الشروط الآتية الذكر، فانه لم يصدىق من القواعد التى بنيت عليها السيادة العثمانية على مصر، سوى ما أقيم منها فى الخامس والسادس والعاشر من شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

على أن نص الشرط الخامس انما كان مجرد جبر على ورق : لأن الأموال ، والضرائب ، والرسوم ، وغيرها من أوجه الإيراد ، كانت تنجي باسم الحكومة المصرية لا باسم السلطان ؛ ولم تكن طريقنا ربط الجمارك وتحصيلها مماثلين لما كان جاريا ومعمولا به في تركيا ، حتى قبل أن ينزل فرمان ٨ يونيو سنة ١٨٦٧ الحق بتهديد في ابرام أية معاهدة جمركية يريدنا مع الأجانب .

وقد رأينا أن الجزية تعدلت أولا ، وثانيا ؛ وقررت ، أخيرا ، بحيث لم يعد للسلطان دخل في الإيرادات المصرية ، ولا حق في معرفة مقدارها ونوعها — فلم يبق ، إذا من حائل ، في الحقيقة وواقع الأمر ، بين مصر واستقلالها استقلال تاما ، سوى قيد الجزية السنوية ، وقيد منها عن بناء سفن حربية ، إلا بتصريح كتابي .

أما قيد حظر بناء سفن حربية ، فإن ( اسماعيل ) أقبل يعمل على كسره ، ومداد فرمان المانع له لقب "خديو" لا يزال رطبا على قرطاسه . فانه ، وهو في باريس يزور المعرض ، وبينما السلطان نفسه فيها ، أوصى المعامل الفرنسية بعمل ثلاث بوارج مصفحة من النوع الذي كان يطلق عليه اسم "فرقاطة" ومن الطراز الجديد المستعمل لدى الدول الأوروبية كلها ، بدل السفن الحربية الشراعية القديمة ؛ ولكيلا يجد معارضة من السلطان ، واجتنبنا لكل انحراف في خاطره عنه ، أفهمه أن تقوية الأسطول المصري — وهو جزء من الأسطول العثماني — بتلك البوارج ، ما هو في الحقيقة إلا تقوية للأسطول العثماني منه ، وزيادة في مهايته وقت الحاجة . فلما رأى أن عبد العزيز غير مقتنع بذلك ، وغير راض عن عمله ؛ وأن وزراءه المرافقين له في سياحته — وقد عن طيهم أن يكون لنوبار باشا ، الوزير المصري ، شأن أكبر من شأنهم في عالم السياسة — أقبلوا على معاكسة مساعيه الزامية الى تحرير

بلاده من قيد الامتيازات الأجنبية ، بالقضاء على السلطات القضائية الدولية القائمة فيها ، بحجة المحافظة على حقوق السيادة التركية على مصر ، وبحجة تأييد نصوص الفرمانات ، استعان ، من جهة ، بالامبراطور نابليون الثالث ، ورجاه التوسط بينه وبين متبوعه لازالة الخلاف بالتي هي أحسن .

ف فعل العاهل الفرنسي ذلك ، عن طيبة خاطر ، لما كان (لإسماعيل) من المتزلة لديه ، ولرغبته في أن يخلّقه بأيد تلتزمه بمساعدة القائمين بمشروع قناة السويس ، مساعدة فعالة ، تمكنهم من إنجازهم بشرفة .

وأقبل ، من جهة أخرى ، يبدل الوسائل التي كان هو أدرى الناس بنجاحها عند السلطان ووزرائه : فشرع يظهر (العبد العزيز) كل ما استطاع اظهاره من مظاهر التعظيم والاحترام والاجلال ؛ ويظهر لوزرائه ما طاب وحسن من ضروب الاحكام لدرايته بمظم وقعها من نفس متبوعه وأنفسهم ؛ وأخذ ، في الوقت عينه ، يقدم لهم جميعا ، من الهدايا والتمنّيات والأعلاق النفيسة ، ما لم يكن له بدّ من تسكين هياجهم عليه ، وازالة ما صلق بخواطرهم من الغرور منه والانحراف عنه .

ولم يكتف بذلك ؛ بل إنه ، بعد رجوع السلطان من سياحته الى عاصمته ، عن طريق برلين وفيينا ونهر العلونة ، عرج على الأستانة ، في عودته الى مصر ، وأقام فيها يحامل ربه ووزراءه ، حتى حملهم على إصدار فرمان شهر سبتمبر التالى سنة ١٨٦٧ المنسمر ما غمض والتبس فيه من عبارات فرمان ٨ يونيه السابق .

وأما الجزية ، فانه لم يكن يمكن التفكير ، البتة ، في قطعها عن تركيا : لأن جميع الامتيازات ، التي نيلت ، انما أمكن نيلها ، وجميع القيود التي كسرت ، انما أمكن كسرها ، برفع مقدار المال المعطى سنويا من مصر الى السلطان ، رفعا مستمرا .



فلاجل قطع الجزية، إذا، كان يجب أن تسبق مصر بلغاريا إلى العمل الذي عملته هذه الدولة في سنة ١٩٠٨، وتعلن تقلص ظل السيادة العثمانية عنها، ووثوبها إلى بحبوحة الاستقلال التام.

على أنه لو فرض، وتمكنت من عمل ذلك، فقد كان من المحتمل، في تلك الأيام، أن لا نجد فيه مصلحتها: لأنها ربما تعرضت، والوقت غير مناسب، إلى حرب مع تركيا؛ فقد كانت تجزئها ويلات جسيمة، أكلها إعداء مأساة سنة ١٨٤٠ غير أن (اسماعيل) كان، مع ذلك، مصمما تصميا وطيدا على نيل الاستقلال التام لمصر، يوما ما، ولي رفع قيد الجزية المذل عن عاتقها؛ ولكنه كان يرقب الفرص لهذا الغرض، ويحينها، ليقتنمها ويستفيد منها؛ عاملا، في الوقت عينه، على إدراك مناه من سبل يخططها لنفسه، ووسائل يخططها، ولا يرى اتصالا بفرضه، مباشرة. منها توصيته مصانع الأسلحة الفرنسية، في سنة ١٨٦٧، على صنع عدة آلاف بندقية من البنادق ذات الإبر، التي كان قد اخترعها رجل يقال له "شماسبو" وتسمت باسمه، ليسلح بها الجيش المصري، بدل البنادق القديمة، الموضوعة بين يديه منذ أيام (محمد علي) الأخيرة: فيكسبه قوة واستعدادا للطوارئ.

ومنها إشراك حكومته في مؤتمر النقود، المنعقد بباريس في تلك السنة؛ وإرساله مندوبا من قبله يمثل مصر فيه؛ وتزويده بإياه بأوامر أدنى ففازها إلى تعديل النظام النقدي في القطر في السنوات التالية.

ومنها حمله الملكة فكتوريا، بواسطة قنصلها العام بمصر، على منحه أكبر درجات وسام الحمام، وتكليفها اللورد كلارنس باجت، أمير أسطولها في البحر الأبيض المتوسط، بالذهاب إلى حاحمة الديار المصرية، خصيصا، لتقليده إياه: حمله إليه

المعنى إلى  
الاستقلال  
والوسائل التي  
اتخذت لذلك

ذلك اللورد في وفد حافل من كبار ضباط عمارته البحرية ، وبعض كبار الكلاب ، وما حلت ركابهم بمصر إلا وأترظهم (اسماعيل) في قصر التزهة ، بشبرا — وهو الذي نزل فيه ، بعد ذلك بستين البرنس أوف ويلز وقريته ، ونزل فيه بعد نيف وأربعة عشر عاما ، الوفد العثماني الأول ، الذي أرسل لتسوية الخلاف بين الخديو (محمد توفيق) ورجال الجندية الثائرين على أنظمة حكومته — واحضى بهم احتفاء عظيما ، كان له أحسن وقع في قلوبهم . ثم استدعاهم الى حضور استعراضه للجيش المصرى الجديد في ميدان العباسية الشاسع . فكانت فرقة الهجانة أهم ما استوقف أنظارهم واهتمامهم فيه ؛ لأن جمال ملابسهم البلورية البديعة ، وسمرة وجوههم الناشئة عن لفتح شمس الصحراء لها ، والتعافى لهم جلال البناء التي شربوا فيها ، وكونهم جميعا من العرب ، حرك في المتفرجين عوامل الاستحسان والإعجاب — ولو أن السنة السوء التي لم تترك (اسماعيل) عملا بدون أن تنفث عليه سمومها ، زعمت أن أولئك الهجانة لم يكونوا عربا مطلقا ، وإنما كانوا من صعاليك الناس ، ألبسوا تلك الملابس في ذلك اليوم ، لمجرد التفرير بالضيوف !

ومنها اعتناؤه بالجيش المصرى وتعليمه ، اعتناء فائقا ، وإنشاء المدارس الحربية لتخريج الضباط الأكفاء ، واستدحاؤه للقواد الأمريكين لتدريبهم وتكوين أركان حرب متفوقين منهم ، وسيأتى شرحه بالتفصيل عند كلامنا على تحقيقه الشرط الثالث من خطته .

ومنه دأبه المستمر ، والذي سيأتى بيانه في حينه ، على معالجة لمباح مشروعه القضائى المقصود منه القضاء على قيد الامتيازات الأجنبية ، المتخذ على الأخص من تبعية مصر للدولة العلية ، مانحتها .

ومنها اغتنامه فرصة وجوده بالأستانة في أغسطس سنة ١٨٦٨ لطلب ونيل رتبة الوزارة الكبرى لولى عهده (الأمير محمد توفيق باشا) لاحتباره ذلك خطوة واسعة في سبيل رفع شأن العرش المصري؛ لأنه إذا كانت درجة ولى عهده ، درجة أكبر وزراء الدولة العثمانية ، فلماذا يجب أن تكون درجة الجالس فعلا على الأريكة المصرية. ومنها محبة جنوده من كريت النائرة على حكم الأتراك، بالرغم من إلحاح على باشا الصدر الأعظم عليه بإبقائها فيها، غير مبال بمقد ذلك الوزير طيه من جراء محبتها. على أن أهم تلك السبل والوسائل، إشرافه مصر، مستقلة عن تركيا، في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ واستقلاله ، دون السلطان العثماني ، بل وباهماله إياه بتاتا بالقيام بحفلات فتح ترعة السويس في سنة ١٨٦٩

اشترك مصر  
في معرض باريس  
العام سنة ١٨٦٧

#### ١ — اشترك مصر في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧<sup>(١)</sup>

كان (اسماعيل)، منذ أن عزم على ذلك ، قد أصدر أوامره الى ماربيت بك ، مدير المتحف المصري ، باتخاذ جميع الوسائل المؤدية الى جعل القسم المصري في ذلك المعرض في مقدمة أقسام الدول الشرقية قاطبة . فعقد ماربيت بك الأوامر بكل دقة ، وصرف عن سعة ، صرفا تمكن به من إعادة الحياة المصرية القديمة الى التجلي في الجزء المخصص لها هناك ؛ ومن إظهار الحياة المصرية المعاصرة بجانبها : فبينما موميات فراعنة القدم وتماثيلهم تعرض في وسط يذهب بالزائر الى تخيل نفسه عائشا . ثلاثة وأربعة وخمسة آلاف سنة الى الوراء ، كانت أشكال الوكائل والأسواق المصرية المعاصرة تبعثه الى الحياة بمصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد المسيح .

(١) أمم مراجع هذا الجزء من الفصل : "مصر القديمة والحديثة في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧" "تقرير ص .

وكان المعرض العام كله ، بعد أن أوشك في مبادئه أن لا يكون شيئاً يذكر ، قد نجح في مجالي بهجة تفوق كل وصف ، وأخذت الأقوام والطوائف تؤمّه من كل حذب وصوب ، ومن كل فج عميق ، وتماقت في أقسامه وقاماته أقدام اسكندر الثاني وفرنسيس يوسف ، إمبراطوري الروميا والنمسا ، وغلوم ملك بروسيا ، وألبرت أدورد ولى عهد الملكة البريطانية ، وفكتور عمانوئيل الثاني ملك إيطاليا الحلو الشمائل ، فهدما عبد العزيز سلطان تركيا ، خليفة الاسلام ، وأمير المؤمنين .

قسم المعرض  
المصرى

وكل هذه الرؤوس المتوجة مرّت على القسم المصرى ، ووقفت ، برهة ، أمام نقش رعمسيس الثاني — الفرعون القدير ، المظنون حتى ذلك اليوم أنه سيزوستريس هيرودتس ، أكبر الفاتحين ، وأجعد من تكالت جبهته بأكاليل القطار العسكرى — وشخصت ، مأخوذة ، صامتة ، الى جنة الراقد على صدرها نيفا وثلاثة آلاف عام والمنبث عنها درس جليل فى بطلان كل مجد عالمى . وراثهم الأقوام والطوائف يقفون تلك الوقفة ، فاقدم أكثر من واحد ، فى مجموعها المزدحم ، يحلل الأفكار والتأملات الدائرة فى خلد أولئك المتوجين ، وهم يمسون بذات أيديهم ، وينظرون بأم أعينهم أن العظمة البشرية الأكثر سطوعا ، لظل زائل ، وإن المجد البشرى الأكثر تألقا ، لشاع صائر الى ظلمة ناؤوس .

ثم مرّت تلك الرؤوس المتوجة على بيت "شيخ البلد" المقام بجانب المعبد المصرى القديم ، والمجهزة فيه معامل الحكايت : فانا بها فى القدم ، منذ نيف وخمسة آلاف عام ، ماهى اليوم ، وإذا بالمصريين والمصريات ، العاملين فيها ، هم هم المرسومة أشكالهم على جدران ذلك المعبد العتيق : دليل ساحط على حيوية الأمة المصرية ، وعلى أن الملوك والعواهل يتغيرون على عرشها ، ويتعاقبون ويؤولون ، أما هى ، فباقية الى الأبد !

نعم، إنها أضاعت ، بفناء طائفة كهنتها القديم ، قوتها ورجولتها وفلاحها ؛ وأصبحت طائفة الخلقى ؛ قليلة الاهتمام بالأمور؛ خائفة لكل نير؛ قابلة لكل عبادة ؛ عديمة الوحدة، والجنسية، والهيئة الخصوصية؛ غير بممانعة فى التنازل عن نفس ذاتيتها ، وتغيير دينها ولغتها وعاداتها — كأنها ليس بالشئ الذى يؤبه به — راضية بأن يصوغها المجلس السامى فى قالب يكافئ، بالرغم من شدة نفورها منه ، فى السابق، وكراهيتها له؛ غير مستغربة صبرورتها يهودية وعربية، وهى التى قاومت مائة وخمسين عاما قتال الوطن ، لتتملص من التير المكسوسى اليهودى العربى ؛ غير مستغربة أن يكون مبدأ أزمتها التاريخية مجزرة الشهداء فى عهد ديوكليانس، من جهة، والفتح الاسلامى، من الأخرى، وأن يصبح كل تاريخها القديم الحميد — الذى لا يضارع سنا العظيم من عصوره سنا أى تاريخ كان فى الوجود — شيئا منسيا، لا علاقة لها به، بل أجنبيا عنها بالكلية .

نعم إن هذا كله صحيح . ولكنها، بفضل اتحاد معظمها فى الاسلام، عادت فاستردت جنسيتها وهيئتها الخصوصية؛ ولولا الأقلية المسيحية، التى بقيت فيها — وربما كانت تكون مصيبة عليها وعلى نفسها لولا ماظهر من تضافر أبنائها فى العهد الأخير — لاستردت وحدتها، أيضا، فى العقيدة، والمصلحة؛ لا سيما أنها حافظت، بالرغم من صروف الأيام وحوادث الليالى، على شكلها الأصلى، وعاداتها، ومظاهر حياتها القديمة بجانب مظاهر حياتها الجديدة .

ذلك ما رآه أولئك المتوجون، زائرو القسم المصرى، فى ذلك المعرض العام، وقد انتقلت خطواتهم من قسمه القديم الى قسمه الحديث، فانه كان يشمل وكالة مربعة الشكل، لها صحن فسيح تحيط به عمدة من كل جهة ، وبين كل عمود وعمود،

خلاية لوضع البضائع فيها، وفي أحد أركانه، حجرة متروية، ينفذ إليها نور النهار من خلال باب خشبي، وفيها فسقية مياه معدة لوضوء التجار، ويعلو ذلك جميعه دور علوى، منقسم الى حجر، منفصلة الواحدة عن الأخرى، معدة لسكنى الأجانب، وفاتحة على طرقة دائرة.

ويجانب تلك الوكالة، قهوة تصنع القهوة فيها على الطريقة المصرية، معدة دكاكين، معروضة فيها المصنوعات المصرية، يستوقف النظر منها، على الأخص، صناعة الجلود ودينها، واختان الأنسجة، وجودة المروج، والصواني الخزفية، والمصوغات، والطرير على الجلد والقماش — وكلها تشهد بمهارة أيدي صانعيها — والآلات الموسيقية: كالكتجة المصرية، والعود، والقانون، والكبير تركى، والناى، والقيثارة، والرابعة، والزمار، والتغارية، والسنتير، والدربكة، والصنوج وغيرها.

على أن أهم ما كان في ذلك المعرض المصرى قسم محاصيلاته الزراعية وهى: علة نماذج قطن من أجل الأنواع — والقطن كما هو معلوم، إنما أدخل (محمد على) زراعته الى القطر المصرى، عملاً بتصيحة فرنساوى، يقال له المسيو جيميل، كان قد رأى بعض شجيرات منه في بستان باشا تركى اسمه (عمر) بالقاهرة، فألفت انتباهه وتقديره للفوائد الجمة التى تعود على البلاد من وراء تعمير زراعة ذلك النبات فيها — وجملة أصناف قمح، وذرة، وتيل، وسمسم، وبرسيم، وفول، وترمس، وحناء، ونيلة، وتبغ، وأصناف أرز وبلع وقصب سكر. الخ

وبينا زوار المعرض المصرى في باريس يعجبون بهذه المعروضات، ويثقلون من دكاكين سوقه الى قهوته، الى صحن وكائنه، ويقول لهم ماريت بك إن فى مثلها، بالتمام، نزل الجنرال بوناپرت، لما دخل الاسكندرية فاتحاً، وبيناهم

يتراحمون ، لتنتزع على موميات الفراعنة ، لا سيما مومية « رعسيس الثاني » ،  
ولتمثل مصر كلها أمامهم ، فتمتلئ بها مخيلاتهم ، من أوائل تاريخها الى أيامهم ،  
ويقص عليهم ما ربيت بك عجائب أيام (مجد على) ، وملهشات أعمال (اسماعيل) ،  
والتغييرات الأساسية التي أدخلها على الحياة المصرية ، بقصد حملها على التطور نحو  
المدنية الغربية — ليخدم بذلك مآرب مولاه ، ويمل من قدره وقدر بلاده في أذهان  
سامعيه وقلوبهم — اذا بالجرائد الباريسية صدرت مبشرة بوصول « خديو » مصر  
الى عاصمة الامبراطورية الفرنسية ، وخصص معظمها عمودا أو عمودين لرواية  
ما يعلبه عن ذلك الزائر الجليل .

ولما كان القرب المنوح له حديثا جديدا على المسامع ، أقبل الناس يتساءلون :  
« خديو ؟ ماهو الخديو ؟ » واشترأت أعناق أفهامهم الى الوقوف على معنى الكلمة ،  
بالتعريف بحقيقة الأمير المطلقة عليه .

وكان (اسماعيل) قد قدم ، وجيوبه ملأى بالنقود ، ونزائن المصارف بباريس  
ولندنت تحت أمره وتصرفه . ففتح يديه بسطاء وبذخ لم يمهدهما العالم الغربي  
في جاهل من العواهل الذين زاروا ذلك المعرض . فبات أحلوثة إعجاب الجميع ،  
ولقبته الدوائر الاجتماعية ، على اختلاف أنواعها ، « أسد اليوم » ، وانكسفت ،  
أمام بهجة أصفره الزن ، المبذول يهود حامي ، شمس جلالة السلطان عبد العزيز ،  
على شدة سطوعها .

فوقع في خلد العامة أن « الخديو » انما هو أحد ملوك رواية ألف ليلة وليلة ،  
بعث الى الحياة ، ثانية ، ليؤكد للأنا أن أقاصيص تلك الرواية انما هي حقائق ،  
لا أحاديث خرافة ، وأن « خليفة الفراعنة على عرش القطرين » أكبر ملك حلت

قدماء في ارض فرنسا ، كما أنه أغنى حواهل الأرض قاطبة . وعلت منزلته ومنزلة  
بلاده في تقدير الكل واعتبارهم ، علوا كبيرا .

لطفة (اسماعيل)  
أثناء زيارته لباريس

ومن الأخبار التي تناقلتها الألسنة عنه ، حكايته مع أحد كبار نبلاء البلاد  
الفرنساوية ، التي رواها الكنت دى لافيزون في مذكراته غير المطبوعة ، ومؤداها :  
أن ذلك النبيل دناه الى وليمة في قصره ، بضواحي باريس . فأجاب الخديو دعوته ؛  
ولذا به يرى قصرا بلغ من الجمال والجلال ، وفانر الرياش ، ما لم يكن أحد  
يتوقع وجود مثله ، أبدا ، في حوزة غير الملوك . فاعجب (اسماعيل) به أعجابا ؛  
وبعد تناول طعام النداء — وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين — أبدى لمضيفه  
استحسانه العظيم لقصره . فشكره النبيل على تعلقه . وكان قد قيل (لإسماعيل) إن  
الرجل في ضيق مالي شديد . فأحب مساعدته بشكل لا يجرح له إحساسه . فسأله  
عما اذا كان يريد بيع قصره — وكان الرجل ، على شدة احتياجه الى نقود ، لا يرى  
في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء العظيم ؛ ولكنه استنكر مقابلة لطف  
(اسماعيل) بخشونة الرفض . فعز له أن يبالغ بالثمن ، ليحمله على العدول عن رغبته  
في المشتري — فأجاب : « إني قد أبيعه ، يا مولاي ، مقابل خمسة ملايين من  
الفرنكات ! » ، ولم يكن يساوي أكثر من مليون ونصف مليون .

فالتقط (اسماعيل) الكلمة من فيه ، وهي طائفة ، وقال : « إني اشتريته منك ،  
بهذا المبلغ ! » وحرره في الحال حوالة بمنته على أحد بنكريه بباريس . فلم ير الرجل  
بدا من قبول البيع .

غير أن (اسماعيل) التفت ، حينذاك ، الى ابنة ذلك النبيل — وكانت هيفاء  
لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعا — وقال باقتسام جميل ، مخاطبا والدتها : « على اني



لا إخالك تمنع في أن تحرر عقد البيع للأتمة ابنتك هذه اللطيفة، تخليداً لذكر استمسان "خديو مصر" ظرفها وآدابها، وليجلا يقال انى زرتك لأجرك من ملكك<sup>(١)</sup> .

فكان لهذه الهبة الجليلة، وكيفية منحها، رنة إعجاب في العاصمة الفرنسية، جعلت (اسماعيل) موضع إشارات البنان والتفانيات الأعين، حينما توجه، وأينما حل؛ ومهلت عليه جدا تحقيق الرغائب السامية الماثرة في فؤاده، ألا وهي القضاء على القيدتين المقيدتين استقلال بلاده، وأضى بهما : ما تبقى من ظل السيادة العثمانية عليها، والامتيازات الأجنبية .

مقارنة بين اسماعيل  
وخليل  
امبراطور ألمانيا

ولا غرابة . فان هذه الحادثة تذكرنا بما كان من غليوم الثاني، امبراطور ألمانيا المخلوع، أثناء زيارته لسوريا سنة ١٨٩٨ فانه، بعد أن غمر، هو وزوجه، بهدايا (عبد الحميد) الثمينة؛ وكلف الدولة العلية نيفا ومليونين من الجنيهات؛ وقفل الى عاصمته، من بعلبك، معظم فئاس معبد الشمس الشهير فيها، بتصريح من ذلك السلطان—وهي آثار لا تقدر بأموال ولا تمن بكنوز—بعد أن اقتطع منه، في صميم بلاده، الأراضي الشاسعة، ليستعمرها الألمان؛ وبأن امتياز إنشاء السكة الحديدية من أشقوداره، تجاه الأستانة، الى بغداد، بالمزايا والضمانات المالية والعقارية العظيمة اللاحقة بها—فكان كأنه وضع يديه على رقبة الدولة البائسة، وملك قلبها— ولم يعط، عن ذلك جميعه، بدلا، سوى صداقته، وهدايا لحاشية السلطان ورجال ما بينه، بلغ ثمنها خمسة وثلاثين ألف فرنك، فقط—اذا كانت ذا كرتى لا تخوننى—

(١) انظر : "مذكرات الكونت دي لافرون" المنشورة في جريدة "البرص إيجس" بمصر

والاسكندرية سنة ١٩١٧، على ما أعلن .

واكليل بروتر منذهب أهله الى ضريح (صلاح الدين) مرافقا بوعد صريح مقتضاه ارسال مثيله من الذهب الخالص ليقوم مقامه، وهو وعد لم يحقق مطلقا، حل أخيرا في دمشق، حيث أبهج العالم الاسلامي المنفور به، بإعلانه صداقته، أى صداقة "الإمبراطور الألماني" للثلاثمائة مليون مسلم المنتشرين على سطح البسيطة، ووقوفه بجانبهم معضدا معززا - كأنما الثلاثمائة مليون مسلم، وهم لو اتحدوا قلبا وكلمة، لوزنوا في كفة الإحتلال وزنا راجحا، في حاجة الى تعضيد فرد، مهما كان مركزه رفيعا! - ثم زار بيت آل العظم الرفيع الحسب والنسب، وشرع يكثر من استحصان ريشه وأثاثه لما أنس من عميد ذلك البيت الكريم أنه كان يرجوه بالحاح احتماي، أن يتفضل ويشرفه بأخذ كل ما كان يبدى به إعجابا. وما زالا على ذلك المنوال: هو يستحسن، والمعلم يهيب، حتى أحسن العاهل نفسه، على كبر جشعه، أنه تعدى كل حدود اللياقة، وأنه أصبح يقسم عليه، من باب عدم الإغراق في القصة، الوقوف في مضمار ذلك السلب. فما وجد ما يسبر به عن شعوره خيرا من قوله، بإتسام، الى عميد ذلك البيت الرفيع العاد: «إني أتيت لأزورك، لا لأسرقك!» وهى في الحقيقة جملة استجدائية في قالب ذوق، كان من شأنها، بداهة، توريط النخيل الدمشقي في تيار كرمه المنسفع - كما كان الواقع - فان العظم المحنى بوقار أمام جلالة زائره، وقال: «إبتنا يا مولاي، بأولادنا، ونسائنا، وأرواحنا، ومتاعنا، ملك أمير المؤمنين، وبما أنك صديقه، فنعن أيضا ملك جلاتك!» - ولست أدري أن انسانا يحترم نفسه، ولو قليلا، فاه، في أيامنا هذه، بجملة بعيدة عن الروح العربية والاسلام الصحيح، بعد هذه الجملة عنهما! - إلا أنها أطربت نفس القيصر الألماني المتألهة، طربا بعيد الغور. فالتفت الى حاشيته المرافقة له،

وصفق، وقال : «هكذا يكون الولاء لك، والعرش ! فتى أرى قلب شعبي مفعما بمثله ؟ » واستقر في سلب مضيقه من نفائس رياشه .

فأين عمل هذا الامبراطور الفشوم البارد، من عمل ذلك الخديو الكريم، الباهر ؟ وبعد أن مهد (اسماعيل) السبيل لنجاح مسعيه بباريس ؛ حتى أصبح تحقيقهما لديه أمرا غير مشكوك فيه ، سافر الى إنجلترا على ظهر سفينة حربية فرنساوية ، وضعها الامبراطور نابليون تحت تصرفه ، مبالغة في إكرامه ، وإظهارا لصداقته له . فحينه قلاع دوفر، ومدافع فرقاطتين إنجليزيتين أرسلتا خصيصا لا زامه ؛ وقبول، على الميناء، بكل مظاهر الاحتفاء بمجيء ملك من الملوك . ولما نزل في محطة تشيرنج كروس بلندن، وجد حرسا قائما لتأدية التحية العسكرية له ومواكب ملكية موضوعة وهن اشارته . ولكن، فيما صد ذلك، فإن الحكومة الإنجليزية أرادت جملة (عبد العزيز) فاهملت جانب (اسماعيل)، ولم تخصصه بقصر من قصور الأسرة المالكة . ولولا أن ضيافته الملكية بمصر لكارر رجال بريطانيا العظمى، الذين وردوا عليه زائرين، كانت قد أكسبته قلوبا صليدة في تلك البلاد، لاضطر الى التزول في فندق عام .

غير أن بعض كبار اللوردات هب يفقد على الحكومة الإنجليزية اهمالها شأن «خديو مصر» الكريم . وأسرع اللورد ددلي ، ووضع ، تحت تصرفه ، قصره الجميل — وكان يضارع أنعم القصور الملكية في أوروبا حسنا، ونفاة رياش — وقامت الصحف اللندنية تطريه، وتثني عليه ، وتتمته بأجل الثموت ، قائلة عنه «إنه أحق حكام الشرق وأوسعهم نورا في عقلته» وترحب به ترحيبا جميلا .

فأثارت الملكة فكتوريا أن تشارك شعبها في شعوره؛ وبعد مضي يومين على وصول (اسماعيل) الى بلادها استقبلته في «ونذر كسل» جمعية ولى عهدا، استقبالا شائعا

ملكيا . ثم جمعت معا بين اكرامه وإكرام (عبد العزيز) . فاستعرضت الأساطيل البريطانية في برقيست، لإجلالها، ودعتهما، الواحد بعد الآخر، الى ولاثم فأنقرة، أولتها لها خصيصا . واتخذت بها بلدية لندن ، فأقامت ، لكل منهما ، حفلة استقبال حافلة في «الجديد هل» الشهيرة!

فكان ذلك جميعه بمثابة اعتراف شبه رسمي من الحكومة والأمة البريطانيتين بمساواة (اسماعيل) ببند العزيز، مساواة تكاد تكون تامة . وهو أقصى ما كان «مخدو مصر» يبنى نفسه به . فالتخذه ، والحالة هذه، سابقة يرجع اليها، يوم يحين الأوان لإعلانه استقلاله ، اعلانا صريحا، ومطالبته الدول بالاعتراف به اعترافا رسميا .

لذلك، ولو توقفه من فرنسا وامبراطورها، وثوفاكليا، عاد الى مصر من سفره الى المعرض لمشرح الفؤاد انشراحا لا مزيد عليه — بعد أن عرج على الأستانة كما تقدم وأدب فيها ولحمة فأنقرة للسلطان ، مساء يوم السبت ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٧ ، في قصره الجليل بمبركون، (السابق مشتره على ضفاف الإسفور، واعداده اعدادا فاقها ليكون جديرا بحلوله فيه، مع حاشيته، عند ذهابه الى دار الخلقة<sup>(١)</sup>) واستصدر فرمان . سبتمبر سنة ١٨٦٧ الذي سبق ذكره — واما عاد منشراحا ذلك الانشراح لأنه بلغ من اشراكه بلاهه في ذلك المعرض وذهابه اليه مقصدين من المقاصد التي حملته حل فلك الاشراك ، وهما : (أولا) اظهار «مصر» متقدمة راقية ، جديرة بانعطاف كبيرات الدول عليها، والأخذ بناصرها، وتوطيد الثقة التامة بآليتها، والأعتقاد بلا نهائية ثروتها في نفوس الجميع، و(ثانيا) حل العالم المتمدين على أن يحمله ، من نفسه وصميمه ،

(١) ترى وصف تلك الرحمة البديعة في الجزء الخامس من «كنز الرقاب في متعبات الجواب»

عمل ملك حقيقي مستقل . وتمكن في الوقت عينه من المحافظة على حب الأستانة له ،  
بالرغم من عمله على تقليص ظلها الثقيل عنه ، وهو تمكن كان لا بد منه لنجاح مقاصده  
الخفية . فلم يستكثر في سبيل ذلك جميعه الأموال الجمة التي أنفقها ، وعلمها منفقة  
في خير الوجوه ، ولو أنها بلغت بضعة الملايين من الفرنكات علنا .

الاستقلال ، دون  
السلطان المماني  
بالقيام بمحفلات  
ترعة السويس

٢ — الاستقلال دون السلطان العثماني بالقيام بمحفلات ترعة السويس<sup>(١)</sup>  
عاد (اسماعيل) ، من السويس ، الى القاهرة — بعد قيام البرنس أوف ويلز  
الى الاسكندرية ، ليحضر منها ، ووجهته الأستانة ، في شهر مارس سنة ١٨٦٩ —  
وقد شغف بعمل دى لسبس شغفا يفوق حدود التصور ، ووطن نفسه على أن يقوم  
باحفلات فتح التركة للتجارة العالمية ، قايما يزيل كل ما أشكل على التنير في الماضي  
من نياته ، ويظهر ثروته وثروة بلاده في مظهر تتضاهل أمامه كل ثروة أخرى ، مهما  
عظمت ، أو فخمته الأحلام ؛ فيبهر العالم المتمددين ويسحره ويأخذه ؛ ويستنمها  
فرصة في الوقت عينه ليحجز مما بقي من القيود العثمانية الملقاة على عاتق مصر ، فيعلن  
استقلاله بها ، بمساعدة المواهل الغربيين الذين يكون قد فاز باستمالهم اليه ، لا سيما  
الامبراطور الفرنسي ، والملك الايطالي ، صديقيه الجيمين .

(١) أهم مصادر هذا الجزء من الفصل : "رسائل ويومية ومستندات" لفردينان دى لسبس ، و "آل  
دى لسبس" لبريدييه ، و "ترعة السويس بمسد فتحها" لفردريك دى كونتك ، و "خطة سر  
المدهوين الى محفلات افتتاح ترعة السويس" ، و "تاريخ مصر الحديثة" لجورجى بك زيدان ،  
و "اتتاح ترعة السويس" لنيكول ، و "فردينان دى لسبس . حياته وأعماله" لبرتران ،  
و "مصر بحسب المعاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١" لبردقاليو ، و "مصر وتركيا" بلأى لساك ،  
و "الخدوي والسلطان" لجيومون ، و "الخلافة التركي المصري من الوجهة القانونية" لوردى ،  
و "بعض كلمات عن مصر الحديثة ونائب السلطة" ، و "الفتح" لبريج ، و "مصر وتركيا"  
لترينزاني ، و "كثير الزنائب في منتخبات الجوانب" ج ل لأحد قاوس الشدياق ، و "تاريخ  
مصر في عهد اسماعيل" لملك كون .

وبينما هو يضع الخطة لسيره وعمله ، ويستمرىء ، مقلما ، لذة فوزه بمبتغياته ،  
واحراز اعجاب العالم به ، وقع في خلد مدير الأوبرا الخديوية ، المدعو منسى بك —  
وكان أرمينيا تفرنس — أن يلقى سكينته ، ويشغل فكره ، ليفتس شكره ، ويشرى  
من «مخطوطيته» .

مكيمة

ففى ذات ليلة من ليالى أبريل الأولى ، إذ كان (اسماعيل) مزعما على الذهاب  
الى تلك النار ، ليحضر تمثيل الجوقة الفرشافية ، المستأجرة فى ذلك العام ، دخل  
منسى بك ، مضطربا ، الشرقة المخصصة هناك لسموه ، وأخرج شيئا سمجا حاول  
صانه أن يجعله آلة جهنمية — من تحت الكرمى الذى كان (اسماعيل) يجلس عليه ،  
وأوقع الصوت فى النار . فاضطربت كلها ، وبطل التمثيل ، وحملت الأنباء الى  
الخديو — وكان لا يزال يعابدين — فارتجج ، وعلا الغضب وجهه ، إذ ظنها مكيمة  
جدينة دبرها له مريدومه المنفى . وارتجت أركان العاصمة ، ووجلت قلوب الجالية  
النربية فى القطر . وأكب رجال الشرطة ، ورؤساؤها على البحث والتنقيب ، للوصول  
الى معرفة مدبرى تلك المكيمة .

فأسفر بحشهم وبتقيقهم .: (أولا) عن أن تلك الآلة ، المزعومة جهنمية ، لم تكن  
تخفى فى جوفها مسوما ، وإنما كانت مظهر خطر فقط ، وآلة نصب فى الحقيقة ؛  
(ثانيا) عن اعتراف منسى بك نفسه بأن المسألة كلها لعبة دبرها ، هو ، لتتخذ  
شكل مكيمة ، فيكون له نغرا اكتشافها ومغرم المكافأة الثمينة التى كانت لا بد من  
إعطائها له .

غير أن (اسماعيل) لم ترق فى عينه تلك اللعبة ، ولولا تماخل قنصل فرنسا ، بتأثير  
مثلة من ممثلات الجوقة كان مفرما بها ، لخسف بذلك الأرمنى السميع الأرض ،

أو نفاه على الأقل إلى فازوغلو، ذلك البلد الذي لم يكن أحد يعود منه . ولكن تناخل القنصل الفرنسي عمل عمله . لجود منسى بك من رتبته ونياشته ، فقط ، وطرد من البلاد ، وأُنذر بالاعدام إذا تجاسر على العود إليها<sup>(١)</sup> .

وإنما كان مثار غضب (اسماعيل) وتميزه من تلك اللعبة السمجة خوفاً من أن تكون سبباً في نشوء فكر الاحتناء عليه ، حقيقة ، في بعض العقول المريضة ، أو بعض القلوب الناقصة ، لما جبل عليه الإنسان من حب الاحتناء ، لا سيما بما كان تترأسوه . فأمر باغلاق دور التمثيل والملاعب ، وأبطل ملاهى القصور ، وقصفها . ولم يكن خوفه في غير محله . فان الجند كان قد شرع يتذمر من قلة الطعام ، ورداءته ، وكثرة التعب وبهاطلته ، فيما كان يعمل عليه من العمل في اقامة القصور الخديوية ، وتحسين العاصمة وتنظيمها ، وفي الشؤون المدنية المحضة الأخرى . وإنما أراد (اسماعيل) أن يعمل الجند على ذلك العمل ، وأن يكون طعامه بسيطاً وقليل ، بالرغم من ذلك ، ليعوده احتمال المشاق ، وقناعة النفس ، فيكون منه جيشاً متصفاً بصفات الجيش الذى انتصر به (ماريس) الرومانى على جموع السمبر والتوتون ، بعد أن شغله طويلاً في أعمال شاقة كذلك العمل ؛ وبصفات الجيش السبرطانى ، الذى لم يكن يعطى له طعام ، بالرغم من كثرة جهوده ، سوى حماء محروق ، أى جيشاً بطلياً قوياً ، لا يتمكن مصر به من الاستقلال التام ، فقط ، بل من مد سلطانها إلى أبعد الأقطار الجنوبية ، ودرع رايها على خط الاستواء ذاته . ولكن روح ذلك الجند أبت أن تكون من طراز جيش ماريس ، وجيش اسبرطة . فكثرت فيه التملل والتضجر ، من العساكر ، ومن الضباط أنفسهم ، ونمت نوافذ سراى طابدين عينها .

(١) أقلر : "مصر في عهد اسماعيل" لما ذكر من ص ٨٩ ، ٩٠ .

إيماناد روح تورد  
في الجند المصري

فاضطر (إسماعيل)، لحق تلك الروح الشريرة في بده نشاتها، أن يأمر بالقضاء القبض على عدد من الضباط المشار إليهم بالبئان في مظهر ذلك التمزد — وقد جعل بعضهم ذلك العدد ثمانية، وجعله آخرون أحد عشر — ومحاكمتهم أمام مجلس عسكري لحوكموا، وحكم عليهم بالإعدام رميا بالرصاص. ونفذ فيهم ذلك الحكم، ثاني يوم صدوره، في قرية تجاوز مصر. على أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك التنفيذ إلا ووجد أربعة عناصر مسلحون ومتباطون شرا يتجهلون في بستان قصر الجزيرة، والسوء متلبس بجميع حركاتهم. وكان الخديو مقيا إذ ذاك في ذلك القصر. فقبض عليهم في الحال، وقتلوا رميا بالرصاص، وطرحت جثثهم في النيل. نفخدت روح الفتنة في الجيش، ولم تعد تبلى حراكا<sup>(١)</sup>.

ومن حسن حظ البلاد أن هذه الحوادث المزعجة، وإقدام مجلس النواب — قبل انفضاضه في الخامس والعشرين من شهر أبريل عيته — على ربط عوائد وضرائب جديدة (منها عوائد على رؤوس حيوانات النقل والفلاحة الزائد عمرها على ثلاث سنوات) مرا بلون أن تضطرب لها حياة البلاد؛ مع أن فساد تلك الضريبة الغريبة، فيما لو أريد اجتتاب الحيف والإجحاف، كان من شأنه إيجاد مجلات خاصة لقيد مواليد تلك الحيوانات : وهو أمر كان فيه مافيه من السخرية والهزء في ذلك العهد. وإنما قل الاهتمام بذلك جميعه لأن الأفكار كانت كلها مشغولة بسفر الخديو القريب لزيارة ملوك أوروبا وعواهلها، ودعوتهم الى حضور حفلات التتاحت ترمة السويس، وهو حضور كانت التجارة المصرية تتوقع منه أكبر الخيرات وأجزاها، وكان المصريون يعلقون عليه آمالهم في بلوغ بلادهم الاستقلال المنشود.

(١) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لملك كرن ص ٩٠ و ٩١.



ولكى تكون رحلة الأمير الرسمية لهذا الغرض مميزة عن كل ما سواها من نوعها،  
قر الرأي على أن يعين الأمير (محمد توفيق باشا) قائما مقام سمو أبيه الفخم، مدة غيابه،  
تحت إرشاد شريف باشا، وزير الخارجية. ولكيلا توظف هواجس في صدر تركيا،  
أشيع في بادئ الأمر أن السفر إلى الخارج إنما علمته معاودة وجع الحنجرة الخديو،  
وأشارة طبيبه عليه بالذهاب إلى (إمس) و(قيشي)، هذه المرة.

ووجع الحنجرة هذا كان اعتري (اسماعيل) في بحر شتاء سنة ١٨٦٨، ولم يشخصه  
الأطباء، في الأول، تشخيصا صحيحا. فأهل الخديو شأنه، وتهاون في مداواته،  
فانقلب إلى وجع خطير، ومرض شغل الأفكار وأقلقها. فما وسع دولة والدة  
الجليلة، والحرم المصور، إلا الإلحاح على الملك بإعادة طبيبه العادي الخاص إلى  
خدمته — وكان قد أقاله وأبعده عن القطر بسبب حادثة بلاطية لم يدرك كنهها،  
وتضاربت الأكسنة في روايتها وبيان تفاصيلها — فما عاد إلى معالجته، إلا وبدأ  
التحسين في حالة المريض الجليل، واستمر مطردا، حتى أزال العلة تماما. على أنه  
لم يكن لينسب، في الحقيقة، إلى مهارة الطبيب؛ بل إلى فرح الخديو الجليل بمولود  
جديد رزق به، في السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٦٨، دعاه (أحمد فؤاد)  
فرت به حينه، وأحده الله لمستقبل باهر. ولكن الطبيب رأى، مع ذلك، وجوب  
سفر سموه إلى الخارج لمعالجة بياه الجملات الموصوفة، توصلا إلى قطع دابر ذلك  
المرض بالكلية، ومنع عودته في المستقبل. فرأى (اسماعيل) أن يسافر إلى بروصة  
في الأناضول: (أولاً) لأنها بلد إسلامي؛ و(ثانياً) لأن مياهها قلما يوجد لها مثيل  
في البلاد الأخرى؛ و(ثالثاً) لأنها قريبة من الأستانة، وكان هو في احتياج إلى  
تسجيل موافقتها على المشروع القضائي، الذي كان قد خلف نوبار باشا، وزيره

في أوروبا ، ليجد في إدراك تحقيقه . فبعث ، أولا ، من حل تلك المياه تحليلا  
 كيمويا ، ولما أظهر الفحص جودتها ، قرر السفر الى بروصة والاقامة بها زمنا ، ثم  
 مغادرتها الى (امس) أو (أوبن) ، فالى باريس لنسج خيوط مساعده الاستقلالية  
 وتشجيعها ، وللمساعدة نوبار على نفاذ الاصلاح المرغوب فيه ، والذي كانت المخبرات  
 بشأنه قد تقدمت تقدمًا محسوسًا جدًا . فسافر اليها ، في الواقع في ٣٠ مايو سنة ١٨٦٨ ،  
 وتعالج بمياه حماماتها المعدنية . فأنفذه فائدة كلية ، عدل معها عن الذهاب الى (امس)  
 أو خلائها ، وقرر تمضية باقي فصل الصيف في عاصمة السلطنة العثمانية ، يقوم بمظاهر  
 ولائه ما قد توقفه مساعده وأعماله من ظنون في صحة ذلك الولاء وحقيقته ، ويسدل  
 من قهقهة المبدولة بسخاء ، حجابا كثيفا أمام حيون الراغبين في الوقوف على كنه  
 نياته . ففعل ، ونال ما تمنى ، وطاد الى بلاده ، بعد غيبة ثلاثة أشهر عنها ، وهو يرى  
 أنه يكاد يلبس لجاحه باليد .

ولما أشيع ، في المناسبة التي نحن بصدددها ، أن معاودة داء الحنجرة له هي الموجبة  
 لسفره هذا العام ، قرنت الاشاعة بنبا مؤثاه أن الأطباء أشاروا عليه بالاستحمام بالمياه  
 الأوروبية ، هذه المرة ، فحتموا عليه السفر الى أوروبا ، ثم شرع — والاشاعة تروج  
 وتروج — في أخذ الاحتياطات اللازمة لتكون الرحلة محفوفة بمظهر ملكي حقيق ،  
 فيتم كل شيء بحيث يسبق السيف العذل !

فلما اكملت الاستعدادات جميعها ، أقطع الخديو من الاسكندرية في ١٧ مايو الى  
 البندقية ، ومعه حاشية يفوق عدد رجالها مثله في الرحلات السابقة ، ويحيط به  
 مظهر يكاد يكون امبراطوريا . فاطلقت الحصون مائة مدفع ومدفعا ، تكريما لوداعه ،  
 وسار يخته القنم "المحروسة" تتقدمه ثلاث سفن حربية ، وتبعه ثلاث أخرى ،

سفر الخديو  
 الى أوروبا  
 لاستقاء هواها  
 الى حفلات ترعة  
 السويس

حتى اذا توسط عرض البحار بتلك العارة المستوففة الأنظار، صرج على جزيرة كرفو، حيث كان جورج ملك اليونان مقبلا . وبالرغم من أن هذا العاهل كان قد أوشك منذ عهد قريب أن يشترك في حرب مع تركيا، وأن علاقته بها كانت لا تزال بسبب كريت صداية أكثر منها ودية، دناه الى حضور حفلات فصع ترمه السويس المقبلة، بالحاح، وقدم لزوجه الجميلة، الملكة ألبا - ولا تزال حية - مائة ألف فرنك، مساعدة للهاجرين الكريتيين، مظهرا لها عطفها كبيرا عليهم، على زعم الجرائد اليونانية، ورغبة أكيدة في تخفيف ويلاتهم - كأنما تركيا في واد، ومصر في واد آخر.

وبعد أن أقام بضعة أيام بضيافة الملك جورج، أطلع الى البندقية، وسار منها الى فلورنسا، حيث أسرع الملك فكتور عمانوئيل الثاني، صديقه الحميم، من مقره في تورينو، الى مقابلته، وأتزله في القصر الفخم المسمى "قصر بيتي" نزول ملك مالک . فاقام (اسماعيل) هناك أسبوعا، وهو في روحته وضوائه عطف عناية وإكرام فائقين، ثم سار الى فيينا، حيث قوبل ووصل أيضا كلك مالک .

ثم سار الى برلين . فأتزل في "الشلوس"؛ وأبدى له غليوم الأول، الملك الشيخ، من الاحتفاء والاعزاز والتمظيم ما لم يقل عما صادفه منها في فلورنسا وفيينا .

ثم سار الى باريس . فوجد مقابلة رجة ملكية من عاهل الفرنسيين وشعبهما، وتشجيعا مريا لمساعدته، فوق ما كان يتوقع .

ثم سار الى لندن . فأتزله الملكة فكتوريا، هذه المرة، في قصر بوكينهام الامبراطوري . وتبارت هي في وندزر، والبرنس أوغ ويلز في مرلبور وهاموس،

والدوكات في قصورهم ، والبلدية في "الملش هوس" و "قصر البلور" ، في تكريمه  
وتعظيمه ، نيفا وعشرة أيام ، إكراما وتعظيما قلما يبذل مثلهما حتى للولك .  
فانشرح صدر (اسماعيل) ، وابتهج فؤاده .

ولكن تركيا — وقد حقد صدرها الأعظم ، طالى باشا ، عليه بسبب محبه جنوده  
من كريت ، وما بدا منه نحو ملك اليونان من التوقد والاكرام ، ونحو ثوار الجزيرة  
من الانعطاف والمساعدة — كانت واقفة له بالمرصاد . وما أدركت غرضه الحقيقي  
من رحلته ، إلا وأقبلت تمكر عليه حבורه ، وتخذ من مسلكه ، ومن تغير خاطر  
السلطان عبد العزيز عليه ، لعدم قصده إياه ، قبل الجحج ، بصفتة سيد مصر ، وعدم  
توجيه الدعوة اليه ليرأس الحفلة العتيدة ، حجة تهليده وتوعده ، ووسيلة لابتزاز  
قوده ، في سهل رضاه عنه .

التزاع مع تركيا

فبعثت في منتصف شهر يونيه ، وقبل حلول الرب الخديوى في أرض المجتراء ،  
مقشورا الى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الغربية ، تأمرهم فيه بالاحتجاج على  
عمل خديو مصر ، واعتباره خارجا عن حدود اللياقة ، جارحا لحقوق السيادة التي  
لتركيا عليه ، ومزريا بالواجب المطلوب من التاج لمتبوعه ، وذلك لأن الدعوة الى  
حضور حفلات فتح ترسة السويس انما كان يجب أن تكون باسم السلطان العثماني ،  
سيد البلاد الحقيقي ، وحده دون غيره ، لا باسم الخديوى ، الذي ما هو إلا نائبه ، وأنها ،  
بالتالى ، بشكلها الذي تشكلت به ، باطللة ملغاة .

ولم يكتف الباب العالي بذلك ، بل أوعز الى جرائده المأجورة بحريدة "تركيكا" ،  
وحريدة "الليفنت هرلد" بشن الفارة على مامع لمصر من امتيازات ، وحمل الحملات  
العنيفة على (اسماعيل) ، ورميه بنهم المروق والنجاسة ، والسعى الخبيث الى الإضرار

تركيًا، وتمادى في هذا التيار، تماديا ظهر بأجل معانيه ورموزه في المقالات المتتابعة، التي دمجها يراع مسيو بردانو، كبير كتابه الأجودين، ورئيس تحرير جريدة "تركيًا"، فانه حصر في سبعة أوجه أنواع الخطأ التي زعم أن (اسماعيل) ارتكبها، وطلب بالحاح أن يكون عقابه عليها العزل من منصبه، وإعادة مصر ولاية عثمانية بقاء الولايات — عملا بالشرط الثاني عشر من شروط فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

وأما تلك الأوجه السبعة فهي :

(أولاً) زهاب التهديد إلى أوروبا لسبر غور الدول فيما يتعلق بعزمه على إعلان استقلاله بمصر .

(ثانياً) إقحامه على الدخول مباشرة في غارات ، بقصد عقد معاهدات تجارية مع الدول الأجنبية، بدون استئذان تركيا أولاً .

(ثالثاً) تكليفه نوباز باشا بالسعى لدى الحكومات الغربية لجمعها على المصادقة على إنشاء محاكم مختلطة ، لا وجود لها في باقي ولايات الدولة العثمانية ، وتصرّحه لذلك الباشا بالتلقب بوزير خارجية مصر ، مع أن مصر لا خارجية لها سوى خارجية الدولة العلية .

(رابعاً) تسليحه بالجيش المصري ببنادق من الطراز الحديث ، بدل إبقائه مسلحاً بالبنادق القديمة ، أسوة بالجيش العثماني .

(خامساً) حقه قروضا باسمه ، بدون استشارة تركيا واستئذانها .

(سادساً) اضافته ثلاث فرقاطات مصفحة الى أسطول الحربي لتعزيزه تعزيزاً يخشى منه على سلامة الدولة العلية .

(سابعاً) وأخيراً نجنيه ، حمداً ، مقابلـة السفراء العثمانيين في المواسـم الأجنبيـة التي زارها .

فدفع (إسماعيل) هذه المهجـات بمجـدة . وكلف ، هو أيضاً ، جرائد وكتـاباً من مرديـه ، الأخـذ بتأصره ، وتنفيد مزاعم الباب العالي ودحضها ، وبيان سخافة احتـبار بعض تلك الأوجه ضارة بمصالح الدولة العلية ، في حين أن نعمها ظاهـر للميان : كوجهي تسليح الجيش المصري يتنادق من الطراز الحديث ، وبناء الفرقاطات المدرجة الثلاث . فإن في مثل هذين الأمرين من اكساب تركيا قوة وبأساً ، فيما لو شـت حرب بينها وبين دولة أخرى ، ما يحذر تركيا شكر مصر عليه ، لا تأنيبها وتقريعها . فكثر بين الناس تناول كتب ونشرات ونبذ : ككتاب "مصر حسب معاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١" (إردناتو) ، وكتاب "مصر وتركيا" لجـي لساك ، وكتاب "مسألة باشا مصر" للوكوتش ، وكتاب "الخلاف المصري التركي" للورى ، وغيرها . وبعضها منتصر لتركيا ، والبعض لمصر ، حتى جاشت النفوس وهاجت الصدور ؛ واحتدم النزاع احتداماً بات يخشى معه من شـوب حرب بين التاج والمتبوع ، يعيد بها التاريخ نفسه .

فأمرت الحكومة المصرية بترميم الحصون والقلاع والاستحكامات وتحصينها ، وتدريب الجيش وتعزيزه ؛ واتخذت كل الاحتياطات ، التي استدعتها تلك الحال الحرجة ؛ وشرع (إسماعيل) يسمي إلى استمالة الدول الغربية إليه ، بصفته معتدى عليه ، بدون وجه حق ؛ ووضع ، في الوقت عينه ، في مصرف من مصارف باريس ، ٥ مليوناً من الفرنكات ، توفياً للطوارئ . ولكنه أكد ، أيضاً ، رغبته في الاستقرار على خطته ، وعدم احتفاله بإبراق تركيا وإرغامها ، بالخطبة التي وجهها إلى اللورد مير

في ولاية الخليل هوس التي دعت به بلدية لندن إليها، وهي خطبة هيمنت تمام الهيمنة على سابقتها الملقاة منه في القاعة حينها، لدى أول زيارته للعاصمة البريطانية في صيف سنة ١٨٦٧ وتجدد صورتها في الجزء الخامس من "كتل الرغائب" السابق ذكره ص ١٤٣ غير أنه، لدى عودته إلى باريس، بعد أن زار بروكسل لدعوة ملك البلجيكي، أيضا، إلى احتفالات السويس العتيدة، أشار الامبراطور عليه بأن يلين جانبه، مؤقتا، ويدع، جانبا، كل ما من شأنه زيادة توتر العلائق بينه وبين تركيا، ويثبأ لتحسن الأمور. فان مسألة الاوكرميرج كانت قد أبقت، في الهواء السياسي، كهرباء لا تزال تياراتها شديدة، وربما كفت شرارة واحدة لتضجر منها طلقة تهتر لها الأكوان.

وشعر (اسماعيل) نفسه أن الفرصة غير سانحة لفتح باب ويلات على مصر والشرق؛ وأنه يحسره أن لا يدع مكتورا، مهما كان نوعه، يحول بينه وبين بهجة الأعياد بفتح ثمة السويس للتجارة العالمية، والتضجر الناجم له عنها؛ لا سيما أنه يدرى كيف تنال الأغراض في الأساتنة، مهما عز متالها.

فاهمل، مؤقتا، مسألة التزاع القائم بينه وبين متبوعه، واعتبر تهليلات تركيا كلاما فارغا، سوف يقضى عليه قضاء مبرما بهاء حفلات فتح التركة؛ ورأى أن يفتنم فرصة وجوده في باريس للدخول مع بعض المالين في غارات غرضها إنشاء بنك أهل، وبنك طقاري بمصر، يكون هو أكبر مساهميهما وأهم عملاهما؛ وذلك لعلمه أن لا استقلال سياسي لبلاد لا استقلال ماى لها.

فعرّفه مالى، كان مخصصا لخدمته في تلك العاصمة، بالمسؤولين كريمةيه. فأدت تلك المعرفة إلى ربط وثلق صداقة متبادلة بين سمّوه وذلك اليهودى، والى إنشاء البنك الفرنكو المصرى، بواسطته.

كذلك تعزف ، بواسطة نوبار باشا ، بالمالين ا . دى جيرارد دين وشركائه . وكانت نتيجة معرفته بهم إنشاء " الشركة العمومية المصرية " للتجارة والاستغلال ، قدام الخديو معظم رأس مالها ، وكل مصاريف تأسيسها . وكان الفرض منها حفر ترعة كبرى لرى جزء الوجه البحرى الشمالى الغربى ، وإعادته الى ما كان عليه فى أيام البطالسة والرومان ؛ وقد سبق لنا الكلام عن ذلك جميعه . وبعد أن كان قد عزم على تقيم مجرى سياحته ، والنهاب الى بطرسبرج ، حيث كان يقصر الروس قد دماه الى زيارته من القرم ، عدل عن ذلك وتوجه الى (أوبن) للتعالج ببياهها .

فوردت عليه ، وهو هناك ، دعوة من الباب العالى ، للور بالأساتنة لدى عودته الى مصر ، لى يقيم الايضاحات المطلوبة منه عن تصرفه المطعون فيه ؛ فرفض ، ولكنه ما لبث أن علم أن الباب العالى استدعى أخاه الأمير مصطفى فاضل من أوروبا ، وعينه وزيرا للداخلية الثانية . فقصر مدة إقامته فى (أوبن) واستحمامه ببياهها ، وأسرع الى طولون ، وركب البحر منها الى الاسكندرية فى ٢٣ يولييه .

غير أن طلى باشا لم يدعه فى راحة ، وأبى إلا أن يخز به بخطابات مؤلمة . فلم يرض على رجوعه الى ماصحته أسبوع ، إلا وأرسل اليه مندوبا خاصا من الأساتنة ، يحمل خطابا شديد اللهجة ، يتضمن كل ما سبق للباب العالى الشكوى منه ؛ ويطلبه بايضاحات سرية وإلا فإن الدولة العلية تعتبر تصدياته خارقة لحزمة فرمان سنة ١٨٤١ وتنفذ الاجراءات التى يستدعيها ذلك .

وكان (اسماعيل) ، قبل استلامه هذا الكتاب الجارح ، أخذ وفدا تحت رئاسة شريف باشا لى يرسله الى الأساتنة ، بقصد إزالة سوء الظاهر الواقع ؛ وزوده بما يحمل لكلامه وقما حسنا لدى رجال الدولة الثانية ؛ ولكن شريف باشا لدى اطلاعه



على رسالة طالى باشا التهديدية ، أبى الذهاب إلا مشمولا بتذكرة مرور من لندن  
القنصلية الفرنسية . فكلف (اسماعيل) اذ ذاك طلعت باشا بالمهمة ، وسامه ردا  
على رسالة طالى باشا ، بتر نفسه فيه من التهم المعزوة اليه ، ومائة ألف جنيه ليعزز  
بها ذلك التبرير .

فلم يرق الرد في أعين رجال تركيا ، ولا أقتنعهم المبلغ ، لا سيما بعد أن قارنوه بما ناله  
غيرهم ، قبلهم ، من ندى الخديو المصرى ، فأرسلوا الى (اسماعيل) بلافا نهائيا ، طلبوا  
فيه منه سبعة أمور : (أولا) تسريح ما زاد في الجيش المصرى على ثلاثين ألف رجل ،  
وجعل لبس الجنود الباقية لبس رجال الجيش العثمانى بالتمام ؛ (ثانيا) بيع البنادق  
ذات الإبر والمفترقات التى اشترتها الحكومة المصرية الى الدولة العلية ، أو التنازل  
لها عنها ، مقابل ثمنها الأصيل ؛ (ثالثا) عرض الميزانية المصرية ، منذ ذلك التاريخ ،  
على الباب العالى سنويا ، لتصديق السلطان عليها ، واعتماده إياها ؛ (رابعا) لإبطال  
المخابرات بين خديو مصر والدول الأجنبية ، إلا بواسطة سفراء الباب العالى ؛  
(خامسا) امتناع الخديو عن الاقتراض ، فى المستقبل ، بدون تصريح خاص من  
السلطان ؛ (سادسا) إجراء منقول « التنظيحات » بمصر ، أسوة بباقي ولايات الدولة  
العلية ، وترك أمر المخابرة فى إنشاء المحاكم الجديدة المرغوب فيها ؛ (سابعا) إنزال  
الضرائب الى ما كانت عليه أيام ارتقاء الخديو عرش مصر .

فلما بلغت هذه المطالب الى (اسماعيل) ، كان بميته فئصل دولة أجنبية ؛ فقال  
(اسماعيل) له : « إنا ظلم الإنسان الأتراك ، فيلزمه إما استماتهم اليه بالرشوة ، وإما  
الكشر لهم عن أنيابه . أما وقد رشوتهم فى الماضى ، فافى ، الآن ، لكأشر لهم  
عن ناب ! » .

ولعلمه أن سفراء إنجلترا وفرنسا والنمسا وإيطاليا لدى الباب العالي يعضدونه، أهمل الرد على تلك المطالب ما يزيد على شهرين . ولم يرسل جوابه إلا في أوائل شهر نوفمبر، محزرا بقلم نوبار باشا، الذي كان قد طرد من أوروبا .

وكانت لمجة ذلك الجواب الاستخفافىة تستر وراء حجاب رقيق من المجاملة . وبينما يتظاهر مبناه بالخضوع لمطلب أو مطلبين من مطالب الصدر الأعظم ، قابل برفض صريح الامتثال لأوامر الباب العالي القاضية بأن لا يقترض خديو مصر قروضا جديدة بدون تصريح من السلطان ، وأن يرسل ، سنويا ، ميزانية حكومته لينال التصديق عليها .

فلم يعد في وسع الباب العالي سوى الاعتراف بالانحلال والانسحاب من المعمعة ، أو إشهار حرب على مصر ، وكلا الأمرين كانا كريهين لديه . أما الأول ، فلمناقته لمية الدولة في النفوس ، وأما الثانى ، فلمعلم انخافه مع صفاء الأعياد الموشك اقامتها احتفالا بفتح ترعة السويس . ففضل ، إذا ، السكوت مؤقتا . ويمكن (اسماعيل) ، بذلك ، من التفريغ للقيام بتلك الأعياد ، قياما يهر الجليل الحاضر ، ويدوى صدهاء في آذان القرون المقبلة الى الأبد<sup>(١)</sup> .

وكان المسيودى لسبس قد أعلن في ٢ أغسطس أن افتتاح الترمة لللاحة العالمية يكون يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، ففى ١٥ أغسطس أزيل الحاجز القائم دون دخول مياه البحر الأحمر في البحيرات الملحة ، فتدفقت فيها . وأقبل رجال الشركة يدأبون على تقييم الأعمال الأخيرة : من قياس الأعماق ، ورفع المواقي التي قد تكون تخطفت عن الشغل في سبيل السفن متى جوت ، وتطهير فرش الترمة من كل رمال تطرقت إليها .

(١) أنظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" - المكون من ص ٩٣ الى ١٠٣

فطرح (اسماعيل) ، في المزاد، أمر القيام بالشؤون التي تستدعيها الاحتفالات العتيدة ، حافظا مخزينة المصرية حتى عمولته على من يرسو عليه مزادها . وأرسل يستحضر نجمة طاه ، وألف خادم من تربسته ، وجنواه ، وليفروا ، ومرسيليا ، ليقوموا بخدمة ضيوفه ، زيادة على طهاته ، وخدمه المصريين . وبعت يرحو المسيو دي لسبس بأخذ الاستعدادات اللازمة لضيافة ستة آلاف مدعو .

ثم أكتب على وضع الترتيبات ، واصدار الأوامر ، وتحرير الدعوات التي صمم عليها . وكان قد أجاب دعوته من عواهل أوروبا كل من لم يحل دون مجيئه حائل . فوصله بالحضور : أوجيني امبراطورة فرنساوين ؛ وفرديوسف امبراطور النمسا وملك المجر ؛ وفردريك ظلم ولي عهد الساج البروسيانى ، وقريته بنت الملكة ثكتوريا ؛ وهنرى امير هولندا ، والأميرة قريته ؛ ولويس أمير المص . ومن لم يتمكن من المجيء ، أمر سفيره بالأستانة أن يقوم مقامه ، أو انتدب أحد كبار رجال دولته لذلك .

أما السلطان فلم يدع مطلقا ، ولا حسن لديه أن يدعو نفسه ؛ ولا كلف أحدا من كبار رجال دولته بممثله ، بل اكتفى بالإيعاز الى سفير انجلترا لديه بذكر اسمه لدى فتح القاعة .

على أن ذلك لم يكن كبيرا في عينى (اسماعيل) إلا من وجهه المستحسن . فراق لديه جدًا تغيب عبد العزيز ؛ لأن وجود السلطان على رأس ذلك الاحتفال كان من شأنه المهبوط بخديو مصر الى الورا ، وبمصر الى درجة ولاية عثمانية محضة ؛ بينما أن عدم وجوده كان برهانا محسوسا على جلوس الخديو في مصاف الملوك ، وعلى

استقلال مصر عن تركيا، حتى فيما لما من العلاقات بالدول الأجنبية، لا سيما إزاء بقاء احتجاجات الباب العالي السالف ذكرها، حبرا على ورق .

ولكى يكون العيد عيد العلم، كما هو عيد تلاقى العظائم البشرية، دما (اسماعيل) جمهورا غفيرا من رجال الأدب والعلم، والفنون، والتجارة الكبرى، والاستقلال الفنى، ومراسل الجرائد الغربية المهمة كلها، بل ذات مراسل الجرائد التى من الطبقة الثانية والطبقة الثالثة فى الأهمية — لما كان للأدب والعلم والصحافة وباقي ما ذكر من رفيع المتزلة لديه .

على أن كثيرين ممن لم يشتهروا فى شئ ولم تكن لهم، نسبيا، حيلة ما على الإطلاق، بل كانوا أى فلان من الناس، تمكنوا من حشر أنفسهم فى زمرة أولئك الرجال الأكارم: لما المتزلة شخصية لهم فى أعين المدحون من أرباب الخيالات؛ وإما تمكنهم بوسائل ممتدة، من الحصول على أوراق دعوة بأسمائهم . ويقال إن عدد هؤلاء المتطفلين زاد على ثلاثة آلاف .

أما الامبراطورة أوجيني، فانها سبقت موعد الاحتفال، وقدمت الى العاصمة المصرية فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر . فأنزلها (اسماعيل) فى قصر الجزيرة، وقام بشؤون ضيافتها، قياما فاق كل ما اعتاده الملوك وأحاطم عواهل العالم من نوعه. وكان قد ذكر بعضهم أمامه، قبل حضورها، أنه لا بد لها من زيارة الأهرام، وأن الطريق، الى ذلك الأثر الفرعونى العظيم، لا تزال على ما كانت عليه فى عهد زيارة عبد العزيز . فسرطان ما أمر (اسماعيل) بتجهيزها، وجعلها مسلوكة للعربات وخرمها بأطل أنواع الشجر ! وسرطان ما فحنت أوامره، وسخر وزير الأشغال العمومية، ومدير اللجنة الأيدى، بلا انقطاع، فى العمل ! فأنشئت تلك الطريق

يجىء الامبراطورة  
أوجيني الى القطر  
المصرى

تجهيد الطريق الى  
الأهرام

في أقل من ستة أسابيع، كان ملوك الجن قد اشتغلوا فيها وغننوا، وبات العالم الشيق الى زيارة الأهرام مدينا بها للإمبراطورة أوجيني، كما أن السياح في الأراضي المقدسة مدينون لزيارة ضليوم امبراطور ألمانيا السابق لها بالطريق السلطانية الجميلة الممتدة ما بين حبرون (الخليل) وبيت المقدس — بفرعها الآتي الى بيت المقدس من عين كارم — ونابلس، والناصره، وطبرية ! لأن عبد الحميد إنما أنشأها لراحته ! وبعد أن قضت أوجيني أسبوعا في مصر، لم تنفك الأعياد والابتهاجات تتوالى فيه تحت قدميها، مسخرة، آخذة بالألباب، على أنواع وبكيفية لا يزال الشيوخ في عهدنا هذا يتحدثون بها، ويعدونها، في مخيلتهم المتخيلة، مزرية بللت ابتهاجات الجنة، المعتة للصالحين، قامت للسياحة على النيل، والتفرج في الصعيد على آثار الفراعنة المصريين .

رحلة الامبراطورة  
الى الصعيد

وسافر (اسماعيل) معها، بشخصه، متطوعا في خدمة جلالها الجليل وجمالها الجليل . فغفها يصنوف من الأبهة والصفحة، وترنحت قدميها الملكتين من أنواع الترف والملاذ، ما لم يقع في خلد ذات (كليوبترا) في أبهى أحلامها الذهبية، وليالى حياتها العديدة المثل .

ولا بد من أن الامبراطورة، حينما وقعت في الأقصر، وعند نرائب طيبة القديمة، على آثار (حاتشبسو) العظمى، أخت ملوتمزس الثالث، ناپليون مصر القرونية، قارنت بين نفسها وبين تلك الامبراطورة المصرية القديمة، مقارنة لا يدري كنهها إلا هي، ولا بد من أن ذكر (كليوبترا)، أيضا، أطل على غيلتها من نافذة تذكارات أيام صباها، فاخذت أفكارها محوم، تارة، حول مخدع قصر التويلري، بباريس، فترى قرينها البعيد، المرافق قلبه تنقل خطواتها في رحلتها، على بعد الشقة

بينهما، وتذكرها علاقته بعمه الإمبراطور الأكبر، الذي ترك، هو أيضا، أثرا بعيد  
الفور في ثرى مصر التاريخي الخصب، وطورا حول مضيها النيل، المستند،  
في سبيل إرضائها، جميع الوسائل التي يمكن لأكبر الخيلات تفتقا أن تجود بها،  
فتصوره قبصر أو أنطونيس، قد أعيدنا الى الحياة ليقوما بجذمتها !

ولما انقضت تلك الرحلة التي لا تنسى، وطد المترهان الجليلان الى مصر، ارتاحت  
أرجيني في قصر الجزيرة يومين . وأما (إسماعيل) فانه اصطحب وزيره نوبار  
وشريف، وكبار رجال بلاطه وحكومته، وسافر بهم الى الاسكندرية، واستقل منها  
ظهر يجتبه المحروسة، وسار الى بورسعيد، لاستقبال أصحاب التيجان الملبيين دعوته ؛  
فبلغها يوم ١٣ نوفمبر<sup>(١)</sup>.

بدء الحفلات  
بافتتاح ترعة  
السويس

وإذا بسفن العالم المتمدين كله، قد أمتها من جميع جهات الأفق، وضيوفه العديدين  
وقد صرفت لهم من جيبه الخالص تذاكر الحجىء من بلادهم والاياب اليها، في الدرجة  
الأولى، قد أتوا من كل فج عميق، تحف بهم أنواع الراحة والهناء كافة، وإذا بأساطيل  
الدول، بما فيها الأسطول المصري، قد اصطفت في المرفأ الفسيح، الذي أنشأته شركة  
القناة أمام بورسعيد، والقبائل المصرية قد خيمت على ضفاف التربة، حتى مدينة  
الإسماعيلية، لتحفظ نظام الحفلات، وتزيد في بهجتها<sup>(٢)</sup>.

ومالبت (إسماعيل) سويسات إلا وأقبل أمير هولندا وأميرتها . فاستقبلهما استقبالا  
حسا شائقا .

(١) أنظر : "مصر في عهد إسماعيل" لما لا يكون من ص ١٠٢ الى ١٠٥

(٢) بلجج ما يأتي لنهاية الحفلات، أنظر : "رسائل وديومة ومستندات" هرديان دي لسبس ج .

من ص ٣١٩ الى ٣٥١، و"آل دي لسبس" ليريديه من ص ٣٨٩ الى ٣٩٢

وفي اليوم التالي ١٤ نوفمبر، وصل السيودي ليهس مع أسرته : وفي يوم ١٥ نوفمبر، قدم فرترت يوسف امبراطور النمسا والمجر، وكان قد تعرض لخطر جسيم لجلال يؤخره يعاد وصوله : فانه، وهو قادم الى بورسعيد، استحسن في تفواه المسيحية أن يمرج في طريقه، على يافا، ويوزور القدس الشريف؛ ففعل . ولكنه، لما طاد الى يافا، يوم ١٤ نوفمبر، وجد البحر عجاجا، والنوء طامفا، والريح تسوق الأمواج الى الشاطئ، جبالا، جبالا — ويافا مرقا ردىء لا يدخله السفن مطلقا، بل تقف في عرض البحار، بعيدة، لا تتشار الصخور في الماء بالقرب من الشاطئ، لا سيما صخرين قائمين عند مدخل الميناء كأنهما "شلا" و"كلردى"، لا بد للقوارب والفلاك الناهية بالمسافرين، الى السفن الراسية خارجا، من المرور بينهما، والتعرض لخطر التحطم على أحدهما، أو على كليهما، حينما يكون البحر هائجا، مائجا . فانه قنصل فرنسا بذلك الثغر، ورجاه أن يؤجل سفره، ريثما يهدأ النوء، اجتنابا لمصيبة قد يترلقوعها العالم بأسره . وانضم الى قنصل فرنسا في رجائه الأميرال نجيتوف — المنصور في لسا — وكان قائد الاسيطل النمساوى المقل لامبراطور؛ وتمادى في إلحاحه على مولاه، بعدم مبارحة الشاطئ، مؤكدا له أن الاسيطل، والبحر على ما هو عليه، لا يستطيع مطلقا الاقلاع والنحر .

فأبى فرترت يوسف إلا المخاطرة، قائلا : «إني قد وعدت بأن أكون في بورسعيد يوم ١٥ نوفمبر؛ ولا أستطيع أن أخلف وعدا وعدت به» . ونزل في قارب، ومعه خمسة نواب وأمر بالانطلاق . فانطلق النواب به يمدفون، والأمواج تتقاذف قاربهم، وتهاجم من فيه مهاجمة جرفت اثنين منهم، لم يستطع الباقيون إقناذهما إلا بكل صعوبة، حتى دنوا، بعد جهد جهيد، من المدمرة التي كانت تنتظرهم .

وإذا بخطر الصمود اليها ، أكبر الأخطار التي حاقت بهم ، لشدة هيجان الأمواج حولها ، واصطدامها فيها بقوة ، وعدم تيسر الاقتراب منها للقارب الضئيل المقل جلالة الامبراطور النمساوي ؛ أو تنزيل سلمها الى من فيه للصمود فيها .

فاضطر رجلها الى تدلية حبال من حبالها في الفضاء ، تعلق الامبراطور بأحدها بكنتا راحتيه المضمومتين ؛ فرفعه البحارة الى ظهر الدارمة ، والأمواج تتلاطم حوله وترطمه ، كأنها تريد ابتلاعه ، ويمز عليها نجاته منها .

ولما بلغ البايقون المأمون ، ولقى بهم الأميرال في قارب آخر ، أقلمت المدرعة ، ووجهتها بورسعيد ، غير مبالية بالرياح العاصفة حولها ، ولا بالأمواج الهائجة ، المترامية عليها ، لاقترامها . لحقت وعد الامبراطور ، ووصلت الى بورسعيد ، في اليوم الخامس عشر ، وما استقرت في المرفأ ، ومالت الشمس الى المغيب ، إلا وهدت الأمواج ، وصفت الطبيعة ، وتلون الأفق بالوان بيضاء كقوس قزح ؛ كأنه ابتسام السماء ، ووعد السلام المقبل عيد بعد يومين .

فاطلقت المدافع من كل السفن الحربية الراسية هناك ، احتفاء بوصول جلالاته ؛ واستقبله (إسماعيل) استقبالا حافلا .

وفي يوم الثلاثاء ١٦ نوفمبر ، دوت المدافع عينا ثانية عند الساعة السابعة صباحا ، ودخلت المرفأ المدرعة الألمانية المقلبة البرنس فردريك فلهم ولي عهد مملكة بروسيا — وكان قد أصبح لهذه الدولة شأن عظيم في العالم الأوروبي ، بعد انتصارها على النمسا في حرب سنة ١٨٦٦

وما كادت تلك المدافع تسكت لحظة ، إلا واصلت الى الدوى باستمرار . وتضاعف عدد طلقاتها تضاعفا ارتفعت له السماء والأرض وأعماق البحار . وإذا بجمع من السفن



ظهر في البعد ، وتقدم بجلال نحو المرفأ ؛ وأمامه البانحة "الايمل" (النسر) تحمل  
جلالة الامبراطورة أوجيني ، امبراطورة فرنساويين ، وربة الاحتفالات العتيدة -  
وكانت واقفة على ظهر السفينة ، يحف بها كبار نبلاء الدولة البونبرتية ، وقريناتهم ،  
و جمع وصيفاتها ، وهى فى وسطهم كلمة الجمال واللف . وكانت قد ذهبت من مصر  
الى الاسكندرية ، وأتت منها الى بور سعيد .

فاكتظت ظهور عموم الجاربات بنواتها ، وضباطها ، وأركان حربها ، وموسيقاها ؛  
وانشرت فوقها أعلامها تحفق وترفرف ؛ وغص الشاطئ بالطوبىبة المصرية وجماهير  
المتفرجين ، والمدحون ، الممثلين المدنية الحديثة فى خير مظهرها ، والقوى العقلية  
البشرية فى أبهى معانيها . وعلت تهاليل الجميع ، وملات الفضاء ؛ وتجمت فيه  
ابتسامات القلوب المبتهجة ، بكافة عظيمة ، أخذت الامبراطورة تستنشق عيرها  
الذكى ، طرية ، ثملة .

وكانت ، وهى قائمة الى القطر المصرى ، قد حضرت أعياد فتح القناة الأكبر ،  
فى البندقية ، وأعياد البسفور التالية لها . وهى أعياد بذل فيها أقصى المجهود لتكون  
السحر الحلال ، والشعر الآخذ بالأباب ؛ ولكنها ، مع ذلك ، حينما رأت قسما محاطة  
بهاالة ذلك الابتهاج وذلك المجد ، وأحاطت عيناها بجميع جلال ذلك المنظر الفريد ،  
لم يسمعها إلا الهتاف بأن قالت : « يا لله ! لم أر فى حياتى شيئا أجمل من هذا ! » .

فلما رست بها بانحرتها فى المرفأ ، قصدها (اسماعيل) أولا ؛ وهناها بسلامة الوصول ؛  
وأكد لها أن وجودها خير ما يتفام به ؛ وأحرب لها عن شكره وارتياحه ، لتفضلها  
بقبول دعوته ، وترأس تلك الحفلة المجددة ملكه الى الأبد ، والى تمت مجهودات  
اشترك فيها الجميع .

ثم تلاه امبراطور النمسا والمجر، فولى عهد الدولة الروسية، وقتما لها تحياتهما واحترامهما، فباق المواهل والأمراء .

فاستقبلت الكل بلطفها المعروف، ووجدت، لرد التحية الى كل واحد من أولئك المواهل، الكلمة التي تنزل على الفؤاد كطيب بحر مطرب . ثم أخذ الجميع يستعدون لحفلة افتتاح القرعة المباركة .

وكانوا قد أقاموا ثلاثة ارتفاعات خشبية مكسوة بالحريز والديباج : واحد في الوسط، للضيوف الأجلاء ، أصحاب التيجان ، والأمراء والمواهل ورجالهم . وواحد على اليمين، لعلماء الدين الاسلامى ، وفي مقدمتهم العلامة الشيخ مصطفى المرومى ، شيخ الجامع الأزهر والاسلام بمصر، وصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي ، مفتي الديار . وواحد على اليسار، لأجبار الدين المسيحي ، وعلى رأسهم الملتنيور باور الرسول البابوي ، وخادم كهنة القصر الامبراطوري بباريس ، وكان قد حضر خاصة لمباركة القرعة ، ثم لعقد قران المسودى لسبس على الكرسيولة العظيمة التي أحبا وأحبته ، بالرغم من تكال جبينه بلجين الشيب .

ونصبوا على الشاطئين، الأسبوي والافريق ، المظلات البديعة لجماهير المدعوقين والمتفرجين ، وفي صدرها كلها، مظلة لمؤمسي القرعة ومجلس إدارتها ، وأخرى لرؤساء الشركات التجارية العظمى في العالم ومندوبيها ، وثلاثة لرجال الصحافة العالمية والمكاتبين .

واصطلفت الجنود المصرية بين رصيف التزول والارتفاعات الخشبية الثلاثة ، لتحفظ النظام حولها، وتمنع الازدحام عنها . وترتبت الطوبجية بين الرصيف الداخل في البحر، من جهة الغرب، ومحل الحفلة، وتجهزت وترصفت المراكب الحربية —

وكانت محسين مريجا - والسفن التجارية - وكانت نيفا وثلاثين - داخل المرفأ على شكل قوس بدیع المنظر .

أما الحربية، فكانت ستا مصرية، وستا فرنساوية، واثنتي عشرة انجليزية، وسبعاً نمساوية، ونحسا ألمانية، وواحدة روسية، وواحدة دانمركية، واثنتين هولنديتين، واثنتين اسكندنافيتين، واثنتين اسبانييتين، وفريقاطين انجليزيتين آخرين هائلتين واقفتين في البعد كأنهما رمز الحرب، المزمع اندلاع لميها بعد ثمانية شهور، يهتد مظهر ذلك السلم العظيم . ولم يكن هناك أسطول ايطالي، لاضطراره الى مغادرة المياه المصرية، بغاة، تحت قيادة البوك داؤستا، بداعى اشتداد المرض على فكتور عمانوئيل الثاني، الملك الحلو الثمائل، وصديق (اسماعيل) الحميم - وهو مرض كان السبب في تخلفه عن تلك الحفلة، وحرمانه لذة تمتع صديقه بحضوره اليها - على أن ايطاليا بقيت ممثلة هناك، بمراكب تجارية عليقة .

فلما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، وقد فرغ الجميع من تناول الطعام على نفقة الخديو واستراحوا، أخذت الموسيقىات تصدح، وشرع الموكب الفخم يتقدم، ليجلس الكل في المكان الذي أعد لهم .

واذا بزكى بك، رئيس التشریفات الخديوية، قد برز أمام الجميع يفتح الطريق، وتلاه الأمير (محمد توفيق)، ولي عهد مصر، وعل ذراعه أميرة هولندا، ولي عهد الدولة البروسية، فأمر هولندا، فالسير هنرى إلیت سفير المجلترا في الأستانة والثائب، صرفا، عن السلطان عبد العزيز، فالأميرال الاسباني، فالأميرال الفرنسي باریس، والمسيو دروى دى لوم، فالكولونيل الانجليزى رسل، فرضا بك محافظ بورسعيد، فالبرنس جورج ولي عهد المانوفر، فالكولونيل دوريج .

وما استقر هؤلاء في مقاعدهم ، إلا وصدحت الموسيقى كلها بالنشيد الفرنسي . ثم ظهرت ألوية النمسا والمجر تحيط بالراية الفرنسية . فاشترأت الأعناق ، وأحدثت الأبصار ، وإذا بالامبراطورة أوجيني ، يسير خديو مصر أمامها ، تتقدم متكئة على ذراع الامبراطور فرنتز يوسف ، ووراءها فردينان دى لسهس ، فالأرشيديوق ألكتور النمساوى ، فمجلس إدارة الشركة ، فالأمير عبد القادر الجزائري — وكانت الحكومة الفرنسية قد دعتته الى تلك الحفلة ، خاصة ، اعترافا له بالفضل الذي أبداه في الدفاع عن المسيحيين ، وحمايتهم أيام مذابح سوريا ، ووضعت تحت تصرفه الدارعة "فوربين" لتقله من يروت الى بورسعيد . فلما ظهر بهرنسه الأبيض في وسط ازدحام تلك الرؤوس المتوجة بتيجان الملك ، وتيجان البقيرية أو العلم ، أو العصامية أو الفضل ، إلا واستوقف الأنظار شكله الجميل ، وقوامه المعتدل ، وجهه المكسوم بهابة وجلالا — فلوسن باشا بن الأمير (محمد سعيد) ، والى السابق ، صاحب الأيادى البيضاء على مشروع القناة وشركته — وانما أراد (اسماعيل) الذي كان يحب طوسن حبا أبويا ، وزوجه ، فيما بعد ، ابنته ، ولم يفتأ يواليه بعنايته ورعايته الى آخر لحظة من حياته ، كأنه يريد أن يخفف عليه وطأة التوكل المستديم ، المتأهب منذ صباه ، والمسهب له عن كون أحد خدام أبيه فصيح ، ذات يوم ، بسرقة وشدة ، بابا في السراى كان الطفل طوسن واقفا وراءه ، فصدده الباب في وجهته ، فوقع مغشيا عليه . فارتعد الخادم وخارت فرائضه ، وما كان منه ، في خوفه من غضب أبى الأمير الصغير ، إلا أنه أطلق عليه الباب ، وتركه طريقا الى الأرض ، فاقد الحواس ، دون أن يفهم بالحادثة أحدا . فبقى طوسن على تلك الحالة ، عدة ساعات ، حتى افتقدته مربيته ، وبحث عنه ، فوجده في تلك المجرة طريقا لا يلى . فلم تعد

حادثة طوسن باشا  
وهو طفل

تجديده الأدوية ، بعد ذلك ، نفعا لتأخرها . واستمر طول حياته ضعيفا ، هنريلا ،  
مرجع السامخ ، انما أراد (اسماعيل) أن يحضر طوسن ذلك الاحتفال ، ويكون له فيه  
مركز خاص ، لكي يكون فيه ، بيئته المكسوة ، منذ ذلك الحين ، بمظهر ماوراء  
المادة ، خير ممثل لروح أبيه ، المراحة في عالم النعيم ، والناظرة باهتمام الى العمل الثام ،  
الذي لولاهما لتأخر بروزه الى الوجود أجيالا .

وتلا طوسن ، نوبار باشا ، فالبرنس ميرو حفيد الملك يواكيم صهر نابوليون العظيم ،  
فبرچير بك ، فالجنرال دوسه الفرنسي ، فوزيرا الامبراطور فرتريوسف ، وهما  
الكننت دى بيست ، والكننت انتراسى ، فسفيره لدى الباب العالي ، البارون  
بروكيش ، فالملوك دى هوسكار ، فالجنرال الروسى اجنايف ، فالأميرال النمساوى  
تيجيتوف ، فسيدات عليجات من معية الامبراطورة ، فالناثبون عن المؤتمرين العالمى  
والتجارى ، وعن شركة المساجيرى الفرنسية . وكانت الباحة التى أقلت مديرها ،  
ثم اشتركت في حفلة الاجتياز الى البحر الأحمر ، أكبر بوانر تلك الشركة ، فأركان  
حرب الأساطيل المتمتدة ، فسفراء الدول وقناصلها ، فزمر المدحون أفواجا أفواجا ،  
فلما اكتمل عددهم ، وانتظم ذلك العقد الفخم ، دوت المدافع من كل جهة ،  
متتابعة الطلقات ، مؤذنة ، على ذينك الساحلين الاسلاميين ، وبالقرب من ربيع  
نوالث عليها وقائع الحروب الصليبية ، بأن حادثة جلي ، فلما سجلت التواريخ البشرية  
لها مثيلا أو شهيدا ، تمت في تلك الساعة ، تحت أشعة تلك الشمس الذهبية الساطعة ،  
وأمام عين الاله رب البرية كلها مل السواء : ألا وهى حادثة تصالغ الشرق والغرب ،  
مصالحه أخوة وسلام ، وتمام الصليب والحلال ، معاقبة احترام ووثام

(١) نص من خبر هذه الحادثة منة من السنن الناس بالمرحوم الأمير (طوسن) سيد .

ثم قام علماء الاسلام، وشيوخهم في مقتلتهم، وأقاموا بالوقار والجلال، المهيمين أبدا على كل مظاهر العبادة الاسلامية، أدعية الشكر والحمد، وبعد الفراغ منها، ألقى شيخ الاسلام خطبة وجيزة، راتحة، شائعة، منع ضيق الوقت من ترجمتها لجمهور الحاضرين!

ثم تلا أخبار المسيحية علماء الاسلام. فأنشدوا نشيد الشكر اللاتيني المعروف باسم "التديتم"، المنسوب الى القديسين أمبرويس وأغسطينس؛ وشاركهم فيه كل من شاء من الجلم المسيحي الحافظ له، وفي مقتلتهم الامبراطور والامبراطورة.

ثم تقدم المسليور باور، وألقى بصوته الجمهوري، وبجاراته الفرنسية البليغة، خطابا بجملة الحماسية شعلات حواطف أو شهاب نار فؤادية، أو هفتات قلب طالع حبا للانسانية، شقت صدره، وانطلقت تقوى في الآفاق. ووجهه الى الخديو أولا؛ فالى الامبراطورة؛ ثم الى الامبراطور؛ ثم لم يترك جندارة إلا ومدحها، ولا فضلا إلا وأثنى عليه.

نقص (اسماعيل) أولا بثنائه، بصفتة رب الحفلة، ومنع ذلك الجبور السام؛ وتغنى بما له من فضل على إنجاز المشروع، ونشر معالم المدنية في قطره، وحفه الأديان كلها برعاية واحدة، رعاية الملك الكريم الذي يراها كلها جديرة بالعطف لإبقائها متماسكة متآخية. ثم خاطب الامبراطورة أوجيني: فذكر ما وجدته المشروع؛ من قوة في لطفها، وتضيق في موالاتها، وتأيد في حواطفها؛ وما لاقاه في فرنسا، البلد الكريم، الذي هي ماضته المجله، من إقبال، وتشجيع، وشدة أزر. ثم خاطب الامبراطور فرتر يوسف: فشكره على أنه ما انفك معتقدا في نجاح المشروع، حاملا على خرس حب الإقبال عليه في قلوب رعاياه؛ وذكره بزيارته لبيت المقدس، وقبر

المخلص، ليستخلص من ذلك، دماء له بطول حياته مجتبا في خير الرعية المعهود أمرها إليه . ثم انتقل الى الكلام عن دى لسبس، الرجل الذي دخل في التاريخ، حيا : فوفاه حقه من المدح والثناء بقدر ما يستطیع فم بشرى أن يفعل ذلك . وخص بالذكر من شاركوه في عمله ، أولئك الذين قضوا نحبتهم شهداء انجبتهم على تحقيق الأمنية الكبرى، فوارتسم الرمال التي كانت بالأسس الصخرية المخرقة ، فأصبحت بفضل مجهوداتهم مزارع تذكر الراى بما كانت عليه أرض غسان في مصر القراصة، من البناعة والخصب . وختم خطبته بثناء وجهه، أولا، للشرق، ثم للغرب، ذاكرة لكل فضائله وميزاته، وحاضا كلا منهما على عدم فصح عروة، في المستقبل، ربطهما الله بها في ذلك اليوم، المثلث البركات !

فقبل خطابه بهتاف مستعيل ؛ وكان له من القلوب أجمل موقع ! ثم شرع في الافتتاح، وانشأ الأقوام يتفجرون على الأعمال العظيمة، التي تمت على يد الشركة، في هذه القناة المزرية بأعمال القراصة الغابرين .

ولما كان المساء، وحانت ساعة الطعام، مدت الموائد متتابعة لسته آلاف مدعو، فاكل الكل من أنواع المأكول الفاخرة، وشربوا من الخمر اللذيذة الثمينة، مالم يحظر على فكر بشر، ولا سمعت بمثله أو رأت نظيره الأجيال ؛ حتى اذا دقت الساعة الثامنة، بدت الزينات تجل شاطئ آسيا وأفريقيا ؛ وتجعل الليل ساحلا كنهار جميل . وتجلت "المهروسة" بأنوار، خيل معها للرأى أنها أصبحت شمسا ثنائيا ؛ وأخذت، بين كل دقيقة وأخرى، تطلق قنبلة في الفضاء ، تستقبل الموسيقىات دويها بعزف شهي ؛ ثم ختمت ذلك جميعه بحرافة هائلة ، فخرجت في كبد السماء، كأنها بركان، ولكن بركان فرح وجذل وابتهاج، لا بركان ويل وهول وشبور !

وبيننا مظاهر كل هذا الهناء والسرور تتوغل في الليل البهيم ، فصحوله الى ليل نعيم لم نعلم بمثله الأحلام ، طفتت تتشرب بمصر والاسكندرية ، وتهمس في ذات باريس أنباء سوء مدهشة ؛ شرع الحساد والأوطاد يروجونها ، ليحولوا فرح العالم المتحمدين الى حداد أليم .

إشارات سر

فسمع الملا ، وهو مأخوذ ، أن الامبراطورة ، لما تحققت أن نفع التربة للملاحة وهم وخيال وجنين مخيلة مريضة لن يتحول الى مولود حي أبدا ، طادت الى فرنسا ؛ وأن الامبراطور طرد الى ترينستة ؛ وأن محمرا هائلا ، لم يستطع ازالته ، قام سادا في وجه السفن ؛ وأن حريقا هائلا التهم ستين بيتا بالاسماخيلية فدمرها ؛ وأن جمهور المتفرجين — وقد أظهرت لهم الوقائع الراهنة أنهم أتوا من عموم أصقاع العالم ليرا في بساطة قلوبهم ، بلدا خالق صناعة لا أمل له في حياة مستقبلية ، ومزمعا أن يعود صحراء كما كان — رجع بضرب أسلديه بايكا على خيبة آماله ؛ وأن مهندسي الشركة هربوا ؛ وأن دى لسبس قد رشده ، وجن ؛ وأن كبير المقاولين ، المسيولاقاليه ، صبق ياسا ، فاتحرا !

والسبب في رواج هذه الأنباء السيئة ، والاشاعات المشؤومة ، هو أن المسيودي لسبس رأى أن يحرق مقاييس عميقة ، في تلك الليلة حينها ، لكي يطمئن تمام الاطمئنان على خلق التربة من كل طائف يسوق الملاحة فيها ، من غد . فأمر أن تعمل تلك المقاييس بين كل عشرة أمتار وعشرة ؛ لا بين كل مائة متر ومائة ، كما كانوا يفعلون في السابق . فكشف فهاذ أوامره عن محضر لم تكن المقاييس الأولى أظهرته . فالتخذ ، في الحال ، الاجراءات اللازمة لازالته . وما زال يعالجه حتى فرغ من أمره .



فاتفق حينئذ مع الخديو على تسير سفيتين تسبران غور المسير كطليحي الأسطول المزمع أن يمتاز التربة في الصباح؛ وسيرا مركبا فرنساوية وفرقاطة مصرية .  
أما المركب الفرنسية - وكان ربانها حاذقا - فخرت بسلام وأمان، وأدت مأموريتها على أحسن ما يرام . وأما الفرقاطة المصرية ، فأصابها سوء في سيرها ، وجنحت في وسط القناة؛ فانفردت مقدمها في الضفاف، وسد جسمها سطح التربة، على بعد ثلاثين كيلومترا من بورسعيد .

فلما نما خبر ذلك الى الخديو والمسيو دي لسبس، أمرط ليريا الواقع ويتدبرا أمره . وكان (اسماعيل) قد سافر الى الاسماعيلية ، ليجهز معلمات استقبال المتوجين والعواهل الآخرين وباقي ضيوفه . فقفل راجعا ، الساعة الثالثة صباحا ، يوم ١٧ نوفمبر حينه ! واجتمع لدى لسبس أمام تلك السفينة الحربية الجالحة ، واجتهد كلاهما في رفضها وتمويمها؛ فلم يفلحا - ولم يكن في الاستطاعة ولا في الرغبة تأجيل موعد الافتتاح، ماهاء الأقاويل وشرها !

فذهب (اسماعيل) الى بورسعيد ، تحت جناح الليل ، وطاد بألف بحار من الأسطول المصري الراسي بها، ودفع بهم الى العمل على تنظيف التربة من تلك الفرقاطة . فقال دي لسبس : « إن لدينا أسلوبيين للبلوغ الى المقصود : إما الهجء بالسفينة الجالحة الى وسط القناة، أى تمويمها، وهو الأفضل؛ وإما الهجء بهزئها الشاغل الماء الى الضفاف، بحيث يعمل طولها موازيا لطول القناة ، ويلصق بالساحل . فان لم يفلح كلاهما ..... »

فقطع (اسماعيل) عليه كلامه، وقال : « إن لم يفلحا، نفس المركب نفسا ! »

فترامى دى لسبس عليه، وطاقه، وهويكاد يبيكى فرحا، وقال : «نم ! نفسها !  
ولمى لم أجسر على إبداء هذا الرأى لسموك، لما فى نفسها من الضرر المآدى على  
البحرية المصرية !» على أنهما لم يحتاجا الى نفسها، وتمكن العمل والجنود من جلب  
جرثها الشاغل الماء الى الضفاف، والصاقيه به، بحيث خلا المجرى للسفن لتتخضر فيه،  
ولم ينهئ الخديو أودى لسبس أحدا من المدحونين بالمقبات التى أزالها فى تلك الليلة  
الخطيرة . فلم يخلق فكر أحد منهم، وبات الجميع فى هناء وحبور، وفى انتظار فجر  
اليوم التالى، اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر !  
وكان يوما مشهودا !

فما برزت شمس، وتناول الأقوام طعام الفطور، إلا وصار «الإجمل» (النسر)  
بالامبراطورة، من جور سعيد، ووج القناتة بجلاء ملكية، وتهتم، نفعا، يشق تلك  
المياه المعجبة به، حتى اذا لم يعد بينه وبين المكان الذى جنحت فيه، بالأمس،  
الفرقاطة المصرية، سوى مسير خمس دقائق، ورد نيا على الخديو دى لسبس من  
الأميرال المصرى القائم بعمل رصف تلك السفينة الجالحة، أن العمل قد تم، وأن  
القناتة أصبحت مسلوكة لا عائق فيها .

فطرب (اسماعيل) جذلا، وتهندى لسبس تنهدا عميقا، ثم رفع عينيه ويديه نحو  
السماء وشكر الله من صميم فؤاده . وقد قال، بعد ذلك، لأحد أخصائه : «لم أشعر  
فى حياتى، مطلقا، مثلمما شعرت فى تلك الليلة، أن الخيبة تمنانى النجاح هكنا، وأن  
السقوط على مثل ذلك القرب من الفوز !» .

فلما صرت بانة الامبراطورة، عند القنطرة، بتلك الفرقاطة، وأطلقت هذه—  
وكان اسمها «اللطيف» — مدافعا، ترحيبا بها، ظنت أوجيني وظن كل من معها،

وكل من كان لاحقا بها، أن تلك السفينة الحربية انما وضعت، هناك، خصيصا لتحياتها، فأعجبت بالفكرة الجميلة والاعتناء اللطيف وشكرت (اسماعيل) بدبح ذوقه. كذلك كان الأمر مع باقي أصحاب التيجان والأمراء. وهكذا حوّلت العناية الإلهية الساهرة على ما جريات الأمور العقبة الخفيفة الى وسيلة من الوسائل العديدة التي جادت بها، ليكون نهار التربة المالية وبهجتها ثابتين!

وكان شاطئ بحيرة إيتساح غاصين بالأمم والجاهير والقبائل القادمة من تلقاء نفسها الى مشاهدة الحفلات والتفرج عليها، أو المرسلات هناك بأمر من (اسماعيل) ليزيد منظرها بهجة تلك الحفلات عينها. فانه أراد أن يرى ضيوفه نماذج من الأمم الخاضعة لصولجانه، وصورة صغيرة من عاداتها. فأصدر أوامره الى جميع مشايخ العربان، ومشايخ البلدان من الاسكندرية الى أقصى السودان، بإرسال وفود من قبائلهم وسكان نواحيهم الى الاسماعيلية، في مظاهر حياتهم اليومية: فازدحت ضفاف البحيرة بنجم العربان و«عشش» الفلاحين وأكوخ الأمم السودانية، التي كانت تأوى مئات الألوف من البشر، والأشخاص، المختفى اللون، والشكل، والملبس، والنوم، بأولادهم ونسائهم؛ بعضهم على صهوات الخيول، وآخرون على أسنة المعجن، وغيرهم على ظهور الحمير، يمدون في تلك الغلوات، وأحرمة الصوف تسابق الشعور المغوشة، وشعور البشارين المبدولة؛ وعمائم العمدة تسابق «طواق» الصعايدة، ولبد الفلاحين؛ بينما دربكات النسوة، المختلفة الأجناس والأقاليم، وطبولهن أو مزامير بعض المييد وربابهم يحيى في كل صوب المراقص والألعاب! وكانت تلك الأقوام كلها، وهي محجوزة من ضفاف التربة بصف ثمتة على طولها من الجنود المصرية، تنتظر بفارغ الصبر ظهور البواخر المقلدة الامبراطورية والملوك

الذين معها، وهى لا تكاد تصدق أن انتظارها يحقق؛ وإذا بما كب حربية مصرية  
ولجت بحيرة التمساح آتية من جهة السويس !

فاستغرب الأكرام ذلك، وأخذوا يتقولون عما حساه يبنى؛ ولكنهم ما لبثوا،  
وهم يتهايمسون، إلا ومعموا دوى المدايح يتناول عنان السماء، ورأوا الشاطئين  
يلتهبان، بكليتهما، والبروق تتصاعد من جوانب المراكب الحربية المصرية، قتهاقوا،  
وإذا بالنسر "الاجل" يتقدم متبخترا مدلا، وعلى مقدمته الامبراطورة كأنها، بالرغم  
من سنى عمرها الثلاث والأربعين، إلهة الجمال والجلال؛ أوكأنها، وهى فى وسط  
وصيفاتها، وعزف الموسيقى يحف بها، وتتأرجح فى الهواء (كليونيرا) المهد القديم  
صاعدة مياه نهر السندس، لتقابل أنطونيس، ولكن لا كتهمه تقصد بهير نفسها،  
بل كملكة قادمة لتعlobها كلمة أنطونيس الجليد، ويسجل بوجودها: (أولا) استقلال  
مصر للشود؛ و(ثانيا) مصالحة روحى الشرق والغرب بعد طول التنافر والمعاناة .  
فأدركوا أن قلوب تلك السفن الحربية المصرية إنما هو للسلام والصحة .  
فرفعوا، هم أيضا، أصواتهم مهللة؛ وحيوا ضيفة خديوم العظيمة وجمهور من  
معه، لاسيما دى لسبس الواقف بجانبها، والذي كانت هى نفسها تلفت أنظار الجميع  
وتهايلهم إليه، اعترافا منها بفضله .

ومارست بانحرتها فى فرضة الاستماعيلية القسيحة إلا وذهب (اسماعيل) للسلام  
عليها — وكان يخته قد تلا يخته — فباها تحية الاجلان؛ ثم ترمى على حتى دى لسبس،  
وعانقه طويلا، والبشر مرتسم على وجهه، والمواطف تبيل يحسبه . وتلت السفن  
المقلة للامبراطور، وولى عهد التاج الروسى، وباقي الأمراء، والعظماء، والسفراء،  
ودست كلها بجانب "الاجل" .

فقصده (اسماعيل) الفرقاطة الامبراطورية، فالمدنعة البروسانية، فباق السفن،  
وقدم لكل من راكبها عبارات الاحشاء والصحية الواجبة. ثم نزل الى البر وقصده  
قصرا بناه في آخر لحظة على ضفاف البحيرة خصصها لاستقبال ضيوفه والاحتفاء  
بهم فيه.

وكان قصرنا نفعا، نشأ في وسط مظلل من السندس الزاهر، وباقات من الأشجار  
المزدهية بالرياحين والأزهار، كانت احلى ساحرات الحكايات الخرافية ضربت  
الأرض بمصاها فأخرجته يتهادى في بهائه.

فانتظرت أوجيني برهة، ريثما أيقنت أن مضيقها استراح قليلا، ونزلت لترد له  
زيارته. فامتطت، أمازونة جليلة، صهوة جواد مطهم، وانطلقت تملو به نحو  
ذلك القصر. فاستقبلها (اسماعيل) فيه، كأنه يستقبل إلهة، وبذل لها من الاكرام  
والاجلال وصنوف الارتياح والهناء ما لا يزل، بدون شك، يتردد أمام عيني مخيلتها،  
في أيام شيخوختها هذه البائسة، كأنه منام رآته أو عاشته في ساعة مثقلة السعادة<sup>(١)</sup>!

وبعد أن مكثت ساعة في زيارته، واستقرأت، بلنة، حلوة تلك الأوقات  
السريعة المرور، عادت الى الاسماعيلية على ظهر هجين، وجون الأقوام شاخصة  
اليها، وقلوب فوارس العرب تشيعها. ومن يدري — وقد جعلها معروفة للجميع  
اقامتها السابقة بمصر، ورحلتها على النيسل الى أقاص، الصعيد — من يدري أن  
المواجس لم تحدث، حينذاك، هاتيك القلوب بأن تلك الامبراطورة الجليلة،  
الجليلة، الراكبة جوادا، طورا، وتارة هينا، الأندلسية المولد والنشأة، قد تكون  
سليلة بيت عربي، رفيع الهاد، أو فرع دوحة ملكية أغلقتها مماء الحمراء الشعرية

(١) كتب هنا في سنة ١٩١٨ أي قبل وفاة الامبراطورة.

في خرناطة ، المدينة العربية ، البديسة الذكر ، خرناطة ، مسقط رأس تلك  
الامبراطورة الجميلة ، ومنته صباها ؟ ومن يدري أنه لم يكن لهذه الهواجس نصيب  
في جعل مظاهر الاجلال البادية حول أوجيني من تلك الجماهير التي كان معظمها  
صربيا ، سارة ، صيفة ، كأنها تريد أن تحي مجنا زال ، ونفلا درس ؟

وما فتئت الامبراطورة سائرة بهيجتها ، حتى وصلت قصر دى ليهس . فاستراحت  
فيه . ثم استقبلت سيدات الاسماعيلية . وكانت قد أنباتن ، مقدما ، برغبتها في مقابلتهن  
هناك ، لشكرهن على عواطفهن نحوها . فوجدت أولئك السيدات تلك السادة من  
أحلى ساعات حياتهن ، وظنت كل منهن أن اسمها بات لذلك تاريخيا .

ولما كانت السادة الثانية ، بعد الظهر ، نزل الامبراطور فرقة يوسف ، وولى  
عهد الملكة البروسية ، وباقي العواهل والأمراء الى الشاطئ ، وقصدوا قصر (اسماعيل)  
ليردوا اليه تحيته . فقولوا بما قولت به الامبراطورة من التعظيم والاکرام ، ومظاهر  
الابتهاج العام .

ثم انقضت بقية ساعات ذلك النهار الفريد في أنس وحظ ، وتزاور وأعياد . حتى  
إذا وافت الساعة السابعة ، مساء ، مد سمط العشاء . فاكتملت ، بالموائد ، رحبات  
القصر السابق ذكره ، على سمعتها . وكثرة عديها ، وكان ذلك منتظرا . ولما فان  
الخدوي كان قد أعد في الفضاء ، حول قصره ، خيما ومظال ملئت فيها أيضا موائد ،  
وأولت ولائم لمن لم يسمه القصر من المدعوين .

فاكل جمعهم المختشد من الطعام الفاخر المجهز بمعرفة أمهر الطهاة ، أكلا هنيئا ،  
وشرب شربا فانرا . وتجاوز بعضهم في ذلك الحد ، لاسيما من لم يكن يحلم بمثل

تلك المأكولات الملكية، مطلقاً؛ حتى إنه لقد يروى عن فرنساوى بطين، أنه نهض عن المائدة التي كان قد التهم ما عليها، التهام التهم، الذي لا يحد شراسته حد، كأنه فيثليس الامبراطور الرومانى، فأخذ يتر بیده على بطنه، ممسكاً صديريه الفسيح الأرجاء، وقال بتهم لصديق له من جنسه، كان جليسه على المائدة: «أنى قد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين!» بدون أن يشعر بما في قوله من سماجة<sup>(١)</sup>!

مرقص  
الاسماعيلية

وبعد الفراغ من تناول طعام العشاء، أقام الخديو مرقصاً لعموم مدعويه، تحت رئاسة الامبراطورة أوجينى، بذل فيه ما لا يستطيع قلم وصفه من البذخ وصنوف اللذات ودواعى السرور. ورتب فيه مقصفاً حوى ألد ما طاب من صنوف المأكول والمشروبات.

فاشترك، في الرقص، أصحاب التيجان أنفسهم؛ ولم يكونوا أقل المشتركين فيه جدّاً ونشاطاً، بل كانوا قدوة لغيرهم في استمراء لذة تلك الساعات السريعة المرور! فأوجب ذلك منهم، استغراب الأقوام الشرقيين المحيطين بالقصر والمظال؛ لأنهم، حتى تلك الليلة، كانوا يعتقدون أن الرقص والقصف شأن الراقصات، فقط، والسكارى من الرجال! فما كادوا يصنقون أعيانهم، لما أبصروا أوجينى، الامبراطورة العظيمة؛ وفرنتز يوسف، الامبراطور الخطير؛ وفردريك ظيوم، الأمير البروسيانى المكلل الجبين بانتصارات سنة ١٨٦٦؛ وباقي الأمراء والأميرات؛ وخديوهم نفسه، الرجل الوقور، يرقصون ويمرحون بكافى المدعويين وأكثر؛ وأبصروا أن السن ذاتها لم تمنع فردينان دى لسيبس، على اشتغال ناصيته شياً، من أخذ نصيبه من الرقص والملاهى الأخرى، المجموعة حوله. ولا بد من أن هبة أولئك الأعاظم قضاءت

(١) أنظر: "خديويون وباشاوات" لبريدل ص ١٢ و ١٣

بعض التضائل في أعينهم ، لا سيما إزاء وقار الأمير عبد القادر ، البطل الجزائري المعروف ، الذي حل امتزاجه بجمهور الرافضين والرافضات ، لم يرقص ولم يقصف ، وبقى متفربا فقط ، ملتحفا هيئته وجلاله .

فلم ينسوا ليلة الثامن عشر من شهر نوفمبر ، وما فتئوا ، بعد ذلك ، يذكرونها أمام أولادهم وحفدتهم ، كما ارتسمت على مخيلاتهم . ولم يخطئوا في أنها ليلة لن تنسى ، لأنها كانت ، في الواقع ، ليلة لم تر القرون لها مثيلا ؛ ولن ترى شبيها الأجيال القادمة .

ومن حسن حظ الناس أن المستقبل يحفل مكتوم ، وأن الغد صبو متقم لا يعرف وجهه ، ولا تقرأ سطور يده ، مهما كان الراغب في استجلاء عياه وفتح كفه قويا وكريما ، أوجيلا وجيلا ! فان ذلك يجعل استمراء حلاوة الساعة الحاضرة ممكنا ، ويحل على الاتماظ بقول القائل : « تلك الساعة التي أنت فيها ! » والالو كان الأمر بعكس ذلك ، وأمكن رفع الحجاب عن هذا الشبح الذي هو ضيفنا ، كما يدعو هيجو ، الشاعر الأوحده ، وظلنا المرافق لنا أبدا واسمه « الغد » ؛ لو أمكن حمله على التكلم وإباحة سره المكتون ، هل كانت أوجيني ، الامبراطورة الجميلة ، تقبلم ذراعها ، في الرقص ، الى الأمير البروسيانى ، الذي كان من معا ، بعد أقل من عشرة شهور ، أن يثل عرش زوجها ، ويفتح في جنب فرنسا ، وطنها الاختيارى المحبوب ، ذلك الجرح العميق الأليم ، الذي استمر نيفا وسبعا وأربعين سنة داميا ؟ بل هل كانت تحضر تلك الحفلات والأعياد ، وترضى أن تكون إلهتها ، وعط الأنظار فيها ، وهى المزمعة ، بعد أقل من عشرة أشهر ، أن تسقط من حائق ، وتفتر من قصرها الالهراطورى ، وبجلة ، بينا الثورة تهدر ورامعا ، وتاوى بذعر الى انجلترا ، فتقتل ،



معفرة الثياب والوجه ، في إحدى محطات لندن ، وترى نفسها تراحها المناكب ، بلا احترام ، في سيرها لتبحث عن عربة بمحصان واحد تقلها وتقل أثاثها القليل ، الذي تمكنت من تهريبه معها ؟ بل هل كانت تلك الحفلات عينا تبرز لها شמוש ، وهل كان يقع في خلد (اسماعيل) أن يتفق الملايين التي أعفها عليها ، وعلى الضيوف الذين دطام اليها ، فلم يتكبدوا في ذهابهم وإقامتهم وإياهم درهما واحدا من جيوبهم حتى ولا على غسل ملابسهم واستحمامهم ، لو علم أن الامبراطور نابوليون الثالث ، معتمده في ملاباته ، وفي تحقيق أمانيه ، ساقط عن عرشه بعد عشرة شهور ، وأن امبراطوريته المفيضة على الأكوان محسوقة عن قريب ؟ وأن فرنسا ، صاحبة الكلمة العليا في مجتمع الدول ، والقذح المعلن في ميدان السياسة ، ستيت بضعة أعوام كسيرة الجناح قليلة النفوذ ؟

وهل كان الامبراطور فرتر يوسف استمرا ، بلنة ، حلاوة تلك الليلة البهيجة ، لو علم أن أخاه الأرشيدوق مكسيمليان ، امبراطور المكسيك ، الذي كان لا يزال يكيه ، منذ أن قتله جوارز زعيم الجمهوريين المكسيكيين ، رميا بالرصاص ، في يونيو سنة ١٨٦٧ ، ليس وحده الأمير الذي كتبت له الأقدار القتل ، في بيته المهسبرجى ، وأن ابنه الوحيد وولى عهده رودلف ، والىصابات زوجته ، التي قادها إله الغرام الى سريره وعرشه ، وفرتر فردينند ابن أخيه ، وولى عهده ، جد رودلف ، وزوجة فردينند هذا ، سيقضون كلهم قتل ، كأخيه ، وأنه هو نفسه ، وقد توغل في الشيخوخة وبات على حافة القبر ، مريض بأن يثار باسمه أكبر وأفظع حرب رآها العالم ، فتقتل حزنا ، حبر العالم المسيحي الأكبر بيوس الماشر ، فيموت وهو غير راض عن جلالاته الرسولية ، بل ناغم طمعا ، على ما كان لقداسته من المكاتة في نفس جلالاته ،

وسيقضى هو عينه لجهه، في وسط نيران تلك الحرب المندلعة، العتيدة أن تلك دولته  
دكا، وتحزب بيته تحزبا تاما. فيمضى، ولا ترافقه الى قبره سوى لحنات الملايين  
من الأمهات والأرامل، والخطيات الثواكل، ولا يذكر العالم المتمدنين ساعات حياته  
الأخيرة إلا ليلته، بعد ما كان لا يذكر اسمه إلا متأسيا، خاشعا أمام نجلال شبيهه  
المكمل بالحداد ؟ !

وهل كان البرنس فردريك غليوم البروسيانى وقريفته، بنت الملكة فكتوريا  
الانجليزية، ذاتا بللة بهجة تلك السويمات الحديثة، لوقرعا في سجل المستقبل حقوق  
غليوم، ابنهما الأكبر، لما في كبرهما، وسوء معاملته لهما، لما أصبح المرض المضال  
أباه على سريره موته، وحرم الموت الامبراطورة فردريك من زوجها، وتركها تحت  
رحمة تصرفات ذلك الابن الكاره فيها الدم الانجليزى ؟

فلكون الهند سجلا مقفلا، أبدا، أمكن الذين طاعوا تلك الليلة الفريدة أن يتمتعوا  
بهنائها، بين قرية، وقلب مطمئن !

وامتزجت بطرب المرقص، الموسيقىات والحزاقات والألعاب النارية والزينات  
المتألقة أنوارا، حتى لم يبق أحد لم يعتبر نفسه قد نقل الى عالم الخيالات الذى وصفته  
روايات ألف ليلة وليلة !

وهكذا انقضت في حبور وإبتهاج تلك الليلة الفريدة في وسط مروح مائة ألف  
نفس ! وقضى الهند الثامن عشر من شهر نوفمبر في تزهات على البهجة، وفي ضواحي  
الاسماعيلية، لم تعرف كلالا ولا مللا، والبشر مرتسم على جميع الوجوه والجلد يملأ  
جميع القلوب !

ولما عاد المساء، طادت الولايم، وحفلات الرقص والقصف، وطاد (اسماعيل) الى صحر حقول ضيوفه بتفنته في أساليب جمع اللذات تحت أقدامهم، تفننا فاق حد الوصف، وأنست مسرات تلك الليلة مسرات الليلة التي سبقتها، وثرت وراحتها بمراحل ملاذ «الحياة التي لا تقلد» المشهورة عن كليوبترا وأنطونيس.

وفي صباح اليوم التالي، أغلقت البواخر والسفن الامبراطورية والملكية بمن عليها، وأمامها «الإجل» (النسر) وثرت نحو الجنوب، قاصدة السويس. ولكن الضيوف الكرام رأوا أن يمضوا الليلة على ظهر البحيرات المرة، ليكون لهم نصيب من التفرج على السيراييم، وليكون لأهالي تلك الجهات قسط من أفراح التربة، ففعلوا. وبات الأسطول التاريخي، هناك، وآذان الصحراء المحيطة مصيخة لعوى المدافع، وعزف الموسيقىات.

فلما بزغ الصباح، تابعت تلك السفن سيرها، فوصلت الى السويس الساعة الحادية عشرة ونصفا من صباح يوم عشرين نوفمبر. فكتبت (أوجيني) في سجل «الإجل» هذه العبارة: «وصلنا الى السويس، على البحر الأحمر، اليوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٦٩» أوجيني. وتلا توقيعها توقيع كل من كان معها. ثم أرسلت إشارة برقية الى باريس تليق قريتها «بأن الأمر انتهى، واجتياز القناة تم».

وبعد أن تناول العواهل طعام الغداء، أرسل كل منهم، أيضا، الى عاصمته إشارة برقية بمعنى إشارة الامبراطورة. ثم رأوا، جميعا، وجوب ذهابهم الى ظهر «النسر» ليحتفوا، في شخص أوجيني، بالعمل الحميد الذي تم على يد «الفرنساوى الكبير». وفي اليوم التالي، طادت الامبراطورة الى بود سعيد، في ظرف ست عشرة ساعة، وأغلقت منها الى طولون.

أما الخديو، وباقي ضيوفه الضخام، فعادوا من السويس إلى مصر بالسكة الحديدية .  
وخير كل من شاء من المدعوين، بمخضبة ماشاء من الأيام التالية، عشرة على الأقل،  
في القصر المصري، على نفقة الخديو الشخصية .

أما الاحتفالات التي أقيمت بمصر لفرتز يوسف وفردريك فلهلم وبقية الأمراء  
والأميرات فيكني القول، لإدراك أهميتها، أنها ضارعت في جلالها ونفقاتها ما حصل  
من نوعها للسلطان عبد العزيز . وأما الاحتفاء ببقية الضيوف فلا أدل عليه من بيان  
الأطعمة التي كانت تهتم، ثلاث وأربع مرات في النهار، لذات الأكل من أوضاعهم  
قدرا . وهاك ذاك البيان في بساطته التاريخية :

فطور الصباح : قهوة بلبن وزبدة أو شاي بلبن وروم ؛ بيض مُضَبَّب (برشت)  
أو على الصحن ؛ شكولاته وبسكويت، حسب طلب المسافرين .

طعام الظهر : ماكاروني أو أرز مغفل أو ما شابه ذلك ؛ صحن لحم بارد ؛  
صحن شواء ؛ صحن لحم مطبوخ ؛ بطاطس على الطريقة الانجليزية ؛ أربعة توابل ؛  
أربعة أصناف فواكه ؛ جبن ؛ قهوة ؛ وأشربة مختلفة .

طعام العشاء ، الساعة السابعة مساء :- حساء متنوع ؛ صحن سمك ؛ صحن لحم ؛  
صحن طعام بحري ؛ صحن طعام بارد ؛ شواء من الطير، سواء أكان ديكاً رومياً أم طيور  
صبيد ؛ سلطة خضراء ؛ صحن خضار مطبوخ ؛ صحن حلويات ؛ صحن قشدة متنوعة  
التراكيب ؛ حنة أصناف فواكه مجموعة معا ؛ جبن ؛ قهوة ؛ وأشربة مشبعة  
فائقة .

طعام نصف الليل ، لمن شاء واعتاده من المسافرين .

الخمور الواجب تقديمها مع طعام الظهر : نبيذ عادي ؛ نبيذ ميدوك ؛ نبيذ شاتومرجو - وهما من أغزر أنواع البردو - ونبيذ سوترن .

الخمور الواجب تقديمها مع طعام العشاء : نبيذ عادي ؛ نبيذ ميدوك ؛ نبيذ مادير ؛ نبيذ بريجونيا ؛ شاتولافت ؛ شيمانيا على قدر الطلب !

هذا، علاوة على أن تذكر مجيء هؤلاء الضيوف، جميعهم، ولإياهم إلى بلادهم، في الدرجة الأولى، تخف بهم كل أنواع الراحة - كما سبق لنا القول - كانت على نفقة الجليب الخلدوي الخاص . وأن إزالمهم إلى البر، وفي الفنادق، وتقليم من بلد إلى بلد بالسكة الحديدية، وعلى البواخر النيلية، وما أرادوا إنفاقه على أنفسهم في ذات شؤونهم الخصبوية، كان جميعه على الجليب العامر عيته .

فلا خرابية، والحالة هذه، إذا تجاوزت نفقات الأسابيع الستة المتقضية ما يربح وصول الامبراطورة أوجيني إلى القاهرة واليوم الثلاثين من نوفمبر، أى اذ كان معظم المدعوين قد بارحوا الديار المصرية، مبلتا اخلفت في تقديره الأموال، بين مليون وثلاثمائة ألف جنيه انجليزى، وأربعة ملايين . فقد صرف نيف وعشرة آلاف في طبع ثلثمائة نسخة، فقط، من تاريخ رسمي للاحتفالات والأعياد، على جلد فيل ؛ وترتيبته بالرفوش والصبور الجميلة ؛ وأعطى ألف جنيه لواضعه وحده، ودفع الخلدوي إلى فنادق (أوتيلات) الاسكندرية ومصر خمسة وستين فرنكا، وإلى فنادق القناة مائة فرنك وخمسة فرنكات، يوميا، عن كل مدعو أقام فيها، خلاف أجرة شهيته . والمعلوم أن عدد المدعوين زاد على ستة آلاف !

فكما أن أرض مصر لم تر، في كل تاريخها، أعيادا كذلك الأعياد؛ ولا حلت فيها، في وقت تما، ركاب ضيوف أجلاء، كالذين حلوا فيها، بمناسبة تلك الأعياد، هكذا

اقتضت الحال أن تفوق النفقات ككل حدّ في الاحتدال والاعتياد ، وتدخل فيما لا يستطاع ، في غير التصوّر حصره ، لا سيما وأن استقلال مصر السياسى التام كان الفرض المنشود منها .

لذلك كان البيان الذى استوقف انتباهنا واعتبارنا ، أكثر مما سواه ، في ماجريات تلك الاحتفالات والأعياد العجيبة ، بيانا قراءناه في كُتب وضعه مؤلف يقال له المسيو « برتران » في حياة فردينان دى لسمس وأعماله ، مؤداه على ما ذكرنا أن السلطان عبد العزيز أُناب عنه في حفلة فتح التركة العالمية السير إليوت سفير بريطانيا العظمى بالأستانة . وأن ذاك السفير قام فعلا بتلك المهمة ، فوق تمثيله دولته في تلك الأعياد عينا .

نيابة سفير  
بريطانيا العظمى  
عن سلطان تركيا

فهل كان ذلك فالأ أوجبه الأفتلار على غير علم أو شعور من ذلك السلطان المنكود الحظ ، أم كان توقعا مضطربا مبلبلا جل في فؤاده بأن فتح تلك التركة من شأنه ، في يوم حديد ، سلخ مصر نهائيا عن دولته العثمانية السلطانية لإدماجها في جسم الدولة الانجليزية الامبراطورية ؟

مهما يكن من الأمر ، فإن انفصال مصر عن تركيا نهائيا ، وإعلان بريطانيا العظمى حمايتها عليها منذ نيف وأربع سنوات<sup>(١)</sup> ، يحصل قارئ التاريخ مأخوذ اللب ، لدى وقوفه على نيابة سفير إنجلترا عن سلطان تركيا في حفلة فتح ترعة السويس ، التركة التى كان من شأنها إما زيادة توثيق عرى الاتصال الشديد بين تركيا ومصر ، بعامل زيادة المصالح المتبادلة — وهو ما لم يحصل — وإما فصم تلك العرى بالمرة بعامل

اقطاع الاتصال الماتى ، وقيام جمهور مصالح عالمية بجانب مصالح التابع والمتبوع — وهو الذى وقع ا —

ولا يبعد أن يكون بعض المفكرين من الذين حضروا تلك الحفلة ، قربوا بين نيابة السير اليوت الانجليزى عن سلطان تركيا فيها ، وبين قول اللورد پامستون ، وزير بريطانيا العظمى الأكبر ، في مقاومته لمشروع حفر ترعة السويس ، وهو : « إن نفاذ هذا المشروع يضطر إنجلترا الى امتلاك مصر ، وهو ما لا نريده » ، فخطبوا ، وتوقعوا منذ ذلك الحين ما وقع بعد مرور خمسة وأربعين عاما . والتاريخ كله عبرة لمن يعتبر !

عود الى النزاع بين  
مصر وتركيا

على أن الباب العالى ، إشتاعرا للعالم كله بأن عدم ترأس السلطان العثمانى أكبر حفلة تاريخية أقيمت على أرض عثمانية في حرفه لم يكن ليزعزع حجرا واحدا في قواعد سيادته على القطر المصرى ، ما كاد يعلم أن ضيوف ( اسماعيل ) الفخام قد فارقوا بلاده حتى أرسل اليه فى أواخر شهر نوفمبر ، على يد مندوب سام ، بلاغاتاهايا في شكل فرمان ؛ أمره بمقتضاه بالخضوع حالا لأوامر تابعه ، وإلا اتخذت ضده الاجراءات المبينة في التعليمات المزدودة بها حامل فرمان . وأهم تلك الأوامر ما يختص بالامتناع عن عقد قروض إلا بتصريح سلطاني ، ووردت في الوقت نفسه على ( اسماعيل ) افادات برقية من سفراء فرنسا وإنجلترا والنمسا بالامتنانة تشير عليه باللين مؤقتا ، واظهار ولو شبه امتثال للأوامر المرسلة اليه . فرأى نفسه مضطرا الى مواجهة الباب العالى وحيدا ، بدون معين أو عضد ، بعد إغراقه مبلغا طائلا في سبيل إكرام ضيوفه ، أضعف خزينته حكومته المصرية — ولكنه كان يعلم من جهة أخرى أن الأوامر المكتوبة لم تكن ، في حرف الدولة العلية ، أكثر من حبر على ورق ، اذا حرف المرء كيف يتق مفعولها .

فلما وصل الفرمان الى يده، أمر بتلاوته بسرعة في ميدان القلعة، بحضور المندوب العثماني، وبحو ستة من الموظفين، ليس بينهم من يفقه التركية إلا اثنان، وبعد إطلاق بضعة مدافع، إشعاراً بتلاوته. ثم أحاط الباب العالي علماً بما تم.

ولكنه أظهر له، في الخطاب ذاته، الذي أرسله إليه لهذا الغرض، أنه لا يتعلق على ذلك أهمية مطلقاً، وأنه بالرغم من امتثاله، حبا في المحافظة على السلم، للأوامر الواردة إليه، لا يرى أن حقوقه وامتيازاته الممنوحة إليه مست، بل يعتقد أنها لا تزال كما كانت، حيثما كانت.

فما كان من الباب العالي، رداً على هذا الكتاب، إلا أنه أبرق إليه بأن «أرسل حالا المسمى ألف بنديقية ذات الإبرة السابق مشتراها منك، وكلف من يلزم بطولون بتسليم المخرطات المصنوعة هناك، لحسابك، الى الضابط الذي يبعثه الباب العالي، لأجل استلامها».

فاهمل (اسماعيل) الجواب على ذلك التلغراف. فأيدى الباب العالي بتلغراف آخر كان حظه حظ سابقه. ولكن يظهر الخديو مقدار اهتمامه بإشارات الصدارة البرقية، فيكيد على باشا خصمه الشخصي، أقدم — بالرغم من استدعاء أعياد الفطر القرية وجوده في العاصمة — على سياحة زهية على النيل، محبة عقيلة أمريكية من جميلات الغرب، ورفقة ضيوف كان الحظ والفن في وسائل المللات خير ما يعيشون لأجله في هذه الحياة الدنيا. ولم يمد من زهرته تلك إلا في الأسبوع الثاني من العام الجديد سنة ١٨٧٠<sup>(١)</sup>.

(١) أنظر: «مصر في عهد اسماعيل» لملك كون من ص ١٠٨ الى ١١١



فأبرق، حينئذ، الى الصدر الأعظم قائلا، عما يختص بالبندق، إنه لم يشتر منها سوى أربعين ألفا فزقها على جنوده، وأنه لم يعد يبق منها إلا ما لا سبيل الى الاستغناء عنه للاحتياج اليه احتياطيا، وعما يختص بالمدفوعات، إن صانعيها لم يقدموا له حساب نفقاتها بعد، وإنه، متى قدموه، وسندله الباب العالي ما سبق إحقاقه منه، وأخل سبيله من كل مسئولية مالية، يسرع بتسليمها اليه .

وبعد مضي خمسة عشر يوما ورد الحساب المقول عنه، فأرسله (اسماعيل) الى الأستانة متباطئا . فلما اطلمت عليه وجدت أن الثمن المطلوب من تلك المدفوعات ثمانمائة ألف جنيه انجليزي . فما وسعها، بعد محاولة إدخال بعض التعديل عليه، إلا قبوله على قرض ريثما، ودفعته وهي ممتعة امتعاضا كبيرا .

فاغتم (اسماعيل) حالتها النفسية، وأرسل نوبار باشا اليها بما يزيل امتعاضها — وكان (اسماعيل) يقول : «إن نوبار خير من تعهد اليه مهمة لدى رجال الأستانة، لتفوقه في الصلف والتكتيك، كما أن «مشرقا» خير من يوفد الى بلاد الانجليز، لمهارته في الصيد والتمص» .

وافتحى أن عادت الى الأستانة من مصر، في ذلك الوقت، ظعة بدية الجمال، كان السلطان عبد العزيز قد أعجب بحسنها لدى زيارته (لاسماعيل) في منة إقامة هذا الأخيرة على ضفاف البسفور .

فلما أزال التقدود، التي بذلها نوبار باشا، كل أسباب الخلاف القائم بين تركيا ومصر، اتخذ همازو الأستانة ولسازوها ما اتفق من رجوع تلك الغادة اليها مع وجود نوبار باشا فيها، وتردد أقلامها الحورية على سراي «ضامه بنجه» فديمة للتأكيد

بأن تسوية الخلاف التركي المصري انما يجب نسبتها ، في الحقيقة ، الى حمل تلك السفيرة الجلييلة ، وحسن وقع زيارتها للسراى السلطانية في قلب السلطان عبد العزيز ، لا الى نفوذ نوبار أو تنازل الخديو عن منزماته . ألا ، (ويل لكل همزة لمزة) !!!

غير أن تسوية الخلاف لم تجمل (اسماعيل) بقلع عن تنفيذ أمنية الاستقلال التام في صميم نواذه ، والنظر ، بالتالى ، الى مستقبل علاقاته مع تركيا بين الريب والحذر . لذلك ما انفك دأباً على إتمام استعداداته الحربية ، وجمع الجنود جمعا حثيثا ، وحشدوا على شواطئ البلاد ، وفي ثنورها ، لا سيما بالاسكندرية ، حيث اكتظ ميدان (محمد على) بها وبمبعلتها ، وحيث أخذت المدافع تدوى ، بين حين وحين ، منكرة بالصجوز للدفاع ، بل ولل هجوم أيضا .

وقد كتب أحد مراسلى الصحف الى جريدته ، في أوائل تلك السنة ، ما يأتى :  
 « قد نظرنا ، بالأمس ، عثة آلاف من الفعلة يؤمرون بالاشتغال في إقامة المعازل والحصون ، وبتنا ، وكل مظهر من مظاهر الحياة حولنا يحملنا على الاعتقاد بأن الترك مستظر بجيئهم هنا ، وأن سمو الخديو يعد لهم استقبالا حاميا . والناس بالاسكندرية ينهامسون بانه سيجد مساعدة في ذلك من اليونان والكرينيين ، ومن يوسف بك كرم زعيم الموارنة التأثيرين على الدولة . في جبل لبنان والذي أصبحت علاقاته بسموه في منتهى الود والاخلاص . ألم يجد (محمد على) العظيم حونا لعالا ، وحليفا صدوقا في شخص الأمير بشير الشهابى الكبير ؟ فلم لا تتردد صورة هذا اللبناني الخطير على غيلة (اسماعيل) كلما يطرق اسم يوسف بك كرم أذنيه ؟ ولم لا يلتظر ، فيما لو هاجم تركيا في حق دارها ، أن يجد من هذا الزعيم نفس المساعدة والمعاونة اللتين وجدتهما (محمد على) من ذلك الأمير ؟

إن الناظر إلى الاسكندرية الآن يخالفها مدينة في حال حصار، لا مركزا هادئا للتجارة والاعمار، ولا يمكنه إلا أن يتوقع شرا من الحرب، من أية جهة هبت . محطات البوليس وقطعه المادية قد عززت بمهند نظامي، وسلمت البطاريات بأفضل المدافع وأقواها، والجنود، بالبنادق ذات الإبراج الحديدية . ولا يفتك العمل جاريا في الترمانة ليلا ونهارا، لتجهيز المعدات والآلات والذخائر الحربية على أنواعها .

وقد غيرت كلمات النظام العسكري والأوامر العسكرية، وجعلت عربية بدلا من التركية، وطردت التركية أيضا من جميع مصالح الحكومة، وأطحت العربية محلها، وأصبح كل شيء، في الواقع، يدل على عزيم الخديو على قطع علاقاته بالباب العالي، وفهم عربي كل وثاق يربط مصر بالسلطنة العثمانية، وينذر بقرب حدوث ذلك! »  
ومما ساعد على رسوخ هذه التوقعات في النفوس أن الكولونيل كورونليس، زعيم الثورة الكريتية التي أُنحلت حديثا، أتى إلى مصر وانتظم في جنديتها . وكذلك (موط) الجنرال الامريكاني الاتحادى .

وما أقام هذا الأخير بمصر مدة، وأتم بعض أشغال مالية فيها، إلا وكلفه الخديو بالذهاب إلى نيويورك، ليحمل أى عدد كان من المصارين، أمثاله، على التطوع في الجندية المصرية . ففعل . ولكنه هو، والذين أحضرهم معه لم يكونوا ممن يفتخرون بأنهم . فإساع (اسماعيل) إلا صرفهم، بجيوب مملوءة، واحضار ضباط أمريكيين غيرهم جديرين بثقته، وأكفاه للهمة التي كان يريد أن ينوطها بهم، لحضروا تحت قيادة الجنرال (ستون) ، وقاموا بأعباء ما عهد إليهم من الأعمال خير قيام : إما

كثيرين عسكريين، وإما كهنسين، ومراقبين ملحقين بعثة حملات جنوبية،  
سياً، الكلام عنها في حينه .

على أن (اسماعيل) — وإن يكن قد اتخذ مآذنه لمقاومة الطوارئ من الوجهة  
العسكرية — لم يكن بالرجل الذي يميل الى التطوع في مجاهل الحروب، متى أمكنه  
تحقيق أماني نفسه بطرق سلمية، وبواسطة ما يملكه من مال .

فعلمه، من جهة، أن الأستانة مدينة تشتري أكثر مما كانت روما، لما خرج  
« جورجيا » ملك نوميديا منها هائفاً : « لا يموزك »، أيها المدينة المبتاعة ، إلا من  
يستطيع شرائك » ، وأن السلطان عبد العزيز لا يرضن عليه بإجابة أى طلب يرفعه  
إليه ، حتى لو كان الاستقلال الكلى بمصر ، اذا شفعه بما يوازى أهمية الايجاب من  
الأصغر الرثان ، ولشموه ، من جهة أخرى ، بأنه يستطيع شراء الأستانة ، مهما  
تفالت في المساومة عن قسمها ، ويستطيع اعطاء سلطانها ما يجب من الذهب ، مهما  
كان كبيراً ، رأى ، ريثما تحسن الأيام الأحوال ، أن يقصد ماحمة بنى عثمان ، فيقتم  
فيها مساعيه ، ويحمل مركزه بنفسه ، وبما يطمح فيه من قوته .

لذلك ، لما غمر خزينته القرض الذي عقده له ، بالرغم من حظر فرمان الأخير ،  
عمل ينشوفشيم وجولد شمكت ، أرسل يستدعى ابنه الأمير (محمد توفيق) من سياحته  
التي كان قد قام إليها ، منذ زمن قليل ، في البلاد الأوروبية ، وبلغ فيها مدينة  
فيينا — وهى سفرته الأولى والوحيدة الى خارج القطر — فأقامه مقامه على دفعة ادارة  
البلاد ، ثم استقل « المحروسة » ، يخته الخاص ، وسار بأمواله وأمواله الى الأستانة ،  
بالرغم من أن منذرات الحرب المقبلة بين فرنسا وبروميا كانت تدوى في الفضاء ،  
وأن بعض المفترين منه أشاروا عليه بتأجيل سفره ، لذلك السبب ، وريثما تزول ،

سفر (اسماعيل)  
الى الأستانة

من النفوس ، الفرحة التي أوجدها خلفه الأخير مع دار الخلافة . ولكن (اسمايل) أبي ، لأنه كان يعرف من هم رجال تلك الدار ، ولأنه ، ربما كان يتوقع تلك الحرب ، ويمتد ، بجميع أهل الشرق ومعظم أهل الدنيا ، في تلك الأيام ، أن النصر مضمون لفرنسا فيها ، وأنه يحسن به ، إذا ، أن يتخذ أهله ، ويهد طريقه في حردار خصمه ، ليتمكن من الاستفادة من النصر الفرنسي العتيق ، الاستفادة كلها ، وهو غير متعرض إلا إلى أقل ما يمكن التعرض إليه من الأخطار .

غير أن الحرب باذته ، كما باذت الجميع : (أولا) بضجة شيويها ، (ثانيا) بسومة رجمان كفة روسيا على فرنسا فيها . فبجل عودته إلى القطر ، في أوائل أغسطس ، وعواطفه تحي فيه ، رغم الواقع ، الأمل بنصر الفرنسيين على أن نصرهم يحقق أمانيه .

وليس من يشك في أنه ، لو اتصرت فرنسا في تلك الحرب ، ففازت بروسيا خصيمتها ، ونجحت من المعينة صاحبة الكلمة التي لا تقاوم في ميدان السياسة الأوروبية ، وبرز نابليون الثالث ، صديق الخديو الخيم وزوج أوجيني ضيفته الكريمة ، في شبه المتلة التي كانت لعمه العظيم ، عقب عقده معاهدة تلست سنة ١٨٠٧ ، وأثناء مقابله بالقيصر ، اسكندر الأول الروسي ، في إرفرت سنة ١٨٠٨ ، كان (اسمايل) وضع يده في يده ، وطلب إليه أن يشد أزره في موقفه ، ونادي باستقلال بلاده الثام عن سلطنة آل عثمان ، معتمدا على امبراطور الفرنسيين في نسوية مركزه الجديد إزاء الدول الأوروبية ، وحيل وجود ترعة السويس النسوية التي ترضيه وترضيها . ولكن انخساف شمس الامبراطورية النابوليونية ، وتدهور الدولة الفرنسية تدهورا ساحقا ، في تلك الحرب المشؤومة ، كانا ضربة مؤلة جدًا انتهالت

على مطامع (اسماعيل) فصدحتها ، واضطرت صاحبها بأن يعود الى ما كان عليه من شراء أجزاء ذلك الاستقلال تباعاً ، شراء صريحاً ، من السلطان وبابه العالى بالمال ، و برفع مقدار الجزية السنوية ، حتى يخفى الله أسراراً كان مفعولاً .

ولكنه بقي ، مع ذلك ، متحيزاً للفرص ، فاملا على اختتامها ، غير يأمن من رحمة الله ، وعاشن الأقدار . ولما رأى أن ارتكابه على فرنسا بات ، طوائها بعد قهرها ، كما كان ارتكان ملوك يهوذا على فرعون مصر — أى مثل ارتكاه المرء على قصبة قد تنكسر فتجرحه ، كقول حزقيال النبي اليهودى — وجه وجهه شطر إنجلترا ، وشرع يتقرب اليها أكثر من السابق . فخص محل جرينفيلد وشركائه الهندسى بلندن ببناء ميناء الاسكندرية — وقد سبق لنا ذكر ذلك في حينه — ولولا حرب السبعين لعهد بعمله الى محل فرنساوى ، وبلغ من إغراضه عن فرنسا ، لاسيما منذ رأى تمتها في مقاومة الإصلاح القضائى ، ماحمل وزير ماليته — وكان قد شعر بأن نتيجة تلك الحرب هدمت النفوذ فرنساوى في نفس مولاه وفي مصر ، شأنها في كل صقع وقطر آخر — على الاعتقاد بأنه لم يعد ، تمت ، من حاجة الى عمل حساب لها : فأبى تنفيذ فقد كان قد أبرم بين الحكومة المصرية وأحد فرنساويين ، قبل تلك الحرب ، وعامل المظالمين بنفاذه بجهاد وخيلاء لم يكن ليحصر على مجرد الابتكار فيهما قبل واقعة « صيدان » . ولكن القنصل فرنساوى أظهر ، من جهته ، وقاحة وتعسفاً ، كأن نابليون الثالث لا يزال في كل مظاهر عظمته ومجده ، جالسا على عرشه ، يحط أنظار العالم المتمدين . ولم يكتف بمقابلة عضو الوزير المصرى وعجرفته بضئفيهما من العتق والعجرفة ، بل دخل ذات يوم ، حنو ، في بيت فرنساوى كان كاتب سر لشريف باشا ، واغتصب أوراقاً من شأنها إيقاع عدة من كبار الموظفين المصريين

تحت طائلة مسؤولية خفيفة، على ما أشيع في ذلك الحين . ولما أصبحت في يده، جابه بها الوزير اسماعيل صديق باشا، وهدده بإفشاء سرها المكنون اذا هو لم يجب طلبه في الحال . ولما كان وزير المالية هذا من أولئك الموظفين الكبار، بل في مقدمتهم، خاف الفضيحة، وزل على شروط القنصل . فأصاب هذا، بمقتضاها، فائدة مادية، على ما همست به الألسنة، أكبر من الفائدة التي نالها محسوبه<sup>(١)</sup> .

ثم ان (اسماعيل) عملا بالخطتين معا: خطة تجميع القروض لاعتنامها، وخطة التمكن بما له من قلب الأستانة ولها، اشتراك، من جهة، اشتراكا رسميا في المعرض الذي أقيم بقيتنا سنة ١٨٧٢؛ وأقبل على التوسع وراء حدود مصر الجنوبية، من أقصى غربها الى أقصى شرقها، توسعا سياقي بيانه؛ واستمر، من جهة أخرى، بتردده على الأستانة، كشمس تضيء الموات، وتبث الحياة، يعمل على بت كل علاقة تبعية لها، وكسر قيد سيادتها عليه حلقة، حلقة<sup>(٢)</sup> .

ففي الأسبوع الثالث من شهر يونيه سنة ١٨٧٢ سافر ومعه سيم الأيمرة والدته الى الأستانة، وقد عزم عزما أكيدا على أن لا يبقى، ماسوى الجزية، على أية رابطة كانت بينه وبين الدولة العثمانية . لما مضت على وصوله اليها بضعة أيام إلا وأهدى عبد العزيز، بحجة الاعتراف له بما كان من وقع جميل في نفسه للفاوة العظمى التي قابلته بها، خمسين ألف بندقية من طراز مريني هنري، كان قد أوصى معامل إنجلترا بصنعها . وبعد مضي أسبوع أو أسبوعين، اختتم فرصة احتفال السلطنة العثمانية بنبؤه مليكها عرش الخلافة الاسلامية، فأقام في قصره، بأميركون، معالم إبتهاج فائز،

(١) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لـ مالك كون ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) أنظر: "مصر في عهد اسماعيل" لـ مالك كون ص ١٤٣ الى ١٤٥ .

توالت فيه الولائم، النادرة المثال، لكبار رجال الدولة، ختمها بوليمة خاصة بهلالته، بلبل فيها من صنوف اللذات، ومخطف المطام والمشارب، ما لا يقع في خلد رجل؛ وتزوج ذلك جميعه بأن قلم لعبد العزيز «طقم» سفرة، بديما، من صنع باريس، كل آتيته من الذهب المرصع بالججارة الكريمة؛ وقد استعمل في تزيينها، من المساح وحده، نيف ونمسة آلاف قيراط !

على أن هذا جميعه، رغم جسامته، لم يكن بالنسبة الى اللاحق إلا كمنسبة التوابل الى الطعام الحقيقي . فان (اسماعيل) لم يمض على اقامته في الأستانة شهران، حتى كان قد قدم الى السلطان مليوناً من الجنيهات العثمانية، ونمسة وعشرين ألف جنيهه انجلىزى الى الصدر الأعظم، ونمسة عشر ألفاً الى وزير الحربية، وعشرين ألفاً ونيفاً الى عتة من كبار السراى السلطانية .

واشتركت الأميرة والدته الكريمة معه في استمالة القلوب اليه . فانها فوق الهدايا النفيسة التى قدّمتها الى نساء الوزراء العثمانيين، وكبار موظفى السراى السلطانية، تقربت من السلطنة ذاتها، والدة عبدالعزيز، وأولت لها الولائم الفاخرة، وقدمت لها فى احداها من التحف الثمينة ما لا يمكن وصفه، أو حصره . ومن أغرب الصدف، أنهما بعد الاختلاط الكثير، وقص كل منهما أخبارها على الأخرى، تحققتا أنهما قريبتان يجتمعان فى جد واحد . ففرحتا بذلك فرحاً عظيماً، وجعلتا تتراوران كل قليل، ولا تقطع الواحدة من الأخرى فى كل يوم رسل التحية والتسليم ! فكان ذلك من أسعد توفيقات (اسماعيل)؛ لأنه أكسب مصالحة فى السراى السلطانية صوباً لم يرفع للطلب، أبداً، سدى<sup>(١)</sup> !

(١) أنظر: «الكافى» لبيانات بك شاديم ج، ص ١٦١ و ١٦٢



فطلب بكياسة من متبوعه التفضل بتوسيع دائرة اختصاصاته ورفع الجهر للموضوع عليه في أمر الاستدانة .

فصدر له فرمانان في شهر سبتمبر من السنة حينها ، ثبت أولها — وتاريخه فرمانا سنة ١٨٧٢  
١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ و٧ رجب سنة ١٢٨٩ — جميع الامتيازات السابق منحها له ؛  
والثاني — وكان مصحوبا "بخط شريف" ليوضح مضمونه — منطوق فرمان  
سنة ١٨٦٩ المحظر عليه اقراض أى قرض جديد في المستقبل ، بدون تصريح خاص  
من الباب العالي ، وخول له حق الاستقراض أى شاء ومتى شاء وكيفما شاء . وتاريخ  
هذا فرمان الثاني ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ و٢٢ رجب سنة ١٢٨٩

غير أن رجال الاستدانة ، وإن لم ينجسوا من مذابحهم إلى الرشوة ، استحيوا من  
تدوين عارها وتسجيله على نفوسهم . ولذا فانهم لم يقبلوا هذا فرمان الأخير ولا  
"الخط الشريف" المرفق به في سجلات الباب العالي ، كما كانت قد جرت العادة .  
فأراد مدحت باشا ، بعد سقوط الصدر الأعظم محمود باشا وخلع السلطان عبدالعزیز  
المتكرد الحظ وقته ، أن يعلن بطلان ذينك التحريرين موضوعا ، لبطلانها شكلا .  
ولكن السير هنرى إليوت ، سفير إنجلترا ، تناخل في الأمر ، وأقنعه بضرورة اعتمادهما  
لوجود تأشير سلطان تركيا عليهما<sup>(١)</sup>

فلما استعاد الخديو حريته المالية ، ونال ما ناله من تكسير قيد السيادة العثمانية عليه ،  
على الكيفية التي ذكرناها ، عاد إلى الاسكندرية في شهر أغسطس ، فرحا ، مبتهجا .  
فترينت له ثلاثة أيام ، وكذلك ترينت القاهرة عند وصوله إليها ، ودقت فيها البشائر  
وزاره الأمراء والكبراء وكل ذى مقام ، مهنيين . وما لبث فرمانان السابق ذكرهما

(١) انظر : "مصر في عهد اسماعيل" لما يكون ص ١٤٥

أن لحقاه إليها . فقرأ في حفلة حافلة ، وأعلن مضمونها ، بين قصف المدافع ، وعزف الموسيقىات .

وفي عشرين مايو من العام التالي (١٨٧٣) غادر (اسماعيل) عاصمته مرة أخرى ، وبعد أن أقام بالاسكندرية أياما ، ريثما جمع له وزير ماليته نحو من مليون جنيه ، وأجرى له ويكله في الأستانة عملية مالية ، أنتجت ثلاثة ملايين جنيه أخرى ، أطلع الى الأستانة ، وجيوبه مفعمة ، وهو يرى أن أقصى أمانيه باتت حقائق راهنة !

وماذا كان يتخفى ، هذه النعمة ، من رجل تركيا ، وفرمانا العام الماضي قد منحاه كل ما نالت إليه نفسه من الاستقلال ، ومظاهر الملك الحقيقي ؟

كان يتخفى أن يتخذ ذلك المنح شكلا قانونيا ، وأن يصدر فرمان ثالث يحتوى على كل ما ضمنته له الفرمانات السابقة ، فيضمنه من جديد ، وبعد أن يسجل في سجلات الباب العالي ، تحاط الدول الأوروبية علما بمحتوياته ، وتحمل على التصديق عليه رسميا ، كيلا يتمكن الباب العالي في المستقبل من العودة الى تعليق سيف دامكليس على رأسه ، أو رأس أحد من نزيته ، مرة أخرى ، كما فعل في سنة ١٨٦٩ : فلا يعود التناق على الوراثة ، وعلى حقوق الحكومة المصرية الداخلية ، واستقلال البلاد الذاتي ولم الأفكار ، ويوجع القلوب ، ويلقى الاضطراب في الأعمال كما فعل قبيل الاحتفالات بفتح ترعة السويس ! ولنيل هذا جميعه لم تكن الملايين التي ملأ جعبته بها كثيرة ، عند سفره الى عاصمة الدولة العثمانية .

فأبلغ شهبو يونيه متصرفه إلا ودوت ، في العاصمتين المصريتين ، أنباء نجاحه في مهمته نجاحا تاما ، وتحقيقه الأمانى التي سافر من أجلها . وشرع الناس يقادون

بمضمون فرمان الحديد - فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ - الذي استصدره ، وبأهميته وثمنه ، فلم يختلف اثنان في كبر قيمته وجليلها . فانه أتى مهمتنا مصادقا على جميع فرمانات والخطوط الشريفة الممنوحة (لمحمد علي) وخلفائه ؛ ولمخلا عليها تحسينات وتوسيعات جمة ؛ وشارحا على الأخص ما كان منها متعلقا بالوراثة ، وشكل القوامه فيما لو كان الخديو ، في المستقبل ، قاصرا ، حينما تقول الخديوية المصرية اليه . ومنح (اسماعيل) بموجبه ، من جديد : (أولا) حق سن القوانين واللوائح الداخلية ، على أنواعها ، وأية كانت مراميها ؛ (ثانيا) حق عقد اتفاقات تجارية ، ومعاهدات تجارية ؛ (ثالثا) حق اقتراض أى قروض شاء في مصلحة البلاد ؛ (رابعا) حق زيادة جيشه أو تنقيصه كما يشاء ؛ (خامسا) حق بناء سفن حربية ، ما عدا المئزرع منها ؛ وبالاختصار حق تنظيم الادارة المدنية والعسكرية والمالية في البلاد طبقا لما توجبه مقتضيات الأهالى الملقاة رعايتهم الى عهده .

أى أن هذا فرمان توجب سعى (اسماعيل) الى نيل الاستقلال التام تنويها نهائيا ؛ وجعل قيد ارتباطه بتركيكا كأنه غير موجود . ويكلا يفوت أحدا استمراء لذته ؛ وللدلالة في الوقت عينه على الوسائل التي بذلت لاستصداره ، رأى محرووه أن يخنموه بالجملة الطعنية الآتية : «وعليك الانتباه والاتفات ، أشد الانتباه والاتفات ، الى توريد المائة والخمسين ألف كيس المقررة ، سنويا ، الى خزينة السلطانية ، بدون تأجيل ، وبذلك تأتمة ا » .

على أن (اسماعيل) ما فتح يبنى نفسه بظروف من دهره يمكنه من التخلص ، أيضا ، من ذينك الانتباه والاتفات ، وقطع تلك المائة والخمسين ألف كيس عن لم تركيا ، لإنفاقها في شؤون بلاده ؛ وطن ، فيل نشوب الحرب بين روسيا وتركيا

فرمان سنة ١٨٧٣

في سنة ١٨٧٧ ، أنه قد يستطيع اختتام فرصة الاضطراب السارى في جسم الدولة العثمانية على أثر خلع السلطان عبدالعزى وقتله ؛ وخلق السلطان مراد الخامس وبجبهه ؛ وانعقاد مجلس المبعوثان ونفضه ؛ وتفاقم الخطب بين دولة القيصرو دولة الخاقان ، فغالما أدى الى شوب نيران الحرب واستمرارها ، ليعلم استقلاله وهو آمن طوارى الحداث .

فان الملاء قد لاحظ في شتاء سنة ٧٦-٧٧ أن إقامة الجنرال إجناتيف الرومى طالت في العاصمة ؛ وأن اجتماعاته بالحدود تعددت ؛ وأن الأوقات المخصصة لها امتدت مرة من مرة ؛ ولاحظوا أيضا أن خطابات سرية تبودلت ، بواسطة ذلك الرومى الشهير ، بين بلاطى مصر وطهران ، دون أن يعلم أحد بمضمونها سوى كاتبها ؛ وأن نيفا وستة آلاف جنيه أنفقت ، هدايا ، في سبيل المحافظة على سر تلك المكتبة ؛ وأن رغبة (اسماعيل) في أن تنكسر الدولة العثمانية لم تكن أمرا خفيا ؛ وأنه لم يبعث المدد المصرى الذى تحتمه الفقرات إلا وهو ممتعض ، وبعد أن تمتع عن إرساله تمنا كبيرا<sup>(١)</sup> .

وربما شجعه على تنفيذ تصميمه ما كان من حرج موقفه المالى ، واشتداد وطأة الدائنين عليه ، لتيقنه من أنه لو تمكن من الدخول ببلاده في مصاف الأمم المستقلة تمام الاستقلال ، فقد يستطيع الاقتداء بتركيا حينها ، والجمهوريات الأمريكية الصغرى وإشهار إفلاس حكومته بدون خوف أو وجل ، وبدون أن يستطيع دائئوه أن يرفعوا فوق رأسه ، بمقاضة دولهم ، السلاح المستمته من سيادة السلطان عليه ليهتدوه به ، أو يستعملوه ليعزلوه به عن عرشه !

(١) انظر : "حياة البلاط بمصر" لبيتر ، ص ٢٠٨ و ٢٠٩

ولكنه — إما لأن الجسارة الكافية للإقدام على ذلك العمل أحوزته في آخر لحظة ؛ وإما لأنه توقع أن يكون الشر الناجم عنه أكبر من الخير المأمول منه ؛ إما لأن مقاومة تركيا البطولية ، غير المنتظرة من دولة كان الاعتقاد في وهنها التام راسخا في العقول ، جعلته يوجب في بادئ أمره خيفة ؛ فلما أسفرت النتائج الختامية عن صفحتها النهائية بفضل تولى عبد الحميد لإدارة رضى الممارك من أحماق قصره ، كانت الفرصة المناسبة قد أفلتت ؛ وإما لأنه ، بعد التفكير والتقدير ، لم يجد من نفسه القوة الكافية ، لا سيما فيما لو تعقدت العواقب ؛ أو لأسباب أخرى غير هذه كلها لا تزال تجهلها — فضل البقاء على حالته ، وترك مناسبة تلك الحرب تمر بدون أن يتتبعها .

كل ما حصر رغبته فيه ، بعد ذلك ، إنما كان حمل الدول المجتمعة في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ على إدخال مصر ضمنها ، أو إدراج مسائلها ، على الأقل ، ضمن مواد برنامج المباحثات ، والبت في حالها السياسية ، نهائيا ، ليكون مركزها الجديد ، منها ومن تركيا ، مشمولا بضماتها جميعا . فأعرض الى عدة مكاب ، أشهرهم برونسفيك ، بتناول الموضوع وبجته ، وحض الرأي العام الأوروبي على الأخذ به <sup>(١)</sup> .

وقد دلت الحوادث التالية على مقدار فطنة (اسماعيل) في سعيه هذا ، وبعد نظره الثاقب ، فإن تركيا ، بعد أن طلبت إليها دولتا فرنسا وإنجلترا إقالاته عن عرشه ، أرادت أن تفتنهما فرصة لتلقى ، في الوقت عينه ، جميع الامتيازات والميزات الممنوحة منها للخديوية المصرية ، وتطوى كشعا عن المبالغ التي التهمت ، مقابل منحها إياها ، أو يرسل لها الخديو (محمد توفيق) عشرين ألف جنيه . فرفض . فأخرجت فرمان

(١) انظر : مجلب "مصر والمؤتمر" لبرونسفيك .

توليته . ولولا وقوف الدوليين المذكورين في وجهها وتشددهما في أن يختلف (توفيق) أباه في كل ما كان له من الحقوق لراوحت فاطمت فأذت .

غير أن النجاش لم يكلل مساعي (اسماعيل)، هذه المرة، وأبى البرنس فون بزمرك، عميد ذلك المؤتمر، إلا اعتبار مصر ممثلة في أشخاص يمثل تركيا، ووافقت باقي الدول على رأيه، تجنباً لفتح باب قد ينفلت منه شر . فلما وسع الخديو إلا الاذعان للواقع، على أنه، في آخر ساعات ملكه، لما رأى نفسه مهاجماً في حقد داره، ورأى أن علاقته بتركيا، على ضآلتها وقصارتها، هي السبب في البلاء والويل الحقيقين به، هب لقطعها بتاتاً، واستعد لإعلان نروجه على السلطان العثماني، ومقاومة إرادته . غير أنه، إزاء توقعه حلول المصائب على بلاده من جراء ذلك، حذر عن رأيه، وقبل بأن يضعه نفسه، وأن يورث ابنه بعده ملكه، كما هو؛ أي بملكاً لم تعد تربطه بالدولة المتبوءة سوى رابطة جزية مالية أوهى من خيط العنكبوت<sup>(١)</sup> .

على أن المجهودات التي بذلها (اسماعيل) وأذت، في نهاية الأمر، إلى جعل مصر، فيما عدا الجزية السنوية، مستقلة عن تركيا تمام الاستقلال، كلفته نفياً واثني عشر مليوناً من الجنيهات تقدمها السلطان عبد العزيز، وحده، زيادة على بضعة ملايين أخرى صرفها في أسفار وإغداد وفود وهدايا، وتهدام لوزراء ذلك السلطان، وكبار رجال دولته !

(١) أنظر: "المسألة المصرية" طبعة سنة ١٨٨١ ص ٣٦







## الفصل الثالث<sup>(١)</sup>

### إزالة القيد الثالث

#### قيد الامتيازات الأجنبية القضائية

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته \* وإن أنت أكرمت اللئيم تجردا  
«الفتى»

نبذة في تاريخ  
الامتيازات  
الأجنبية

إن نظام الامتيازات الأجنبية ، الممنوح من الدولة العثمانية الى الدول الغربية ، والمقرر في مصر بسبب تبعيتها للباب العالي ، ولأنها جزء من الممالك الشاهانية ، كان يقضى بأن يكون مرجع رعايا تلك الدول في شؤونهم التجارية ، والمدنية ، والشخصية ، الى قناصلهم ؛ وأن لا يفرض عليهم ولا يؤخذ منهم ضرائب ، إلا بعد مصادقة دولهم عليها ؛ وأن لا يحاكموا أمام محاكم السلطة المحلية ، فيما يهتمون به من جنایات وجنح ومخالفات ، وفي قضاياهم التجارية والمدنية مع رعايا الدولة ، إلا بحضور قناصلهم أو تراجمتهم ، لينالوا ، من ذلك الحضور ، حماية من كل ظلم ، ومساعدة في كل شأن .

(١) أمم مصادر هذا الفصل : "محاضر المتدريبات المخطفة التي أتمت بمصر وباريس ، ولورنسا ، والأستاذة العليا مابين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٨٧٣" ، و "مخبرات خاصة بالاصلاح القضائي" ، و "الامتيازات والاصلاح القضائي بمصر : ضرورة . وجوب إبرائه حالا" ، و "الاصلاح القضائي بمصر" ، بلانسكي ، و "الاصلاح القضائي بمصر والامتيازات" ، و "الامتيازات" ، ليليسيه دي روزاس ، و "الاصلاح القضائي بمصر : رسالة الى جانسكي" ، لثكنل ، و "توبار باشا" لولنسكي .

فأما في تركيا، فإن نظام تلك الامتيازات لم يخرج، مطلقا، عن الدائرة التي وضع، أصلا، فيها، ولم يرو، أبدا، أن قنصلا تعدى حدودها، وافات على ما حفظ للسلطة المحلية، من حقوق . وربما كان السبب، في ذلك، قلة عدد الأجانب في البلاد — بالنسبة لاتساعها — وقلة احتكاكهم بأهلها .

فمع ما كان في نظام الامتيازات، والحالة كذلك، من خرق لمبدأ سيادة الحكومة المحلية المطلقة في دائرة أملاكها، فإن مضارته العملية لم تكن محسوسة، لغرض الحكومة المحلية نظرها عن الاهتمام بشؤون الأجانب المحضة التي لا مساس لها بأنظمتها وأبجدياتها ورياضاتها، ولا اعتبارها أولئك الأجانب هملا، لهم ما للهمل، الدائرين في الأسواق والشوارع والأزقة، من استغلال في الحياة، وطعيم ما على أولئك الحمل، فيما لو تعرضوا للأهالي بسوء أو تعلموا على أشيائهم .

وأما في مصر — لا سيما بعد أن أزال (محمد علي) كل الحواجز التي كانت بين حياة الأجانب وحياة البيئة الاجتماعية المصرية، وفتح أبواب المهاجرة الى وادي النيل، واسعة، أمام الغربيين؛ وعلى الأخص بعد وفاته، وتوارى قوة يده المتينة الثابتة؛ وبعد أن لفظت حوادث أوروبا السياسية في سنة ١٨٤٨ عددا كبيرا من المهاجرين الى القطر المصري؛ وضاعفت، بل جعلت حرية التجارة وحرب القرم، وعلى الأخص، الأمن الخيم على البلاد، عدد الجاليات الغربية ثلاثة أضعاف ما كان — فإن نظام تلك الامتيازات نخرج عن حدود دائرته للمرة؛ وما فاق قنصل الدول، اعتمادا على ما لحكوماتهم من قوة، واختناما لضعف خليفة (محمد علي) و (إبراهيم) السيامي، يفتنون على حقوق السلطة المحلية التشريعية والقضائية، حتى هدموا كل أركانها، وأصبحوا منها في مركز العزيز من النليل، والحاكم من المحكوم .

التجاوزات

فلم يعمدوا يكتفون بالنظر في شؤون رعاياهم المدنية والتجارية المحضة، المنفصلة عن الشؤون المحلية حينها، ولا بحماية رعاياهم من جور الحكام المحليين الاحتمالي، أو إبعاد الخيف والضميم عنهم؛ بل تعدوا ذلك : (أولا) الى اقتراع كل سلطة جزائية على أولئك الأجانب من أيدي الحكومة، وجعلها من اختصاصهم، دونها، وبدون تدخلها في النظر في المخالفات والجناح والجنايات المرتكبة من رعايا دولهم، حتى في التي تحدث أضرارا بالرعايا الوطنيين؛ (ثانيا) الى إلزام هؤلاء الأهلالي ذاتهم بالمثل أمام محاكمهم القنصلية، في دعاويهم المرفوعة على رعايا حكومات أولئك القناصل، تطبيقا للمبدأ القانوني الروماني الخاص بأن «المدعى إنما يقاضى المدعى عليه أمام محكمة المدعى عليه عينه»؛ ثم وصلوا، في تعدياتهم الجائرة على حقوق الحكومة المحلية، الى حد داسوا معه — فيما يختص برعاياهم، متى كانوا مقيمين، والوطنيون مدعى عليهم — على ذات المبدأ الروماني الذي تفرروه؛ زعما منهم أن حقوق الأجانب لا يؤمن عليها في الحاكم الأهلية، وأنهم لا يحلون في أخلاق القضاة الوطنيين ما يقيمون عليه قمتهم في قضائهم. فأجبروا نفس القاضي من أهل البلاد على المثل أمام محكمة مقاضيه القنصلية، وحاكموه؛ ثم ألزموا الحكومة المصرية، عن طريق المخابرات والتهديدات السياسية، بتنفيذ أحكامهم على رعاياها، رغم أنها، ولو كان حكمهم جائرا.

وانما توسلوا الى إلزام الأهلالي بذلك بوسيلتين اتخذوهما من سوء استعمال ما منحهم الامتيازات من حق حضور التنفيذ بأنفسهم وحق حضور تراجمهم محكمة الأجانب أمام محاكم السلطة المحلية. فان أولئك التراجم — ولم يكونوا يتقاضون من القنصليات سوى ثلاثين أو مئتين فرنكا، كرتب شهري — كانوا، لأسباب شخصية لا تفيب عن فطنة اللبيب، يحملون الذهاب الى الحاكم المحلية في القضايا المرفوعة على

رعايا قنصلياتهم . فلا تستطيع هذه المحاكم إصدار أحكامها وهم ظنّون ، أو في حال غياب المدعى عليهم — المختلفين عن الحضور ، لنا كهم من غياب الترجمة — فتأجل القضايا أياما وأشهرًا ، حتى يضجر المتحون من الأهالي ، ويلجأوا الى قناصل خصومهم في أمل نيل حمايتهم ، والقناصل ، بدلا من إرسال الجميع مصحوبين بترابحتهم الى منصة القضاء الأهلي ، طفقوا يحطسون هم أنفسهم ، قضاة بين الفريقين . ولما كان معظمهم ، إلا قناصل الدول الكبرى ، تجارا ، فانهم ارتاحوا الى الأمر جدا ، لأنهم رأوا فيه إمكان قيامهم قضاة في دواوى قد ترفع عليهم أو منهم بصفتهم تجارا . كذلك كان القناصل يتخفون عن حضور تنفيذ الأحكام الصادرة ضدّ رعايا دولهم من المحاكم المحلية . فيعطل التنفيذ أياما وأشهرًا ، بالمثل ، حتى يضطر من حكم لمصلحتهم من الأهالي أن يخضعوا للقضاء القنصل ، وهم يؤملون — وكثيرا ما كانت آمالهم تنهب أدراج الرياح — أن يستطيعوا تنفيذ حكم يصدره القنصل نفسه في مصلحتهم .

وليت القناصل وقفوا عند هذا التجاوز الأخير ؛ ولكنهم تعدّوه التعتدى النهائي ، أيضا ؛ وبلغ من تطرفهم في النمطية والخيلاء أنهم استدعوا ذات حكومة البلاد أمام منصة محاكمهم ، وحاكموها وحكموا في أغلب الأحيان عليها ، لمصلحة رعاياهم ، بتعويضات باهظة ، كثيرا ما كانت تثقل كاهلها ، وبلغت في أربع سنين فقط ، أى ما بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٨ ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات وذلك بحجة إقدامها على فسخ عقود أبرمتها مع أولئك الأجانب أو على أعمال أوجبت فسخ تلك العقود !

على أن جميع تعدييات التفاصيل هذه لو كانت تجاوزات ونزعات خطيرة فقط ،  
لهان الخطب وقتل فداحته . ولكنها أوجبت اضطراب مجارى العدالة اضطرابا لم  
يعد يمكن معه إقامة معالم العدل مطلقا ، وأضاع الحقوق كلها ، وذلك لثلاثة أسباب  
اساسية :

(الأول) أن تلك المحاكم القنصلية لم تكن متضامنة في تشريعاتها وأحكامها ، بل  
ولا مرتبطة ولو بمجرد ارتباط فوقى بعضها ببعض : فكل منها كانت ، من جهة ،  
تطبق قوانين دولتها ؛ ولا تعترف ، من جهة أخرى ، بالأحكام التي تصدرها زميلاتها .  
ونتيجة ذلك أن المدعى كان يضطر ، متى تعدد المدعى عليهم ، الى رفع قضيته  
الواحدة أمام كل محكمة من محاكم خصومه المتعددة القنصلية ، وإلى اتباع إجراءات  
قانونية مختلفة ، ربما أدت جهله بأحدها الى بطلان دعواه شكلا ؛ فلذا صحت  
إجراءاته كلها ، وأصدرت تلك المحاكم المتعددة أحكامها ، فانه كثيرا ما كان يحدث  
أن بعضا من تلك الأحكام كان يناقض البعض الآخر متناقضة كلية : فيكسب  
المدعى هنا ، ويخسر هناك — وأمر الوكالة ذات الزوايا السبع بالاسكندرية ،  
وتضارب الأحكام في كل من زواياها ، لا يزال حاضرا ذهن الشيوخ منا .

ولما كان من السهل على المدعى عليه الذى خسر أن يلبس رداءه القضائى لغيره  
من جنسية المدعى عليه الذى كسب ، وذلك بواسطة تحويل بسيط ؛ فان المدعى  
الذى كسب كان يضطر ، فى مثل هذه الحال ، إما الى إعادة دعواه ضد خصمه  
الجليد أمام المحكمة القنصلية التي حكمت لغير مصلحته ، والتي كان لابد لها ، إذا ، من  
أن تحكم ضده مرة أخرى ؛ إما أن يكل أمر التعويض طيه الى الله ويحتمل خسارته  
صابرا ؛ وإما أن يلجأ الى الاستئناف بعد الفراغ من كل تقاض ابتدائى .

على أن مجرد تصور الراغب في التنازع مجموعة العقبات القائمة أمامه في مثل تلك الأحوال ، ومبلغ المصاريف والتعقبات التي سيضطر إلى بلوغها لكي يبلغ النهاية ، ثم تخيله أنه قد لا تكون هناك نهاية للتنازعيه ، حتى بعد الاستئناف ، إزاء سهولة تحويل الحقوق ، وعدم تقيد المحاكم بالأحكام التي تصدرها الواحدة منها ، كإنا كافرين لتثبيط عزيمته وصوله عن كل مقاضاة ، والرضا بضياع حقوقه .

هكذا حدث لشركة قناة السويس . فانها أجرت بيتا لها في بورسعيد الى أجنبي هناك ، فتأخر عن دفع ما عليه ، فاطتته أمام محكمته القنصلية ، فتنازل عن الايجار لأجنبي آخر من غير جنسيته ، فأهملت الشركة القضية الأولى ، ورفعت قضية أخرى امام محكمة الأجنبي الجديد ، فتنازل هنا عن الايجار الى أجنبي آخر من جنسية خلاف جنسيته ، فاضطرت الشركة الى إهمال القضية الثانية ، ورفع قضية ثالثة ، ففعل الثالث ما فعل الثاني ، فيكست الشركة من إمكان حصولها على حقوقها ، فأهملتها ، ولم تعد الى المطالبة بها إلا بعد تأسيس المحاكم المخططة .

(الثاني) أن تلك المحاكم القنصلية لم يكن يهمها الحق ، على العموم ، بقدر ما كانت تهتمها مصلحة رعايا دولتها : لأن كل قنصل ، إلا ما ندر ، كان يعتبر أن الغرض من وجوده في البلاد إنما هو الدفاع عن مواطنيه ، سواء أكانوا مظلومين أم ظالمين ، وأن ينصرهم ، أكان الحق في جانبهم أم طيهم . ونتيجة ذلك أن المحكمة القنصلية ، مهما كانت جنسية المدعى ، كانت ، تحريبا دائما ، في جانب المدعى عليه ، مبدئيا ، فتعزب له تحزبا بيتا ، تتمض منه كل نفس تشعر ، ولو قليلا ، بثقل الحيف ومضاضته .

أما إذا كان المدعى من الأعالى، فمقابلته عاظم البلاد عمل المحاكم القنصلية بالمثل كان متعذرا، لعدم تمكنها من محاكمة أجنبي على الإطلاق، بعد ما ثبت في العادات القضائية حق اتصال الأجانب من اختصاصها، سواء أكانوا مدعين أم مدعى عليهم .  
وأما إذا كان المدعى أجنبيا ، فإن قنصليته كانت تعين الفرص لتعامل مواطني المدعى عليه التي تميزت قنصليته له على قاعدة "العين بالعين والسن بالسن" .

مثال ذلك ما فعله الميسو تريكو ، أحد قناصل فرنسا بالاسكندرية ، يوناني من هذه المدينة . ومخصله : أن يونانيا رفع على فرنساوى ، أمام محكمة الميسو تريكو هذا القنصلية ، قضية طالب خصمه فيها بدفع مبلغ استحق عليه بموجب سند موقع منه . وكان لابد للحكمة من أن تحكم على فرنساوى بدفعه ، إلا إذا سجلت على نفسها الجور والظلم . فلما فشت الجلسة ، ونودي على القضية ، وحضر اليوناني وخصمه أمام الميسو تريكو ، سأل هذا القنصل اليوناني قائلا : «أنت يوناني من رعايا الحكومة المحلية أم يوناني من رعايا دولة اليونان ؟ » فأجاب الرجل : « أنا يوناني من رعايا دولة اليونان » . فالتفت الميسو تريكو الى كاتب الجلسة وقال : «شطب القضية» ثم وجه كلامه الى المدعى وقال : « لاشأن لك عندي ، اذهب وقل لقنصلك انه متى عامل فرنساويين الذين يتقاضون أمامه بالعدل ، أعامل أنا أيضا بالعدل اليونان المتقاضين أمامي » .

(الثالث) هو أن تلك المحاكم القنصلية إنما كانت ابتدائية فقط ، وأن استئناف الأحكام الصادرة منها كان يجب أن يرفع الى إحدى محاكم أول درجة في وطن المدعى عليه . فإذا كان هذا فرنساويا ، مثلا ، كان استئناف الأحكام الصادرة من قنصليته بالقطر المصري الى محكمة «إكس» ، وإذا كان طليانيا ، فالى محكمة «انكونا» ، وإذا

كان يونانيا، فالى محكمة « أثينا »؛ وإذا كان بريطانيا، فالى محكمة « لندن »؛ وإذا كان نمساويا، فالى محكمة « تريستى »؛ وإذا كان بروسيا أو ألمانيا، فالى محكمة « برلين » أو إحدى المحاكم الألمانية الأخرى؛ وإذا كان أمريكا، فالى محكمة « نيويورك »؛ وهلم جرا .

وكان من شأن هذا النظام أن يتكبد المستأنف مصاريف جمة قد ترهقه إرهاقا، وأن يضيع من الوقت والمناسبات المصلحية ما قد يضر به أضعاف الإضرار الناتج له من الحكم المستأنف الذى رآه مجحفا بحقوقه، فإما لو امتثل له ورضى به .

ولكنه لو حمل نفسه على تكبد تلك المصاريف وتضييع ذلك الوقت وتلك المناسبات، وأمكنه، بعد التعب والعناء الشديد، البلوغ الى استصدار حكم يلقى الحكم المستأنف، هل كان فى استطاعته أن يعتقد أنه بلغ نهاية متاعبه وثال المبتغى؟ كلا . فان خصمه قد يكون — أثناء المقاضاة فى أوروبا أو أمريكا — حوّل حقه الى شخص ثالث من غير جلسيته؛ فلا يعود من المستطاع تنفيذ الحكم الاستثنائى ضده؛ ويضطر المتقاضى المسكين الى إطاعة دعواه ضد الشخص الثالث المحوّل الحق اليه، وهو لا يتوقع إلا أن يكرر هذا الشخص أيضا الملعوب عينه، وهكذا الى ما لا نهاية له فيفضل، إزاء ذلك، التنبك عن كل مطالبة !

وفى جميع هذه المراحل القضائية من الإضرار بالمعاملة وتوقيف حركة التجارة والأشغال، ما نحن فى غنى عن شرحه .

على أن الذى كان يشير الاتصالات فى النفوس، ويجعل التسلوب على الامتناع الشديد أكثر من ضياع الحقوق المدنية، على ما كان فى ضياعها من المضايقة، كيفية القيام بالعدالة الجزائية .



فبينما السلطة المحلية ، في تركيا ، قبض بنفسها على المجرم وتحاكمه أمام محاكمها الجنائية ، سواء أرتكب جريمته ضد أحد الأهالي أم ضد أجنبي مثله ، وتنفذ فيه الحكم الذي تصدره تلك المحاكم ، كأنه أحد رعاياها ، لا يميزه عنهم مميز ، كانت السلطة بمصر لا تكاد تنجاسر على إلقاء القبض على الجاني الأجنبي ، وتكاد تحتاج في ذلك إلى استئذان قنصليته ، واحضار أحد قواصمها أو مترجميها ليكون شاهدا على أن القبض لم يتعد فيه الواجب ، ولا سبب اهانة لحضرة المجرم . فاذا قبضت عليه سلمته إلى قنصليته لترى شأنها فيه ، سواء أكانت الجناية واقعة من الجاني على أحد الأهالي أم على أحد الأجانب .

ولما كانت تربط القنصليات ما عرفنا ، وكانت محاكمة الجناة أمام أقرب محكمة من محاكم بلادهم الأصلية ، وكان ، من جهة أخرى ، يصعب ، بل يتعذر إقامة البينات على ارتكاب المتهم الجناية المعزوة إليه ، في بلاد تبعد آلاف الأميال عن محل وقوعها ، وفي محكمة يأبى شهود الواقعة السفر للثول أمامها ، وتأدية شهادتهم بين يديها ، كانت النتيجة مائة في المائة ، عادة ، براءة ذلك الجاني ، وعودته إلى القطر ، وقد أصبح الخوجا ديمتري نيوبولو ، مثلا ، بعد أن كان مسير وقسطندي ، والخوجا مرتينو فيتش ، بعد أن كان الخوجا يني ، وأنه أصبح ذا لحية كثة ، بعد أن كان حليقا ، أو حليق الشارب ، بعد أن كان يحمله كأنه حشرة زمانه أو أبو زيد الهلال سلامة ، كل هذا كان يجري في قطر عشرة في المائة ، على الأقل ، من التسعين ألف أجنبي أو يزيدون ، المقيمين فيه ، من أكبر الأشرار العائنين في الأرض فسادا .

فكانت الحال، إذا، لا تخفى؛ وبجدية بأن لا يسكت عليها ذوو الاستقامة من الأجانب أنفسهم؛ فكيف بالحكومة المحلية، وقد بلغت الروح منها الترقوة في هذا الشأن، وعلا مخيجها من الاتقيات على حقوقها والاضرار بها وبرعاياها.

وكان (اسماعيل)، منذ جعلته كارثة كفر الزيات ولي عهد السدة المصرية، قد اقبل يتبحر في علم الحقوق عامة، وعلم الحقوق الدولية خاصة؛ واتخذ الأستاذ بنى معلما في ذلك، ومرشدا ومعينا، حتى أصبح يدرى ماله وما عليه، يوم يقوم على منصة الأحكام، دراية تامة<sup>(١)</sup>؛ فلم يكن والحالة هذه ليستطيع صبرا على تمكيد السلطات القضائية والتنفيذية في بلاده. فاعرض الى نوبار باشا، وزيره الحكيم، وأكثر رجال دولته ميلا الى الأخذ بأسباب المدنية المصرية، وأعرضهم بأساليب السياسة الغربية؛ فوضع ذلك الوزير في سنة ١٨٦٧ مذكرة لمولاه فصل فيها، بافصاح وطبعة شديدة، عيوب ذلك النظام القضائي، وسوء تأثير مجاريه على نجاح البلاد وتقدمها المآذى والأدبى معا؛ وبرهن على أنه عقبة في سبيل المصالح الأجنبية ذاتها، وفي سبيل استخدام أصحاب الكفاءة من الغربيين لتسليمهم زمام الأعمال والأشغال العمومية التي يحتاج فيها الى علم وفن متخصصين، لا وجود لها في دائرة البلاد المصرية.

مذكرة نوبار  
في سنة ١٨٦٧

فأما أنه عقبة في سبيل المصالح الأجنبية، فلأن الأخذ بمبدأ القانون الرومانى القائل « إن المدعى يقاضى أمام المحكمة التابع لها المدعى عليه »، ولأن استئناف الأحكام القضائية أمام المحاكم الغربية في بلاد القنصليات الغربية، موجبان لارتباك التقاضى، وضياح الحقوق، فيما يختص بالأجانب، كما أنهما موجبان ذلك فيما يختص بالأهالى سواء بمسواه.

(١) أنظر: "مصر" للبروف من ٨٢ طائفة ٣٦٨

وأما أنه عقبة في سبيل استقلام ذوى الكفاءة من الغربيين ، فلأن الحكومة المحلية — إزاء تميز القنصليات لرعاياها ، وأخذها بنصرهم ، محقين كانوا أو على بطل ، ولا سيما إزاء التجاه تلك القنصليات الى الوسائل والمؤثرات السياسية في تنفيذ أحكام التضمينات الجائرة التي تصدرها ؛ وعلى الأخص بعد المبر التي ألقي الماضي دروسها المزة عليها ؛ وبعد أن لدغت من المجرع أكثر من مائة مرة ، مع أنه كان الأجدر بها أن تأخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » — أصبحت لا تستطيع مطلقا استقلام أجنبي متخصص في علم أو فن ، تستعمله في مصالحها ، خوفا من أن يسوء استعمال سلاح المطالبة بتعويض وهو السلاح الموضوع في يده من ذلك النظام الجائر .

وختم نوبار باشا مذكرته بأدلة ناصحة تفيد إقادة تامة ان المتضمين ، وحدهم ، من ذلك النظام إنما هم الآثمون المجرمون ، أولا ، فالشاغبون المخاطلون بدمهم ؛ وقال : « إنه لا يليق ، إزاء ، أن تبقى الحكومة المصرية والدول الأجنبية محافظة على نظام هذه ماهيته ، ابتغاء لتجاوزات ضيع منها كل الرجال المستقيمة نواياهم ، الحقبة مطالبهم » . وعلى ذلك ، اقترح إبدال النظام السيئ المختل ، بنظام آخر يحافظ على روح الامتيازات الممنوحة للأجانب ، وينشئ في الوقت عينه ضمانات لحقوقهم خيرا من التي يتمتعون بها تحت ظل حرفة تلك الامتيازات .

وكان المنتظر أن يقع هذا الاقتراح من الجاليات الأجنبية في القطر موقعه من الحكومة المصرية والمصلحة العامة ؛ وأن يقوم أصحاب الجبا وذبوا الأنعام ، على الأقل ، في تلك الجاليات الى تحيينه ، وتقريب الفوائد الناجمة عن إخراجهم الى حيز الفعل من إفهام قصيرى النظر والإدراك من مواطنهم .

ولكن الواقع خالف المنتظر عقاله كلية، وجاء معاكسا له تمام المعاكسة .  
فان أصحاب الامتيازات، على اختلاف جليساتهم، ما عدا الانجليز منهم، هبوا  
هبة واحدة لتقبيح اقتراح نوبار باشا، والتمسك بالقديم المعمول به، وتحذير حكوماتهم  
من الموافقة على تغييره أو تعديله، بدعوى أن التنبك عنه مفض الى ضياع حقوقهم  
وتعريضهم الى هوى السلطة المصرية الاستبدادية .

لذلك لما عرضت مذكرة وزير (اسماعيل) واقتراحه على الحكومة الفرنسية -  
لانها كانت في ذلك الحين صاحبة أكبر نفوذ في مصر وصيت تلك الحكومة لجنة  
خاصة مؤلفة من أفاضل رجال التشريع والقانون في باريس لفحص الأمر وتمحيصه،  
فان هذه اللجنة بالرغم من الايضاحات الوافية التي قدمها اليها نوبار باشا في ٢٣ ديسمبر  
سنة ١٨٦٧، إذ كان في تلك العاصمة، وبين بموجبها ماهية الضمانات الموجودة  
لمصالح الأجانب في الإصلاح القضائي المقترح - قررت عدم صلاحية المشروع،  
ووجوب بقاء القديم على ما هو عليه . فعصاقت الحكومة الفرنسية على قرارها،  
عقب تقرير عزيز الوزير المسيودي مستنويه ذلك القرار به . فظن الملأ، لحظة، أن  
المشروع المصري ولد ميتا .

المشروع لا يزال  
خطوة لدى  
الحكومة  
الفرنساوية

ولكنهم ما لبثوا أن رأوا نوبار باشا يهب ويغند، في رده على المسيودي مستنيه  
المؤرخ ٢٨ يولييه سنة ١٨٦٨، مزاعم هذا الوزير ويدحضها دحضاً تاماً، وما لبثوا  
إلا واصلوا أن حظ المشروع، لدى الحكومة الانجليزية، كان غير حظه لدى الحكومة  
الفرنساوية؛ وأن اللورد ستانلي - وهو الذي أصبح، فيما بعد، اللورد دربي -  
وزير الخارجية البريطانية قد رد بصراحة أن التجاوزات التي ناشت الحكومة المصرية  
منها ضارة حقيقة بمصالح كل أصحاب الشأن، وغير قائمة على وفاق دولي تام، أو مستندة

الى معاهدة أو تمهد البتة ، وأنه وعد نوبار باشا بتعضيد حكومة جلالة الملكة ،  
التقليدية ، له في كل مجهود يبذله لإزالة الحال المشكو منها ، وتقرير الاصلاح المقترح ،  
فيما لو أمكنه الحصول على موافقة باقي الحكومات .

ولما كان هذا الوعد بمثابة تشجيع لنوبار باشا على مواصلة سعيه ، فان (اسماعيل)  
أمر وزيره ببذل أقصى مجهوده لنيل تلك الموافقة ، وزوجه بتفويض مطلق ليجرى  
كل ما يراه لازما ، وأن ينق كل ما يرى إغفاه من النقود في مسيل البلوغ الى  
الغرض المقصود . وانما فتح له اعتادا لا حد له في الصرف لأن الحكومة الثمانية  
رأت ، في تلك الأثناء ، أن تقوم لتعكس المشروع ، وتقتضى عليه ، فأرسلت الى  
(اسماعيل) مذكرة تهديدية ورد فيها ، ضمن تعبيرات أخرى ، الجمل الآتية : «إن  
سموكم أدرى الناس بأن مصر ، فيما عدا بعض الامتيازات المقررة لشخصكم ، لا تختلف  
في شيء عما مطلقا عن باقي ولايات السلطنة ، ولا يجوز لادارتها الدخول مباشرة  
في مخبرات مع الدول الغربية ، أو ربط علاقات معها رأسا . فالخبرات ، والحالة  
هذه ، التي تحاول إجرائها لتتال ، في مصلحتها ، تغيير المعاهدات القائمة ، إنما هي ،  
في الحقيقة ، تعدييات على حقوق الباب العالي ، وتجاوزات لا يصح السكوت عليها .»  
وظاب عن فكر تركيا ما أثبتته ، فيما بعد ، الفصل الأمريكي إيدون دي ليون ،  
في كتابه المسمى «مصر الخديوي» السابق لنا الرجوع اليه مرارا أن فكرة المحاكم  
المتخلطة فكرة تركية أبديت في الخط المايوني الميجدى الصادر سنة ١٨٥٦ ، وأعلنت  
الى الأمير (محمد سعيد) ليعمل بها . فهز (سعيد) كتفيه استغفانا ؛ ولكنه عرضها ،  
مع ذلك ، على قناصل الدول العموميين ، ليروا رأيهم فيها ، فرفضوها ، لزمهم أن  
أناسا كسكان مصر في ذلك العهد — وليننا نستطيع أن لا نقول كسكان مصر في هذا

ولا لدى  
الحكومة الثمانية

العهد، أيضا — يهتم أن يعيشوا حياتهم «منفصلين»، وأن يفتنوا منفصلين كذلك بعضهم عن بعض، كل في مقبرته، إذا جموا معا ليكونوا محكمة مؤلفة من حنة مسامين، وأرمينين، ولاتيلين، ومسيحيين روميين أرثوذكسيين، ومسيحيين روميين كاثوليكين، وقبطيين أرثوذكسيين، وقبطيين كاثوليكين، وحاخاميين، قد يحتاجون، لكي يمنعوا من أن يختل بعضهم بعضا، إلى أن يستعمل معهم، بسطاء، الكرايج<sup>(١)</sup>، اسمى أدوات القضاة الشرقي». . وظب عنها أيضا أن شريف باشا، في ٧ يولييه سنة ١٨٦٠، أطاد تلك الفكرة إلى الأتھان، بدعوى أن الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٤١ قبلت بإنشاء محكمة مخططة دولية؛ وأنها لم تعارض حينذاك في إخراج اقتراحه إلى حيز الوجود؛ مع أن البلاد لم تكن تستفيد منه مطلقا: (أولا) لأن المحكمة التي اقترح إنشائها لم تكن لتكون من قضاة ثابتين بمرتبات شهرية معلومة مقررة؛ بل من أفراد يختارون للفصل في كل قضية على حدة مقابل إعطاء الواحد منهم خمسة جنيهات من كل جلسة تمقد للنظر فيها — وهو ما كان من شأنه حملهم على موالة عقد الجلسات، وتأجيلها إلى ما شاء الله، ليصحبوا المغم الجليل المنقص لهم، لا سيما إذا ساعدتهم على ذلك سعى متقاض سبي النية، يهيم أن لا يبت حكم في قضيتهم؛ و(ثانيا) لأن التأمين الذي فرض دفعه على المتقاضين لرفع دعاويهم إلى تلك المحكمة كان بالطبع جسيما جدا، للتمكن من دفع تلك الجنيئات الخمسة إلى كل قاض في كل جلسة من الجلسات التي يدعى إلى الجلوس فيها مهما كان عددها<sup>(٢)</sup>!

(١) أنظر «مصر الخديوية» لادون دي ليون ص ٣٠٠

(٢) أنظر في الكتاب فيه المسف الثالثة لثاية ص ٣٠٥

ولعل الذي حل الحكومة العثمانية على عدم المعارضة في مشروع شريف باشا،  
ارتياح قلبها الى أنه جعل النظر في استئناف الأحكام التي تصدرها، ابتداءً، المحاكم  
المختلطة الملتزمة بمصر، على النمط المذكور، من اختصاص محكمة الأستانة الاستثنائية  
دون غيرها <sup>(١)</sup> !

مساعي نوبار

فأقبل نوبار، إنفاً، بدأب ويسى ليلاً ونهاراً، ويذل التقود حيث يجب بذلها،  
وينفقها إنفاقاً حكماً، لحمل الصحافة على الانضمام اليه وشدة أزره ؛ ويرزق ما حلق  
في أذهان رجال بطرسبرج وأتينا من المخاوف، من أن يؤدي الإصلاح المطلوب لإجراؤه  
بمصر إلى زعزعة أركان الامتيازات في باقي أنحاء السلطنة العثمانية ، لا سيما فيما كان  
منها تحت إدارة الباب العالي مباشرة ؛ ويعمل — عقب موت المسيودي مستيه،  
واستلام المركيزدي لاقاليت زمام وزارة الخارجية الفرنسية — بعهده وقبوله مبدئياً  
إجراء محادثات بين فرنسا ومصر رأساً ، خارجاً عن اشتراك باقي الدول ، بخصوص  
الإصلاح المطلوب — على تهدئة بال تلك الدول المترجح، وعلى جمع كلمتها كلها، لا سيما  
فيما يتعلق بعدم خروج الخديو عن دائرة اختصاصاته وحقوقه في المساعي المبدولة،  
بمكس ما كان يزعم الباب العالي، حتى تمكن، بعد سنتين من جهود عنيفة وسفراء  
متوالية إلى أهم العواصم الأوروبية، من حل الحكومات الفرنسية والبريطانية  
والنمساوية والروسية والإيطالية : (أقلاً) على تعيين لجنة مؤلفة من  
قناصلها بمصر وبعض مبعوثين خصوصيين للاجتماع في القاهرة ، في شهر أكتوبر  
سنة ١٨٦٩، والبحث في مسألة الإصلاحات الواجب إدخالها على النظام القضائي  
بمصر ؛ و (ثانياً) على تفهيم الباب العالي بأنه ليس في اجتماع تلك اللجنة وبحما

(١) انظر : "مصر الخديوية" لادموند دي ليون ص ٢٠٢

ما يمس ، بأى نوع من الأنواع ، بحقوق الدولة السيادية ، من جهة ، وأنه ليس ما يخول الباب العالى الحق فى مطالبة الدول بأن كل اتفاق يجرى بينها وبين تابعاته من الولايات ذات الاستقلال الداخلى ، التى تدفع له جزية ، يجب أن يسرى على جميع الولايات الشاهانية ، من جهة أخرى .

فلما تم ذلك ، أطم الخديو مجلس النواب فى اجتماعه المنعقد فى شهر فبراير سنة ١٨٦٩ وبشرهم باجتياز حكومته العقبات القائمة فى سبيل إرضاء الحكومات الغربية ، مبدئياً ، بإجراء الإصلاحات القضائية المطلوبة .

اجتماع لجنة الدولية  
بمصر

وفى ٢٨ أكتوبر من ذات سنة ١٨٦٩ اجتمعت اللجنة الدولية بمصر فى دار نوبار باشا ونحّت رياسته ، فأذا بها مشكلة من كل من المحرفون شرايين معتمد دولة النمسا والمجر وقنصلها العام بالقطر المصرى ، والمحرفون تيريمين معتمد الاتحاد الألمانى الشمالى وقنصله العام لدى الحكومة المصرية ومعه الدكتور نيرز نائب قنصل ذلك الاتحاد بالقاهرة ، والكرنل ستاتن معتمد بريطانيا العظمى وقنصلها العام فى القطر المصرى ومعه السير فيليب فرنسيس القاضى بالمجلس الأعلى البريطانى فى الأستانة ، والمسيو دى مريتنو معتمد دولة إيطاليا وقنصلها العام بالقطر المصرى ومعه السليور جيا كوفى المستشار بحكمة استئناف بريشيا ، والمسيو دى لكس قنصل روسيا العام بمصر ، والمسيو اريمر تريكو قنصل فرنسا بالقاهرة ومعه المسيو بيترى القنصل القاضى ووكيل القنصلية الفرنسية بالاسكندرية .

فقدّم نوبار باشا اليها المسيو باترنسترويك ، والمسيو كهسل المхамين ، بصفتها مستشارى الحكومة المصرية فى المسائل القانونية ، واقترح عليهما تعيين المسيو مونورى



المهام الفرنسية ، كاتبا لأمراء الجلسات ، فقبل اقتراحه ، واسلم الرجل مهام وظيفته ، وفصحت الجلسة في الحال .

فأفصح نوبار عن غرض الاجتماع ، وأنه ليس من السياسة على شيء ؛ وبين الضرورة الداعية الى اجراء الاصلاح القضائي المرغوب فيه ؛ وسأل اذا كان لا يحسن ، والحالة هذه ، إشراك قضاة الدول ، التي لا تمثل لها ، في المباحثات المزمعة . فأقترح فنصل الاتحاد الألماني الشمالي استدعاء قضاة اليونان العام ، على الأقل ، بسبب عند اليونان الكبير ، المقيمين بالقطر ؛ ولكن المسيو تريكو قال : إن المنبوين غير مختصين باستدعاء أحد ، وإن غناطية قضاة تلك الدول ، واطارها بانقضاء اللجنة ، والقات نظرها الى المناقشات النائرة ، لشأن من شؤون الحكومة المصرية . فصودق على رأيه ، وبوشرت الأعمال .

فقر المنبوين ، أولا ، أن الآراء إنما تكون استشارية ، لا تهيد دولهم في شيء ؛ ثم سلم نوبار باشا كل واحد منهم نسخة من المشروع ليكون قاعدة للمناقشات التالية . فرغب مندوب روسيا اليه بأن يعطى كلا من المنبوين نسخة ، أيضا ، من التقرير الذي ردت به اللجنة الفرنسية بباريس على اقتراح الحكومة المصرية . فأجاب نوبار بالايجاب . وتأجلت الجلسة الى يوم السبت ٦ نوفمبر ، للمناقشة في صوابية إحلال قضاء واحد مشمول بالضمانات الكافية محل القضاة السبعة عشر الموجودة في القطر .

وفي جلسة ٦ نوفمبر بحثت اللجنة ، أولا ، فيما اذا كان يحسن أن يقدم بأعمالها تقرير عام ، أم يكفي بتقرير فردى يقدمه كل مندوب عن رأيه الى دولته . فبعد ما دارت المناقشة في ذلك بين الأعضاء ، قرر مندوب النمسا والمجر وبريطانيا العظمى

وايطاليا والروسيا وجوب وضع تقرير عام يوقعه الجميع . ورأى مندوبو الاتحاد الألماني الشمالي أن لا يكون ، هناك ، شغل عام . وذهب مندوبو فرنسا الى أن اللجنة بلجنة تحقيق ، وأن لا داعي ، بالتالي ، الى أخذ الأصوات في هذه المسألة ولا في غيرها .

ثم سأل نوبار باشا الأعضاء عما رآه كل منهم في المشروع الذي أعطيت إليه نسخة منه في الجلسة الماضية . فأجل مندوب النمسا والمجر رده ريثما يصل زميله النمساوي من أوروبا . وقال مندوبو الاتحاد الألماني الشمالي انه يجب معرفة ما هي الأدوات المشتكى منها في النظام القضائي القنصل ، قبل البحث عن الأدوات التي يجب أن تعالج بها . وأبى المسيو جياكوني فأوضح أن النظام القضائي القنصلي لا يحد في شئ على المعاهدات الامتيازية والعادات ، ولكنه يوجب عراقيل في سبيل العدالة وانتشار قوى المدنية في القطر المصري ، كما أن نظام المحاكم المصرية يوجب مثلها وأكبر شأنا . وأبان ، بالتالي ، أن الطريقة الوحيدة لإصلاح ذلك هي ما تقترحه الحكومة المصرية من إنشاء محاكم في بلادها على النمط الأوروبي ، ومن سن تشريع يتناسب مع التشريع الغربي . ثم تكلم بما يفيد أنه دربن المشروع درساً تاماً . واقترح تعديلات جملة معقولة عليه — أخذ فيها بعد بمعظمها — وتلا السيور جياكوني الكرنل ستانتن ، قرأ ، باسمه واسم زميله ، مذكرة ذهب فيها الى أن نوبار باشا اختار الطريق القويم لإصلاح الخلل الموجود في القضاء بمصر ، سواء أ كان قنصلية أم أهلية ، وأنهما — مع ابتدائهما بوضع ملحوظات خاصة بكيفية انتخاب القضاة الغربيين في المحاكم الإصلاحية المتوى أنشأها ، وموضوع الرئاسة ، وطنية الدفاع فيها ، والمحاماة أمامها — يريان من واجبهما تعضيد في أمر ايجاد الأدوات اللازمة ، حالما يتوسع في شرح مشروعه المجهل . ثم قام المندوب الروسي ، ومع اعترافه بصوابية ابدال النظام القضائي القنصل

المتعدد بنظام قضائي موحد، قال إنه يجب، قبل قبول اقتراحات الحكومة المصرية، البحث في مقدار الضمانات التي تقدمها، وصلاحياتها، فتقرر مئة معينة. تشتغل فيها المحاكم الجديدة، على سبيل التجربة. أما المندوبان الفرنسيان، فأصرّا على وجوب بحث ماهية الأدواء، قبل الاتحكار بما يكون الدواء.

وبما أن أغلبية المندوبين أجمعت على أن توحيد القضاء خير من بقائه موزعا، متضاربا، وطلبت من الحكومة المصرية تقديم مشروع مستوف، تام الايضاحات، ومبين الضمانات كلها، ارفضت الجلسة على أن يقدم نوبار باشا تلك الايضاحات في الاجتماع التالي.

وفي يوم السبت ١١ ديسمبر انطلقت الجلسة في دار نوبار وتمت رئاسته، وقد انضم الى اللجنة عضوان جديدان: هما الهرفون فسكوه أنديتلنجن المندوب النمساوي الثاني، وكان مستشارا في مجلس الامبراطورية الأوليكي الأعلى؛ والمسيو أوبريل المندوب الرومى الثاني، وكان نائب قنصل روسيا بالاسكندرية. فافاض نوبار باشا في بيان الأضرار الناجمة عن نظام القضاء القنصل، والملازمة له ملازمة لاسهيل الى تهميده منها، مهما كانت شخصية القناصل؛ وشرح مشروع الحكومة شرحا وافيا؛ وأجاب على ما أبداه المندوبون الايطاليون والبريطانيون من التعديلات.

فاجمعت آراء الكل، ما عدا المندوبين الفرنسيين، على وجوب تقديم لأئحة ترتيب المحاكم المتوية، مفصلة بالتدقيق، لإمكان المناقشة فيها. وأما المندوبان الفرنسيان، فقالا أنه يجب على كل مندوب أن يقتدى بالاطالين والبريطانيين، ويقدم ملحوظات شخصية على المشروع الأصلي، لتزداد الحكومة المصرية تنورا. فقال نوبار: ان الحكومة المصرية انما تقابل، بكل أوتياح وسرور، كل ما من شأنه

زيادة اطمئنان الغربيين الى المحاكم الجديدة؛ ووعد بتقديم لائحة ترتيب لها، مفصلة تفصيلا تاما، في الجلسة التالية .

هذه الجلسة عقدت في يوم الأربعاء ١٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩، مشكلة كسابقاتها وفي المكان عينه . فقدم مندوبان الفرنسيان تقريرهما فيها، وتلياه . فاذا به يجذب النظام الفصل القضائي ، ويدفع كل عيب عنه ؛ ويرى أن الأهالي انما استفادوا من وجوده ؛ وأن من لحقهم ضرر منه ، في الحقيقة ، انما هم الأجانب ؛ ولكنه اعترف ، مع ذلك ، بأن توحيد القضاء خير من إبقائه موزعا ؛ وتناول مشروع الحكومة ، فحصره ، وحجذ ما رأى يحميه فيه ، وانتقد ما رأى انتقاده ، وصل الأخص في باب الضمانات المقدمة والمطلوبة . وأهم ماورد فيه وجوب حضور مندوبين خصوصيين ، تعيينهم الدول غير القضاة ، جلسات المحاكم ، لإبداء آرائهم في القضايا المعروضة عليها ؛ وإنشاء محكمة تميز ، فوق محكمة الاستئناف ، تكون تحت رئاسة وزير الحفانية — وبما أن هذه الوزارة لم تكن موجودة ، فان التقرير أشار بإنشائها — وتوحيد القانون في المواد التجارية والمدنية على السواء .

ثم قدم نوبار باشا لائحة ترتيب المحاكم الجديدة ، التي وعد بها . فأجعت الآراء على أن تبجتها اللجنة ، بجمعة ، في الجلسة التالية ، بعد مناقشة دارت على اقتراح قدمه المسيو تريكو ، وعضده فيه زميله الفرنسي ، مؤذاه تكوين لجنة خاصة لدروس تلك اللائحة ، وتهديم تقريرها .

وفي جلسة ٢١ ديسمبر سنة ١٨٦٩ — وقد انضم الى أعضاء الجلسات السابقة المستر تشرلز هيل معتمد الولايات المتحدة الأمريكية وقصصها العام بالقطر المصري ، بناء على تعيينه من قبل دولته — انتقد مندوبو النمسا والمجر كيفية وضع اللائحة الترتيبية

للمحاكم الاصلاحية، المقلمة من نوبار باشا، لأن فيها حشوا أو تقصيرا، وعرضا  
لائحة من صنع المرفون فسكوه إبحالية ومفيدة . فبعد مناقشة لمعرفة أى اللامتين  
تعرض للبحث، وفيما اذا كان يحسن تعيين لجنة لتحضير لائحة ثالثة تجمع بين آراء  
المندوبين كافة، تناول نوبار باشا بكل بساطة اللائحة التى جهزتها الحكومة المصرية،  
وقرأ : « هيا ! لنناقش . فليس الأمر كما ترون صعبا ! » فدارت المناقشة ، إذا،  
على مواد تلك اللائحة . فحذف منها اختصاص المحاكم بالنظر فى القضايا القائمة بين  
أجنبي وأجنبي من جنسيتين مختلفتين ، ولو أن جميع المندوبين أجمعوا على ترضيب  
حكوماتهم فى تحرير اختصاص تلك المحاكم بذلك ؛ وعقدت تسمية المدن التى تنشأ  
فيها ، وتقرر بعد مناقشة حادة إنشاء محكمة تميز ؛ ولما اتضح أن السير فى المناقشات،  
على ذلك النمط ، يطيل المباحث، ويستغرق زمنا طويلا ، اتفقت الآراء على تعيين  
لجنة لترتيب مواد اللائحة ، طبقا لمنطقية تفرع الأفكار من نصوص كل مادة .  
فانتخب كل من حضرات المندوبين فرنسيس ، وفسكوه ، وجياكونى ، وبيندى  
أعضاء لتلك اللجنة، تحت رئاسة نوبار باشا .

وفى جلسة ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٩ ، طرحت اللائحة، كما عدلتها اللجنة، على  
بساط البحث أمام اللجنة العاكة . فناقش المندوبون موادها فى تلك الجلسة وفى جلسة  
٢٨ ديسمبر التالية؛ فانضج أن كثيرين منهم، على ما لديهم من المعلومات وبالرغم من  
حسن نياتهم ، كانوا متشبعين تشبعا تاما بمؤثرات مصالح الرعايا الغربيين الوهمية ،  
لا الحقيقية، وعوامل الرضا فى المحافظة على الامتيازات التبعية، بصفة أن معظمهم  
أعضاء فى الجسم القنصل العام . فنعجم عن ذلك أن المباحث جرت فى طريق وعمر،  
شائك ، وأن مهمة نوبار باشا ظهرت مخوفة بمشكلات أكثر وأكبر مما كان يتوقع .

ولكنه تجلده وتهوى ؛ ونمت هزيمته على قدر ارتفاع العقبات والصعوبات أمامها ؛ وتدرج بحكمة ولطف وسعة صدر ، حيث كانت هذه الصفات واجبة ؛ وروح منكثة انتحادية ، حيث كان يستحب دحض المزاعم بلحمة أكثر منه ببرهان وحجة ؛ وأظهر من فتق اللعن وحضوره ما كان لا بد له معه من التغلب على كل مقاومة . وأشد ما دارت المناقشة فيه كان :

(أولا) على مسألة إنشاء محكمه تميز ، فوق المحكمين الابتدائية والاستئنافية . فقرر إنشاءها مبدئيا ، على أن يبين قانون المرافعات ، فيما بعد ، دائرة اختصاصاتها .

(ثانيا) على مسألة الرئاسة في المحاكم الشبلدة ، وهل تكون لمصرى أم لأجنى . فقرر ، فى النهاية ، رأى المسيو چياكونى : بأن تكون لمصرى ، على أن لا يرأس سوى الدوائر التى يقاضى أمامها الأهالى بعضهم بعضا ، واجتماعات المحكمه العموميه ، وفى الرسميات ؛ وأن تكون لأجنى ، فيما عدا ذلك ، على أن يدعى الرئيس الأجنى وكبلا ، لا رئيسا . وحفظ نوبار باشا للمصريين الحق فى الرئاسة ، مطلقا ، طالما يوجد بينهم من يكون لما كفوا .

(ثالثا) على مسألة كيفية اختيار القضاة الأجانب وتمييزهم : هل يكون ذلك من حقوق الحكومة المصرية ، أم من حقوق الحكومات الأجنبية ؛ وهل تضمن للقضاة المعينين مراكرم فى بلادهم يمدون إليها اذا غادروا خدمة الحكومة المصرية ، أم لا . فقرر بأن الاختيار والتميين يكونان للحكومة المصرية ، على أن لا تستدعى إلا من توافق حكومته على تعيينه ، بعد أن تطلب من وزارة الخفانية ، فى كل دولة ، بيانا بأسماء القضاة المشهورين باللياقة والكفاءة ؛ وأن الحكومة المصرية لا تدخل ، مطلقا ، فى أمر ضمانه حفظ مراكر المعينين لهم فى بلادهم .

(رابعاً) على مسألة تحويل الحق للأفراد في التماس محاكمة أى قاض من القضاة الأجانب؛ وهل تكون محاكمته بمعرفة أعضاء أعلى محكمة مختلطة، أم بواسطة محلفين ينتخبون من أفراد الجاليات، حفظاً لثقتها في القضاء الجديد. فتقوض نوباً بالرأى في ذلك للتدوين، لعدم وجود مصلحة للحكومة المصرية في الشأن مطلقاً. ولكنه قال: إن السليور چاكوفى، صاحب الاقتراح، يبالغ في الأهمية التى يلقها على قلق الجاليات واضطرابها المحتملين؛ لأن ذنبك القلق والاضطراب ناجمان، في الحقيقة، عن جهل الجاليات ماهية المباحث الدائرة. وأثبت كلامه بأن ما تقرره اللجنة، منذ البداية، من عدم اختلاطها بالخارج وجعل مداولاتها وأبحاثها أمراً سرياً، انعكس لكل تشويش أدى، بعكس المقصود، الى اضطراب حيل الطمأنينة في صدور تلك الجاليات الغربية، وإقدامها على ضروب من الحسد والتخمين جعلت كل من يقابله من ذوى الخوف على مصالحهم يبدى له اعتباراً من نوع ما يأتى: «إذا قد عزمت على جعلنا أتراكا؟» أو «هكذا قورتم أن تساموا زمام التحكم فيما للأتراك»؛ وأدت الى اتقاق حقول بعض المتدوين أنفسهم، كما هو المشاهد من إقبالهم على بث مخاوفهم في الجلسات. على أن ذنبك القلق والاضطراب يزولان متى علمت حقيقة المباحث ومراميها، والنتائج التى تؤدى إليها.

فقرر، بعد ميل معظم المتدوين الى تحكيم أعضاء أعلى محكمة مختلطة في الطعون التى تقدم ضد القضاة، أن يحفظ البت نهائياً في الأمر الى نصوص قانون المرافعات المزمع وضعه.

(خامساً) على مسألة تعيين نيابة عمومية، على ما هو عليه في أوروبا، لدى المحاكم الجديدة أم عدم تعيينها. فقرر تعيينها؛ وأن يكون، مبدئياً، اختيار رئيسها ورجالها — ومعظمهم من الأوربيين — كاختيار رجال القضاء.

(سادسا) على مسألة اختصاص المحاكم الجديدة ؛ وهل تحكم في القضايا بين  
أجانب من جلسات مختصة أم لا . فاشتد البحث في ذلك بين السيور جيا كوفى ،  
القائل باختصاصها ، والمسيو بيتري ، القائل بعدمه . فانضم المسيو تريكو الى زميله ،  
وقال بأن القنصليات الفرنسية ترى نفسها مختصة بالنظر في ذات المنازعات القائمة  
بين الرعايا التابعين لها على عقارات موجودة في بلاد الدولة العلية ، بما فيها القطر  
المصرى : فلا ترى أن تغفل عن النظر في القضايا الشخصية المرفوعة من أجنبي على  
فرنساوى . فسأله الكرنل ستاتن : « بموجب أى قانون ترى نفسها مختصة بذلك ؟ »  
فأجاب : « بموجب الأمر المالى الصادر من ملك فرنسا سنة ١٧٧٨ » فقال  
نوبار باشا : « إنه لم يكن ، في ذلك العهد ، من ملك عقارى للأجانب في بلاد  
السلطنة العثمانية ؛ بل لم يكن لهم حق اقتناء ملك عقارى فيها على الإطلاق ؛ وأن  
(محمد على) الكبير كان أول من منحهم عقارا ، حتى الكنائس ، ليحجب اليهم الزوج  
الى القطر والإقامة فيه ، لعماره . فقال السيور جيا كوفى : « ما عدا كنيسة القديس  
مرقس والقديسة كاترينا ، بالاسكندرية : فانها كانت ، منذ زمن مديد ، ملك  
البنديقيين ! » فقال نوبار : « إن هذا الاستثناء يؤيد القاطعة ! » ثم أثبت ، بأدلة  
قاطعة ، أن تعرض القنصليات للحكم في القضايا العقارية ، تجاوز ، لا حق . فواقفه  
على ذلك المندوبان الانجليزيان . وختم نوبار البحث في هذه المسألة برجاء قدمه  
الى المندوبين بأن يعلموا دولهم بكيفية دخول ذلك التجاوز في نظام الامتيازات  
القنصلية ، وصيرورته بنير حق جزا منها .

(سابعا) وأخيرا ، على مسألة تنفيذ الأحكام التى تصدرها المحاكم الجديدة . هل  
يكتفى باخطار القناصل بها ، واحاطتهم علما بيوم التنفيذ وساعته ، بدون أن يكون



لم حق في المعارضة في التنفيذ ، كما أشار السليور جيا كوني ، أم يجب أن تشترك في التنفيذ السلطان المحلية والقنصلية ، كما أشار المسيو بيترى ؟ فاحتم ، هنا ، الجدل بين الأعضاء احتداما عنيقا . وأبدى المندوبان الفرنسيان من السخافة في الرأي ، والتعنت ، العجب العجيب ، حتى لقد يخيل لطلع على المناقشة أن يتساءل : « كيف أمكن لعقل رجلين من ذوى النباهة كالمسيو تريكو والمسيو بيترى ، أن لا يفهما الايضاحات والبيانات المحلية المقدمة من نوبار باشا ؟ » وبعد أخذ وردّ طويلين ، أجمعت الآراء على أن رأى السليور جيا كوني أخرى بالاتباع من رأى المسيو بيترى . وفي جلسة ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٩ طرح نوبار باشا على بساط البحث مسألة الاصلاح الجزائى ، وطلب الاهتمام بها ؛ وبين ماهية الضمانات التى ترى الحكومة المصرية أن تقدمها ، لتسكن القلوب الى إجراء ذلك الاصلاح .

فاجمع رأى المندوبين على أن الحال القضائية بمصر أحوج الى الاصلاح الجزائى منها الى الاصلاح المدنى ، ماعدا المندوبين الفرنسيين ؛ فلتنهما زعما أن إجراء أى تعديل كان فى النظام القضائى الجزائى يمدّ تعديا على الامتيازات ؛ وأنهما لا يستطيعان ، والحالة هذه ، اقراءه ولا المناقشة فيه ، ولو أنهما يحضران المناقشة ، لإبلاغ حكومتها ما يدور فيها .

فشرع فى بحث مواد المشروع الذى جهزه نوبار باشا . وما بدئ فيه إلا وأبهرى السليور جيا كوني ، وأثبت بأفصح بيان ، وجوب إجراء الاصلاح الجزائى لنيل غرضين لا بد من توخيها فى وضع نظام أى عدالة جزائية كانت وهما : حماية الهيئة الاجتماعية من الآثمين ، بضرب سريع على يد المذنب يكون عبءا لمرتكبي الجرائم ؛ وتهديم الترضية الكافية للجاني طيهم . والنظام القضائى القنصلى خلوا منهما ، لأن

التحقيق فيه يعمل كتابة، ويرسل الى الحاكم الجزائية في البلاد الغربية لتحكم فيه ، مع أن الجميع عليه في التقنين الأوروبي هو أن التحقيق كتابة أمر لا يجب أن يؤبه به . ولو قامت القنصليات بإرسال شهود كل واقعة الى الخارج ، لتكلفت نفقة فوق حد الطاقة ، كما حدث له في سنة ١٨٦١ إذ كان قاضيا إيطاليا بمحكمة الاسكندرية القنصلية وأرسل شهود متهم تسكاني الى أوروبا ، عملا بالنظام التسكاني : فكلفه بمجورد إرسالهم ، ماعدا المصاريف الأخرى ، حشرة آلاف فرنك ، وكما كان يحدث للقنصلية الانجليزية حينما كانت تحكم اللجنة بمصر أمام محكمة الجزاء بالعلة . فانها كانت تعطى الشاهد أحيانا ثمانين فرنكا في اليوم ، فوق مصاريف سفره في الدرجة الأولى ، نهارا وليلًا ناهيك بما قد ربح في الأتخان من أن الميدالة الخارجية لاضمانه فيها للترضية الكافية ، الواجب تقديمها لمصالح المحنى عليه ، وأن اللجنة ، المرسلين ليحاكموا أمامها ، كثيرا ما يهودون وقد برزت ساحتهم ، لعدم توفر أدلة الادانة أمام ذلك القضاء ، مع كثرة توفرها حيث ارتكبوا جنائياتهم . فلا دواء ، والحالة هذه ، لهذا الخلل إلا بإنشاء محاكم جزائية مختلطة منظمة ، كالتي تقترح الحكومة المصرية لإنشاءها ، وبقرار هيئة محلفين ، يؤخذون من بين وجوه الجاليات الأجنبية وسراتها ، ليساعدوا القضاء في مهمته .

فقال المسيو بيترى : أن لا شيء يزجج الجالية الغربية أكثر مما لوقيل لها إنها ستحاكم أمام محاكم القطار الجزائية ، بدلا من أن تحاكم أمام قنصلياتها . وأطن الهرفون شرايز أحد المندوبين النمساويين أن ما يخاف منه ، في الحقيقة ، هو أن لا تكون الحكومة المصرية مخلصه في تنفيذ ما قد يعقد من الامتحانات بينها وبين الحكومات الغربية في هذا الموضوع .

فنهض نوبار باشا، وبدد ذلك الخوف بجميع قاطعة؛ وأظهر أن مصلحة الحكومة المصرية ومصلحة الدول الغربية متفقتان تمام الاتفاق في تنفيذ كل عقد يعقد بين الفريقين في موضوع الإصلاح المرغوب فيه من الفريقين على السواء؛ ودحض مزاعم المسيو بيترى قائلا: أن الجالية الغربية ستعظم أمام محاكم منظمة على الطريقة الأوروبية، مشكلة معظمها من قضاة ينتخبون في أحضان الهيئة القضائية الغربية، في بلاد الغرب حينها، وأمام محلفين من وجوه رجال الجالية ذاتها، ولو أن الأحكام ستصدر متوجة باسم خديو مصر، لا أمام محاكم عليية محضة.

فأبى المسيو تريكو إلا الاستمرار على التمسك بحرفية الامتيازات، مؤكدا، مع ذلك، أن القناصل لا يرغبون في شئ أكثر من تخليهم عن السلطة القضائية، على شرط أن يعطوا الضمانات الكافية لتسكين ضمائرهم.

فمادت اللجنة، حينئذ، الى بحث مشروع الحكومة المصرية الجزائي ليتم وقوفها على مقدار الضمانات المقترحة فيه وماهيتها. وأهم ما دارت عليه المناقشة كيفية تكوين هيئة المحلفين؛ غير أن الآراء أجمعت، في نهاية الأمر، على ترك شأن تكوينها الى نصوص قانون المرافعات الجزائية، والاكتفاء بوجوب تحرير تلك الهيئة، مؤقتا، بصفة ضمانات للتهمين.

فأكد نوبار باشا أن الحكومة المصرية ستجهز قانون حقوقات وقانون تحقيق جنابات ثاقين، وستعرضهما على المنتدوين: إما ليدرسوهما، وإما ليرسلوهما الى حكوماتهم. فتشبهت المسيو تريكو بأنه لا صفة للندوين الفرنسيين لفحص مثل هذين القانونين. فقال نوبار: «لا بأس، فالمندوبون الآخرون لا يرون هذا الرأي».

وأجمعت الآراء هذه المرة ، بعد أخذها من جديد ، على وجوب وضع تقرير  
إجمالي بنتيجة المباحث ، يوقعه المندوبون ، ويرسلونه الى حكوماتهم . ولكن  
المندوبين الفرنسيين خالفا لاجماع ، واحتفظا دون غيرها برأيهما الأصل .

وفي جلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٠ قرأ نوبار باشا مذكرة وضعها الكرنل ستانتن ،  
مفادها تأجيل ترتيب المحاكم الجزائية سنة بعد ترتيب المحاكم المدنية ، ليأخذ من سير  
هذه مشجعا على إنشاء تلك ، أو مشبطا له .

وكانت قد وقعت في أيام يناير الأولى حركة ضوضائية بالاسكندرية اضطرب  
لها الأمن العام — فقال نوبار بعد فراقه من تلاوة تلك المذكرة : « ان هناك خطرا  
في التأجيل ، وأن الأفضل لإجراء الاصلاحين المدني والجزائي معا » .

فعارضه المسيو تريكو وقال : « بل الأفضل تأجيل إنشاء المحاكم الجزائية الى أن  
تثبت المحاكم المدنية كفاءتها ، وتجعل القلوب ساكنة الى ما حتمه لها من ضمانات ؛  
وان الذنب في الحوادث الأخيرة على رئيس البوليس » فرد عليه نوبار باشا بأن البوليس  
بوليس القنصليات ، في الحقيقة ، لا بوليس الحكومة ؛ وأن الذين قاموا بالحركة  
الإثمية الأخيرة إنما كانوا أوروبيين ؛ أي أن رئيس البوليس لم يكن يستطيع أن  
يقبض عليهم ويمرر التحقيق معهم إلا بتصریح من قناصلهم ؛ وأن إلقاء اللوم ،  
والحالة هذه ، على البوليس المصري أمر لا يتفق مع الانصاف .

فأعاد المسيو جياكوني كرتيه ؛ وأعلن انضمام المندوبين الإيطاليين الى رأى الكرنل  
ستانتن . انما لم يؤخذ برأيهما المؤيد لرأى نوبار باشا في وجوب إجراء الاصلاح الجزائي  
حالا . فلم يبق سوى المندوبين الفرنسيين أحد إلا ووافق على ذلك . وارتفعت

الجلسة بعد أن نيط بلجنة مؤلفة من السير فرنسيس والسنيور جياكونى والمسيو بيليتى ، تحت رئاسة نوبار باشا ، تجهيز مشروع التقرير الواجب وضعه بأعمال اللجنة حتى ذلك العهد .

وفى جلسة ١٧ يناير سنة ١٨٧٠ قرئ مشروع التقرير هذا ، فوقه الجميع ، ما عدا الدكتور نيرزى ، وكان مريضاً ، والمرفسكو ، وكان قد سافر . ثم قال نوبار باشا : « ان الحكومة المصرية ستجهز قانوناً للرافعات ريثما تأتى تعليمات للتدوين الفرنسيين والنمساويين من لندن دولم ، تصرح لهم بالمناقشة فيه » .

وما لبثت اللجنة أن حررت التقرير ، وبينت فيه ما آل اليه مشروع الاصلاح <sup>تقريرها المواقف</sup> المقترح من الحكومة المصرية ، فيما يتعلق بترتيب المحاكم الجديدة ، والقضاء فى الأمور المدنية ، والتجارية ، بعد تعديله وتحويره ، فلذا به ما يأتى :

(أولاً) استبدال الحالة القضائية الفوضوية ذات الجهات الاختصاصية المتعددة بسلطة واحدة تكون مختصة بالفصل فيما بين الأهالى والأجانب على السواء ، تسلم مقاليدها الى ثلاث محاكم ابتدائية تنشأ بالاسكندرية ومصر والقاهرة (أو الاسماعيليه) ومحكمة استئنافية عليها تجلس بالاسكندرية ، ومحكمة تميز فوقها ، تشكل مثلها .

(ثانياً) جعل أغلبية القضاة فيها كلها من أرباب القضاء والقانون الغربيين ، تدفع الحكومة المصرية لهم مرتباتهم ، ولا تملك حق عزلهم أو تأديبهم ، بل يفوض ذلك الى الهيئة التى سيغورها هذا الحق القانون النظامى الأساسى المزمع وضعه ..

(ثالثاً) تحويل هذه المحاكم حق الاختصاص بالنظر فى جميع القضايا التجارية والمدنية ، والقضايا العينية العقارية ، والقضايا الشخصية حينها إلا ما كان منها قائماً

بين أجنيين من جلسية واحدة، وفي جميع المنازعات، الناجمة عن الرهون التي تسجل في مصلحة أجنبي على الأعيان الثابتة، أيا كان مالكوها وواضعو اليد عليها، حتى لو كانت وقفا .

(رابعاً) أن يكون أعضاء كل محكمة ابتدائية خمسة : ثلاثة أجانب ووطنيان، وأعضاء المحكمة الاستئنافية العليا سبعة : أربعة أجانب وثلاثة وطنيون .

(خامساً) أن يكون الحق للدول الموقعة على مشروع الإصلاح القضائي هذا، بعد مرور خمس سنوات على تحقيقه، أن تمثله بالانفاق مع الحكومة المصرية، إذا رأت موجبا لتعديله، أو تخفيه، وتقرر السود الى الحال السابقة، اذا اتضح لها أصوبية ذلك .

وقررت اللجنة، فيما يختص بالإصلاح الجزائي، ما يأتي :

(أولاً) أن تحكم المحاكم الجديدة في قضايا المخالفات البسيطة، أو تتندب قاضيا منها للحكم فيها، على أن يكون هذا القاضي أجنبيا، اذا كان المخالف أجنبيا، وأن تستأنف الأحكام متى قضت بحبس .

(ثانياً) أن وحدة القضاء في باب الجنايات والجنح أمر ضروري لتأمين عموم المصالح، مهما اختلفت جنسيات أصحابها، على أن يسبقها بحث دقيق في الضمانات الناجمة عن تشريع تام يشمل القانون الجزائي وقانون تحقيق الجنايات .

(ثالثاً) أن يجري الإصلاح القضائي في الأمور المدنية والإصلاح القضائي في الأمور الجزائية معا، وإلا فخلشاً المحاكم الجزائية بعد مرور سنة على تأسيس المحاكم المدنية التجارية وعملها، وظهور صلاحيتها للجميع، ظهوراً لا ريب فيه .

ثم أسرع كل من المندوبين وأرسل نسخة من هذا التقرير إلى دولته ؛ واستند نوبار باشا للسفر إلى الأستانة لينال المصادقة على المشروع من الباب العالي .

لجنة ياديس  
نقص المشرع

وما لبث أن ورد على الخديو تفراف من باريس يفيد تشكيل لجنة هناك، تحت رئاسة وزير الخارجية - وأن المسبوقى لسبس، المعروف بميله الكلى إلى تمضيد الإصلاح المبتنى، عضو فيها - للنظر فيما إذا كان يصح التسليم بالمبادئ التي ارتككت عليها لجنة القاهرة لاعتبار الإصلاح واجبا أم لا .

مواقفة إنجلترا

وورد بعد ذلك بأسبوع على الكرمل ستاتن نبأ من الحكومة البريطانية يفيد أن هذه الحكومة رأت، بعد الفحص، وجوب إجراء إصلاح لتوحيد القضاء بمصر، ولكنها لا تستطيع قبول ما قرره لجنة القاهرة، كليا أو جزئيا، إلا بعد الاطلاع على القوانين الموعود بوضعها، وقبولها .

تشكيل لجنة  
إيطالية بفلورنسا

فبلغ ستاتن ذلك بكتاب إلى نوبار باشا، وأعلم هذا الوزير الخديو، فقال (اسماعيل) المعتمد الإيطالي في القطر، وألح عليه في إبلاغ ذلك إلى الحكومة الإيطالية، وطلب استصدار قرار منها يشبه بقرار الحكومة البريطانية . فصعد دى مريتو بالطلب، وأجابت الحكومة الإيطالية طبق المرام، ثم شكلت، هي أيضا، لجنة لدرس المسائل المقدمة إليها من لجنة القاهرة .

وحوالى العشرين من شهر مارس سنة ١٨٧٠ وصل نوبار باشا إلى الأستانة، وقابل على باشا مرتين متواليتين . فقال له الصدر الأعظم ان الباب العالي لا يرى اعتراضا على موضوع الإصلاح، وأنه مستعد لمساعدة جهوده، بحيث يضمن نجاحها، على أنه يرى، ضمانا لحقوق السلطان السيادية، أن تصدر ارادة «سلطانية»

أولاً ، تمنح الحكومة المصرية اختصاصات ومزايا جديدة خاصة بالفرض الذي تسمى إليه ، تخونها حق عبارة الدول في شأنه .

دائن تركيا

ولكنه عاد بعد ذلك ورفض المشروع برقمته رفضاً باتاً ، وأعلن نوبار بعدم رضا الباب العالي به مطلقاً .

فوقع هذا الرفض موقع الاستغراب من عموم سفراء الدول بالأستانة . فاستفسروا ؛ فقيل لهم إن الباب العالي يترض : (أولاً) على أن يكون القضاة الأجانب في المحاكم المبتغاة أكثر مدداً من القضاة الوطنيين ؛ (ثانياً) على اختصاص تلك المحاكم بالنظر في القضايا التي قد يكون للإدارة المصرية فيها دخل ؛ (ثالثاً) على اختصاصها ، أيضاً ، بالنظر في القضايا المرفوعة بشأن أحيان ثابتة ؛ وأن الباب العالي إنما ينظر الى المشروع برقمته ، من الوجهة السياسية ، فلا يرى أن يكون لمصر مركز استثنائي فيما يتعلق بالنظام القضائي : فلما أن يتناول الإصلاح السلطنة كلها ، وإلا فإنه لن يتناول إقليماً منها دون غيره .

فأسف السفراء لذلك . ولكن نوبار باشا ، الخبير بأحوال الأستانة ، أظهر لهم أنه لا ييأس مطلقاً من نيل مبتغاه ، بالرغم من نزاهة علي باشا الشاذة ، ومن معاداته الشخصية للحدود .

في الوقت نفسه ، وكان الأقدار أرادت أن تهوّن على الحكومة المصرية وقع الرفض العثماني ، ورد عليها من حكومات روسيا وبروسيا والولايات المتحدة ما يفيد قبول هذه الدول الإصلاح القضائي مبدئياً ، ولو أنها أبدت تحفظاً فيما يختص بالضافات المقترحة وقبول باقي الدول ذات الشأن بها .

موافقة  
روسيا وبروسيا  
والولايات المتحدة  
على الإصلاح  
القضائي



وكانت حركة الأفكار في الجاليات الغربية بالقطر قد قامت على قدم وساق . فاجتمع لدى المسيو موشكور ، نائب الأمة الفرنسية بالاسكندرية ، وجوه الفرنسيين القاطنين الوادى النخيب ، وتناولوا في الواجب عمله . فاجمع رأى أغليتهم على استحسان المشروع الاصلاحى ، عامة ، بعد إدخال بعض تعديلات عليه . ولكن فئة منهم ذهبت الى عكس ذلك ؛ وما علم أعضاؤها بتكوين اللجنة بباريس لمراجعة أعمال لجنة القاهرة وقراراتها ، وتمحيص عثما من ممينها ، إلا وأرسلوا الى رئيسها الرسالة التالية : « نحن الفرنسيين زانا مضطرين الى التأكيد أن هذا الاصلاح المزعوم سوف يكون نحرابا لنا ! » .

مدول الباب العالي  
من الرض

وكان نوبار في تلك الأثناء قد سعى وهو عالم أن سعيه ليرتجى . فأوقفه على باشا على الشروط والتعديلات التي يرى الباب العالي وجوب إدخالها على المشروع ، ليحوز قبوله . فما زال الوزير المصرى برجال الديوان حتى حملهم على الاعتقاد بأن الاصلاح القضائى الراغبة الحكومة المصرية فى إدخاله إنما هو شأن من شؤون القطر المصرى الادارية المحضه ؛ ومع أنه سلم ، مبدئيا ، بتعديل الأوجه الثلاثة المعترض من الباب العالي عليها التمديل المطلوب من رجال الأستاذة ، وقبل أن يعتبر تعيين القضاة الأجانب شيئا مؤقتا ، قطع ، ريثما يتسنى وجود قضاة أهليين من ذوى الكفاءة المعترف بها ؛ وأن يمثل رأى رجال لجنة القاهرة بالألا يختص غير المحاكم الجديدة بالنظر فى التجاوزات التى قد تقع من قضائها وهم مباشرين شؤون وظائفهم ، عاد بكيفية حكيمة ، ونال مصادقة الديوان العثمانى على مشروع موافق بين مطالبه وما ذهبت اليه مطالب رجال الهيئة السياسية الغربية فى الأستاذة حينها ، وحاول جميع الاشتراطات التى وضعتها لجنة القاهرة ؛ ثم تمكن بلهائه وحذقه من جعل المصدر

الأعظم حينه يسلم نسخة من ذلك المشروع الى كل فرد من أفراد تلك الهيئة ، لكي يرفعه الى دولته ، وسافر الى العواصم الأوروبية ليتال مصادقتها أيضا عليه .

وكان قد سبقه اليها منشور أرسله الى باشا الى سفراء الدولة العلية في تلك العواصم أوضح لهم فيه مصادقة الباب العالي على المشروع القضائي المصري ، بشرط أن لا تكون المحاكم الجديدة مختصة بنظر القضايا التي تقيم بين الأهالي وبعضهم ، ولا بالحكم على الموظفين فيما قد يصدر عنهم من تجاوزات لحدود وظائفهم . وطلب الى أولئك السفراء تعضيد نوبار باشا في مساعده .

وحوالي منتصف شهر مايو سنة ١٨٧٠ كانت اللجنة الفرنسية — بعد سلسلة مفاوضات دارت بين نوبار باشا وبين المسيو دو فرجييه رئيسها ، والمسيو إميل أليفييه رئيس الوزارة الفرنسية ، القائم بشؤون وزارة الخارجية مقام وزيرها المتغيب — قد فرغت من أعمالها بباريس ، ووضعت مشروطا من عندياتها أبلغته الحكومة الفرنسية الحكومات الغربية الأخرى لتوقفها على آرائها في الموضوع .

تجربة  
أبحاث اللجنة  
الفرنسية

وأهم ما جاء فيه : جعل عدد قضاة محاكم أول درجة سبعة ، منهم أربعة أجنبي ، وعدد مستشاري محكمة الاستئناف أحد عشر ، منهم سبعة أجنبي ، وضم محلفين وطنيين ، ومحلفين أجنيين من التجار الى القضاة المشكلة منهم الجلسات التجارية ، وأن يكون لهم صوت في المداولات ، ووجوب غلبة الحكومة المصرية الحكومات الغربية في كل تعديل يراد إدخاله فيما بعد على القوانين التي ستمنق عليها ، وتأجيل العمل بالاصلاح الجزائي مؤقتا ، والموافقة فيما عدا ذلك على ما أقرته لجنة القاهرة . فوافقت عليه بأكثرية حكومتها بطرسبرج وفيينا ، ودأت حكومة برلين ، بعد مقارنته بالمشروع المصري الذي عدلته لجنة القاهرة العلية ، أن محكمة التمييز أصبحت خير

مرغوب فيها، مذ جعل عدد قضاة أول درجة خمسة وعدد قضاة الاستئناف ثمانية في كل جلسة، لوجود الضمانة الكافية للتقاضين في عدد القضاة هذا الكبير، وقالت إنها تفضل أن يكون عدد مستشاري جلسات محكمة الاستئناف لورديا عنه زوجيا، اجتنابا لكل عرقلة في التصويت .

وأما حكومة إيطاليا فأحالت المشروع للفرنساوى إلى بلحتها المشكلة تحت رئاسة الكافالير ديزمبروا، والتي كان أحد أعضائها السليور چيا كوني .

ف رأى ( اسماعيل ) أن الوقت بات مناسباً للاضاق مع الدول على تعيين لجنة دولية يكون رأيها تنفيذياً، تمحص المشروع الواجب تنفيذه، مستخلصة إياه من المشاريع الثلاثة الموضوعة على بساط البحث، وهي : "المصري" الذي علقته لجنة القاهرة و "العثماني" ، و "الفرنساوى" — وكيفية جعله إلزامياً للجميع . ومنع نوبار باشا، لتحقيق هذا الغرض ، سلطة مطلقة . ولكن الدول المختلفة رأت ، قبل موافقة الخديو على ما يروم ، وجوب اطلاعها على التشريع الذي ستحكم المحاكم الجديدة بمقتضاه، وطلبت نشر القوانين التي وعد بها، أى القانون المدنى، والقانون التجارى، وقانون المرافعات المدنية والتجارية، قبل الإقدام على أى إجراء يكون؛ وتركزت جانباً، مؤمناً ، قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات ، لانتهاقها على تأجيل الإصلاح الجزائى الى حين .

ورأت الحكومة الإيطالية فوق ذلك، وأخذنا بإشارة لجنتها، وجوب انضاق الحكومة الخديوية مبدئياً مع الدول على تحديد عدد القضاة، ودرجاتهم ، وعدد الموظفين الذين سوف تطلبهم من كل واحدة منها ، وذلك حسباً لمتافسات قد نقيم عن اتخاذ

قواعد أساسا لذلك التحديد ، غير الثلاث الآتية ، وهى : أهمية الدول سياسيا ؛ عدد أعضاء جالية كل منها ؛ عدد قضايا كل جالية .

غير أن الخديو ، لما عرض عليه السيوردى مرتينو ، قنصل إيطاليا العام بالقطر المصرى ، وقاتب دولته ، رأى تعديل القاعدة الأولى ، واتخاذ قلة أهمية الدول السياسية بدلا من أهميتها المطلقة أساسا لتحديد عدد القضاة ، وذلك توصلا الى ملاءمة كل نزاع على النزوذ قد يقع فى خلد الدول الكبرى الإقدام عليه ، بواسطة تفوق عدد قضاة إحداها على عدد قضاة غيرها . ورأى ترك أمر تحديد عدد الموظفين من كل دولة وتعيينهم الى هيئات المحاكم عينها ، بدون تدخل أية دولة فيه .

وفى أوائل شهر يولييه سنة ١٨٧٠ تم طبع القوانين المصرية المختلطة . فوزعها نوبار باشا على الدول المختلفة ، حالا ، إجابة لرغبتها . فقرر اللورد جرانفل ، وزير الخارجية الانجليزية ، الى المركيز دى لا فاليت ، سفير فرنسا فى لندن ، فى ٢٢ يولييه سنة ١٨٧٠ ، أنه : بعد اطلاعه عليها ، يوافق تمام الموافقة على انشاء الهيئة القضائية الجديدة المرغوب فيها بمصر ، وعلى شكلها المبين فى المشروع الفرنساوى ، ودائرة الاختصاص المينة لها ؛ وأنه كلف سفراء بريطانيا العظمى لدى الدول المختلفة ، وبالأستانة ومصر ، بتسليم تلك الحكومات نسخة من كتابه اليه ، لإعلامها باتفاق إنجلترا وفرنسا على الأمر ، لكن يسمى الخديو ، حالا ، الى احراز قبول السلطان بالإصلاح القضائى كما قرر بالمشروع الباريسى ؛ ويعلن السلطان قبوله الى الدول . فتقدم الحكومة المصرية على اتخاذ التدابير والاجراءات اللازمة لتكوين تلك المحاكم وانشائها .

طبع القوانين  
المختلطة وتوزع بها

الحرب السجبية  
توقف المفاوضات

ولكن الحرب كانت قد نشبت بين فرنسا وألمانيا، وأصبح الزمن غير مناسب للمفاوضات. فعزل الخديو عنها مؤقتا، وأخذ يفكر في اصلاح آخر يقوم مقام الاصلاح القضائي ولو جزئيا .

فوقع في خلده انشاء بلدية بالاسكندرية، يخول لها حق النظر المطلق، قضائيا، في جميع أمور التنظيم والايامارات في النفر، مع توسيع دائرة محاكم التجارة، وجعلها مختصة بالنظر في أمور لا تكون تجارية بكل معنى الكلمة. وأقدم بحس نبض التفاصيل في ذلك . فوافقهم بعضهم، وأبى البعض الآخر، ومن ضمنهم معتمد ايطاليا، إلا أن يكون كل اصلاح قضائي يجرى في البلاد شاملا عاما، لا جزئيا خاصا .

فحوالى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٧٠ — وكان فوز ألمانيا على فرنسا بكيفية نهائية ساحقة بات أمرا مؤكدا، ونزول فرنسا على الشروط الألمانية أمرا لا يحتمل ريبا مطلقا — رأى نوبار أن الوقت قد حان مرة ثانية لاعادة المفاوضات في الاصلاح القضائي الى مجاريها السابقة، لاسيما ازاء كثرة تردد الاشاعات عن قرب اجتماع أوروبا في مؤتمر عام قد يتناول بحث مسائل شرقية أخرى .

عود الى المفاوضات

فأرسل في ٢ يناير سنة ١٨٧١ كتابا في شكل مذكرة، الى عموم معتمدى الدول في القطر، يطلب فيه مصادقة حكوماتهم على القوانين المصرية المختلطة التي عرضت نسختها على كل واحدة منها، وأن تكون تلك المصادقة إما مباشرة، وإما بواسطة معتمدى الدول مجتمعين بهيئة لجنة خاصة، أو بواسطة مندوبين تشديدهم الدول لذلك الغرض . وأرسل نسغا من ذلك الخطاب الى وزارات الخارجية كلها .

فأسرت بروسيا، وأجابت أنها تصادق على القوانين المذكورة، وتصرح لمتعتها في القطر المصرى بالعود الى تناول مباحث لجنة القاهرة الأولى، ولكن ايطاليا ابت

أن تبدى رأيا نهائى، قبل أن تفرغ لجنتها من فحص المشروع والتشريع المسنون له؛ وأبت إلا الوقوف، مقدما، على الشكل الذى سوف يتخذه تنفيذ التعهدات المتبادلة، أى على كيفية تشكيل المحاكم العتيدة .

فراى نوبار باشا أن يرد على هذا الإباء رقا طويلا، أثبت فيه أنه لم يكن فى وسع الحكومة المصرية أن تمبر عن فكرها فى هذا الشأن بأحسن مما صبرت عنه إذ قالت انها ستختار قضاة أوروبين، وتستشير فى تعيينهم بكيفية شبه رسمية حكوماتهم المختلفة لتحيط اختياراتها بأكثر مما يمكن من الضمانات؛ وان القواعد التى تريد الحكومة الإيطالية أن تتخذ أساسا لتحديد عدد القضاة ودرجاتهم لقواعد لا يصح العمل بمقتضاها : (أولا) لأنه من شأنها جعل المحاكم العتيدة دولية أكثر منها مصرية؛ و(ثانيا) لأنها ستثير، حتما، منافسات دولية، ترى مصر أنها فى غنى عنها؛ وأن الحكومة المصرية فكرت، لاجتناب تلك المنافسات، فى تشكيل محاكم أول درجة من قضاة يؤخذون من سويسرا والبلجيك وهولندا، وتشكيل محكمة الاستئناف من مستشارين يؤخذون من الدول العظمى؛ لأن معاملة هذه الدول على قاعدة المساواة أمر ممكن، فى هذه المحكمة العليا، بسبب كثرة عدد أعضائها .

فأقرت إيطاليا هذا المبدأ، ولو أنها لم توافق على أن يكون عدد مستشارى الاستئناف الغربيين سبعة فقط؛ وأطلعت الحكومة المصرية على التقرير الذى وضعته لجنتها فى فلورنسا . فاذا به تقرير ضاف واف، تناول كل دقائق المشروع وتعديلاته، وما اقترح له، والمشروعين الثمانى والفرنساوى؛ وعص ذلك جميعه تمجيها مستوفيا؛ واستنتج نتائج، واستبطل آراء أقر معظمها فيما بعد، لوجودها قرينة الصواب، وملت

الحكمة والبصيرة . فأمرت الحكومة المصرية بترجمته الى الفرنسية ، لتستفيد ويستفاد مما جاء فيه .

مرادفة  
الباب العالي

غير أن الباب العالي كان قد أظهر امتياعاً لا مزيد عليه من عرض القوانين المصرية على الدول لنيل تصديقها عليها ، لاعتباره ذلك افتياتاً على حقوق الدولة : (أولاً) لأن العرض يقتضى أن القوانين جديدة ، وفي قوانين باقي السلطنة ، ولا حق في وضع قوانين جديدة إلا للسلطة صاحبة السيادة العليا ؛ و(ثانياً) لأن العرض يقتضى أن موافقة الدول الأجنبية عليها تكفى لكي تجرى تلك القوانين في القطر المصري ، مع أنه لا حق لمصر في اجراء قوانين تكون غريبة عن قوانين الدولة العلية ؛ فأرسل بهذا المعنى كتاباً كله خيلاء الى الحكومة المصرية ، أئذرها فيه بأن أمر " الإصلاح " إنما هو من الشؤون السلطانية لا من الشؤون الداخلية المصرية ؛ وأنه يرى بناء على ذلك أن تتكبد الحكومة الخديوية عنه ، وتترك لحكمة الباب العالي ، ليجري ما يراه فيه .

ولكى تكون مما كسبه للشروع مكسوة الظواهر برداء يتخذ له الصواب ، أعلن الدول أنه مشتغل ، هو نفسه ، في وضع قانون قضائي لعموم السلطنة ، وأنه سيفرغ من وضعه في ظرف ستة شهور ، فما على مصر ، والحالة هذه ، إلا انتظار صدورهم للعمل به أسوة بباقي الممالك الشاهانية .

فأرسل الخديوي في بادئ الأمر مصطفى رياض باشا وزير حقانيته الى الأستانة لازالة سوء الفهم الواقع ، وأعلم الحكومة الإيطالية بالمعارضة المبداة من قبل الديوان العثماني ، لتعمل على رفعها .

ولكنه اتفق أن على باشا، الصدر الأعظم، مرض في الإثناء، المرض الذي قضى فيه نحبه . فلم تفتح المحابر إلا بطيئة . وبدأ من انجلترا حينها ما جعل الملاً المصرى يوجس خيفة على مشروعه القضائى .

فتوالت الأشهر بدون جدوى، واجتهد الباب العالى، لا سيما بعد موت على باشا، في حل الحكومة المصرية على طرح مشروعه في زاوية الإهمال، محتجاً، من جهة، على ما ألزم الخديو به نفسه للدول من عدم إدخال أى تغيير على القوانين المختلطة مدة خمس سنوات؛ وخوف (إسماعيل)، من جهة أخرى، بما قد يفهم — على زعمه — عن المشروع من نتائج وخيمة على الأهل والحكومة وعلى حقوق مصر واستقلالها . وتمسك — تبريراً لسلوكه — بما آلت إليه الحكومات الأجنبية، إلا الإيطالية، من الجلود لإزاء المشروع، حتى أن فرنسا حينها، لا تشغلها بمداواة جروحها ورتق خروقها عن الاهتمام اهتماماً زائداً بالشؤون الخارجية، امتنعت من إرسال تعليمات بخصوصه إلى سفيرها في الأستانة .

ولكن همة (إسماعيل) لم يبطها قيام تلك العراقيل في سبيل إصلاحه المرغوب؛ ولو أن المتزين إليه، حتى الحكومة الإيطالية صديقه الحميمة، أوشكوا أن يخافوا على عزيمته الملل والنصب، ويخشوا إقلاعه عن رأيه . وإنما كان السبب في تجلده وعدم خور همته ما كان قد وطن النفس عليه توطيناً صادقاً من القضاء على قيد الامتيازات الأجنبية التي كانت — في عرقه — أشد ما يتقل طاق الحكومة المصرية وأشد ما يقصد بمصر عن بلوغها استقلالها .

فرد في ١٣ يونيو سنة ١٨٧٢ على الصدر الأعظم رقداً يليها ذكر فيه : « أن الباب العالى حينه كان قد وافق على جعل حد سيرة الحاكم الجديدة خمس سنوات ؛ وقال



لأنه لم يشأ معترفاً بأن سن القوانين حق مقدس من حقوق السلطنة المطلقة، الخاصة بها دون سواها؛ وأنه لذلك لم يقع في خله أبداً أن يسن قوانين؛ وأن القوانين المختلطة التي سيطبقها الحاكم الجديدة إنما هي، في الحقيقة، القوانين السارية بالقطر المصري في كل آن؛ أي أنها، إذا، قوانين السلطنة عينها. ثم ذكر الباب العالى بأن المشروع تحت التداول والأخذ والرد منذ أكثر من خمس سنوات باطلاع الديوان السلطاني ومواقفته؛ وذكره بكل ما حصل في الشأن؛ وأن الآراء كلها أجمعت على أن القضاء، كما هو بالقطر المصري، ليس بقضاء؛ وأنه مادام لا يوجد في قطر من الأقطار قضاء منظم، تصدر الأحكام عنه للجميع، بكيفية واحدة على السواء، فالتقدم والرق والامجار والمدنية تبت كلها أمورا متعذرة، ان لم تصبح في دائرة الحال؛ وأنه لا يرى، إذا، كيف يمكن أن تنجم عن تنظيم القضاء في بلاده النتائج الوخيمة التي يخوفه منها الباب العالى؛ وأن تواب الدول الذين تباحثوا في المشروع، في كل لجنة شكلت لذلك الغرض، أبدوا من شعائر الاحترام لاستقلال القطر، والحقوق التي يعتبرها الجميع مقدسة، ما حمل الباب العالى عينه على إقرار المشروع، بعد إدخال بعض تعديلات طيه؛ وأنه لم يعد يبق لنفاذه إلا رغبة الدول في الاطلاع على القوانين التي سوف تطبقها المحاكم العتيدة؛ وأنه لو كان في إبداء هذه الرغبة ما يحد على استقلال الحكومة وحقوقها، أو ما يفيد تناخلها في شؤون تشريع القطر، لما أبديت ولما قبلت؛ وأن نتيجة كل ما تقدم أن تنفيذ المشروع إنما يقصد به في الحقيقة حصول الأهالي والكل، سواء بسواء، على حقوقهم الضائعة؛ وحصول الحكومة المصرية على الطمأنينة والحماية اللازمين لها.

سفر (اسماعيل)  
الى الأستانة

ولعلمه أن وجوده بشخصه، في الأستانة، يفعل ما لا يفعل خير الأدلة والبراهين في قضاء لباتنة، أكثر من كل مكاتبة مهما كانت فصيحة، عزم على السفر الى الأستانة، وسافر إليها في أواخر شهر يونيه حينه، مصطحبا وزيره الحكيم نوبار باشا. فاختتمت إيطاليا فرصة وجوده في تلك العاصمة، وفاتحت خارجيات الدول الكبرى في أمر تعضيد مساعيه لدى الباب العالي، بواسطة سفرائها بالأستانة، والعمل، في الوقت ذاته، على منع كل تأثير على الخديو من شأنه دفعه الى المطالبة بتطبيق النظام القضائي الذي تطبقه الدولة العلية في ممالكها، ببلاده.

فاجابت النمسا وفرنسا وألمانيا إيطاليا الى طلبها، وكلفت كل منها سفيرها لدى الحكومة العثمانية بالعمل على اقناع الباب العالي بوجوب المصادقة على مشروع الاصلاح القضائي بمصر. أما الحكومة الروسية فامتنعت، في بادئ الأمر، لقلة مصالحها في القطر. وأما إنجلترا فقالت: «ان الظروف في تركيا، لاسيما بعد حرب القرم، لم تعد، كما كانت في الماضي، موجبة لتدخل الدول كثيرا في شؤونها الداخلية؛ وأنه يحسن، والحالة هذه، بالدول الانتظار ريثما تفرغ الأستانة من وضع القوانين التي وصلت بانجازها في ستة أشهر، والالتفات فقط الى أن لا تتدخل فيها ما يكون مغيرا أو مبعثا للصالح الأجنبية المعمول بها».

زول تركيا  
عن إصرارها

فأدى سعى الخديو، من جهة، السعى السابق لنا ذكره في غير هذا الفصل، ومساعي سفراء الدول الأربع المشتركة، من جهة أخرى، الى زول تركيا عن إصرارها، وقبولها تطبيق القوانين المطروحة أمام الدول لتصلق عليها، تطبيقا مؤقتا، في القطر، ورضاهما التام عن النظام القضائي العتيبة إقامته<sup>(١)</sup>.

(١) أنظر: الكتاب المرسل من السفارة العلية الى الخديو في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٨٩

لرأى (اسماعيل) أن بطرق الحديد وهو مخين . فشرع يفاوض الدول برغبته في أن يبت — وهو مقيم بالأستانة — في المسائل المختصة بالمشروع ، والتي لا تزال على بساط المناقشة . فتزود الدول سفرا معا هناك بالتعليمات والسلطة اللازمة لذلك . لأنه وإن يكن اهتمام الباب العالي بتلك المسائل بات سطحيًا ، إلا أن المناقشة فيها بالأستانة حينها ، وهو فيها ، ذات فائدة كبرى ، لتحسين المتحاربين من الحصول بسهولة على موافقة الديوان ، فيما لو نجحت مسألة يحتاج فيها إلى إحراز تلك الموافقة ؛ وأنه إذا رأت الدول أن الأمر يقتضي اشتراك متخصصين فيه فلتسرع بإرسالهم إلى الأستانة ، لأنه لم يعد في استطاعته المكث فيها إلا قليلا ؛ ولقد نظرها ، في الوقت ذاته ، بمذكرة أرسلها لكل منها وزيره الحكيم نوبار ، إلى أن أهم ما يجب اخذها عليه إنما هو الإصلاح القضائي الجزائي ، الذي قد يقرأى لبعضها تأجيله إلى أجل غير مسمى ، وإلى أهم ما تراه الحكومة المصرية في ذلك الإصلاح ، أي انخلق الدول على جمل المحاكم الجديدة مختصة بالحكم جزائيا في كل ما كان محلا بنظامها وتنفيذ أحكامها ، أو حاطا من كرامتها ، وفي كل ما يقع مغايرا للقانون من قضائها وموظفيها .

فما كان من الجنرال أجناتيف ، السفير الروسي في الأستانة ، إلا أنه استدعى السفراء لديه ، بصفته أقدمهم عهدا ، لمطالبة أفكارهم في المشروع المرغوب فيه . فاجتمعوا في ٦ أغسطس سنة ١٨٧٢ ؛ وشرح لهم نوبار باشا — وكان قد استدعى إلى ذلك الاجتماع أيضا — كل سوابق المسألة . وبعد مفاوضة تناولت أمر ردّ القضاة والمترجمين والترجمات ؛ وأمر حلول ترجمة القنصليات محل مترجمي المحاكم في القضايا التي يطلب ذوو الشأن فيها ذلك ؛ وأمر ترك تعيين رؤساء الجلسات لجمعية القضاة العمومية ؛ وأمر حضور مندوبين خصوصيين من لندن الدول سير

المحاكم الجزائية — وقد عارض (اسماعيل) فيما بعد فيه معارضة شديدة وأبى قبوله إبقاء كلياً ، فلا يقود الى تجاوزات من نوع المشتكى منها في نظام القضاء القنصل — وأمر بخل السلطة المصرية عن المحكوم عليهم من المحاكم الجديدة الى قنصلياتهم لتنفيذ العقاب فيهم بمقرتها — ورفض بتاتا — وأمر بجل المحاكم حينها ، بعد مضي سنة على تأسيسها ، مختصة بالنظر في الجرائم على أنواعها ؛ وأمر تكوين لجنة المحلفين في القضايا المختلطة بواقع النصف من الأهالي والنصف من الأجانب ، بدلا منها من جلسات المتهمين ، ارفض الاجتماع على أن يبلغ السفراء مضمونه الى دولهم .

ثم حرد نوبار باشا مشروطا للاصلاحين المدني والجزائي ، على قاعة ما اتفق عليه في تلك الندوة ، أهمل فيه ، مهوا ، ذكر اللغات القضائية ، وجوب تسجيل العقود الناقلة للكية والرهون لدى المحاكم الجديدة مع إخطار المحاكم الشرعية بها ، وأمورا أخرى أقل منها أهمية ؛ وأهمل ، عمدا ، إنشاء محكمة التمييز ؛ وقبل الخديو ، إرضاء لبعض الدول ، أن لا يسهل بالنظر في الأمور الجزائية الى المحاكم الجديدة إلا بعد مضي خمس سنوات على تأسيسها .

فأبدت فرنسا وإنجلترا والنمسا وإيطاليا بعض اعتراضات على ذلك المشروع ؛ وأهمها الاعتراضات الإيطالية على ما أهمل نوبار باشا ذكره مهوا ؛ واعتراض فرنسا على تحويل المحاكم المختلطة للنظر في الأمور الجزائية ، حتى فيما يتعلق بما كان محلا بنظامها وتنفيذ أحكامها ، أو حاطا من كرامتها ، أو مرتجبا من قضائتها وموظفيها — وهم يؤدون وظائفهم — من مغاير لقوانينها .

فاجاب نوبار إيطاليا أن السهو سيتدارك ؛ ولكنه أجاب فرنسا أنه لا سبيل الى إنشاء المحاكم المختلطة اذا لم تمنح حق النظر في النوع الأخير من التجاوزات المستوجبة

الجزء : لأنه لن يوجد في العالم قضاة يريدون أن يكون النظر فيما قد يمس كرامتهم - وهم يؤدون وظائفهم - موكولا الى غيرهم ، وأثبت رأيه بأدلة قاطعة .

تصلبت فرنسا في رأيها ، فالخ نوبار على الجنرال اجنا تيفف بجميع السفراء ليروا رأيهم في الأمر . فاجتمعوا في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٢ وقرروا تعيين لجنة لفحص ماهية الضمانات التي تقدمها الحكومة المصرية ، لتطمئن الحكومات الأجنبية اليها ، وتعتمد أنه لن يقع تجاوزات على حقوق الأجانب ، فيما اذا منحت المحاكم المخططة حق النظر في نوع الجزاءات المطالب نوبار بها ، والتي أكد أنه لا سبيل الى إنشاء المحاكم بدونها .

ففي اليوم الحادى عشر من شهر يناير سنة ١٨٧٣ التأمت اللجنة المرغوب فيها بالأسنانة ، مشكلة من السير فيليب فرنسيس القنصل البريطانى ، والمسيو تريكو القنصل الفرنساوى ، والكافالير جاكوتى المستشار بالمحاكم الاستئنافية الايطالية ، وفون جللت القنصل الألمانى ، وفون بريجر سكرتير الوكالة النمساوية ، والمسيو جنسن سكرتير الوكالة البلجيكية ، والمسترجود تاو معتمد الولايات المتحدة ، والمسيو كون مستشار وكالة هولندا ومدير ادارتها القنصلية ، والمسيو هتروفو القنصل الروسى العام وأحد أمناء ажيرة الامبراطورية الروسية ، والكونت برنيكوف القائم مقام مستشار الوكالة السويدية الترويجية ، ونوبار باشا ، ومعه المسيو مونورى مستشاره القضائى . وانضم اليها في ثالث جلساتها الدون درتارفت فريرى كاتب البروتوكول في الوكالة الاسبانية ، واتفقت تحت رئاسة السير فيليب فرنسيس ، بصفته أقدم القناصل عهدا ، ست مرات ، أى في ١١ و ١٥ و ١٨ يناير ، وأول وسادس وثامن فبراير سنة ١٨٧٣

فطرح عليها نوبار باشا، في أول جلساتها، المشروع الذي وضعتة الحكومة المصرية وشرحه شرحا وافيا في مذكرة قدمها لكل من المندوبين ومعها قائمة ببيان أنواع التجاوزات المطلوب ترك الحكم الجزائي فيها للمحاكم الجديدة .

فدار الكلام على كيفية وجوب السير في الخصما، وهل يقتضى تعيينها، تجاوزا تجاوزا، أم يفضل تعيينها، فئة فئة؛ وأية سلطة تكون مختصة بالنظر فيها قد لا يذكر منها : المحاكم الجديدة، أم القنصليات؛ فأظهر المسيو تريكو، منذ ذلك الحين، من الخشونة في المباحث، عملا بالتعليقات الواردة الى سفارة فرنسا بالاستانة من وزير الخارجية الفرنسية، ما تمتنع له القوم لدى اطلاعها عليه؛ تلك الخشونة بلغت درجة الوقاحة في الجلسة التالية، وزاد في سماحتها ما بدا من شكل تعنت صاحبها فيها. على أن الرئيس طلب الى كل من المندوبين إبداء رأيه في المذكرة ذات قائمة التجاوزات التي سلمت اليهم . فكان السيور جاكوني أقولم تكلمنا . وأهم ما يستوقف اليوم الانتباه في أقواله ما ورد فيها من أن الغرض الذي يرى اليه نوبار باشا من الإصلاح القضائي إنما هو توحيد المنصرين الأجني والأهل بمصر؛ وأنه هو، جاكوني، على أملة في أن هذا التوحيد سيتم يوما ما، لا يرى أن الوقت المناسب لذلك قد حان؛ بل يرى أفضلية بقاء المنصرين منفصلين الواحد عن الآخر، لأسباب أبداهها؛ أوجهها قلة هتتهما المتبادلة .

وتلاه المسيو هتروغو؛ فطلب وضع قائمة أعمال لكل جلسة حتى تسهل المناقشة؛ وأيده المسيو تريكو في طلبه .

فوضعت في الحال؛ ودارت المناقشة طويلا : (أقولا) في ما هي الجرائم والجح التي ترتكب ضد رجال القضاء، وهم في حال تأدية وظائفهم في الجلسات لوخاربا عنها؛

وما هي التي ترتكب ضد عمال القضاء في غضون تأديتهم وظائفهم ؛ (ثانيا) في ما هي الجرائم والجنح التي ترتكب ضد نفاذ الأحكام ، وعمال الضبط والربط الذين يحضرون تنفيذها ؛ (ثالثا) في ما هي الجرائم والجنح التي ترتكب من رجال القضاء وعماله — وهم يؤدون وظائفهم — أو ترتكب منهم كنتيجة تجاوزهم في تأدية وظائفهم . فوفى البحث في البابين الأولين ؛ وأجلت بقية البحث في الباب الثالث الى الجلسة التالية . وفي الجلسة التالية ، بعد أن دحض نوبار باشا زعمه المرحلت ، وأيده فيه المسيو هتروغو بوجوب حفظ النظر في جزاء من يقتل أحد رجال القضاء العتيد ، للقنصليات ، استؤنف البحث في الباب الثالث السابق ذكره ، ووفى ؛ ثم انتقلت اللجنة الى فحص ماهية الضمانات التي تترج الحكومة المصرية تقديمها ، ليطمن الغريبون ويسكنوا اليها . فتناقشت طويلا في الموضوع . وأهم ما استطقت اليوم النظر في تلك المناقشة أمران :

(الأول) تشدد نوبار باشا في أن يكون للأهالي نصيب في العضوية ، سواء أكان في بلان المحلفين ، أم في محكمتي الجنح والجنايات ؛ وتشدد المسيو تريكو في أن لا يكون لم ذلك النصيب مطلقا ، واغراقه في هذا التشدد الى حد إعلان أن عدم وجود العنصر الأهملي في جميع الهيئات القضائية الجزائية شرط لا يمكن لدولته أن توافق بدونه على جعل المحاكم الجديدة مختصة بالنظر في ذات التجاوزات الجزائية الجزئية المطلوب اختصاصها فيها ؛ كما أنها ترى هذا الرأي أيضا فيما لو رفضت الحكومة المصرية إعطاء الضمانات المطلوبة منها كافة .

(الثاني) حية المندوبين في الذي يجب عمله اذا رأت قنصلية ما أن التهمة الموجهة الى متهم غير داخله ضمن الجرائم أو الجنح المفوض الحكم فيها الى المحاكم

الجليلة، وانفلاق عقول أولئك الرجال الأفاضل دون الإيضاح الجلى البين المقدم من الموسيو مونورى فى الموضوع . ولولا أنه يجب على المؤرخ أن يراعى عقلية كل جيل لإبداء حكمه عليه، وأن العقلية الغربية فى تلك الأيام كانت متأثرة بقلة الثقة فى عدالة الشرق والشرقيين ، تأثرا بليغا، ومشغولة بخاوف كبيرة من تداخل الإدارة المصرية فى شؤون القضاء المخطط - مع أنه لم يكن من مسوغ لانسغالها - لحكمتنا على أولئك المندوبين بالنبأوة المطبقة، وعلى مداولاتهم بالهتر الكلى . وانقضت هذه الجلسة الثالثة، بعد تعيين لجنة لصحير الاقتراحات التى تقرها الحكومة المصرية، والاقتراحات التى ترفضها .

وفى الجلسة الرابعة أعلن الموسيو مونورى أن الحكومة المصرية أقرت ذات الاقتراحات التى كانت رفضتها سابقا بعد إدخال بضعة تعديلات عليها بموافقه أعضاء اللجنة . فتمكنت اللجنة، بذلك، من وضع بيان بالضمانات المطلوبة والمعطاة كلها . ثم قرأ ماحرته اللجنة ، وهو الذى نراه اليوم فى القانون المخطط ، فى باب اختصاص المحاكم، وباب التحقيقات الجزائية والتنفيذ .

فوافق المندوبون عليه ، وقرر توزيع نسخة منه على كل مندوب ليبدى، بعد فحصه ، الملاحظات التى يرى إبداءها بشأنه، وكلف الرئيس حضرات المندوبين تريكو وچانسن ومونورى بجهيز مشروع تقرير عام، يكون عمل اللجنة قاعدته .

وفى الجلسة الخامسة أراء الموسيو هيترو فى الرجوع عما تم . فعذل السير فيليب فرنسيس ونوبار باشا رأيه، وبعد ملاحظة أبداءا الموسيو كين على ذكر اختصاص المحاكم بالنظر فى المخالفات البسيطة، ومصعبا حالا، عقب شرح أبداء الموسيو تريكو والموسيو مونورى والسيور چياكونى، وتأكيد صدر من نوبار باشا بأنه مادامت الدول قد صدقت



على ذلك الاختصاص، لما صُنِّحت على الإصلاح القضائي المدني، فلا يهمل أن تذكر المخالفات أم لا تذكر في الموضوع الذين هم في صدره، أقبل المندوبون يفتحون تقرير اللجنة، بندا بندا، فأدى لخصمهم إلى مناقشة هامة فيمن يصح ومن لا يصح قبول شهادته من الشهود؛ وأتمى بهم الأمر إلى تقرير المادة الموجودة الآن في القانون الخاصة بمن يجوز رده من الشهود؛ وذلك بالرغم من اعتبارات في مثني الوجاهة، أبدأها السير فيليب فرنسيس فأبدا لمبدأ القائل يجوز سماع شهادة الأهل والأقارب. وعلى ذلك أرفض الاجتماع.

وفي الجلسة السادسة استؤنف فحص تقرير اللجنة. فأعاد المسيو هيتروغو البحث في احتمال تعدى المحاكم الجديدة، في تحقيقاتها الجنائية، على حقوق القنصليات. فأدى ذلك إلى مناقشة، نجم عنها النص الخاص الموجود في القانون المخطط، المحظر على قاضي التحقيق بالمحاكم المختلطة التداخل في تحقيق الجنائيات والجنح العادية؛ وصلى، فيما عدا هذا، على تقرير اللجنة. ثم تلى مشروع التقرير العام الذي كلف بوضعه المندوبان تريكو وجانسن بمساعدة المسيو مونوري؛ وأرفض الاجتماع.

وعقد المندوبون، بعده، اجتماعا أخيرا في ١٥ فبراير سنة ١٨٧٣ صادقوا فيه على محاضر الجلسات الست، وعلى التقرير العام، ووقعوه. ثم شكروا الرئيس، السير فيليب فرنسيس، عملا باقتراح المسيو تريكو؛ ورفضوا تقريرهم العام إلى سفراء دولهم لدى الباب العالي. فأرسله السفراء إلى حكوماتهم، وأرشفوا به اللائحة النهائية التامة التي وضعها نوبار باشا عقب تلك المداولات لترتيب القضاء المختلط.

تمدني بريطانيا  
المعظمى وإيطاليا  
على الإصلاح نهائيا

فصادقت على الإصلاح نهائيا : بريطانيا العظمى في ٢٦ مايو، وإيطاليا في ١٩ يونيو سنة ١٨٧٣؛ ومع أن مدير شركة ترعة السويس بعث إلى وزير الخارجية الفرنسية كتابا

بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٨٧٣ يرجوه فيه، باسم الشركة ومصالحها، واسم المائتي ألف أجنبي الموجودين في القطر، بالمساعدة على إنهاء المخازنات، وتأسيس القضاء المختلط بالقطر، رحمة بمصالح الجميع، أبت فرنسا إلا خلق عراقيل جديدة، بشأن اختصاص المحاكم العتيبة في النظر في التفليسات — زعمها أن التفليسات داخلة في نظام الأحوال الشخصية، المختر على تلك المحاكم النظر فيه — وبسبب كيفية تعيين رجال القضاء .

فاضطر نوبار الى دحض زعمها الخاص بالافلاس بكتاب فصيح تاريخه أول أبريل سنة ١٨٧٣ ؛ ولكنها أصرت عليه ؛ وفاقحت في الشأن الحكومات الأخرى . فالت فرنسا والروسيا الى سحب بعض ما سلم به متدوباها في الأستانة ؛ ولجم من ذلك صعوبات وعراقيل جديدة، رأى الخديو معها أن يبعث الى نوبار باشا بالامتناع عن إجراء أى عمل في شأنها، حتى يقدم مموه الى الأستانة بنفسه .

ثم سافر اليها سفرته الشهيرة في يونيه سنة ١٨٧٣ ؛ وأقام هناك الإقامة التي رأيناها ينال في خلالها كل ما أراد نيله من مراميه ؛ وأهمها التصريح له بسن جميع القوانين واللوائح الداخلية، التي يراها صالحة للبلاد ولازمة لها . فكان ذلك بمثابة مصادقة رسمية صريحة من لدن السلطنة العثمانية على القوانين المختلطة التي وضعتها الحكومة المصرية وكانت لا تزال شبهة، في موافقة الحكومة العثمانية عليها ، معلقة في أذهان الدوائر السياسية الغربية ، في الأستانة وأوروبا، بسبب الإبهام والغموض الواردين في ترجمة الكتاب المرسل من المصدر الأعظم الى الخديو بتاريخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٩ - ١٩ يولييه سنة ١٨٧٢ من التركة الى الفرنسية .

ولكن الصعوبات التي أنشأتها الحكومة الفرنسية بشأن دعاوى الافلاس ما فتئت، بالرغم من ذلك ، قائمة ؛ والمفلوضات التي أوجبتها بين الدول سائرة .

تصديق الدولة  
عليه

استمرار فرنسا على  
المعارضة

وبلغ النزاع أشده بين الحكومتين المصرية والفرنساوية في شهر نوفمبر سنة ١٨٧٣، إذ جاهر نوبار باشا للفصل الفرنسي العام بالقطر المصري بعدم تمكن حكومة الخديو من تغيير شيء مطلقا فيما أقره مندوبو الدول، وصلى معظمها عليه في شأن قضايا الافلاس .

وربما كان السبب الذي حمل نوبار باشا على المجاهرة بذلك القول أخبار السوء المبالغ فيها، الواردة عن فرنسا في الجرائد الأجنبية، والتي جعلت القوم بمصر يعتقدون ذلك البلد ممزقا تمزقا على أيدي الأحزاب القائمة فيه عقب انخزال فرنسا في الحرب السبعينية .

فما كان من الفصل الفرنسي إلا أنه أجاب على قول نوبار باشا « بأن مصر هي الراغبة في إجراء الإصلاح القضائي، لا فرنسا، وأن هذه الدولة إزاء ذلك الرضا لا ترى سوى الامتناع عن المخاطر، حتى تأتيها خارجية مصر باقتراحات يمكنها قبولها » .

فلما علمت نتيجة تصويت ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٧٣، وثا قد الملامن قيام حكومة منظمة بفرنسا، عاد نوبار إلى مخبراته، وحاول الاتفاق مع المتمد الفرنسي على تعديل يوفق بين طلبات الفريقين . ومع تمسك المتمد الفرنسي بالطلبات الواردة إليه من الخارجية الفرنسية، رأى من الواجب عليه تهميم تلك الوزارة بأن البقاء على الحال القضائية المعمول بها في ذلك الحين أمر محال وضار، الضرر كله، بالمصالح الفرنسية ذاتها، لأنها حال فوضى حقيقية .

تصديق  
والولايات،  
التبان

وكانت حكومتنا النمسا والولايات المتحدة قد اقتدنا، في الأثناء، بحكومتى إنجلترا وإيطاليا، وصادقتا على آخر لائحة وضعت لتنظيم المحاكم الجديدة، مشرطين موافقة

مجلسي إوابهما عليها ، واتبعتهما ، بعد قليل ، الحكومة الألمانية أيضا في أبريل سنة ١٨٧٤ ، كذلك كانت عقول الجالية التجارية الفرنسية بدأت تتفتق الى فهم المضار الناجمة لصالح الفرنسية من استمرار حكومة فرساي معارضة في الاصلاح ، ومتفردة في عنادها عن باقي الدول ، فلم يحجم المعتمد الفرنسي عن اعلام رئيسه ، وزير الخارجية ، بذلك ، بل إنه أرسل اليه في ٢٥ يناير سنة ١٨٧٤ حريضة مؤرخة ١٥ يناير عيته قدمها اليه نائباً الأمة الفرنسية بمصر ، المسيو موسو ، والبارون ديور دى جلثون ، موقعة منهما ومن ستة فرنساوين مشغولين في مشروعات أشغال عمومية هامة ، يلتمسون فيها بالالحاق موافقة الحكومة الفرنسية ، السريعة ، على الاصلاح ، لئلا تتعطل مصالحهم ومصالح باقي أفراد الجالية .

فإزاء ذلك جميعه ، رأى وزير الخارجية الفرنسية ، قبل الاقلاع عن خطته والانضمام الى الدول المصادقة ، أن يعين بالاتفاق مع زميله ، وزير العدلية ، لجنة خصوصية لتعحص الموضوع تحت رئاسة المسيو قنت ، وكيل وزارة العدلية هذه . فعينت ، وبعد أن باشرت عملها ، وقامت بمهمتها قياما دقيقا ، رفعت في يونيو سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الفرنسية تقريرا بليغا يعبر عن رأى ثمانية من أعضائها التسعة ، وينسبر على الحكومة الفرنسية بقبول الاصلاح القضائي ، في الحال التي وصل اليها ، أسوة بباقي الدول ، واجتنابا لبقاء فرنسا وحيدة في مضمار المضار فيه كثيرة وكبيرة ، والفائمة معدومة .

ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من أن الخديو — لاعتقاده أن الطريق مهدت نهائيا ، وأن تشغيل المحاكم الاصلاحية بات مستطاعا — أقبل يخطب بعض الدول في شأن القضية اللازمين لها ، وطلب الى حكومة ايطاليا ارسال الكاثاليريچيا كوني

مقاومة فرنسا  
المقاومة الأخيرة

ليكون المستشار الإيطالي في محكمة الاستئناف العتيقة، استمرت الحكومة الفرنسية على مخاوفها، وعلى معارضتها في أمر التفليسات . وأضافت الى ذلك تشككا في تعيين قاضيين من جنسيات الدول السبع، المثلة في لجنة القاهرة سنة ١٨٦٩ لدى محاكم أول درجة ، هذا المستشار المرغوب في تعيينه ، من جنسية كل منها ، في محكمة الاستئناف ، وإن لم يمكن ، فعين فرنساويين عضوين في النيابة العمومية .

فرأى الخديو ، عملا بنصيحة السفيروچيا كوفى الذى كان قد قدم القطر في شهر يولييه من السنة عينها ، أن يلغى النص الخاص بالتفليسات من لائحة ترتيب المحاكم وقائمة اختصاصاتها ، لكي يجزئ المعارضة الفرنسية من سلاحها ، وأن يجيب الحكومة الفرنسية الى مطالبها المشتركة مع مطالب الحكومة النمساوية ، وأغنى بها : بقاء القناصل وأتباعهم خارجين عن دائرة اختصاص المحاكم الجديدة ، وكذلك معاهد العبادة والعلم ، والفصل في القضايا القائمة ، قبل استتباب تلك المحاكم ، بطريقة استثنائية يتفق عليها فيما بعد ، وجلس قاض أو مستشار من جنسية المدعى عليه دائما في الجلسات التي تنظر قضيته أمامها ، ولكنه ، مع هذه زيادة عدد القضاة فرنساويين ، فيما لو أنشئت دوائر جديدة في المحاكم العتيقة ، خلاف المنشأة بموجب لائحة الترتيب ، رأى نفسه مضطرا الى عدم إجابة الحكومة الفرنسية الى طلبها ، المقصود منه تعيين قاضيين تابعين للدول السبع المذكورة في محاكم أول درجة .

رفع المعتمد فرنساوى الى وزارة الخارجية ، برسائل ، المذكرة المرسلة اليه من شريف باشا ، والمبين فيها كل ما قبل الخديو به حسما للنزاع ، ونصحه مرة أخرى بالاقلاع من المعارضة ، وقبول الإصلاح . فأجاب الوزير بالصادقة على ماورد

في مذكرة شريف باشا، وواعد بعرض ما جاء فيها ولائحة ترتيب المحاكم الإصلاحية على الجمعية الأهلية العمومية حالما تجتمع لتصلق عليهما معا . فامضى المعتمد الفرنسي ساوى مع شريف باشا في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧٤ محضرا ذكرت فيه التعديلات المتفق والمصادق عليها ، وأرسله ، ممهورا بمضائه وامضاء الوزير المصري ، الى الخارجية الفرنسية . فاعلمت هذه الوزارة ، بما جاء فيه ، عموم المعتمدين الفرنسيين ، بمشور أرسلته اليهم ، وأبلغت الحكومة الفرنسية الحكومة المصرية في ديسمبر سنة ١٨٧٤ مصادقتها على مشروع الإصلاح القضائي ، مؤقتا ، حتى ترى الجمعية العمومية الأهلية رأيها فيه .

ولكنها عادت ، بعد ذلك بقليل ، وفتحت باب مشكلة جديدة بخصوص مقاصد الحكومة المصرية الاحتمالية في أن ترفع الى المحاكم العتيقة ما قد يشجر من منازعات بينها وبين أعضاء الجاليات الأجنبية بشأن الرسوم والأموال والضرائب ، وكلفت معتمدها بالاسكندرية بالحصول على ضمانات أكيدة تقي اتخاذ الخديوي تلك المحاكم وسيلة لعسف يوقعه على الغربيين في باب المطالبة بالأموال الأميرية ، فلم تلقت الحكومة المصرية الى هذا التحك الجديد ، وأعلن شريف باشا المركيزدي كازو ، المعتمد الفرنسي بالقاهرة ، بأن الخديوي ، بعد مصادقة برلمانات معظم الدول على الإصلاح القضائي ، وحضور معظم القضاة المعينين للمحاكم الجديدة ، لم يعد يرى بدنا من إقامة هذه المحاكم ، وأنه حين يوم ٢٨ يونيو سنة ١٨٧٥ لإجراء تلك الحفلة الرسمية ، ويوم ١٨ أكتوبر التالي لبده التفاضي أمام الهيئة الإصلاحية الجديدة ، وأنه يرجو أن الجمعية الأهلية العمومية الفرنسية تكون قد تمكنت ، هي أيضا ، قبل تاريخ ٢٨ يونيو

المذكور، من اعتماد الاصلاح حتى لا تحرم مصر مساعدة أنوار معارف رجال القضاء الفرنسيين، قبل شروع تلك المحاكم بمباشرة أعمالها .

فأعاد وزير الخارجية الفرنسية الكرة ، وطلب من معتمد فرنسا بمصر الضمانة السابق طلبها منه بشأن الأموال والضرائب والرسوم الجمركية . فمادت المفاوضات بشأنها بين هذا المعتمد وشريف باشا . فأكد فيها الوزير المصري بناء على أمر صريح من (اسماعيل) اختصاص المحاكم الجديدة بالنظر في المنازعات التي قد تقيم بين المصالح الأميرية المصرية والأجانب بخصوص الرسوم الجمركية والأموال والضرائب المقررة والتي ستقرر ، وعزم الحكومة المصرية الأكد على عدم قبول تناخل القنصليات في ذلك جميعه .

فلما رفع المركيزدى كازو هذا التاكيد الى اللوك ديكاكز، وأصله أيضا بتحديد يوم ٢٨ يونيه سنة ١٨٧٥ ترتيب المحاكم، سقط اللوك في يده، وامتنع قلبه، وعادته ضافوه السابقة . فرأى أن يوقف مصادقة الحكومة الفرنسية على مشروع الاصلاح القضائى حتى يبيد لخص الاحتياطات التي يتهم عليه أخذها مبدئيا لتلا تضام المصالح الفرنسية .

ولكى يصل الى هذا الغرض بكيفية أكيدة صحيحة رأى أن يستشير فى الأمر محكمة إكس الاستثنائية لاحتقاده أنها ، بصفتها المحكمة التي تستأنف أمامها أحكام محاكم مصر القنصلية ، أدرى الهيئات النظامية كلها بالمصلحة الفرنسية الحقيقية بالقطر المصرى . فالتدبت محكمة إكس لجنة من مستشاريها لفحص الموضوع وتمحيصه وتقديم تقرير ضافى الذيل اليها تبنى عليه إجابتها على الوزارة .

تقرير لجنة محكمة  
الأكس

فاجتمعت تلك اللجنة وتباحثت ؛ ثم كلفت الميسورولان ، أحد أعضائها ، بوضع التقرير الذى أدت مباحثها الى الاتفاق عليه . فوضعه وقدمه الى المحكمة ؛ واذا به يظن على المشروع طعنا مرة ؛ ويشير بطرحه جانبا ، كلية ، وعدم العدول من النظام القضائى الفنى ( ١٧ يونيه سنة ١٨٧٥ ) ؛ وبخى رأيه هنا على السببين الآتيين :

(أولاً) أن العداء والحصام القائمين منذ الأزل بين الأجناس الإسلامية والأجناس المسيحية لا يزالان مستمرين على شفتيهما الأصلية .

(ثانياً) أن الوحدة بين تلك الأجناس فى المدنية والعادات والعقيدة الدينية غير موجودة بتاتا . فلا يحسن ، والحالة هذه ، تحرير محاكم واحدة لها جميعا ؛ لا سيما أن الأسباب التى قضت بإيجاد نظام الامتيازات لا تزال موجودة كما كانت<sup>(١)</sup> .

ولما كان هذان السببان لا يخرجان فى الحقيقة عن أنهما مجرد تأكيدين ، لا حجة تؤيدهما ، انبرى رجال فرنساويون صليبيون من أرباب التقنين والقانون الى دحضهما وإبطالهما .

على أن الأمور كانت ، أثناء كل هذه المباحث والمفاوضات العقيمة ، تجري مجراها حثيثا : فان القضاة والمستشارين الواقع اختيار الحكومة المصرية عليهم ، كانوا ، بموافقة دولهم ، قد أتموا القطر المصرى مقر وظائفهم الجديدة ؛ واجتمعوا كلهم ، ماعدا فرنساويين ، بالاسكندرية فى الثالث الأخير من شهر يونيه سنة ١٨٧٥

(١) أنظر هذا التقرير فى جملة التقارير والوثائق الخاصة بالإصلاح القضائى ، بمكتبة محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية .



حفلة استقبال  
القضاة الأول

فاستدعاهم الخديو الى الحفلة الحافلة التي عين لها يوم ٢٨ منه ؛ واستدعى اليها أيضا جميع قضاة الدول ومعتمديها ما عدا المعتمد الفرنسي . فأسرع جميعهم وأتم سرائى رأس الثين رسميا .

فاستقبل شريف باشا وزير الحفانية والتجارة وفودهم ، وأكرم وفادتهم ؛ ثم سار بهم الى قاعة الاستقبال الكبرى حيث كان قد سبقهم الأمير (محمد توفيق باشا) ولى العهد ووزير الداخلية ، ومنصور باشا صهر الخديو ، واسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونخبة من كبار أرباب المناصب العليا . وما انتظم قدمهم فيها إلا ودخل طيهم (اسماعيل) مصحوبا برجال معيته السنية ؛ فحياهم ببشاشته المعهودة ، ثم خاطبهم قائلا :

« يا حضرات السادة ، إن تعضيد صاحب الجلالة السلطان الأعظم ، ملكي الأكرم ، ومضاورة الدول المريدة الخير ، يكفاني من إقامة معاهد الإصلاح القضائي ، واجلاس المحاكم الجديدة على منصبتها . واني لسعيد برؤيتي رجال القضاء المنفوقين الأكارم الذين أكل الهمم بوثوق تام عهدة إحقاق الحق مجتمعين حولي ؛ فان المصالح كافة سمجد في أنوار معارفكم طمأنينة كاملة : فتقابل قراراتكم من الجميع بالاحترام والطاعة . إن هذا اليوم أيها السادة سيكون من أيام التاريخ المصرى المعهودة ؛ ولسوف يعد فاتحة عصر مدنية جديد . واني لمقتنع أن مستقبل العمل العظيم الذى أنشأناه معا قد أصبح بمون الله تعالى أمرا مضمونا ! » .

فرد شريف باشا على سموه باسم القضاء الجديد وكأنه لسان حاله . فرجا منه أن يقبل تهنئته على عمل الرقى العظيم الذى تم على يديه ، وشعور شكر القضاء الجزيل على الثقة التى تفضل وعهد بمقتضاها الى إخلاصهم مصالح البلد الكبرى ومستقبله . وأكد

له أن الهيئة القضائية المصرية الجديدة تقدر مهمة إحقاق الحق إلى عهد سموه بها إلى حكتها وإخلاصها وشرفها حتى قدرها، لاعتبارها إياها ميزة من أهم ميزات سلطته السامية، تفضل وخصها بها، وأنها تعد نفسها سعيدة أن مثل هذه الثقة الكريمة النبيلة قد وضعت فيها، فتستمد من أفكار سموه الصاعدة الممدنة ما تستعين به على القيام بأموريتها الرفيعة، القيام الأمثل، مع تقديم عملها الفعال لإنجاح جهوده المتأخرة؛ لأنها مستطلع حتما إلى مجد نقش اسمها على صفحات قلوب الأجيال التالية، بأنها كانت ممن تم على أيديهم العمل العظيم المرتبطة سعادة مصر به، والذي يعتبر بلا ريب من أسنى مفاتر ملك سموه.

استقرار فرنسا على  
ماعتها

ورغم ذلك جميعه استمرت فرنسا على ممانعتها وترددتها وامتناعها. وكتب وزير خارجيتها في أول يولييه سنة ١٨٧٥ إلى سفراء فرنسا لدى حكومات ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وروسيا يبلغهم الخلاف ذا الشأن الخطير، على زعمه، القائم حديثا بين الحكومة الفرنسية والحكومة المصرية؛ ويكلفهم باستطلاع آراء تلك الدول في موضوعه. فرأت الحكومات التي أخبرها أن يؤجل فتح المحاكم إلى أول يناير سنة ١٨٧٦؛ وأجاب (اسماعيل) أنه لا يأتي ذلك. فأخطر نوبار باشا المعتمدين الأجانب في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بذلك التأجيل المطلوب؛ وربما أن تتمكن الجمعية الأهلية العمومية الفرنسية من المصادقة على الإصلاح في غضون المهلة الجارية.

وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ رفعت الفرقة التجارية بمرسيليا إلى وزارة الخارجية الفرنسية عرضا التمت فيه باسم أشهر المحلات التجارية في ذلك الفرع مبادرة الحكومة الفرنسية إلى المصادقة على مشروع الإصلاح القضائي بمصر؛ وأرقت

بعرضها كتابا طلب تجار مرسيليا اليها رفعه الى الخارجية وتقريرا اضافيا صادرا من الغرفة التجارية عينها تأييدا لاعتقادها . ولكن فرنسا استمرت مع ذلك مقيمة على ترددتها .

تهديد  
الحكومة المصرية  
بالغاء محكمتي  
التجارة بمصر  
والاسكندرية

فلما رأت الحكومة المصرية منها ذلك ، ووجدت أن استمرارها على تلك الخطة قد يؤدي الى تأجيلات ومماطلات جديدة ، أنذرتها بأنها ستقرر إقفال محكمتي التجارة الموجودتين بمصر والاسكندرية ؛ فلا يعود للفرنسيين سبيل الى مقاضاة الأهالي أو الأجانب على السواء في المواد التجارية مطلقا .

ومحكمة التجارة بمصر والاسكندرية كانتا محكمتين مختصتين بالنظر في القضايا التجارية المرفوعة من الأجانب على الأهالي ، وبالعكس ، والمرفوعة من أجانب على أجانب غيرهم . وكانت كل منهما مشكلة من رئيس وطني قلما كان يدرى شيئا من شؤون التجارة أو قوانينها ، ومن محلفين وطنيين ، ومحلفين أجنبيين لا يدرون شيئا بالمرّة من القوانين ، ويحكون في الغالب إما طبقا للبداهة والعادات ، اذا كانوا زهاء ، وإما طبقا للأهواء ، اذا كانوا ممن تلعب الرشوة بضائهم .

وكانت الأحكام الصادرة من إحدى المحكمتين تستأنف أمام الأخرى ؛ فتتشكل هذه حينذاك من الرئيس عينه وأربعة محلفين وطنيين ، وأربعة محلفين أجانب .

وكان لدى كل محكمة : مترجم وباشكاتب وكتاب ومحضرون معينون كلهم من لندن الحكومة المصرية ، ويتقاضون رواتبهم منها متى تفاضوها . كذلك كانت وزارة الحفائية تعين أيضا رئيس كل محكمة من المحكمتين بالراتب الذي تراه .

ولا أدل على قلة مبالاة أولئك الرؤساء بالمهمة الموهودة اليهم مما رويته عن علي شريف باشا وحصانه فيما سبق ؛ كما أنه لا أدل على قلة درايتهم في الغالب من

معرفة أن رئيس المحكة التجارية بالاسكندرية، وقت ترتيب المحاكم المختلطة، كان ديمتري بك بشاره، في حين أن مترجمها، في بعض جهده، كان بطرس ظلى باشا، الوزير المصرى الشهير، الذى قتله الوردانى في ٢٠ يناير سنة ١٩١٠، والفرق بين مدارك الرجلين ومعارفهما وعتق ذهنيهما كالفرق بين الليل والنهار ! وأن سلف ديمتري بك المذكور كان رجلا تركيا يقال له الأتلى بك، يكاد لا يعرف القراءة .

وكان المحققون في تبتك المحكمتين ينتخبون من بين أربعة وعشرين تاجرا بمصر، ومن عدد أكبر من هذا بالاسكندرية، تكتب أسمائهم في كشف تقدمه المحافظة الى وزارة الحفانية؛ فتمين هذه اثنى عشر منهم محققين أصليين واثنى عشر آخرين نوابا عنهم في حال غيابهم أو اضطرارهم . أما المحققون الأجانب فكانت الحكومة تنتخبهم من بين عنة من وجهاء تجار الجاليات الغربية، تهتم التفصيليات كشوقا بأسمائهم الى الوزارة عينا .

وهذه هى القاعدة المتبعة الآن في المحاكم المختلطة في انتخاب المحققين، سواء أكانوا من الأهالى أم من الأجانب، ولا شك في أنها من بقايا النظام القديم . والتعديل الوحيد الذى أدخل عليه هو أن التجار الواردة أسمائهم في الكشف هم الذين ينتخبون الآن المحققين، والمحكة التجارية المختلطة هى التى تصادق بعد ذلك على انتخابهم، لا الحكومة المصرية كما كان سابقا .

فلما وصل انذار الحكومة المصرية الى الخارجية الفرنسية، وطلبت هذه من جهة أخرى أن امتناع فرنسا عن الموافقة، بعد موافقة باقى الدول، إنما يضر فى الحقيقة بفرنسا والمصالح الفرنسية وحدها دون غيرها، عرضت المسألة على الجمعية العمومية — وكانت لا تزال منعقدة — وطلبت اليها بت الرأى فيها .

موافقة فرنسا بعد  
التي والتها

فبالرغم من أن بعض الخطباء ، من عبي الكلام لهجته ، وجدوا الفرصة سانحة ليعرقوا في إعجابهم بمفان فرنسا الماضية ، وبما كان لها من الأهمية في المسائل الشرقية على الأخص في أيام فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر ، ولتندحوا بذلك الإعجاب إلى الإصرار على رفض المشروع ، بالرغم من أن فئة مدينة من قواب الأمة انضمت إلى أولئك الخطباء وقاومت المشروع مقاومة عنيفة ، فإن أغلبية الجمعية العمومية رأت في نهاية الأمر وبعد جدال شديد أن تقرر الواقع وتصادق عليه ، في أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٥

فيتضح من تفصيلات ما ذكرنا أن أمر توحيد الشرائع والقوانين والمحاكم ليس من مبتكرات اليوم ؛ وأن الحكومة المصرية قد رمت إليه منذ نيف وخمسين عاما ، وكادت تبلغ بنيتها منه ، بفضل اجتهاد الخديو (اسماعيل) ونوبار باشا ووزيره الحكيم لولا معارضة الحكومتين التركية والفرنساوية ، وجولتتهما بينها وبين أمنياتها ، وتمكنهما في نهاية الأمر من عدم ادخال الإصلاح إلا مبتورا : الشيء الذي قيد المستقبل في نصف دائرة الفوضى القضائية القديمة ؛ وجعل مصر تزح حتى يومنا هذا تحت ثقل التجاوزات الامتيازية الموجهة حتما ثقل تجاوزات قوانين الأحوال الشخصية .

فلما وافى أول يناير سنة ١٨٧٦ افتتح رياض باشا — وكانت وزارة الحفانية المصرية قد عهدت إليه — عهد العدالة الجديد في القطر المصري ، افتتاحا رسميا حقيقيا ، بتقليده قضاة محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة وظائفهم ، تقليدا طليا ، على أن يكون بدء أعمالهم في أول فبراير التالي ، لكي تتمكن الحكومة الفرنسية في هذه المهلة من الموافقة على القضاة الفرنسيين الذين يختارهم الخديو ، ويتمكن هؤلاء من الوصول إلى مقر وظائفهم .

وما وافى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٦ إلا وكان كل القضاة في أماكنهم، وأخذت المحاكم الإصلاحية تقيم معالم العدالة على قاعدة القوانين الجديدة . غير أن القضاة الفرنسيين لم يحضروا إلا بعد ذلك بفترة .

هكذا زالت آخر حقبة من السبيل المؤدى إلى الاستقلال، بزوال سلطة القنصليات الأجنبية المدنية من جانب السلطة المصرية المحلية؛ ولولا تمت فرنسا وتصلبها، الذى لا مبرر له غير مخاوف مخيفة لا يابى التاريخ لها، لزالَت سلطة القنصليات عينها الجنائية أيضا وليأت دولها القائمة في جسم دولتنا المصرية في خبر كان منذ نيف وخمسين سنة .

على أننا نستطيع أن نقول بحق إن (اسماعيل) بعد أن أزال سلطة شركة السويس التجاوزية على ضفاف القناة؛ وأبطل حقوقها المثقلة عواهن الحكومة المصرية بمقتضى الامتياز الممنوح من سلفه لتلك الشركة؛ بعد أن قير مجارى الوراثة، من الأرشد فالأرشد في أسرة (محمد على) إلى الابن البكر فالابن البكر من ذريته؛ بعد أن أبدل صفة "الوالى" الحقة، التى كان يشترك فيها مع باقى ولاية الدولة العثمانية بلقب "مخدوم" الفخيم؛ بعد أن نال جميع الحقوق الملكية المناسبة لتلك اللقب الجديد، والى أصبح بموجبها مستقلا تمام الاستقلال في بلاده، وحمل الحكومات الأجنبية على اعتماد تلك الحقوق اعتمادا دوليا؛ بعد أن أزال جزءا كبيرا من السلطة التجاوزية التشريعية والتنفيذية التى أوجبها في بلاده نظام الامتيازات الجائر؛ بعد أن نقل الحدود المصرية نحو الجنوب إلى ما يقرب من خمس عشرة درجة، ونحو الغرب والشرق إلى ما يقرب من درجة ونصف — وهو ما منفصله في الباب الثالث التالى — أصبح عفا في أن يدبر أن الخطوة التى وضعها لنفسه لما ارتقى عرش أبيه وجده قد تحققت؛ وأنه بلغ في أقل يوم من سنة ١٨٧٦ أوج عزه وذروة مجده !

بلغ الأوج

تقرير العمل  
بالتاريخ  
الغريغوري

ولكى يكون آخر عمل بعمله في ذلك السبيل الذي وضعه لنفسه مشعرا بحقيقة  
صراميه ، فانه ، في هذا اليوم عينه ، أى أول يناير سنة ١٨٧٦ ، أمر باستبدال التاريخ  
القبلى المعمول به في دوائر الحكومة الرسمية بالتاريخ الغريغورى المعمول به في عموم  
الدول الغربية المتمدينة ؛ كأنه يريد أن يفهم أوروبا وأمريكا معا أن مصر — منذ أن  
توج الإصلاح القضائى ، على الطريقة الغربية ، مساعى ملكها الحديث غير المتقطعة  
نحو اقامتها مستقلة في المركز اللائق بها في مصاف الدول — قد أصبحت في الواقع ،  
لا في التعبير المجازى فقط ، « قطعة من أوروبا » كما أكد هو نفسه .

— — — — —





تم المجلد الأول

ويليه المجلد الثاني ؛ وأوله : ( الباب الثالث من الجزء الثالث

المعنون " رابعة النهار " )

---





## هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع لمزلة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي النظرون وروبانته وأديرته ومختصر البطاقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآت المعمارية
- ٢٣ - صفوة العصر
- ٢٤ - المماليك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان

Bibliotheca Alexandrina



0354356

**MADBOULI BOOKSHOP**

**مكتبة مذبولي**

6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ب ٥٧٥٦٤٢١